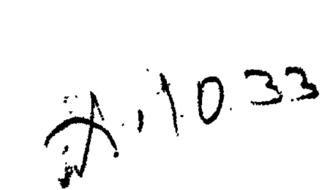
ادب - ع

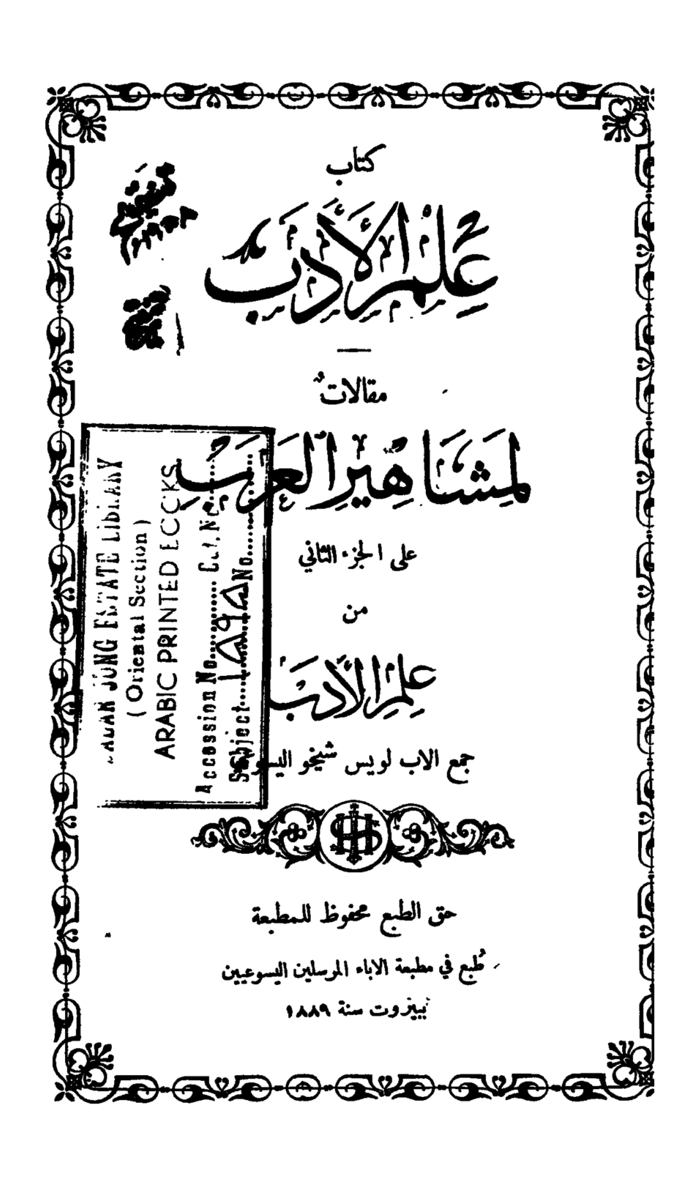
حصہ دوم

12x20 سنٹم

صفحات 426







كتاب

علم الأدب

مقالاتٌ

لمشاهير العرب

على الجزء الثاني

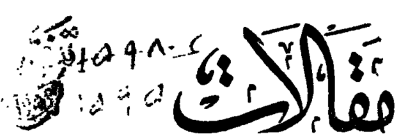
من

علم الأدب

جمع الاب لويس شيخو اليسوعي

طُبع في مطبعة الآباء المرسلين اليسوعيين

بيروت سنة ١٨٨٩



مقالات

لبعض مشاهير كتاب العرب

في الخطابة والشعر

ألقسم الأول

في علم الخطابة

الفصل الاول

في تعريف الخطابة واقسامها ومنافعها

البحث الاول

في تحديد الخطابة وما تشتمل عليهِ بوجه الاجمال

(عن كليَّات ابي البقاء ومقدمة ابن خلدون ورسائل ابن سينا)

(راجع صفحة ٣ من الجزء الثاني من علم الادب)

اَلخطَابَةُ فِي اللُّغةِ كَالخِطَابِ وَهِيَ المُكَالَمَةُ اوِ اللَّفظُ المتوَاضَعُ عَلَيهِ المَقصُودُ بِهِ اِفهَامُ مَنْ هُوَ مُتَهَيِّئٌ لِفَهمِهِ وَهُوَ يُطلَقُ عَلَى الكَلَامِ النَّفسِيّ المُوَجَّهِ نَحوَ الغَيرِ لِلإِفهَامِ . وَعِندَ الحُكَمَاءِ الخَطَابَةُ هِيَ القِيَاسُ المُفِيدُ تَرغِيبَ الجُمهُورِ وَحَملَهُمْ عَلَى المُرَادِ مِنهُمْ وَمَا يَجِبُ اَنْ

يُستعمَلَ في ذلكَ مِنَ ٱلمَقالاتِ . وَلَمَّا ظَهرَ ارسطو في يونانَ وهذَّبَ مَباحِثَ ٱلمَنطِقِ ورتَّبَ مسائلهُ وفُصولهُ وجعلهُ اوَّلَ ٱلعُلومِ ٱلحِكميَّةِ وَفاتِحتَها جعلَ ٱلخطابةَ احدَ اقسامِهِ ٱلثَّمانيةِ . وهذِهِ ٱلأقسامُ تشتمِلُ عَلَى ثَمانيةِ كتُبٍ اربعةٌ مِنها في صُورةِ ٱلقياسِ وهيَ كُتُبُ ٱلمَقولاتِ وَٱلعِبارةِ وٱلقياسِ وَٱلبُرهانِ واربعةٌ في مادَّتِهِ وهيَ كُتُبُ ٱلجَدلِ وَٱلسَّفسطةِ وَٱلخطابةِ وَٱلشِّعرِ . وَذلكَ انَّ ٱلمطالبَ ٱلتَّصديقيَّةَ عَلَى انحاءٍ فَمِنها ما يكونُ ٱلمطلوبُ فِيهِ ٱليَقِينَ بطَبعِهِ وهو تشتمِلُ عَلَيهِ ٱلكُتُبُ ٱلاربعةُ ٱلأولى . وَمنها ما يكونُ ٱلمطلوبُ فيهِ ٱلظَّنَّ وهذا تشتمِلُ عليهِ ٱلكُتُبُ ٱلأربعةُ ٱلأُخرى . وَفيها تدخُلُ ٱلخطابةُ . وتُرجِمت كُلُّها في ٱلمِلَّةِ ٱلاسلاميَّةِ وكتبَها وتداولَها فلاسِفةُ ٱلإسلامِ بِٱلشَّرحِ وَٱلتَّلخيصِ كما فعلهُ ٱلفارابيُّ وٱبنُ سِينا ثُمَّ ٱبنُ رُشدٍ مِن فلاسِفةِ ٱلأندلسِ . وَلِابنِ سِينا كِتابُ ٱلشِّفاءِ ٱستوعبَ فِيهِ عُلومَ ٱلفلسفةِ كُلَّها . ثُمَّ جاءَ ٱلمُتأخِّرونَ فغيَّروا ٱصطِلاحَ ٱلمَنطِقِ وَحصروا مطالبهُ في كُتُبٍ خمسةٍ ٱلبُرهانِ وَٱلجدلِ وَٱلخطابةِ وَٱلشِّعرِ وٱلسَّفسطةِ وربَّما يُلِمُّ بَعضُهُم بِٱليَسيرِ مِنها إلماماً واغفلوها كأنْ لَمْ تكُنْ هِيَ ٱلمُهِمَّ ٱلمُعتمَدَ في ٱلفَنِّ . وَامَّا ٱلَّذي يَشتمِلُ عَلَيهِ كِتابُ ٱلخطابةِ فهوَ تعريفُ ٱلمَقاييسِ ٱلخطابيَّةِ ٱلبلاغيَّةِ ٱلنافعةِ في مُخاطباتِ ٱلجُمهورِ عَلَى سبيلِ ٱلمُشاوراتِ وَٱلمُخاصَماتِ في ٱلمُشاجَراتِ اوِ ٱلمَدحِ اوِ ٱلذَّمِّ او ٱلحِيَلِ ٱلنافعةِ فِي ٱلاستِعطافِ وَٱلاستِمالةِ وَٱلإغراءِ وتصغيرِ ٱلأمرِ وتعظيمِهِ ووُجوهِ ٱلمَعاذيرِ وَٱلمُعاتَباتِ ووُجوهِ ترتيبِ ٱلكلامِ في كُلِّ قِصَّةٍ وخُطبةٍ

البحث الثاني

في تعريف الخطابة وموضوعها

(من تلخيص كتاب خطابة ارسطاطاليس لابن رشد)

(راجع صفحة ٥ من الجزء الثاني من علم الادب)

(قَالَ) اَلْخَطَابَةُ هِيَ قُوَّةٌ تَتَكَلَّفُ ٱلإِقْنَاعَ ٱلْمُمْكِنَ فِي كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلْمُفْرَدَةِ . وَنَعْنِي (بِٱلْقُوَّةِ) ٱلصِّنَاعَةَ ٱلَّتِي تفعل فِي ٱلْمُتَقَابِلَيْنِ . وَلَيْسَ تَتْبَعُ غَايَتُهَا فِعْلَهَا ضَرُورَةً . وَنَعْنِي (بِتَتَكَلَّفُ) اَيْ تَبْذُلُ مَجْهُودَهَا فِي ٱسْتِقْصَاءِ فِعْلِ ٱلْإِقْنَاعِ ٱلْمُمْكِنِ فِي ذٰلِكَ ٱلشَّيْءِ ٱلَّذِي فِيهِ ٱلْقَوْلُ وَذٰلِكَ يَكُونُ غَايَةَ مَا يُمْكِنُ فِيهِ. وَنَعْنِي بِقَوْلِهِ : (فِي كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلْمُفْرَدَةِ) اَيْ فِي كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلْمُفْرَدَةِ ٱلْمَوْجُودَةِ فِي مَقُولَةٍ مِنَ ٱلْمَقُولَاتِ ٱلْعَشْرِ (١). وَهٰذَا هُوَ ٱلْفَصْلُ ٱلَّذِي تَنْفَصِلُ بِهِ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةُ عَنْ سَائِرِ ٱلصَّنَائِعِ ٱلَّتِي يُظَنُّ اَنَّهَا قَدْ تُقْنِعُ فِي ٱلْأُمُورِ ٱلَّتِي تَنْظُرُ فِيهَا. وَذٰلِكَ اَنَّ كُلَّ صِنَاعَةٍ اِنَّمَا هِيَ مُعَلِّمَةٌ اَيْ مُبَرْهِنَةٌ وَمُقْنِعَةٌ فِي ٱلْجِنْسِ ٱلَّذِي تَنْظُرُ فِيهِ لَا فِي جَمِيعِ ٱلْأَجْنَاسِ. مِثَالُ ذٰلِكَ اَنَّ ٱلطِّبَّ اِنَّمَا يُعَلِّمُ عَلَى طَرِيقِ

---

(١) المقولة لغـةً المفعول من القول والتاء للمبالغة بمعنى الملفوظ وهي في اصطلاح الحكماء ما جاء عنـهُ القول وأُبرز فيهِ الحكم من الاجناس العاليـة المجردة من المحسوسات التي ليس فوقها جنس. والمقولات عشر : الجوهر والكم والكيف والاضافة والفعل والانفعال (ويقال لهما يفعل وينفعل) والزمان والمكان (ويقال لهما متى واين) والهيئـة والوضع (ويقال لهما ان يكون لهُ والموضوع)

ٱلْبرهَانِ وَيُقنِعُ فِي ٱلصِّحَّةِ وَٱلْمرَضِ وَفِي انْوَاعِهِمَا . وَكَذٰلِكَ ٱلْهَنْدَسَةُ اِنَّمَا تُعلَمُ عَلَى طَرِيقِ ٱلْبُرْهَانِ وَعَلَى طَرِيقِ ٱلْاِقْنَاعِ فِي ٱلْاَعْظَامِ وَٱلْاَشْكَالِ ٱلَّتِي تُوجَدُ فِي ٱلْاَجْسَامِ . وَامَّا ٱلْخَطَابَةُ فَهِيَ تَتَكَلَّفُ ٱلْاِقْنَاعَ فِي جَمِيعِ ٱلْاَشْيَاءِ فِي ايِّ مَقُولَةٍ كَانَتْ وَايِّ جِنْسٍ كَانَ وَلِذٰلِكَ لَيْسَ تُنْسَبُ اِلَى جِنْسٍ خَاصٍ

البحث الثالث

في المناسبة الموجودة بين الجدل والخطابة

(عن تلخيص كتاب خطابة ارسطاطاليس لابن رشد)

(قَالَ) اِنَّ صِنَاعَةَ ٱلْخَطَابَةِ تُنَاسِبُ صِنَاعَةَ ٱلْجَدَلِ . وَذٰلِكَ انَّ كِلَيْهِمَا يَؤُمَّانِ غَايَةً وَاحِدَةً وَهِيَ مُخَاطَبَةُ ٱلْغَيْرِ اِذْ كَانَتْ هَاتَانِ ٱلصِّنَاعَتَانِ لَيْسَ يَسْتَعْمِلُهُمَا ٱلْاِنْسَانُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ نَفْسِهِ كَٱلْحَالِ فِي صِنَاعَةِ ٱلْبُرْهَانِ بَلْ اِنَّمَا يَسْتَعْمِلُهُمَا مَعَ ٱلْغَيْرِ وَتَشْتَرِكَانِ بِنَحْوٍ مِنَ ٱلْاَنْحَاءِ فِي مَوْضُوعٍ وَاحِدٍ اِذْ كَانَ كِلَاهُمَا يَتَعَاطَى ٱلنَّظَرَ فِي جَمِيعِ ٱلْاَشْيَاءِ وَيُوجَدُ اسْتِعْمَالُهُمَا مُشْتَرَكًا لِلْجَمِيعِ اَعْنِي كُلُّ وَاحِدٍ مِنَ ٱلنَّاسِ يَسْتَعْمِلُ بِٱلطَّبْعِ ٱلْاَقَاوِيلَ ٱلْجَدَلِيَّةَ وَٱلْاَقَاوِيلَ ٱلْخُطْبِيَّةَ . وَاِنَّمَا كَانَ ذٰلِكَ كَذٰلِكَ لِاَنَّهُ لَيْسَتْ وَاحِدَةٌ مِنْهُمَا عِلْمًا مِنَ ٱلْعُلُومِ مُفْرَدًا بِذَاتِهِ وَذٰلِكَ اَنَّ ٱلْعُلُومَ لَهَا مَوْضُوعَاتٌ خَاصَّةٌ وَيَسْتَعْمِلُهَا اَصْنَافٌ مِنَ ٱلنَّاسِ خَاصَّةٌ . وَلٰكِنْ مِنْ جِهَةِ اَنَّ هٰذَيْنِ (اَيِ ٱلْخَطَابَةَ وَٱلْجَدَلَ) يَنْظُرَانِ فِي جَمِيعِ ٱلْمَوْجُودَاتِ وَجَمِيعُ ٱلْعُلُومِ تَنْظُرُ فِي جَمِيعِ ٱلْمَوْجُودَاتِ فَقَدْ

تُوجَدُ جَمِيعُ ٱلْعُلُومِ مُشَارِكَةً لَهُمَا بِنَحْوٍ مَا. وَإِذَا كَانَتْ هَاتَانِ ٱلصِّنَاعَتَانِ مُشْتَرِكَتَيْنِ فَقَدْ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ ٱلنَّظَرُ فِيهِمَا لِصِنَاعَةٍ وَاحِدَةٍ وَهِيَ صِنَاعَةُ ٱلْمَنْطِقِ

البحث الرابع

في ان الخطابة تتحرّى للتصديق اكثر منها للتأثير

(عن تلخيص كتاب خطابة ارسطاطاليس لابن رشد بتصرُّف)

(راجع صفحة ٦ من الجزء الثاني من علم الادب)

وَرَأَى مَنْ رَأَى أَنَّ ٱسْتِعْمَالَ جَمِيعِ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي لَهَا تَأْثِيرٌ فِي ٱلتَّصْدِيقِ فِي تَثْبِيتِ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي يُرَادُ تَثْبِيتُهَا بِطَرِيقِ ٱلْخَطَابَةِ هُوَ ٱلصَّوَابُ. وَخَلِيقٌ إِنِ ٱسْتَعْمَلَ أَحَدٌ هٰذَا ٱلْقَانُونَ أَنْ يَكُونَ بِٱسْتِعْمَالِهِ بَصِيرًا فِي هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ لَبِيبًا أَدِيبًا. وَقَدْ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ ٱلْأُمُورَ ٱلَّتِي مِنْ خَارِجٍ لَيْسَ لَهَا كَبِيرُ جَدْوَى فِي هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ أَنَّ ٱلَّذِي يَرُومُ أَنْ يُثْبِتَ شَيْئًا بَيْنَ يَدَيِ ٱلْحُكَّامِ فَهُوَ إِمَّا أَنْ يُثْبِتَ أَنَّ ٱلشَّيْءَ مَوْجُودٌ أَوْ غَيْرُ مَوْجُودٍ فَقَطْ أَعْنِي أَنَّهُ كَانَ أَوْ لَمْ يَكُنْ. وَذٰلِكَ إِذَا حَدَّدَ صَاحِبُ ٱلشَّرِيعَةِ أَنَّ ذٰلِكَ ٱلشَّيْءَ ٱلَّذِي فِيهِ ٱلشَّكْوَى عَظِيمٌ أَوْ يَسِيرٌ وَأَنَّهُ عَدْلٌ أَوْ جَوْرٌ. وَإِمَّا أَنْ يُثْبِتَ ٱلْأَمْرَيْنِ وَذٰلِكَ إِذَا لَمْ تُحَدِّدِ ٱلشَّرِيعَةُ ذٰلِكَ ٱلشَّيْءَ ٱلَّذِي فِيهِ ٱلْكَلَامُ. فَأَمَّا ٱسْتِعْمَالُ ٱلِٱنْفِعَالَاتِ فِي تَثْبِيتِ أَنَّ ٱلْأَمْرَ جَوْرٌ أَوْ عَدْلٌ فَغَيْرُ مُمْكِنٍ. وَذٰلِكَ أَنَّ ٱلِٱنْفِعَالَ بِٱلرَّحْمَةِ أَوِ ٱلْبُغْضَةِ إِنَّمَا يَكُونُ لِشَيْءٍ جُزْئِيٍّ وَٱلْعَدْلُ

وَٱلْجورُ أُمورٌ كُلِيَّةٌ . وَامَّا ٱسْتِعْمَالُهَا فِي انَّ ٱلْاَمْرَ كَانَ اوْ لَمْ يَكُنْ فَلَهُ فِي ذٰلِكَ تَأْثِيرٌ لٰكِنَّهُ لَيسَ يُوجِبُ انَّ ٱلْاَمرَ كَانَ اوْ لَمْ يَكُنْ بِٱلذَّاتِ بَلْ اِنَّمَا يُمِيلُ ٱلْحُكَّامَ اِلَى انْ يَقُولُوا اِنَّهُ صَدَقَ فِيمَا ادَّعَى اَوْ لَمْ يَصْدُقْ وَمِنْ غَيْرِ انْ يَحْدُثَ لِلْحَاكِمِ اوِ ٱلْمُنَاظِرِ بِذٰلِكَ تَصْدِيقٌ زَائِدٌ بِٱلشَّيْءِ ٱلَّذِي فِيهِ ٱلْكَلَامُ

(قَالَ) وَقَدْ يَجِبُ انْ تَكُونَ ٱلسُّنَنُ هِيَ ٱلَّتِي تُحَدِّدُ انَّ ٱلْاَمْرَ جَوْرٌ اَوْ عَدْلٌ وَتُفَوِّضُ انَّ ٱلْاَمْرَ وُجِدَ مِنْ هٰذَا ٱلشَّخْصِ اَوْ لَمْ يُوجَدْ اِلَى ٱلْحُكَّامِ . وَبِٱلْجُمْلَةِ فَتُفَوِّضُ اِلَيْهِمِ ٱلْاُمورَ ٱلْيَسِيرَةَ وَذٰلِكَ لِشَيْئَيْنِ : (ٱلْاَوَّلُ) اَنَّهُ قَلَّ مَا يُوجَدُ حَاكِمٌ يَقْدِرُ اَنْ يُمَيِّزَ ٱلْاُمورَ عَلَى كُنْهِهَا فَيَضَعَ انَّ هٰذَا ٱلْاَمْرَ جَوْرٌ وَهٰذَا عَدْلٌ اِلَّا فِي ٱلْاَقَلِّ مِنَ ٱلزَّمانِ وَاكْثَرُ ٱلْحُكَّامِ ٱلْمَوْجُودِينَ فِي ٱلْمُدُنِ لَيْسَ لَهُمْ هٰذِهِ ٱلْقُدْرَةُ . (وَٱلثَّانِي) فَلِاَنَّ ٱلْوُقُوفَ عَلَى انَّ ٱلشَّيْءَ عَدْلٌ اوْ جَوْرٌ يَحْتَاجُ فِيهِ وَاضِعُ ٱلسُّنَنِ اِلَى زَمَانٍ طَوِيلٍ وَذٰلِكَ لَا يُمْكِنُ فِي ٱلزَّمَانِ ٱلْيَسِيرِ ٱلَّذِي يَقَعُ فِيهِ ٱلتَّنَاظُرُ فِي ٱلشَّيْءِ بَيْنَ يَدَيِ ٱلْحُكَّامِ فَلِمَكَانِ هٰذَيْنِ ٱلْاَمْرَيْنِ يَصْعُبُ اَنْ يُفَوَّضَ اِلَى ٱلْحُكَّامِ انَّ هٰذَا ٱلْاَمْرَ عَدْلٌ اَوْ جَوْرٌ نَافِعٌ اَوْ ضَارٌّ بَلْ اِنَّمَا يُفَوَّضُ اِلَيْهِمْ انَّ ٱلْاَمْرَ وَقَعَ مِنْ هٰذَا ٱلشَّخْصِ اوْ لَمْ يَقَعْ وَذٰلِكَ لِبَيَانِهِ وَلِاَنَّهُ اَمْرٌ لَا يُمْكِنُ اَنْ يَضَعَهُ صَاحِبُ ٱلسُّنَّةِ

البحث الخامس

في فوائد علم الخطابة

(عن تلخيص كتاب خطابة ارسطاليس لابن رشد بتصرّف)

(راجع صفحة ٧ من الجزء الثاني من علم الادب)

(قَالَ) وَلِلْخَطَابَةِ مَنْفَعَتَانِ اِحْدَاهُمَا اَنْ يَحُثَّ ٱلْخَطِيبُ ٱلْمَدَنِيِّينَ عَلَى ٱلْاَعْمَالِ ٱلْفَاضِلَةِ. وَذٰلِكَ اَنَّهُمْ بِٱلطَّبْعِ يَمِيلُونَ اِلَى ضِدِّ ٱلْفَضَائِلِ ٱلْعَادِلَةِ فَاِذَا لَمْ يُضْبَطُوا بِٱلْاَقَاوِيلِ ٱلْخُطَبِيَّةِ غَلَبَتْ عَلَيْهِمْ اَضْدَادُ ٱلْاَفْعَالِ ٱلْعَادِلَةِ. وَذٰلِكَ شَيْءٌ مَذْمُومٌ يَسْتَحِقُّ فَاعِلُهُ ٱلتَّأْنِيبَ وَٱلتَّوْبِيخَ اَعْنِي ٱلَّذِي يَمِيلُ اِلَى ضِدِّ ٱلْاَفْعَالِ ٱلْعَادِلَةِ اَوِ ٱلْمُدَبِّرَ ٱلَّذِي لَا يَضْبِطُ ٱلْمَدَنِيِّينَ بِٱلْاَقَاوِيلِ ٱلْخُطَبِيَّةِ عَلَى ٱلْفَضَائِلِ ٱلْعَادِلَةِ ٱلَّتِي هِيَ فَضَائِلُ بَيْنَ ٱلْاِنْسَانِ وَبَيْنَ غَيْرِهِ اَعْنِي بَيْنَهُ وَبَيْنَ ٱلْمُشَارِكِ لَهُ فِي اَيِّ شَيْءٍ كَانَتِ ٱلشَّرِكَةُ لَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ نَفْسِهِ. (وَٱلْمَنْفَعَةُ ٱلثَّانِيَةُ) اَنَّهُ لَيْسَ كُلُّ صِنْفٍ مِنْ اَصْنَافِ ٱلنَّاسِ يَنْبَغِي اَنْ يُسْتَعْمَلَ مَعَهُمُ ٱلْبُرْهَانُ فِي ٱلْاَشْيَاءِ ٱلنَّظَرِيَّةِ ٱلَّتِي يُرَادُ مِنْهُمُ اعْتِقَادُهَا. وَذٰلِكَ اِمَّا لِاَنَّ ٱلْاِنْسَانَ قَدْ نَشَأَ عَلَى مَشْهُورَاتٍ تُخَالِفُ ٱلْحَقَّ فَاِذَا سَلَكَ بِهِ نَحْوَ ٱلْاَشْيَاءِ ٱلَّتِي نَشَأَ عَلَيْهَا سَهُلَ اِقْنَاعُهُ. وَاِمَّا لِاَنَّ فِطْرَتَهُ لَيْسَتْ مُعَدَّةً لِقَبُولِ ٱلْبُرْهَانِ اَصْلًا. وَاِمَّا لِاَنَّهُ لَا يُمْكِنُ بَيَانُهُ لَهُ فِي ذٰلِكَ ٱلزَّمَانِ ٱلْيَسِيرِ ٱلَّذِي يُرَادُ مِنْهُ وُقُوعُ ٱلتَّصْدِيقِ فِيهِ. فَلِهٰذَا قَدْ نَضْطَرُّ اِلَى اَنْ نُحَصِّلَ ٱلتَّصْدِيقَ بِٱلْمُقَدَّمَاتِ ٱلْمُشْتَرَكَةِ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْمُخَاطَبِ اَعْنِي

بالمحمودات. وهذه المنفعة تشارك هذه الصناعة فيها صناعة الجدل كما ذكرنا ذلك في كتاب الجدل. وهذه الصناعة يمكنها الاقناع في المتضادين جميعاً كما يمكن ذلك في القياس الجدلي. وذلك انا قد نقنع في الجاني انه اساء وانه لم يسيء ولست اعني انا نفعل الامرين جميعاً في وقت واحد بل نفعل هذا في وقت وهذا في وقت بحسب الانفع. وذلك انه كثيراً ما يكون الشيء نافعاً في وقت وضده نافعاً في وقت آخر. وايضاً فانه اذا كانت الاشياء التي تثبت الشيء وضده عندنا عتيدة وسمعنا متكلماً قد اقنع في الضد الذي ليس بعدل امكننا بهذه القوة ان ننقض عليه قوله. فهاتان المنفعتان موجودتان في القدرة التي في هذه الصناعة على الاقناع في شيء من الصنائع القياسية الا في هاتين الصناعتين هما مهيأتان بالطبع وعلى السواء للاقناع في كلا المتقابلين. اعني انه ليس واحدة منهما توجد اشد استعداداً للاقناع في احد المتقابلين منها في الآخر بل الاستعداد الموجود فيها على الاقناع في المتقابلين هو على السواء. فاما الاشياء الموضوعة لهاتين الصناعتين اعني الاشياء التي فيها تقنع فليس استعدادها لقبول الاقناع على السواء لكن اذا كانت الامور التي تقنع فيها صادقة كانت الاقاويل الخطبية والجدلية التي تستعمل فيها افضل وابلغ... فقد استبان من هذا ان هذه الصناعة ليس تنظر في احد المتقابلين ولكنها تنظر فيهما على السواء كالحال في الجدل وانها نافعة لهذا جداً. وليس عمل

هٰذهِ ٱلصِّنَاعَةِ أَنْ تُقْنِعَ وَلَا بُدَّ . أَعْنِي أَنَّهُ لَيسَ يَتْبَعُ فِعْلَهَا ٱلإِقْنَاعُ ضَرُورةً كَمَا يَتْبَعُ فِعْلَ ٱلنَّجَّارِ وُجُودُ ٱلْكُرْسِيِّ ضَرُورَةً إِذَا لَمْ يَكُنْ هُنَالِكَ عَائِقٌ مِنْ خَارِجٍ بَلْ عَمَلُهَا هُوَ أَنْ تَعْرِفَ جَمِيعَ ٱلْمُقْنِعَاتِ فِي ٱلشَّيْءِ وَتَأْتِيَ بِهَا فِي ذٰلِكَ ٱلشَّيْءِ وَإِنْ لَمْ يَقَعْ إِقْنَاعٌ . وَٱلْحَالُ فِيهَا فِي هٰذَا ٱلْمَعْنَى كَٱلْحَالِ فِي صِنَاعَاتٍ كَثِيرَةٍ مِثْلِ صِنَاعَةِ ٱلطِّبِّ فَإِنَّهُ لَيسَ فِعْلُهَا ٱلإِبْرَاءَ وَلَا بُدَّ . بَلْ إِنَّمَا فِعْلُهَا أَنْ تَبْلُغَ مِنْ ذٰلِكَ غَايَةَ ٱلشَّيْءِ ٱلْمُمْكِنِ فِعْلُهُ فِي ذٰلِكَ ٱلشَّيْءِ ٱلْمَقْصُودِ بِٱلإِبْرَاءِ . وَلِذٰلِكَ قَدْ يُشَارِكُ فِي أَفْعَالِ هٰذِهِ ٱلصَّنَائِعِ مَنْ لَيسَ مِنْ أَهْلِهَا مِثْلَ أَنْ يُبْرِىءَ مَنْ لَيسَ بِطَبِيبٍ وَيُقْنِعَ مَنْ لَيسَ بِخَطِيبٍ لٰكِنَّ ٱلْفِعْلَ ٱلْحَقِيقِيَّ إِنَّمَا هُوَ لِصَاحِبِ ٱلصِّنَاعَةِ . وَذٰلِكَ أَنَّ ٱلْغَايَةَ تَتْبَعُ فِعْلَ هٰذَا عَلَى ٱلأَكْثَرِ وَذٰلِكَ عَلَى ٱلأَقَلِّ . وَكَمَا أَنَّ فِي ٱلْجَدَلِ مَا هُوَ قِيَاسٌ وَمَا يُظَنُّ بِهِ أَنَّهُ قِيَاسٌ وَلَيسَ بِقِيَاسٍ وَهُوَ ٱلْقِيَاسُ ٱلسُّوفِسْطَائِيُّ كَذٰلِكَ فِي ٱلأَقَاوِيلِ ٱلْمُقْنِعَةِ ٱلْمُسْتَعْمَلَةِ فِي هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ مَا هُوَ مُقْنِعٌ وَمَا يُظَنُّ بِهِ أَنَّهُ مُقْنِعٌ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونَ كَذٰلِكَ . لٰكِنْ لَمَّا كَانَ ٱلسُّوفِسْطَائِيُّ لَيسَ إِنَّمَا يَكُونُ سُوفِسْطَائِيًّا مِنْ قِبَلِ ٱلْقُوَّةِ وَٱلْمَلَكَةِ ٱلَّتِي بِهَا يَفْعَلُ ٱلأَقَاوِيلَ ٱلسُّوفِسْطَائِيَّةَ بَلْ إِنَّمَا هُوَ سُوفِسْطَائِيٌّ مِنْ قِبَلِ مَا يَقْصِدُهُ بِتِلْكَ ٱلأَقَاوِيلِ مِنَ ٱلْكَرَامَةِ وَٱلْخَيْرَاتِ ٱلْخَارِجَةِ وَذٰلِكَ لِإِيهَامِهِ أَنَّهُ حَكِيمٌ وَكَانَ ٱلْجَدَلِيُّ إِنَّمَا هُوَ جَدَلِيٌّ بِٱلْمَلَكَةِ ٱلْحَاصِلَةِ لَهُ عَنِ ٱلصِّنَاعَةِ فَبِٱلْوَاجِبِ لَمْ تَكُنِ ٱلأَقَاوِيلُ ٱلسُّوفِسْطَائِيَّةُ جُزْءًا مِنْ صِنَاعَةِ ٱلْجَدَلِ أَعْنِي ٱلَّتِي يُظَنُّ بِهَا أَنَّهَا مَقَايِيسُ جَدَلِيَّةٌ مِنْ غَيْرِ أَنْ تَكُونَ جَدَلِيَّةً

إِذَا اُسْتَعْمَلَتْ نَحْوَ هٰذِهِ ٱلْغَايَـةِ . وَامَّا اِذَا اُسْتُعْمِلَتْ عَلَى طَرِيقِ ٱلِامْتِحَانِ فَهِيَ جُزْءٌ مِنْهَـا . وَامَّا ٱلْخَطِيبُ فَلَمَّا كَانَ خَطِيبًا مِنْ اَجْلِ ٱلْأُمُورِ ٱلَّتِي مِنْ خَارِجٍ مِثْـلَ ٱلْـكَرَامَةِ وَغَيْرِ ذٰلِكَ مِنْ سَائِرِ ٱلْخَيْرَاتِ اَوْ مِنْ قِبَلِ مَلَـكَةِ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ كَانَتِ ٱلْاَقَاوِيلُ ٱلَّتِي يُظَنُّ بِهَا اَنَّهَا مُقْنِعَةٌ وَلَيْسَتْ بِمُقْنِعَةٍ جُزْءًا مِنْ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ . لِاَنَّ ٱلْمَقْصُودَ بِهٰذِهِ ٱلْاَقَاوِيلِ فِي هٰذِهِ ٱلصِّنَـاعَةِ قَدْ يَـكُونُ بِعَيْنِهِ مَقْصُودَ ٱلسُّوفِسْطَائِيِّ . وَاِنَّمَـا كَانَ ذٰلِكَ كَذٰلِكَ لِاَنَّ ٱلْمَقْصُودَ بِهٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ مِنَ ٱلَّذِي يُرَادُ اِقْنَاعُهُ اِنَّمَا هُوَ ٱلْفِعْلُ اَوِ ٱلِانْفِعَالُ فَاِذَا حَصَلَ ذٰلِكَ مِنْهُ فَلَا فَرْقَ بَيْنَ اَنْ يَـكُونَ حُصُولُهُ عَنْ اَقَاوِيلَ هِيَ مُقْنِعَةٌ فِي ٱلْحَقِيقَةِ اَوْ عَنْ اَقَاوِيلَ يُظَنُّ بِهَا اَنَّهَا مُقْنِعَةٌ وَلَيْسَتْ بِمُقْنِعَةٍ . فَاِنْ كَانَ هٰذَا ٱلْفِعْلُ ٱلْمَقْصُودُ مِنَ ٱلْمُخَاطَبِ اَوِ ٱلِانْفِعَالُ خَيْرًا مَا لَهُ لَا لِلْخَطِيبِ كَانَتِ ٱلْاَقَاوِيلُ ٱلَّتِي يُظَنُّ بِهَا اَنَّهَا مُقْنِعَـةٌ وَلَيْسَتْ بِمُقْنِعَةٍ دَاخِلَةً فِي هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ بِٱلْجِهَةِ ٱلَّتِي دَخَلَتْ فِي صِنَاعَةِ ٱلْجَدَلِ ٱلْاَقَاوِيلُ ٱلَّتِي يُظَنُّ بِهَا اَنَّهَا جَدَلِيَّةٌ اِذْ لَمْ يُقْصَدْ بِهَا مَقْصَدُ ٱلسَّفْسَطَةِ. وَاِنْ كَانَ مَقْصَدُ ٱلْخَطِيبِ خَيْرًا يَنَالُهُ مِنَ ٱلْخَـيْرَاتِ ٱلَّتِي يَقْصِدُهَا ٱلسُّوفِسْطَائِيُّونَ كَانَ ٱلْقَوْلُ ٱلَّذِي يُظَنُّ بِهِ اَنَّهُ مُقْنِعٌ وَلَيْسَ بِمُقْنِعٍ مِنْ جِهَـةِ مَا هُوَ سُوفِسْطَائِيٌّ جُزْءًا مِنْ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ اِذْ قَدْ يُشَارِكُ ٱلْخَطِيبُ ٱلسُّوفِسْطَائِيَّ فِي غَايَتِـهِ . فَلِذٰلِكَ قَدْ تَدْخُلُ ٱلْاَقَاوِيلُ ٱلسُّوفِسْطَائِيَّةُ فِي هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَـةِ وَلَا تَدْخُلُ فِي صِنَاعَةِ ٱلْجَدَلِ

البحث السادس

في ان الخطابة صناعة اصلها في طبع الانسان

(عن تلخيص كتاب خطابة ارسطاطاليس لابن رشد)

(راجع صفحة ٨ من الجزء الثاني من علم الادب)

وكُلُّ وَاحِدٍ مِنَ ٱلنَّاسِ يُوجَدُ مُسْتَعْمِلًا لِنَحْوٍ مَا مِنْ انْحَاءِ ٱلْبَلَاغَةِ وَمُنْتَهِيًا مِنْهَا اِلَى مِقْدَارٍ مَا وَذٰلِكَ فِي صَنْفَيِ ٱلْاَقَاوِيلِ ٱللَّذَيْنِ احَدُهُمَا ٱلْمُنَاظَرَةُ وَٱلثَّانِي ٱلتَّعْلِيمُ وَٱلْاِرْشَادُ . وَاكْثَرُ ذٰلِكَ فِي ٱلْمَوْضُوعَاتِ ٱلْخَاصَّةِ بِهٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ وَهِيَ مِثْلُ ٱلشِّكَايَةِ وَٱلِاعْتِذَارِ وسَائِرِ ٱلْاَقَاوِيلِ ٱلَّتِي فِي ٱلْاُمُورِ ٱلْجُزْئِيَّةِ . وَيُوجَدُ كَثِيرٌ مِنْهُمْ يَبْلُغُونَ مَقْصُودَهُمْ بِهٰذَا ٱلْفِعْلِ . فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَنْ يَفْعَلُ ذٰلِكَ بِالِاتِّفَاقِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَفْعَلُهُ بِٱلِاعْتِيَادِ وَبِمَلَكَةٍ ثَابِتَةٍ . وَمَعْلُومٌ اَنَّ ٱلَّذِي يَفْعَلُ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةَ بِمَلَكَةٍ ثَابِتَةٍ اَفْضَلُ مِنَ ٱلَّذِي يَفْعَلُهَا بِالِاتِّفَاقِ . وَاِذَا كَانَ ذٰلِكَ كَذٰلِكَ فَٱلَّذِي يَفْعَلُهَا بِمَلَكَةٍ ثَابِتَةٍ وَعِلْمٍ بِٱلسَّبَبِ ٱلَّذِي بِهِ يَفْعَلُ فِعْلَهُ يَكُونُ اتَمَّ وَافْضَلَ . وَهٰذَا اَمْرٌ يَعْرِفُهُ ٱلْجُمْهُورُ فَضْلًا عَنِ ٱلْخَوَاصِّ . وَلِذٰلِكَ كَانَ وَاجِبًا اَنْ تُثْبَتَ اَجْزَاءُ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ فِي كِتَابٍ وَلَا يُقْتَصَرَ عَلَى مَا يُوجَدُ مِنْ ذٰلِكَ بِٱلطَّبْعِ فَقَطْ وَلَا بِٱلِاعْتِيَادِ فِي كَثِيرٍ مِنَ ٱلصَّنَائِعِ ٱلْقِيَاسِيَّةِ



الفصل الثاني

في بلاغة الخطيب

البحث الاول

في تعريف البلاغة الجديرة بالخطيب

(عن كتاب الصناعتين باختصار)

قَالَ مَعْمَرٌ اَبو ٱلْاَشْعَثِ قُلْتُ لِبَهْلَةَ ٱلْهِنْدِيّ اَيَّامَ ٱجْتَلَبَ يَحْيَى ٱبْنُ خَالِدٍ اَطِبَّاءَ ٱلْهِنْدِ: مَا ٱلْبَلَاغَةُ عِنْدَ اَهْلِ ٱلْهِنْدِ. قَالَ بَهْلَةُ: عِنْدَنَا فِي ذٰلِكَ صَحِيفَةٌ مَكْتُوبَةٌ وَلٰكِنَّنِي لَا اُحْسِنُ تَرْجَمَتَهَا وَلَمْ اُعَالِجْ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةَ فَاَثِقَ مِنْ نَفْسِي بِٱلْقِيَامِ بِخَصَائِصِهَا وَلَطِيفِ مَعَانِيهَا. (قَالَ اَبو ٱلْاَشْعَثِ) فَتَلَقَّيْتُ تِلْكَ ٱلصَّحِيفَةَ ٱلْمُتَرْجَمَةَ فَاِذَا فِيهَا: اَوَّلُ ٱلْبَلَاغَةِ ٱجْتِمَاعُ آلَةِ ٱلْبَلَاغَةِ وَذٰلِكَ اَنْ يَكُونَ ٱلْخَطِيبُ رَابِطَ ٱلْجَأْشِ سَاكِنَ ٱلْجَوَارِحِ مُتَخَيِّرًا لِلَّفْظِ لَا يُكَلِّمُ سَيِّدَ ٱلْاُمَّةِ بِكَلَامِ ٱلْاَمَةِ وَٱلْمُلُوكَ بِكَلَامِ ٱلسُّوقَةِ وَيَكُونُ فِي كَلَامِهِ ٱلتَّصَرُّفُ فِي كُلِّ طَبَقَةٍ وَلَا يُدَقِّقُ ٱلْمَعَانِيَ كُلَّ ٱلتَّدْقِيقِ وَلَا يُنَقِّحُ ٱلْاَلْفَاظَ كُلَّ ٱلتَّنْقِيحِ وَيُصَفِّيهَا كُلَّ ٱلتَّصْفِيَةِ وَيُهَذِّبُهَا كُلَّ ٱلتَّهْذِيبِ وَلَا يَفْعَلُ ذٰلِكَ حَتَّى يُصَادِفَ حَكِيمًا وَفَيْلَسُوفًا عَظِيمًا. وَمَنْ تَعَوَّدَ حَذْفَ فُضُولِ ٱلْكَلَامِ وَاِسْقَاطَ مُشْتَرَكَاتِ ٱلْاَلْفَاظِ وَنَظَرَ فِي صِنَاعَةِ ٱلْمَنْطِقِ عَلَى جِهَةِ

ٱلصِّنَاعَةِ وَٱلْمُبَالَغَةِ فِيهَا لَا عَلَى جِهَةِ ٱلْاَعْرَاضِ (١) وَٱلتَّصَفُّحِ وَلَا على وَجْهِ ٱلِاسْتِطْرَافِ وَٱلتَّظَرُّفِ (٢) لَهَا. (قَالَ) وَٱعْلَمْ اَنَّ حَقَّ ٱلْمَعْنَى اَنْ يَكُونَ ٱلِاسْمُ لَهُ طَبَقًا وَتِلْكَ ٱلْحَالُ وَفْقًا وَلَا يَكُونَ ٱلِاسْمُ فَاضِلًا وَلَا مُقَصِّرًا وَلَا مُشْتَرَكًا وَلَا مُضَمَّنًا وَيَكُونَ تَصَفُّحُهُ لِمَصَادِرِ كَلَامِهِ بِقَدَرِ تَصَفُّحِهِ لِمَوَارِدِهِ وَيَكُونَ لَفْظُهُ مُؤْنِقًا وَمَعْنَاهُ نَيِّرًا وَاضِحًا وَمَدَارُ ٱلْاَمْرِ عَلَى اِفْهَامِ كُلِّ قَوْمٍ بِقَدْرِ طَاقَتِهِمْ وَٱلْحَمْلِ عَلَيْهِمْ عَلَى قَدْرِ (٣) مَنَازِلِهِمْ وَاَنْ تُوَاتِيَهُ آلَتُهُ وَيَتَصَرَّفَ مَعَهُ اَدَاتُهُ وَيَكُونَ فِي ٱلتُّهَمَةِ لِنَفْسِهِ مُعْتَدِلًا وَفِي حُسْنِ ٱلظَّنِّ اَوْدَعَهَا تَهَاوُنَ ٱلْآمِنِينَ وَاِنْ تَجَاوَزَ مِقْدَارَ ٱلْحَقِّ فِي ٱلتُّهَمَةِ ظَلَمَهَا وَاَوْدَعَهَا ذُلَّ ٱلْمَظْلُومِينَ وَلِكُلِّ ذٰلِكَ مِقْدَارٌ مِنَ ٱلشُّغْلِ وَلِكُلِّ شُغْلٍ مِقْدَارٌ مِنَ ٱلْوَهْنِ وَلِكُلِّ وَهْنٍ مِقْدَارٌ مِنَ ٱلْجَهْلِ

فَقَوْلُهُ: (اَوَّلُ ٱلْبَلَاغَةِ اجْتِمَاعُ آلَةِ ٱلْبَلَاغَةِ) اَيْ اَوَّلُ آلَاتِ ٱلْبَلَاغَةِ جُودَةُ ٱلْقَرِيحَةِ وَطَلَاقَةُ ٱللِّسَانِ وَذٰلِكَ مِنْ فِعْلِ ٱللّٰهِ تَعَالَى لَا يَقْدِرُ ٱلْعَبْدُ عَلَى اكْتِسَابِهِ لِنَفْسِهِ وَٱجْتِلَابِهِ لَهَا. وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَنْ اِذَا خَلَا بِنَفْسِهِ وَاَعْمَلَ فِكْرَهُ اَتَى بِٱلْبَيَانِ ٱلْعَجِيبِ وَٱلْكَلَامِ ٱلْبَدِيعِ ٱلْمُصِيبِ وَٱسْتَخْرَجَ ٱلْمَعْنَى ٱلرَّائِقَ وَجَاءَ بِٱللَّفْظِ ٱلرَّائِعِ. وَاِذَا حَاوَرَ وَنَاظَرَ قَصَّرَ وَتَاَخَّرَ فَحَقُّ هٰذَا اَنْ لَا يَتَعَرَّضَ لِٱرْتِجَالِ ٱلْخُطَبِ وَلَا يُجَارِيَ اَصْحَابَ ٱلْبَدَايِهِ فِي مَيْدَانِ ٱلْقَرِيضِ وَيَكْتَفِيَ بِنَتَائِجِ فِكْرِهِ وَٱلنَّاسُ فِي

---

(١) ويروى على جهة الاعتراض (٢) وفي نسخة الاستطراف والتطرُّف
(٣) ويروى في اقدار

صِناعَةِ ٱلْكَلَامِ عَلَى طَبَقَاتٍ مِنْهُمْ مَنْ إِذَا حَاوَرَ وَنَاظَرَ أَبْلَغَ وَأَجَادَ وَإِذَا كَتَبَ وَأَمْلَى أَخَلَّ وَتَخَلَّفَ. وَمِنْهُمْ مَنْ إِذَا أَمْلَى بَرَّزَ وَإِذَا حَاوَرَ وَكَتَبَ قَصَّرَ. وَمِنْهُمْ مَنْ إِذَا كَتَبَ أَحْسَنَ وَإِذَا حَاوَرَ وَأَمْلَى أَسَاءَ. وَمِنْهُمْ مَنْ يُحْسِنُ فِي جَمِيعِ هٰذِهِ ٱلْحَالَاتِ وَمِنْهُمْ مَنْ يُسِيءُ فِيهَا كُلِّهَا فَأَحْسَنُ حَالَاتِ ٱلْمُسِيءِ ٱلْإِمْسَاكُ وَأَحْسَنُ حَالَاتِ ٱلْمُحْسِنِ ٱلتَّوَسُّطُ فَإِنَّ ٱلْإِكْثَارَ يُورِثُ ٱلْإِمْلَالَ وَقَلَّ مَا يَنْجُو صَاحِبُهُ مِنَ ٱلزَّلَلِ وَٱلْعَيْبِ وَٱلْخَطَلِ. وَلَيْسَ يَنْبَغِي لِلْمُحْسِنِ فِي أَحَدِ هٰذِهِ ٱلْفُنُونِ ٱلْمُسِيءِ فِي غَيْرِهِ أَنْ يَتَجَاوَزَ مَا هُوَ مُحْسِنٌ فِيهِ إِلَى مَا هُوَ مُسِيءٌ فِيهِ فَإِنِ ٱضْطُرَّ فِي بَعْضِ ٱلْأَحْوَالِ إِلَى تَجَاوُزِهِ فَخَيْرُ سُبُلِهِ فِيهِ قَصْدُ ٱلْإِخْتِصَارِ وَتَجَنُّبُ ٱلْإِكْثَارِ وَٱلْإِهْذَارِ لِيَقِلَّ ٱلسَّقَطُ فِي كَلَامِهِ وَلَا يَكْثُرَ ٱلْعَيْبُ فِي مَنْطِقِهِ. وَقِيلَ لِٱبْنِ ٱلْمُقَفَّعِ لِمَ لَا تُطِيلُ ٱلْقَصَائِدَ. قَالَ: لَوْ أَطَلْتُهَا عُرِفَ صَاحِبُهَا. يُرِيدُ أَنَّ ٱلْمُحْدَثَ يَتَشَبَّهُ بِٱلْقَدِيمِ فِي ٱلْقَلِيلِ مِنَ ٱلْكَلَامِ. فَإِذَا طَالَ ٱخْتَلَّ فَعُرِفَ أَنَّهُ كَلَامٌ مَوْلُودٌ عَلَى أَنَّ ٱلسَّابِقَ فِي مَيَادِينِ ٱلْبَلَاغَةِ إِذَا كَثُرَ سَقَطَ فَكَيْفَ ٱلْمُقَصِّرُ عَنْ غَايَتِهَا وَٱلْمُتَخَلِّفُ عَنْ أَمَدِهَا. وَمِنْ تَمَامِ آلَاتِ ٱلْبَلَاغَةِ ٱلتَّوَسُّعُ فِي مَعْرِفَةِ ٱلْعَرَبِيَّةِ وَوُجُوهِ ٱلْإِسْتِعْمَالِ لَهَا وَٱلْعِلْمِ بِفَاخِرِ ٱلْأَلْفَاظِ وَسَاقِطِهَا وَمُتَخَيَّرِهَا وَرَدِيئِهَا وَمَعْرِفَةِ ٱلْمَقَامَاتِ وَمَا يَصْلُحُ فِي كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا مِنَ ٱلْكَلَامِ فِي غَيْرِ ذٰلِكَ

وَقَوْلُهُ: (وَهُوَ أَنْ يَكُونَ ٱلْخَطِيبُ رَابِطَ ٱلْجَأْشِ سَاكِنَ ٱلنَّفْسِ) هٰذَا لِأَنَّ ٱلْحَيْرَةَ وَٱلدَّهَشَ يُورِثَانِ ٱلْحُبْسَةَ وَٱلْحَصَرَ وَهُمَا سَبَبَا ٱلْإِرْتَاجِ

وَالإفحامِ. وَبلغكَ مَا اصابَ عُثمانَ بْنَ عفَّانَ اول مَا صَعد المنبرَ فارْتجَ عليهِ فقالَ: انَّ الذين قبلي كانَا يُعدَّانِ لهذا المَقام مقالاً وانتمْ الى امامٍ عادلٍ احوجُ منكُمْ الى امامٍ قائلٍ وستأتيكمُ الخطبةُ على وجهها. وصعدَ بعضُ العربِ منبرًا بخراسانَ فارْتجَ عليهِ فقالَ حينَ نزلَ:

فَانْ لمْ اكُنْ فيكمْ خطيبًا فانَّني بسيفي اذا جدَّ الوغى لخطيبُ

وَمن حسنِ الاعتذارِ عِندَ الارتاجِ ما اخبرنَا ابو احمدَ عن داودَ بنِ عليٍّ قالَ: فلمَّا قالَ (امَّا بعدُ) امتنعَ عليهِ الكلامُ ثمَّ قالَ: امَّا بعدُ فقدْ يجدُ المعسرُ ويعسرُ الموسرُ ويفلُّ الحديدُ ويقطعُ الكليلُ. وانَّما الكلامُ بعدَ الافحامِ كالاشراقِ بعدَ الظلامِ وقدْ يعزبُ البيانُ ويعتقمُ الصوابُ وانَّما اللسانُ مضغةٌ من الانسانِ يفترُ بفتورهِ (١) اذا نكلَ ويثوبُ بانبساطهِ اذا ارتجلَ. الا وانَّا لا ننطقُ بطرًا ولا نسكتُ حصرًا بلْ نسكتُ معتبرينَ وننطقُ مرشدينَ. ونحنُ بعدَ ذلكَ امراءُ القولِ فينا وشجتْ اعراقهُ وعلينا عُطفتْ اغصانُهُ ولنا تهدَّلتْ ثمرتُهُ فنتخيَّرُ منهُ ما احلولى وعذبَ ونطرحُ منهُ ما املولحَ وخبثَ. ومنْ بعدِ مقاوِمنا هذا مقامٌ ومن بعدِ ايامنا ايامٌ. وعلامةُ سكونِ نفسِ الخطيبِ ورباطةِ جأشهِ هدوُّهُ في كلامهِ وتمهُّلهُ في منطقهِ. قالَ ثمامةُ: كانَ جعفرُ بنُ يحيى جأشهُ هدوُّهُ في كلامهِ وتمهُّلهُ في منطقهِ. وقالَ ثمامةُ: كانَ جعفرُ بنُ يحيى انطقُ الناسِ قدْ جمعَ الهدوَّ

(١) ويروى: يعثر بعثوره

وَٱلتَّسهِيلِ وَٱلجزَالَةَ وَٱلحَلَاوَةَ ولَوْ كَانَ فِي ٱلأَرضِ نَاطِقٌ يَستَغنِي عَن ٱلإِشَارَةِ لَكَانَهُ

وَقَوْلُهُ: (مُتَخَيِّرَ ٱلأَلفَاظِ) فَلِأَنَّ مَدَارَ ٱلبَلَاغَةِ عَلَى تَخَيُّرِ ٱللَّفظِ وَتَخَيُّرُهُ أَصعَبُ مِنْ جَمعِهِ وَتَأْلِيفِهِ. وَقَوْلُهُ: (وَيَكُونَ فِي قَوْلِهِ فَضلُ ٱلتَّصَرُّفِ فِي كُلِّ طَبَقَةٍ) وَهُوَ أَنْ يَكُونَ صَانِعُ ٱلكَلَامِ قَادِرًا عَلَى جَمِيعِ ضُرُوبِهِ مُتَمَكِّنًا مِنْ جَمِيعِ فُنُونِهِ لَا يَعتَاصُ عَلَيْهِ قِسمٌ مِنْ أَقسَامِهِ فَإِنْ كَانَ شَاعِرًا تَصَرَّفَ فِي وُجُوهِ ٱلشِّعرِ مَدِيحِهِ وَهِجَائِهِ وَمَرَاثِيهِ وَصِفَاتِهِ وَمَفَاخِرِهِ وَغَيرِ ذٰلِكَ مِنْ أَصنَافِهِ. وَلِٱختِلَافِ قُوَى ٱلنَّاسِ فِي ٱلشِّعرِ وَفُنُونِهِ مَا قِيلَ: كَانَ ٱمرُؤُ ٱلقَيسِ أَشعَرَ ٱلنَّاسِ إِذَا رَكِبَ وَٱلنَّابِغَةُ إِذَا رَهِبَ وَزُهَيرٌ إِذَا رَغِبَ وَٱلأَعشَى إِذَا طَرِبَ. وَكَذٰلِكَ ٱلكَاتِبُ رُبَّمَا تَقَدَّمَ فِي ضَربٍ مِنَ ٱلكِتَابَةِ وَتَأَخَّرَ فِي غَيرِهِ وَسَهُلَ عَلَيْهِ نَوعٌ مِنهَا وَعَسُرَ نَوعٌ آخَرُ وَأَخبَرَ أَحمَدُ بنُ يُوسُفَ قَالَ: أَمَرَنِي ٱلمَأمُونُ أَنْ أَكتُبَ إِلَى ٱلنَّوَاحِي فِي ٱلِٱستِكثَارِ مِنَ ٱلقَنَادِيلِ فِي ٱلمَسَاجِدِ. فَبِتُّ لَا أَدرِي كَيفَ أَحتَذِي فَأَتَانِي آتٍ فِي مَنَامِي فَقَالَ: قُلْ فَإِنَّ فِي ذٰلِكَ عِمَارَةً لِلمَسَاجِدِ وَأُنسًا لِلسَّابِلَةِ وَإِضَاءَةً لِلمُتَهَجِّدِينَ وَنَفيًا لِمَكَامِنِ ٱلرِّيَبِ وَتَنزِيهًا لِبُيُوتِ ٱللهِ جَلَّ وَعَزَّ مِنْ وَحشَةِ ٱلظُّلَمِ. فَٱنتَبَهتُ وَقَدِ ٱنفَتَحَ لِي مَا أُرِيدُ فَٱبتَدَأتُ بِهٰذَا وَأَتمَمتُ عَلَيهِ. وَٱلمُقَدَّمُ فِي صَنعَةِ ٱلكَلَامِ هُوَ ٱلمُستَولِي عَلَيهِ مِنْ جَمِيعِ جِهَاتِهِ ٱلمُتَمَكِّنُ مِنْ جَمِيعِ أَنوَاعِهِ وَبِهٰذَا فَضَّلُوا جَرِيرًا عَلَى ٱلفَرَزدَقِ وَقَالُوا: كَانَ لَهُ فِي ٱلشِّعرِ ضُرُوبٌ لَا يَعرِفُهَا ٱلفَرَزدَقُ. وَسُئِلَ

بَعْضُهُمْ عَنْ أَبِي نُوَاسٍ وَمُسْلِمٍ فَذَكَرَ أَنَّ أَبَا نُوَاسٍ أَشْعَرُ لِتَصَرُّفِهِ فِي وُجُوهِ الشِّعْرِ وَكَثْرَةِ مَذَاهِبِهِ فِيهِ. (قَالَ) وَمُسْلِمٌ جَارٍ عَلَى وَتِيرَةٍ لَا يَتَغَيَّرُ عَنْهَا. وَأَبْلَغُ مِنْ هٰذِهِ ٱلْمَنْزِلَةِ أَنْ يَتَفَنَّنَ صَانِعُ ٱلْكَلَامِ فِي قَوْلِهِ أَيْ يَأْتِيَ مَرَّةً بِٱلْجَزْلِ وَأُخْرَى بِٱلسَّهْلِ فَيَلِينُ إِذَا شَاءَ وَيَشْتَدُّ إِذَا أَرَادَ. وَمِنْ هٰذَا ٱلْوَجْهِ فَضَّلُوا جَرِيرًا عَلَى ٱلْفَرَزْدَقِ وَأَبَا نُوَاسٍ عَلَى مُسْلِمٍ . . .

وَقَوْلُهُ: (وَلَا يُكَلِّمَ سَيِّدَ ٱلْأُمَّةِ بِكَلَامِ ٱلْأُمَّةِ وَلَا ٱلْمُلُوكَ بِكَلَامِ ٱلسُّوقَةِ) لِأَنَّ ذٰلِكَ جَهْلٌ بِٱلْمَقَامَاتِ وَمَا يَصْلُحُ فِي كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا مِنَ ٱلْكَلَامِ. وَقَدْ أَحْسَنَ ٱلَّذِي قَالَ: لِكُلِّ مَقَامٍ مَقَالٌ. وَرُبَّمَا غَلَبَ سُوءُ ٱلرَّأْيِ وَقِلَّةُ ٱلْعَقْلِ عَلَى بَعْضِ عُلَمَاءِ ٱلْعَرَبِيَّةِ فَيُخَاطِبُونَ ٱلسُّوقِيَّ وَٱلْمَمْلُوكَ ٱلْأَعْجَمِيَّ بِأَلْفَاظِ أَهْلِ نَجْدٍ وَمَعَانِي أَهْلِ ٱلسَّرَاةِ. كَأَبِي عَلْقَمَةَ إِذْ قَالَ لِحَجَّامِهِ: اُشْدُدْ قَصَبَ ٱلْمَلَازِمِ وَأَرْهِفْ ظُبَاتِ ٱلْمَشَارِطِ وَأَمِرَّ ٱلْمَسْحَ وَٱسْتَحِلَّ ٱلرَّشْحَ وَخَفِّفِ ٱلْوَطْءَ وَعَجِّلِ ٱلنَّزْعَ وَلَا تُكْرِهَنَّ آبِيًا وَلَا تَمْنَعَنَّ آتِيًا. فَقَالَ لَهُ ٱلْحَجَّامُ: لَيْسَ لِي عِلْمٌ بِٱلْحُرُوبِ. وَأَخْبَرَ أَبُو ٱلْمَغَازِلِ ٱلضَّبِّيُّ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: كَانَ لَنَا جَارٌ بِٱلْكُوفَةِ لَا يَتَكَلَّمُ إِلَّا بِٱلْغَرِيبِ فَخَرَجَ إِلَى ضَيْعَةٍ لَهُ عَلَى حِجْرٍ مَعَهَا مُهْرٌ. فَأَفْلَتَتْ فَذَهَبَتْ وَمَعَهَا مُهْرُهَا فَخَرَجَ يَسْأَلُ عَنْهَا فَمَرَّ بِخَيَّاطٍ فَقَالَ: يَا ذَا ٱلنِّصَاحِ وَذَاتِ ٱلسَّمِّ ٱلطَّاعِنَ بِهَا فِي غَيْرِ وَغًى لِغَيْرِ عِدًى هَلْ رَأَيْتَ ٱلْخَيْفَانَةَ ٱلْقَبَّاءَ يَتْبَعُهَا ٱلْحَاسِنُ ٱلْمُسَرْهَفُ (١) كَأَنَّ

(١) ويروى: الحالس المرهف

غُرَّتُهُ ٱلْقَمَرُ ٱلْأَزْهَرُ يُنِيرُ فِي حُضْرِهِ كَٱلْخُلَّبِ ٱلْأَجْرَدِ (١). فَقَالَ ٱلْخَيَّاطُ أَطْلُبُهَا فِي بَرِّ لَخْ (٢). فَقَالَ: وَيْلَكَ وَمَا تَقُولُ قَبَّحَكَ ٱللهُ فَمَا أَعْلَمُ رَطَانَتَكَ. فَقَالَ: لَعَنَ ٱللهُ أَبْغَضَنَا لَفْظًا وَأَخْطَأَنَا مَنْطِقًا

وَقَوْلُهُ: (وَلَا يُدَقِّقِ ٱلْمَعَانِيَ كُلَّ ٱلتَّدْقِيقِ) قَالَ أَبُو هِلَالٍ: لِأَنَّ ٱلْغَايَةَ فِي تَدْقِيقِ ٱلْمَعْنَى سَبِيلٌ إِلَى تَعْمِيَتِهِ وَتَعْمِيَةُ ٱلْمَعْنَى لُكْنَةٌ إِلَّا إِذَا أُرِيدَ بِهِ ٱلْأَلْغَازُ وَكَانَ فِي تَعْمِيَتِهِ فَائِدَةٌ مِثْلُ أَثْبَاتِ (٣) ٱلْمَعَانِي وَمَا يَجْرِي مَعَهَا مِنَ ٱللُّحُونِ ٱلَّتِي ٱسْتَعْمَلُوهَا وَكَنَوْا بِهَا عَنِ ٱلْمُرَادِ لِبَعْضِ ٱلْغَرَضِ. فَأَمَّا مَنْ أَرَادَ ٱلْإِبَانَةَ فِي مَدِيحٍ أَوْ صِفَةِ شَيْءٍ فَأَتَى بِإِغْلَاقٍ دَلَّ عَلَى عَجْزِهِ فِي ٱلْإِبَانَةِ وَقُصُورِهِ عَنِ ٱلْإِفْصَاحِ

وَقَوْلُهُ: (وَلَا يُنَقِّحِ ٱلْأَلْفَاظَ كُلَّ ٱلتَّنْقِيحِ) فَتَنْقِيحُ ٱللَّفْظِ أَنْ يُبْنَى مِنْهُ بِنَاءٌ لَا يَكْثُرُ فِي ٱلِٱسْتِعْمَالِ كَمَا قَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضِ ٱلْوُزَرَاءِ: أَحْسَنَ ٱللهُ إِبَانَتَكَ. فَقَالَ لَهُ ٱلْوَزِيرُ: عَجَّلَ ٱللهُ إِمَاتَتَكَ. وَيَدْخُلُ فِي تَنْقِيحِ ٱللَّفْظِ ٱسْتِعْمَالُ وَحْشِيِّهِ وَتَرْكُ سَلِسِهِ. وَقَدْ أَخَذَ ٱلرُّوَاةُ عَلَى زُهَيْرٍ قَوْلَهُ:

تَقِيٌّ نَقِيٌّ لَمْ يُكَثِّرْ غَنِيمَةً ... بِنَهْكَةِ ذِي ٱلْقُرْبَى وَلَا بِحَقَلَّدِ

فَٱسْتَبْشَعُوا (ٱلْحَقَلَّدَ) وَهُوَ ٱلسَّيِّئُ ٱلْخُلُقِ وَقَالُوا: لَيْسَ فِي لَفْظِ زُهَيْرٍ أَنْكَرُ مِنْهُ. قَالَ أَبُو عُثْمَانَ: رَأَيْتُهُمْ يَزِيدُونَ فِي كُتُبِهِمْ هٰذَا ٱلْكَلَامَ فَإِنْ كَانُوا إِنَّمَا رَوَوْهُ وَدَوَّنُوهُ لِأَنَّهُ يَدُلُّ عَلَى فَصَاحَةٍ وَبَلَاغَةٍ فَقَدْ

---

(١) وفي رواية: ينير في خضره كالخلّب الاخرز (٢) ويروى: في غر بلخ

(٣) وفي رواية: ابيات المعاني

بَاعَدَهُ ٱللهُ مِنْ صِفَةِ ٱلبَلَاغَةِ وَٱلفَصَاحَةِ. وَإِنْ كَانُوا فَعَلُوا ذٰلِكَ لِأَنَّهُ غَرِيبٌ فَأَبْيَاتٌ مِنْ شِعْرِ ٱلعَجَّاجِ وَٱلطِّرِمَّاحِ وَأَشْعَارِ هُذَيْلٍ يَأْتِي لَهُمْ مَعَ ٱلرَّصْفِ ٱلحَسَنِ عَلَى أَكْثَرَ مِنْ ذٰلِكَ. وَلَوْ خَاطَبْتُ ٱلأَصْمَعِيَّ بِمِثْلِ هٰذَا ٱلكَلَامِ لَظَنَنْتُ أَنَّهُ سَيَجْهَلُ بَعْضَهُ وَهٰذَا خَارِجٌ عَنْ عَادَةِ ٱلبُلَغَاءِ

وَقَوْلُهُ: (وَيُصَفِّيهَا كُلَّ ٱلتَّصْفِيَةِ وَيُهَذِّبُهَا كُلَّ ٱلتَّهْذِيبِ) فَتَصْفِيَتُهُ تَعْرِيَتُهُ مِنَ ٱلوَحْشِيِّ وَنَفْيُ ٱلشَّوَاغِلِ عَنْهُ وَتَهْذِيبُهُ وَتَبْرِئَتُهُ مِنَ ٱلرَّدِيِّ ٱلمَرْذُولِ وَٱلسُّوقِيِّ ٱلمَرْدُودِ فَمِنَ ٱلكَلَامِ ٱلمُهَذَّبِ قَوْلُ بَعْضِ ٱلكُتَّابِ: مِثْلُكَ أَوْجَبَ حَقًّا لَا يَجِبُ عَلَيْهِ وَسَمَحَ بِحَقٍّ يَجِبُ لَهُ وَقَبِلَ وَاضِحَ ٱلعُذْرِ وَٱسْتَكْثَرَ قَلِيلَ ٱلشُّكْرِ لَا زَالَتْ أَيَادِيكَ فَوْقَ شُكْرِ أَوْلِيَائِكَ وَنِعْمَةُ ٱللهِ عَلَيْكَ فَوْقَ آمَالِهِمْ فِيكَ. وَمِثْلُهُ قَوْلُ آخَرَ: مَا أَنْتَهِي إِلَى غَايَةٍ مِنْ شُكْرِكَ إِلَّا وَجَدْتُ وَرَاءَهَا حَادِثًا مِنْ بِرِّكَ فَلَا زَالَتْ أَيَادِيكَ مَمْدُودَةً بَيْنَ أَمَلٍ لَكَ تَبْلُغُهُ وَأَمَلٍ فِيكَ تُحَقِّقُهُ حَتَّى تَتَمَلَّى مِنَ ٱلأَعْمَارِ أَطْوَلَهَا وَتَنَالَ مِنَ ٱلدَّرَجَاتِ أَفْضَلَهَا. وَقَوْلُ أَحْمَدَ بْنِ يُوسُفَ: يَوْمُنَا يَوْمٌ لَيِّنُ ٱلحَوَاشِي وَطِيءُ ٱلنَّوَاحِي وَهٰذِهِ سَمَاءٌ قَدْ تَهَلَّلَتْ بِوَدْقِهَا وَضَحِكَتْ لِعَابِسِ غَيْمِهَا وَلَامِعِ بَرْقِهَا وَأَنْتَ قُطْبُ ٱلسُّرُورِ وَنِظَامُ ٱلأُمُورِ فَلَا تَغِبْ عَنَّا فَنَغِلَّ (١) وَلَا تُفْرِدْنَا (٢) فَنَسْتَوْحِشَ فَإِنَّ ٱلحَبِيبَ بِحَبِيبِهِ كَثِيرٌ وَبِمُسَاعَدَتِهِ جَدِيرٌ وَقَوْلُهُ: (وَلَا تَفْعَلَ ذٰلِكَ حَتَّى تُصَادِفَ حَكِيمًا وَفَيْلَسُوفًا عَظِيمًا وَمَنْ

---

(١) وفي رواية: فنقل (٢) ويروى: ولا تفرَّد عنّا

تَعَوَّدَ حَذفَ فُضُولِ ٱلْكَلَامِ وَمُشْتَرَكَاتِ ٱلْأَلفَاظِ وَمَنْ نَظَرَ فِي ٱلْمَنطِقِ عَلَى جِهَةِ ٱلصِّنَاعَةِ فِيهَا لَا عَلَى جِهَةِ ٱلِٱسْتِطْرَافِ وَٱلتَّطَرُّفِ لَهَا) فَنَقُولُ يَنْبَغِي اَنْ يَتَكَلَّمَ بِفَاخِرِ ٱلْكَلَامِ وَنَادِرِهِ وَرَصِينِهِ وَمُحْكَمِهِ عِنْدَ مَنْ يَفْهَمُهُ عَنْهُ وَيَقْبَلُهُ مِنْهُ مِمَّنْ عَرَفَ ٱلْمَعَانِي وَٱلْأَلفَاظَ عِلْمًا شَافِيًا لِنَظَرِهِ فِي ٱللُّغَةِ وَٱلْإِعْرَابِ وَٱلْمَعَانِي عَلَى جِهَةِ ٱلصِّنَاعَةِ لَا كَمَنِ ٱسْتَطْرَفَ شَيْئًا مِنْهَا نَنظُرَ فِيهِ نَظَرًا غَيْرَ كَامِلٍ اَوْ اَخَذَ مِنْ اَطْرَافِهِ وَتَنَاوَلَ مِنْ اَطْرَارِهِ فَتَحَلَّى بِٱسْمِهِ وَخَلَا مِنْ وَسْمِهِ. فَإِذَا سَمِعَ لَمْ يَفْقَهْ وَإِذَا سُئِلَ لَمْ يَنْقَهْ وَإِذَا تَكَلَّمَ عِنْدَ مَنْ هٰذِهِ صِفَتُهُ ذَهَبَتْ فَائِدَةُ كَلَامِهِ وَضَاعَتْ مَنْفَعَةُ مَنْطِقِهِ. لِأَنَّ ٱلْعَامِّيَ إِذَا كَلَّمْتَهُ بِكَلَامِ ٱلْعِلْيَةِ سَخِرَ مِنْكَ وَزَرَى عَلَيْكَ. كَمَا رُوِيَ عَنْ بَعْضِهِمْ اَنَّهُ قَالَ لِبَعْضِ ٱلْعَامَّةِ: بِمَ كُنْتُمْ تَنْتَقِلُونَ ٱلْبَارِحَةَ (يَعْنِي عَلَى ٱلنَّبِيذِ). فَقَالَ: بِٱلْحَمَّالِينَ. وَلَوْ قَالَ لَهُ: (اَيْشٍ كَانَ نَقْلُكُمْ) لَسَلِمَ مِنْ سُخْرِيَتِهِ. فَيَنْبَغِي اَنْ يُخَاطِبَ كُلَّ فَرِيقٍ بِمَا يَعْرِفُونَ وَيَتَجَنَّبَ مَا يَجْهَلُونَ

وَاَمَّا قَوْلُهُ: (مَنْ تَعَوَّدَ حَذفَ فُضُولِ ٱلْكَلَامِ الخ) هُوَ اَنْ يُسْقِطَ مِنَ ٱلْكَلَامِ مَا يَكُونُ ٱلْكَلَامُ مَعَ إِسْقَاطِهِ تَامًّا غَيْرَ مَنْقُوصٍ وَلَا يَكُونُ فِي زِيَادَتِهِ فَائِدَةٌ). وَذٰلِكَ مِثْلُ مَا رُوِيَ عَنْ مُعَاوِيَةَ اَنَّهُ قَالَ لِصُحَارٍ ٱلْعَبْدِيِّ: مَا ٱلْبَلَاغَةُ فَقَالَ: اَنْ تَقُولَ فَلَا تُخْطِئَ وَتُسْرِعَ فَلَا تُبْطِئَ. ثُمَّ قَالَ: اَقِلْنِي هَوَانَ (لَا تُخْطِئَ وَلَا تُبْطِئَ). فَاَلْقَى ٱللَّفْظَتَيْنِ لِأَنَّ فِي ٱلَّذِي اَبْقَى غِنًى عَنْهُمَا وَعِوَضًا مِنْهُمَا.

فَامَّا اذَا كَانَ فِي زِيَادَةِ الاَلفَاظِ فَائدَةٌ فَذلِكَ مَحْمُودٌ وَهُوَ مِنْ بَاب التَّذْيِيلِ . وَقَوْلُهُ : (وَمُشْتَرَكَاتِ الاَلفَاظِ) فَهُوَ انْ يُرِيدَ الاِبَانَةَ عَنْ مَعْنًى فَيَأْتِيَ بِالاَلفَاظِ لَا تَدُلُّ عَلَيهِ خَاصَّةً بَلْ يَشْتَرِكُ مَعَهُ مَعَانٍ أُخَرُ فَلَا يَعرِفُ السَّامِعُ أَيَّهَا ارَادَ . وَرُبَّمَا اسْتَبْهَمَ الكَلَامُ فِي نَوْعٍ مِنْ هذَا الجِنْسِ حَتَّى لَا يُوقَفَ عَلَى مَعْنَاهُ اِلَّا بِالتَّوَهُّمِ . فَمِنَ الجِنْسِ الاَوَّلِ قَوْلُ جَرِيرٍ :

لَوْ كُنْتُ اَعلَمُ اَنَّ آخِرَ عَهْدِكُمْ   يَوْمُ الرَّحِيلِ فَعَلْتُ مَا لَمْ اَفْعَلِ

فَوَجْهُ الاِشْتِرَاكِ فِي هٰذَا اَنَّ السَّامِعَ لَا يَدْرِي اِلَى اَيِّ شَيْءٍ اَشَارَ مِنْ اَفعَالِهِ فِي قَوْلِهِ (فَعَلْتُ مَا لَم اَفعَلِ) أَارَادَ اَنْ يَبْكِيَ اِذَا رَحَلُوا اَوْ يَهِيمَ عَلَى وَجْهِهِ مِنَ الغَمِّ الَّذِي لَحِقَهُ اَوْ يَتْبَعَهُمْ فِي المُضِيِّ عَلَى عَزْمَةِ الرَّحِيلِ اَوْ يَأْخُذَ مِنْهُمْ شَيْئًا يَتَذَكَّرُهُمْ بِهِ اَوْ يَدْفَعَ اِلَيهِمْ شَيْئًا يَذْكُرُونَهُ بِهِ اوْ غَيرَ ذلِكَ مِمَّا يَجُوزُ اَنْ يَفعَلَهُ الخَلِيلُ عِنْدَ فِرَاقِ اَحِبَّتِهِ . فَلَمْ يُبِنْ عَنْ غَرَضِهِ وَاَحوَجَ اِلَى اَنْ يَسْأَلَهُ عَمَّا اَرَادَ فِعلَهُ عِنْدَ رَحِيلِهِمْ . وَلَيسَ هٰذَا كَقَوْلِهِمْ : (لَوْ رَاَيتَ عَلِيًّا بَيْنَ الصَّفَّيْنِ) . لِاَنَّ دَلِيلَ البَسَالَةِ وَالنِّكَايَةِ فِي هٰذَا الكَلَامِ بَيِّنٌ وَاَمَارَةُ النُّقْصَانِ فِي بَيْتِ جَرِيرٍ وَاضِحَةٌ فَمَنْ يَسْمَعُهُ وَاِنْ لَمْ يَكُنْ مِنْ اَهلِ البَلَاغَةِ يَستَبرِدُهُ وَيَستَغِثُّهُ وَيَستَرْجِحُ الآخَرَ وَيَستَجِيدُهُ . وَمِثْلُهُ قَوْلُ سَعِيدِ بْنِ مَالِكٍ الاَزْدِيِّ

فَاِنَّكَ لَوْ لَاقَيتَ سَعْدَ بْنَ مَالِكٍ   لَلَاقَيتَ مِنْهُ بَعضَ مَا كَانَ يَفعَلُ

فَلَمْ يُبِنْ عَمَّا اَرَادَ بِقَوْلِهِ : (لَلَاقَيتَ) اَ خَيرًا اَرَادَ اَمْ شَرًّا اِلَّا

أَنْ تَسْمَعَ مَا قَبْلَهُ وَمَا بَعْدَهُ فَيَتَبَيَّنَ مَعْنَاهُ وَأَمَّا فِي نَفْسِ ٱلْبَيْتِ فَلَا يَتَبَيَّنُ مَغْزَاهُ . وَمِثْلُهُ قَوْلُ أَبِي تَمَّامٍ :

وَقُمْنَا فَقُلْنَا بَعْدَ أَنْ أُودِعَ ٱلثَّرَى ... بِهِ مَا يُقَالُ فِي ٱلسَّحَابَةِ تُقْلِعُ

فَقَوْلُ ٱلنَّاسِ فِي ٱلسَّحَابِ إِذَا أَقْلَعَ عَلَى وُجُوهٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْدَحُهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَذُمُّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ كَانَ يُحِبُّ إِقْلَاعَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَكْرَهُ إِقْشَاعَهُ عَلَى حَسَبِ مَا كَانَتْ حَالَاتُهَا عِنْدَهُمْ وَمَوَاقِعُهَا مِنْهُمْ فَلَمْ يُبَيِّنْ بِقَوْلِهِ مَعْنًى يَعْتَمِدُهُ ٱلسَّامِعُ . عَلَى أَنَّ ٱلْمُحْتَجَّ لَهُ لَوْ قَالَ : إِنَّ أَكْثَرَ ٱلْعَادَةِ فِي ٱلسَّحَابِ أَنْ يُحْمَدَ أَثَرُهُ وَيُثْنَى عَلَيْهِ بَعْدَهُ لَمَا كَانَ مُبْعِدًا . وَلَمْ أُرِدْ عَيْبَ أَبِي تَمَّامٍ بِمَا قُلْتُ وَإِنَّمَا أَرَدْتُ ٱلْإِخْبَارَ عَنْ وُجُوهِ ٱلْاِشْتِرَاكِ وَذِكْرِ مَا يَتَشَعَّبُ مِنْهُ وَمَا يَقْرُبُ مِنْ بَابِهِ وَيَنْظُرُ إِلَيْهِ مِنْ قَرِيبٍ أَوْ بَعِيدٍ . وَمِنَ ٱللَّفْظِ ٱلْمُشْتَرَكِ قَوْلُ أَبِي نُوَاسٍ :

وَخَبَّ مَا يُخْبِّنْ مِنْ آخِرٍ ... مِنْهُ وَلِلطَّابِنِ أَمْهَارُ (١)

ٱلْأَمْهَارُ هَاهُنَا جَمْعُ مُهْرٍ مِنْ قَوْلِهِمْ : مَهَرَ يَمْهَرُ مَهْرًا . وَٱلْمَصَادِرُ لَا تُجْمَعُ وَلَا يَشُكُّ سَامِعُ هٰذَا ٱلْكَلَامِ أَنَّهُ يُرِيدُ جَمْعَ مُهْرٍ فَيُشْكِلُ ٱلْمَعْنَى عَلَيْهِ . وَخَطَبَ بَعْضُ ٱلْمُتَكَلِّمِينَ فَقَالَ فِي صِفَةِ ٱللّٰهِ تَعَالَى : لَا يُقَاسُ بِٱلْقِيَاسِ وَلَا يُدْرَكُ بِٱلْأَلْمَاسِ . أَرَادَ جَمْعَ لَمْسٍ فَأَصَابَ ٱلسَّجْعَ وَأَخْطَأَ ٱلْمَعْنَى . وَأَمَّا مَا بَيْنَهُمْ فَلَا يُعْرَفُ مَعْنَاهُ إِلَّا بِٱلتَّوَهُّمِ . وَمِنَ ٱلْكَلَامِ ٱلْخَالِي مِنَ ٱلْاِشْتِمَالِ قَوْلُ بَعْضِهِمْ لِأَخٍ لَهُ أَرَادَ فِرَاقَهُ :

---

(١) كذا في الاصل وفي ديوان ابي نوّاس :

وخبز ما يخبز من بعده ... منه وللطابن امهار

لَمَّا تَصَفَّحْتُ اخْلَاقَكَ فَوَجَدْتُهَا مُبَايِنَةً لِمُشَاكَلَتِي زَائِغَةً عَنْ قَصْدِ طَرِيقَتِي صَيَّرْتُ عَلَيْهَا رِيَاضَةً لِنَفْسِي عَلَى ٱلصَّبْرِ لِمَسَاوِئِ اخْلَاقِ ٱلْمُعَاشِرِينَ وَلِعِلْمِي بِكَامِنِ ٱلْعُدْوَانِ فِي جَمِيعِ ٱلْعَالَمِينَ. وَٱلَّذِي رَجَوْتُ مِنْ مَرَمَّةِ خِصَالِكَ بِمَا اقَابِلُهَا بِهِ مِنَ ٱلتَّجَاوُزِ وَاسْحَبُ عَنْ سُوءِ آثَارِهَا اذْيَالَ ٱلتَّغَاضِي. وَانْتَ مَعَ ذٰلِكَ لَا تُقَوِّمُ اعْوِجَاجَ مَذَاهِبِكَ وَلَا يَعْطِفُ بِكَ ٱلرَّأْيُ عَلَى رُشْدِكَ. فَلَمَّا فَنِيَتْ حِيلَتِي فِيكَ وَٱنْقَطَعَتْ اَسْبَابُ اَمَلِي مِنْكَ وَرَاَيْتُ ٱلدَّاءَ لَا يَزِيدُ عَلَى ٱلتَّعَهُّدِ بِٱلدَّوَاءِ اِلَّا فَسَادًا وَٱلْخَرْقَ عَلَى ٱلتَّرْقِيعِ اِلَّا اتِّسَاعًا قَدَّمْتُ ٱلْيَأْسَ مِنْكَ عَلَى ٱلرَّجَاءِ فِيكَ فَٱحْتَسَبْتُ اَيَّامِي ٱلسَّالِفَةَ فِي ٱسْتِصْلَاحِي لَكَ

وَقَوْلُهُ: (وَحَقُّ ٱلْمَعْنَى اَنْ يَكُونَ لَهُ ٱلِٱسْمُ طِبْقًا) اَيْ يَكُونَ ٱلِٱسْمُ طِبْقًا لِلَفْظِ بِقَدْرِ ٱلْمَعْنَى غَيْرَ زَائِدٍ عَلَيْهِ وَلَا نَاقِص عَنْهُ فَكَانَ كَٱلطَّبَقِ عَلَى ٱلْاِنَاءِ لَا يَنْقُصُ مِنْهُ شَيْءٌ

وَقَوْلُهُ: (وَلَا يَكُونَ ٱلِٱسْمُ فَاضِلًا وَلَا مُقَصِّرًا) فَهٰذَا دَاخِلٌ فِي ٱلْاَوَّلِ مِنْ قَوْلِهِ: وَحَقُّ ٱلْمَعْنَى اَنْ يَكُونَ لَهُ ٱلِٱسْمُ طِبْقًا. وَمِثَالُ ٱلْفَاضِلِ مِنَ ٱللَّفْظِ عَنِ ٱلْمَعْنَى قَوْلُ عُرْوَةَ بْن اُذَيْنَةَ:

وَٱسْقِ ٱلْعَدُوَّ بِكَأْسِهِ وَٱعْلَمْ لَهُ ... بِٱلْغَيْبِ اَنْ قَدْ كَانَ قَبْلُ سَقَاكَهَا
وَٱجْزِ ٱلْكَرَامَةَ مَنْ تَرَى اَنْ لَوْ لَهُ ... يَوْمًا بَذَلْتَ كَرَامَةً لَجَزَاكَهَا

وَمَعْنَى هٰذَا ٱلْكَلَامِ مَحْصُورٌ تَحْتَ ثَلَاثِ كَلِمَاتٍ: اِجْزِ كُلًّا بِفِعْلِهِ. وَكَانَ ٱلسُّكُوتُ لِعُرْوَةَ خَيْرًا مِنْهُ. وَمِنَ ٱلْكَلَامِ ٱلْفَاضِلِ عَنْ مَعْنَاهُ قَوْلُ اَبِي ٱلْعِيَالِ ٱلْهُذَلِيِّ.

ذَكَرْتُ اخِي فَعَاوَدَنِي صُدَاعُ ٱلرَّأْسِ وَٱلْوَصَبُ

فَذِكْرُ الرَّأْسِ مَعَ ٱلصُّدَاعِ فَضْلٌ

وَٱلْمُقَصِّرُ مِنَ ٱلْكَلَامِ مَا لَا يُنْبِئُكَ بِمَعْنَاهُ عِنْدَ سَمَاعِكَ إِيَّاهُ وَيُحْوِجُكَ إِلَى شَرْحٍ كَبَيْتِ ٱلْحَارِثِ بْنِ حِلِّزَةَ :

وَٱلْعَيْشُ خَيْرٌ فِي ظِلَالِ ٱلنُّوكِ مِمَّنْ رَامَ كَدًّا

وَقَوْلُهُ : (وَلَا مُضَمَّنًا) ٱلتَّضْمِينُ أَنْ يَكُونَ ٱلْفَصْلُ ٱلْأَوَّلُ مُفْتَقِرًا إِلَى ٱلْفَصْلِ ٱلثَّانِي وَٱلْبَيْتُ ٱلْأَوَّلُ مُحْتَاجًا إِلَى ٱلْأَخِيرِ كَقَوْلِهِ ٱلشَّاعِرِ :

كَأَنَّ ٱلْقَلْبَ لَيْلَةَ قِيلَ يُغْدَى بِلَيْلَى ٱلْعَامِرِيَّةِ أَوْ يُرَاحُ

قَطَاةٌ غَرَّهَا شَرَكٌ فَبَاتَتْ تُجَاذِبُهُ وَقَدْ عَلِقَ ٱلْجَنَاحُ

فَلَمْ يَتِمَّ ٱلْمَعْنَى إِلَّا فِي ٱلْبَيْتِ ٱلثَّانِي وَهُوَ قَبِيحٌ . وَمِثَالُهُ مِنْ نَثْرِ ٱلْكُتَّابِ قَوْلُ بَعْضِهِمْ : وَجَعَلَ سَيِّدَنَا آخِذًا مِنْ كُلِّ مَا دُعِيَ وَيُدْعَى بِهِ فِي ٱلْأَعْيَادِ بِأَجْزَلِ ٱلْأَقْسَامِ وَأَوْفَرِ ٱلْأَعْدَادِ

وَقَدْ تُسَمَّى ٱسْتِعَارَتُكَ ٱلْأَنْصَافَ وَٱلْأَبْيَاتَ مِنْ شِعْرِ غَيْرِكَ وَإِدْخَالُكَ إِيَّاهُ فِي أَثْنَاءِ قَصِيدَتِكَ تَضْمِينًا . وَبَاقِي كَلَامِهِ يَتَضَمَّنُ صِفَةَ ٱلْمُتَكَلِّمِ لَا صِفَةَ ٱلْكَلَامِ إِلَّا قَوْلَهُ :(وَيَكُونَ تَصَفُّحُهُ لِمَوَارِدِهِ بِقَدْرِ تَصَفُّحِهِ لِمَصَادِرِهِ) وَسَنَأْتِي عَلَى ٱلْكَلَامِ فِي هٰذَا وَنَسْتَقْصِيهِ فِي فَصْلِ ٱلْمَقَاطِعِ وَٱلْمَبَادِئِ

البحث الثاني

في وسائل الاقناع التي يتخذها الخطيب البليغ

(من تلخيص كتاب ارسطاليس في الخطابة لابن رشد)

اَمَّا ٱلْاَشْيَاءُ ٱلَّتِي تفعلُ ٱلتَّصْدِيقَاتِ فِي هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ فَمِنْهَا مَا هِيَ صِنَاعِيَّةٌ وَتِلْكَ هِيَ ٱلَّتِي وُجُودُهَا لِاخْتِيَارِنَا وَرَوِيَّتِنَا وَنَحْنُ ٱلْفَاعِلُونَ لَهَا. وَمِنْهَا مَا هِيَ غَيْرُ صِنَاعِيَّةٍ وَهِيَ ٱلَّتِي لَيْسَ وُجُودُهَا لِاخْتِيَارِنَا وَرَوِيَّتِنَا مِثْلُ ٱلشُّهُودِ وَٱلتَّعْذِيبِ وَٱلْعُقُودِ وَمَا اَشْبَهَ ذٰلِكَ. وَٱلْاَشْيَاءُ ٱلصِّنَاعِيَّةُ ٱلَّتِي نَحْنُ ٱلْفَاعِلُونَ لَهَا مِنْهَا اَشْيَاءُ قَدْ تَقَدَّمَ غَيْرُنَا فَصَنَعَهَا مِثْلَ ٱلِاحْتِجَاجِ بِٱلْاَمْثَالِ ٱلسَّائِرَةِ ٱلَّتِي قَدْ وُضِعَتْ وَٱشْتَهَرَتْ وَمِنْهَا مَا نَخْتَرِعُهَا نَحْنُ عِنْدَ ٱلْقَوْلِ فِي ٱلشَّيْءِ ٱلَّذِي فِيهِ ٱلْاِقْنَاعُ وَنَسْتَنْبِطُهَا. فَاَمَّا ٱلتَّصْدِيقَاتُ ٱلَّتِي نَفْعَلُهَا نَحْنُ وَنَخْتَرِعُهَا فَهِيَ ثَلَاثَةُ اَنْوَاعٍ: (اَحَدُهَا) اِثْبَاتُ ٱلْمُتَكَلِّمِ فَضِيلَةَ نَفْسِهِ ٱلَّتِي يَكُونُ بِهَا اَهْلًا اَنْ يُصَدَّقَ وَاَنْ يَكُونَ عِنْدَ ٱلْمُتَكَلِّمِ بِهَيْئَةٍ فِي وَجْهِهِ وَاَعْضَائِهِ شَأْنُهَا اَنْ تُوقِعَ ٱلتَّصْدِيقَ بِٱلشَّيْءِ ٱلْمُتَكَلَّمِ فِيهِ مِثْلَ ٱلتُّؤَدَةِ وَٱلْوَقَارِ وَغَيْرِ ذٰلِكَ. وَٱلْفَضِيلَةُ ٱلَّتِي شَأْنُهَا هٰذَا هِيَ ٱلَّتِي يَعْنِي اَرِسْطُو بِٱلْكَيْفِيَّةِ. وَٱلْهَيْئَةُ ٱلَّتِي شَأْنُهَا هٰذَا هُوَ ٱلَّذِي يَعْنِي بِٱلسَّمْتِ. وَقَدْ يَدُلُّ عَلَى اَنَّ لِلْفَضِيلَةِ تَأْثِيرًا فِي ٱلتَّصْدِيقِ اَنَّ ٱلصَّالِحِينَ ٱلْفَاضِلِينَ يُصَدَّقُونَ سَرِيعًا

دُونَ قَوْلٍ يَتَكَلَّفُونَهُ فِي ٱلشَّيْءِ. وَإِنَّمَا يَكُونُ ذٰلِكَ فِي ٱلْأُمُورِ ٱلظَّاهِرَةِ لِلْحِسِّ ٱلَّتِي يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ أَحَسُّوهَا، مِثْلُ قَوْلِهِمْ: إِنَّهُ شَرِبَ أَوْ قَتَلَ. فَأَمَّا إِخْبَارُهُمْ عَنِ ٱلْأُمُورِ ٱلْخَفِيَّةِ عِنْدَ ٱلْحِسِّ وَهِيَ ٱلَّتِي يُظَنُّ أَنَّهُ خَفِيَ عَنْهُمْ مَا أَحَسُّوا مِنْ ذٰلِكَ أَوْ وَهِمُوا فِيهِ إِذَا كَانَ ذٰلِكَ ٱلشَّيْءُ مُمْكِنًا أَنْ يَهِمَ فِيهِ ٱلْحِسُّ فَلَيْسَ يُصَدَّقُونَ فِي ٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي يَدَّعُونَهَا فِي أَمْثَالِ هٰذِهِ ٱلْأَشْيَاءِ دُونَ أَنْ يَسْتَعْمِلُوا فِي تَثْبِيتِ ذٰلِكَ ٱلشَّيْءِ ٱلْقَوْلَ. وَعَلَيْهِ قَدْ أَخْطَأَ ٱلَّذِينَ ذَكَرْنَا أَنَّهُمْ تَكَلَّمُوا فِي ٱلْخِطَابَةِ فَذَهَبُوا إِلَى أَنَّ ٱلْفَضِيلَةَ وَٱلْأَنَاةَ إِنَّمَا هِيَ نَافِعَةٌ فِي بَابِ ٱلِٱنْفِعَالِ فَقَطْ. وَأَمَّا (ٱلصِّنْفُ ٱلثَّانِي مِنَ ٱلتَّصْدِيقَاتِ) فَهُوَ ٱلصِّنْفُ ٱلَّذِي يَكُونُ بِأَنْ يَكْسِبَ ٱلسَّامِعُ بِٱلْقَوْلِ ٱنْفِعَالًا مَا يُوجِبُ لَهُ ٱلتَّصْدِيقَ بِٱلشَّيْءِ ٱلَّذِي فِيهِ ٱلْقَوْلُ. فَإِنَّهُ لَيْسَ تَصْدِيقُنَا بِٱلشَّيْءِ وَإِقْرَارُنَا بِهِ وَنَحْنُ فِي حَالِ ٱلْفَرَحِ أَوِ ٱلْحُزْنِ تَصْدِيقًا وَاحِدًا. وَكَذٰلِكَ إِذَا كُنَّا فِي حَالِ ٱلسُّخْطِ عَلَى ٱلشَّيْءِ أَوْ حَالِ ٱلرِّضَا عَنْهُ. وَهٰذِهِ هِيَ ٱلْأَشْيَاءُ ٱلَّتِي تَكَلَّمَ فِيهَا أُولَائِكَ ٱلَّذِينَ ذَكَرْنَا أَنَّهُمْ تَكَلَّمُوا فِي هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ. وَأَمَّا (ٱلصِّنْفُ ٱلثَّالِثُ مِنْ هٰذِهِ ٱلتَّصْدِيقَاتِ) فَهُوَ تَثْبِيتُ ٱلشَّيْءِ بِٱلْكَلَامِ ٱلْمُقْنِعِ أَوْ مَا يُظَنُّ بِهِ أَنَّهُ مُقْنِعٌ وَذٰلِكَ فِي ٱلْأُمُورِ ٱلْجُزْئِيَّةِ ٱلَّتِي تُقْنِعُ فِيهَا هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةُ. وَإِذَا كَانَتِ ٱلتَّصْدِيقَاتُ إِنَّمَا تَكُونُ فِي هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ بِهٰذِهِ ٱلْوُجُوهِ فَهُوَ بَيِّنٌ أَنَّ ٱلَّذِي يَقْدِرُ أَنْ يُقْنِعَ ٱلْإِقْنَاعَ ٱلْمُمْكِنَ فِي كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ ٱلْأَشْيَاءِ إِنَّمَا هُوَ ٱلَّذِي يَكُونُ عَالِمًا بِثَلَاثَةِ أَشْيَاءَ: (أَوَّلُهَا) مَعْرِفَةُ ٱلْأَقَاوِيلِ ٱلْمُقْنِعَةِ. (وَثَانِيهَا)

مَعْرِفَةُ ٱلْاَخْلَاقِ وَٱلْفَضَائِلِ . (وَثَالِثُهَا) مَعْرِفَةُ ٱلِاْنفِعَالَاتِ (١) وَذٰلِكَ بِاَنْ يَعْرِفَ كُلَّ وَاحِدٍ مِنَ ٱلِاْنفِعَالَاتِ مَا هُوَ وَمِنْ اَيِّ شَيْءٍ يَكُونُ وَمَتَى يَكُونُ وَكَيْفَ يَكُونُ . وَاِذَا كَانَ ذٰلِكَ كَذٰلِكَ فَهٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةُ كَاَنَّهَا مُرَكَّبَةٌ مِنْ صِنَاعَةِ ٱلْكَلَامِ وَٱلصِّنَاعَةِ ٱلْخُلُقِيَّةِ اَعْنِي ٱلْمَدَنِيَّةَ . وَاِنَّمَا لَمْ يُوجَدْ لِمَنْ تَقَدَّمَ قَوْلٌ مُسْتَوْفٍ فِي اَجْزَائِهَا اِمَّا مِنْ قِبَلِ جَهْلِهِمْ وَاِمَّا مِنْ قِبَلِ اَنَّهُمْ ضَنُّوا عَلَى غَيْرِهِمْ وَبَخِلُوا عَلَيْهِمْ بِمَا وَقَفُوا عَلَيْهِ مِنْ ذٰلِكَ لِمَكَانِ ٱلْخَيْرَاتِ ٱلَّتِي مِنْ خَارِجٍ . فَهٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةُ هِيَ جُزْءٌ مِنْ صِنَاعَةِ ٱلْمَنْطِقِ وَهِيَ شَبِيهَةٌ بِٱلْجَدَلِ فِي اَنَّهَا تَنْظُرُ فِي كِلَا ٱلْمُتَقَابِلَيْنِ وَفِي اَنَّهُمَا لَيْسَا يَنْظُرَانِ فِي شَيْءٍ مَحْدُودٍ نَظَرًا يَبْلُغَانِ بِهِ ٱلْيَقِينَ لٰكِنْ اِنَّمَا يَبْلُغَانِ مِنَ ٱلنَّظَرِ مَا دُونَ ٱلْيَقِينِ

---

(١) هذا التقسيم قد اخذهُ عن ارسطاطليس كل من تكلموا في الخطابة. وناهيك بهِ من تقسيم يفي بالمقصود ويشمل كل اجزاء الخطابة والفرنج يدعون هذه الاقسام الثلاثة (Preuves, mœurs oratoires, passions)



الفصل الثالث

في الاقاويل المقنعة

البحث الاوّل

في ان الخطيب لا بد له للاقناع من معرفة القياس وعلم المنطق

(من تلخيص كتاب ارسطاطاليس في الخطابة لابن رشد)

مِنْ اَجْلِ اَنَّهُ مَعْلُومٌ اَنَّ ٱلْاَشْيَاءَ ٱلْمَنْسُوبَةَ اِلَى هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ اِنَّمَا يُقْصَدُ بِهَا ٱلتَّصْدِيقُ وَٱلْاعْتِرَافُ مِنَ ٱلْمُخَاطِبِ بِٱلشَّيْءِ ٱلَّذِي فِيهِ ٱلدَّعْوَى وَذٰلِكَ لَا يَكُونُ اِلَّا بِتَثْبِيتِ ٱلشَّيْءِ عِنْدَ ٱلْمُعْتَرِفِ بِهِ. وَذٰلِكَ اَنَّا اِنَّمَا نَعْتَرِفُ بِٱلشَّيْءِ ٱلَّذِي رَاَيْنَا اَنَّهُ قَدْ ثَبَتَ عِنْدَنَا وَٱلشَّيْءُ ٱلَّذِي تَثْبُتُ بِهِ ٱلْاَشْيَاءُ عَلَى طَرِيقِ ٱلْخَطَابَةِ هُوَ ٱلضَّمِيرُ (١) لِاَنَّ هٰذَا هُوَ اَصْلُ ٱلتَّصْدِيقِ وَعَمُودُهُ فِي ٱلْاُمُورِ ٱلَّتِي تُوقِعُ هٰذَا ٱلنَّحْوَ مِنَ ٱلتَّصْدِيقِ اَعْنِي ٱلتَّصْدِيقَ ٱلْبَلَاغِيَّ. وَٱلضَّمِيرُ هُوَ نَوْعٌ مِنَ ٱلْقِيَاسِ وَمَعْرِفَةُ ٱلْقِيَاسِ جُزْءٌ مِنْ صِنَاعَةِ ٱلْمَنْطِقِ فَقَدْ يَجِبُ اَنْ يَكُونَ صَاحِبُ ٱلْمَنْطِقِ هُوَ ٱلَّذِي يَنْظُرُ فِي هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ اِمَّا فِي كُلِّهَا وَاِمَّا فِي اَجْزَاءٍ مِنْهَا. وَبَيِّنٌ اَنَّ ٱلَّذِي يَعْرِفُ ٱلْقِيَاسَ مِنْ كَمْ شَيْءٍ يَلْتَئِمُ وَيَكُونُ وَمَتَى يَكُونُ فَهُوَ اَقْدَرُ عَلَى عَمَلِ ٱلضَّمِيرِ مِمَّنْ يَعْرِفُ ٱلضَّمِيرَ فَقَطْ دُونَ اَنْ

(١) يريد بالضمير القياس الاضماري (Enthymème) وهو القياس الذي قدّرت احدى مقدّمتيه امّا الكبرى وامّا الصغرى

تعرفَ ٱلقياسَ ٱلذي هُوَ جنسُهُ. وٱلذي يَزِيدُ على هٰذا فيعلمُ لِماذا تُعمَلُ ٱلضمائرُ وٱلفصولُ ٱلتي بينَ ٱلضميرِ وبينَ سائرِ ٱلمقاييسِ ٱلتي تُستعمَلُ في ٱلصنائعِ ٱلأُخَرِ فهُوَ أقدرُ مِن ذينِكَ. وَٱلمعرفةُ بهذا كلِّهِ إنَّما هُوَ لِصناعةِ ٱلمنطقِ. فإنَّ لِلقُوَّةِ ٱلواحدةِ بعينِها أعني لِلصناعةِ ٱلواحدةِ بعينِها أن تَعرِفَ ٱلشيءَ ٱلذي هُوَ حقٌّ وٱلذي هُوَ شبيهٌ بٱلحقِّ وٱلتصديقاتُ ٱلخُطبيَّةُ وإن لم تكُنْ حقًّا فهي شبيهةٌ بٱلحقِّ وأيضًا فإنَّ ٱلناسَ متهيِّئونَ بطبيعتِهِم كُلَّ ٱلتهيئةِ نحوَ ٱلوُقوفِ على ٱلحقِّ نفسِهِ. وهُمْ أكثرُ ذلكَ يأْتُونَهُ ويفعلُونَ عنهُ. وٱلمحمُودَاتُ وهِيَ ٱلتي تكونُ منها ٱلضمائرُ شبيهةٌ بٱلحقِّ مِن قِبَلِ أنَّها نائبةٌ عندَ ٱلجمهورِ منابَ ٱلحقِّ. وٱلشبيهُ بٱلحقِّ قد يدخلُ في علمِ ٱلحقِّ ٱلذي هُوَ عِلمُ ٱلمنطقِ. وإذا كانَ ٱلأمرُ هكذا فقدِ ٱستبانَ أنَّ قُصورَ هؤلاءِ فيما تكلَّموا فيهِ مِن أمرِ ٱلخطابةِ إنَّما كانَ مِن أجلِ أنَّهُ لم يكُنْ عندَهُمْ عِلمٌ بٱلمنطقِ وأنَّ سائرَ مَن تكلَّمَ في ٱلخطابةِ ومَن يستعمِلُ ٱلأقاويلَ ٱلخُطبيَّةَ فقط مِن غيرِ أن يتقدَّموا فيعرفُوا هٰذهِ ٱلأشياءَ ٱلتي هِيَ عَمُودُ ٱلبلاغةِ إنَّهُمْ إنَّما يتكلَّمونَ في أشياءَ تجري مِنَ ٱلبلاغةِ مجرى ٱلتزيينِ وٱلتنميقِ ٱلذي يكونُ في ظاهرِ ٱلشيءِ وصفحتِهِ لا في ٱلأشياءِ ٱلتي تتنزَّلُ منها منزلةَ ما بِهِ قِوامُ ٱلشيءِ ووُجودُهُ وإن كانَ قد يُظَنُّ بما فعلُوا مِن ذلكَ أنَّهُمْ قد بلغُوا ٱلغايةَ مِنَ ٱلأقاويلِ ٱلإقناعيَّةِ وجرَوْا في ذلكَ على طريقِ ٱلصوابِ وٱلعدلِ

تُعمَلُ مِنْهَا ٱلْمَقَايِيسُ فِي صِنَاعَةٍ وَاحِدَةٍ مِنْ هٰذِهِ ٱلثَّلَاثِ ٱلَّتِي ذَكَرْنَا بَلْ فِي جَمِيعِهَا اِذْ كَانَتْ لَا تُسْتَعْمَلُ نَفْسُهَا وَاِنَّمَا تُسْتَعْمَلُ قُوَّتُهَا. وَامَّا ٱلْأَنْوَاعُ فَهِيَ ٱلْمُقَدِّمَاتُ ٱلْخَاصَّةُ بِصِنَاعَةٍ صِنَاعَةٍ مِنَ ٱلصَّنَائِعِ ٱلْجُزْئِيَّةِ مِثْلُ ٱلْمُقَدِّمَاتِ ٱلَّتِي تُعْمَلُ مِنْهَا ٱلْمَقَايِيسُ فِي ٱلْأُمُورِ ٱلطَّبِيعِيَّةِ فَإِنَّهَا لَا تُعْمَلُ مِنْهَا ٱلْمَقَايِيسُ فِي ٱلْأُمُورِ ٱلْخُلُقِيَّةِ وَلَا ٱلَّتِي فِي ٱلْأُمُورِ ٱلْخُلُقِيَّةِ تُعْمَلُ مِنْهَا ٱلْمَقَايِيسُ فِي ٱلْأُمُورِ ٱلطَّبِيعِيَّةِ. وَاِذَا كَانَ ٱلْأَمْرُ هٰكَذَا فَإِذَنِ ٱلْمَوَاضِعُ لَا يُؤَلَّفُ مِنْهَا قِيَاسٌ فِي صِنَاعَةٍ مَخْصُوصَةٍ اِذْ مَا يُتَصَوَّرُ مِنْهَا هُوَ عَامٌّ لِأَكْثَرَ مِنْ صِنَاعَةٍ وَاحِدَةٍ. وَامَّا ٱلْأَنْوَاعُ فَهِيَ ٱلَّتِي تُؤَلَّفُ مِنْهَا ٱلْمَقَايِيسُ ٱلَّتِي تَلْتَئِمُ مِنْهَا ٱلصِّنَاعَةُ ٱلَّتِي تِلْكَ ٱلْأَنْوَاعُ مَخْصُوصَةٌ بِهَا. لٰكِنَّ ٱلْأَنْوَاعَ ٱلَّتِي نَحْنُ عَازِمُونَ فِي هٰذَا ٱلْكِتَابِ عَلَى ذِكْرِهَا لَيْسَتْ هِيَ مُقَدِّمَاتٍ يَقِينِيَّةً لِأَنَّهُ لَوْ كَانَ ذٰلِكَ كَذٰلِكَ لَكَانَتِ ٱلْمَقَايِيسُ ٱلْخُطْبِيَّةُ مَقَايِيسَ يَقِينِيَّةً وَلَمْ تَكُنْ مَقَايِيسَ جَدَلِيَّةً فَضْلًا عَنْ خُطْبِيَّةٍ. وَٱلضَّمَائِرُ ٱلْمَعْمُولَةُ فِي هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ اَكْثَرُ ذٰلِكَ اِنَّمَا تُؤَلَّفُ مِنْ هٰذِهِ ٱلْأَنْوَاعِ مَا كَانَ مِنْهَا خَاصًّا بِجِنْسٍ جِنْسٍ مِنْ اَجْنَاسِ ٱلْخَطَابَةِ ٱلثَّلَاثَةِ وَمَا كَانَ مِنْهَا عَامًّا لِلْاَجْنَاسِ ٱلثَّلَاثَةِ ٱلَّتِي تُحَدَّدُ بَعْدُ

البحث الرابع

في التعريف والحد والرسم

(من كتاب الشفاء لابن سينا والمواقف للايجي وغيرهما)

(راجع صفحة ١٤ من علم الخطابة)

اَلتَّعْرِيفُ عِنْدَ اَهْلِ اَلْعَرَبِيَّةِ هُوَ جَعْلُ اَلذَّاتِ مُشَارًا بِهَا اِلَى خَارِجٍ اِشَارَةً وَضْعِيَّةً وَيُقَابِلُهَا اَلتَّنْكِيرُ. وَعِنْدَ اَلْمَنْطِقِيِّينَ هُوَ اَلطَّرِيقُ اَلْمُوصِلُ اِلَى اَلْمَطْلُوبِ اَلتَّصَوُّرِيِّ وَيُسَمَّى مُعَرِّفًا وَقَوْلاً شَارِحًا اَيضًا وَيُسَمَّى حَدًّا اَيضًا عِنْدَ اَلْاُصُولِيِّينَ. وَذٰلِكَ اَلْمَطْلُوبُ اَلتَّصَوُّرِيُّ يُسَمَّى مُعَرَّفًا وَمَحْدُودًا. وَبِالْجُمْلَةِ فَالْمُعَرِّفُ مَا يُكْتَسَبُ بِهِ اَلتَّصَوُّرُ فَخَرَجَ مَا يَحْصُلُ بِطَرِيقِ اَلْحَدْسِ وَمَا يَحْصُلُ مِنَ اَلْمَلْزُومَاتِ اَلْبَيِّنَةِ مِنَ اَلْعِلْمِ بِاللَّوَازِمِ فَاِنَّ اَلْاِكْتِسَابَ اِنَّمَا هُوَ بِالنَّظَرِ. وَقَالَ اَلْمَنْطِقِيُّونَ: لَا بُدَّ فِي اَلْمُعَرِّفِ مِنْ مُمَيِّزٍ فَاِنْ كَانَ اَلْمُمَيِّزُ ذَاتِيًّا سُمِّيَ اَلْمُعَرِّفُ حَدًّا وَاِنْ كَانَ عَرَضِيًّا سُمِّيَ اَلْمُعَرِّفُ رَسْمًا. وَقَالَ اَلْمُتَقَدِّمُونَ: اِنَّ اَلرَّسْمَ مِنْهُ تَامٌّ يُمَيِّزُ اَلْمَرْسُومَ مِنْ كُلِّ مَا يُغَايِرُهُ وَهُوَ يَتَرَكَّبُ مِنَ اَلْجِنْسِ اَلْقَرِيبِ وَاَلْخَاصَّةِ كَتَعْرِيفِ اَلْاِنْسَانِ بِالْحَيَوَانِ اَلضَّاحِكِ. وَمِنْهُ نَاقِصٌ يُمَيِّزُهُ عَنْ بَعْضِ مَا يُغَايِرُهُ وَيَكُونُ بِالْخَاصَّةِ وَحْدَهَا اَوْ بِهَا وَبِالْجِنْسِ اَلْبَعِيدِ كَتَعْرِيفِ اَلْاِنْسَانِ بِالضَّاحِكِ اَوْ بِالْجِسْمِ اَلضَّاحِكِ اَوْ بِعَرَضِيَّاتٍ تَخْتَصُّ جُمْلَتُهَا بِحَقِيقَةٍ وَاحِدَةٍ كَقَوْلِنَا فِي

تَعْرِيفِ ٱلْإِنْسَانِ : اِنَّهُ مَاشٍ عَلَى قَدَمَيْهِ عَرِيضُ ٱلْاَظْفَارِ بَادِي ٱلْبَشَرَةِ مُسْتَقِيمُ ٱلْقَامَةِ ضَحَّاكٌ بِٱلطَّبْعِ . وَصَرَّحُوا بِاَنَّ ٱلْمُسَاوَاةَ شَرْطٌ لِجُودَةِ ٱلرَّسْمِ وَجَوَّزُوا ٱلرَّسْمَ بِٱلْاَعَمِّ وَٱلْاَخَصِّ وَاَيَّدَ ذٰلِكَ بِاَنَّ ٱلْمُعَرِّفَ لَا بُدَّ اَنْ يُفِيدَ ٱلتَّمَيُّزَ عَنْ بَعْضِ ٱلْاَغْيَارِ كَمَا يَقْتَضِيهِ تَعْرِيفُهُمْ لِلْمُعَرِّفِ بِمَا يَسْتَلْزِمُ مَعْرِفَتُهُ مَعْرِفَتَهُ . فَاِنَّ ٱلْمَعْرِفَةَ تَقْتَضِي ٱلتَّمْيِيزَ فِي ٱلْجُمْلَةِ . وَاَمَّا ٱلتَّمْيِيزُ عَنْ جَمِيعِهَا فَلَيْسَ بِشَرْطٍ لِاَنَّ ٱلتَّصَوُّرَاتِ ٱلْمُكْتَسَبَةَ كَمَا قَدْ تَكُونُ بِوَجْهٍ خَاصٍّ بِٱلشَّيْءِ اِمَّا ذَاتِيٍّ اَوْ عَرَضِيٍّ كَذٰلِكَ تَكُونُ بِوَجْهٍ عَامٍّ ذَاتِيٍّ اَوْ عَرَضِيٍّ . فَيَجِبُ اَنْ يَكُونَ كَاسِبُ كُلٍّ مِنْهُمَا مُعَرِّفًا فَٱلْمُسَاوَاةُ شَرْطٌ لِلْمُعَرِّفِ ٱلتَّامِّ دُونَ غَيْرِهِ حَدًّا كَانَ اَوْ رَسْمًا

قَالَ ٱلْاِيجِيُّ : (*) اَلْمُعَرِّفُ تَجِبُ مَعْرِفَتُهُ قَبْلَ ٱلْمُعَرَّفِ فَيَكُونُ غَيْرَهُ اَوْ اَجْلَى مِنْهُ فَلَا يُعَرَّفُ بِمَا لَا يُعْرَفُ اِلَّا بِهِ بِمَرْتَبَةٍ اَوْ اَكْثَرَ .

شرح مقالة الايجي للجرجاني

يقول : (المعرِّف تجب معرفتهُ قبل) معرفة (المعرَّف) لان معرفتهُ طريقٌ الى معرفته وسبب لها فلا بد ان تتقدمها . (فيكون غيرهُ) اذ لو كان عينه لزم كون الشيء معلوماً قبل ان يكون معلوماً (او) يكون ايضاً (اجلى منه) اذ لو ساواه في الجلاء او كان اخفى منهُ لم يكن معلوماً قبله . (فلا يعرَّف) هذا تفريع على كونه اجلى اي لا يعرَّف الشيء (بما لا يُعرَف الا بهِ) فانه لا يكون اجلى منه سواء توقف معرفته على معرفته (بمرتبة) واحدة ويسمى دوراً صريحاً كقولك : الشمس كوكب نهاري والنهار زمان كون الشمس طالعة . (او اكثر) ويسمى دوراً مضمراً كقولك : الحركة خروج الشيء من القوة الى الفعل بالتدريج والتدريج وقوع الشيء في زمان والزمانُ مقدار الحركة .(ولا بد) اشارةٌ الى شرط آخر للمعرِّف اي لا بد من (ان يساويه في العموم والخصوص ليحصل) بهِ (التميز) . (اذ لولاه)

وَلَا بُدَّ أَنْ يُسَاوِيَهُ فِي ٱلْعُمُومِ وَٱلْخُصُوصِ لِيَحْصُلَ ٱلتَّمَيُّزُ إِذْ لَوْلَاهُ لَدَخَلَ فِيهِ غَيْرُ ٱلْمُعَرَّفِ فَلَمْ يَكُنْ مَانِعًا وَمُطَّرِدًا . أَوْ خَرَجَ عَنْهُ بَعْضُ أَفْرَادِهِ فَلَمْ يَكُنْ جَامِعًا وَمُنْعَكِسًا وَلَا بُدَّ فِيهِ مِنْ مُمَيِّزٍ فَإِنْ كَانَ ذَاتِيًّا سُمِّيَ حَدًّا وَإِلَّا سُمِّيَ رَسْمًا . وَعَلَى ٱلتَّقْدِيرَيْنِ فَإِنْ ذُكِرَ فِيهِ تَمَامُ ٱلذَّاتِيِّ ٱلْمُشْتَرَكِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ غَيْرِهِ ٱلْمُسَمَّى بِٱلْجِنْسِ ٱلْقَرِيبِ فَتَامٌّ وَإِلَّا فَنَاقِصٌ . وَٱلْمُرَكَّبُ يُحَدُّ دُونَ ٱلْبَسِيطِ فَإِنْ تَرَكَّبَ عَنْهُمَا غَيْرُهُمَا حُدَّ بِهِمَا وَإِلَّا فَلَا . وَكُلُّ كَسْبِيٍّ لَهُ خَاصَّةٌ بَيِّنَةٌ يُرْسَمُ وَإِلَّا فَلَا .

اي لو لا كونهُ مساوياً (لدخل فيه غير المعرَّف) على تقدير كونه اعمَّ مطلقاً او من وجهٍ (فلم يكن مانعاً) من دخول غير المعرف فيهِ (و) لا (مطرداً) وهو ان يكون بحيث كلما صدق على شيء صدق عليهِ المعرَّف ايضاً. (او خرج عنهُ بعض افراده) على تقدير كونه اخص اماً مطلقاً او من وجه (فلم يكن جامعاً) لجميع افراد المعرَّف (و) لا (منعكساً) وهو ان يكون بحيث يصدق على كل ما صدق عليه المعرَّف. واعلم ان اشتراط المساواة في الصدق ما ذهب اليهِ المتأخرون اذ حينئذٍ يحصل التميز التام بحيث يمتاز جميع افراد المعرف عن جميع ما عداها ولايلتبس شيء منها بغيرها... (ولا بد فيه) اي في المعرَّف (من مميز مساوٍ للعرَّف) (فان كان) المميز (ذاتيًّا سمي) المعرَّف (حدًّا) (والا سمي رسماً. وعلى التقديرين فان ذكر فيهِ تمام الذاتي المشترك بينهُ وبين غيره المسمى بالجنس القريب فتامٌّ) إمَّا حد تامٌّ مركب من الجنس والفصل القريبين وامَّا رسم تام مركب من الخاصة والجنس القريب. (والا فناقص) امَّا حد ناقص سواء كان بالفصل وحده او مع الجنس البعيد او العرض العام عند من يجوّز اخذه في الحد. وامَّا رسم ناقص بالخاصة وحدها او مع الجنس البعيد او العرض العام عند من يجوز اخذهُ في الرسم. (والمركب) اذا لم يكن بديهيَّ التصور (يحد) باجزائه حدًّا تاماً وناقصاً (دون البسيط) فانه لا يمكن تحديده اذ لا جزء لهُ (فان تركب عنها) عن المركب والبسيط (غيرهما) ولا يكون ذلك الغير بديهي التصور (حدَّ بهما والا فلا) يحد بهما اذ لم يقعا جزء الشيء (وكل) متصور (كسبي) مركب او بسيط (لهُ خاصة) شاملة لازمة (بينة) بحيث يكون تصورها

فَإِنْ كَانَ مُرَكَّبًا أَمْكَنَ رَسْمُهُ ٱلتَّامُّ وَإِلَّا فَٱلنَّاقِصُ. وَهٰهُنَا نَوْعَانِ آخَرَانِ مِنَ ٱلتَّعْرِيفِ ٱلْأَوَّلُ بِٱلْمِثَالِ وَهُوَ بِٱلْحَقِيقَةِ تَعْرِيفٌ بِٱلْمُشَابَهَةِ. فَإِنْ كَانَتْ مُفِيدَةً لِلتَّمْيِيزِ فَهِيَ خَاصَّةٌ فَيَكُونُ رَسْمًا نَاقِصًا وَإِلَّا لَمْ تَصْلُحْ لِلتَّعْرِيفِ. وَٱلثَّانِي ٱلتَّعْرِيفُ ٱللَّفْظِيُّ وَهُوَ أَنْ لَا يَكُونَ ٱللَّفْظُ

مستلزمًا لتصوره (يرسم. والا) اي وان لم تكن لهُ خاصة كذلك (فلا) يرسم. (فان كان) ذلك الكسبي الذي له تلك الخاصة (مركبًا امكن رسمه التـام) بتركيب جنسه القريب مع خاصته (والا فالناقص. وههنا نوعان آخران من التعريف الاول) التعريفَ (بالمثال) سواء كان جزئيًا للمعرَّف كقولك الاسم كزيد والفعل كضرب او لا يكون جزئيًا له كقولك: العلم كالنور والجهل كالظلمة. (وهو بالحقيقة تعريف بالمشابهة) التي بين ذلك المعرَّف وبين المثال. (فان كانت) تلك المشابهة (مفيدة للتميز فهي خاصة) لذلك المعرَّف (فيكون) التعريف بها (رسمًا ناقصًا) داخلًا في الاقسام الاربعة المذكورة لمعرِّف (والّا) اي وان لم تكن تلك المشابهة مفيدة للتمييز (لم تصلح للتعريف) بها فليس التعريف بالمثال قسيمًا على حدة. ولما كان استيناس العقول القاصرة بالامثلة اكثر شاع في مخاطبات المتعلمين التعريفات بها. (والثاني التعريف اللفظي. وهو ان لا يكون اللفظ واضح الدلالة) على معنى (فيفسَّر بلفظ اوضح دلالة) على ذلك المعنى كقولك: الغضنفر الاسد. وليس هذا تعريفًا حقيقيًا يراد بهِ افادة تصور غير حاصل. انما المراد تعيين ما وضع له لفظ الغضنفر من بين سائر المعاني ليلتفت اليهِ ويعلم انهُ موضوع بازائهِ. فمآلهُ الى التصديق وهو طريقة اهل اللغة وخارج عن المعرَّف الحقيقي واقسامه الاربعة التي ذكرت. وحقــهُ ان يكون بالفاظ مفردة مرادفة فان لم يوجد ذُكر مركبٌ يقصد بهِ تعيين المعنى لا تفصيلهُ. واعلم ان التعريف الحقيقي الذي يقصد بهِ تحصيل ما ليس بحاصـل من التصورات ينقسم الى قسمين: احدهما ما يقصد بهِ تصور مفهومات غير معلومة الوجود في الخارج ويسمى تعريفًا بحسب الاسم. فاذا عُلم مثـلًا مفهوم الجنس اجمالا واريد تصورهُ بوجه اكمل فان فصل نفس مفهومهِ باجزائه كان ذلك حدًّا له اسميًا. وان ذكر في تعريفه عوارضه كان ذلك له رسمًا اسميًا. والثاني ما يقصد بهِ تصور حقائق موجودة ويسمى تعريفًا بحسب الحقيقة اما حدًّا او رسمًا...

وَاضِحَ ٱلدَّلَالَةِ فَيُفَسَّرَ بِلَفْظٍ اَوْضَحَ دَلَالَةً. ثُمَّ اِنَّهُ يُقَدَّمُ فِي ٱلتَّعْرِيفِ ٱلْاَعَمُّ وَيُحْتَرَزُ عَنِ ٱلْاَلْفَاظِ ٱلْغَرِيبَةِ ٱلْوَحْشِيَّةِ وَعَنِ ٱلْمُشْتَرَكِ وَٱلْمَجَازِ بِلَا قَرِينَةٍ وَبِٱلْجُمْلَةِ فَعَنْ كُلِّ لَفْظٍ غَيْرِ ظَاهِرِ ٱلدَّلَالَةِ عَلَى ٱلْمَقْصُودِ

البحث الخامس

في الكلي والجزئي

(من كتاب الشفاء لابن سينا وتعريفات السيد الجرجاني وشرح الشمسية

(راجع صفحة ١٦ من الجزء الثاني من علم الادب)

اَلْكُلِّيُّ عِنْدَ ٱلْمَنْطِقِيِّينَ هُوَ ٱلْمَفْهُومُ ٱلَّذِي لَا يَمْنَعُ تَصَوُّرُهُ مِنْ وُقُوعِ شِرْكَةِ كَثِيرِينَ فِيهِ بِحَيْثُ يُمْكِنُ تَقْسِيمُهُ اِلَى اَجْزَاءٍ. وَٱلْمُعْتَبَرُ فِي ٱلْكُلِّيِّ اِمْكَانُ فَرْضِ صِدْقِهِ عَلَى كَثِيرِينَ سَوَاءٌ كَانَ صَادِقًا اَوْ لَمْ يَكُنْ وَسَوَاءٌ فَرَضَ ٱلْعَقْلُ صِدْقَهُ اَوْ لَمْ يَفْرِضْ قَطُّ. وَيُقَابِلُهُ

(ثم انهُ يقدم في التعريف الاعم) لكونه اظهر عند العقل فتقديمهُ اولى ولان الاخص قيد لهُ مخصّص اياه فكان تقديمه عليه انسب ومايقال من انه واجب في الحد التام محصل لجزئه الصوري حتى اذا أُخّر الجنس فيه كان حدًّا ناقصاً فليس بشيء اذ ليس للحد التام جزء خارج عن اجزاء الماهية المنحصرة في الجنس والفصل. (ويحترز) فيه (عن الالفاظ الغريبة الوحشية) التي لا يفهم السامع معناها فيحتاج الى تفسيرها فتطول المسافة ولذلك ما يختلف بالقياس الى السامعين فان اصطلاحات كل قوم مشهورة عند اربابها غريبة عند غيرهم. (وعن المشترك والمجاز بلا قرينة) ظاهرة فيتردد السامع حينئذ في المشترك بين المصور وغيره ويتبادر ذهنه في المجاز الى غيرهِ. (وبالجملة فعن كل لفظ غير ظاهر الدلالة على المقصود) وذلك لانه يصدر الاظهار والتوضيح فلا بد من ظهور الدلالة

ٱلْجُزْئِيُّ وَهُوَ ٱلْمَفْهُومُ بِمَا يَتَرَكَّبُ مِنْهُ وَمِنْ غَيْرِهِ شَيْءٌ سَوَاءٌ كَانَ مَوْجُودًا فِي ٱلْخَارِجِ اَوْ فِي ٱلْعَقْلِ . وَلِلْكُلِّيِّ تَقْسِيمَاتٌ فَهُوَ اِمَّا حَقِيقِيٌّ وَهُوَ ٱلَّذِي مَرَّ تَحْدِيدُهُ . وَاِمَّا اِضَافِيٌّ وَهُوَ مَا ٱنْدَرَجَ تَحْتَهُ شَيْءٌ آخَرُ فِي نَفْسِ ٱلْاَمْرِ وَهُوَ اَخَصُّ مِنَ ٱلْكُلِّيِّ ٱلْحَقِيقِيِّ . وَٱلْكُلِّيُّ اَيْضًا اِمَّا جِنْسٌ اَوْ نَوْعٌ اَوْ فَصْلٌ اَوْ خَاصَّةٌ اَوْ عَرَضٌ عَامٌّ . وَيُقْسَمُ اَيْضًا اِلَى كُلِّيٍّ طَبِيعِيٍّ اَوْ عَقْلِيٍّ عَلَى حَسَبِ مَا يَكُونُ مَوْجُودًا فِي ٱلْخَارِجِ اَوْ يَفْتَرِضُهُ ٱلْعَقْلُ وَٱعْلَمْ اَنَّ كُلَّ مَفْهُومٍ آخَرَ سَوَاءٌ كَانَا كُلِّيَيْنِ اَوْ جُزْئِيَّيْنِ اَحَدُهُمَا كُلِّيًّا وَٱلْآخَرُ جُزْئِيًّا فَٱلنِّسْبَةُ بَيْنَهُمَا مُنْحَصِرَةٌ فِي اَرْبَعٍ : ٱلْمُسَاوَاةُ . وَٱلْعُمُومُ مُطْلَقًا . وَٱلْعُمُومُ مِنْ وَجْهٍ . وَٱلْمُبَايَنَةُ ٱلْكُلِّيَّةُ . وَذٰلِكَ اَنَّهُ اِنْ لَمْ يَتَصَادَقَا عَلَى شَيْءٍ اَصْلًا فَهُمَا مُتَبَايِنَانِ تَبَايُنًا كُلِّيًّا . وَاِنْ تَصَادَقَا فَاِنْ تَلَازَمَا فِي ٱلصِّدْقِ فَهُمَا مُتَسَاوِيَانِ وَاِلَّا فَاِنِ ٱسْتَلْزَمَ صِدْقُ اَحَدِهِمَا صِدْقَ ٱلْآخَرِ فَبَيْنَهُمَا عُمُومٌ وَخُصُوصٌ مِنْ وَجْهٍ وَكُلٌّ مِنْهُمَا : (اَعَمُّ) مِنَ ٱلْآخَرِ مِنْ وَجْهٍ وَهُوَ كَوْنُهُ شَامِلًا لِلْآخَرِ وَلِغَيْرِهِ . (وَاَخَصُّ) مِنْهُ مِنْ وَجْهٍ وَهُوَ كَوْنُهُ مَشْمُولًا لِلْآخَرِ فَٱلْمُسَاوَاةُ بَيْنَهُمَا اَنْ يَصْدُقَ كُلٌّ مِنْهُمَا بِٱلْفِعْلِ عَلَى كُلِّ مَا صَدَقَ عَلَيْهِ ٱلْآخَرُ سَوَاءٌ وَجَبَ ذٰلِكَ ٱلصِّدْقُ اَوْ لَا

وَٱعْلَمْ اَنَّ فِي ٱلْكِتَابَةِ وَٱلْخَطَابَةِ وَٱلشِّعْرِ مَوْقِعًا لِلْكُلِّيِّ وَٱلْجُزْئِيِّ . وَعِنْدَ ٱلْبَدِيعِيِّينَ نَوْعٌ يَعْرِفُونَهُ بِحَصْرِ ٱلْجُزْئِيِّ وَاِلْحَاقِهِ بِٱلْكُلِّيِّ . فَحَصْرُ ٱلْجُزْئِيِّ هُوَ اَنْ يَأْتِيَ ٱلْمُتَكَلِّمُ اِلَى نَوْعٍ مِنَ

ٱلْأَنْوَاعِ فَيَجْعَلَهُ جِنْسًا تَعْظِيمًا لَهُ وَتَفْخِيمًا لِأَمْرِهِ بَعْدَ أَنْ يَحْصُرَ جَمِيعَ أَقْسَامِهِ. وَٱلْمُرَادُ عِنْدَهُمْ بِٱلنَّوْعِ أَعَمُّ مِنْ أَنْ يَكُونَ صَادِقًا عَلَى مُتَعَدِّدٍ ذِهْنًا كَمَا هُوَ ٱلنَّوْعُ ٱلْمَعْهُودُ عِنْدَ عُلَمَاءِ ٱلْمَنْطِقِ أَوْ لَا يَصْدِقُ إِلَّا عَلَى فَرْدٍ وَاحِدٍ كَٱلْجُزْئِيِّ ٱلْمَعْرُوفِ عِنْدَهُمْ. وَٱلْمُرَادُ بِٱلْكُلِّيِّ ٱلْجِنْسُ وَهُوَ مَا صَدَقَ عَلَى مُتَعَدِّدٍ ٱخْتَلَفَتْ حَقِيقَةُ أَفْرَادِهِ. وَمِثَالُ ذٰلِكَ عِنْدَهُمْ كَقَوْلِ ٱلْمُتَنَبِّي:

هِيَ ٱلْغَرَضُ ٱلْأَقْصَى وَرُؤْيَتُكَ ٱلْمُنَى

وَمَنْزِلُكَ ٱلدُّنْيَا وَأَنْتَ ٱلْخَلَائِقُ

فَقَدْ قَصَدَ تَعْظِيمَ مَمْدُوحِهِ فَجَعَلَ مَنْزِلَهُ ٱلَّذِي هُوَ جُزْئِيٌّ كُلِّيًّا وَهُوَ ٱلدُّنْيَا وَجَعَلَ ذَاتَهُ ٱلَّتِي هِيَ جُزْئِيَّةٌ كُلِّيَّةٌ وَهِيَ ٱلْخَلَائِقُ. وَأَمَّا حَصْرُ أَقْسَامِ ٱلْجُزْئِيِّ فَلِأَنَّ ٱلْعَالَمَ عِبَارَةٌ عَنْ حَيَوَانٍ وَنَبَاتٍ وَجَمَادٍ. وَٱلْمَنْزِلُ شَامِلٌ لَهَا

البحث السادس

في الجنس والنوع

(عن السيف الآمدي وشرح الشمسيّة والنجاة لابن سينا)

(راجع صفحة ١٧ من علم الخطابة)

اَلْجِنْسُ فِي ٱللُّغَةِ ٱلضَّرْبُ فِي كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ أَعَمُّ مِنَ ٱلنَّوْعِ. يُقَالُ: ٱلْإِنْسَانُ نَوْعٌ وَٱلْحَيَوَانُ جِنْسٌ. وَيُرَادُ بِهِ عِنْدَ أَهْلِ ٱلْعَرَبِيَّةِ ٱلْمَاهِيَّةُ. وَكُلُّ مَا دَلَّ عَلَى شَيْءٍ وَعَلَى كُلِّ مَا أَشْبَهَهُ وَبِٱلنَّظَرِ إِلَى

هٰذَا قِيلَ ٱسْمُ ٱلْجِنْسِ ٱسْمٌ مَوضُوعٌ لِلْمَاهِيَّةِ مِنْ حَيْثُ هِيَ . وَٱلْجِنْسُ عِبَارَةٌ عَنْ كُلِّيٍّ مَقُولٍ عَلَى كَثِيرِينَ مُخْتَلِفِينَ بِٱلْأَغْرَاضِ دُونَ ٱلْحَقَائِقِ . وَقِيلَ أَيْضًا . ٱلْجِنْسُ هُوَ ٱلْمَقُولُ عَلَى أَفْرَادٍ مُخْتَلِفَةٍ مِنْ حَيْثُ ٱلْمَقَاصِدِ وَٱلْأَحْكَامِ . وَٱلنَّوْعُ كُلِّيٌّ مَقُولٌ عَلَى أَفْرَادٍ مُتَّفِقَةٍ مِنْ حَيْثُ ٱلْمَقَاصِدِ وَٱلْأَحْكَامِ مُخْتَلِفِينَ بِٱلْعَدَدِ فَقَطْ كَٱلْإِنْسَانِ فَإِنَّهُ مَقُولٌ عَلَى زَيْدٍ وَعَمْرٍو وَبَكْرٍ فِي جَوَابِ مَا هُوَ . وَرُبَّمَا أُطْلِقَ ٱلْجِنْسُ عَلَى ٱلْأَمْرِ ٱلْعَامِّ سَوَاءٌ كَانَ جِنْسًا عِنْدَ ٱلْفَلَاسِفَةِ أَوْ نَوْعًا . كَٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدِ مَثَلًا فَهُمَا نَوْعَانِ يَنْدَرِجَانِ فِي حُكْمٍ وَاحِدٍ وَيَشْتَرِكَانِ فِي ٱلْإِنْسَانِيَّةِ . ثُمَّ إِنَّ ٱلْجِنْسَ يُقْسَمُ إِلَى قَرِيبٍ وَبَعِيدٍ لِأَنَّهُ إِنْ كَانَ ٱلْجَوَابُ عَنِ ٱلْمَاهِيَّةِ وَعَنْ جَمِيعِ مُشَارَكَاتِهَا فِي ذٰلِكَ ٱلْجِنْسِ وَاحِدًا فَهُوَ قَرِيبٌ . وَيَكُونُ ٱلْجَوَابُ ذٰلِكَ ٱلْجِنْسَ فَقَطْ كَٱلْحَيَوَانِ بِٱلنِّسْبَةِ إِلَى ٱلْإِنْسَانِ وَعَنْ جَمِيعِ مَا يُشَارِكُهُ فِي ٱلْحَيَوَانِيَّةِ كَٱلْفَرَسِ وَٱلْغَنَمِ وَٱلْبَقَرِ وَنَحْوِهَا . وَإِنْ كَانَ ٱلْجَوَابُ عَنْهَا وَعَنْ جَمِيعِ مُشَارَكَاتِهَا فِي ذٰلِكَ ٱلْجِنْسِ مُتَعَدِّدًا فَهُوَ بَعِيدٌ وَيَكُونُ ٱلْجَوَابُ هُوَ غَيْرُهُ كَٱلْجِسْمِ ٱلنَّامِي بِٱلنِّسْبَةِ إِلَى ٱلْإِنْسَانِ فَإِنَّهُ جَوَابٌ عَنِ ٱلْإِنْسَانِ وَعَنْ بَعْضِ مُشَارَكَاتِهَا فِيهِ كَٱلنَّبَاتَاتِ . . وَٱلْأَجْنَاسُ تَتَرَتَّبُ مُتَصَاعِدَةً وَٱلْأَنْوَاعُ مُتَنَازِلَةً إِلَى أَنْ تَبْلُغَ إِلَى جِنْسٍ لَيْسَ فَوْقَهُ جِنْسٌ آخَرُ وَهُوَ ٱلْجِنْسُ ٱلْعَالِي وَإِلَى نَوْعٍ لَيْسَ تَحْتَهُ نَوْعٌ آخَرُ وَهُوَ ٱلْجِنْسُ ٱلْمُفْرَدُ

البحث السابع

في تعريف العلة والمعلول

(من كتاب المواقف لعبد الرحمان الايجي)

راجع صفحة ٢٠ من علم الخطابة

اِعلَمْ اَنَّ ٱلعِلِّيَّةَ وٱلمَعلُولِيَّةَ مِنَ ٱلعَوَارِضِ ٱلشامِلَةِ لِلمَوْجُودَاتِ عَلَى سَبِيلِ ٱلتَّقَابُلِ كَٱلإِمكَانِ وَٱلوُجُوبِ. وَتَصَوُّرُ ٱحتِيَاجِ ٱلشَّيْءِ الى غَيْرِهِ ضَرُورِيٌّ. فَٱلمُحتَاجُ اِلَيهِ يُسَمَّى عِلَّةً وَٱلمُحتَاجُ مَعلُولًا. وَٱلعِلَّةُ اِمَّا جُزْءُ ٱلشَّيْءِ اَوْ خَارِجٌ عَنْهُ. (وَٱلاَوَّلُ) اِنْ كَانَ بِهِ ٱلشَّيْءُ بِٱلفِعلِ كَٱلهَيْئَةِ لِلسَّرِيرِ فَهُوَ الصُّورَةُ. وَاِنْ كَانَ بِٱلقُوَّةِ كَٱلخَشَبِ لَهُ فَهُوَ ٱلمَادَّةُ. وَلَهَا اسمَاءٌ بِٱعتِبَارَاتٍ مُختَلِفَةٍ: فَمَادَّةٌ اِذْ تَتَوَارَدُ عَلَيهَا ٱلصُّوَرُ ٱلمُختَلِفَةُ. وَقَابِلٌ مِنْ جِهَةِ ٱستِعْدَادِهَا لِلصُّوَرِ. وَعُنصُرٌ اِذْ مِنهَا يَبتَدِئُ ٱلتَّرْكِيبُ. وَاسطَقِسٌ اِذْ اِلَيهَا يَنتَهِي ٱلتَّحلِيلُ. وَهَاتَانِ عِلَّتَانِ لِلمَاهِيَّةِ كَمَا اَنَّهُمَا عِلَّتَانِ لِلوُجُودِ فَيُخَصَّانِ بِٱسمِ عِلَّةِ ٱلمَاهِيَّةِ. (وَٱلثَّانِي) اِمَّا مَا بِهِ ٱلشَّيْءُ كَٱلنَّجَّارِ لِلسَّرِيرِ وَهُوَ ٱلفَاعِلُ. وَاِمَّا لِاَجلِهِ ٱلشَّيْءُ كَٱلجُلُوسِ عَلَيهِ لَهُ وَهُوَ ٱلغَايَةُ. وَهَاتَانِ تُخَصَّانِ بِٱسمِ عِلَّةِ ٱلوُجُودِ. وَٱلاُولَيَانِ لَا تُوجَدَانِ اِلَّا لِلمُرَكَّبِ. وَٱلغَايَةُ لَا تَكُونُ اِلَّا لِفَاعِلٍ بِٱلِاختِيَارِ. وَقَدْ تُسَمَّى فَائِدَةُ فِعلِ ٱلمُوجِبِ غَايَةً اَيضًا تَشبِيهًا. وَٱلغَايَةُ مَعلُولَةٌ فِي ٱلخَارِجِ وَاِنْ كَانَتْ عِلَّةً فِي ٱلذِّهنِ فَلَهَا عَلَاقَةٌ

ٱلعِلِّيَةِ وَٱلمَعْلُولِيَّةِ . وَيُسَمَّى جَمِيعُ مَا يُحْتَاجُ إِلَيْهِ ٱلشَّيْءُ عِلَّةً تَامَّةً وَهِيَ قَدْ تَكُونُ عِلَّةً فَاعِلِيَّةً أَوْ مَعَ ٱلغَايَةِ كَمَا فِي ٱلبَسِيطِ . وَقَدْ تَكُونُ مُجْتَمِعَةً مِنَ ٱلأَرْبَعِ كَمَا فِي ٱلمُرَكَّبِ ... وَٱلفَرْقُ بَيْنَ ٱلعِلَّةِ وَٱلشَّرْطِ أَنَ ٱلعِلَّةَ مُطَّرِدَةٌ فَحَيْثُمَا وُجِدَتْ وُجِدَ ٱلحُكْمُ وَتَأْثِيرُهَا بِٱلذَّاتِ . أَمَّا ٱلشَّرْطُ فَيَتَوَقَّفُ عَلَيْهِ تَأْثِيرُ ٱلمُؤَثِّرِ لَا ذَاتُهُ كَيُبُوسَةِ ٱلحَطَبِ لِلْاحْرَاقِ إِذِ ٱلنَّارُ لَا تُؤَثِّرُ فِي ٱلحَطَبِ بِٱلإِحْرَاقِ إِلَّا بَعْدَ أَنْ يَكُونَ يَابِسًا

الفصل الرابع

في آداب الخطابة

البحث الاوّل

في آداب كلام الخطيب

(من كتاب الدنيا والدين للماوردي)

(راجع صفحة ٣٨ من الجزء الثاني من علم الادب)

اعْلَمْ أَنَّ لِلْكَلَامِ آدَابًا إِنْ أَغْفَلَهَا ٱلمُتَكَلِّمُ أَذْهَبَ رَوْنَقَ كَلَامِهِ وَطَمَسَ بَهْجَةَ بَيَانِهِ وَلَهَا ٱلنَّاسُ عَنْ مَحَاسِنِ فَضْلِهِ بِمَسَاوِئِ أَدَبِهِ فَعَدَلُوا عَنْ مَنَاقِبِهِ بِذِكْرِ مَثَالِبِهِ . (فَمِنْ آدَابِهِ) أَنْ لَا يَتَجَاوَزَ فِي مَدْحٍ وَلَا يُسْرِفَ فِي ذَمٍّ وَإِنْ كَانَتِ ٱلنَّزَاهَةُ عَنِ ٱلذَّمِّ كَرَمًا . وَٱلتَّجَاوُزُ فِي ٱلمَدْحِ مَلَقًا يَصْدُرُ عَنْ مَهَانَةٍ وَٱلسَّرَفُ فِي ٱلذَّمِّ ٱنْتِقَامًا

يَصْدُرُ عَنْ شَرٍّ. وَكِلَاهُمَا شَيْنٌ وَإِنْ سَلِمَ مِنَ ٱلْكَذِبِ. عَلَى أَنَّ ٱلسَّلَامَةَ مِنَ ٱلْكَذِبِ فِي ٱلْمَدْحِ وَٱلذَّمِّ مُتَعَذِّرَةٌ لَاسِيَّمَا إِذَا مَدَحَ تَقَرُّبًا وَذَمَّ تَحَنُّقًا. وَحُكِيَ عَنِ ٱلْأَحْنَفِ بْنِ قَيْسٍ أَنَّهُ قَالَ سَهِرْتُ لَيْلَتِي أُفَكِّرُ فِي كَلِمَةٍ أُرْضِي بِهَا سُلْطَانِي وَلَا أُسْخِطُ بِهَا رَبِّي فَمَا وَجَدْتُهَا. وَقَالَ عَبْدُ ٱللهِ بْنُ مَسْعُودٍ: إِنَّ ٱلرَّجُلَ لَيَدْخُلُ عَلَى ٱلسُّلْطَانِ وَمَعَهُ دِينُهُ فَيَخْرُجُ وَمَا مَعَهُ دِينُهُ. قِيلَ: وَكَيْفَ ذٰلِكَ. قَالَ: يُرْضِيهِ بِمَا يُسْخِطُ ٱللهَ عَزَّ وَجَلَّ. وَسَمِعَ ٱبْنُ ٱلرُّومِيِّ رَجُلًا يَصِفُ رَجُلًا وَيُبَالِغُ فِي مَدْحِهِ فَأَنْشَأَ يَقُولُ:

إِذَا مَا وَصَفْتَ ٱمْرَءًا لِٱمْرِئٍ ... فَلَا تَغْلُ فِي وَصْفِهِ وَٱقْصِدِ
فَإِنَّكَ إِنْ تَغْلُ تَغْلُ ٱلظُّنُو ... نُ فِيهِ إِلَى ٱلْأَمَدِ ٱلْأَبْعَدِ
فَيَضْؤُلُ مِنْ حَيْثُ عَظَّمْتَهُ ... لِفَضْلِ ٱلْمَغِيبِ عَلَى ٱلْمَشْهَدِ

(وَمِنْ آدَابِهِ) أَنْ لَا تَبْعَثَهُ ٱلرَّغْبَةُ وَٱلرَّهْبَةُ عَلَى ٱلِٱسْتِرْسَالِ فِي وَعْدٍ أَوْ وَعِيدٍ يَعْجِزُ عَنْهُمَا وَلَا يَقْدِرُ عَلَى ٱلْوَفَاءِ بِهِمَا. فَإِنَّ مَنْ أَطْلَقَ بِهِمَا لِسَانَهُ وَأَرْسَلَ فِيهِمَا عِنَانَهُ وَلَمْ يَسْتَثْقِلْ مِنَ ٱلْقَوْلِ مَا يَسْتَثْقِلُهُ مِنَ ٱلْعَمَلِ صَارَ وَعْدُهُ نَكْثًا وَوَعِيدُهُ عَجْزًا. (وَمِنْ آدَابِهِ) إِنْ قَالَ قَوْلًا حَقَّقَهُ بِفِعْلِهِ وَإِذَا تَكَلَّمَ بِكَلَامٍ صَدَّقَهُ بِعَمَلِهِ فَإِنَّ إِرْسَالَ ٱلْقَوْلِ ٱخْتِيَارٌ وَٱلْعَمَلَ بِهِ ٱضْطِرَارٌ وَلَأَنْ يَفْعَلَ مَا لَمْ يَقُلْ أَجْمَلُ مِنَ أَنْ يَقُولَ مَا لَمْ يَفْعَلْ. وَقَالَ بَعْضُ ٱلْحُكَمَاءِ: أَحْسَنُ ٱلْكَلَامِ مَا لَا يُحْتَاجُ فِيهِ إِلَى ٱلْكَلَامِ أَيْ يَكْتَفِي بِٱلْفِعْلِ مِنَ ٱلْقَوْلِ. وَقَالَ مَحْمُودٌ ٱلْوَرَّاقُ:

اَلقَوْلُ مَا صَدَّقَهُ ٱلفِعْلُ وَٱلفِعْلُ مَا وَكَّدَهُ ٱلعَقْلُ
لَا يَثْبُتُ ٱلقَوْلُ إِذَا لَمْ يَكُنْ يُقِلُّهُ مِنْ تَحْتِهِ ٱلأَصْلُ

(وَمِنْ آدَابِهِ) أَنْ يُرَاعِيَ مَخَارِجَ كَلَامِهِ بِحَسَبِ مَقَاصِدِهِ وَأَغْرَاضِهِ فَإِنْ كَانَ تَرْغِيبًا قَرَنَهُ بِٱللِّينِ وَٱللُّطْفِ. وَإِنْ كَانَ تَرْهِيبًا خَلَطَهُ بِٱلخُشُونَةِ وَٱلعُنْفِ. فَإِنَّ لِينَ ٱللَّفْظِ فِي ٱلتَّرْهِيبِ وَخُشُونَتَهُ فِي ٱلتَّرْغِيبِ خُرُوجٌ عَنْ مَوْضِعِهِمَا وَتَعْطِيلٌ لِلْمَقْصُودِ بِهِمَا فَيَصِيرُ ٱلْكَلَامُ لَغْوًا وَٱلغَرَضُ ٱلمَقْصُودُ لَهْوًا. وَقَدْ قَالَ أَبُو ٱلأَسْوَدِ ٱلدِّيلِيُّ لِٱبْنِهِ: يَا بُنَيَّ إِنْ كُنْتَ فِي قَوْمٍ فَلَا تَتَكَلَّمْ بِكَلَامِ مَنْ هُوَ فَوْقَكَ فَيَمْقُتُوكَ. وَلَا بِكَلَامِ مَنْ هُوَ دُونَكَ فَيَزْدَرُوكَ. (وَمِنْ آدَابِهِ) أَنْ لَا يَرْفَعَ بِكَلَامِهِ صَوْتًا مُسْتَنْكَرًا وَلَا يَنْزَعِجَ لَهُ ٱنْزِعَاجًا مُسْتَهْجَنًا وَلْيَكُفَّ عَنْ حَرَكَةٍ تَكُونُ طَيْشًا وَعَنْ حَرَكَةٍ تَكُونُ عِيًّا. فَإِنَّ نَقْصَ ٱلطَّيْشِ أَكْثَرُ مِنْ فَضْلِ ٱلبَلَاغَةِ. وَقَدْ حُكِيَ أَنَّ ٱلحَجَّاجَ قَالَ لِأَعْرَابِيٍّ: أَخَطِيبٌ أَنَا. قَالَ: نَعَمْ لَوْلَا أَنَّكَ تُكْثِرُ ٱلرَّدَّ وَتُشِيرُ بِٱلْيَدِ وَتَقُولُ أَمَّا بَعْدُ. (وَمِنْ آدَابِهِ) أَنْ يَتَجَافَى هُجْرَ ٱلقَوْلِ وَمُسْتَقْبَحَ ٱلْكَلَامِ وَلْيَعْدِلْ إِلَى ٱلْكِنَايَةِ عَمَّا يُسْتَقْبَحُ صَرِيحُهُ وَيُسْتَهْجَنُ فَصِيحُهُ لِيَبْلُغَ ٱلغَرَضَ وَلِسَانُهُ نَزِهٌ وَأَدَبُهُ مَصُونٌ كَمَا أَنَّهُ يَصُونُ لِسَانَهُ عَنْ ذٰلِكَ فَهٰكَذَا يَصُونُ عَنْهُ سَمْعَهُ فَلَا يَسْمَعُ خَنًا وَلَا يُصْغِي إِلَى فُحْشٍ فَإِنَّ سَمَاعَ ٱلفُحْشِ دَاعٍ إِلَى إِظْهَارِهِ وَذَرِيعَةٌ إِلَى إِنْكَارِهِ وَإِذَا وُجِدَ عَنِ ٱلفُحْشِ مُعْرِضًا كَفَّ قَائِلُهُ وَكَانَ إِعْرَاضُهُ أَحَدَ ٱلنَّكِيرَيْنِ كَمَا أَنَّ سَمَاعَهُ أَحَدُ ٱلبَاعِثَيْنِ. وَأَنْشَدَنِي أَبُو ٱلحَسَنِ

اَبْنُ ٱلْحَارِثِ ٱلْهَاشِمِيُّ :

تَحَرَّ مِنَ ٱلطُّرْقِ اَوْسَاطَهَا وَعَدِّ عَنِ ٱلْمَوْضِعِ ٱلْمُشْتَبِهْ
وَسَمْعَكَ صُنْ عَنْ قَبِيحِ ٱلْكَلَامِ كَصَوْنِ ٱللِّسَانِ عَنِ ٱلنُّطْقِ بِهْ
فَاِنَّكَ عِنْدَ ٱسْتِمَاعِ ٱلْقَبِيحِ شَرِيكٌ لِقَائِلِهِ فَٱنْتَبِهْ

وَمِمَّا يَجْرِي مَجْرَى فُحْشِ ٱلْقَوْلِ وَهُجْرِهِ فِي وُجُوبِ ٱجْتِنَابِهِ وَلُزُومِ تَنَكُّبِهِ مَا كَانَ شَنِيعَ ٱلْبَدِيهَةِ مُسْتَنْكَرَ ٱلظَّاهِرِ وَاِنْ كَانَ عَقِبَ ٱلتَّامُّلِ سَلِيمًا وَبَعْدَ ٱلْكَشْفِ وَٱلرَّوِيَّةِ مُسْتَقِيمًا كَٱلَّذِي رَوَاهُ ٱلْاَزْدِيُّ عَنِ ٱلصَّوْلِيِّ لِبَعْضِ ٱلْمُتَكَلِّمِينَ مِنَ ٱلشُّعَرَاءِ :

اِنَّنِي شَيْخٌ كَبِيرٌ كَافِرٌ بِٱللّٰهِ سِيرِي
اَنْتَ رَبِّي وَاِلٰهِي رَازِقُ ٱلطِّفْلِ ٱلصَّغِيرِ

يُرِيدُ بِقَوْلِهِ (كَافِرٌ) اَيْ لَابِسٌ لِاَنَّ ٱلْكُفْرَ ٱلتَّغْطِيَةُ. وَلِذٰلِكَ سُمِّيَ ٱلْكَافِرُ بِٱللّٰهِ كَافِرًا لِاَنَّهُ قَدْ غَطَّى نِعْمَةَ ٱللّٰهِ بِمَعْصِيَتِهِ. وَقَوْلُهُ: (بِٱللّٰهِ سِيرِي) يُقْسِمُ عَلَيْهَا اَنْ تَسِيرَ. وَقَوْلُهُ: (اَنْتَ رَبِّي) يَعْنِي رَبِّي وَلَدَكِ مِنَ ٱلتَّرْبِيَةِ. وَاِلٰهِي رَازِقُ ٱلطِّفْلِ ٱلصَّغِيرِ كَمَا اَنَّهُ رَازِقُ ٱلْوَلَدِ ٱلْكَبِيرِ. فَٱنْظُرْ اِلَى هٰذَا ٱلتَّكَلُّفِ ٱلشَّنِيعِ وَٱلتَّعَمُّقِ ٱلْبَشِيعِ مَا ٱعْتَاضَ مِنْ حَيْثُ ٱلْبَدِيهَةِ اِذَا سَلِمَ بَعْدَ ٱلْفِكْرِ وَٱلرَّوِيَّةِ اِلَّا لَوْمًا اِنْ حَسُنَ فِيهِ ٱلظَّنُّ اَوْ ذَمًّا اِنْ قَوِيَ فِيهِ ٱلِٱرْتِيَابُ. وَقَلَّمَا يَكُونُ ذٰلِكَ اِلَّا مِنْ خَالِعٍ بَطِرٍ اَوْ مُرْتَابٍ اَشِرٍ

البحث الثاني

في خصال الخطيب

(عن الماوردي والغزالي ببعض تصرف)

(راجع صفحة ٣٩ من علم الخطابة)

اِنَّ ٱلْخَطِيبَ ٱلْحَرِيَّ بِٱلْإِرْشَادِ مَنْ قَدِ ٱسْتَكْمَلَتْ فِيهِ خَمْسُ خِصَالٍ : (اِحْدَاهُنَّ) عَقْلٌ كَامِلٌ مَعَ تَجْرِبَةٍ سَالِفَةٍ فَاِنَّ بِكَثْرَةِ ٱلتَّجَارِبِ تَصِحُّ ٱلرَّوِيَّةُ . وَقَدْ جَاءَ فِي ٱلْحَدِيثِ : اَسْتَرْشِدُوا ٱلْعَاقِلَ تُرْشَدُوا وَلَا تَعْصُوهُ فَتَنْدَمُوا . وَقَالَ عَبْدُ ٱللهِ بْنُ ٱلْحَسَنِ لِٱبْنِهِ مُحَمَّدٍ : ٱحْذَرُوا مَشُورَةَ ٱلْجَاهِلِ وَاِنْ كَانَ نَاصِحًا كَمَا تَحْذَرُ عَدَاوَةَ ٱلْعَاقِلِ اِذَا كَانَ عَدُوًّا فَاِنَّهُ يُوشِكُ اَنْ يُوَرِّطَكَ بِمَشُورَتِهِ فَيَسْبِقُ اِلَيْكَ مَكْرُ ٱلْعَاقِلِ وَتَوْرِيطُ ٱلْجَاهِلِ . وَقِيلَ لِرَجُلٍ مِنْ عَبْسٍ : مَا اَكْثَرَ صَوَابَكُمْ . قَالَ : نَحْنُ اَلْفُ رَجُلٍ وَفِينَا حَازِمٌ وَنَحْنُ نُطِيعُهُ فَكَاَنَّا اَلْفُ حَازِمٍ . وَكَانَ يُقَالُ اِيَّاكَ وَمُشَاوَرَةَ رَجُلَيْنِ شَابٍّ مُعْجَبٍ بِنَفْسِهِ قَلِيلِ ٱلتَّجَارِبِ فِي غَيْرِهِ اَوْ كَبِيرٍ قَدْ اَخَذَ ٱلدَّهْرُ مِنْ عَقْلِهِ كَمَا اَخَذَ مِنْ جِسْمِهِ . وَقِيلَ فِي مَنْثُورِ ٱلْحِكَمِ : كُلُّ شَيْءٍ لَا يَحْتَاجُ اِلَى ٱلْعَقْلِ وَٱلْعَقْلُ يَحْتَاجُ اِلَى ٱلتَّجَارِبِ . وَلِذَلِكَ قِيلَ : اَلْاَيَّامُ تَهْتِكُ لَكَ عَنِ ٱلْاَسْتَارِ ٱلْكَامِنَةِ . وَقَالَ بَعْضُ ٱلْحُكَمَاءِ : ٱلتَّجَارِبُ لَيْسَ لَهَا غَايَةٌ وَٱلْعَاقِلُ مِنْهَا فِي زِيَادَةٍ . وَقَالَ بَعْضُ ٱلْحُكَمَاءِ : مَنِ ٱسْتَعَانَ بِذَوِي ٱلْعُقُولِ فَازَ بِدَرْكِ ٱلْمَأْمُولِ . وَقَالَ اَبُو ٱلْاَسْوَدِ ٱلدِّيلِيُّ :

وَما كُلُّ ذِي نُصْحٍ بِمُؤْتِيكَ نُصْحَهُ ... وَلَا كُلُّ مُؤْتٍ نُصْحَهُ بِلَبِيبِ
وَلَكِنْ إِذَا مَا ٱسْتَجْمَعَا عِنْدَ صَاحِبٍ ... فَحَقَّ لَهُ مِنْ طَاعَةٍ بِنَصِيبِ

(وَٱلْخَصْلَةُ ٱلثَّانِيَةُ) أَنْ يَكُونَ ٱلْخَطِيبُ ذَا دِينٍ وَتُقًى فَإِنَّ ذَلِكَ عِمَادُ كُلِّ صَلَاحٍ وَبَابُ كُلِّ نَجَاحٍ وَمَنْ غَلَبَ عَلَيْهِ ٱلدِّينُ فَهُوَ مَأْمُونُ ٱلسَّرِيرَةِ مُوَفَّقُ ٱلْعَزِيمَةِ. (وَٱلْخَصْلَةُ ٱلثَّالِثَةُ) أَنْ يَكُونَ نَاصِحًا وَدُودًا فَإِنَّ ٱلنُّصْحَ وَٱلْمَوَدَّةَ يُصْدِقَانِ ٱلْفِكْرَةَ وَيُمَحِّضَانِ ٱلرَّأْيَ. وَقَدْ قَالَ بَعْضُ ٱلْحُكَمَاءِ: لَا تُشَاوِرْ إِلَّا ٱلْحَازِمَ غَيْرَ ٱلْحَسُودِ وَٱللَّبِيبَ غَيْرَ ٱلْحَقُودِ وَإِيَّاكَ وَمُشَاوَرَةَ ٱلنِّسَاءِ فَإِنَّ رَأْيَهُنَّ إِلَى ٱلْأَفْنِ وَعَزْمَهُنَّ إِلَى ٱلْوَهْنِ. وَقَالَ بَعْضُ ٱلْأُدَبَاءِ مَشُورَةُ ٱلْمُشْفِقِ ٱلْحَازِمِ ظَفَرٌ وَمَشُورَةُ غَيْرِ ٱلْحَازِمِ خَطَرٌ وَقَالَ بَعْضُ ٱلشُّعَرَاءِ:

أَصْفِ ضَمِيرًا لِمَنْ تُعَاشِرُهُ ... وَٱسْكُنْ إِلَى نَاصِحٍ تُشَاوِرُهُ
وَٱرْضَ مِنَ ٱلْمَرْءِ فِي مَوَدَّتِهِ ... بِمَا يُؤَدِّي إِلَيْكَ ظَاهِرُهُ
مَنْ يَكْشِفِ ٱلنَّاسَ لَمْ يَجِدْ أَحَدًا ... تَصِحُّ مِنْهُمْ لَهُ سَرَائِرُهُ
أَوْشَكَ أَنْ لَا يَدُومَ وَصْلُ أَخٍ ... فِي كُلِّ زَلَّاتِهِ تُنَافِرُهُ

(وَٱلْخَصْلَةُ ٱلرَّابِعَةُ) أَنْ يَكُونَ سَلِيمَ ٱلْفِكْرِ مِنْ هَمٍّ قَاطِعٍ وَغَمٍّ شَاغِلٍ. فَإِنَّ مَنْ عَارَضَتْ فِكْرَهُ شَوَائِبُ ٱلْهُمُومِ لَا يَسْلَمُ لَهُ رَأْيٌ وَلَا يَسْتَقِيمُ لَهُ خَاطِرٌ. وَكَانَ كِسْرَى إِذَا دَهَمَهُ أَمْرٌ بَعَثَ إِلَى مَرَازِبَتِهِ فَٱسْتَشَارَهُمْ فَإِنْ قَصَّرُوا بِٱلرَّأْيِ ضَرَبَ قَهَارِمَتَهُ وَقَالَ: أَبْطَأْتُمْ بِأَرْزَاقِهِمْ فَأَخْطَأُوا فِي آرَائِهِمْ. وَقَالَ صَالِحُ بْنُ عَبْدِ ٱلْقُدُّوسِ:

وَلَا مُشِيرَ كَذِي نُصْحٍ وَمَقْدُرَةٍ ... فِي مُشْكِلِ ٱلْأَمْرِ فَٱخْتَرْ ذَاكَ مُنْتَصِحَا

(وَٱلْخَصْلَةُ ٱلْخَامِسَةُ) اَنْ لَا يَكُونَ لَهُ فِي ٱلْاَمْرِ ٱلْمُسْتَشَارِ غَرَضٌ يُتَابِعُهُ وَلَا هَوًى يُسَاعِدُهُ فَاِنَّ ٱلْاَغْرَاضَ جَاذِبَةٌ وَٱلْهَوَى صَادٌّ وَٱلرَّأْيَ اِذَا عَارَضَهُ ٱلْهَوَى وَجَاذَبَتْهُ ٱلْاَغْرَاضُ فَسَدَ. وَقَدْ قَالَ ٱلْفَضْلُ بْنُ ٱلْعَبَّاسِ بْنُ عُتْبَةَ بْنُ اَبِي لَهَبٍ :

وَقَدْ يَحْكُمُ ٱلْاَيَّامُ مَنْ كَانَ جَاهِلًا
وَيُرْدِي ٱلْهَوَى ذَا ٱلرَّأْيِ وَهُوَ لَبِيبُ
وَيُحْمَدُ فِي ٱلْاَمْرِ ٱلْفَتَى وَهُوَ مُخْطِئٌ
وَيُعْذَلُ فِي ٱلْاِحْسَانِ وَهُوَ مُصِيبُ

فَاِذَا ٱسْتَكْمَلَتْ هٰذِهِ ٱلْخِصَالُ ٱلْخَمْسُ فِي رَجُلٍ كَانَ اَهْلًا لِلْاِرْشَادِ وَٱلْمَشُورَةِ وَمَعْدِنًا لِلرَّأْيِ فَلَا تَعْدِلْ عَنِ ٱسْتِشَارَتِهِ ٱعْتِمَادًا عَلَى مَا تَتَوَهَّمُهُ مِنْ فَضْلِ رَأْيِكَ وَثِقَةً بِمَا تَسْتَشْعِرُهُ مِنْ صِحَّةِ رَوِيَّتِكَ. فَاِنَّ رَأْيَ غَيْرِ ذِي ٱلْحَاجَةِ اَسْلَمُ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّوَابِ اَقْرَبُ لِخُلُوصِ ٱلْفِكْرِ وَخُلُوِّ ٱلْخَاطِرِ مَعَ عَدَمِ ٱلْهَوَى وَٱرْتِفَاعِ ٱلشَّهْوَةِ وَقَدْ وَرَدَ فِي ٱلْحَدِيثِ: اِنَّ رَأْسَ ٱلْعَقْلِ بَعْدَ ٱلْاِيمَانِ بِٱللّٰهِ ٱلتَّوَدُّدُ اِلَى ٱلنَّاسِ وَمَا ٱسْتَغْنَى مُسْتَبِدٌّ بِرَأْيِهِ وَمَا هَلَكَ اَحَدٌ عَنْ مَشُورَةٍ فَاِذَا اَرَادَ ٱللّٰهُ بِعَبْدٍ هَلَكَةً كَانَ اَوَّلَ مَا يُهْلِكُهُ رَأْيُهُ. وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ اَبِي طَالِبٍ: ٱلْاِسْتِشَارَةُ عَيْنُ ٱلْهِدَايَةِ وَقَدْ خَاطَرَ مَنِ ٱسْتَغْنَى بِرَأْيِهِ. وَقَالَ لُقْمَانُ ٱلْحَكِيمُ لِٱبْنِهِ شَاوِرْ مَنْ جَرَّبَ ٱلْاُمُورَ فَاِنَّهُ يُعْطِيكَ مِنْ رَأْيِهِ مَا قَامَ عَلَيْهِ بِٱلْغَلَاءِ وَاَنْتَ تَأْخُذُهُ مَجَّانًا. وَقَالَ بَعْضُ ٱلْحُكَمَاءِ: نِصْفُ رَأْيِكَ مَعَ اَخِيكَ فَشَاوِرْهُ لِيَكْمُلَ ٱلرَّأْيُ

البحث الثالث

في طباع الناس على اختلاف اطوار الحياة

(من كتاب مشهد الاحوال لفتح الله مراش)

(راجع صفحة ٤٣ من علم الخطابة)

(حَالُ ٱلطُّفُولِيَّةِ) هٰذَا هُوَ ٱلدَّوْرُ ٱلْاَوَّلُ لِحَيَاةِ ٱلْانْسَانِ. وَٱلْغَلْوَةُ ٱلْاُولَى فِي طَرِيقِ ٱلزَّمَانِ. حَيْثُمَا يُقَالُ لِلدَّاخِلِ طِفْلٌ مَوْلُودٌ. وَلِلْخَارِجِ شَيْخٌ مَفْقُودٌ. وَلَمَّا كَانَ ٱلْاِنْسَانُ فِي هٰذَا ٱلْمَدْخَلِ عَدِيمَ ٱلْبَصِيرَةِ. خَالِيَ ٱلسَّرِيرَةِ. عَارِيًا مِنْ كُلِّ ٱلْكَمَالَاتِ ٱلْاَدَبِيَّةِ. غَيْرَ حَاصِلٍ عَلَى تَمَامِ ٱلْوَظَائِفِ ٱلْعَقْلِيَّةِ. فَلَا يَرَى اِلَّا مَا يَقُومُ قُرْبَهُ. وَلَا يَشْعُرُ اِلَّا بِمَا يَسْتَعْطِفُ قَلْبَهُ. فَيَلْعَبُ بِٱلتُّرَابِ وَيَذْرِيهِ. وَيَعْبَثُ بِٱلتِّبْرِ وَيُزْرِيهِ. وَيَسْخَرُ بِٱلْمَقْبُولَاتِ وَٱلْمَرْدُودَاتِ. وَيَضْحَكُ عَلَى كُلِّ ٱلْمَوْجُودَاتِ. فَلَا يَهْتَمُّ اِلَّا بِطَلَبِ ٱلْغِذَاءِ. وَلَا يَحْفِلُ اِلَّا بِمَا يُورِثُ ٱلْاَذَى. وَاِذْ لَا يَبْرَحُ طَائِشًا بِخِفَّةِ بُنْيَتِهِ. وَضَائِعًا فِي تِيهِ نِيَّتِهِ. فَلَا يَسْمَعُ دَوِيَّ ضَوْضَاءِ ٱلْعَوَالِمِ. وَلَا رَوِيَّ قَوَافِي ٱلْعَظَائِمِ. بَيْنَمَا يَكُونُ بَاكِيًا تَحْتَ تَأْثِيرَاتِهَا وَفَوَاعِلِهَا. وَمُتَحَرِّكًا وَسَاكِنًا تَحْتَ جَوَازِمِهَا وَعَوَامِلِهَا. وَمُسْرِعًا فِي طَرِيقِ حَيَاتِهِ اِلَى ٱلدُّخُولِ فِي اَبْوَابِهَا. وَٱلْغَوْصِ فِي عُبَابِهَا. فَلَيْتَ عَيْنَهُ تَرَى مَا يَسْتَقْبِلُهُ مِنَ ٱلْاَوْصَابِ. وَمَا يَسْتَنْظِرُهُ مِنَ ٱلْاَتْعَابِ. فَمَا ٱلثَّدْيُ اِلَّا رَمْزُ ٱلرَّدَى فِي طَلَبِ ٱلْقُوتِ. وَمَا ٱلْمَهْدُ اِلَّا اِشَارَةُ ٱلتَّابُوتِ

(حَالُ ٱلْفُتُوَّةِ) هٰذَا هُوَ ٱلدَّوْرُ ٱلثَّانِي لِلْحَيَاةِ ٱلْإِنْسَانِيَّةِ. وَٱلْمَسَاحَةُ ٱلْأُولَى لِانْتِشَارِ ٱلْقُوَى ٱلْعَقْلِيَّةِ اوِ ٱلتَّلُّ ٱلْاَوَّلُ فِي طَرِيقِ ٱلْاَجَلِ. وَمَسْلَكِ ٱلْعَمَلِ. فَيَصْعَدُ ٱلْاِنْسَانُ عَلَيْهِ وَيَنْظُرُ ٱلْعَالَمَ بِعَيْنَيْهِ. فَيَرَاهُ مَشْهَدًا بَدِيعَ ٱلْجَمَالِ. وَمَلْعَبًا تَلْعَبُ بِهِ ٱلْآمَالُ. وَتَرْقُصُ فِيهِ ٱلْمَلَذَّاتُ وَٱلْاَمَانِي. وَتَحُومُ حَوْلَهُ ٱلْبَشَائِرُ وَٱلتَّهَانِي. فَتَشْمُلُهُ شُمُولُ هٰذَا ٱلظُّهُورِ. وَتَلْعَبُ بِرَأْسِهِ حَمِيَّةُ هٰذِهِ ٱلْأُمُورِ. فَيَبِيتُ سَكْرَانَ بِٱلْاَفْرَاحِ. وَمَأْخُوذًا بِرَنِينِ تِلْكَ ٱلْاَقْدَاحِ. فَيَنْسَى مَدَى ٱلْاَوْقَاتِ. وَلَا يَعْلَمُ مَا ٱلْآفَاتُ. اِذْ يَظَلُّ مُلْتَفًّا بِكِسَاءِ ٱلْآمَالِ. وَمُحْتَفًّا بِاَوْهَامِ ٱلْاَعْمَالِ. فَلَا يَنْظُرُ اِلَّا اِلَى ذَاتِهِ. وَلَا يَحْفِلُ اِلَّا بِصِفَاتِهِ. هَائِمًا فِي مَلَاهِي دُنْيَاهُ. وَمُتَهَافِتًا عَلَى حَدَاثَةِ قُوَاهُ. وَهٰكَذَا يَهْبِطُ فِي وَادِي هٰذَا ٱلْعَالَمِ ٱلْمُلِمِّ. وَيَخْبِطُ فِي ذٰلِكَ ٱلْبَحْرِ ٱلْخِضَمِّ. وَلَا يَزَالُ بَيْنَ هُبُوبٍ وَٱنْكِبَابٍ. اِلَى اَنْ يَنْشُلَهُ ٱلصَّوَابُ. وَيُدْرِكَهُ ٱلشَّبَابُ

(حَالُ ٱلشَّبُوبِيَّةِ) اَمَّا ٱلشَّبُوبِيَّةُ فَهِيَ ٱلدَّوْرُ ٱلثَّالِثُ لِلْاَجَلِ. وَمَحَلُّ ٱلْكَدِّ وَٱلْعَمَلِ. وَمَوْقِعُ ٱلْيَأْسِ وَٱلْاَمَلِ. حَيْثُمَا يُوجَدُ ٱلْإِنْسَانُ ضَائِعًا فِي مَفَازَةِ ٱلْعُمْرِ. حَائِرًا فِي تَنُوفَةِ ٱلنَّهْيِ وَٱلْاَمْرِ. فَيَرَى نَفْسَهُ قَائِمًا فِي وَسَطِ هٰذِهِ ٱلدُّنْيَا. مُنْطَقًا بِكَافَّةِ ٱلْاَشْيَاءِ. مُلْتَطِمًا بِاَمْوَاجِ ٱلْعَالَمِ وَاَهْوَائِهِ. مَصْرُوعًا وَمَأْخُوذًا بِضَجَّاتِهِ وَضَوْضَائِهِ. وَهٰكَذَا تَنْهَضُ فِي قَلْبِهِ ثَوْرَةُ ٱلْحَوَاسِّ. وَتَشُبُّ فِي دِمَاغِهِ نَارُ ٱلْوَسْوَاسِ. وَتَصْفِرُ فِي سَرِيرَتِهِ رِيحُ ٱلْاَهْجَاسِ. فَيَنْدَفِعُ اِلَى مُنَازَلَةِ ٱلْاَقْدَارِ وَٱلْاَيَّامِ. وَمُقَاتَلَةِ ٱلْحَقَائِقِ وَٱلْاَوْهَامِ. فَتَارَةً تَهُبُّ بِهِ ٱلْآمَالُ اِلَى اَوْجِ ٱلْاَفْرَاحِ وَٱلْمَسَرَّاتِ.

وَطوْرًا تَـكُبُّ بِهِ ٱلْخَيبَـاتُ فِي حَضِيضِ ٱلْاَتْرَاحِ وَٱلْحَسَرَاتِ. يَرَى ٱلْعَالَمَ قَرِيبَ ٱلْمَنَالِ. فَيَنْدَفِعُ وَرَاءَهُ عَلَى مُتُونِ ٱلْاَهْوَالِ. حَتَّى اِذَا مَا ظَفِرَ بِٱلْبَعْضِ طَمِعَ بِٱلْكُلِّ. وَاِذَا فَازَ بِٱلشَّجَرِ رَغِبَ فِي ٱلظِّلِّ. فَلَا يَـكُونُ اِلَّا مُضْغَةً فِي اَفْوَاهِ ٱلْطَامِعِ. وَكُرَةً تَتَلَقَّفُهَا ٱلْقَوَامِعُ. وَذٰلِكَ اِنَّمَا يُوجَدُ مُهْبِطًا لِحَوَادِثِ ٱلْحِـدْثَانِ. وَمُسْقَطًا لِجَائِبِ ٱلزَّمَانِ. وَلَا تَزَالُ زَهْرَةُ هٰذَا ٱلشَّبَابِ ٱلزَّاهِي بَيْنَ ذُبُولٍ وَٱفْتِرَارٍ. وَلَا يَبْرَحُ بَدْرُ هٰذَا ٱلْعَصْرِ ٱلْبَاهِي بَيْنَ خُسُوفٍ وَٱسْفِرَارٍ. اِلَى اَنْ تَنْثُرَ ٱلشَّيْخُوخَةُ تَاجَ تِلْكَ ٱلزَّهْرَةِ. وَيَضَعَ ٱلْهَرَمُ وَجْهَ هَاتِيكَ ٱلْقَمْرَةِ. حَيْثُمَا يَسْقُطُ ٱلشَّبَابُ مِنْ فَرْشِهِ. وَيَرْتَفِعُ ٱلْمَشِيبُ عَلَى عَرْشِهِ

(حَالُ ٱلشَّيْخُوخَةِ) فَلَا يَزَالُ ٱلْاِنْسَانُ سَائِرًا فِي طَرِيقِ عُمْرِهِ سَيْرَ ٱلْمُسَافِرِ فِي ٱلْقِفَارِ. اِلَى اَنْ يَبْلُغَ رَابِعَ ٱلْاَدْوَارِ. وَهُوَ دَوْرُ ٱلدَّثَارِ. هٰذَا اِذَا اَمْكَنَهُ ٱلْخَلَاصُ مِنْ لُصُوصِ ٱلْحَوَادِثِ. وَٱلْمَنَاصُ مِنْ اُسْدِ ٱلْكَوَارِثِ. وَنُهْبَةِ ٱلْاَعْرَاضِ. وَقَتَلَةِ ٱلْاَمْرَاضِ. فَيَلْبَثُ هُنَاكَ مَنْهُوكًا مِنْ تَعَبِ ٱلْمَسِيرِ. وَمَضَضِ ٱلتَّأْثِيرِ. اِذْ يَعُودُ مُنْحَنِيًا تَحْتَ اَحْمَالِ ٱلْحَيَاةِ وَاَثْقَالِهَا. وَمَرْضُوضًا مِنْ صَدَمَاتِ ٱلدُّنْيَا وَاَهْوَالِهَا. فَتَصْمُتُ ضَوْضَاءُ حَوَاسِّهِ وَهَوَاجِسِهِ. وَيَخْرَسُ رَنِينُ اَنْفَاسِهِ وَوَسَاوِسِهِ. فَيَكُفُّ بَصَرُهُ. وَيَجِفُّ فِكْرُهُ. وَيَقِلُّ ذَوْقُهُ. وَيَـكْثُرُ شَوْقُهُ. وَيَبْخَلُ حَتَّى بِٱلْفَلْسِ. وَيَزِيدُ حِرْصُهُ عَلَى ٱلنَّفْسِ. وَيَجُودُ بِٱلْقَلْسِ. فَاِذَا ٱلْتَفَتَ اِلَى وَرَائِهِ وَرَاَى ٱلدُّنْيَا ٱلَّتِي قَطَعَهَا. وَٱلطَّرِيقَ ٱلَّتِي تَتَبَّعَهَا. ظَهَرَتْ لَهُ ٱلْاَشْيَاءُ اَشْبَاحَ اَحْلَامٍ. وَمَلَاعِبَ اَوْهَامٍ. وَكُلَّهَا تَجْرِي نَظِيرَهُ اِلَى ٱلزَّوَالِ.

كَالطَّيفِ وَالخَيالِ . فيضحكُ على الجميعِ . ضحكَ الطِّفلِ الرَّضيعِ . امَّا إذَا التفتَ إلى الامامِ . وطمعَ ببقيَّةِ الايَّامِ . حنَّ الى الوجودِ . وهامَ بحبِّ الخلودِ . ولا يزالُ الماضي يدفعُهُ . والحاضرُ يردعُهُ . والمستقبلُ يطمعُهُ . حتَّى تختطفَ يمامةَ نفسِهِ بزاةُ المنيَّةِ . وتسلبهُ كلَّ بغيةٍ وامنيةٍ . فيهبطَ هبوطَ البنيانِ . ويغورَ في قبرِ النسيانِ . حيثما تسترجعُ الكليَّاتُ جزئيَّاتها . وتستردُّ المجموعاتُ مفرداتِها

البحث الرابع

في سياسة الخطيب مع الجمهور ومواخاة طباعهم

(عن رسائل خط للفارابي بتصرف)

(راجع صفحة ٤٥ من الجزء الثاني من علم الادب)

إنَّ الخطيبَ إذَا مَا ارادَ بلوغَ غايتِهِ وحسنَ سياسةِ نفسِهِ في أمورِهِ فليتوخَّ طباعَهم وتلوّنَ اخلاقِهم وتباينَ احوالِهم . قالَ افلاطونُ : لكلِّ امرٍ حقيقةٌ . ولكلِّ زمانٍ طريقةٌ . ولكلِّ إنسانٍ خليقةٌ . فعاملِ الناسَ على خلائقِهم والتمسْ منَ الامورِ حقائقَها واجرِ معَ الزمانِ على طرائقِهِ (اه) . وهذهِ قوانينُ تنفعُ الخطيبَ في متصرَّفاتِهِ مع كلِّ طائفةٍ منْ أهلِ طبقتِهِ ومنْ دونَهُ ومنْ فوقَهُ على سبيلِ الايجازِ والاختصارِ . على انَّهُ لا يعمُّ قولُنا هذا منْ ذكرِ ما يختصُّ باستعمالِهِ طائفةٌ دونَ طائفةٍ وواحدٌ منهم في وقتٍ

دُونَ وَقْتٍ وَمَعَ قَوْمٍ دُونَ قَوْمٍ . اِذِ ٱلْوَاحِدُ مِنَ ٱلنَّاسِ لَا يُمْكِنُهُ اَنْ يَسْتَعْمِلَ فِي كُلِّ وَقْتٍ مَعَ كُلِّ اَحَدٍ كُلَّ ضَرْبٍ مِنْ ضُرُوبِ ٱلسِّيَاسَاتِ . وَنُقَدِّمُ لِذٰلِكَ مُقَدِّمَاتٍ مِنْهَا اَنْ نَقُولَ اِنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنَ ٱلنَّاسِ مَتَى مَا رَجَعَ اِلَى نَفْسِهِ وَتَأَمَّلَ اَحْوَالَهَا وَاَحْوَالَ غَيْرِهِ مِنْ فِئَاتِ ٱلنَّاسِ وَجَدَ نَفْسَهُ فِي رُتْبَةٍ يَشْرَكُهُ فِيهَا طَائِفَةٌ مِنْهُمْ . وَوَجَدَ فَوْقَ رُتْبَتِهِ طَائِفَةً هُمْ اَعْلَى مَنْزِلًا مِنْهُ بِجِهَةٍ اَوْ جِهَاتٍ . وَوَجَدَ دُونَهَا طَائِفَةً هُمْ اَوْضَعُ مِنْهُ بِجِهَةٍ اَوْ جِهَاتٍ . لِاَنَّ ٱلْمَلِكَ ٱلْاَعْظَمَ مَثَلًا وَاِنْ وَجَدَ نَفْسَهُ فِي مَحَلٍّ لَا يَرَى لِاَحَدٍ مِنَ ٱلنَّاسِ فِي زَمَانِهِ مَنْزِلَةً اَعْلَى مِنْ مَنْزِلَتِهِ فَاِنَّهُ مَتَى تَأَمَّلَ حَالَهُ نِعِمًّا وَجَدَ مِنْهُمْ مَنْ يَفْضُلُهُ بِنَوْعٍ مِنَ ٱلْفَضِيلَةِ ٱلْفَضْلِيَّةِ . اِذْ لَيْسَ فِي اَجْزَاءِ ٱلْعَالَمِ مَا هُوَ كَامِلٌ مِنْ جَمِيعِ ٱلْجِهَاتِ . وَكَذٰلِكَ ٱلْوَضِيعُ ٱلْخَامِلُ ٱلذِّكْرِ يَجِدُ فِي نَفْسِهِ اَشْيَاءَ لَمْ يَفُزْ بِهَا مَنْ هُوَ فَوْقَهُ . فَقَدْ صَحَّ مَا وَصَفْنَا . وَيَنْتَفِعُ ٱلْخَطِيبُ بِٱسْتِعْمَالِ ٱلسِّيَاسَاتِ مَعَ هٰؤُلَاءِ ٱلطَّبَقَاتِ ٱلثَّلَاثِ . . . وَنَقُولُ اَيْضًا اِنَّ اَنْفَعَ ٱلطُّرُقِ ٱلَّتِي يَسْلُكُهَا ٱلْخَطِيبُ فِي ذٰلِكَ تَأَمُّلُ اَحْوَالِ ٱلنَّاسِ وَاَعْمَالِهِمْ وَمُتَصَرَّفَاتِهِمْ مَا شَهِدَهَا وَمَا غَابَ عَنْهَا مِمَّا سَمِعَهُ وَتَنَاهَى اِلَيْهِ مِنْهَا وَاَنْ يُمْعِنَ ٱلنَّظَرَ فِيهَا وَيُمَيِّزَ مَحَاسِنَهَا وَمَسَاوِئَهَا وَبَيْنَ ٱلنَّافِعِ وَٱلضَّارِّ لَهُمْ مِنْهَا . ثُمَّ لِيَجْتَهِدْ فِي ٱلتَّمَسُّكِ بِمَحَاسِنِهَا وَحَضِّ ٱلنَّاسِ عَلَى طَلَبِهَا لِيَنَالُوا مِنْ مَنَافِعِهَا مِثْلَ مَا نَالَهُ مَنْ تَقَدَّمَهُمْ وَيَجْتَهِدْ فِي ٱلتَّنَكُّبِ عَنْ مَسَاوِئِهَا لِيَأْمَنَ مِنْ مَضَارِّهَا وَيَسْلَمَ مِنْ غَوَائِلِهَا مِثْلَ مَا سَلِمُوا . وَنَقُولُ اَيْضًا اِنَّ لِكُلِّ شَخْصٍ مِنَ ٱلْاَشْخَاصِ

ٱلنَّاس قُوَّتَيْنِ اِحداهُما نَاطِقَةٌ وَٱلأُخرَى بَهِيمِيَّةٌ وَلِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا نِزَاعٌ غَالِبٌ. فَنِزَاعُ ٱلقُوَّةِ ٱلبَهِيمِيَّةِ نَحْوَ ٱللَّذَاتِ ٱلعَاجِلَةِ ٱلشَّهْوَانِيَّةِ مِثْلَ انْوَاعِ ٱلغِذَاءِ وَنِزَاعُ ٱلقُوَّةِ ٱلنُّطْقِيَّةِ نَحْوَ ٱلأُمُورِ ٱلمَحْمُودَةِ ٱلعَوَاقِبِ.. فَعَلَى كُلِّ مَنْ يُرْشِدُ ٱلجُمْهُورَ وَيَحُضُّهُمْ عَلَى نَيْلِ ٱلفَضَائِلِ اَنْ لَا يَتَغَافَلَ عَنْ تَحْرِيضِهِمْ عَلَى مَا هُوَ اَصْلَحُ لَهُمْ وَاَنْ لَا يُهْمِلَهُمْ فَاِنَّهُ مَتَى مَا اَهْمَلَهُمْ تَحَرَّكُوا نَحْوَ ٱلطَّرَفِ ٱلآخَرِ ٱلَّذي هُوَ ٱلبَهِيمِيُّ. وَاِذَا تَحَرَّكُوا نَحْوَهُ تَشَبَّثُوا بِبَعْضٍ مِنْهُ حَتَّى اِذَا اَرَادَ رَدَّهُمْ عَمَّا تَحَرَّكُوا نَحْوَهُ لَحِقَهُ مِنَ ٱلنَّصَبِ اَضْعَافَ مَا كَانَ يَلْحَقُهُ اِذا لَمْ يَكُنْ اَهْمَلَهُمْ. وَنَقُولُ اَيْضًا اِنَّ ٱلخَطِيبَ لَا يَنْبُو فِي جَمِيعِ مُتَصَرَّفَاتِهِ مِنْ اَنْ يَلْقَى ٱلجُمْهُورَ مَائِلًا اِلَى اَمْرٍ مَحْمُودٍ اَوْ اَمْرٍ مَذْمُومٍ. وَلَهُ فِي كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ ٱلاَمْرَيْنِ فَائِدَةٌ وَمَوْضِعُ رِيَاضَةٍ لِلتَّصَرُّفِ وَهُوَ اَنْ يُحَاوِلَ دَفْعَ ٱلسَّامِعِينَ اِلَى ذٰلِكَ ٱلاَمْرِ ٱلمَحْمُودِ ٱلَّذي يَلْقَاهُ اِنْ وَجَدَ ٱلسَّبِيلَ اِلَى ٱلدَّفْعِ اِلَيْهِ وَيُنَبِّهُهُمْ عَلَى فَضِيلَتِهِ وَيُوجِبُ عَلَيْهِمِ ٱلتَّمَسُّكَ بِهَا مَتَى وَجَدَ ٱلفُرْصَةَ لِذٰلِكَ. وَاِذَا يَلْقَاهُ ٱلاَمْرُ ٱلمَذْمُومُ فَلْيَجْتَهِدْ فِي ٱلتَّحْذِيرِ مِنْهُ وَٱلتَّجْنِيبِ مِنْهُ. وَاِنْ لَمْ يَجِدْ اِلَى ذٰلِكَ سَبِيلًا فَلْيُنَبِّهْهُمْ عَلَى ٱلاِعْتِبَارِ بِمَنْ نَالَهُمْ مَضَارُّ مِثْلِهَا. فَقَدْ ظَهَرَ اَنَّ لِلْخَطِيبِ فِي جَمِيعِ اَحْوَالِهِ جِلِّهَا وَدِقِّهَا خَيْرِهَا وَشَرِّهَا مَوْضِعَ ٱلرِّيَاضَةِ لِنَفْسِهِ وَاِرْشَادِ ٱلجُمْهُورِ. وَاِذَا تَيَقَّنَ ذٰلِكَ فَيَنْبَغِي اَنْ يُقْدِمَ عَلَى سِيَاسَةِ ٱلاَحْوَالِ بِقَلْبٍ قَوِيٍّ وَنِيَّةٍ صَادِقَةٍ وَعُذْرٍ وَاسِعٍ وَثِقَةٍ اَنَّ مَا يَأْتِيهِ مِنْ ذٰلِكَ وَاِنْ قَلَّ يُجْدِي عَلَيْهِ نَفْعًا يَجِلُّ. وَنَبْدَأُ بِتَعَهُّدِ ٱلخَطِيبِ لِلرُّؤَسَاءِ اِنَّهُ

يجب عليه ان يكون ملازما لما هو في صدده مواظبا على ما فوض اليه ولا يخشى الملال وخصوصا من الملوك. وان يكون مجتهدا في طلب وجوه حسان لكل ما يطلبه منهم اذ لا شيء من الامور في العالم الا وله وجهان احدهما جميل والآخر قبيح فليطلب لكل امر من اموره وجها جميلا يصرفه اليه ويتكلف لذكره بحضرته فان الخطيب المفوض اليه تدبير ذلك الرئيس كالسيل المنحدر من الربوة ان اراد المرء ان يواجهه اهلك نفسه واتى عليه السيل فاغرقه. وان سعى معه وعلى جانبيه وتلطف ليصرفه الى الناحية بان يطرح في بعض جوانبه مقدارا من السدد ويطرق له من الجانب الآخر لا ينشب ان يصرفه الى حيث شاء. فينبغي له كذلك ان يستعمل مع الرئيس في صرف وجهه عما يريد صرفه عن امر يريد ان يجرى معه فيما هو جار نحوه ولا يواجهه وان كان في غاية الانبساط معه ولا يقر بما يلقي منه الى الناس مما يستقبح فسيان بين الخبر والاقرار.. وينبغي ان يتلطف كل التلطف في مثل المنافع من جهة الرؤساء بان لا يلح في السؤال ولا يدعه ولا يظهر الطمع والشره من نفسه ويجتهد في ان يطلب من الرؤساء اسباب المنافع لا المنافع انفسها.. وليجتهد في ان يظهر في كل ما يقول ويفعل انه انما يفعله زينة وجمالا للرئيس لا لنفسه وانه يريد وجه الصلاح في خلاف ما يأبيه ويذكر له في الوقت بعد الوقت على سبيل الحكايات عن غيره والحيل اللطيفة

بَعْضَ مَا يَعْرِضُ مِمَّا هُوَ فِيهِ. فَإِنَّهُ مَتَى مَا ٱسْتَعْمَلَ هٰذِهِ ٱلطَّرِيقَ لَا يَنْشَبُ أَنْ يَعُودَ ٱلْحَالُ بِمُرَادِهِ.. وَأَنْ يَعْلَمَ أَنَّ لِلرُّؤَسَاءِ هَمًّا يَنْفَرِدُونَ بِهَا عَمَّنْ سِوَاهُمْ مِنَ ٱلنَّاسِ وَهِيَ أَنَّهُمْ يَعْتَقِدُونَ فِي جَمِيعِ مَنْ دُونَهُمُ ٱلِاسْتِخْدَامَ وَٱلِاسْتِعْبَادَ وَفِي أَنْفُسِهِمِ ٱلْإِصَابَةَ فِي جَمِيعِ مَا يَأْتُونَ وَإِنَّمَا يَحْدُثُ هٰذَا بِهِمْ لِكَثْرَةِ مَدْحِ ٱلنَّاسِ لَهُمْ وَإِطْرَائِهِمْ أَعْمَالَهُمْ وَتَصْوِيبِهِمْ آرَاءَهُمْ

فَهٰذِهِ قَوَانِينُ يَنْتَفِعُ بِٱسْتِعْمَالِهَا ٱلْخَطِيبُ فِي مَعَاشِرِ ٱلرُّؤَسَاءِ ٱلَّتِي يَنْبَغِي أَنْ يَسْتَعْمِلَهَا ٱلْمَرْءُ مَعَ ٱلْأَكْفَاءِ فَسَنَذْكُرُ مِنْهَا جُمَلًا وَنَقُولُ إِنَّ ٱلْأَكْفَاءَ لَا يَخْلُو مِنْ أَنْ يَكُونُوا أَصْدِقَاءَ أَوْ أَعْدَاءَ أَوْ لَيْسُوا بِأَصْدِقَاءَ وَلَا أَعْدَاءَ. وَٱلْأَصْدِقَاءُ صِنْفَانِ أَحَدُهُمَا ٱلْأَصْفِيَاءُ ٱلْمُخْلِصُونَ فِي ٱلصَّدَاقَةِ فَيَنْبَغِي لِلْمُتَكَلِّمِ أَنْ يُدِيمَ مُلَاطَفَتَهُمْ وَتَعَهُّدَ أَسْبَابِهِمْ وَإِهْدَاءَ مَا يَسْتَحْسِنُهُ وَمَا يَتَيَسَّرُ لَهُ إِلَيْهِمْ فِي كُلِّ وَقْتٍ. وَيُجْرِيَ ٱلْحَالَ فِيمَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُ بِذٰلِكَ بِغَيْرِ أَنْ يُظْهِرَ مِنْهُ مَلَالًا أَوْ تَقْصِيرًا وَيَجْتَهِدَ فِي ٱلْإِكْثَارِ مِنْهُمْ غَايَةَ ٱلْجُهْدِ فَإِنَّ ٱلصَّدِيقَ زَيْنُ ٱلْمَرْءِ وَعَضُدُهُ وَعَوْنُهُ وَنَاصِرُهُ وَمُذِيعُ فَضَائِلِهِ وَكَاتِمُ هَفَوَاتِهِ وَمُخْفِي زَلَّاتِهِ وَمَهْمَا كَانَ هٰؤُلَاءِ أَكْثَرَ كَانَتْ أَحْوَالُ ٱلْخَطِيبِ فِيمَا بَيْنَهُمْ أَحْسَنَ وَأَقْوَمَ. وَٱلصِّنْفُ ٱلْآخَرُ أَيِ ٱلْأَصْدِقَاءُ فِي ٱلظَّاهِرِ عَنْ لَا صِدْقٍ فِيمَا يُظْهِرُونَهُ بَلْ بِتَشَبُّهٍ وَتَصَنُّعٍ فَيَنْبَغِي لِلْخَطِيبِ أَنْ يُعَامِلَهُمْ بِمُدَارَاةٍ وَيُحْسِنَ إِلَيْهِمْ وَلَا يُطْلِعَهُمْ عَلَى شَيْءٍ مِنْ أَسْرَارِهِ وَخُصُوصًا مِنْ عُيُوبِهِ. وَلْيَجْتَهِدْ فِي ٱسْتِمَالَتِهِمْ وَٱلصَّبْرِ مَعَهُمْ وَمُعَامَلَتِهِمْ بِحَسَبِ ٱلظَّاهِرِ

دُونَ اَخذِهِمْ بِالْبَاطِنِ وَلَا يَأْخُذَهُمْ بِالتَّقْصِيرِ فَاِنَّهُ مَهمَا عُمِلَ ذٰلِكَ يُرْجى صَلَاحهُمْ وَرُجُوعهُمْ اِلَى مُرَادِهِ وَلَعَلَّهُمْ يَصِيرُونَ فِي رُتْبَةِ الْاَصْفِيَاءِ لَهُ . اَمَّا الْاَكْفَاءُ الْاَعْدَاءُ فَيَنْبَغِي لِلْخَطِيبِ اَنْ يَتَجَلَّدَ لَهُمْ وَيَكْشِفَ دَسَائِسَهُمْ وَدَغَلَ نِيَّاتِهِمْ . وَاَمَّا سَائِرُ النَّاسِ الَّذِينَ لَيْسُوا بِصَدِيقٍ وَلَا عَدُوٍّ فَهُمْ طَبَقَاتٌ سَنَذْكُرُ جُلَّهَا فَمِنْهُمُ النُّصَحَاءُ: الَّذِينَ يَتَبَرَّعُونَ بِالنَّصِيحَةِ فَالْوَاجِبُ اَنْ لَا يَذْكُرَ كُلَّ مَا يُنْهَى اِلَيْهِ وَيَعْزِمَ عَلَى قَلْبِهِ اَوَّلًا بِاَنْ لَا يَغْتَرَّ بِكُلِّ قَوْلٍ يَسْمَعُهُ بَلْ يَتَأَمَّلَ اَقَاوِيلَهُمْ وَيَتَعَرَّفَ اَغْرَاضَهُمْ غَايَةَ التَّعَرُّفِ لِيَقِفَ مَعَ مَعْرِفَةِ اَغْرَاضِهِمْ عَلَى حَقِيقَةِ اَقَاوِيلِهِمْ فَاِذَا لَاحَ لَهُ وَجْهُ الصَّوَابِ حَقِيقَةً بَادَرَ اِلَى اِنْفَاذِ الْاَمْرِ . وَمِنْهُمُ الصُّلَحَاءُ وَهُمْ اُنَاسٌ يَتَبَرَّعُونَ لِاِصْلَاحِ مَا بَيْنَ النَّاسِ فَيَجِبُ عَلَى الْخَطِيبِ اَنْ يَمْدَحَهُمْ اَبَدًا عَلَى مَا يَفْعَلُونَهُ وَاَنْ يَتَشَبَّهَ بِهِمْ فِي جَمِيعِ اَحْوَالِهِ فَاِنَّ مَذَاهِبَهُمْ مَرْضِيَّةٌ عِنْدَ كُلِّ النَّاسِ وَمَهْمَا مَالَ الْخَطِيبُ اِلَيْهِمْ عُرِفَ بِالْخَيْرِ وَحُسْنِ النِّيَّةِ . وَمِنْهُمُ السُّفَهَاءُ فَيَجِبُ عَلَى الْخَطِيبِ اَنْ لَا يُوَاتِيَهُمْ وَلَا يُقَابِلَهُمْ بِمَا هُمْ فِيهِ مِنَ السَّفَاهَةِ بَلْ يَتَلَقَّاهُمْ اَبَدًا بِحِلْمٍ رَزِينٍ وَسُكُونٍ بَلِيغٍ لِيَيْاَسُوا مِنْ مَنَالَاتِهِمْ بِمَا هُمْ فِيهِ وَلَا يُؤْذُوهُ بَعْدَ ذٰلِكَ مَتَى يَلْقَوْهُ بِالْمُشَاتَمَةِ فَيَجِبُ اَنْ يَتَلَقَّاهُمْ بِقِلَّةِ الْاكْتِرَاثِ . وَمِنْهُمْ اَهْلُ الْكِبْرِ وَالْمُنَاقَشَةِ فَيَجِبُ اَنْ يُقَابِلَهُمْ بِمِثْلِهِ لِاَنَّهُ اِنْ تَوَاضَعَ لَهُمْ اَحَسُّوا مِنْهُ بِضُعْفٍ وَتَوَهَّمُوا اَنَّ فِعْلَهُمْ ذٰلِكَ صَوَابٌ وَاَنَّهُ لَا بُدَّ لِلنَّاسِ مِنَ التَّوَاضُعِ لَهُمْ . وَمَتَى تَكَبَّرَ الْمَرْءُ عَلَيْهِمْ

وَكَاثَرَهُمْ فِي ٱلْأَحْوَالِ وَتَأَذَّوْا بِهِ عَلِمُوا أَنَّ ٱلذَّنْبَ فِي ذٰلِكَ لَهُمْ وَرَجَعُوا إِلَى ٱلتَّوَاضُعِ

وَأَمَّا ٱلَّذِي يَنْبَغِي لِلْخَطِيبِ أَنْ يَسْتَعْمِلَهُ مَعَ مَنْ دُونَهُ مِنَ ٱلنَّاسِ فَإِنَّا نَصِفُ مِنْهُ مَا تَيَسَّرَ وَنَقُولُ: فَمِنْهُمُ ٱلضُّعَفَاءُ فَيَجِبُ أَنْ يَتَعَهَّدَهُمْ بِٱلْمُؤَاسَاةِ وَرِقَّةِ ٱلْكَلَامِ بِغَايَةِ مَا أَمْكَنَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يُخِلَّ بِأَحْوَالِ نَفْسِهِ. وَمِنْهُمُ ٱلْمُتَعَلِّمُونَ فَإِنْ كَانُوا أُولِي طَبَائِعَ رَدِيئَةٍ يَقْصِدُونَ ٱلْعُلُومَ لِيَسْتَعْمِلُوهَا فِي ٱلشُّرُورِ فَعَلَى ٱلْخَطِيبِ أَنْ يَحْمِلَهُمْ عَلَى تَهْذِيبِ ٱلْأَخْلَاقِ وَلَا يُعَلِّمَهُمْ شَيْئًا يَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَسْتَعْمِلُونَهُ فِيمَا لَا يَجِبُ وَيَجْتَهِدَ فِي كَشْفِ مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنْ رَدَاءَةِ ٱلطَّبْعِ لِيُحَذِّرَهُمْ مِنْهُ. وَمِنْهُمُ ٱلْبُلَدَاءُ ٱلَّذِينَ لَا يُرْجَى ذَكَاؤُهُمْ وَبَرَاعَتُهُمْ فَيَنْبَغِي أَنْ يَحُثَّهُمْ عَلَى مَا هُوَ أَعْوَدُ عَلَيْهِمْ. وَمِنْهُمُ ٱلْمُتَعَلِّمُونَ ذَوُو ٱلْأَخْلَاقِ ٱلطَّاهِرَةِ وَٱلطَّبَائِعِ ٱلْجَيِّدَةِ فَيَجِبُ أَنْ لَا يَدَّخِرَهُمْ شَيْئًا مِمَّا عِنْدَهُ مِنَ ٱلْعُلُومِ.. فَهٰذِهِ أُصُولٌ وَقَوَانِينُ مَتَى مَا ٱسْتَعْمَلَهَا ٱلْخَطِيبُ فِي كَلَامِهِ وَقَاسَ عَلَيْهَا فِي مُتَصَرَّفَاتِ أُمُورِهِ وَأَسْبَابِهِ ٱسْتَقَامَتْ بِهِ أَحْوَالُهُ وَنَجَعَ فِي ٱلْقَوْمِ كَلَامُهُ



الفصل الخامس

في الاخلاق والاهواء

البحث الاول

في تعريف الاخلاق

(من كتاب تهذيب الاخلاق لزكريا بن عدي)

(راجع صفحة ٣ من الجزء الثاني من علم الادب)

إِنَّ ٱلْخُلْقَ هُوَ حَالٌ بِهِ يَفعَلُ ٱلإِنسَانُ أَفعَالَهُ بِلَا رَوِيَّةٍ وَلَا ٱخْتِيَارٍ. وَٱلْخُلْقُ قَدْ يَكُونُ فِي بَعضِ ٱلنَّاسِ غَرِيزَةً وَطَبعًا وَفِي بَعضِ ٱلنَّاسِ لَا يَكُونُ إِلَّا بِٱلرِّيَاضَةِ وَٱلِٱجْتِهَادِ. وَقَدْ يُوجَدُ فِي كَثِيرٍ مِنَ ٱلنَّاسِ بِغَيرِ رِيَاضَةٍ وَلَا تَعَلُّمٍ كَٱلشَّجَاعَةِ وَٱلْحِلْمِ وَٱلْعِفَّةِ وَٱلْعَدْلِ وَغَيرِ ذٰلِكَ مِنَ ٱلأَخلَاقِ ٱلْمَحْمُودَةِ وَكَثِيرٌ مِنَ ٱلنَّاسِ مَنْ يُوجَدُ فِيهِمْ ذٰلِكَ. فَمِنْهُمْ مَنْ يَصِيرُ إِلَيهِ بِٱلرِّيَاضَةِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَبقَى عَلَى عَادَتِهِ وَيَجْرِي عَلَى مَسِيرَتِهِ. فَأَمَّا ٱلأَخلَاقُ ٱلْمَذْمُومَةُ فَإِنَّهَا فِي كَثِيرٍ مِنَ ٱلنَّاسِ كَٱلْبُخْلِ وَٱلْجُبْنِ وَٱلتَّشَرُّدِ فَإِنَّ هٰذِهِ ٱلْعَادَاتِ غَالِبَةٌ عَلَى أَكْثَرِ ٱلنَّاسِ مَالِكَةٌ لَهُمْ مُتَسَلِّطَةٌ عَلَيهِمْ بَلْ قِيلَ لَا يُوجَدُ فِي ٱلنَّاسِ مَنْ يَخْلُو مِنْ خُلْقٍ مَكْرُوهٍ وَيَسْلَمُ مِنْ جَمِيعِ ٱلْعُيُوبِ وَلٰكِنَّهُمْ يَتَفَاضَلُونَ

فِي ذٰلِكَ كَمَا يَتَفَاضَلُونَ فِي ٱلْأَخْلَاقِ ٱلْمَحْمُودَةِ. وَقَدْ يَخْتَلِفُ ٱلنَّاسُ فِي ٱلْأَخْلَاقِ ٱلْمَحْمُودَةِ بِٱلتَّفَاضُلِ إِلَّا أَنَّ ٱلْمَجْبُولِينَ عَلَى ٱلْأَخْلَاقِ ٱلْجَمِيلَةِ قَلِيلُونَ جِدًّا وَٱلْمُبْغِضِينَ لَهَا كَثِيرُونَ. فَأَمَّا ٱلْمَجْبُولُونَ عَلَى ٱلْأَخْلَاقِ ٱلسَّيِّئَةِ فَأَكْثَرُ ٱلنَّاسِ لِأَنَّ ٱلْغَالِبَ عَلَى طَبِيعَةِ ٱلْإِنْسَانِ ٱلشَّرُّ. وَذٰلِكَ أَنَّ ٱلْإِنْسَانَ إِذَا ٱسْتَرْسَلَ مَعَ طَبْعِهِ وَلَمْ يَسْتَعْمِلِ ٱلْفِكْرَ وَلَا ٱلتَّمْيِيزَ وَلَا ٱلْحَيَاءَ وَلَا ٱلتَّحَفُّظَ فِي جَمِيعِ أَعْمَالِهِ كَانَ ٱلْغَالِبُ عَلَيْهِ أَخْلَاقَ ٱلْبَهَائِمِ وَذٰلِكَ لِأَنَّ ٱلْإِنْسَانَ إِنَّمَا يَتَمَيَّزُ عَنِ ٱلْبَهَائِمِ بِٱلْفِكْرِ وَٱلتَّمْيِيزِ فَقَطْ فَإِذَا لَمْ يَسْتَعْمِلْهُمَا كَانَ مُشَارِكًا لَهَا فِي عَادَاتِهَا وَٱلشَّهَوَاتُ مُسْتَوْلِيَةٌ عَلَيْهِ وَٱلْحَيَاءُ غَائِبٌ عَنْهُ وَٱلْغَضَبُ مُسْتَقِرٌّ بِهِ وَٱلسَّكِينَةُ غَيْرُ حَاضِرَةٍ عِنْدَهُ وَٱلْحِرْصُ وَٱلْإِحْتِشَادُ دَيْدَنُهُ وَٱلشَّرَهُ لَا يُفَارِقُهُ. وَإِذَا كَانَ ٱلنَّاسُ مَطْبُوعِينَ عَلَى ٱلْأَخْلَاقِ ٱلرَّدِيئَةِ مُنْقَادِينَ لِلشَّهَوَاتِ ٱلدَّنِيئَةِ وَقَعَ ٱلْإِفْتِقَارُ إِلَى ٱلشَّرَائِعِ وَٱلسُّنَنِ وَٱلسِّيَاسَاتِ ٱلْمَحْمُودَةِ وَعَظُمَ ٱلْإِنْتِفَاعُ بِٱلْمُلُوكِ ٱلْحِسَانِ ٱلسِّيرَةِ لِيَرْدَعُوا ٱلظَّالِمَ عَنْ ظُلْمِهِ وَيَمْنَعُوا ٱلْغَاصِبَ عَنْ غَصْبِهِ وَيُعَاقِبُوا ٱلْفَاجِرَ عَلَى فُجُورِهِ وَيَقْمَعُوا ٱلْجَائِرَ حَتَّى يَعُودَ إِلَى ٱلْإِعْتِدَالِ فِي جَمِيعِ أُمُورِهِ. أَمَّا ٱلْأَخْلَاقُ ٱلْمَكْرُوهَةُ فِي طِبَاعِ ٱلنَّاسِ فَمِنْهُمْ مَنْ يَتَظَاهَرُ بِهَا وَيَنْقَادُ إِلَيْهَا وَهُمْ أَشْرَارُ ٱلنَّاسِ. وَمِنْهُمْ مَنْ يَتَنَبَّهُ بِجُودَةِ ٱلْفِكْرِ وَقُوَّةِ ٱلتَّمْيِيزِ عَلَى قُبْحِهَا فَيَأْنَفُ مِنْهَا وَيَتَصَنَّعُ لِإِجْتِنَابِهَا (١) وَذٰلِكَ يَكُونُ عَنْ طَبْعٍ كَرِيمٍ وَنَفْسٍ شَرِيفَةٍ. وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يَتَنَبَّهُ لِذٰلِكَ إِلَّا أَنَّهُ

(١) ويروى: ويتضع لاجتنابها

إِذَا نُبِّهَ عَلَيْهِ أَحَسَّ بِقُبْحِهِ فَرُبَّمَا حَمَلَ نَفْسَهُ عَلَى تَرْكِهِ. وَمِنْهُمْ مَنْ إِذَا تَنَبَّهَ إِلَى مَا فِيهِ مِنَ ٱلنَّقَائِصِ أَوْ نُبِّهَ عَلَيْهَا وَرَامَ ٱلْعُدُولَ عَنْهَا تَعَذَّرَ عَلَيْهِ ذٰلِكَ وَلَمْ يُطَاوِعْهُ طَبْعُهُ وَلَوْ كَانَ مُؤْثِرًا لِلْعُدُولِ عَنْهَا مُجْتَهِدًا فِي ذٰلِكَ. وَهٰذِهِ ٱلطَّائِفَةُ تَحْتَاجُ أَنْ تُرْشَدَ إِلَى طَرِيقِ ٱلتَّدَرُّبِ وَٱلتَّعَلُّمِ بِٱلْعَادَاتِ ٱلْمَحْمُودَةِ حَتَّى تَصِيرَ إِلَيْهَا عَلَى ٱلتَّدْرِيجِ. وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَنْ إِذَا تَنَبَّهَ عَلَى ٱلْأَخْلَاقِ ٱلرَّدِيئَةِ أَوْ نُبِّهَ عَلَيْهَا فَلَا يَجْنَحُ إِلَى تَجَنُّبِهَا وَلَا تَسْمَحُ نَفْسُهُ بِمُفَارَقَتِهَا بَلْ يُؤْثِرُ ٱلْإِصْرَارَ عَلَيْهَا مَعَ عِلْمِهِ بِرَدَاءَتِهَا وَقُبْحِهَا وَهٰذِهِ ٱلطَّائِفَةُ لَيْسَ إِلَى تَهْذِيبِهَا طَرِيقٌ إِلَّا بِٱلْقَهْرِ وَٱلْعُقُوبَةِ إِنْ لَمْ يَرْدَعْهَا ٱلتَّخْوِيفُ وَٱلتَّرْهِيبُ. فَأَمَّا ٱلْأَخْلَاقُ ٱلْمَحْمُودَةُ فَإِنَّهَا وَإِنْ كَانَتْ فِي بَعْضِ ٱلنَّاسِ غَرِيزِيَّةً فَلَيْسَتْ فِي جَمِيعِهِمْ فَعَلَى ٱلْبَاقِينَ أَنْ يَصِيرُوا إِلَيْهَا بِٱلتَّدَرُّبِ وَٱلرِّيَاضَةِ وَيَرْتَقُوا إِلَيْهَا بِٱلِٱعْتِيَادِ وَٱلتَّأَلُّفِ وَقَدْ يُوجَدُ فِي بَعْضِ ٱلنَّاسِ مَنْ لَا يَقْبَلُ طَبْعُهُ ٱلْعَادَاتِ ٱلْحَسَنَةَ وَلَا ٱلْأَخْلَاقَ ٱلْجَمِيلَةَ وَذٰلِكَ يَكُونُ لِرَدَاءَةِ جَوْهَرِهِ وَخُبْثِ عُنْصُرِهِ. وَهٰذِهِ ٱلطَّائِفَةُ مِنْ جُمْلَةِ ٱلْأَشْرَارِ ٱلَّذِينَ لَا يُرْجَى صَلَاحُهُمْ. وَكَثِيرٌ مِنَ ٱلنَّاسِ مَنْ يَقْبَلُ كَثِيرًا مِنَ ٱلْأَخْلَاقِ ٱلْمَحْمُودَةِ وَيَأْنَفُ طَبْعُهُ عَنْ بَعْضِهَا فَلَا يُعَدُّ هٰذَا شِرِّيرًا بَلْ تَكُونُ رُتْبَتُهُ فِي ٱلْخَيْرِ وَٱلتَّهْذِيبِ بِحَسَبِ مَحَاسِنِهِ

البحث الثاني

في الاخلاق الحسنة

(من كتاب تهذيب الاخلاق لزكريا بن عدي)

(راجع صفحة ٤٧ من الجزء الثاني من علم الادب)

امَّا الاخلاقُ التي تُعدُّ فضائلَ فانَّ منها (العفَّة) وهي ضبطُ النفسِ عن الشهواتِ وقسرُها على الاكتفاءِ بما يُقيمُ اودَ الجسدِ ويحفظُ صحَّتَهُ فقط واجتنابُ السرفِ والتقصيرِ في جميعِ اللذَّاتِ وقصدِ الاعتدالِ . وانْ يكونَ ما يُقتصرُ عليهِ من الشهواتِ على الوجهِ المستحبِّ المتفقِ على الارتضاءِ بهِ وفي اوقاتِ الحاجةِ التي لا غِناءَ عنها وعلى القدرِ الذي لا يحتاجُ الى اكثرَ منهُ . وهذهِ الحالةُ هي غايةُ العفَّةِ

(ومنها ايضًا القناعةُ) وهيَ الاقتصارُ على ما سنحَ من العيشِ والرضى بما تسهَّلَ من المعاشِ وتركُ الحرصِ على اكتسابِ الاموالِ وطلبِ المراتبِ العاليةِ مع الرغبةِ في جميعِ ذلكَ وايثارهِ والميلِ اليهِ وقهرِ النفسِ على ذلكَ والتقنعِ باليسيرِ منهُ . وهذا الخُلقُ مُستحسَنٌ من اواسطِ الناسِ واصاغرِهم فامَّا الملوكُ والعظماءُ فليس ذلكَ مُستحسَنًا منهم ولا نُعدُّ القناعةَ من فضائلِهم

(ومنها التصوُّنُ) وهو التحفُّظُ من التبذُّلِ . فمن التصوُّنِ التحفُّظُ

مِنَ ٱلْهَزْلِ ٱلْقَبِيحِ وَمُخَالَطَةِ أَهْلِهِ وَحُضُورِ مَجَالِسِهِ وَضَبْطُ ٱللِّسَانِ عَنِ ٱلْفُحْشِ وَذِكْرِ ٱلْخَنَا وَٱلْمَزْحِ وَٱلسَّخِيفِ وَخَاصَّةً فِي ٱلْمَحَافِلِ وَمَجَالِسِ ٱلْمُحْتَشِمِينَ إِذْ لَا أُبَّهَةَ لِمَنْ يُسْرِفُ فِي ٱلْمَزْحِ وَيُفْحِشُ فِيهِ. وَمِنَ ٱلتَّصَوُّنِ ٱلِٱنْقِبَاضُ عَنْ أَدْنِيَاءِ ٱلنَّاسِ وَأَصَاغِرِهِمْ وَمُصَادَقَتِهِمْ وَمُجَالَسَتِهِمْ وَٱلتَّحَرُّزُ مِنَ ٱلْعِيشَةِ ٱلزَّرِيَّةِ وَٱكْتِسَابِ ٱلْأَمْوَالِ مِنَ ٱلْوُجُوهِ ٱلْخَبِيثَةِ وَٱلتَّرَفُّعُ عَنْ طَلَبِ ٱلْحَاجَاتِ مِنْ لِئَامِ ٱلنَّاسِ وَسَفِلَتِهِمْ وَٱلتَّوَاضُعِ لِمَنْ لَا قَدْرَ لَهُ وَٱلْإِقْلَالُ مِنَ ٱلْبُرُوزِ أَعْنِي ٱلطَّوَافَ مِنْ غَيْرِ ٱضْطِرَارٍ وَٱلتَّبَذُّلَ بِٱلْجُلُوسِ فِي ٱلْأَسْوَاقِ وَقَوَارِعِ ٱلطُّرُقِ مِنْ غَيْرِ حَاجَةٍ حَيْثُ إِنَّ ٱلْإِكْثَارَ مِنْ ذٰلِكَ لَا يَخْلُو مِنَ ٱلْعُيُوبِ فَإِنَّ أَعْظَمَ ٱلنَّاسِ قَدْرًا كَمَا قِيلَ مَنْ ظَهَرَ ٱسْمُهُ وَخَفِيَ جِسْمُهُ

(وَمِنْهَا ٱلْحِلْمُ) وَهُوَ تَرْكُ ٱلِٱنْتِقَامِ عِنْدَ شِدَّةِ ٱلْغَضَبِ مَعَ ٱلْقُدْرَةِ عَلَى ذٰلِكَ وَهٰذَا ٱلْحَالُ مَحْمُودٌ مَا لَمْ يُؤَدِّ إِلَى ثَلْمِ جَاهٍ أَوْ فَسَادِ سِيَاسَةٍ وَهُوَ بِٱلْمُلُوكِ وَٱلرُّؤَسَاءِ أَحْسَنُ لِأَنَّهُمْ أَقْدَرُ عَلَى ٱلِٱنْتِقَامِ مِنْ مُغْضِبِيهِمْ. وَلَا يُعَدُّ فَضِيلَةً حِلْمُ ٱلصَّغِيرِ عَلَى ٱلْكَبِيرِ وَإِنْ كَانَ قَادِرًا عَلَى مُقَابَلَتِهِ فِي ٱلْحَالِ فَإِنَّهُ وَإِنْ أَمْسَكَ عَنْهُ فَإِنَّمَا يُعَدُّ ذٰلِكَ مِنْهُ خَوْفًا لَا حِلْمًا

(وَمِنْهَا ٱلْوَقَارُ) وَهُوَ ٱلْإِمْسَاكُ عَنْ فُضُولِ ٱلْكَلَامِ وَٱلْعَبَثِ وَكَثْرَةِ ٱلْإِشَارَةِ وَٱلْحَرَكَةِ فِيمَا يُسْتَغْنَى عَنِ ٱلتَّحَرُّكِ فِيهِ وَقِلَّةُ ٱلْغَضَبِ وَٱلْإِصْغَاءِ عِنْدَ ٱلِٱسْتِفْهَامِ وَٱلتَّوَقُّفُ عِنْدَ ٱلْجَوَابِ وَٱلتَّحَفُّظُ عِنْدَ ٱلسُّرْعَةِ وَٱلْمُبَادَرَةِ فِي جَمِيعِ ٱلْأُمُورِ. وَمِنْ قَبِيلِ ٱلْوَقَارِ أَيْضًا ٱلْحَيَاءُ وَهُوَ غَضُّ ٱلطَّرْفِ وَٱلِٱنْقِبَاضُ مِنَ ٱلْكَلَامِ حِشْمَةً لِلْمُسْتَحْيِينَ مِنْهُ وَهٰذِهِ

ٱلعَادَةُ محْمُودَةٌ مَا لَمْ تَكُنْ صَادِرَةً عَنْ عِيٍّ اوْ عَجْزٍ

(وَمِنْهَا ٱلوُدُّ) وَهُوَ ٱلمحبَّةُ ٱلمُعْتَدِلَةُ من غَيْرِ اتِبَاعِ ٱلشَّهْوَةِ وَٱلوُدُّ مُسْتَحْسَنٌ مِنَ ٱلانْسَانِ اذَا كَانَ لِاَهْلِ ٱلفَضْلِ وَٱلنُّبْلِ وَذَوِي ٱلوَقَارِ وَٱلأُبَّهَةِ وَٱلمُتَمَيِّزِينَ مِنَ ٱلنَّاسِ.فَامَّا ٱلتَوَدُّدُ الَى اَرَاذِلِ ٱلنَّاسِ وَاَصَاغِرِهِمْ وَاَهْلِ ٱلخَلَاعَةِ وَمَا شَابَهَهُمْ فَمَكْرُوهٌ جِدًّا . وَحُسْنُ ٱلوُدِّ مَا نُسِجَتْهُ عَلَى مِنْوَالٍ مُنَاسِبٍ لِلفَضَائِلِ وَهُوَ اوْثَقُ ٱلوُدِّ وَاثْبَتُهُ فَامَّا مَا كَانَ ٱبْتِدَاؤُهُ ٱجْتِمَاعًا عَلَى هَزْلٍ اوْ طَلَبِ لَذَّةٍ وَمَا شَابَهَ ذٰلِكَ فَلَيْسَ بِمَحْمُودٍ وَلَا بَاقٍ وَلَا ثَابِتٍ وَرُبَّمَا اَفْضَى الَى ٱلشَّرِّ

(وَمِنْهَا ٱلرَّحْمَةُ) وَهِيَ خُلْقٌ مُرَكَّبٌ مِنَ ٱلوُدِّ وَٱلجَزَعِ وَٱلرَّحْمَةُ لَا يَكُونُ اِلَّا لِمَنْ يَظْهَرُ مِنْهُ لِرَاحِمِهِ خَلَّةٌ مَكْرُوهَةٌ اِمَّا نَقِيصَةٌ فِي نَفْسِهِ وَاِمَّا مِحْنَةٌ عَارِضَةٌ لَهُ.فَٱلرَّحْمَةُ هِيَ مَحَبَّةٌ لِلْمَرْحُومِ مَعَ جَزَعٍ مِنَ ٱلحَالَةِ ٱلَّتِي رُحِمَ لِاَجْلِهَا . وَهٰذِهِ ٱلحَالَةُ مُسْتَحْسَنَةٌ مَا لَمْ تَخْرُجْ بِصَاحِبِهَا عَنِ ٱلعَدْلِ وَلَمْ تَنْتَهِ بِهِ اِلَى ٱلجَوْرِ وَاِلَى فَسَادِ ٱلسِّيَاسَةِ . وَلَيْسَتْ بِمَحْمُودَةٍ رَحْمَةُ ٱلقَاتِلِ عِنْدَ ٱلقَوَدِ وَٱلجَانِي عِنْدَ ٱلقِصَاصِ

(وَمِنْهَا ٱلوَفَاءُ) وَهُوَ ٱلصَّبْرُ عَلَى مَا يَبْذُلُهُ ٱلانْسَانُ مِنْ نَفْسِهِ وَيَرْهَنُ بِهِ لِسَانَهُ وَعَدَمُ ٱلخُرُوجِ مِمَّا يَضْمَنُهُ وَلَوْ كَانَ مُفْرِطًا وَلَا يُعَدُّ وَفِيًّا مَنْ لَمْ يَلْحَقْهُ بِوَفَائِهِ اَذِيَّةٌ وَلَوْ قَلِيلَةٌ وَكُلَّمَا اَضَرَّ بِهِ ٱلدُّخُولُ تَحْتَ مَا حُكِمَ بِهِ عَلَى نَفْسِهِ كَانَ ٱبْلَغَ فِي ٱلوَفَاءِ . وَهٰذَا ٱلخُلْقُ مَحْمُودٌ يَنْتَفِعُ بِهِ جَمِيعُ ٱلنَّاسِ فَاِنَّ مَنْ عُرِفَ بِٱلوَفَاءِ كَانَ مَقْبُولَ ٱلقَوْلِ عِنْدَ ٱلنَّاسِ فِي جَمِيعِ مَا يَعِدُ بِهِ وَمَنْ كَانَ مَقْبُولًا كَانَ عَظِيمَ

الجاهِ اِلَّا انَّ انتفاعَ الملوكِ بهذا الخلقِ انفعُ وحاجتهم اليهِ اشدُّ لانَّهُ متى عُرفَ منهم قلةُ الوفاءِ لم يُوثقْ بمواعيدهم ولم تتمَّ اغراضُهم ولم تسكنْ اليهم جندُهم واعوانُهم

(ومنها اداء الامانة) وهو التعفُّف عمَّا يتصرَّفُ الانسانُ فيهِ من مالِ غيرهِ وما يُوثقُ بهِ عليهِ من الاعراضِ والحرمِ مع القدرةِ عليهِ وردِّ ما يُستودعُ الى مودعهِ

(ومنها كتمانُ السرّ) وهذا الخلقُ مركَّبٌ من الوقارِ واداءِ الامانةِ. فانَّ اظهارَ السرِّ من فضولِ الكلامِ. وليس بوقورٍ من تكلَّمَ بالفضولِ والفضوليُّ ناقصُ الشرفِ. فكما انَّ من استودعَ مالًا فاخرجهُ الى غيرِ مودعهِ قد حقرَ الامانةَ كذلكَ من استودعَ سرًّا فاخرجهُ الى غيرِ صاحبهِ فقد حقرَ الامانةَ ايضًا. وكتمانُ السرِّ محمودٌ من جميعِ الناسِ وخاصَّةً من يصحبُ السلطانَ واولياءَ الامورِ فانَّ اخراجهُ اسرارَهم قبيحٌ في نفسهِ يؤدّي الى ضررٍ عظيمٍ وبلاءٍ جسيمٍ

(ومنها التواضعُ) وهو تركُ الترؤسِ واظهارُ الخمولِ وكراهيةُ التعظيمِ والزيادةِ في الاكرامِ وان يتجنَّبَ الانسانُ المباهاةَ بما فيهِ من الفضائلِ والمفاخرةَ بالمالِ والجاهِ وان يتحرَّزَ من الاعجابِ والكبرِ. ولا يُحمدُ التواضعُ الّا من اكابرِ الناسِ ورؤسائهم واهلِ الفضلِ والعلمِ. واما ما سوى هؤلاءِ فلا يكونونَ متواضعينَ بالتواضعِ لانَّ الضعةَ هيَ محلُّهم ومرتبتهم ولو كانوا غيرَ متضعينَ

(وَمِنْهَا ٱلْبِشْرُ) وَهُوَ إِظْهَارُ ٱلسُّرُورِ لِمَنْ يَلْقَاهُ ٱلْإِنْسَانُ مِنْ إِخْوَانِهِ وَأَوِدَّائِهِ وَأَصْحَابِهِ وَأَوْلِيَائِهِ وَمَعَارِفِهِ وَٱلتَّبَسُّمُ عِنْدَ ٱللِّقَاءِ. وَهٰذَا ٱلْخُلُقُ مُسْتَحْسَنٌ مِنْ جَمِيعِ ٱلنَّاسِ وَهُوَ مِنَ ٱلْمُلُوكِ وَٱلْعُظَمَاءِ أَحْسَنُ لِأَنَّ ٱلْبِشْرَ مِنَ ٱلْمُلُوكِ وَٱلْوُلَاةِ تَتَأَلَّفُ بِهِ قُلُوبُ ٱلرَّعِيَّةِ وَٱلْأَعْوَانِ وَٱلْحَاشِيَةِ وَيَزْدَادُ بِهِ تَحَبُّبًا إِلَيْهِمْ وَلَا يُعَدُّ سَعِيدًا مِنَ ٱلْمُلُوكِ أَوِ ٱلْوُلَاةِ مَنْ كَانَ مُبْغِضًا لِرَعِيَّتِهِ لِأَنَّ ذٰلِكَ رُبَّمَا أَدَّى إِلَى فَسَادِ أَمْرِهِ وَزَوَالِ حُكْمِهِ وَمُلْكِهِ

(وَمِنْهَا صِدْقُ ٱللَّهْجَةِ) وَهُوَ ٱلْإِخْبَارُ عَنِ ٱلشَّيْءِ عَلَى مَا هُوَ عَلَيْهِ وَهٰذَا ٱلْخُلُقُ مُسْتَحْسَنٌ مَا لَمْ يُؤَدِّ إِلَى ضَرَرٍ مُفْرِطٍ فَإِنَّهُ لَيْسَ بِمُسْتَحْسَنٍ عِنْدَ ٱلْإِنْسَانِ إِنْ سُئِلَ عَنْ فَاحِشَةٍ كَانَ ٱرْتَكَبَهَا فَإِنَّهُ لَا يَفِي حُسْنُ صِدْقِهِ بِمَا يَلْحَقُهُ فِي ذٰلِكَ مِنَ ٱلْعَارِ وَٱلْمَنْقَصَةِ ٱلْبَاقِيَةِ ٱللَّازِمَةِ. وَكَذٰلِكَ لَيْسَ يَحْسُنُ صِدْقُهُ إِذَا سُئِلَ عَنْ مُسْتَجِيرٍ ٱسْتَجَارَهُ فَأَخْفَاهُ وَلَا إِنْ سُئِلَ عَنْ جِنَايَةٍ مَتَى صَدَقَ عَنْهَا عُوقِبَ عَلَيْهَا عُقُوبَةً مُؤْلِمَةً. وَٱلصِّدْقُ مُسْتَحْسَنٌ مِنْ جَمِيعِ ٱلنَّاسِ وَهُوَ مِنَ ٱلْمُلُوكِ وَٱلْعُظَمَاءِ أَحْسَنُ فَلَا يَسَعُهُمُ ٱلْكَذِبُ مَا لَمْ يَعُدِ ٱلصِّدْقُ عَلَيْهِمْ بِضَرَرٍ

(وَمِنْهَا سَلَامَةُ ٱلنِّيَّةِ) وَهُوَ ٱعْتِقَادُ ٱلْخَيْرِ بِجَمِيعِ ٱلنَّاسِ وَتَنَكُّبُ ٱلْخُبْثِ وَٱلْغِيلَةِ وَٱلْمَكْرِ وَٱلْخَدِيعَةِ وَهٰذَا ٱلْخُلُقُ مَحْمُودٌ مِنْ جَمِيعِ ٱلنَّاسِ إِلَّا أَنَّهُ لَيْسَ يَصْلُحُ لِلْمُلُوكِ ٱلتَّخَلُّقُ بِهِ دَائِمًا وَقَدْ لَا يَتِمُّ ٱلْحُكْمُ إِلَّا بِٱسْتِعْمَالِ ٱلْمَكْرِ وَٱلْحِيَلِ وَٱلِٱغْتِيَالِ مَعَ ٱلْأَعْدَاءِ وَلٰكِنْ لَا يَحْسُنُ بِهِمِ ٱسْتِعْمَالُهُ مَعَ أَخِصَّائِهِمْ وَأَصْفِيَائِهِمْ وَأَهْلِ طَاعَتِهِمْ

(وَمِنْهَا ٱلسَّخَاءُ) وَهُوَ بَذْلُ ٱلْمَالِ مِنْ غَيْرِ مَسْأَلَةٍ وَلَا ٱسْتِحْقَاقٍ. وَهٰذَا ٱلْخُلُقُ مُسْتَحْسَنٌ مَا لَمْ يَنْتَهِ الَى ٱلسَّرَفِ وَٱلتَّبْذِيرِ فَإِنَّ مَنْ بَذَلَ جَمِيعَ مَا يَمْلِكُهُ لِمَنْ لَا يَسْتَحِقُّهُ لَا يُسَمَّى سَخِيًّا بَلْ يُسَمَّى مُبَذِّرًا وَمُضَيِّعًا. وَٱلسَّخَاءُ فِي سَائِرِ ٱلنَّاسِ فَضِيلَةٌ مُسْتَحْسَنَةٌ وَامَّا فِي ٱلْمُلُوكِ وَٱلْأَوْلِيَاءِ فَأَمْرٌ وَاجِبٌ لِانَّ ٱلْبُخْلَ يُؤَدِّي اِلَى ٱلضَّرَرِ ٱلْعَظِيمِ فِي ٱلْأَحْكَامِ. وَٱلسَّخَاءُ وَٱلْبَذْلُ تَرْتَبِطُ بِهِمَا قُلُوبُ ٱلرَّعِيَّةِ وَٱلْجُنْدِ وَٱلْأَعْوَانِ فَيَعْظُمُ ٱلِانْتِفَاعُ بِهِ

(وَمِنْهَا ٱلشَّجَاعَةُ) وَهِيَ ٱلْإِقْدَامُ عَلَى ٱلْمَكَارِهِ وَٱلْمَهَالِكِ عِنْدَ ٱلْحَاجَةِ الَى ذٰلِكَ وَثَبَاتُ ٱلْجَأْشِ اي ٱلْقَلْبِ عِنْدَ ٱلْمَخَاوِفِ وَٱلِاسْتِهَانَةُ بِٱلْمَوْتِ. وَهٰذَا ٱلْخُلُقُ مُسْتَحْسَنٌ مِنْ جَمِيعِ ٱلنَّاسِ وَهُوَ بِٱلْمُلُوكِ وَاعْوَانِهِمْ ٱلْيَقُ وَاحْسَنُ بَلْ لَيْسَ بِمُسْتَحِقٍّ لِلْمُلْكِ مَنْ عَدِمَ هٰذِهِ ٱلْخَلَّةَ. وَاكْثَرُ ٱلنَّاسِ اخْطَارًا وَاحْوَجُهُمْ اِلَى ٱقْتِحَامِ ٱلْغَمَرَاتِ هُمُ ٱلْمُلُوكُ وَٱلْحُكَّامُ فَٱلشَّجَاعَةُ اِذًا مِنْ اخْلَاقِهِمِ ٱلْخَاصَّةِ بِهِمْ

(وَمِنْهَا ٱلْمُنَافَسَةُ) وَهِيَ مُنَازَعَةُ ٱلنَّفْسِ اِلَى ٱلتَّشَبُّهِ بِٱلْغَيْرِ فِيمَا يَرَاهُ وَيَرْغَبُ فِيهِ لِنَفْسِهِ وَٱلِاجْتِهَادُ فِي ٱلتَّرَقِّي اِلَى دَرَجَةٍ اعْلَى مِنْ دَرَجَتِهِ. وَهٰذَا ٱلْخُلُقُ مَحْمُودٌ اِذَا كَانَتِ ٱلْمُنَافَسَةُ فِي ٱلْفَضَائِلِ وَٱلْمَرَاتِبِ ٱلْعَالِيَةِ اوْ فِيمَا يُكْسِبُ مَجْدًا وَسُؤْدُدًا فَامَّا فِي غَيْرِ ذٰلِكَ مِنِ ٱتِّبَاعِ ٱلشَّهَوَاتِ وَٱلْمُبَاهَاةِ بِٱللَّذَّاتِ وَٱلزِّينَةِ وَغَيْرِ ذٰلِكَ فَمَكْرُوهٌ جِدًّا

(وَمِنْهَا ٱلصَّبْرُ عِنْدَ ٱلشَّدَائِدِ) وَهٰذَا ٱلْخُلُقُ مُرَكَّبٌ مِنَ ٱلْوَقَارِ وَٱلشَّجَاعَةِ وَهُوَ مُسْتَحْسَنٌ جِدًّا مَا لَمْ يَكُنِ ٱلْجَزَعُ نَافِعًا وَٱلْحُزْنُ وَٱلْقَلَقُ

مُجدِيًا وَٱلِاجْتِهَادُ دَافِعَةَ ضَرَرِ تِلْكَ ٱلشَّدَائِدِ فَمَا أَحْسَنَ ٱلصَّبْرَ إِذَا عَدِمَتَ ٱلْحِيلَةَ وَمَا أَقْبَحَ ٱلْجَزَعَ إِذَ لَمْ يَكُنْ مُفِيدًا

(وَمِنْهَا عِظَمُ ٱلْهِمَّةِ) وَهُوَ ٱسْتِصْغَارُ مَا دُونَ ٱلنِّهَايَةِ مِنْ مَعَالِي ٱلْأُمُورِ وَطَلَبُ ٱلْمَرَاتِبِ ٱلسَّامِيَةِ وَٱسْتِحْقَارُ مَا يَجُودُ بِهِ ٱلْإِنْسَانُ عِنْدَ ٱلْعَطِيَّةِ وَٱلِاسْتِخْفَافُ بِأَوَاسِطِ ٱلْأُمُورِ وَطَلَبِ ٱلْغَايَاتِ وَٱلتَّهَاوُنُ بِمَا يَمْلِكُهُ وَبَذْلُهُ لِمَنْ يَسْأَلُهُ مِنْ غَيْرِ ٱمْتِنَانٍ وَلَا ٱعْتِدَادٍ بِهِ. وَهٰذَا ٱلْخُلُقُ مِنْ خُصُوصِيَّاتِ ٱلْمُلُوكِ وَٱلْحُكَّامِ وَقَدْ يَحْسُنُ بِٱلرُّؤَسَاءِ وَٱلْعُظَمَاءِ وَمَنْ تَسْمُو نَفْسُهُ إِلَى مَرَاتِبِهِمْ. وَمِنْ عِظَمِ ٱلْهِمَّةِ ٱلْأَنَفَةُ وَٱلْحَمِيَّةُ وَٱلْغَيْرَةُ. فَٱلْأَنَفَةُ هِيَ بُعْدُ ٱلنَّفْسِ عَنِ ٱلْأُمُورِ ٱلدَّنِيَّةِ وَٱلْحَمِيَّةُ وَٱلْغَيْرَةُ مَعًا وَٱلْغَضَبُ عِنْدَ ٱلْإِحْسَاسِ بِٱلنَّقْصِ. وَتَلْحَقُ ٱلْإِنْسَانَ ٱلْغَيْرَةُ عَلَى ٱلْحَرَمِ لِأَنَّ فِي ٱلتَّعَرُّضِ لَهُنَّ عَارًا وَمَنْقَصَةً فَإِنَّ ٱلْمُتَعَرِّضَ لِلْحَرَمِ مُهْتَضِمٌ لِصَاحِبِهَا وَمُتَصَرِّفٌ فِي غَيْرِ حَقٍّ لَهُ وَٱلِاهْتِضَامُ نَقِيصَةٌ وَمِنْ أَعْظَمِ ٱلْهِمَّةِ ٱلْأَنَفَةُ مِنْهُ. وَهٰذَا ٱلْخُلُقُ مُسْتَحْسَنٌ جِدًّا مِنْ جَمِيعِ ٱلنَّاسِ

(وَمِنْهَا ٱلْعَدْلُ) وَهُوَ ٱلتَّقَسُّطُ ٱللَّازِمُ لِلِاسْتِوَاءِ وَٱسْتِعْمَالُ ٱلْأُمُورِ فِي مَوَاضِعِهَا وَأَوْقَاتِهَا وَوُجُوهِهَا وَمَقَادِيرِهَا مِنْ غَيْرِ سَرَفٍ وَلَا تَقْصِيرٍ وَلَا تَقْدِيمٍ وَلَا تَأْخِيرٍ



البحث الثالث

في الاخلاق الرديئة

(من كتاب تهذيب الاخلاق لزكريا بن عدي)

فَامَّا ٱلاخلَاقُ ٱلرَّدِيئَةُ ٱلَّتِي تُعَدُّ نقَائص وَمَعَايِبَ فَانَّ مِنهَا ٱلْفُجُورَ وَهُوَ ٱلانهِمَاكُ فِي ٱلشَّهَوَاتِ وَٱلِاستِكثَارُ مِنهَا وَإِيثَارُ ٱللَّذَّاتِ وَٱلإِدمَانُ عَلَيهَا وَٱرتِكَابُ ٱلفَوَاحِش وَٱلمُجَاهَرَةُ بِهَا وَبِٱلجُملَةِ ٱلسَّرَفُ فِي جَمِيعِ ٱلشَّهَوَاتِ. وَهٰذَا ٱلخُلُقُ مَكرُوهٌ جِدًّا يَهدِمُ ٱلحَيَاءَ وَيَذهَبُ بِمَاءِ ٱلوَجهِ وَيَخرُقُ حِجَابَ ٱلحِشمَةِ

(وَمِنهَا ٱلشَّرَهُ) وَهُوَ ٱلحِرصُ عَلَى ٱكتِسَابِ ٱلأَموَالِ وَجَمعِهَا وَطَلَبِهَا مِن كُلِّ وَجهٍ وَلَو قَبُحَ طَرِيقُ ٱكتِسَابِهَا وَٱلمُنَاوَشَةُ عَلَيهَا وَٱلِاستِكثَارُ مِنَ ٱلقُنيَةِ وَٱدِّخَارُ ٱلاعرَاض. وَهٰذَا ٱلخُلُقُ مَكرُوهٌ مِن جَمِيعِ ٱلنَّاسِ إِلَّا مِنَ ٱلمُلُوكِ وَٱلحُكَّامِ فَإِنَّ كَثرَةَ ٱلأَموَالِ وَٱلذَّخَائِرِ وَٱلأَعرَاضِ تُعِينُهُم وَتَزِيدُهُم هَيبَةً فِي نُفُوسِ رَعِيَّتِهِم وَأَعوَانِهِم وَأَعدَائِهِم وَأَضدَادِهِم

(وَمِنهَا ٱلتَّبَذُّلُ) وَهُوَ ٱطِّرَاحُ ٱلحِشمَةِ وَتَركُ ٱلتَّحَفُّظِ وَٱلإِكثَارُ مِنَ ٱلهَزلِ وَٱللَّهوِ وَمُخَالَطَةُ ٱلسُّفَهَاءِ وَحُضُورُ مَجَالِسِ ٱلسُّخفِ وَٱلهَزلِ وَٱلفُحشِ وَٱلتَّفَوُّهُ بِٱلخَنَا وَذِكرُ ٱلاعرَاضِ وَٱلمَزحِ وَٱلجُلُوسُ فِي ٱلأَسوَاقِ وَعَلَى قَوَارِعِ ٱلطُّرُقِ وَٱلتَّكَسُّبُ بِٱلمَعَايِشِ ٱلزَّرِيَّةِ وَٱلتَّوَاضُعُ

لِلسُّفَلَاءِ وَهٰذَا ٱلْخُلُقُ قَبِيحٌ بِجَمِيعِ ٱلنَّاسِ

(وَمِنْهَا ٱلسَّفَهُ) وَهُوَ ضِدُّ ٱلْحِلْمِ وَهُوَ سُرْعَةُ ٱلْغَضَبِ وَٱلطَّيْشِ مِنْ يَسِيرِ ٱلْأُمُورِ وَٱلْمُبَادَرَةُ فِي ٱلْبَطْشِ وَٱلْإِيقَاعُ بِٱلْمُؤْذِي وَٱلسَّرَفُ فِي ٱلْعُقُوبَةِ وَإِظْهَارُ ٱلْجَزَعِ مِنْ أَدْنَى ضَرَرٍ وَٱلسَّبُّ ٱلْفَاحِشُ. وَهٰذَا ٱلْخُلُقُ مُسْتَقْبَحٌ مِنْ كُلِّ أَحَدٍ إِلَّا أَنَّهُ بِٱلْمُلُوكِ وَٱلرُّؤَسَاءِ أَقْبَحُ مِنْهُ بِغَيْرِهِمْ

(وَمِنْهَا ٱلْخُرْقُ) وَهُوَ كَثْرَةُ ٱلْكَلَامِ وَٱلْحَرَكَةِ مِنْ غَيْرِ حَاجَةٍ وَشِدَّةُ ٱلضَّحِكِ وَٱلْمُبَادَرَةُ إِلَى ٱلْأُمُورِ مِنْ غَيْرِ تَوَقُّفٍ وَسُرْعَةُ ٱلْجَوَابِ وَهٰذَا ٱلْخُلُقُ مُسْتَقْبَحٌ مِنْ كُلِّ أَحَدٍ وَهُوَ بِأَهْلِ ٱلْعِلْمِ وَذَوِي ٱلنَّبَاهَةِ أَقْبَحُ. وَمِنْ قَبِيلِهِ قِلَّةُ ٱلْاِحْتِشَامِ لِمَنْ يَجِبُ ٱحْتِشَامُهُ وَٱلْمُجَاهَرَةُ بِٱلْأَجْوِبَةِ ٱلْغَلِيظَةِ ٱلْفَظَّةِ ٱلْمُسْتَشْنَعَةِ وَهٰذَا ٱلْخُلُقُ مَكْرُوهٌ وَخَاصَّةً بِذَوِي ٱلْوَقَارِ

(وَمِنْهَا ٱلْهَوَى) وَهُوَ إِفْرَاطُ ٱلْحُبِّ وَٱلسَّرَفُ فِيهِ. وَهٰذَا ٱلْخُلُقُ مَكْرُوهٌ مِنْ جَمِيعِ ٱلنَّاسِ يَحْمِلُ صَاحِبَهُ عَلَى ٱلْفُجُورِ وَٱرْتِكَابِ ٱلْفَوَاحِشِ وَكَثْرَةِ ٱلتَّبَذُّلِ وَقِلَّةِ ٱلْحَيَاءِ وَهُوَ يَشِينُ ٱلْإِنْسَانَ كَثِيرًا

(وَمِنْهَا ٱلْقَسَاوَةُ) وَهٰذَا ٱلْخُلُقُ مُرَكَّبٌ مِنَ ٱلْبُغْضِ وَٱلشَّجَاعَةِ وَهُوَ ٱلتَّهَاوُنُ بِمَا يَلْحَقُ ٱلْغَيْرَ مِنَ ٱلْأَلَمِ وَٱلْأَذَى. وَهٰذَا ٱلْخُلُقُ مَكْرُوهٌ مِنْ كُلِّ أَحَدٍ إِلَّا مِنَ ٱلْجُنْدِ وَأَصْحَابِ ٱلسِّلَاحِ وَٱلْمُتَوَلِّينَ ٱلْحُرُوبَ فَإِنَّ ذٰلِكَ غَيْرُ مَكْرُوهٍ مِنْهُمْ إِذَا كَانَ فِي مَوْضِعِهِ

(وَمِنْهَا ٱلْغَدْرُ) وَهُوَ ٱلرُّجُوعُ عَمَّا يَبْذُلُهُ ٱلْإِنْسَانُ مِنْ نَفْسِهِ وَيَضْمَنُ ٱلْوَفَاءَ بِهِ. وَهٰذَا ٱلْخُلُقُ مُسْتَقْبَحٌ إِنْ كَانَ لِصَاحِبِهِ فِيهِ مَصْلَحَةٌ

ومنفعة. وهو بالملوك والحكام اقبح واضر فان من عرف منهم بالغدر لم يركن اليه احد ولم يثق به انسان فاذا كان كذلك فسد نظام ملكه

(ومنها الخيانة) وهي الاستبدال بما يؤتمن الانسان عليه من الاموال والاعراض والحرم. وتملك ما يستودع ومجاحدة مودعه. ومن الخيانة ايضا طي الاخبار اذا ندب الانسان لتأديتها وتحريف الرسائل اذا حملها وصرفها عن وجهها. وهذا الخلق اعني الخيانة مكروه من جميع الناس ويثلم الجاه ويقطع وجوه المعاش

(ومنها افشاء السر) وهذا الخلق مركب من الخرق والخيانة فانه ليس بوثور من لم يضبط لسانه ولم يتسع صدره لحفظ ما يستسر به والسر احد الودائع وافشاؤه نقيصة على صاحبه فالمفشي بالسر خائن وهذا الخلق قبيح جدا وخاصة بمن يصحب الملوك واولياء الامور ويتداخل معهم. ومن قبيل افشاء السر ايضا الغيبة والنميمة وهي ان يبلغ انسان انسانا عن آخر قولا مكروها وهذا الخلق قبيح جدا ولو لم يستسر ايضا بما يسمعه او يبلغه فنقله الى من يكره قبيح لان في ذلك ايقاع وحشة بين المبلغ والمبلغ عنه وذلك غاية الشر

(ومنها الكبر) وهو استعظام الانسان نفسه واستحسان ما فيه من الفضائل والاستهانة بالناس واستصغارهم والترفع على ما يجب التواضع له. وهذا الخلق مكروه جدا ومضر بصاحبه لان

مَنْ اَعْجَبَتْهُ نَفْسُهُ لَمْ يَسْتَزِدْ مِنِ اكْتِسَابِ الْأَدَبِ وَمَنْ لَمْ يَسْتَزِدْ بَقِيَ عَلَى نَقْصِهِ اِذْ اِنَّ الْاِنْسَانَ لَا يَخْلُو مِنَ النَّقْصِ قَبْلَ مَا يَنْتَهِي اِلَى غَايَةِ الْكَمَالِ. وَاَيْضاً فَاِنَّ هٰذَا الْفِعْلَ يُبْغِضُهُ عِنْدَ النَّاسِ وَمَنْ تَبْغُضُهُ النَّاسُ سَاءَتْ اَحْوَالُهُ

(وَمِنْهَا الْعُبُوسُ) وَهُوَ التَّقَطُّبُ عِنْدَ اللِّقَاءِ وَقِلَّةُ التَّبَسُّمِ وَاِظْهَارُ الْكَرَاهِيَةِ. وَهٰذَا الْخُلُقُ مُرَكَّبٌ مِنَ الْكِبْرِ وَغِلَظِ الطَّبْعِ. فَاِنَّ قِلَّةَ الْبَشَاشَةِ هِيَ اسْتِهَانَةٌ بِالنَّاسِ وَالْاِسْتِهَانَةَ بِالنَّاسِ تَكُونُ مِنَ الْاِعْجَابِ وَالْكِبْرِ وَقِلَّةُ التَّبَسُّمِ اَيْضاً خَاصَّةً عِنْدَ لِقَاءِ الْاِخْوَانِ تَكُونُ مِنْ غِلَظِ الطَّبْعِ. وَهٰذَا الْخُلُقُ مُسْتَقْبَحٌ وَخَاصَّةً بِالرُّؤَسَاءِ وَالْاَفَاضِلِ

(وَمِنْهَا الْكَذِبُ) وَهُوَ الْاِخْبَارُ عَنِ الشَّيْءِ بِخِلَافِ مَا هُوَ عَلَيْهِ. وَهٰذَا الْخُلُقُ مَكْرُوهٌ وَهُوَ بِالْمُلُوكِ وَالرُّؤَسَاءِ اَكْثَرُ قُبْحاً لِاَنَّ الْيَسِيرَ مِنَ النَّقْصِ يَشِينُهُمْ

(وَمِنْهَا الْخُبْثُ) وَهُوَ اِضْمَارُ الشَّرِّ لِلْغَيْرِ وَاِظْهَارُ الْخَيْرِ لَهُ رِيَاءً وَاسْتِعْمَالُ الْحِيلَةِ وَالْمَكْرِ وَالْخَدِيعَةِ فِي الْمُعَامَلَاتِ وَهٰذَا الْخُلُقُ مَكْرُوهٌ جِدّاً. (وَمِنْ قَبِيلِ الْخُبْثِ الْحِقْدُ) وَهُوَ اِضْمَارُ الشَّرِّ لِلْجَانِي اِذَا لَمْ يَتَمَكَّنْ مِنَ الْاِنْتِقَامِ مِنْهُ فَيُخْفِي اِلَى وَقْتِ الْفُرْصَةِ وَهٰذَا الْخُلُقُ مِنْ اَخْلَاقِ الْاَشْرَارِ وَهُوَ مَذْمُومٌ جِدّاً

(وَمِنْهَا الْبُخْلُ) وَهُوَ مَنْعُ الْمُسْتَعْطِي مَعَ الْقُدْرَةِ عَلَى اِعْطَائِهِ. وَهٰذَا الْخُلُقُ مَكْرُوهٌ مِنْ جَمِيعِ النَّاسِ وَخَاصَّةً الْمُلُوكَ وَالْعُظَمَاءَ وَذٰلِكَ لِاَنَّ الْبُخْلَ يُبْغَضُ مِنْهُمْ اَكْثَرُ مِمَّا يُبْغَضُ مِنْ غَيْرِهِمْ وَيَقْدَحُ

في حكمهم ويبغضهم الى رعيتهم

(ومنها الجبن) وهو توهم المخاوف وتمكينها في العقل بدون طائل وعدم الاقدام على الامور عند اللزوم والرعب من مواجهة ذوي الامر عند الاقتضاء . وهذا الخلق مكروه الا انه بالجنود واصحاب الحروب مضر جدا

(ومنها الحسد) وهو التألم مما يراه الانسان لغيره من الخير ويجده فيه من الفضائل والاجتهاد في اعدام الغير ما هو له . وهذا الخلق مكروه وقبيح بكل احد

(ومنها الجزع عند الشدة) وهذا الخلق مركب من الخرق والجبن . وهو مستقبح جدا اذا لم يكن مجديا نفعا واما اظهاره الحيلة عند الوقوع في الشدة او لاستغاثة مغيث او اجتلاب معين للمساعدة فغير مكروه ولا يعد نقيصة

(ومنها صغر الهمة) وهو ضعف النفس عن طلب المراتب العالية وقصور الامل عن بلوغ الغايات واستكثار اليسير من الفضائل واستعظام القليل من العطايا والاعتداد بذلك والرضى باواسط الامور واصاغرها . وهذا الخلق قبيح بكل احد وهو بالملوك والعظماء اقبح بل ليس بمستحق للاعتبار من صغرت همته

(ومنها الجور) وهو الخروج عن العدل في جميع الامور كاخذ الاموال من غير وجوهها الحلال والمطالبة بما لا يجب من الحقوق وفعل الاشياء في غير مواضعها ولا اوقاتها ولا على القدر

ٱلَّذي يَجِبُ لَهَا وَعَلَى ٱلْوَجْهِ ٱلَّذِي يُسْتَحَبُّ فِيهَا وَمِنْ قَبِيلِ ذٰلِكَ ٱلسَّرَفُ وَٱلتَّبْذِيرُ ايضًا

البحث الرابع

في بعض الاخلاق التي تكون في بعض الناس فضيلة وفي بعضهم رذيلة

(من كتاب تهذيب الاخلاق لزكريا بن عدي)

(مِنهَا حُبُّ ٱلْكَرَامَةِ) وَهُوَ انْ يُسَرَّ ٱلْإِنْسَانُ بِٱلتَّعظِيمِ وَٱلتَّبْجِيلِ وَٱلْمُقَابَلَةِ بِٱلْمَدْحِ وَٱلثَّنَاءِ ٱلْجَمِيلِ. وَهٰذَا ٱلْخُلُقُ مَحْمُودٌ فِي ٱلْأَحْدَاثِ وَٱلصِّبْيَانِ لِأَنَّ مَحَبَّةَ ٱلْكَرَامَةِ تَحُثُّهُمْ عَلَى ٱلرَّغْبَةِ فِي ٱكْتِسَابِ ٱلْفَضَائِلِ. وَذٰلِكَ انَّ ٱلْحَدَثَ وَٱلصَّبِيَّ إِذَا مُدِحَا عَلَى فَضِيلَةٍ وُجِدَت فِيهِمَا كَانَ ذٰلِكَ دَاعِيًا لَهُمَا إِلَى ٱلْإِزْدِيَادِ فِي ٱلْفَضَائِلِ. وَامَّا ٱلْأَفَاضِلُ مِنَ ٱلنَّاسِ فَإِنَّ ذٰلِكَ يُعَدُّ مِنْهُمْ نَقِيصَةً. لِأَنَّ ٱلْإِنْسَانَ إِنَّمَا يُمْدَحُ عَلَى ٱلْفَضِيلَةِ إِذَا كَانَتْ مُسْتَغْرَبَةً مِنْهُ امَّا إِذَا كَانَ مِنْ اهلِ ٱلْفَضْلِ فَلَا يَنْبَغِي انَ يُسَرَّ اوْ يَسْتَغْرِبَ مَا يَظْهَرُ مِنْهُ مِنَ ٱلْفَضَائِلِ. وَكَذٰلِكَ ٱلْإِكْرَامُ وَٱلتَّبْجِيلُ إِذَا كَانَ زَائِدًا عَلَى ٱسْتِحْقَاقِهِ فَإِنَّهُ يَجْرِي مَجْرَى ٱلْمَلَقِ وَٱلسُّرُورُ بِٱلْمَلَقِ غَيْرُ مَحْمُودٍ لِأَنَّهُ مِنْ جِنْسِ ٱلْخَدِيعَةِ

(وَمِنْهَا حُبُّ ٱلزِّينَةِ) وَهُوَ ٱلتَّصَنُّعُ بِلُبْسِ ٱلثِّيَابِ ٱلْفَاخِرَةِ وَرُكُوبِ ٱلْخَيْلِ وَكَثْرَةِ ٱلْخَدَمِ وَٱلْحَشَمِ وَهٰذَا مُسْتَحْسَنٌ مِنَ ٱلْمُلُوكِ وَٱلْعُظَمَاءِ وَٱلْأَحْدَاثِ وَٱلظُّرَفَاءِ وَٱلنِّسَاءِ. فَامَّا ٱلرُّهْبَانُ وَٱلزُّهَّادُ

وَالشُّيوخ وَاهل العلم وخاصة الخطباء والواعظون ورؤساء الدين فان التصنع بالزينة مستقبح منهم والمستحسن بهم هو لبس الخشن وكراهية التنعم ولزوم بيوت الصلاة

(ومنها المجازاة على المدح) وهو مجازاة من يمدح الانسان ويشكره في المجالس والمحافل. وهذا الخلق مستحسن من الملوك والرؤساء لانه يدعو المادح الى الازدياد في مدحه فيكتسب الممدوح ذكرا جميلا يبقى الى الدهر. ومن فضائل الملوك والرؤساء بقاء ذكرهم الجميل. واما محبتهم سماع المدح من المادح مواجهة فذلك غير مستحب منهم لانه من جنس الملق وحب الملق مكروه لكونه من قبل الخديعة كما تقدم. فاما ايثارهم انتشار ذكرهم ومدحهم وتناول الناس له وبقاؤه بعدهم فانه محمود. ومجازاة المادح مستحسنة من الملوك ومنعهم مستقبح وعار عليهم لان ذلك يدعو الى ذمهم وذمهم يبقى ايضا الى الدهر فينشئ لهم ذكرا قبيحا وذلك مكروه من الملوك والرؤساء. اما اصاغر الناس فمحبتهم جزاء المادح لهم غير مستحسن لان المادح اذا مدح الدنيء من الناس فانما يخدعه فاذا اجازه اعتقد انه اخذ منه تلك الجائزة بالحيلة. وكثير من الناس اذا مدحوا بما ليس فيهم يبادرون الى مجازاة المادح فيكونون قد وضعوا الشيء في غير موضعه فلو صرفوا ذلك الشيء الى الضعفاء واهل المسكنة كان ذلك اجمل بهم والیق

(ومنها الزهد) وهو قلة الرغبة في الاموال والادخار وغيرها

وَإِيثَارُ ٱلْقَنَاعَةِ بِمَا يُقِيمُ ٱلرَّمَقَ وَٱلِٱسْتِخْفَافُ بِٱلدُّنْيَا وَمَحَاسِنِهَا وَلَذَّاتِهَا وَقِلَّةُ ٱلِٱكْتِرَاثِ بِٱلْمَرَاتِبِ ٱلْعَالِيَةِ وَٱسْتِصْغَارُ ٱلْمُلُوكِ وَمَمَالِكِهِمْ وَأَرْبَابِ ٱلْأَمْوَالِ وَأَمْوَالِهِمْ. وَهٰذَا ٱلْخُلُقُ مُسْتَحْسَنٌ جِدًّا مِنَ ٱلْعُلَمَاءِ وَرُؤَسَاءِ ٱلدِّينِ وَٱلْخُطَبَاءِ وَٱلْوَاعِظِينَ وَمَنْ يُرَغِّبُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلْمَعَادِ وَٱلْبَقَاءِ بَعْدَ ٱلْمَوْتِ. فَأَمَّا ٱلْمُلُوكُ وَٱلْعُظَمَاءُ فَإِنَّ ذٰلِكَ غَيْرُ مُسْتَحْسَنٍ مِنْهُمْ وَلَا لَائِقٌ بِهِمْ لِأَنَّ ٱلْمَلِكَ إِذَا أَظْهَرَ ٱلزُّهْدَ صَارَ نَاقِصًا إِذْ إِنَّ مُلْكَهُ لَا يَتِمُّ إِلَّا بِٱحْتِشَادِ ٱلْأَمْوَالِ وَٱلْأَعْرَاضِ وَٱدِّخَارِهَا لِيُدَبِّرَ بِهَا مُلْكَهُ وَيَصُونَ بِوَاسِطَتِهَا حَوْزَتَهُ وَيَفْتَقِدَ بِهَا رَعِيَّتَهُ وَهٰذَا مُضَادٌّ لِلزُّهْدِ فَإِنَّهُ إِذَا تَرَكَ ٱلِٱدِّخَارَ أَبْطَلَ مُلْكَهُ وَصَارَ مَعْدُودًا فِي جُمْلَةِ ٱلْمُلُوكِ ٱلْحَائِدِينَ عَنْ طَرِيقِ ٱلسِّيَاسَةِ.

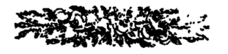
فَهٰذِهِ ٱلْأَقْسَامُ ٱلَّتِي ذَكَرْنَاهَا هِيَ أَخْلَاقُ جَمِيعِ ٱلنَّاسِ. أَمَّا ٱلْمَمْدُوحَةُ مِنْهَا ٱلْمَعْدُودَةُ فَضَائِلَ فَقَلَّمَا تَجْتَمِعُ كُلُّهَا فِي إِنْسَانٍ وَاحِدٍ وَأَمَّا ٱلْمَذْمُومَةُ مِنْهَا ٱلْمَعْدُودَةُ نَقَائِصَ وَمَعَايِبَ فَقَلَّمَا يُوجَدُ إِنْسَانٌ يَخْلُو مِنْ جَمِيعِهَا حَتَّى لَا يَكُونَ فِيهِ خُلُقٌ مَكْرُوهٌ وَخَاصَّةً مَنْ يُرَوِّضُ نَفْسَهُ وَيُؤَدِّبُهَا. فَإِنَّ مَنْ لَا يَتَعَمَّلُ لِضَبْطِ نَفْسِهِ وَتَفَقُّدِ عُيُوبِهِ لَمْ يَخْلُ مِنْ عُيُوبٍ كَثِيرَةٍ وَإِنْ لَمْ يُحِسَّ بِهَا وَلَمْ يَفْطَنْ إِلَيْهَا. وَإِذَا كَانَ ٱلْحَالُ عَلَى مَا ذَكَرْنَاهُ كَانَ أَوْلَى ٱلْأُمُورِ بِٱلْإِنْسَانِ أَنْ يَتَفَقَّدَ أَخْلَاقَهُ وَيَتَأَمَّلَ عُيُوبَهُ وَيَجْتَهِدَ فِي إِصْلَاحِهَا وَنَفْيِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَيَتْبَعَ ٱلْأَخْلَاقَ ٱلْمَحْمُودَةَ وَيَحْمِلَ نَفْسَهُ عَلَى ٱعْتِيَادِهَا وَٱلتَّخَلُّقِ بِهَا لِأَنَّ ٱلنَّاسَ إِنَّمَا يَتَفَاضَلُونَ عَلَى ٱلْحَقِيقَةِ بِفَضَائِلِهِمْ

لا كما يعتقدُ الجهّالُ والعامّة انهم يتفاضلون باحوالهم واموالهم وكثرة ذخائرهم. وافتخار اكثر الناس بالاموال والذخائر والآلات وتعظيمهم الاغنياء وذوي الجاه ليس في محلّه. وذلك لانّ كثرة المال انما تتفاضل بها احوال الناس واما نفوسهم فلا تكون افضل من نفوس غيرهم بكثرة المال. وذلك لانّ الفاجر السفيه الجاهل الشرير وان حوى اموالا عظيمة فلا تكون بافضل من العفيف الحكيم الخيّر العالم ولو كان فقيرا بل انما يكون بكثرة امواله اغنى منه اذا كان ذاك معسرا فقيرا واما التفضيل فلا يكون الا بكثرة الفضائل فقط. ولكن ان اجتمع بالانسان مع الاخلاق الجميلة والعادات المستحسنة الغنى والثروة ايضا فلعمري انه يكون احسن حالا من الفاضل المعسر لانّ ذلك من جملة سعادات الانسان وخاصة اذا كان فاضلا عادلا عفيفا يصرف ماله في وجهه وينفقه في حقّه ويتفقّد به من يجب عليه ولا يتهامل في مكرمة تزيد في محاسنه

اما الناقص الجاهل السيّء العادات فانّ الغنى ربما زاده نقصا وعيوبا واضاف الى معائبه عيوبا اخرى. ولا يعدّ بخيلا من لا مال له وان كان البخل من طبعه لانّ فقره يخفي ذلك منه ومتى لم يظهر منه هذا الامر فلا يعاب عليه لانّ الانسان انما يعاب بما يظهر منه واما من كان ذا مال وايسار ولم يجد به ظهر بخله فيصير المال جالبا عليه عارا. وايضا فانّ اكثر الفجور

وَٱلمحظُورَاتِ وَٱلشَّهوَاتِ ٱلرَّدِيئَــةِ لَا تُنَالُ غَالِبًا اِلَّا بِٱلأَموَالِ فَٱلفَقِيرُ ٱلمُعسِرُ وَاِنْ كَانَ فَجُورًا فَلَا يَكَادُ يَظْهَرُ ذٰلِكَ مِنْهُ اَمَّا اِذَا كَانَ ذَا مَالٍ تَمَكَّنَ مِن شَهَوَاتِهِ فَتَظْهَرُ حِينَئِذٍ عُيُوبُهُ. وَبِنَاءً عَلَيْهِ يَكُونُ ٱلغِنَى مُكسِبًا لِصَاحِبِهِ اَحيَانًا عُيُوبًا وَنَقَائِصَ وَٱلفَقرُ فَضَائِلَ وَمَحَاسِنَ. فَيَنتَجُ مِنْ ذٰلِكَ اِذًا اَنَّ ٱلنَّاسَ لَا تَتَفَاضَلُ حَقِيقَةً بِٱلأَموَالِ وَٱلذَّخَائِرِ بَلْ اِنَّمَا يَتَفَاضَلُونَ بِٱلآدَابِ وَٱلمحَاسِنِ ٱلذَّاتِيَّةِ. فَٱلخَلِيقُ بِٱلاِنسَانِ اَنْ يَسُوسَ نَفْسَهُ بِٱلآدَابِ ٱلمُستَحسَنَةِ وَيَسلُكَ بِهَا ٱلطَّرِيقَ ٱلمحمُودَةَ فَاِنَّهُ بِذٰلِكَ يَكُونُ مَحبُوبًا عِنْدَ ٱلنَّاسِ مَقبُولًا لَدَيهِمْ مُعَظَّمًا فِي نُفُوسِهِمْ مُفَضَّلًا عَنْ غَيرِهِ مُوَقَّرًا عِنْدَ ٱلرُّؤَسَاءِ وَٱلمُلُوكِ مَقبُولَ ٱلقَولِ عَظِيمَ ٱلجَاهِ

فَهٰذِهِ حَالَةُ ٱلعَظَمَةِ ٱلحَقِيقَةِ ٱلمُكتَسَبَةِ بِٱلأَموَالِ لِاَنَّ ٱلمَالَ قَدْ تَلحَقُهُ ٱلمَصَائِبُ فَاِذَا فَارَقَ صَاحِبَهُ سَقَطَتْ مَنزِلَتُهُ مِنْ نُفُوسِ ٱلنَّاسِ وَسَاوَى ٱلعَامَّةَ وَٱلسُّوقَةَ وَذٰلِكَ لِاَنَّ ٱلمُعَظِّمَ لَهُ كَانَ مَالَهُ لَا نَفسَهُ فَمَتَى زَالَ ذٰلِكَ ٱلمَالُ لَمْ يَبقَ لَهُ شَيْءٌ يُعَظَّمُ مِنْ اَجلِهِ. وَلَيسَ كَذٰلِكَ ٱلعَالِمُ ٱلنَّفِيسُ ٱلفَاضِلُ ٱلمُهَذَّبُ ٱلاَخلَاقِ لِاَنَّ عَظَمَتَهُ بِفَضَائِلِهِ وَهِيَ غَيرُ مُفَارِقَةٍ لَهُ فَهُوَ مُعتَبَرٌ دَائِمًا وَمُعَظَّمٌ مِنْ اَجلِ ذَاتِهِ لَا لِشَيْءٍ خَارِجٍ عَنْهُ



البحث الخامس

في الارتياض بمكارم الاخلاق (*)

(من كتاب تهذيب الاخلاق لزكريّاً بن عدي)

وَبِمَا اَنَّ ٱلرَّاغِبَ فِي سِيَاسَةِ نَفْسِهِ ٱلْمُؤْثِرَ تَهْذِيبِ اَخْلَاقِهِ اذا نُبِّهَ عَلَى خُلُقٍ مَذْمُومٍ وُجِدَ فِيهِ وَاحَبَّ اجْتِنَابَهُ رُبَّمَا صَعُبَ عَلَيْهِ ٱلِانْتِقَالُ عَنْهُ مِنْ اَوَّلِ وَهْلَةٍ وَرُبَّمَا لَمْ يَنَلِ ٱلتَّخَلُّصَ مِنْهُ وَلَمْ يُطَاوِعْهُ طَبْعُهُ اَوْ رُبَّمَا ٱسْتَحْسَنَ اَيْضًا خُلُقًا مَحْمُودًا لَا يَجِدُهُ لِنَفْسِهِ وَآثَرَ ٱلتَّخَلُّقَ بِهِ لَمْ تَسْمَحْ لَهُ عَادَتُهُ وَلَمْ يَصِلْ اِلَى مُرَادِهِ. لِذٰلِكَ وَجَبَ اَنْ نَرْسُمَ لِلرَّاغِبِينَ فِي ٱلسِّيَاسَةِ ٱلْمَحْمُودَةِ طُرُقًا يَتَدَبَّرُونَ بِهَا وَيَتَدَرَّجُونَ فِيهَا حَتَّى يَنْتَهُوا اِلَى مُرَادِهِمْ مِنِ ٱعْتِيَادِ ٱلْاَخْلَاقِ ٱلْجَمِيلَةِ وَٱلِانْطِبَاعِ عَلَيْهَا وَتَجَنُّبِ ٱلْاَخْلَاقِ ٱلْقَبِيحَةِ وَٱلتَّفَرُّغِ مِنْهَا وَلِهٰذَا نَذْكُرُ طَرِيقَ ٱلِارْتِيَاضِ بِٱلْاَخْلَاقِ ٱلْمَحْمُودَةِ وَٱلتَّعَمُّلَ لِٱعْتِيَادِهَا لِكَيْ يُمْكِنَ لِلرَّاغِبِ اَنْ يَتَخَلَّقَ بِهَا فَنَقُولُ:

اِنَّهُ لَاَمْرٌ مُقَرَّرٌ اَنَّ سَبَبَ ٱخْتِلَافِ ٱلْاَخْلَاقِ فِي ٱلنَّاسِ هُوَ ٱخْتِلَافُ قُوَى ٱلنَّفْسِ ٱلثَّلَاثِ فِيهِمْ وَهِيَ ٱلشَّهْوَانِيَّةُ وَٱلْغَضَبِيَّةُ وَٱلنَّاطِقَةُ وَاَنَّ اِصْلَاحَ ٱلْاَخْلَاقِ هُوَ تَذْلِيلُ ٱلشَّهْوَانِيَّةِ مِنْهَا وَٱلْغَضَبِيَّةِ وَتَمْيِيزُ

(*) اعلم ان ما يقولهُ هنا لزكريّاً بن عدي في سياسة الانسان نفسهُ يصلح للخطيب لسياسة غيرهِ. لانهُ موكول بتحسين طباع الجمهور منوّض اليهِ حملهم على الخير وصرفهم عن مضارّ الاهواء المنحرفة

عَادَاتِ ٱلنَّفسِ ٱلنَّاطِقَةِ وَٱستِعمَالُ ٱلمَحمُودِ مِنْ افعَالِهَا. فَطَرِيقُ ٱلتَّدرُّجِ لِٱستِعمَالِ ٱلعَادَاتِ ٱلجَمِيلَةِ وَٱلعُدُولُ عَنِ ٱلعَادَاتِ ٱلقَبِيحَةِ هُوَ ٱلتَّدرُّجُ فِي تَذلِيلِ هَاتَينِ ٱلقُوَّتَينِ

امَّا ٱلنَّفسُ ٱلشَّهوَانِيَّةُ فَٱلطَّرِيقُ اِلَى قَمعِهَا انْ يَتَذَكَّرَ ٱلإِنسَانُ فِي اوقَاتِ شَهَوَاتِهِ وَعِندَ شِدَّةِ ٱلعَزمِ اِلَى لَذَّاتِهِ انَّهُ يُرِيدُ تَذلِيلَ نَفسِهِ ٱلشَّهوَانِيَّةِ فَيَعدِلُ عَمَّا تَاقَتْ نَفسُهُ اِلَيهِ مِنَ ٱلشَّهوَةِ ٱلرَّدِيئَةِ اِلَى مَا هُوَ مُستَحسَنٌ مِنْ جِنسِ تِلكَ ٱلشَّهوَةِ وَمُتَّفِقٌ عَلَى ارتِضَائِهِ وَيَقتَصِرُ عَلَيهِ. فَاِنْ لَمْ تَنكَسِرْ شَهوَاتُهُ بِعِلَلِهَا وَبَعدَهَا فَاِنْ سَكَنَتِ انتَصَرَ وَاِلَّا عَاوَدَ الفِعلَ مِنَ ٱلوَجهِ ٱلمُستَحسَنِ. بِانَّهُ اذَا فَعَلَ ذٰلِكَ وَكَرَّرَهُ كَفَّتِ ٱلنَّفسُ وَاِذَا ٱستَمَرَّ عَلَى هٰذَا ٱلحَالِ الِفَتْ هٰذِهِ ٱلعَادَةِ وَتَانَستْ بِهَا وَٱستَوحَشَتْ مِمَّا سِوَاهَا. وَيَنبَغِي لِمَنْ ارَادَ قَمعَ نَفسِهِ ٱلشَّهوَانِيَّةِ انْ يُكثِرَ مِنْ مُجَالَسَةِ ٱلزُّهَّادِ وَٱلرُّهبَانِ وَٱلنُّسَّاكِ وَاهلِ ٱلوَرَعِ وَٱلوَاعِظِينَ وَيُلَازِمَ مَجَالِسَ ٱلرُّؤَسَاءِ وَاهلِ ٱلعِلمِ. فَاِنَّ هٰؤُلَاءِ وَخَاصَّةً رُؤَسَاءَ ٱلدِّينِ يُعَظِّمُونَ مَنْ كَانَ مَعرُوفًا بِٱلعِفَّةِ وَيَستَرذِلُونَ مَنْ كَانَ فَاجِرًا مُنهَمِكًا. فَمُجَالَسَتُهُ وَمُلَازَمَتُهُ لِهٰذِهِ ٱلمَجَالِسِ تَضطَرُّهُ اِلَى ٱلتَّصَوُّنِ وَٱلتَّعَفُّفِ وَٱلتَّجَمُّلِ لِذَوِقِهِمْ لِئَلَّا يَستَرذِلُوهُ وَيَغضَبُوا مِنهُ وَيَلحَقَ بِرُتبَةِ مَنْ يُعَظَّمُ فِي ٱلمَحَافِلِ وَٱلمَجَالِسِ. وَيَنبَغِي لَهُ ايضًا انْ يُدِيمَ ٱلنَّظَرَ فِي كُتُبِ ٱلأَخلَاقِ وَٱلسِّيَاسَةِ وَاخبَارِ ٱلزُّهَّادِ وَٱلرُّهبَانِ وَٱلنُّسَّاكِ وَاهلِ ٱلوَرَعِ. وَيَتَجَنَّبَ مَجَالِسَ ٱلخُلَعَاءِ وَٱلسُّفَهَاءِ وَٱلمُنهَمِكِينَ وَمَنْ يُكثِرُ ٱلهَزلَ وَٱللَّعِبَ وَحِينَئِذٍ يَلحَقُ بِرُتبَةِ وَيُعَظَّمُ فِي ٱلمَحَافِلِ. وَاكثَرُ مَا

يَجِبُ لَهُ اَنْ يَتَجَنَّبَ اَلسُّكْرَ فَإِنَّهُ مِمَّا يُثِيرُ نَفْسَهُ اَلشَّهْوَانِيَّةَ وَيُقَوِّيهَا وَيَحْمِلُهَا عَلَى اَلتَّهَتُّكِ وَارْتِكَابِ اَلْفَوَاحِشِ وَالْمُجَاهَرَةِ بِهَا . . وَيَنْبَغِي لِمَنْ اَرَادَ قَمْعَ نَفْسِهِ اَلشَّهْوَانِيَّةِ اَنْ يُقِلَّ مِنِ اَسْتِمَاعِ اَلْغِنَاءِ وَخَاصَّةً مِنَ اَلنِّسَاءِ اَلْمُتَصَنِّعَاتِ وَاَلشُّبَّانِ اَلظُّرَفَاءِ فَإِنَّ لِلسَّمَاعِ قُوَّةً عَظِيمَةً فِي اِثَارَةِ اَلشَّهْوَةِ . . . اَمَّا اَلطَّعَامُ فَيَنْبَغِي اَنْ تَعْلَمَ اَنَّ غَايَتَهُ هُوَ اَلشِّبَعُ لِدَفْعِ اَلَمِ اَلْجُوعِ . وَفَاخِرُ اَلطَّعَامِ وَدَنِيئُهُ جَمِيعُهُمَا مُشْبِعَانِ فَلَيْسَ لِلْمُبَالَغَةِ فِي تَجْوِيدِ اَلطَّعَامِ اَلْكَثِيرِ حَظٌّ وَلَا فَائِدَةٌ . وَاَلْاَوْلَى هُوَ اَلتَّوَسُّطُ فِي اَنْوَاعِ اَلْمَآكِلِ وَاَنْ يَكُونَ مِنَ اَلْجِنْسِ اَلَّذِي نَشَأَ عَلَيْهِ اَلْاِنْسَانُ وَاَعْتَادَهُ وَاَلِفَهُ . . . وَطَرِيقُ اَلتَّدَرُّجِ اِلَى اَلْاِقْتِصَارِ فِي اَلطَّعَامِ هُوَ اَنْ يُبَادِرَ ذُو اَلشَّهْوَةِ اِلَى اَيِّ شَيْءٍ وَجَدَهُ مِنَ اَلْمَآكِلِ فَاِنْ كَانَ اَلْمُشْتَهَى اَلَّذِي تَاقَتْ نَفْسُهُ اِلَيْهِ حُلْوًا فَاَلَا اَيَّ حَلَاوَةٍ وَجَدَهَا وَاِنْ كَانَ غَيْرَ ذَلِكَ فَاَلَا مَا يَشْتَهِيهِ مِنَ اَلطَّعَامِ فَاِنَّهُ اِذَا تَنَاوَلَ اَلْاِنْسَانُ مِنْ ذَلِكَ تَكْرَارًا وَشَبِعَ مِنْهُ سَكَنَتْ شَهْوَتُهُ وَكَفَّتْ نَفْسُهُ بَعْدَ ذَلِكَ

وَيَنْبَغِي لِمَنْ اَحَبَّ اَلْعِفَّةَ اَنْ يَكُونَ اَبَدًا مُتَيَقِّظًا ذَاكِرًا لِمَا يَلْحَقُ اَلْفَاجِرَ وَاَلنَّهِمَ وَاَلشَّرِهَ وَاَلْمُتَهَتِّكَ مِنَ اَلْقَبَاحَةِ وَاَلْعَارِ فِي اَلدُّنْيَا جَاعِلًا ذَلِكَ دَيْدَنَهُ وَشِعَارَهُ وَمُدَاوِمًا عَلَى ذِكْرِهِ . فَاِنَّ نَفْسَهُ حِينَئِذٍ تُبْغِضُ اَلشَّهَوَاتِ اَلرَّدِيئَةَ وَتَشْتَاقُ اِلَى اَلتَّعَفُّفِ وَاَلْقَنَاعَةِ وَتَطْرَبُ عِنْدَ اَلْعُدُولِ عَنِ اَلْفَوَاحِشِ مَعَ اَلْقُدْرَةِ عَلَيْهَا وَتَرْتَاحُ لِمَا يُنْشَرُ عَنْهَا وَمَا يَبْلُغُهَا عَنِ اَلنَّاسِ مِنَ اَلثَّنَاءِ اَلْجَمِيلِ عَلَى صَاحِبِهَا . فَهَذَا هُوَ طَرِيقُ رِيَاضَةِ اَلنَّفْسِ

إلى قهر القوة الشهوانية وتذليلها وقمعها أعني طريق الارتياض بالعادات المحمودة المرضية فيما يتعلق بالشهوات واللذات الدنيئة

فأما النفس الغضبية فان طريق قمعها وتذليلها هو ان يصرف الانسان همته الى تفقد السفهاء الذين يسرع اليهم الغضب في اوقات طيشهم وحدتهم ويلاحظ تسفههم على اخصامهم وعقوبتهم لخدمهم وعبيدهم فانه يشاهد اذ ذاك منظرا شنيعا يأنف منه الخاص والعام وان يتذكر في اوقات غضبه وعند جنايات خدمه وعبيده ووثوب اخوانه واوداته في جميع محاوراته ومعاملاته ما شاهده من اولئك . فانه اذا تفكر فيما كان استخفه منهم فتنكسر بذلك سورة غضبه ويحجم عما هم بالاقدام عليه من السب والوثوب فان لم يكف بالكلية قصر ولم ينته الى غاية الفحش

وينبغي لمن اراد ان يقهر نفسه الغضبية ان يتذكر في اوقات غضبه على من يؤذيه او يتجنى عليه انه لو كان هو الجاني ما الذي كان يستحق ان يقابل به على جنايته فانه بهذا الفعل يعتقد ان درك تلك الجناية وذلك الاذى يسير جدا . فاذا اعتقد ذلك كانت مقابلته للجاني المؤذي بحسب اعتقاده خفيفة وحينئذ لا يسرف في الانتقام ولا يفحش في الغضب فمتى فعل ذلك دائما وجعله ديدنا وتفقد معايب السفها . ومن يسرع اليه الغضب لم يبعد ان تنكسر نفسه الغضبية وتنقاد اليه واذا استمر على هذا

ٱلْعَمَلِ مُدَّةً صَارَ لَهُ خُلُقًا وَعَادَةً

وَيَنْبَغِي لِمَنْ رَغِبَ فِي تَذْلِيلِ قُوَّتِهِ ٱلْغَضَبِيَّةِ أَنْ يَتَجَنَّبَ حَمْلَ ٱلسِّلَاحِ فِي مَجَالِسِ ٱلشَّرَابِ وَحُضُورَ مَوَاضِعِ ٱلْفِتَنِ وَمَقَامَاتِ ٱلْحُرُوبِ وَفِي مُجَالَسَةِ ٱلْأَشْرَارِ وَيَتَجَنَّبَ مُعَاشَرَتَهُمْ وَمُخَالَطَةَ ٱلشُّرَطِ فَإِنَّ هٰذِهِ ٱلْمَوَاضِعَ تُكْسِبُ قَسَاوَةَ ٱلْقَلْبِ وَتُغَلِّظُهُ وَتُعْدِمُهُ ٱلرَّأْفَةَ فَتَشْتَدُّ لِذٰلِكَ ٱلْقُوَّةُ ٱلْغَضَبِيَّةُ فَإِذَا أَرَادَ تَذْلِيلَهَا وَتَسْكِينَهَا يَجِبُ أَنْ يَجْعَلَ مُجَالَسَتَهُ لِأَهْلِ ٱلْوَقَارِ وَٱلشُّيُوخِ وَٱلرُّؤَسَاءِ وَٱلْأَفَاضِلِ وَمَنْ يَقِلُّ غَضَبُهُ وَيَكْثُرُ حِلْمُهُ وَوَقَارُهُ

وَيَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَتَجَنَّبَ ٱلْمُسْكِرَ مِنَ ٱلشَّرَابِ فَإِنَّهُ يُهَيِّجُ ٱلْقُوَّةَ ٱلْغَضَبِيَّةَ أَكْثَرَ مِمَّا يُهَيِّجُ ٱلْقُوَّةَ ٱلشَّهَوَانِيَّةَ . . .

وَيَنْبَغِي لِمَنْ أَرَادَ تَذْلِيلَ قُوَّتَيْهِ ٱلْغَضَبِيَّةِ وَٱلشَّهَوَانِيَّةِ مَعًا أَنْ يَسْتَعْمِلَ فِي جَمِيعِ مَا يَفْعَلُهُ ٱلْفِكْرَ وَلَا يُقْدِمُ عَلَى شَيْءٍ إِلَّا بَعْدَ أَنْ يُرَوِّيَ فِيهِ وَيَجْعَلَ ٱلْفِكْرَةَ وَٱتِّبَاعَ ٱلرَّأْيِ دَيْدَنَهُ وَعَادَتَهُ فَإِنَّ ٱلرَّأْيَ وَجَوْدَةَ ٱلْفِكْرِ يُقَبِّحَانِ لَهُ ٱلسَّفَهَ وَسُرْعَةَ ٱلْغَضَبِ وَٱلِٱنْهِمَاكَ فِي ٱلشَّهَوَاتِ وَٱتِّبَاعِ ٱللَّذَّاتِ . فَإِذَا ٱسْتَقْبَحَ ذٰلِكَ أَحْجَمَ عَنْهُ وَعَدَلَ إِلَى مَا يَقْتَضِيهِ ٱلرَّأْيُ وَٱلْفِكْرُ وَإِنْ لَمْ يَرْتَدِعْ بِٱلْكُلِّيَّةِ لَا بُدَّ أَنْ يُؤَثِّرَ فِيهِ ذٰلِكَ فَيَقْتَصِرَ عَمَّا يُرِيدُ ٱلتَّسَرُّعَ إِلَيْهِ

وَمِلَاكُ ٱلْأَمْرِ فِي تَهْذِيبِ ٱلْأَخْلَاقِ وَضَبْطِ ٱلْقُوَّةِ ٱلشَّهَوَانِيَّةِ وَٱلْقُوَّةِ ٱلْغَضَبِيَّةِ هِيَ ٱلْقُوَّةُ ٱلنَّاطِقَةُ فَإِنَّ بِهٰذِهِ ٱلْقُوَّةِ تَكُونُ جَمِيعُ ٱلسِّيَاسَاتِ فَإِذَا كَانَتْ قَوِيَّةً مُتَمَكِّنَةً مِنْ صَاحِبِهَا أَمْكَنَهُ أَنْ

يَسُوسَ بِهَا قُوَّتَيْهِ ٱلبَاقِيَتَيْنِ وَيَكُفَّ نَفْسَهُ عَنْ جَمِيعِ ٱلقَبَائِحِ وَيَتَّبِعَ أَبَدًا مَحَاسِنَ ٱلأَخْلَاقِ وَإِذَا لَمْ تَكُنْ قَوِيَّةً فِي صَاحِبِهَا كَانَتْ مَغْمُورَةً خَافِيَةً

فَأَوَّلُ مَا يَنْبَغِي أَنْ يَعْتَمِدَهُ فِي سِيَاسَةِ أَخْلَاقِهِ هُوَ أَنْ يُرَوِّضَ هٰذِهِ ٱلقُوَّةَ. وَتَرْوِيضُهَا إِنَّمَا يَكُونُ بِٱلعُلُومِ ٱلعَقْلِيَّةِ فَإِنَّهُ إِذَا نَظَرَ فِي هٰذِهِ ٱلعُلُومِ وَدَقَّقَ ٱلنَّظَرَ فِيهَا وَدَرَسَ كُتُبَ ٱلأَخْلَاقِ وَٱلسِّيَاسَةِ وَدَاوَمَ عَلَيْهَا تَيَقَّظَتْ نَفْسُهُ وَتَنَبَّهَتْ مِنْ شَهَوَاتِهَا وَٱنْتَعَشَتْ مِنْ خُمُولِهَا وَأَحَسَّتْ بِفَضَائِلِهَا وَأَنِفَتْ مِنْ رَذَائِلِهَا لِأَنَّ هٰذِهِ ٱلقُوَّةَ إِنَّمَا تَضْعُفُ وَتَنْخَفُ إِذَا عَدِمَتِ ٱلفَضَائِلَ وَٱلمَنَاقِبَ وَٱسْتَوْلَتْ عَلَيْهَا ٱلرَّذَائِلُ. أَمَّا إِذَا ٱقْتَنَتِ ٱلفَضَائِلَ وَٱكْتَسَبَتِ ٱلآدَابَ تَيَقَّظَتْ مِنْ غَشْيَتِهَا وَثَارَتْ مِنْ سُكْرِهَا وَقَوِيَتْ بَعْدَ ضَعْفِهَا. وَفَضَائِلُ هٰذِهِ ٱلقُوَّةِ هِيَ ٱلعُلُومُ ٱلعَقْلِيَّةُ وَخَاصَّةً مَا دَقَّ مِنْهَا فَإِذَا ٱرْتَاضَ ٱلإِنْسَانُ بِهَا شَرُفَتْ نَفْسُهُ وَعَظُمَتْ هِمَّتُهُ وَقَوِيَ فِكْرُهُ وَتَمَكَّنَ مِنْ نَفْسِهِ وَمَلَكَ أَخْلَاقَهُ وَقَدَرَ عَلَى إِصْلَاحِهَا وَٱنْقَادَ لَهُ طَبْعُهُ وَسَهُلَ عَلَيْهِ تَهْذِيبُهُ وَأَذْعَنَتْ لَهُ ٱلقُوَّةُ ٱلغَضَبِيَّةُ وَٱلشَّهْوَانِيَّةُ وَهَانَ عَلَيْهِ قَمْعُهُمَا وَتَهْذِيبُهُمَا

وَأَوَّلُ مَا يَنْبَغِي أَنْ يَبْتَدِئَ بِهِ مَنْ يُحِبُّ سِيَاسَةَ أَخْلَاقِهِ هُوَ ٱلنَّظَرُ فِي كُتُبِ ٱلأَخْلَاقِ وَٱلسِّيَاسَاتِ ثُمَّ ٱلإِرْتِيَاضُ بِعُلُومِ ٱلحَقَائِقِ فَإِنَّ أَشْرَفَ مَا يَكُونُ لِلنَّفْسِ إِدْرَاكُهَا حَقَائِقَ ٱلأُمُورِ وَٱطِّلَاعُهَا عَلَى هَيْئَاتِ ٱلمَوْجُودَاتِ فَمَتَى شَرُفَتْ نَفْسُ ٱلإِنْسَانِ وَعَلَتْ هِمَّتُهُ رَقِيَ إِلَى مَرَاتِبِ ٱلفَضْلِ

وَمِمَّا يُصْلِحُ ٱلنَّفسَ ٱلنَّاطِقَةَ وَيُقَوِّيهَا ايضاً مُجَالَسَةُ اهلِ ٱلعِلمِ وَمُخَالَطَتُهُمْ وَٱلِاقتِدَاءُ بِاخلَاقِهِمْ وَعَوَائِدِهِمْ وَخَاصَّةً اصحَابُ عُلُومِ ٱلحَقَائِقِ وَٱلْمُتَيَقِّظُونَ مِنْهُم ٱلْمُسْتَعْمِلُونَ فِي جَمِيعِ أُمُورِهِمْ مَا تَقْتَضِيهِ عُلُومُهُمْ وَتُوجِبُهُ عُقُولُهُمْ

امَّا تَمْيِيزُ عَادَاتِ ٱلنَّفسِ ٱلنَّاطِقَةِ وَٱستِعمَالُ مَا حَسُنَ فِيهَا وَٱطِّرَاحُ مَا قَبُحَ فَإِنَّمَا يُمكِنُ وَيَتَسَهَّلُ إِذَا رَاضَ ٱلإِنسَانُ نَفسَهُ ٱلنَّاطِقَةَ • فَإِنَّهَا إِذَا ارتَاضَتْ بِٱلعُلُومِ ٱلحَقِيقِيَّةِ وَتَيَقَّظَتْ وَتَشَرَّفَتْ انِفَتْ مِنَ ٱلعَادَاتِ ٱلْمُسْتَقْبَحَةِ وَتَنَزَّهَتْ عَنِ ٱلتَّدْنِيسِ بِهَا فَيَهُونُ حِينَئِذٍ عَلَى ٱلانسَانِ تَجَنُّبُ مَا يُستَكرَهُ مِنَ ٱلعَادَاتِ وَيَغلِبُ عَلَيهِ ٱستِحسَانُ ٱلاَخلَاقِ ٱلحَمِيدَةِ ٱلجَمِيلَةِ وَٱلتَّخَلُّقُ بِهَا

فَقَدْ تَبَيَّنَ مِنْ جَمِيعِ مَا ذَكَرْنَاهُ انَّ طَرِيقَ ٱلِارتِيَاضِ بِٱلاَخلَاقِ ٱلمَحمُودَةِ وَٱلتَّصَنُّعَ لِاعتِيَادِهَا وَٱتِّبَاعَ ٱلمَحمُودِ ٱلمَرضِيِّ مِنهَا وَتَركَ ٱلمَذمُومِ ٱلمُستَقبَحِ وَتَذلِيلَ قُوَّةِ ٱلشَّهوَةِ ٱلغَضَبِيَّةِ وَضَبطَهَا وَقَهرَهَا هُوَ اِصلَاحُ ٱلقُوَّةِ ٱلنَّاطِقَةِ وَتَقوِيَتُهَا وَتَحلِيَتُهَا بِٱلفَضَائِلِ وَٱلآدَابِ وَٱلمَحَاسِنِ فَإِنَّ ذٰلِكَ هُوَ آلَةُ ٱلسِّيَاسَةِ وَمَركَبُ ٱلرِّيَاضَةِ

وَمَنَ يَتَمَكَّنُ مِن اكتِسَابِ ٱلعُلُومِ ٱلعَقلِيَّةِ وَٱلإِمعَانِ فِيهَا وَتَعَذَّرَ عَلَيهِ ذٰلِكَ فَليَبذُلْ جُهدَهُ فِي تَدقِيقِ ٱلفِكرَةِ وَمُجَاهَدَةِ ٱلنَّفسِ وَيُصَوِّرِ ٱلفَرقَ مَا بَينَ عَادَاتِهِ ٱلقَبِيحَةِ وَٱلجَمِيلَةِ وَيَنظُرْ ايُّهُمَا اجدَى عَلَيهِ وَانفَعُ وَايُّهُمَا اجدَرُ عَاقِبَةً وَابقَى عَلَى ٱلاَيَّامِ فَإِنَّهُ إِذَا صَدَقَ مَا تَأَكَّدَتهُ نَفسُهُ وَجَدَ انَّ شَهوَاتِهِ وَلَذَّاتِهِ إِنَّمَا هِيَ مُدَّةُ

وَقْتِ ٱسْتِعْمَالِهَا فَقَطْ امَّا بَعْدَ مُفَارَقَتِهَا فَلَيْسَتْ بِبَاقِيَةٍ عَلَيْهِ وَلَا نَافِعَةٍ لَهُ وَيَجِدُ عَارَهَا وَشَيْنَهَا بَاقِيًا الَى ٱلدَّهْرِ مُتَدَاوَلًا فِيمَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ يُعَابُ بِهِ وَيُزْرَى عَلَيْهِ. وَكَذٰلِكَ فِي شِدَّةِ ٱلْغَضَبِ وَٱلْاِسْرَاعِ الَى ٱلْاِنْتِقَامِ وَٱلسَّبِّ وَٱلْفُحْشِ فَمَتَى ٱنْحَلَّتْ غَمْرَتُهُ وَسَكَنَتْ ثَوْرَتُهُ تَأَمَّلَ امْرَهُ فَرَاى انَّ مَا فَعَلَهُ كَانَ قَبِيحًا وَلَمْ يَجِدْهُ مُجْدِيًا وَلَا مُفِيدًا وَقَدْ صَارَ مَا فَعَلَهُ وَقْتَ ٱلْغَضَبِ نَقِيصَةً يُوسَمُ بِهَا وَمَعِيرَةً يُسَبُّ عَلَيْهَا. وَرُبَّمَا ارْتَكَبَ حَالَ ٱلْغَضَبِ جِنَايَاتٍ كَثِيرَةٍ يُعَاقَبُ عَلَيْهَا وَيُؤَدَّبُ مِنْ اجْلِهَا. كَذٰلِكَ ٱلْعَادَاتُ ٱلْمَكْرُوهَةُ فِي ٱلنَّفْسِ ٱلنَّاطِقَةِ هِيَ ايْضًا غَيْرُ نَافِعَةٍ وَلَا مُجْدِيَةٍ لِلْاِنْسَانِ نَفْعًا كَٱلْحَسَدِ مَثَلًا وَٱلْحِقْدِ وَٱلْخُبْثِ وَامْثَالِ هٰذِهِ اذْ لَا يَنْتَفِعُ بِهَا صَاحِبُهَا وَانِ ٱنْتَفَعَ كَانَ شَرَّ مَنْفَعَةٍ وَمَعَ ذٰلِكَ فَهِيَ مُضِرَّةٌ لَهُ لِانَّ مَنْ تَشَرَّرَ قَصَدَهُ ٱلنَّاسُ بِٱلشَّرِّ وَٱسْتَعَدُّوا لِاذِيَّتِهِ وَتَعَمَّدُوا لِلْاِضْرَارِ بِهِ وَتَوَقَّوْهُ وَٱحْتَرَزُوا مِنْهُ وَكَرِهُوا نَفْعَهُ وَقَصَرُوا عَلَيْهِ وُجُوهَ ٱلْخَيْرِ.. فَاذَا حَاسَبَ ٱلْاِنْسَانُ نَفْسَهُ وَاجَادَ فِكْرَتَهُ وَتَمْيِيزَهُ عَلِمَ انَّ ٱلضَّرَرَ فِي مَسَاوِئِ ٱلْاَخْلَاقِ اكْثَرُ مِنَ ٱلنَّفْعِ بِهَا وَانَّ ٱلَّذِي يَعُدُّهُ فِيهَا نَفْعًا فَلَيْسَ هُوَ بِنَفْعٍ عَلَى ٱلْحَقِيقَةِ وَاذَا كَانَ نَفْعًا فَهُوَ يَسِيرٌ جِدًّا وَغَيْرُ بَاقٍ وَلَا مُسْتَمِرٍّ وَانَّ هٰذَا ٱلْيَسِيرَ ٱلَّذِي يَعُدُّهُ نَفْعًا لَا يَفِي بِٱلضَّرَرِ ٱلْكَثِيرِ وَٱلْعَارِ ٱلدَّائِمِ ٱلْمُتَّصِلِ...

وَيَنْبَغِي لِمَنْ ارَادَ سِيَاسَةَ اخْلَاقِهِ انْ يَجْعَلَ غَرَضَهُ مِنْ كُلِّ فَضِيلَةٍ غَايَتَهَا وَنِهَايَتَهَا وَلَا يَقْنَعَ مِنْهَا بِمَا دُونَ ٱلْغَايَةِ وَلَا يَرْضَى الَّا

بأعلى درجة فإنه إذا جعل ذلك غرضه كان حريًا أن يتوسط في الفضائل ويبلغ فيها رتبة مرضية إن فاتته الدرجة العليا وأما إن قنع بالتوسط يئس من أن يقصر عن بلوغه فيبقى في أدنى المراتب ويفوته المطلوب ولا يطمع أبدًا في التمام.

فهذا الذي ذكرناه هو طريق الارتياض بمكارم الأخلاق ومنهج التدرج في محمودها وكيفية تهذيبها فإذا أخذ الإنسان بتدريب نفسه به وأكثر من مراعاته وتعهده صارت له الفضائل ديدنًا والمحاسن خلقًا وطبعًا

هذا وقد بقي علينا أن نذكر أوصاف الإنسان التام الجامع لمحاسن الأخلاق... فنقول إن الإنسان التام هو الذي لم تفته فضيلة من الفضائل ولم تشنه رذيلة من الرذائل وهذا الحد قلما ينتهي إليه إنسان وإذا انتهى إليه افتراضًا كان أشبه منه بالناس. وذلك لأن الإنسان مضروب بأنواع النقص مستول على طبعه ضروب الشر وبناء على ذلك فقلما يخلص من جميعها حتى تسلم نفسه من كل عيب ومنقصة وتحيط به كل فضيلة ومنقبة حسنة فالتمام وإن كان عزيزًا بعيد التناول إلا أنه ممكن وهو غاية ما ينتهي إليه الإنسان فإذا صدقت عزيمته وأعطى الاجتهاد حقه كان ممكنًا له أن ينتهي إلى الغاية المقصودة المتهيء هو لها تلك التي تسمو نفسه إليها

أما تفصيل ذلك هو أن يكون متفقدًا لجميع أخلاقه متيقظًا

لِسَائِرِ مَعَايِبِهِ مُتَحَرِّزًا مِنْ دُخُولِ نَقْصٍ عَلَيْهِ مُسْتَعْمِلًا لِكُلِّ فَضِيلَةٍ مُجْتَهِدًا فِي بُلُوغِ ٱلْغَايَةِ عَاشِقًا لِصُورَةِ ٱلْكَمَالِ مُسْتَلِذًّا بِمَحَاسِنِ ٱلْأَخْلَاقِ مُتَيَقِّظًا لِمَذْمُومِ ٱلْعَادَاتِ مُعْتَنِيًا بِتَهْذِيبِ نَفْسِهِ غَيْرَ مُسْتَكْثِرٍ لِمَا يَقْتَنِيهِ مِنَ ٱلْفَضَائِلِ مُسْتَعْظِمًا لِلْيَسِيرِ مِنَ ٱلرَّذَائِلِ مُسْتَصْغِرًا لِلرُّتْبَةِ ٱلْعُلْيَا مُسْتَحْقِرًا لِلْغَايَةِ ٱلْقُصْوَى يَرَى ٱلتَّمَامَ دُونَ مَحَلِّهِ وَٱلْكَمَالَ أَقَلَّ أَوْصَافِهِ . .

فَمَا أَوْلَى مَنْ نَظَرَ فِي هٰذِهِ ٱلْأَقْوَالِ وَتَصَفَّحَهَا وَفَهِمَ مَضْمُونَهَا وَتَدَبَّرَهَا وَأَخَذَ نَفْسَهُ بِٱسْتِعْمَالِ مَا تَبَيَّنَ فِي فُصُولِهِ وَسَاقَ أَخْلَاقَهُ عَلَى ٱلتَّطَرُّقِ إِلَى مَا فُنِّنَ فِي أَبْوَابِهِ وَٱجْتَهَدَ كُلَّ ٱلْاِجْتِهَادِ فِي تَكْمِيلِ نَفْسِهِ وَٱسْتَفْرَغَ غَايَةَ ٱلْوُسْعِ فِي طَلَبِ ٱلتَّمَامِ . وَمَا أَقْبَحَ ٱلنَّقْصَ بِٱلْقَدْرِ عَلَى ٱلتَّمَامِ وَٱلْعَجْزَ عَنِ ٱلْمُقْتَدِرِ



الفصل السادس

في تنسيق الخطابة وبيان القضية والقياس

البحث الاول

في مبادئ الخطابة والافتتاحات

من كتاب الصناعتين لابن هلال العسكري بتصرُّف

(راجع صفحة ٧٧ من علم الخطابة)

قَالَ بَعضُ ٱلكُتَّابِ : اَمعَاشِرَ ٱلكُتَّابِ اَحسِنُوا ٱلِابتِدَاءَاتِ فَاِنَّهُنَّ دَلَائِلُ ٱلبَيَانِ . وَذٰلِكَ اَنْ يُجعَلَ ٱلخَطِيبُ فَاتِحَةَ كَلَامِهِ وَاَوَّلَهُ دَلِيلًا عَلَى ٱلمَقصُودِ ٱلَّذِي دَعَاهُ لِاِلقَائِهِ فَينظُرَ اِلَى ٱلغَرَضِ ٱلمَطلُوبِ فَيجعَلَ ٱلتَّحمِيدَ اَوِ ٱلدُّعَاءَ اَوِ ٱلتَّضمِينَ مُشعِرًا بِذٰلِكَ فَاِنَّهُ مِنْ اَعلَى مَرَاتِبِ ٱلبَلَاغَةِ وَاِنَّمَا خُصَّتِ ٱلِابتِدَاءَاتُ بِٱلِاختِيَارِ لِاَنَّهَا اَوَّلُ مَا يَطرُقُ ٱلسَّمعَ مِنَ ٱلكَلَامِ فَاِذَا كَانَ ٱلِابتِدَاءُ مُؤْنِقًا بَدِيعًا رَشِيقًا لَائِقًا بِٱلمَعنَى ٱلوَارِدِ بَعدَهُ تَوَفَّرَتِ ٱلدَّوَاعِي لِاستِمَاعِ مَا يَجِيءُ بَعدَهُ فَيَقرَعُ اَسمَاعَهُمْ شَيْءٌ بَدِيعٌ لَيسَ لَهُمْ بِمِثلِهِ عَهدٌ فَيَرغَبُونَ اَنْ يَستَمِعُوا مَا بَعدَهُ لِفَهمِهِ . وَلِذَا جَعَلَ ٱلكُتَّابُ وَٱلوَاعِظُونَ اَكثَرَ ٱلِابتِدَاءَاتِ بِٱلحَمدِ لِلّٰهِ لِاَنَّ ٱلنَّفسَ تَتَشَوَّقُ لِلثَّنَاءِ عَلَى ٱللّٰهِ فَهُوَ دَاعِيَةٌ

الَى ٱلاَسْتِمَاعِ . وَقَدْ قِيلَ : كُلُّ كَلَامٍ لَا يُبْتَدَأُ فِيهِ بِٱلْحَمْدَلَةِ فَهُوَ اَبْتَرُ . وَحَقِيقَةُ هٰذَا ٱلْبَابِ اَنْ يُجْعَلَ مَطْلَعُ ٱلْكَلَامِ مِنَ ٱلْخُطَبِ اَوِ ٱلرَّسَائِلِ اَوِ ٱلشِّعْرِ دَالًّا عَلَى ٱلْمَعْنَى ٱلْمَقْصُودِ مِنْ ذٰلِكَ ٱلْكَلَامِ . اِنْ فَتْحًا فَفَتْحًا وَاِنْ كَانَ هَنَاءً فَهَنَاءً اَوْ كَانَ عَزَاءً فَعَزَاءً وَكَذٰلِكَ يَجْرِي ٱلْحُكْمُ فِي غَيْرِ ذٰلِكَ مِنَ ٱلْمَعَانِي . وَفَائِدَتُهُ اَنْ يُعْرَفَ مِنَ ٱلْكَلَامِ مَا ٱلْمُرَادُ بِهِ وَيَسْتَفْتِحَ ٱلْمُتَكَلِّمُ اَبْوَابَ ٱلْاَسْمَاعِ وَيَسْتَحْضِرَ ٱلْاَذْهَانَ لِلْاَسْتِمَاعِ . وَهٰذَا ٱلشُّعَبُ عَظِيمُ ٱلنَّفْعِ لِمَنْ حَقَّقَهُ وَلَا يُفْتَحُ بَابُهُ اِلَّا لِمَنْ طَرَقَهُ وَقَدْ يُسَمَّى اَيْضًا هٰذَا ٱلنَّوْعُ بِبَرَاعَةِ ٱلْاِسْتِهْلَالِ وَسَيَأْتِي عَنْهُ ٱلْكَلَامُ فِي ٱلْقِسْمِ ٱلثَّانِي مِنْ هٰذَا ٱلْمَجْمُوعِ عِنْدَ ٱلْكَلَامِ عَنِ ٱلشِّعْرِ

البحث الثاني

في القضية والقياس

(من كتاب شرح مطالع السعود وكليات ابي البقاء والشفاء لابن سينا باختصار)

(راجع صفحة ٩٧ من الجزء الثاني من علم الادب)

اَلْقَضِيَّةُ قَوْلٌ يَصِحُّ اَنْ يُقَالَ لِقَائِلِهِ اِنَّهُ صَادِقٌ فِيهِ اَوْ كَاذِبٌ وَهِيَ مَجْمُوعُ ٱلْمَعْلُومَاتِ ٱلْاَرْبَعَةِ وَهِيَ ٱلْمَحْكُومُ عَلَيْهِ وَٱلْمَحْكُومُ بِهِ وَٱلنِّسْبَةُ ٱلْحُكْمِيَّةُ وَٱلْحُكْمُ وَاِدْرَاكُ هٰذِهِ ٱلْاَرْبَعَةِ تَصْدِيقٌ . وَٱلْقَضِيَّةُ اِمَّا حَمْلِيَّةٌ وَاِمَّا شَرْطِيَّةٌ . قَالُوا : اِنْ كَانَ ٱلْمَحْكُومُ عَلَيْهِ وَٱلْمَحْكُومُ بِهِ قَضِيَّتَيْنِ عِنْدَ ٱلتَّحْلِيلِ اَيْ عِنْدَ حَذْفِ مَا يَدُلُّ عَلَى ٱلْعَلَاقَةِ بَيْنَهُمَا مِنَ ٱلنِّسْبَةِ

اَلْحِكْمِيَّةِ سُمِّيَتْ شَرْطِيَّةً وَإِلَّا سُمِّيَتْ حَمْلِيَّةً. فَإِنَّ قَوْلَنَا مَثَلًا: (زَيْدٌ نَائِمٌ). قَضِيَّةٌ حَمْلِيَّةٌ. لِأَنَّ طَرَفَيْهَا مُفْرَدَانِ عِنْدَ ٱلتَّحْلِيلِ وَيُسَمَّى ٱلطَّرَفُ ٱلْأَوَّلُ مِنَ ٱلْقَضِيَّةِ ٱلْحَمْلِيَّةِ وَهُوَ ٱلْمُخْبَرُ عَنْهُ مَوْضُوعًا وَٱلثَّانِي مَحْمُولًا. وَقَوْلُنَا: (إِنْ كَانَتِ ٱلشَّمْسُ طَالِعَةً فَٱلنَّهَارُ مَوْجُودٌ) قَضِيَّةٌ شَرْطِيَّةٌ. لِأَنَّهُ إِذَا حَذَفْنَا (إِنْ وَٱلْفَاءَ) ٱلْمُوجِبَتَيْنِ لِلرَّبْطِ بَقِيَ: (ٱلشَّمْسُ طَالِعَةٌ) (وَٱلنَّهَارُ مَوْجُودٌ) وَهُمَا قَضِيَّتَانِ. وَٱلْقَضِيَّةُ ٱلْحَمْلِيَّةُ إِمَّا شَخْصِيَّةٌ وَهِيَ ٱلَّتِي يَكُونُ ٱلْمَحْكُومُ عَلَيْهِ فِيهَا جُزْئِيًّا مُعَيَّنًا كَقَوْلِكَ: زَيْدٌ كَاتِبٌ. وَإِمَّا كُلِّيَّةٌ وَهِيَ ٱلَّتِي يَكُونُ ٱلْمَحْكُومُ عَلَيْهِ فِيهَا كُلِّيًّا يَشْمَلُ جَمِيعَ أَفْرَادِ ٱلْمَوْضُوعِ. وَتَكُونُ كِلَاهُمَا إِمَّا مُوجِبَةً وَإِمَّا سَالِبَةً. وَإِنَّمَا يُحْكَمُ فِي ٱلْقَضِيَّةِ ٱلشَّرْطِيَّةِ عَلَى ٱلتَّعْلِيقِ وَهُوَ وُجُودُ إِحْدَى قَضِيَّتَيْهَا مُعَلَّقٌ عَلَى وُجُودِ ٱلْأُخْرَى أَوْ عَلَى نَفْيِهَا وَهِيَ قِسْمَانِ مُتَّصِلَةٌ وَهِيَ ٱلَّتِي يُحْكَمُ فِيهَا بِلُزُومِ قَضِيَّةٍ أُخْرَى أَوْ لَا لُزُومِهَا وَهِيَ ٱلَّتِي تُوجِبُ ٱلتَّلَازُمَ بَيْنَ جُزْئَيْهَا نَحْوُ. لَوْ كَانَ فِي ٱلسَّمَاءِ وَٱلْأَرْضِ آلِهَةٌ إِلَّا ٱللهُ لَفَسَدَتَا. وَمُنْفَصِلَةٌ وَهِيَ ٱلَّتِي يُحْكَمُ فِيهَا بِٱمْتِنَاعِ ٱجْتِمَاعِ قَضِيَّتَيْنِ فَأَكْثَرَ فِي ٱلصِّدْقِ وَهِيَ ٱلَّتِي جُزْءَاهَا مُتَعَانِدَانِ نَحْوُ: ٱلْعَالَمُ إِمَّا قَدِيمٌ أَوْ حَادِثٌ. وَيُسَمَّى ٱلطَّرَفُ ٱلْأَوَّلُ مِنَ ٱلْقَضِيَّةِ ٱلشَّرْطِيَّةِ مُقَدَّمًا وَٱلثَّانِي تَالِيًا. وَلَا بُدَّ مِنْ رَابِطٍ بَيْنَ ٱلْمَوْضُوعِ وَٱلْمَحْمُولِ

وَلِلْقَضِيَّةِ أَقْسَامٌ غَيْرُ هٰذِهِ مِنْهَا (ٱلْقَضِيَّةُ ٱلْبَسِيطَةُ) وَهِيَ ٱلَّتِي حَقِيقَتُهَا أَوْ مَعْنَاهَا إِمَّا إِيجَابٌ فَقَطْ نَحْوُ: كُلُّ إِنْسَانٍ حَيَوَانٌ بِٱلضَّرُورَةِ.

وَإِمَّا سَلْبٌ فقط نحو: لا شَيْء مِنَ الإنسانِ بحَجَرٍ بالضَّرُورَةِ. وَمِنْهَا (القضيَّةُ المُرَكَّبَةُ) وهِيَ الَّتِي حَقِيقَتُهَا مُلتَئِمَةٌ مِنْ إيجابٍ وَسَلبٍ مَعاً نحو: كُلُّ إنسانٍ ضَاحِكٌ لا دائِماً. وَمِنْهَا (القَضِيَّةُ النَّظَرِيَّةُ) وَهِيَ الَّتِي يُسْأَلُ عَنْهَا وَيُطْلَبُ بِالدَّليلِ إِثْبَاتُهَا فِي العِلْمِ. فَهِيَ مِنْ حَيْثُ أَنَّهَا يُسْأَلُ عَنْهَا تُسَمَّى مَسْأَلَةً. وَمِنْ حَيْثُ يُطْلَبُ حُصُولُهَا مَطْلَباً. وَمِنْ حَيْثُ تُسْتَخْرَجُ مِنَ البَرَاهِينِ نَتِيجَةً. وَمِنْ حَيْثُ يُبْتَنَى عَلَيْهَا الشَّيْءُ أُصُولاً. وَمِنْ حَيْثُ أَنَّهَا مُنْطَبِقَةٌ عَلَى جُزْئِيَّاتٍ مَوْضُوعَةٍ تَتَعَرَّفُ أَحْكَامُهَا مِنْهَا قَاعِدَةً. وَمِنْ حَيْثُ يَتَأَلَّفُ مِنْهَا الحُجَّةُ مُقَدِّمَةً وَقَضِيَّةً. وَمِنْ حَيْثُ تَحْتَمِلُ الصِّدْقَ وَالكَذِبَ خَبَراً

البحث الثالث

في القياس واقسامه وانواعه

(من كتاب النجاة لابن سينا والكليَّات لابي البقا)

(راجع صفحة ٩٧ من علم الخطابة)

وَأَمَّا القِيَاسُ فَهُوَ قَوْلٌ مُؤَلَّفٌ مِنْ قَضَايَا إِذَا وُضِعَتْ لَزِمَ عَنْهَا بِذَاتِهَا لا بِالعَرَضِ قَوْلٌ آخَرُ اضْطِرَاراً كَقَوْلِنَا: العَالَمُ مُتَغَيِّرٌ وَكُلُّ مُتَغَيِّرٍ حَادِثٌ فَإِنَّهُ مُؤَلَّفٌ مِنْ قَضِيَّتَيْنِ وَلَزِمَ عَنْهُمَا أَنَّ العَالَمَ حَادِثٌ وَهُوَ القِيَاسُ العَقْلِيُّ وَالمَنْطِقِيُّ. وَالقَوْلُ الآخِرُ يُسَمَّى مَطْلُوباً قَبْلَ إِقَامَةِ الدَّلِيلِ عَلَيْهِ. وَنَتِيجَةً بَعْدَ تَرْكِيبِ القِيَاسِ لَهُ وَإِقَامَةِ الدَّلِيلِ

عَلَيهِ وَيُسَمَّى بِٱلرِّدفِ ايضًا. وَمَوضُوعُ ٱلنَّتِيجَةِ هُوَ ٱلحَدُّ ٱلأَصغَرُ وَٱلمَحكُومُ فِيهَا هُوَ ٱلحَدُّ ٱلأَكبَرُ. وَمَا كُرِّرَ فِي ٱلقَضِيَّتَينِ ٱلأُولَيَينِ يُسَمَّى حَدًّا اوسَطَ. وَيَدعُونَ ٱلقَضِيَّةَ ٱلمُشتَمِلَةَ عَلَى ٱلحَدِّ ٱلأَكبَرِ مُقَدَّمَةً كُبرَى وَٱلمُشتَمِلَةَ عَلَى ٱلحَدِّ ٱلأَصغَرِ مُقَدَّمَةً صُغرَى. وَمَجمُوعُ ٱلمُقَدَّمَةِ ٱلصُّغرَى بِٱلكُبرَى فِي ٱلقِيَاسِ يُعرَفُ بِٱلضَّربِ. وَنِسبَةُ ٱلحَدِّ ٱلأَوسَطِ إِلَى ٱلأَصغَرِ وَٱلأَكبَرِ هُوَ ٱلشَّكلُ. وَاشكَالُ ٱلقِيَاسِ ارْبَعَةٌ لِأَنَّ ٱلأَوسَطَ إِن كَانَ مَحمُولًا فِي ٱلصُّغرَى مَوضُوعًا فِي ٱلكُبرَى فَهُوَ (ٱلشَّكلُ ٱلأَوَّلُ) كَقَولِكَ: كُلُّ بِدعَةٍ ضَلَالَةٌ وَكُلُّ ضَلَالَةٍ فِي ٱلنَّارِ. وَشَرطُ إِنتَاجِ هٰذَا ٱلشَّكلِ إِيجَابُ ٱلصُّغرَى وَكُلِّيَّةُ ٱلكُبرَى وَهُوَ يَختَصُّ بِأَنَّهُ يُنتِجُ ٱلمُوجَبَةَ ٱلكُلِّيَّةَ. وَبَاقِي ٱلأَشكَالِ لَا يُنتِجُ ٱلمُوجَبَةَ ٱلكُلِّيَّةَ بَل إِمَّا مُوجَبَةً جُزئِيَّةً او سَالِبَةً. وَإِن كَانَ ٱلحَدُّ ٱلأَوسَطُ مَحمُولًا فِي ٱلصُّغرَى وَٱلكُبرَى فَهُوَ (ٱلشَّكلُ ٱلثَّانِي) كَقَولِكَ: كُلُّ إِنسَانٍ حَيَوَانٌ وَلَا شَيْءَ مِنَ ٱلجَمَادِ بِحَيَوَانٍ فَلَا شَيْءَ مِنَ ٱلجَمَادِ بِإِنسَانٍ. وَكَقَولِ ٱلبَعضِ: كُلُّ غَائِبٍ مَجهُولُ ٱلصِّفَةِ وَكُلُّ مَا يَصِحُّ بَيعُهُ لَيسَ بِمَجهُولِ ٱلصِّفَةِ فَٱلنَّتِيجَةُ كُلُّ غَائِبٍ لَا يَصِحُّ بَيعُهُ. وَشَرطُ إِنتَاجِهِ ٱختِلَافُ مُقَدَّمَتَيهِ فِي ٱلإِيجَابِ وَٱلسَّلبِ وَكُلِّيَّةُ كُبرَاهُ وَمِن خَوَاصِّهِ انَّهُ لَا يُنتِجُ إِلَّا سَالِبَةً. وَإِن كَانَ ٱلأَوسَطُ مَوضُوعًا فِي ٱلصُّغرَى وَٱلكُبرَى فَهُوَ (ٱلشَّكلُ ٱلثَّالِثُ) نَحوَ كُلُّ إِنسَانٍ حَيَوَانٌ وَكُلُّ إِنسَانٍ نَاطِقٌ فَبَعضُ ٱلحَيَوَانِ نَاطِقٌ. وَشَرطُ إِنتَاجِهِ ان تَكُونَ صُغرَاهُ مُوجَبَةً

وَأَنْ تَكُونَ إِحْدَى مُقَدَّمَتَيْهِ كُلِّيَّةً وَمِنْ خَوَاصِهِ أَنَّ نَتِيجَتَهُ لَا تَكُونُ إِلَّا جُزْئِيَّةً. وَإِنْ كَانَ ٱلْحَدُّ ٱلْأَوْسَطُ عَكْسَ ٱلْأَوَّلِ بِأَنْ يَكُونَ مَوْضُوعًا فِي ٱلصُّغْرَى مَحْمُولًا فِي ٱلْكُبْرَى فَهُوَ (ٱلشَّكْلُ ٱلرَّابِعُ) كَقَوْلِكَ: كُلُّ إِنْسَانٍ حَيَوَانٌ وَكُلُّ نَاطِقٍ إِنْسَانٌ فَبَعْضُ ٱلْحَيَوَانِ نَاطِقٌ

وَٱلْقِيَاسُ يَنْقَسِمُ إِلَى كَامِلٍ وَغَيْرِ كَامِلٍ فَٱلْقِيَاسُ ٱلْكَامِلُ هُوَ ٱلْقِيَاسُ ٱلَّذِي يَكُونُ لُزُومُ مَا يَلْزَمُ عَنْهُ بَيِّنًا عِنْدَ وَضْعِهِ فَلَا يَحْتَاجُ أَنْ نُبَيِّنَ أَنَّ ذٰلِكَ لَازِمٌ عَنْهُ. وَٱلْغَيْرُ ٱلْكَامِلِ هُوَ ٱلَّذِي يَلْزَمُ عَنْهُ شَيْءٌ وَلٰكِنْ لَا يَكُونُ بَيِّنًا فِي أَوَّلِ ٱلْأَمْرِ أَنَّ ذٰلِكَ يَلْزَمُ عَنْهُ. بَلْ إِذَا أُرِيدَ أَنْ نُبَيِّنَ ذٰلِكَ بُيِّنَ بِشَيْءٍ آخَرَ لٰكِنَّهُ غَيْرُ خَارِجٍ مِنْ جُمْلَةِ مَا قِيلَ بَلْ إِمَّا نَقِيضُ مَا قِيلَ أَوْ عَكْسُهُ تَغْيِيرُ شَيْءٍ مِنْهُ وَٱفْتِرَاضُهُ. وَٱلْقِيَاسُ إِمَّا أَنْ يَكُونَ مَا يَلْزَمُهُ لَيْسَ هُوَ وَلَا نَقِيضُهُ مَقُولًا فِيهِ بِٱلْفِعْلِ بِوَجْهٍ بَلْ بِٱلْقُوَّةِ وَيُسَمَّى قِيَاسًا ٱقْتِرَانِيًّا كَقَوْلِكَ: كُلُّ جِسْمٍ مُؤَلَّفٌ وَكُلُّ مُؤَلَّفٍ مُحْدَثٌ سُمِّيَ بِهِ لِٱقْتِرَانِ ٱلْحُدُودِ فِيهِ. وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ مَا يَلْزَمُهُ هُوَ أَوْ نَقِيضُهُ مَقُولًا فِيهِ بِٱلْفِعْلِ وَيُسَمَّى قِيَاسًا ٱسْتِثْنَائِيًّا كَقَوْلِكَ: إِنْ كَانَتِ ٱلنَّفْسُ لَهَا فِعْلٌ بِذَاتِهَا فَهِيَ قَائِمَةٌ بِذَاتِهَا لٰكِنْ لَهَا فِعْلٌ بِذَاتِهَا فَهِيَ قَائِمَةٌ بِذَاتِهَا

البحث الثالث

في ملحقات القياس

(من كتاب شرح المطالع وشرح الشمسيَّة والكليات لابي البقا)

(راجع صفحة ١١١ من علم الخطابة)

وَلِاَقْسَامِ ٱلْقِيَاسِ مُلْحَقَاتٌ اُخَرُ يُقْسَمُ اِلَيْهَا. (اَوَّلُهَا) ٱلْقِيَاسُ ٱلْمُرَكَّبُ وَهُوَ قِيَاسٌ رُكِّبَ مِنْ مُقَدَّمَاتٍ يُنْتِجُ مُقَدَّمَتَانِ مِنْهَا نَتِيجَةً وَهِيَ مَعَ ٱلْمُقَدَّمَةِ ٱلْاُخْرَى نَتِيجَةٌ اُخْرَى وَلَا تَزَالُ تَتَانِجُ بَعْضُهَا مُقَدَّمَاتٍ لِبَعْضٍ اِلَى اَنْ يَحْصَلَ ٱلْمَطْلُوبُ • فَاِنْ صُرِّحَ بِنَتَائِجِ تِلْكَ ٱلْاَقْيِسَةِ سُمِّيَ مَوْصُولَ ٱلنَّتَائِجِ لِوَصْلِ تِلْكَ ٱلنَّتَائِجِ بِٱلْمُقَدَّمَاتِ كَقَوْلِكَ: كُلُّ كَاتِبٍ اِنْسَانٌ وَكُلُّ اِنْسَانٍ حَيَوَانٌ فَكُلُّ كَاتِبٍ حَيَوَانٌ . وَكُلُّ حَيَوَانٍ ذُو حِسٍّ فَكُلُّ كَاتِبٍ ذُو حِسٍّ . وَكُلُّ ذُو حِسٍّ جِسْمٌ فَكُلُّ كَاتِبٍ جِسْمٌ • وَاِنْ لَمْ يُصَرَّحْ بِنَتَائِجِ تِلْكَ ٱلْاَقْيِسَةِ سُمِّيَ مَفْصُولَ ٱلنَّتَائِجِ وَمَطْوِيَّهَا كَقَوْلِكَ: كُلُّ كَاتِبٍ اِنْسَانٌ. وَكُلُّ اِنْسَانٍ حَيَوَانٌ • وَكُلُّ حَيَوَانٍ ذُو حِسٍّ • وَكُلُّ ذِي حِسٍّ نَامٍ. وَكُلُّ نَامٍ جِسْمٌ فَكُلُّ كَاتِبٍ جِسْمٌ . (وَٱلثَّانِي) قِيَاسُ ٱلْخَلْفِ. وَهُوَ قِيَاسٌ ٱسْتِثْنَائِيٌّ يُقْصَدُ فِيهِ اِثْبَاتُ ٱلْمَطْلُوبِ بِاِبْطَالِ نَقِيضِهِ كَمَا اِذَا قِيلَ كُلُّ نَبَاتٍ نَامٍ وَلَا شَيْءَ مِنَ ٱلْجَمَادِ بِنَامٍ فَلَا شَيْءَ مِنَ ٱلنَّبَاتِ بِجَمَادٍ • فَيُقَالُ لَوْ لَمْ يَكُنِ ٱلْمَطْلُوبُ حَقًّا اَيْ لَا شَيْءَ مِنَ ٱلنَّبَاتِ بِجَمَادٍ لَصَدَقَ نَقِيضُهُ اَيْ بَعْضُ ٱلنَّبَاتِ جَمَادٌ . لٰكِنْ لَوْ كَانَ هٰذَا

اَلنَّقِيضُ حقًّا لَمَا صَدَقَ كَوْنُ كُلِّ نَبَاتٍ نَامِيًا. وَقَدْ سُمِّيَ هٰذَا اَلْقِيَاسُ خَلْفًا لِأَنَّ اَلْمُتَمَسِّكَ بِهِ يُثْبِتُ مَطْلُوبَهُ مِنْ خَلْفِهِ اَيْ مِنْ وَرَائِهِ. (وَاَلثَّالِثُ) قِيَاسُ اَلِاسْتِقْرَاءِ وَهُوَ قَوْلٌ مُؤَلَّفٌ مِنْ قَضَايَا تَشْتَمِلُ عَلَى اَلْحُكْمِ عَلَى اَلْجُزْئِيَّاتِ لِإِثْبَاتِ اَلْحُكْمِ اَلْكُلِّيِّ. وَيُحَدُّ اَيْضًا اَلْحُكْمُ عَلَى كُلِّيٍّ لِوُجُودِهِ فِي اَكْثَرِ جُزْئِيَّاتِهِ وَقِيلَ اَيْضًا: هُوَ تَصَفُّحُ اَلْجُزْئِيَّاتِ لِإِثْبَاتِ حُكْمٍ كُلِّيٍّ ثُمَّ اَلِاسْتِقْرَاءُ قِسْمَانِ (تَامٌّ) وَيُسَمَّى قِيَاسًا مُقَسِّمًا وَهُوَ اَنْ يُسْتَدَلَّ بِجَمِيعِ اَلْجُزْئِيَّاتِ وَيُحْكَمَ عَلَى اَلْكُلِّ وَهُوَ قَلِيلُ اَلِاسْتِعْمَالِ كَمَا يُقَالُ: كُلُّ جِسْمٍ اِمَّا حَيَوَانٌ اَوْ نَبَاتٌ اَوْ جَمَادٌ وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْهَا مُتَحَيِّزٌ فَيُنْتِجُ اَنَّ كُلَّ جِسْمٍ مُتَحَيِّزٌ وَهُوَ يُفِيدُ اَلْيَقِينَ. (وَنَاقِصٌ) وَهُوَ اَنْ يُسْتَدَلَّ بِاَكْثَرِ اَلْجُزْئِيَّاتِ فَقَطْ وَيُحْكَمَ عَلَى اَلْكُلِّ وَهُوَ قَسِيمُ اَلْقِيَاسِ وَلِذَا عَدُّوهُ مِنْ لَوَاحِقِ اَلْقِيَاسِ وَتَوَابِعِهِ وَهُوَ يُفِيدُ اَلظَّنَّ كَقَوْلِنَا: كُلُّ حَيَوَانٍ يَتَحَرَّكُ فَكُّهُ اَلْاَسْفَلُ عِنْدَ اَلْمَضْغِ لِاَنَّ اَلْاِنْسَانَ وَاَلْفَرَسَ وَاَلْحِمَارَ وَاَلْبَقَرَ وَغَيْرَ ذٰلِكَ مِمَّا تَتَبَّعْنَاهُ كَذٰلِكَ. فَاِنَّهُ يُفِيدُ اَلظَّنَّ بِجَوَازِ اَلتَّخَلُّفِ كَمَا فِي اَلتِّمْسَاحِ. (وَاَلرَّابِعُ) قِيَاسُ اَلتَّمْثِيلِ وَهُوَ اِثْبَاتُ حُكْمٍ فِي جُزْئِيٍّ لِثُبُوتِهِ فِي جُزْئِيٍّ آخَرَ لِمَعْنًى مُشْتَرَكٍ بَيْنَهُمَا مُؤَثِّرٍ فِي ذٰلِكَ اَلْحُكْمِ كَقَوْلِكَ: اَلْعَالَمُ مُؤَلَّفٌ فَهُوَ مُحْدَثٌ كَاَلْمَدِينَةِ لِاَنَّ كِلَيْهِمَا مُرَكَّبٌ مِنْ اَجْزَاءٍ وَهُوَ يُقْسَمُ اِلَى تَمْثِيلٍ قَطْعِيٍّ يُفِيدُ اَلْيَقِينَ وَاِلَى غَيْرِ قَطْعِيٍّ يُفِيدُ اَلظَّنَّ

اَمَّا اَنْوَاعُ اَلْقِيَاسِ فَخَمْسَةٌ. (اَحَدُهَا) اَلْقِيَاسُ اَلْبُرْهَانِيُّ وَهُوَ

مَا رُكِّبَ مِنْ مُقَدَّمَات يَقِينِيَّةٍ كَقَوْلِكَ: زَيْدٌ إِنْسَانٌ فَهُوَ قَابِلُ ٱلْعِلْمِ. (وَٱلثَّانِي) ٱلْجَدَلِيُّ وَهُوَ مَا رُكِّبَ مِنْ مُقَدَّمَاتٍ مَشْهُورَةٍ يُسَلِّمُ بِهَا ٱلْخَصْمُ وَلَا يَقْوَى عَلَى إِنْكَارِهَا لِشُهْرَتِهَا بَيْنَ ٱلْجُمْهُورِ نَحْوُ: ٱلْعَالَمُ مُتَغَيِّرٌ فَهُوَ مُحْدَثٌ. (وَٱلثَّالِثُ) ٱلْخَطَابِيُّ وَهُوَ مَا رُكِّبَ مِنْ مُقَدَّمَاتٍ مَقْبُولَةٍ يُرَادُ بِهَا تَرْغِيبُ ٱلسَّامِعِ أَوْ تَرْهِيبُهُ نَحْوُ: ٱلصَّلَاةُ بِرٌّ فَهِيَ مَنْجَاةٌ لِلْإِنْسَانِ. وَإِهْمَالُهَا مَعْصِيَةٌ فَهُوَ مُهْلِكٌ. (وَٱلرَّابِعُ) ٱلشِّعْرِيُّ وَهُوَ مَا رُكِّبَ مِنْ مُقَدَّمَاتٍ مُخَيَّلَةٍ تُؤَثِّرُ فِي ٱلنَّفْسِ بَسْطًا أَوْ قَبْضًا صَادِقَةً كَانَتْ أَوْ كَاذِبَةً نَحْوُ: ٱلْخَمْرُ قِرْمِزِيَّةٌ سَاطِعَةٌ فَهِيَ تُبْهِجُ ٱلنَّظَرَ أَوْ هِيَ مُرَّةٌ مُهَوِّعَةٌ فَهِيَ تُزْعِجُ ٱلنَّفْسَ. (وَٱلْخَامِسُ) ٱلْمُغَالَطِيُّ وَهُوَ مَا رُكِّبَ مِنْ مُقَدَّمَاتٍ كَاذِبَةٍ شَبِيهَةٍ بِٱلصَّادِقَةِ كَقَوْلِكَ عَنْ بُرْجِ ٱلْأَسَدِ: هٰذَا أَسَدٌ فَهُوَ يَزْأَرُ. وَٱلْعُمْدَةُ فِي ٱلْخَطَابَةِ عَلَى ٱلْبُرْهَانِ ٱلْخَطَابِيِّ أَيْ ذِي ٱلْمُقَدَّمَاتِ ٱلْمَقْبُولَةِ

البحث الرابع

في القياسات المستعملة في الخطابة واخصها القياس الاضماري والتمثيل

(من تلخيص خطابة ارسطو لابن رشد)

(راجع الصفحة ١٠٨ من الجزء الثاني من علم الادب)

نَقُولُ إِنَّ ٱلْأَقَاوِيلَ ٱلَّتِي يَكُونُ بِهَا ٱلْإِثْبَاتُ وَٱلْإِبْطَالُ كَمَا أَنَّهَا فِي صِنَاعَةِ ٱلْجَدَلِ صِنْفَانِ أَحَدُهُمَا ٱلِٱسْتِقْرَاءُ وَمَا يُظَنُّ بِهِ أَنَّهُ

اَسْتِقْرَاء وَٱلصِّنفُ ٱلثَّانِي ٱلقِيَاسُ وَمَا يُظَنُّ بِهِ اَنَّهُ قِيَاسٌ كَذٰلِكَ ٱلْاَقَاوِيلُ ٱلْمُثْبِتَةُ فِي ٱلصِّنَاعَةِ وَٱلْمُبْطِلَةُ صِنفَانِ اَحَدُهُمَا شَبِيهٌ بِٱلْاَسْتِقْرَاء وَهُوَ ٱلْمِثَالُ وَٱلْآخَرُ شَبِيهٌ بِٱلقِيَاسِ وَهُوَ ٱلضَّمِيرُ. وَٱلضَّمِيرُ ٱلَّذِي يُظَنُّ بِهِ اَنَّهُ ضَمِيرٌ وَلَيسَ بِضَمِيرٍ يُشْبِهُ ٱلَّذِي يُظَنُّ بِهِ هُنَالِكَ اَنَّهُ قِيَاسٌ وَلَيسَ بِقِيَاسٍ. وَكَذٰلِكَ ٱلْمِثَالُ ٱلَّذِي يُظَنُّ بِهِ اَنَّهُ مِثَالٌ وَلَيسَ بِمِثَالٍ يُشْبِهُ ٱلْاَسْتِقْرَاءَ ٱلَّذِي يُظَنُّ بِهِ اَنَّهُ اَسْتِقْرَاء وَلَيسَ بِاَسْتِقْرَاء. فَٱلضَّمِيرُ هُوَ ٱلقِيَاسُ ٱلْخُطْبِيُّ وَٱلْمِثَالُ هُوَ ٱلْاَسْتِقْرَاءُ ٱلْخُطْبِيُّ. وَٱلْخُطَبَاء اِذَا تُؤُمِّلَ اَمْرُهُمْ ظَهَرَ اَنَّهُمْ يَفْعَلُونَ جَمِيعَ ٱلتَّصْدِيقَاتِ ٱلَّتِي تَكُونُ بِٱلقَوْلِ بِهٰذَيْنِ ٱلصِّنفَيْنِ اَعْنِي اِمَّا بِٱلْمِثَالِ وَاِمَّا بِٱلضَّمِيرِ. وَذٰلِكَ اَنَّهُمْ يُؤْمُونَ بِفِعْلِهِمْ هٰذَا اَنْ يَتَشَبَّهُوا بِٱلْاَسْتِقْرَاء وَٱلقِيَاسِ. وَٱلَّذِي يَفْعَلُونَ مِنْ ذٰلِكَ اِنَّمَا يَفْعَلُونَهُ بِمَا هُوَ مِثَالٌ فِي ٱلْحَقِيقَةِ اَوْ بِمَا يُظَنُّ بِهِ اَنَّهُ كَذٰلِكَ وَتَبَيَّنَ فِي كِتَابِ ٱلقِيَاسِ اَنَّ كُلَّ تَصْدِيقٍ فَاِنَّهُ يَكُونُ بِٱلقِيَاسِ وَاَنَّ ٱلْاَسْتِقْرَاء وَٱلْمِثَالَ اِنَّمَا يُفِيدَانِ ٱلتَّصْدِيقَ بِمَا فِيهِمَا مِنْ قُوَّةِ ٱلقِيَاسِ. فَاَمَّا مَا هُوَ ٱلقِيَاسُ وَمَا ٱلفَصْلُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ ٱلْبُرْهَانِ فَقَدْ قِيلَ فِي كِتَابِ ٱلْجَدَلِ وَقَدْ تَبَيَّنَ هُنَالِكَ اَيضًا ٱلفَرْقُ بَيْنَ ٱلقِيَاسِ وَٱلْاَسْتِقْرَاء. وَٱلْاَسْتِقْرَاء وَٱلْمِثَالُ يَشْتَرِكَانِ فِي اَنَّ كِلَيْهِمَا يُثْبِتَانِ اَنَّ هٰذَا ٱلشَّيْء مَوْجُودٌ كَذَا اَوْ غَيْرُ مَوْجُودٍ كَذَا مِنْ اَجْلِ وُجُودِ ذٰلِكَ ٱلشَّيْء اَوْ لَا وُجُودِهِ فِي شَبِيهِهِ. وَٱلضَّمِيرُ وَٱلقِيَاسُ يَشْتَرِكَانِ فِي اَنَّ كِلَيْهِمَا قَوْلٌ يُوضَعُ فِيهِ شَيْءٌ فَيَلْزَمُ عَنْهُ شَيْءٌ آخَرُ. وَاِذَا كَانَ ٱلْاَمْرُ هٰكَذَا فَهُوَ بَيِّنٌ اَنَّ فِي كُلِّ وَاحِدٍ مِنْ

هذين الجنسين من القول نوعا خطبيا ونوعا جدليا ونوعا برهانيا ونوعا سوفسطائيا. فانه كما يوجد الاستقراء والقياس في هذه الصنائع كذلك يوجد في الخطابة المثال والضمير وانما يختلف في هذه الصنائع بجهة الاستعمال اعني في صناعة البرهان وصناعة الجدل. والقياس في الجدل اوثق من الاستقراء والمثال في الخطابة اقنع من الضمير لان الضمير يتطرق اليه العناد اكثر من تطرقه الى المثال وسبب هذا سنخبر به فيما بعد وكذلك كيف نستعمل هذه الاشياء. فاما الآن فينبغي ان نحدد هذين الطريقين من الاقناع اعني الضمير والمثال فنقول:

ان القول المقنع اما ان يكون مقنعا لواحد من الناس او لجماعة من الناس او لاكثر الناس. وايضا منه ما يكون اقناعه في امر كلي ومنه ما يكون في امر جزئي. وكلا هذين منه ما يكون اقناعه بينا بنفسه ومنه ما يكون اقناعه بغيره. والذي يكون اقناعه بغيره في الجزئيات ضربان (احدهما) ان يقول القائل: ان كذا انما هو كذا لموضع كذا. مثل قول القائل: ان شراب السكنجبين ينفع فلانا لانه محموم. وهذا هو الذي يسمى الضمير. (والضرب الثاني) ان يقول: ان كذا انما كان كذا لانه مثل كذا. مثل ان يقول. ان فلانا ينتفع بشراب السكنجبين لان فلانا انتفع به. وهذا هو الذي يسمى المثال. والمقنعات التي هي مقنعة عند واحد من الناس فليس تستعملها

هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةُ لِاَنَّ ذٰلِكَ غَيْرُ مُتَنَاهٍ وَغَيْرُ مَعْلُومٍ عِنْدَ ٱلْمُسْتَعْمِلِ لَهَا وَلِذٰلِكَ لَيْسَتْ تَسْتَعْمِلُ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةُ مِنَ ٱلْمُقَدَّمَاتِ ٱلْمَحْمُودَةِ اَعْنِي ٱلْمَقْبُولَةَ مَا كَانَ مَقْبُولًا عِنْدَ وَاحِدٍ مِنَ ٱلنَّاسِ . وَتِلْكَ هِيَ ٱلْآرَاءُ ٱلْحَادِثَةُ لِلنَّاسِ عِنْدَ ٱلشَّوْقِ وَٱلْهَوَى بَلْ اِنَّمَا تَسْتَعْمِلُ ٱلْمَحْمُودَ عِنْدَ ٱلْاَكْثَرِ اَوِ ٱلْجَمِيعِ عَلَى مِثْلِ مَا تَسْتَعْمِلُهُ صِنَاعَةُ ٱلْجَدَلِ . وَاِذَا كَانَ ٱلْاَمْرُ هٰكَذَا فَٱلَّذِي يَفْتَرِقُ بِهِ ٱلْقِيَاسُ ٱلْمُسْتَعْمَلُ فِي صِنَاعَةِ ٱلْجَدَلِ وَفِي صِنَاعَةِ ٱلْبُرْهَانِ مِنَ ٱلضَّمِيرِ ٱلْمُسْتَعْمَلِ فِي هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ اَنَّ ٱلْقِيَاسَ يُرَتَّبُ ٱلتَّرْتِيبَ ٱلَّذِي يَكُونُ بِهِ ٱلْقَوْلُ مُنْتِجًا بِٱلضَّرُورَةِ . وَاَمَّا ٱلضَّمِيرُ فَاِنَّهُ تَتَرَتَّبُ مُقَدَّمَاتُهُ ٱلتَّرْتِيبَ ٱلَّذِي هُوَ مُعْتَادٌ عِنْدَ ٱلْجُمْهُورِ اَنْ يُقْبَلَ . وَذٰلِكَ هُوَ بِخِلَافِ ٱلتَّرْتِيبِ ٱلصِّنَاعِيِّ فَاِنَّ ٱلنَّاسَ يَسْتَرِيبُونَ بِٱلْقَوْلِ ٱللَّازِمِ عَنِ ٱلْقَوْلِ ٱلصِّنَاعِيِّ وَيَرَوْنَ اَنَّ ذٰلِكَ اِنَّمَا لَزِمَ مِنْ جِهَةِ ٱلصِّنَاعَةِ لَا مِنْ جِهَةِ ٱلْاَمْرِ فِي نَفْسِهِ . وَاَيْضًا فَاِنَّ ٱلتَّرْتِيبَ ٱلصِّنَاعِيَّ يَقْتَضِي اَنْ يُصَرَّحَ فِيهِ بِجَمِيعِ ٱلْمُقَدَّمَاتِ ٱلضَّرُورِيَّةِ فِي بَيَانِ ذٰلِكَ ٱلْمَطْلُوبِ وَٱلْجُمْهُورُ لَا يَسْتَطِيعُونَ اَنْ يَفْهَمُوا لُزُومَ ٱلنَّتِيجَةِ ٱلَّتِي تَلْزَمُ عَنْ مُقَدَّمَاتٍ كَثِيرَةٍ . وَاَيْضًا فَاِنَّهُمْ لَا يُبَاعِدُونَ بَيْنَ ٱلنَّتِيجَةِ وَٱلشَّيْءِ ٱلَّذِي تَلْزَمُ عَنْهُ ٱلنَّتِيجَةُ اَعْنِي اَنَّهُمْ لَا يُصَرِّحُونَ فِي ٱلْمَقَايِيسِ بِٱلْمُقَدَّمَتَيْنِ جَمِيعًا مَعَ ٱلنَّتِيجَةِ بَلْ اِنَّمَا يَأْتُونَ بِمُقَدَّمَةٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ يُرْدِفُونَهَا بِٱلنَّتِيجَةِ . مِثْلَ اَنَّهُمْ يَقُولُونَ : هٰذَا يَدُورُ بِٱللَّيْلِ فَهُوَ لِصٌّ . وَلَا يَقُولُونَ : كُلُّ مَنْ يَدُورُ بِٱللَّيْلِ فَهُوَ لِصٌّ وَهِيَ ٱلْمُقَدَّمَةُ ٱلْكُبْرَى . وَاَيْضًا فَاِنَّ ٱلضَّمَائِرَ لَمَّا

كَانَتْ تُصْنَعُ فِي ٱلْأَكْثَرِ فِي ٱلْأُمُورِ ٱلْمُمْكِنَةِ وَذٰلِكَ بَيِّنٌ فِي ٱلْأُمُورِ ٱلْمُشَاوَرِيَّةِ فَإِنَّهُ لَيْسَ يُشِيرُ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ بِأَمْرٍ ضَرُورِيِّ ٱلْوُجُودِ وَلَا مُمْتَنِعِ ٱلْوُجُودِ وَكَانَتِ ٱلْمُقَدِّمَةُ ٱلْكُبْرَى فِي أَمْثَالِ هٰذِهِ ٱلْمَوَادِ كَاذِبَةً بِٱلْجُزْءِ لَمْ يُصَرِّحُوا بِهَا فِي ٱلْمَقَايِيسِ ٱلَّتِي يَسْتَعْمِلُونَهَا فِي هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ لِئَلَّا يُفْطَنَ لِكَذِبِهَا . وَأَيْضًا فَلَمَّا كَانَتِ ٱلْمَقَايِيسُ ٱلْجَيِّدَةُ ٱلصَّنْعَةِ فِي هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ إِنَّمَا هِيَ أَحَدُ صِنْفَيْنِ إِمَّا ٱلْمَقَايِيسُ ٱلَّتِي تُؤَلَّفُ مِنَ ٱلْمُقَدَّمَاتِ ٱلْبَيِّنَةِ إِقْنَاعُهَا بِنَفْسِهِ وَإِمَّا مِنْ مُقَدَّمَاتٍ تَتَبَيَّنُ مُقَدَّمَاتُهَا بِمُقَدَّمَاتٍ أُخَرَ تُخْلَطُ بِهَا وَإِلَّا لَمْ يَتَبَيَّنْ حَمْدُهَا . فَقَدْ يَلْحَقُ ضَرُورَةً فِي هٰذَا ٱلصِّنْفِ ٱلثَّانِي أَنْ يَعْسُرَ تَأْلِيفُ ٱلْمُقَدَّمَاتِ وَتَرْتِيبُهَا ٱلتَّرْتِيبَ ٱلصِّنَاعِيَّ لِمَكَانِ كَثْرَةِ ٱلْمُقَدَّمَاتِ وَطُولِ ٱلزَّمَانِ ٱلَّذِي يُصَرَّحُ فِيهِ بِجَمِيعِهَا وَتُرَتَّبُ تَرْتِيبًا صِنَاعِيًّا وَذٰلِكَ ٱلشَّيْءُ لَا يُسَاعِدُ عَلَيْهِ ٱلْحُكَّامُ بَلْ يَحْمِلُونَ ٱلْمُتَكَلِّمَ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ أَنْ يَكُونَ كَلَامُهُ بَسِيطًا غَيْرَ مُتَكَلَّفٍ فِيهِ صَنْعَةٌ عَلَى ٱلْجُمْهُورِ فِي ذٰلِكَ فَإِنَّهُ مَتَى كَانَ ٱلْكَلَامُ لَيْسَ عَلَى هٰذِهِ ٱلصِّفَةِ كَانَ غَيْرَ مُقْنِعٍ . وَذٰلِكَ فِي ٱلْأَمْرَيْنِ ٱللَّذَيْنِ يَكُونُ فِيهِمَا ٱلْإِقْنَاعُ أَعْنِي فِي أَنَّ ٱلشَّيْءَ مَوْجُودٌ أَوْ غَيْرُ مَوْجُودٍ وَفِي أَنَّهُ إِذَا وُجِدَ مَحْمُودٌ أَوْ غَيْرُ مَحْمُودٍ . وَكَذٰلِكَ إِذَا ٱسْتُعْمِلَ ٱلتَّصْدِيقُ بِطَرِيقِ أَخْذِ ٱلْأَشْبَاهِ فَٱسْتُقْصِيَ وَجُعِلَ عَلَى طَرِيقِ ٱلِٱسْتِقْرَاءِ عَرَضَ ٱلْعُسْرُ ٱلَّذِي وَصَفْنَاهُ مِنَ ٱلطُّولِ وَٱلْكَثْرَةِ . وَإِذَا كَانَ هٰذَا هٰكَذَا فَإِذَنْ ٱلْقِيَاسُ ٱلْخُطَبِيُّ وَهُوَ ٱلضَّمِيرُ وَٱلْمِثَالُ إِنَّمَا يَكُونَانِ فِي ٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي يَكُونُ فِيهَا ٱلْقِيَاسُ وَٱلِٱسْتِقْرَاءُ بِإِطْلَاقٍ وَتِلْكَ

ٱلْاَشْيَاءُ مَأْخُوذَةٌ بِحَالٍ غَيْرِ ٱلْحَالِ ٱلَّتِي اُخِذَتْ بِهَا فِي ٱلْقِيَاسِ وَٱلِاسْتِقْرَاءِ . فَاِذَا ٱسْتُعْمِلَتْ تِلْكَ ٱلْاَشْيَاءُ بِٱلْحَالِ ٱلَّتِي بُيِّنَ فِي كِتَابِ ٱلْقِيَاسِ عَادَ ٱلْمِثَالُ ٱسْتِقْرَاءً وَٱلضَّمِيرُ قِيَاسًا . وَاِذَا اُخِذَتْ بِهَذِهِ ٱلْحَالِ ٱلَّتِي ذَكَرْنَا عَادَ ٱلِاسْتِقْرَاءُ مِثَالًا وَٱلْقِيَاسُ ضَمِيرًا . وَتِلْكَ ٱلْحَالُ هِيَ اَخْذُ ٱلْقِيَاسِ وَٱلِاعْتِبَارُ بِمُقَدَّمَاتٍ قَلِيلَةٍ وَجِيزَةٍ فَاِنَّ ٱلْاِقْنَاعَ اِنَّمَا يَكُونُ اَكْثَرَ ذٰلِكَ بِٱلْمُقَدَّمَاتِ ٱلَّتِي هِيَ فِي غَايَةِ ٱلظُّهُورِ وَحَذْفِ مَا خَفِيَ مِنْهَا وَاَيْضًا فَاِنَّ ٱلْمَحْمُودَ فِي هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ اَنْ يُحْذَفَ ٱللَّازِمُ عَنْهُ وَيُؤْتَى بِٱلشَّيْءِ ٱلَّذِي يَلْزَمُ اِذَا اُخْبِرَ بِٱللَّازِمِ وَٱلْمَلْزُومِ فَكَاَنَّهُ قَدْ ذَكَرَ ٱلشَّيْءَ مَرَّتَيْنِ فَيَكُونُ هَذَرًا فِي بَادِي ٱلرَّأْيِ . وَعَلَى هٰذَا فَلَا يُصَرَّحُ بِٱلْحَدِّ ٱلْاَوْسَطِ فِي ٱلْقِيَاسِ اِلَّا مَرَّةً وَاحِدَةً وَلَا فِي ٱلِاعْتِبَارِ اِلَّا بِشَبِيهٍ وَاحِدٍ فَيَكُونُ ٱلْقِيَاسُ ضَرُورَةً ضَمِيرًا اَيْ مَحْذُوفًا اِحْدَى مُقَدَّمَتَيْهِ وَبِهٰذَا سُمِّيَ ضَمِيرًا اِذْ كَانَتْ اِحْدَاهُمَا مُضْمَرَةً وَيَكُونُ ٱلِاسْتِقْرَاءُ ضَرُورَةً تَمْثِيلًا

البحث الخامس

في مقدمات القياسات الخطبية

(من الكتاب نفسهُ)

(قَالَ) وَمُقَدَّمَاتُ ٱلْقِيَاسَاتِ ٱلْخُطْبِيَّةِ قَدْ تَكُونُ ضَرُورِيَّةً وَذٰلِكَ فِي ٱلْاَقَلِّ وَتَكُونُ مُمْكِنَةً وَذٰلِكَ فِي ٱلْاَكْثَرِ لِاَنَّ اَكْثَرَ ٱلْفَحْصِ ٱلْجُمْهُورِيِّ اِنَّمَا هُوَ فِيمَا يُمْكِنُ اَنْ يَكُونَ بِحَالٍ وَيُمْكِنُ اَلَّا يَكُونَ

بِتِلْكَ ٱلْحَالِ. وَذٰلِكَ بَيِّنٌ فِي ٱلْاَشْيَاءِ ٱلَّتِي يُشَارُ بِهَا وَذٰلِكَ اَنَّهَا كَأَنَّهَا أُمُورٌ مَفْعُولَةٌ لِلْاِنْسَانِ لَا ضَرُورِيَّةُ ٱلْوُجُودِ وَلَا مُمْتَنِعَةُ ٱلْوُجُودِ . وَٱلنَّتَائِجُ ٱلضَّرُورِيَّةُ فَإِنَّهَا تَكُونُ بِٱلذَّاتِ عَنْ مُقَدَّمَاتٍ ضَرُورِيَّةٍ وَٱلْمُمْكِنَةُ عَنْ مُقَدَّمَاتٍ مُمْكِنَةٍ. وَٱلضَّمَائِرُ مِنْهَا مَا يَكُونُ عَنْ مُقَدَّمَاتٍ مَحْمُودَةٍ وَمِنْهَا مَا يَكُونُ مِنَ ٱلدَّلَائِلِ. وَاَعْنِي بِٱلْمُقَدَّمَاتِ ٱلْمَحْمُودَةِ ٱلَّتِي لَيْسَتْ دَلَائِلَ . مِثْلَ اَنَّهُ يَنْبَغِي اَنْ يُشْكَرَ ٱلْمُنْعِمُ وَاَنْ يُسَاءَ اِلَى ٱلْمُسِيءِ. وَاَعْنِي بِٱلدَّلَائِلِ ٱلْاَشْيَاءَ ٱلَّتِي تَدُلُّ عَلَى وُجُودِ شَيْءٍ لِشَيْءٍ. وَهٰذَانِ ٱلصِّنْفَانِ مِنَ ٱلْمُقَدَّمَاتِ يُوجَدَانِ فِي ٱلْمَوَادِّ ٱلضَّرُورِيَّةِ وَٱلْمُمْكِنَةِ اَعْنِي ٱلْمَحْمُودَاتِ وَٱلدَّلَائِلَ. وَلَيْسَ يُوجَدَانِ فِي ٱلْمُمْكِنَةِ عَلَى ٱلْاَكْثَرِ فَقَطْ بَلْ وَفِي ٱلْمُمْكِنَةِ عَلَى ٱلتَّسَاوِي . وَهِيَ ٱلَّتِي نِسْبَتُهَا اِلَى ٱلْمُقَدَّمَاتِ ٱلْمُمْكِنَةِ عَلَى ٱلْاَكْثَرِ نِسْبَةُ ٱلَّتِي عَلَى ٱلْاَكْثَرِ اِلَى ٱلضَّرُورِيِّ وَهِيَ نِسْبَةُ ٱلْكُلِّ مِنَ ٱلْبَعْضِ وَذٰلِكَ اَنَّ ٱلصِّدْقَ فِي ٱلضَّرُورِيَّةِ اَعَمُّ مِنَ ٱلصِّدْقِ فِي ٱلْمُمْكِنَةِ عَلَى ٱلْاَكْثَرِ اِذْ كَانَتِ ٱلضَّرُورِيَّةُ تُوجَدُ لِكُلِّ ٱلْمَوْضُوعِ وَٱلْمُمْكِنَةُ عَلَى ٱلْاَكْثَرِ لَا تُوجَدُ لِكُلِّهِ. وَكَذٰلِكَ نِسْبَةُ ٱلْمُمْكِنَةِ عَلَى ٱلتَّسَاوِي اِلَى ٱلْمُمْكِنَةِ عَلَى ٱلْاَكْثَرِ هِيَ هٰذِهِ ٱلنِّسْبَةُ اَعْنِي اَنَّ ٱلْمُمْكِنَةَ عَلَى ٱلْاَكْثَرِ تَصْدُقُ مِنْ مَوْضُوعَاتِهَا عَلَى اَكْثَرَ مِمَّا تَصْدُقُ ٱلْمُمْكِنَةُ عَلَى ٱلتَّسَاوِي. وَٱلدَّلَائِلُ ٱلْمَأْخُوذَةُ حَدًّا اَوْسَطَ مِنْهَا مَا هُوَ اَعَمُّ مِنَ ٱلطَّرَفِ ٱلْاَصْغَرِ وَاَخَصُّ مِنَ ٱلْاَكْبَرِ وَمِنْهَا مَا هُوَ اَعَمُّ مِنَ ٱلطَّرَفَيْنِ . وَمِنْهَا مَا هُوَ اَخَصُّ مِنْهُمَا . اَمَّا ٱلَّذِي هُوَ اَعَمُّ مِنَ ٱلطَّرَفِ

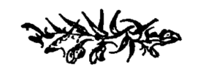
ٱلْأَصْغَرِ وَأَخَصُّ مِنَ ٱلْأَكْبَرِ فَإِنَّهُ يَأْتَلِفُ ضَرُورَةً فِي ٱلشَّكْلِ ٱلْأَوَّلِ. وَإِذَا كَانَ فِي ٱلْمَادَّةِ ٱلْمُمْكِنَةِ عَلَى ٱلْأَكْثَرِ فَهُوَ ٱلَّذِي يَعْرِفُهُ ٱلْقُدَمَاءُ بِٱلْأَشْبَهِ. وَمِثَالُهُ فِي ٱلْمَادَّةِ ٱلضَّرُورِيَّةِ: هٰذِهِ أُنْثَى ٱلْحَيَوَانِ لَهَا لَبَنٌ فَهِيَ قَدْ وَلَدَتْ. وَفِي ٱلْمُمْكِنَةِ عَلَى ٱلْأَكْثَرِ. فُلَانٌ يُعِدُّ ٱلسِّلَاحَ وَيَجْمَعُ ٱلرِّجَالَ وَلَيْسَ قُرْبَهُ عَدُوٌّ فَهُوَ يُرِيدُ أَنْ يَعْصِيَ ٱلْمَلِكَ. وَمِثَالُ ٱلْمُمْكِنَةِ عَلَى ٱلتَّسَاوِي: فُلَانٌ قَدْ تَعِبَ وَٱلْمَتْعُوبُ مَحْمُومٌ فَفُلَانٌ مَحْمُومٌ. وَهٰذَا هُوَ ٱلَّذِي يُعْرَفُ بِٱلْمُشَبَّهِ. وَأَمَّا مَا هُوَ أَعَمُّ مِنَ ٱلطَّرَفَيْنِ فَإِنَّهُ يَأْتَلِفُ فِي ٱلشَّكْلِ ٱلثَّانِي إِلَّا أَنَّهُ غَيْرُ مُنْتِجٍ إِلَّا فِي بَادِي ٱلرَّأْيِ. مِثَالُ ذٰلِكَ فِي ٱلْمَادَّةِ ٱلْمُمْكِنَةِ عَلَى ٱلْأَكْثَرِ قَوْلُ ٱلْقَائِلِ: سُقْرَاطُ يَتَنَفَّسُ مُتَوَاتِرًا وَٱلْمَحْمُومُ يَتَنَفَّسُ مُتَوَاتِرًا فَسُقْرَاطُ مَحْمُومٌ. فَهَاتَانِ ٱلْمُقَدَّمَتَانِ صَادِقَتَانِ وَٱلنَّتِيجَةُ قَدْ تَكُونُ كَاذِبَةً إِذْ قَدْ يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ تَنَفُّسُ سُقْرَاطَ مُتَوَاتِرًا لِمَوْضِعِ إِحْضَارِهِ. وَلَمَّا كَانَ ذٰلِكَ خَافِيًا عَلَى كَثِيرٍ مِنَ ٱلنَّاسِ إِذَا رَأَوْا فِي أَمْثَالِ هٰذِهِ ٱلْمُقَدَّمَاتِ ٱلصَّادِقَةِ أَنَّهَا تُنْتِجُ كَذِبًا ظَنُّوا لِذٰلِكَ أَنَّهُ قَدِ ٱنْطَوَى فِيهَا كَذِبٌ فَيَرُومُونَ أَنْ يُعَانِدُوا ٱلْمُقَدَّمَاتِ فَيَعْسُرُ ذٰلِكَ عَلَيْهِمْ لِمَكَانِ صِدْقِهَا فَيَتَحَيَّرُونَ لِذٰلِكَ. وَأَمَّا ٱلَّتِي هِيَ أَخَصُّ مِنَ ٱلطَّرَفَيْنِ فَتُنْتِجُ فِي ٱلشَّكْلِ ٱلثَّالِثِ جُزْئِيًّا لَا كُلِّيًّا لٰكِنْ تُؤْخَذُ نَتِيجَتُهُ فِي هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ كُلِّيَّةً. مِثَالُ ذٰلِكَ فِي ٱلْمَادَّةِ ٱلضَّرُورِيَّةِ قَوْلُ ٱلْقَائِلِ: ٱلْأَشْيَاءُ كُلُّهَا فِي كُرَةِ ٱلْعَالَمِ وَٱلْأَشْيَاءُ كُلُّهَا فِي ٱلزَّمَانِ فَٱلزَّمَانُ كُرَةُ ٱلْعَالَمِ. وَفِي ٱلْمُمْكِنَةِ قَوْلُ ٱلْقَائِلِ: ٱلْحُكَمَاءُ عُدُولٌ لِأَنَّ سُقْرَاطَ حَكِيمٌ وَعَدْلٌ.

والدَّلائل ٱلَّتي تكون في ٱلشَّكل ٱلثالث وٱلثَّاني تخصّ بٱسم ٱلعلامة وما كان منها في ٱلشَّكل ٱلاوَّل تخصّ بٱسم ٱلدَّليل . وٱلَّذي في ٱلشَّكل ٱلثَّاني هو اخصّ بٱسم ٱلعلامة من ٱلثَّالث كما انَّهُ ما كان من ذلك في ٱلمُمكنة ٱلاكثريَّة تخصّ بٱسم ٱلاشبه وان كان في ٱلمُمكنة على ٱلتَّساوي خُصّ بٱسم ٱلضمير ٱلمُشتبه . فقد تبيَّن من هذا ٱلقول ما هي ٱلمحمُودات وٱلدَّلائل وٱلعلامات وما ٱلفرق بينهما . لكنَّ ٱلَّذي تبيَّن من ٱلاقاويل ٱلقياسيَّة على ٱلحقيقة انَّما هو في كتاب ٱلقياس فانَّهُ هنالك تبيَّن ما هو ٱلقياس وكم اجناس ٱلاقاويل ٱلقياسيَّة وتبيَّن في جنس جنس منها ما هو قياس وما ليس بقياس . وامَّا (ٱلمثال) فقد بيَّنَّا فيما تقدَّم انَّهُ ٱستقراء ما لكن يباين ٱلاستقراء بانَّهُ ليس يُصار فيه لا من ٱلجُزئيّ الى بيان ٱلامر ٱلكُلّيّ كما يُصار في بعض انواع ٱلاستقراء ولا من ٱلكُلّيّ الى ٱلجُزئيّ كما قد يُصار في بعض انواع ٱلاستقراء . وذلك اذا بيَّنَّا بٱلكُلّيّ ٱلَّذي اثبتناه بٱلاستقراء جُزئيًّا آخر غير ٱلجُزئيَّات ٱلَّتي اثبتها ٱلكُلّيّ بٱستقرائها ويوافقهُ في انَّهُ يصير من جزئيّ الى جُزئيّ لاجتماعهما في امر كُلّيّ . وذلك اذا جمعنا في ٱلاستقراء ٱلامرين جميعا اعني ان نصير فيه من ٱلجُزئيّ الى ٱلكُلّيّ ثمَّ من ٱلكُلّيّ الى جُزئيّ آخر فانَّا في هذا ٱلفعل قد صرنا من جُزئيّ الى جُزئيّ يتوسَّط ٱلكُلّيّ كالحال في ٱلمثال فانَّ ٱلمثال انَّما يصير فيه من جُزئيّ الى جُزئيّ

لِأشْتِرَاكِهِمَا فِي أمْرٍ كُلِّيٍّ إذَا كَانَ ٱلْحُكْمُ ٱلْمَنْقُولُ مِنْ احدِهِمَا إلَى ٱلْآخَرِ مَوْجُودًا لِلْجُزْئِيِّ ٱلْأعْرَفِ مِنْ اَجْلِ ذٰلِكَ ٱلْكُلِّيِّ اَوْ يُظَنُّ بِهِ اَنَّهُ يُوجَدُ لَهُ مِنْ جِهَتِهِ وَإلَّا لَمْ تَصِحَّ ٱلنَّقْلَةُ مِنْ جُزْئِيٍّ إلى جُزْئِيٍّ اَعْنِي إنْ لَمْ يَكُنْ هُنَالِكَ كُلِّيٌّ وَكَانَ وُجُودُ ذٰلِكَ ٱلْحُكْمِ مِنْ اَجْلِهِ لِلْجُزْئِيِّ ٱلْأعْرَفِ. وَمِثَالُ مَا يَعْرِضُ مِنْ هٰذَا فِي ٱلِاسْتِقْرَاءِ اَعْنِي إذَا كَانَتِ ٱلنَّقْلَةُ مِنْ جُزْئِيٍّ إلَى جُزْئِيٍّ بِتَوَسُّطِ ٱلنَّقْلَةِ إلى ٱلْكُلِّيِّ قَوْلُ مَنْ قَالَ: اَيُّهَا ٱلْمَلِكُ إنَّ فُلَانًا طَلَبَ اَنْ يَكُونَ مِنْ جُمْلَةِ ٱلْعَسَسِ وَقَدْ كَانَ مِنْ جُمْلَةِ عَدُوِّكَ فَلَا تُبِحْ لَهُ ذٰلِكَ فَإنَّهُ يُرِيدُ اَنْ يَفْتِكَ بِٱلْمَلِكِ لِأنَّ فُلَانًا طَلَبَ ذٰلِكَ مِنْ فُلَانٍ ٱلْمَلِكِ وَفُلَانًا مِنْ فُلَانٍ ٱلْمَلِكِ لِأقْوَامٍ يُعَدِّدُهُمْ فَفَتَكُوا بِمُلُوكِهِمْ. فَإنَّ قَائِلَ هٰذَا ٱلْقَوْلِ قَدْ جَعَلَ ٱلنَّقْلَةَ فِيهِ مِنْ جُزْئِيٍّ إلى جُزْئِيٍّ بِتَوَسُّطِ ٱلْكُلِّيِّ ٱلَّذِي هُوَ: إنَّ كُلَّ مَنْ طَلَبَ اَنْ يَدْخُلَ فِي ٱلْحَرَسِ مِمَّنْ كَانَ فِي جُمْلَةِ عَدُوِّ ٱلْمَلِكِ فَهُوَ يُرِيدُ اَن يَفْتِكَ بِهِ. إلَّا إنَّ هٰذَا ٱلْكُلِّيَّ ٱلَّذِي ٱرْتَسَمَ فِي ٱلنَّفْسِ بِٱلْقُوَّةِ وَإنْ لَمْ يُصَرِّحْ بِهِ يَسْتَعْمِلُ ٱلنَّقْلَةَ مِنْ جُزْئِيٍّ إلَى جُزْئِيٍّ إذَا كَانَتِ ٱلنَّقْلَةُ إلَيْهِ فِي ٱلذِّهْنِ مِنْ اَكْثَرِ ٱلْجُزْئِيَّاتِ كَانَ ٱسْتِقْرَاءً وَإنْ كَانَ مِنْ وَاحِدٍ مِنْهَا اَوْ مِنَ ٱلْأقَلِّ كَانَ تَمْثِيلًا. (قَالَ) فَامَّا ٱلْقَوْلُ فِي هٰذِهِ ٱلْأشْيَاءِ ٱلَّتِي يُقَالُ لَهَا مِثَالَاتٌ فَقَدْ يُكْتَفَى هَا هُنَا بِهٰذَا ٱلْقَدْرِ ٱلْمُعْطَى مِنْهَا

وَامَّا ٱلْقَوْلُ فِي فُصُولِ ٱلضَّمَائِرِ مِنْ جِهَةِ ٱلْأشْيَاءِ ٱلَّتِي مِنْهَا تُعْمَلُ فَإنَّ ٱلْقَوْلَ فِيهَا غَامِضٌ وَخَفِيٌّ وَهُوَ عَظِيمُ ٱلْغَنَاءِ فِيمَا نَقْصِدُهُ

هَا هُنَا . وَسَبَبُ غُمُوضِهِ أَنَّ ٱلضَّمَائِرَ تَكُونُ فِي جَمِيعِ ٱلْمَقُولَاتِ ٱلْعَشْرِ كَمَا تَكُونُ ٱلْقِيَاسَاتُ ٱلْجَدَلِيَّةُ لَكِنَّ مِنَ ٱلضَّمَائِرِ مَا يَكُونُ فِي ٱلْمَوَادِّ ٱلَّتِي فِي ٱلصَّنَائِعِ مِثْلَ ٱلضَّمَائِرِ ٱلَّتِي تُسْتَعْمَلُ فِي ٱلْأُمُورِ ٱلْكُلِّيَّةِ وَٱلْجُزْئِيَّةِ فِي صِنَاعَةِ ٱلطِّبِّ وَغَيْرِهَا مِنَ ٱلصَّنَائِعِ . وَهٰذِهِ فَيَنْبَغِي أَنْ تُسْتَعْمَلَ فِي هٰذِهِ ٱلصَّنَائِعِ عَلَى نَحْوِ ٱسْتِعْمَالِ ٱلْبَرَاهِينِ فِي تِلْكَ ٱلصِّنَاعَةِ لَا عَلَى مَا يَسْتَعْمِلُهَا ٱلْخَطِيبُ فِي ٱلْمَادَّةِ ٱلَّتِي تَخُصُّ ٱلْخَطَابَةَ مِثْلَ أَنْ يَأْتِيَ بِهَا جُزْءًا مِنَ خُطْبَةٍ . وَسَائِرُ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي تَكُونُ بِهَا ٱلْأَقَاوِيلُ ٱلْخُطْبِيَّةُ أَتَمَّ فِعْلًا وَأَنْفَذُ مِمَّا يُذْكَرُ بَعْدُ . وَمِنَ ٱلضَّمَائِرِ مَا يَكُونُ فِي ٱلْأُمُورِ ٱلَّتِي تَخُصُّ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةَ بِحَسَبِ مَا تَبَيَّنَ مِنْ مَنْفَعَتِهَا وَهِيَ ٱلْأُمُورُ ٱلْإِرَادِيَّةُ وَهٰذِهِ هِيَ ٱلَّتِي يَنْبَغِي أَنْ تُسْتَعْمَلَ عَلَى جِهَةِ مَا يَسْتَعْمِلُ ٱلْخُطَبَاءُ ٱلْأَقَاوِيلَ ٱلْخُطْبِيَّةَ . وَمِنْ هٰذِهِ ٱلْأَشْيَاءِ يَنْبَغِي أَنْ تُعَدَّدَ فِي هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ ٱلْأَشْيَاءُ ٱلَّتِي هِيَ فُصُولُ ٱلضَّمَائِرِ لَا مِنْ تِلْكَ ٱلْمَوَادِّ ٱلَّتِي تَحْتَوِي عَلَيْهَا صِنَاعَةٌ صِنَاعَةٌ



الفصل السابع

في التفنيد

البحث الاول

في المناظرة والجدال

(عن رسائل الفارابي وابن سينا ومقدمة ابن خلدون وآداب البحث للسمرقندي)

(راجع الصفحة ١١٦ من علم الخطابة)

اَلْمُنَاظَرَةُ عِلْمٌ يُعْرَفُ بِهِ كَيْفِيَّةُ إِثْبَاتِ ٱلْمَطْلُوبِ وَنَفْيِهِ اَوْ نَفْيِ دَلِيلِهِ مَعَ ٱلْخَصْمِ. وَٱلْآدَابُ ٱلطُّرُقُ. وَمَوْضُوعُ هٰذَا ٱلْعِلْمِ ٱلْأَدِلَّةُ مِنْ حَيْثُ اَنَّهَا يُثْبِتُ بِهَا ٱلْمُدَّعِي عَلَى ٱلْغَيْرِ. وَمَبَادِئُهُ أُمُورٌ بَيِّنَةٌ بِنَفْسِهَا. وَٱلْغَرَضُ مِنْهُ تَحْصِيلُ مَلَكَةِ طُرُقِ ٱلْمُنَاظَرَةِ لِئَلَّا يَقَعَ ٱلْخَبْطُ فِي ٱلْبَحْثِ فَيَتَّضِحَ ٱلصَّوَابُ. وَتُطْلَقُ ٱلْمُنَاظَرَةُ اَيضًا فِي اصْطِلَاحِ اَهْلِ هٰذَا ٱلْعِلْمِ عَلَى ٱلنَّظَرِ مِنَ ٱلْجَانِبَيْنِ فِي ٱلنِّسْبَةِ بَيْنَ ٱلشَّيْئَيْنِ إِظْهَارًا لِلصَّوَابِ. وَقِيلَ اَيضًا هِيَ تَوَجُّهُ ٱلْخَصْمَيْنِ فِي ٱلنِّسْبَةِ بَيْنَ ٱلشَّيْئَيْنِ إِظْهَارًا لِلصَّوَابِ اَيْ تَوَجُّهُ ٱلْمُتَخَاصِمَيْنِ ٱللَّذَيْنِ مَطْلَبُ اَحَدِهِمَا غَيْرُ مَطْلَبِ ٱلْآخَرِ إِذَا تَوَجَّهَا فِي ٱلنِّسْبَةِ وَإِنْ كَانَ ذَاكَ ٱلتَّوَجُّهُ فِي ٱلنَّفْسِ كَمَا كَانَ لِلْحُكَمَاءِ ٱلْإِشْرَاقِيِّينَ وَكَانَ غَرَضُهُمْ مِنْ ذٰلِكَ إِظْهَارُ ٱلْحَقِّ وَٱلصَّوَابِ. وَٱلْمَسَائِلُ ٱلْعِلْمِيَّةُ تَتَزَايَدُ يَوْمًا فَيَوْمًا بِتَلَاحُقِ ٱلْأَفْكَارِ

وَٱلأنظَارِ فَلِتفَاوُتِ مَرَاتِبِ ٱلطَّبَائِعِ وَٱلأذهَانِ لَا يَخْلُو عِلْمٌ مِنَ ٱلعُلُومِ عَنْ تَصَادُمِ ٱلآرَاءِ وَتَبَايُنِ ٱلأفكَارِ وَإِدَارَةِ ٱلكَلَامِ مِنَ ٱلجَرْحِ وَٱلتَّعْدِيلِ وَٱلرَّدِّ وَٱلقَبُولِ إِلَّا أَنَّهُ بِشُرُوطٍ مُعْتَبَرَةٍ مَشْرُوطٌ وَبِرِعَايَةِ ٱلأُصُولِ مَنُوطٌ وَإِلَّا لَكَانَ مُكَابَرَةً غَيْرَ مَسْمُوعَةٍ . فَلَا بُدَّ مِنْ قَانُونٍ يُعْرَفُ مَرَاتِبَ ٱلبَحْثِ عَلَى وَجْهٍ يَتَمَيَّزُ بِهِ ٱلمَقْبُولُ عَمَّا هُوَ مَرْدُودٌ وَتِلْكَ ٱلقَوَانِينُ هِيَ عِلْمُ آدَابِ ٱلبَحْثِ

أَمَّا ٱلجِدَالُ فَهُوَ عِلْمٌ يَبْحَثُ عَنِ ٱلطُّرُقِ ٱلَّتِي يُقْتَدَرُ بِهَا عَلَى إِبْرَامٍ وَنَقْضٍ وَهُوَ مِنْ فُرُوعِ عِلْمِ ٱلنَّظَرِ وَمَبْنِيٌّ لِعِلْمِ ٱلخِلَافِ مَأْخُوذٌ مِنَ ٱلجَدَلِ ٱلَّذِي هُوَ أَحَدُ أَجْزَاءِ مَبَاحِثِ ٱلمَنْطِقِ . وَمَبَادِئُهُ بَعْضُهَا مُبَيَّنَةٌ فِي عِلْمِ ٱلنَّظَرِ وَبَعْضُهَا خَطَابِيَّةٌ وَبَعْضُهَا أُمُورٌ عَادِيَّةٌ . وَلَهُ ٱسْتِمْدَادٌ مِنْ عِلْمِ ٱلمُنَاظَرَةِ ٱلمَشْهُورِ بِآدَابِ ٱلبَحْثِ . وَمَوْضُوعُهُ تِلْكَ ٱلطُّرُقُ وَٱلغَرَضُ مِنْهُ تَحْصِيلُ مَلَكَةِ ٱلنَّقْضِ وَٱلإِبْرَامِ وَفَائِدَتُهُ كَثِيرَةٌ فِي ٱلأَحْكَامِ ٱلعِلْمِيَّةِ وَٱلعَمَلِيَّةِ مِنْ جِهَةِ ٱلإِلْزَامِ عَلَى ٱلمُخَالِفِينَ . وَلَا يَبْعُدُ أَنْ يُقَالَ إِنَّ عِلْمَ ٱلجَدَلِ هُوَ عِلْمُ ٱلمُنَاظَرَةِ لِأَنَّ ٱلمَآلَ مِنْهُمَا وَاحِدٌ إِلَّا أَنَّ ٱلجَدَلَ أَخَصُّ مِنْهُ . وَيُؤَيِّدُهُ كَلَامُ ٱبْنِ خَلْدُونَ فِي ٱلمُقَدَّمَةِ حَيْثُ قَالَ : وَأَمَّا ٱلجِدَالُ فَهُوَ مَعْرِفَةُ آدَابِ ٱلمُنَاظَرَةِ ٱلَّتِي تَجْرِي بَيْنَ أَهْلِ ٱلمَذَاهِبِ ٱلفِقْهِيَّةِ وَغَيْرِهِمْ فَإِنَّهُ لَمَّا كَانَ بَابُ ٱلمُنَاظَرَةِ فِي ٱلرَّدِّ وَٱلقَبُولِ مُتَّسِعًا وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنَ ٱلمُتَنَاظِرِينَ فِي ٱلِاسْتِدْلَالِ وَٱلجَوَابِ يُرْسِلُ عِنَانَهُ فِي ٱلِاحْتِجَاجِ . وَمِنْهُ مَا يَكُونُ صَوَابًا وَمِنْهُ مَا يَكُونُ خَطَأً فَٱحْتَاجَ ٱلأَئِمَّةُ إِلَى أَنْ يَضَعُوا آدَابًا وَأَحْكَامًا يَقِفُ ٱلمُتَنَاظِرَانِ

عِنْدَ حُدُودِهَا فِي ٱلرَّدِّ وَٱلقَبُولِ وَكَيْفَ يَكُونُ حَالُ ٱلْمُسْتَدِلِّ وَٱلْمُجِيبِ وَحَيْثُ يَسُوغُ لَهُ ان يَكُونَ مُسْتَدِلاً وَكَيْفَ يَكُونُ مَخْصُوصًا مُنْقَطِعًا وَمَحَلُّ ٱعْتِرَاضِهِ اوْ مُعَارَضَتِهِ وَايْنَ يَجِبُ عَلَيْهِ ٱلسُّكُوتُ وَلِخَصْمِهِ ٱلْكَلَامُ وَٱلِاسْتِدْلَالُ. وَلِذٰلِكَ قِيلَ فِيهِ إِنَّهُ مَعْرِفَةٌ بِٱلقَوَاعِدِ مِنَ ٱلْحُدُودِ وَٱلآدَابِ فِي ٱلِاسْتِدْلَالِ ٱلَّتِي يُتَوَصَّلُ بِهَا إِلَى حِفْظِ رَأْيٍ وَهَدْمِهِ كَانَ ذٰلِكَ ٱلرَّأْيُ مِنَ ٱلفِقْهِ اوْ غَيْرِهِ. وَهِيَ طَرِيقَتَانِ طَرِيقَةُ ٱلبَزْدَوِيِّ ٱلْمُتَوَفَّى سَنَةَ ٤٨٢ هـ (١٠٩٠م) وَهِيَ خَاصَّةٌ بِٱلأَدِلَّةِ ٱلشَّرْعِيَّةِ مِنَ ٱلنَّصِّ وَٱلإِجْمَاعِ وَٱلِاسْتِدْلَالِ. وَطَرِيقَةُ رُكْنِ ٱلدِّينِ ٱلعَمِيدِيِّ ٱلْمُتَوَفَّى سَنَةَ ٦١٥ هـ (١٢١٨م) وَهِيَ عَامَّةٌ فِي كُلِّ دَلِيلٍ يُسْتَدَلُّ بِهِ مِنْ ايِّ عِلْمٍ كَانَ. وَاكْثَرُهُ ٱسْتِدْلَالٌ وَهُوَ مِنَ ٱلْمَنَاحِي ٱلْحَسَنَةِ وَٱلْمُغَالَطَاتُ فِيهِ فِي نَفْسِ ٱلأَمْرِ كَثِيرَةٌ وَإِذَا ٱعْتَبَرْنَا ٱلنَّظَرَ ٱلْمَنْطِقِيَّ كَانَ فِي ٱلغَالِبِ اشْبَهَ بِٱلقِيَاسِ ٱلْمُغَالَطِيِّ وَٱلسُّوفِسْطَائِيِّ . إِلَّا انَّ صُوَرَ ٱلأَدِلَّةِ وَٱلأَقْيِسَةِ فِيهِ مَحْفُوظَةٌ مُرَاعَاةٌ تُتَحَرَّى فِيهَا طُرُقُ ٱلِاسْتِدْلَالِ كَمَا يَنْبَغِي وَهٰذَا ٱلعَمِيدِيُّ هُوَ اوَّلُ مَنْ كَتَبَ فِيهَا وَنُسِبَتِ ٱلطَّرِيقَةُ إِلَيْهِ وَوَضَعَ ٱلْكِتَابَ ٱلْمُسَمَّى بِٱلإِرْشَادِ مُخْتَصَرًا وَتَبِعَهُ مَنْ جَاءَ بَعْدَهُ مِنَ ٱلْمُتَأَخِّرِينَ كَٱلنَّسَفِيِّ ٱلْمُتَوَفَّى سَنَةَ ٧١٠هـ (١٣١٠م) وَغَيْرُهُ جَاءُوا عَلَى اثَرِهِ وَسَلَكُوا مَسْلَكَهُ وَكَثُرَتْ فِي ٱلطَّرِيقَةِ ٱلتَّآلِيفُ وَهِيَ لِهٰذَا ٱلعَهْدِ مَهْجُورَةٌ لِنَقْصِ ٱلعِلْمِ وَٱلتَّعْلِيمِ فِي ٱلأَمْصَارِ ٱلإِسْلَامِيَّةِ

البحث الثاني

في آداب المناظرة

(من كتاب ايها الولد للغزالي)

(راجع الصفحة ١٢٤ من علم الخطابة)

لَوْ وَقَعَ مَسْئَلَةٌ بَيْنَكَ وَبَيْنَ شَخْصٍ اَوْ قَوْمٍ وَكَانَ اِرَادَتُكَ فِيهَا اَنْ تَظْهِرَ اَلْحَقَّ وَلَا تُضَيِّعَ جَازَ لَكَ اَلْبَحْثُ. لٰكِنْ لِتِلْكَ اَلْإِرَادَةِ عَلَامَتَانِ اِحْدَاهُمَا اَنْ لَا تَفْرُقَ بَيْنَ اَنْ يَنْكَشِفَ اَلْحَقُّ عَلَى لِسَانِكَ اَوْ عَلَى لِسَانِ غَيْرِكَ. وَثَانِيهِمَا اَنْ يَكُونَ اَلْبَحْثُ فِي اَلْخَلَاءِ اَحَبَّ اِلَيْكَ مِنْ اَنْ يَكُونَ فِي اَلْمَلَإِ وَاسْمَعْ اِنِّي اَذْكُرُ لَكَ هُنَا فَائِدَةً. اِعْلَمْ اَنَّ اَلسُّؤَالَ عَنِ اَلْمُشْكِلَاتِ عَرْضُ مَرَضِ اَلْقَلْبِ اِلَى اَلطَّبِيبِ وَاَلْجَوَابُ لَهُ سَعْيٌ لِإِصْلَاحِ مَرَضِهِ وَاعْلَمْ اَنَّ اَلْجَاهِلِينَ اَلْمَرْضَى قُلُوبُهُمْ وَاَلْعُلَمَاءَ اَلْأَطِبَّاءُ. وَاَلْعَالِمَ اَلنَّاقِصَ لَا يُحْسِنُ اَلْمُعَالَجَةَ وَاَلْعَالِمَ اَلْكَامِلَ لَا يُعَالِجُ كُلَّ مَرَضٍ بَلْ يُعَالِجُ مَنْ يَرْجُو فِيهِ قَبُولَ اَلْمُعَالَجَةِ وَاَلصَّلَاحِ وَاِذَا كَانَتِ اَلْعِلَّةُ مُزْمِنَةً اَوْ عَقِيمًا لَا تَقْبَلُ اَلْعِلَاجَ فَحَذَاقَةُ اَلطَّبِيبِ فِيهِ اَنْ يَقُولَ: هٰذَا لَا يَقْبَلُ اَلْعِلَاجَ فَلَا يَشْتَغِلُ بِدَوَائِهِ وَمُعَالَجَتِهِ لِاَنَّ فِيهِ تَضْيِيعَ اَلْعُمْرِ

اِعْلَمْ اَنَّ مَرَضَ اَلْجَهْلِ عَلَى اَرْبَعَةِ اَنْوَاعٍ. اَحَدُهُمْ يَقْبَلُ اَلْمُعَالَجَةَ وَاَلْبَاقِي لَا يَقْبَلُ اَلْعِلَاجَ. وَاَمَّا اَلْمَرَضُ اَلَّذِي يَقْبَلُ اَلْعِلَاجَ

فهو ان يكون مسترشداً عالماً عاقلاً فهماً لا يكون مغلوب الحسد والغضب ومحب الجاه والمال والشهوة ويكون طالب الطريق المستقيم ولم يكن سؤاله واعتراضه عن حسد وتعنت وامتحان وبحث. وهذا يقبل العلاج فيجوز ان تشتغل بجواب سؤاله بل يجب عليك اجابته . اما الذي لا يقبل العلاج احدهم من كان سؤاله واعتراضه عن حسده وبغضه والحسد لا يقبل العلاج لانه من العلة المزمنة فكلما تجيبه باحسن الجواب وافصحه واوضحه لا يزيد له ذلك الا غيظاً وحسداً فالطريق ان لا تشتغل بجوابه :

كل العداوة قد ترجى ازالتها الا عداوة من عاداك عن حسد

فينبغي لك ان تعرض عنه وتتركه مع مرضه قال : فاعرض عن من تولى عن ذكرنا ولم يرد الا الحياة والدنيا واتبع هواه فتردى والحسود بكل ما يقول ويفعل يوقد النار في زرع عمله كما جاء في الحديث : الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب. والثاني ان يكون علة من الحماقة وهو ايضاً كالحسود لا يقبل العلاج كما قال عيسى عليه السلام : (١) اني ما عجزت عن احياء الموتى وقد عجزت عن معالجة الاحمق وذلك رجل يشتغل لطلب العلم زماناً قليلاً ويتعلم شيئاً من العلم العقلي والشرعي فيسأل ويعترض من حماقته لا يعلم ولا يفهم على العالم الكبير

---

(١) لم يرو هذا الكلام للسيد المسيح لذكره السجود لا في الانجيل ولا في التقليد . ولا نعلم عمن رواه الغزالي

فِي ٱلْعُلُومِ ٱلْعَقْلِيِّ وَٱلشَّرْعِيِّ . وَهٰذَا ٱلْأَحْمَقُ لَا يَعْلَمُ وَيَظُنُّ أَنَّ مَا أَشْكَلَ عَلَيْهِ هُوَ أَيْضًا مُشْكِلٌ لِلْعَالِمِ ٱلْكَبِيرِ فَإِذَا لَمْ يَتَفَكَّرْ هٰذَا ٱلْقَدْرَ يَكُونُ سُؤَالُهُ وَٱعْتِرَاضُهُ مِنَ ٱلْحَمَاقَةِ فَيَنْبَغِي أَنْ لَا يُشْتَغَلَ بِجَوَابِهِ . وَٱلثَّالِثُ أَنْ يَكُونَ مُسْتَرْشِدًا وَيَحْمِلَ كُلَّ مَا لَا يَفْهَمُ مِنْ كَلَامِ ٱلْأَكَابِرِ عَلَى قُصُورِ فَهْمِهِ وَيَكُونَ سُؤَالُهُ لِلِٱسْتِفَادَةِ لٰكِنْ يَكُونُ بَلِيدًا لَا يُدْرِكُ ٱلْحَقَائِقَ فَلَا يَنْبَغِي ٱلِٱشْتِغَالُ بِجَوَابِهِ أَيْضًا . وَفِي ٱلْحَدِيثِ : نَحْنُ مَعَاشِرَ ٱلْحُكَمَاءِ أُمِرْنَا أَنْ نُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ عَلَى قَدْرِ عُقُولِهِمْ

وَعَنْ بَعْضِ ٱلْعُلَمَاءِ : إِيَّاكَ أَنْ تَشْتَغِلَ بِهٰذَا ٱلْجَدَلِ ٱلَّذِي ظَهَرَ بَعْدَ ٱنْقِرَاضِ ٱلْأَكَابِرِ مِنَ ٱلْعُلَمَاءِ فَإِنَّهُ يُبْعِدُ عَنِ ٱلْفِقْهِ وَيُضِيعُ ٱلْعُمْرَ وَيُورِثُ ٱلْوَحْشَةَ وَٱلْعَدَاوَةَ وَهُوَ مِنْ أَشْرَاطِ ٱلسَّاعَةِ كَذَا وَرَدَ فِي ٱلْحَدِيثِ وَلِلّٰهِ دَرُّ ٱلْقَائِلِ :

أَرَى فُقَهَاءَ هٰذَا ٱلْعَصْرِ طُرًّا ... أَضَاعُوا ٱلْعِلْمَ وَٱشْتَغَلُوا بِلَمْ لِمْ

إِذَا نَاظَرْتَهُمْ لَمْ تَلْقَ مِنْهُمْ ... سِوَى حَرْفَيْنِ لِمْ لِمْ لَا نُسَلِّمْ

وَٱلْإِنْصَافُ أَنَّ ٱلْجَدَلَ لِإِظْهَارِ ٱلصَّوَابِ لَا بَأْسَ بِهِ وَرُبَّمَا يُنْتَفَعُ بِهِ فِي تَشْحِيذِ ٱلْأَذْهَانِ . وَٱلْمَمْنُوعُ ٱلْجَدَلُ ٱلَّذِي يُضِيعُ ٱلْأَوْقَاتَ وَلَا يَحْصُلُ مِنْهُ طَائِلٌ . قَالَ مُوَفَّقُ ٱلدِّينِ ٱلْبَغْدَادِيُّ : إِيَّاكَ ٱلْغِلْظَةَ فِي ٱلْخِطَابِ . وَٱلْجَفَاءَ فِي ٱلْمُنَاظَرَةِ فَإِنَّ ذٰلِكَ يَذْهَبُ بِبَهْجَةِ ٱلْكَلَامِ وَيُسْقِطُ فَائِدَتَهُ . وَيُعْدِمُ حَلَاوَتَهُ . وَيَجْلِبُ ٱلضَّغَائِنَ . وَيَمْحَقُ ٱلْمَوَدَّاتِ . وَيُصَيِّرُ ٱلْقَائِلَ مُسْتَثْقَلًا . سُكُوتُهُ أَشْهَى إِلَى ٱلسَّامِعِ مِنْ كَلَامِهِ . وَيُثِيرُ ٱلنُّفُوسَ عَلَى مُعَانَدَتِهِ وَيَبْسُطُ ٱلْأَلْسُنَ بِمُخَاشَنَتِهِ وَإِذْهَابِ حُرْمَتِهِ

البحث الثالث

في الجوابات على الخصم

(من كتاب العقد الفريد لابن عبد ربه)

(راجع صفحة ١١٣ من علم الخطابة)

إنَّ ٱلْجَوَابَاتِ هِيَ أَصْعَبُ ٱلْكَلَامِ كُلِّهِ مَرْكَبًا وَأَعَزُّهُ مَطْلَبًا وَأَغْمَضُهُ مَنْصَبًا وَأَضْيَقُهُ مَسْلَكًا لِأَنَّ صَاحِبَهُ يُعْجَلُ مُنَاجَاةَ ٱلْفِكْرَةِ وَٱسْتِعْمَالَ ٱلْقَرِيحَةِ يَرُومُ فِي بَدِيهَتِهِ نَقْضَ مَا أَبْرَمَ ٱلْقَائِلُ فِي رَوِيَّتِهِ فَهُوَ كَمَنْ أُخِذَتْ عَلَيْهِ ٱلْفِجَاجُ وَسُدَّتْ لَهُ ٱلْمَخَارِجُ قَدِ ٱعْتَرَضَ ٱلْأَسِنَّةَ وَٱسْتَهْدَفَ لِلْمَرَامِي لَا يَدْرِي مَا يُقْرَعُ لَهُ فَيَتَأَهَّبُ لَهُ وَلَا مَا يَفْجَأُهُ مِنْ خَصْمِهِ فَيَقْرَعُهُ بِمِثْلِهِ. وَلَا سِيَّمَا إِذَا كَانَ ٱلْقَائِلُ قَدْ أَخَذَ بِمَجَامِعِ ٱلْكَلَامِ فَقَادَهُ بِزِمَامِهِ بَعْدَ أَنْ رَأَى فِيهِ وَٱحْتَفَلَ وَجَمَعَ خَوَاطِرَهُ وَٱجْتَهَدَ وَتَرَكَ ٱلرَّأْيَ يَغِبُّ حَتَّى يَخْتَمِرَ فَقَدْ كَرِهُوا ٱلرَّأْيَ ٱلْفَطِيرَ كَمَا كَرِهُوا ٱلْجَوَابَ ٱلدَّبَرِيَّ فَلَا يَزَالُ فِي نَسْجِ ٱلْكَلَامِ وَٱسْتِئْنَائِهِ حَتَّى إِذَا ٱطْمَأَنَّ شَارِدُهُ وَسَكَنَ نَافِرُهُ صَكَّ بِهِ خَصْمَهُ جُمْلَةً وَاحِدَةً ثُمَّ قِيلَ لَهُ أَجِبْ وَلَا تُخْطِئْ وَأَسْرِعْ وَلَا تُبْطِئْ. فَتَرَاهُ بِجَوَابٍ مِنْ غَيْرِ أَنَاةٍ وَلَا ٱسْتِعْدَادٍ يُطَبِّقُ ٱلْمَفَاصِلَ وَيَنْفُذُ ٱلْمَقَاتِلَ كَمَا يُرْمَى ٱلْجَنْدَلُ بِٱلْجَنْدَلِ وَيُقْرَعُ ٱلْحَدِيدُ بِٱلْحَدِيدِ فَيَحُلُّ بِهِ عُرَاهُ وَيَنْقُضُ بِهِ مَرَائِرَهُ وَيَكُونُ جَوَابُهُ عَلَى أَكْثَرِ كَلَامِهِ كَسَحَابَةٍ لَبَدَتْ عَجَاجَتَهُ فَلَا شَيْءَ أَعْضَلُ مِنَ ٱلْجَوَابِ ٱلْحَاضِرِ وَلَا أَعَزُّ مِنَ ٱلْخَصْمِ ٱلْأَلَدِّ ٱلَّذِي يَقْرَعُ

صَاحِبَهُ وَيَصْرَعُ مُنَازِعَهُ يَقُولُ كَمِثْلِ ٱلنَّارِ فِي ٱلْحَطَبِ ٱلْجَزْلِ

البحث الرابع

في المغالطة

(من كتاب كشف اصطلاحات العلوم للتهانوي وكتاب شرح المطالع)

(راجع صفحة ١١٧ من الجزء الثاني من علم الادب)

اَلْمُغَالَطَةُ هِيَ قِيَاسٌ فَاسِدٌ إِمَّا مِنْ جِهَةِ ٱلصُّورَةِ اَوْ مِنْ جِهَةِ ٱلْمَادَّةِ اَوْ مِنْ جِهَتِهِمَا مَعًا وَٱلْآتِي بِهَا غَالِطٌ فِي نَفْسِهِ مُغَالِطٌ لِغَيْرِهِ. وَلَوْلَا ٱلْقُصُورُ وَهُوَ عَدَمُ ٱلتَّمْيِيزِ بَيْنَ مَا هُوَ هُوَ وَبَيْنَ مَا هُوَ غَيْرُهُ لَمَا تَمَّ لِلْمُغَالِطِ صِنَاعَةٌ فَهِيَ صِنَاعَةٌ كَاذِبَةٌ تَنْفَعُ بِٱلْعَرَضِ إِذِ ٱلْغَرَضُ مِنْ مَعْرِفَتِهَا ٱلِاحْتِرَازُ عَنِ ٱلْخَطَإِ وَرُبَّمَا يُمْتَحَنُ بِهَا مَنْ يُرَادُ ٱمْتِحَانُهُ فِي ٱلْعِلْمِ لِيُعْلَمَ بِهِ بِعَدَمِ ذَهَابِ ٱلْغَلَطِ عَلَيْهِ كَمَالُهُ وَبِذَهَابِهِ عَلَيْهِ قُصُورُهُ وَبِهٰذَا ٱلِاعْتِبَارِ تُسَمَّى قِيَاسًا ٱمْتِحَانِيًّا. وَقَدْ تُسْتَعْمَلُ فِي تَبْكِيتِ مَنْ يُوهِمُ ٱلْعَوَامَّ اَنَّهُ عَالِمٌ لِيَظْهَرَ لَهُمْ عَجْزُهُ عَنِ ٱلْفَرْقِ بَيْنَ ٱلصَّوَابِ وَٱلْخَطَإِ فَيَصُدُّونَ عَنِ ٱلِاقْتِدَاءِ بِهِ وَبِهٰذَا ٱلِاعْتِبَارِ تُسَمَّى قِيَاسًا عِنَادِيًّا. قَالَ شَارِحُ إِشْرَاقِ ٱلْحِكْمَةِ: مَوَادُّ ٱلْمُغَالَطَةِ ٱلْمُشْبِهَاتُ لَفْظًا اَوْ مَعْنًى وَلِهٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ اَجْزَاءٌ ذَاتِيَّةٌ صِنَاعِيَّةٌ وَخَارِجِيَّةٌ. وَٱلْاَوَّلُ مَا يَتَعَلَّقُ بِٱلتَّبْكِيتِ ٱلْمُغَالِطِيِّ.

وَعَلَى هٰذَا فَنَقُولُ: إِنَّ اَسْبَابَ ٱلْغَلَطِ عَلَى كَثْرَتِهَا تَرْجِعُ إِلَى

أمرٍ واحدٍ وهو عدمُ التمييزِ بينَ الشيءِ وأشباهِهِ ثمَّ إنَّها تنقسمُ إلى ما يتعلّقُ بالألفاظِ وإلى ما يتعلّقُ بالمعاني. (والأوّلُ) ينقسمُ إلى ما يتعلّقُ بالألفاظ لا مِنْ حيثُ تركُّبِها وإلى ما يتعلّقُ بها مِنْ حيثُ تركُّبِها. والأوّلُ) لا يخلو إمّا أنْ يتعلّقَ بالألفاظِ أنفسِها وهو أنْ تكونَ مختلفةَ الدلالةِ فيقعَ الاشتباهُ بينَ ما هو المرادُ وبينَ غيرِهِ. ويدخلُ فيهِ الاشتراكُ والتشابُهُ والمجازُ والاستعارةُ وما يجري مجراها ويُسمّى جميعًا بالاشتراكِ اللفظيِّ. وإمّا أنْ يتعلّقَ بأحوالِ الألفاظِ وهي إمّا أحوالٌ ذاتيّةٌ داخلةٌ في صِيَغِ الألفاظِ قبلَ تحصُّلِها كالاشتباهِ في اللفظِ المختارِ بسببِ التصريفِ إذا كانَ بمعنى الفاعلِ أو المفعولِ. وإمّا أحوالٌ عارضةٌ لها بعدَ تحصُّلِها كالاشتباهِ بسببِ الإعجامِ والإعرابِ. (والمتعلّقةُ بالتركيبِ) تنقسمُ إلى ما يتعلّقُ الاشتباهُ فيهِ بنفسِ التركيبِ كما يقالُ: كلُّ ما يتصوّرُهُ العاقلُ فهو كما يتصوّرُهُ. فإنَّ لفظَ (هو) يعودُ تارةً إلى المعقولِ وتارةً أخرى الى العاقلِ وإلى ما يتعلّقُ بوجودِهِ وعدمِهِ أي بوجودِ التركيبِ وعدمِهِ. وهذا الآخرُ ينقسمُ إلى ما لا يكونُ التركيبُ فيهِ موجودًا فيظنُّ معدومًا ويُسمّى تفصيلَ المركّبِ. وإلى عكسِهِ ويُسمّى تركيبَ المفصّلِ وأمّا (المتعلّقةُ بالمعاني) فلا بدَّ أنْ تتعلّقَ بالتأليفِ بينَ المعاني إذِ الأفرادُ لا يُتصوَّرُ فيها غلطٌ لو لم يقعْ في تأليفِها بنحوٍ ما ولا يخلو مِنْ أنْ تتعلّقَ بتأليفٍ يقعُ بينَ القضايا أو بتأليفٍ يقعُ في قضيّةٍ واحدةٍ. والواقعةُ بينَ القضايا إمّا قياسيٌّ

اَوْ غَيْرُ قِيَاسِيٍّ . وَٱلْمُتَعَلِّقَةُ بِالتَّأْلِيفِ ٱلْقِيَاسِيِّ اِمَّا اَنْ تَقَعَ فِي ٱلْقِيَاسِ نَفْسِهِ لَا بِقِيَاسِهِ اِلَى نَتِيجَتِهِ اَوْ تَقَعَ فِيهِ بِقِيَاسِهِ اِلَى نَتِيجَتِهِ . وَٱلْوَاقِعَةُ فِي نَفْسِ ٱلْقِيَاسِ اِمَّا اَنْ تَتَعَلَّقَ بِمَادَّتِهِ اَوْ بِصُورَتِهِ . اَمَّا (ٱلْمَادِّيَّةُ) فَكَمَا تَكُونُ مَثَلًا بِحَيْثُ اِذَا رُتِّبَتِ ٱلْمَعَانِي فِيهَا عَلَى وَجْهٍ يَكُونُ صَادِقًا لَمْ تَكُنْ قِيَاسًا وَاِذَا رُتِّبَتْ عَلَى وَجْهٍ يَكُونُ قِيَاسًا لَمْ يَكُنْ صَادِقًا كَقَوْلِنَا : كُلُّ اِنْسَانٍ نَاطِقٌ مِنْ حَيْثُ هُوَ نَاطِقٌ وَلَا شَيْءَ مِنَ ٱلنَّاطِقِ مِنْ حَيْثُ هُوَ نَاطِقٌ بِحَيَوَانٍ اِذْ مَعَ اِثْبَاتِ قَيْدِ (مِنْ حَيْثُ هُوَ نَاطِقٌ) فِيهِمَا تَكْذِبُ ٱلصُّغْرَى وَمَعَ حَذْفِهِ عَنْهُمَا تَكْذِبُ ٱلْكُبْرَى . وَاِنْ حُذِفَ مِنَ ٱلصُّغْرَى وَاُثْبِتَ فِي ٱلْكُبْرَى تَنْقَلِبُ صُورَةُ ٱلْقِيَاسِ لِعَدَمِ ٱشْتِرَاكِ ٱلْاَوْسَطِ . وَاَمَّا (ٱلصُّورِيَّةُ) فَكَمَا تَكُونُ مِنْهُ عَلَى ضَرْبٍ غَيْرِ مُنْتِجٍ تَكُونُ اَيْضًا عَلَى ضَرْبٍ مُنْتِجٍ وَهٰذَا يُسَمَّى سُوءَ ٱلتَّأْلِيفِ بِٱعْتِبَارِ ٱلْبُرْهَانِ وَسُوءَ ٱلتَّرْكِيبِ بِٱعْتِبَارِ غَيْرِهِ . وَاَمَّا (ٱلْوَاقِعَةُ فِي ٱلْقِيَاسِ بِٱلْقِيَاسِ اِلَى ٱلنَّتِيجَةِ) فَتَنْقَسِمُ اِلَى مَا لَا يَكُونُ ٱلنَّتِيجَةُ مُغَايِرَةً لِاَحَدِ اَجْزَاءِ ٱلْقِيَاسِ فَلَا يَحْصُلُ بِٱلْقِيَاسِ عِلْمٌ زَائِدٌ عَلَى مَا فِي ٱلْمُقَدَّمَاتِ وَتُسَمَّى مُصَادَرَةً عَلَى ٱلْمَطْلُوبِ . وَاِلَى مَا تَكُونُ مُغَايِرَةً لٰكِنَّهَا لَا تَكُونُ مَا هِيَ ٱلْمَطْلُوبُ مِنْ ذٰلِكَ ٱلْقِيَاسِ وَيُسَمَّى وَضْعَ مَا لَيْسَ بِعِلَّةٍ عِلَّةً كَقَوْلِنَا : ٱلْاِنْسَانُ وَحْدَهُ ضَحَّاكٌ وَكُلُّ ضَحَّاكٍ حَيَوَانٌ . وَاَمَّا (ٱلْوَاقِعَةُ فِي قَضَايَا لَيْسَتْ بِقِيَاسٍ) فَتُسَمَّى جَمْعَ ٱلْمَسَائِلِ فِي مَسْئَلَةٍ كَمَا يُقَالُ : زَيْدٌ وَحْدَهُ كَاتِبٌ . فَاِنَّهُ قَضِيَّتَانِ لِاِفَادَتِهِ اَنَّهُ لَيْسَ غَيْرُهُ كَاتِبًا . وَاَمَّا (ٱلْمُتَعَلِّقَةُ

بالقضية الواحدة) فإما ان تقع فيما يتعلق بجزئي القضية جميعا وذلك يكون بوقوع احدهما مكان الآخر ويسمى إيهام العكس. ومنه الحكم على الجنس بحكم نوع منه مندرج تحته نحو: هذا لون واللون سواد فهذا سواد. ومنه الحكم على المطلق بحكم المقيد بحال او وقت نحو: هذه رقبة والرقبة مؤمنة. واما ان تقع فيما يتعلق بجزء واحد منها. وتنقسم الى ما يورد فيه بدل الجزء غيره مما يشبهه كعوارضه او معروضاته منه ويسمى اخذ ما بالعرض مكان ما بالذات كمن رأى الانسان انه يلزم له التوهم والتكليف فظن ان كل متوهم مكلف. والى ما يورد فيه الجزء نفسه ولكن لا على الوجه الذي ينبغي كما يؤخذ معه ما ليس فيه نحو: زيد الكاتب انسان. او لا يؤخذ معه ما هو من الشروط او القيود كمن يأخذ غير الموجود كاتبا غير موجود مطلقا ويسمى سوء اعتبار الحمل. فقد حصل من الجميع ثلاثة عشر نوعا ستة منها لفظية يتعلق ثلاثة منها بالبسائط هي الاشتراك في جوهر اللفظ وفي احواله الذاتية وفي احواله العرضية وثلاثة منها بالتركيب وهي التي في نفس التركيب وتفصيل المركب وتركيب المفصل. وسبعة معنوية. اربعة منها باعتبار القضايا المركبة وهي سوء التأليف والمصادرة على المطلوب ووضع ما ليس بعلة علة وجمع المسائل في مسئلة واحدة. وثلاثة باعتبار القضية الواحدة وهي ايهام العكس واخذ ما بالعرض مكان ما بالذات وسوء اعتبار الحمل. فهذه هي الاجزاء

ٱلذَّاتِيَّةُ ٱلصِّنَاعِيَّةُ لِصِنَاعَةِ ٱلْمُغَالَطَةِ. وَأَمَّا ٱلْخَارِجِيَّاتُ فَمَا يَقْتَضِي ٱلْمُغَالَطَةَ بِٱلْعَرَضِ كَٱلتَّشْنِيعِ عَلَى ٱلْمُخَاطَبِ وَسَوْقِ كَلَامِهِ إِلَى ٱلْكَذِبِ بِزِيَادَةٍ أَوْ تَأْوِيلٍ وَإِيرَادِ مَا يُحَيِّرُهُ أَوْ يُجْبِنُهُ مِنْ إِغْلَاقِ ٱلْعِبَارَةِ أَوِ ٱلْمُبَالَغَةِ فِي أَنَّ ٱلْمَعْنَى دَقِيقٌ أَوْ مَا يَمْنَعُهُ مِنَ ٱلْفَهْمِ كَٱلْخَلْطِ بِٱلْحَشْوِ وَٱلْهَذَيَانِ ٱلتَّكْرَارِ وَغَيْرِ ذٰلِكَ مِمَّا ٱشْتَمَلَ عَلَيْهِ كِتَابُ ٱلشِّفَاءِ وَغَيْرُهُ مِنَ ٱلْمُطَوَّلَاتِ

البحث الخامس

في مقاطيع الكلام

(من كتاب الصناعتين لابن هلال العسكري)

(راجع الصفحة ١٢٥ من علم الخطابة)

قَالَ ٱلْمَأْمُونُ لِبَعْضِهِمْ: مَنْ أَبْلَغُ ٱلنَّاسِ قَالَ مَنْ قَرَّبَ ٱلْأَمْرَ ٱلْبَعِيدَ وَٱلْمُتَنَاوَلَ ٱلصَّعْبَ ٱلدَّرَكِ بِٱلْأَلْفَاظِ ٱلْيَسِيرَةِ. قَالَ: مَا عَدَلَ سَهْمُكَ عَنِ ٱلْغَرَضِ وَلٰكِنَّ ٱلْبَلِيغَ مَنْ كَانَ كَلَامُهُ فِي مِقْدَارِ حَاجَتِهِ لَا يُجِيلُ ٱلْفِكْرَةَ فِي ٱخْتِلَاسِ مَا صَعُبَ مِنَ ٱلْأَلْفَاظِ وَلَا يُكْرِهُ ٱلْمَعَانِيَ عَلَى إِنْزَالِهَا فِي غَيْرِ مَنَازِلِهَا وَلَا يَتَعَمَّدُ ٱلْغَرِيبَ ٱلْوَحْشِيَّ وَلَا ٱلسَّاقِطَ ٱلسُّوقِيَّ فَإِنَّ ٱلْبَلَاغَةَ إِذَا ٱعْتَزَلَتْهَا ٱلْمَعْرِفَةُ بِمَوَاضِعِ ٱلْفَصْلِ وَٱلْوَصْلِ كَانَتْ كَٱللَّآلِئِ بِلَا نِظَامٍ. وَقَالَ أَبُو ٱلْعَبَّاسِ ٱلسَّفَّاحُ لِكَاتِبِهِ: قِفْ عِنْدَ مَقَاطِيعِ ٱلْكَلَامِ وَحُدُودِهِ وَإِيَّاكَ أَنْ تَخْلِطَ ٱلْمَرْعِيَّ بِٱلْمُهْمَلِ. وَمِنْ حِلْيَةِ ٱلْبَلَاغَةِ ٱلْمَعْرِفَةُ

بِمَوَاضِعِ ٱلْفَصْلِ وَٱلْوَصْلِ. وَقَالَ ٱلْأَحْنَفُ بْنُ قَيْسٍ مَا رَأَيْتُ رَجُلًا تَكَلَّمَ فَأَحْسَنَ ٱلْوُقُوفَ عِنْدَ مَقَاطِعِ ٱلْكَلَامِ وَلَا عَرَفَ حُدُودَهُ إِلَّا عَمْرُو بْنُ ٱلْعَاصِ كَانَ إِذَا تَكَلَّمَ تَفَقَّدَ مَقَاطِعَ ٱلْكَلَامِ وَأَعْطَى حَقَّ ٱلْمَقَامِ وَغَاصَ فِي ٱسْتِخْرَاجِ ٱلْمَعَانِي بِأَلْطَفِ مَخْرَجٍ حَتَّى كَانَ يَقِفُ عِنْدَ ٱلْمَقَاطِعِ وُقُوفًا يَحُولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَا يَبْتَغِيهِ مِنَ ٱلْأَلْفَاظِ وَكَانَ كَثِيرًا مَا يُنْشِدُ:

إِذَا مَا بَدَا بَيْنَ ٱلْمَنَابِرِ قَائِلًا   أَصَابَ بِمَا يُوحَى إِلَيْهِ ٱلْمَفَاصِلَا

وَلَا أَعْرِفُ فَصْلًا فِي كَلَامٍ مَنْثُورٍ أَحْسَنَ مِمَّا أُخْبِرَ عَنْ شَبِيبِ ٱبْنِ شَبَّةَ فَإِنَّهُ إِذْ كَانَ يَوْمًا قَاعِدًا بِبَابِ ٱلْمَهْدِيِّ أَقْبَلَ عَبْدُ ٱلصَّمَدِ بْنُ ٱلْفَضْلِ ٱلرَّقَاشِيُّ فَلَمَّا رَآهُ شَبِيبٌ قَالَ: أَتَاكُمْ وَٱللهِ كَلِيمُ ٱلنَّاسِ. فَلَمَّا جَلَسَ قَالَ لَهُ شَبِيبٌ: تَكَلَّمْ يَا أَبَا ٱلْعَبَّاسِ. فَقَالَ: أَمَعَكَ يَا أَبَا مَعْمَرٍ وَأَنْتَ خَطِيبُنَا وَسَيِّدُنَا. قَالَ: نَعَمْ فَوَٱللهِ مَا رَأَيْتُ قَلْبًا أَقْرَبَ مِنْ لِسَانٍ مِنْ قَلْبِكَ مِنْ لِسَانِكَ. فَقَالَ أَيَّ شَيْءٍ تُحِبُّ أَنْ أَتَكَلَّمَ. (قَالَ) وَإِذَا شَيْخٌ مَعَهُ عَصًا يَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا فَقَالَ شَبِيبٌ: صِفْ هٰذِهِ ٱلْعَصَا. فَحَمِدَ ٱللهَ عَزَّ وَجَلَّ وَأَثْنَى عَلَيْهِ ثُمَّ ذَكَرَ ٱلسَّمَاءَ فَقَالَ: رَفَعَهَا ٱللهُ بِغَيْرِ عَمَدٍ وَجَعَلَ فِيهَا نُجُومَ رَجْمٍ وَنُجُومَ ٱهْتِدَاءٍ وَأَدَارَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا لِتَعْلَمُوا عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ وَأَنْزَلَ مِنْهَا مَاءً مُبَارَكًا أَحْيَا بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلضَّرْعَ وَأَدَرَّ بِهِ ٱلْأَقْوَاتَ وَحَفِظَ بِهِ ٱلْأَرْوَاحَ وَأَنْبَتَ بِهِ أَنْوَاعًا مُخْتَلِفَةً يُصَرِّفُهَا مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ تَكُونُ حَبَّةً ثُمَّ يَجْعَلُهَا عِرْقًا ثُمَّ يُقِيمُهَا عَلَى سَاقٍ. فَبَيْنَا تَرَاهَا خَضْرَاءَ تَرِفَّةً إِذْ

صَارَتْ يَابِسَةً تَتَقَصَّفُ بِهَا ٱلْعِبَادُ وَيُعْمَرُ بِهَا ٱلْبِلَادُ وَجَعَلَ مِنْ نَسْلِهَا هٰذِهِ ٱلْعَصَا. (ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى ٱلشَّيْخِ فَقَالَ): فَكَانَ هٰذَا أَوْجَدَهُ ٱللهُ بَعْدَ عَدَمٍ وَأَنْشَأَهُ أَمْرَدَ وَشَابًّا وَبَعْدَهُ مُكْتَهِلًا ثُمَّ شَيْخًا حَتَّى صَارَ إِلَى هٰذِهِ ٱلْحَالِ مِنَ ٱلْكِبَرِ فَٱحْتَاجَ فِي آخِرِ حَالَاتِهِ إِلَى هٰذِهِ ٱلْعَصَا فَتَبَارَكَ ٱللهُ ٱلْمُدَبِّرُ لِلْعِبَادِ. قَالَ شَبِيبُ بْنُ شَبَّةَ: فَمَا سَمِعْتُ كَلَامًا عَلَى بَدِيهٍ أَحْسَنَ مِنْهُ. وَلَمَّا أَقَامَ أَبُو جَعْفَرٍ صَالِحًا خَطِيبًا بِحَضْرَةِ شَبِيبِ بْنِ شَبَّةَ وَأَشْرَافِ قُرَيْش فَتَكَلَّمَ أَقْبَلَ شَبِيبٌ فَقَالَ: يَا أَمِيرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَا رَأَيْتُ كَٱلْيَوْمِ أَبْيَنَ بَيَانًا وَلَا أَرْبَطَ جَنَانًا وَلَا أَفْصَحَ لِسَانًا وَلَا أَبَلَّ رِيقًا وَلَا أَغْمَضَ عُرُوقًا وَلَا أَحْسَنَ طَرِيقًا إِلَّا أَنَّ ٱلْجَوَادَ عَسِيرٌ لَمْ يُرَضْ فَحَمَلَتْهُ ٱلْقُوَّةُ عَلَى تَعَسُّفِ ٱلْآكَامِ وَخَبْطِهَا وَتَرْكِ ٱلطَّرِيقِ ٱلْأَحَبِّ وَٱيْمُ ٱللهِ إِنْ لَوْ عَرَفَ فِي خُطْبَتِهِ مَقَاطِعَ ٱلْكَلَامِ لَكَانَ أَفْصَحَ مَنْ نَطَقَ بِلِسَانٍ. وَقَالَ ٱلْمَأْمُونُ: مَا أُعْجِبُ بِكِتَابِ أَحَدٍ كَإِعْجَابِي بِكِتَابِ ٱلْقَسَمِ بْنِ عِيسَى فَإِنَّهُ فِي غُرَّةِ عُمْرِهِ وَيُصِيبُ مَفَاصِلَ ٱلْكَلَامِ وَلَا تَدْعُوهُ ٱلْمَقْدُرَةُ إِلَى ٱلْإِطْنَابِ وَلَا تَمِيلُ بِهِ ٱلْغَزَارَةُ إِلَى ٱلْإِسْهَابِ يُجْلِي عَنْ مُرَادِهِ فِي كُتُبِهِ وَيُصِيبُ ٱلْمَغْزَى فِي أَلْفَاظِهِ. وَكَانَ يَزِيدُ بْنُ مُعَاوِيَةَ يَقُولُ: إِيَّاكُمْ أَنْ تَجْعَلُوا ٱلْفَصْلَ وَصْلًا فَإِنَّهُ أَشَدُّ وَأَعْجَبُ وَأَعْيَبُ مِنَ ٱللَّحْنِ. وَلْيَكُنِ ٱلتَّفَقُّدُ لِمَقَاطِعِ ٱلْكَلَامِ مِنْكُمْ عَلَى بَالٍ. وَكَانَ أَكْثَمُ بْنُ صَيْفِيٍّ إِذَا كَانَتْ مُلُوكُ ٱلْجَاهِلِيَّةِ تَسْتَكْتِبُهُ قَالَ لِكُتَّابِهِ: أَفْصِلُوا بَيْنَ مُنْقَضَى فَصْلٍ وَصِلُوا إِذَا كَانَ ٱلْكَلَامُ مَعْجُونًا بَعْضُهُ بِبَعْضٍ. وَكَانَ

ٱلحَارِثُ بْنُ أَبِي شَمِرٍ ٱلغَسَّانِيُّ يَقُولُ لِكَاتِبِهِ ٱلْمُرَقِّشِ: إِذَا نَزَعَ بِكَ ٱلْكَلَامُ إِلَى ٱبْتِدَاءِ مَعْنًى غَيْرِ مَا أَنتَ فِيهِ فَٱفْصِلْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَا تَتْبَعُهُ مِنَ ٱلْأَلْفَاظِ فَإِنَّكَ إِنْ مَذَقْتَ أَلْفَاظَكَ بِغَيْرِ مَا يَحْسُنُ أَنْ تَمْذُقَ بِهِ نَفَرَتِ ٱلْقُلُوبُ عَنْ وَعْيِهَا وَمَلَّتْهُ ٱلْأَسْمَاعُ وَٱسْتَثْقَلَتْهُ ٱلرُّوَاةُ. وَكَانَ بُزُرْجُمُهْرُ يَقُولُ: إِذَا مَدَحْتَ رَجُلًا وَهَجَوْتَ آخَرَ فَٱجْعَلْ بَيْنَ ٱلْقَوْلَيْنِ فَصْلًا حَتَّى تَعْرِفَ ٱلْمَدْحَ مِنَ ٱلْهِجَاءِ كَمَا تَفْعَلُ فِي كُتُبِكَ إِذَا ٱسْتَأْنَفْتَ ٱلْقَوْلَ وَأَكْمَلْتَ مَا سَلَفَ مِنَ ٱللَّفْظِ. وَقَالَ ٱلْحَسَنُ بْنُ سَهْلٍ لِكَاتِبِهِ ٱلْحَرَّانِيِّ: مَا مَنْزِلَةُ ٱلْكَاتِبِ فِي قَوْلِهِ وَفِعْلِهِ. قَالَ: أَنْ يَكُونَ مَطْبُوعًا مُحْتَنِكًا بِٱلتَّجْرِبَةِ عَالِمًا بِحَلَالِ ٱلْكِتَابِ وَٱلسُّنَّةِ وَحَرَامِهَا بِٱلدُّهُورِ فِي تَدَاوُلِهَا وَتَصَرُّفِهَا وَبِٱلْمُلُوكِ فِي سِيَرِهَا وَأَيَّامِهَا مَعَ بَرَاعَةِ ٱللَّفْظِ وَحُسْنِ ٱلنَّسَقِ وَتَأْلِيفِ ٱلْأَوْصَالِ بِمُشَاكَلَةِ ٱلِٱسْتِعَارَةِ وَبِشَرْحِ ٱلْمَعْنَى حَتَّى يُنْصَبَ صُوَرُهَا. وَبِمَقَاطِعِ ٱلْكَلَامِ وَمَعْرِفَةِ ٱلْفَصْلِ مِنَ ٱلْوَصْلِ وَإِذَا كَانَ ذٰلِكَ كَذٰلِكَ فَهُوَ كَاتِبٌ مُجِيدٌ. وَقَالَ ٱلْمَأْمُونُ: مَا أَتَحَفَّظُ مِنْ رَجُلٍ شَيْئًا كَتَحَفُّظِي عَنِ ٱلْفَصْلِ وَٱلْوَصْلِ فِي كِتَابِهِ وَٱلتَّخَلُّصِ مِنَ ٱلْمَحْلُولِ إِلَى ٱلْمَعْقُودِ وَإِنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ جَمَالًا وَحِلْيَةً ٱلْكِتَابِ وَجَمَالُهُ إِيقَاعُ ٱلْفَصْلِ وَقْعَهُ وَشَحْذُ ٱلْفِكَرِ وَإِجَالَتُهَا فِي لُطْفِ ٱلتَّخَلُّصِ مِنَ ٱلْمَعْقُودِ إِلَى ٱلْمَحْلُولِ. (قُلْنَا): وَمَعْنَى ٱلْمَعْقُودِ وَٱلْمَحْلُولِ هَا هُنَا هُوَ أَنَّكَ إِذَا ٱبْتَدَأْتَ مُخَاطَبَةً ثُمَّ لَمْ تَنْتَهِ إِلَى مَوْضِعِ ٱلتَّخَلُّصِ مِمَّا عَقَدْتَ عَلَيْهِ كَلَامَكَ سُمِّيَ ٱلْكَلَامُ مَعْقُودًا. وَإِذَا شَرَحْتَ ٱلسُّتُورَ وَأَبَنْتَ عَنِ ٱلْغَرَضِ ٱلْمَنْزُوعِ إِلَيْهِ

سُمِّيَ ٱلْكَلَامُ مُحْوِلًا مِثَالُ ذٰلِكَ مَا كَتَبَ بَعْضُهُمْ أُنْظُرْ سَدَّدَ ٱللّٰهُ رَأْيَكَ أَنْ لَا تَدْعُوكَ مَقْدُرَتُكَ عَلَى ٱلْكَلَامِ إِلَى إِطَالَةِ ٱلْمَعْقُودِ فَإِنَّ ذٰلِكَ مِنْسَاءٌ مَا أَكْنَنْتَهُ فِي صَدْرِكَ وَأَوْرَدْتَ تَضْمِينَهُ فِي كِتَابِكَ. وَٱعْلَمْ أَنَّ إِطَالَةَ ٱلْمَعْقُودِ تُورِثُ نِسْيَانَ مَا عَقَدْتَ عَلَيْهِ كَلَامَكَ وَٱرْتَهَنْتَ بِهِ فِكْرَتَكَ. وَكَانَ شَبِيبُ بْنُ شُبَّةَ يَقُولُ لَمْ أَرَ مُتَكَلِّمًا قَطُّ أَذْكَرَ لِمَا عَقَدَ عَلَيْهِ كَلَامَهُ وَلَا أَحْفَظَ لِمَا سَلَفَ مِنْ نُطْقِهِ مِنْ خَالِدِ بْنِ صَفْوَانَ يُشَيِّعُ ٱلْمَعْقُودَ بِٱلْمَعَانِي يَصْعُبُ ٱلْخُرُوجُ مِنْهَا إِلَى غَيْرِهَا ثُمَّ يَأْتِي بِٱلْمَحْلُولِ وَاضِحًا بَيِّنًا وَمَشْرُوحًا مُنَوَّرًا وَكَانَ ٱلسَّامِعُ لَا يَعْرِفُ مَغْزَاهُ وَمَقْصَدَهُ فِي أَوَّلِ كَلَامِهِ حَتَّى يَصِيرَ إِلَى آخِرِهِ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَبِئْسَ عَمَلٌ مِنَ ٱلْقَائِلِ أَنْ يَكْتُمَ مَغْزَاهُ عَنِ ٱلسَّامِعِ لِكَلَامِهِ فِي أَوَّلِ ٱبْتِدَائِهِ حَتَّى يَنْتَهِيَ إِلَى آخِرِهِ بَلِ ٱلْأَحْسَنُ أَنْ يَكُونَ فِي صَدْرِ كَلَامِهِ دَلِيلٌ عَلَى حَاجَتِهِ وَمُبَيِّنٌ لِمَغْزَاهُ وَمَقْصَدِهِ كَمَا أَنَّ أَخْيَرَ أَبْيَاتِ ٱلشِّعْرِ مَا إِذَا سَمِعْتَ صَدْرَهُ عَرَفْتَ قَافِيَتَهُ. وَكَانَ شَبِيبُ بْنُ شُبَّةَ يَقُولُ: اَلنَّاسُ مُوكَلُونَ بِتَعْظِيمِ جُودَةِ ٱلْاِبْتِدَاءِ وَبِمَدْحِ صَاحِبِهِ وَأَنَا مُوكَّلٌ بِتَعْظِيمِ جُودَةِ ٱلْمَقْطَعِ وَبِمَدْحِ صَاحِبِهِ وَخَيْرُ ٱلْكَلَامِ مَا وُقِفَ عِنْدَ مَقَاطِعِهِ وَبُيِّنَ مَوْقِعُ فُصُولِهِ



الفصل الثامن

في التعبير

البحث الاول

في خواصّ تعبير الخطيب

(من كتاب العقد الفريد لابن عبد ربه)

(راجع الصفحة ١٣٢ من علم الخطابة)

مَرَّ بشرُ بنُ ٱلمُعتمِرِ بإبراهيمَ بنِ جبلةَ بن مخرُومةَ ٱلسَّكونيِّ ٱلخطيبِ وَهوَ يُعلِّمُ فتيانَهم ٱلخطابةَ فوقفَ بِشرٌ يستمعُ فظنَّ إبراهيمُ أنَّهُ إنَّما وقفَ ليستفيدَ او يكونَ رجلًا مِنَ ٱلنَّظَّارةِ فقالَ بِشرٌ: اِضربُوا عمَّا قالَ صفحًا وٱطوُوا عنهُ كشحًا. ثُمَّ دفعَ إليهم صحيفةً مِنْ تنميقِهِ وتحبيرِهِ فيها: خُذْ مِنْ نفسِكَ ساعةَ نشاطِكَ وفراغِ بالِكَ وإجابتِها إيَّاكَ فإنَّ نفسكَ تلكَ ٱلسَّاعةَ أكرمُ جوهرًا وأشرفُ حسبًا وأحسنُ في ٱلاستماعِ وأحلى في ٱلصُّدورِ وأسلمُ مِنْ فاحشِ ٱلخطإِ وأجلبُ لِكلِّ عينٍ مِنْ لفظٍ شريفٍ ومعنًى بديعٍ. وٱعلمْ أنَّ ذلكَ أجدى عليكَ مِمَّا يُعطيكَ يومُكَ ٱلأطولُ بٱلكدِّ وٱلمطاولةِ وٱلمجاهدةِ بٱلتَّكليفِ وٱلمعاودةِ. ومهما أخطاكَ

لم يُخطِئك ان يكونَ مقبولًا قصدًا وخفيفًا على اللسانِ سهلًا وكما خرجَ من ينبوعهِ ونجم من معدنِهِ. وإيّاكَ والتوعُّر فانَّ التوعُّر يُسلِمُكَ الى التعقيدِ والتعقيدُ هو الذي يستهلكُ معانيكَ ويشينُ الفاظكَ ومن اذاعَ معنًى كريمًا فليلتمسْ لهُ لفظًا كريمًا فانَّ حقَّ المعنى الشريفِ اللفظُ الشريفُ ومن حقّها ان تصونها عمَّا يُفسدُها ويُهجِّنُها وعمّا تعودُ من اجلهِ الى ان تكونَ اسوأَ حالًا منكَ قبلَ ان تلتمسَ اظهارَها وترهنَ نفسكَ بملابستِها وقضاءِ حقِّها. فكُنْ في ثلاثةِ منازلَ فاولُ ذلكَ ان يكونَ لفظُكَ رشيقًا عذبًا او فخمًا سهلًا ويكونَ معناكَ ظاهرًا مكشوفًا وقريبًا معروفًا امَّا عندَ الخاصّةِ ان كُنتَ للخاصّةِ قصدتَ وامَّا عندَ العامّةِ ان كُنتَ للعامّةِ اردتَ. والمعنى ليسَ يتّضعُ ان يكونَ من معاني العامّةِ. وانَّما مدارُ الامرِ على الشرفِ معَ الصوابِ واحرازِ المنفعةِ معَ موافقةِ الحالِ وما يجبُ لكلِّ مقامٍ من المقالِ. وكذلكَ اللفظُ العاميُّ والخاصيُّ فانْ امكنكَ ان تبلغَ من بيانِ لسانكَ وبلاغةِ لفظِكَ ولطفِ مداخلكَ وقدرِكَ في نفسِكَ على ان تُفهمَ العامّةَ معانيَ الخاصّةِ وتكسوها الالفاظَ المتوسطةَ التي لا تلطفُ عن الدهاءِ ولا تجفو عن الاكفاءِ فانتَ البليغُ التامُّ. فقالَ لهُ ابراهيمُ بنُ جبلةَ جُعلتُ فداكَ انا احوجُ الى تعلّمي هذا الكلامَ من هؤلاءِ الغلمةِ

البحث الثاني

في بلاغة كلام العرب وكلام العجم

(من رسالة)

(راجع الصفحة ٢٠٧ من علم الادب)

كُنتُ ذَكَرْتُ لَكَ اسعدَكَ ٱللهُ إكثارَ ٱلنَّاسِ قَدِيمًا وَحَدِيثًا فِي وَصْفِ ٱلبَلَاغَةِ وَتَعْرِيفِهِم ٱلقَوْلَ فِي اقسامِهَا وَانوَاعِهَا وَانَّهَا ٱلفاظٌ يُعَبَّرُ بِهَا عَنِ ٱلمَعَانِي فَمِنهَا مَا يَكُونُ فِي ٱلنَّظْمِ وَمِنهَا مَا يَكُونُ فِي ٱلنَّثْرِ وَيَكُونُ فِي ٱلمُكَاتَبَةِ وَٱلرَّسَائِلِ وَٱلخُطَبِ وَٱلتَّشبِيهَاتِ وَٱلأَوْصَافِ وَفِي ٱلسُّؤَالِ وَٱلجَوَابِ وَغَيرِ ذٰلِكَ. فَأَمَّا بَلَاغَةُ ٱلشِّعْرِ فَعُذُوبَةُ ٱلأَلفَاظِ وَتَقْرِيبُ ٱلمَعَانِي وَٱتِّسَاقُ ٱلنَّظْمِ وَرَشَاقَةُ ٱلمَعْرِضِ كَقَوْلِ ٱلنَّابِغَةِ:

فَإِنَّكَ كَٱللَّيلِ ٱلَّذِي هُوَ مُدرِكِي وَإِنْ خِلتُ أَنَّ ٱلمُنتَأَى عَنكَ وَاسِعُ

وَقَوْلِ ٱمرِئِ ٱلقَيسِ فِي وَصفِ فَرَسِهِ وَٱلتَّشبِيهِ (بِقَيدِ ٱلأَوَابِدِ). وَقَوْلِ ٱلأَعشَى: (فَهُمْ سَاكِنُونَ وَٱلمَنِيَّةُ تَنطِقُ). وَمِنهَا مَا يَكُونُ بِإِصَابَةِ ٱلمَعنَى وَقَرْعِ ٱلحُجَّةِ وَٱلأَصلُ عِندَهُم فِيهَا أَنَّهَا أَلفَاظٌ يُعَبَّرُ بِهَا عَنِ ٱلمَعَانِي فَأَحسَنُهَا مَا يَزِيدُ فِي كَشفِ ٱلمَعنَى مَعَ ٱختِصَارِهِ بِأَقَلِّ مَا يُمكِنُ مِنَ ٱلعِبَارَةِ بِأَعذَبِ ٱلأَلفَاظِ وَأَحَقِّهَا عَلَى ٱلأَسمَاعِ وَأَقرَبِهَا إِلَى ٱلقُلُوبِ ثُمَّ ذَكَرتُ لَكَ أَنَّ ٱلبَلَاغَةَ لَيسَتْ مَقصُورَةً عَلَى أُمَّةٍ دُونَ أُمَّةٍ وَلَا عَلَى مَلِكٍ دُونَ سُوقَةٍ وَلَا عَلَى لِسَانٍ دُونَ

لِسَانٍ بَلْ هِيَ مَقْسُومَةٌ عَلَى اَكْثَرِ ٱلْأَلْسِنَةِ فَهُم فِيهَا مُشْتَرِكُونَ وَهِيَ مَوْجُودَةٌ فِي كَلَامِ ٱلْيُونَانِيَّةِ وَكَلَامِ ٱلْعَجَمِ وَكَلَامِ ٱلْهِنْدِ وَغَيْرِهِمْ وَلٰكِنَّهَا فِي ٱلْعَرَبِ اَكْثَرُ لِكَثْرَةِ تَصَرُّفِهَا فِي ٱلنَّثْرِ وَٱلنَّظْمِ وَٱلْخُطَبِ وَٱلْكُتُبِ وَٱلسَّجْعِ وَٱلْمُزْدَوَجِ وَٱلرَّجَزِ. وَهُمْ اَيضًا مُتَفَاوِتُونَ فِيهَا فَقَدْ يَكُونُ ٱلْعَبْدُ بَلِيغًا وَلَا يَكُونُ سَيِّدُهُ وَتَكُونُ ٱلْأَمَةُ بَلِيغَةً وَلَا تَكُونُ رَبَّتُهَا. فَٱلْبَلَاغَةُ قَدْ تَكُونُ فِي اَعْرَابِ ٱلْبَادِيَةِ دُونَ مُلُوكِهَا وَقَدْ يُحْسِنُهَا ٱلصَّبِيُّ وَٱلْمَرْاَةُ... قَالَ ٱلشَّيْخُ اَبُو اَحْمَدَ: وَمِنْ عَجِيبِ مَا فِيهِ وَبُعْدِ تَنَافِيهِ اَنْ يَأْتِيَ بَدَوِيٌّ اُمِّيٌّ جِلْفٌ جَافٍ فَيَبْتَدِعَ بِفِكْرِهِ وَقَرِيحَتِهِ ٱلْمَعْنَى ٱلْبَدِيعَ وَٱلتَّشْبِيهَ ٱلْمُصِيبَ وَٱلسُّؤَالَ ٱللَّطِيفَ وَٱلْمَدْحَ ٱلشَّرِيفَ وَٱلْغَزَلَ ٱلرَّقِيقَ وَٱلْهِجَاءَ ٱلْمُوجِعَ وَٱلذَّمَّ ٱلْمُقْلِقَ بِنَظْمٍ عَجِيبٍ وَقَوَافٍ مُنْتَظِمَةٍ وَاَوْزَانٍ تَامَّةٍ وَاَقْسَامٍ مُعَدَّلَةٍ وَاَلْفَاظٍ فَصِيحَةٍ عَذْبَةٍ يَشْتَهِي سَامِعُهَا اَنْ يَحْفَظَهَا ثُمَّ يَشْتَهِي اَنْ يُحَاضِرَ اَهْلَ ٱلْمُرُوَّاتِ بِهَا مُتَمَثِّلًا اَوْ شَاكِرًا اَوْ عَاتِبًا اَوْ مُهَنِّئًا اَوْ مُعَزِّيًا فَلَا يَزْدَادُ عَلَى ٱلدَّهْرِ اِلَّا نَضَارَةً وَجِدَّةً وَيَكُونَ مَنْ خَلَا مِنْهَا نَاقِصَ ٱلْأَدَبِ وَٱلْمَعْرِفَةِ كَقَوْلِ ٱمْرِئِ ٱلْقَيْسِ:

كَاَنَّ قُلُوبَ ٱلطَّيْرِ رَطْبًا وَيَابِسًا لَدَى وَكْرِهَا ٱلْعُنَّابُ وَٱلْحَشَفُ ٱلْبَالِي

وَكَقَوْلِ ٱلنَّابِغَةِ: فَاِنَّكَ كَٱللَّيْلِ ٱلَّذِي هُوَ مُدْرِكِي. وَكَقَوْلِ ٱلْحُطَيْئَةِ: لَا يَذْهَبُ ٱلْعُرْفُ بَيْنَ ٱللهِ وَٱلنَّاسِ. ثُمَّ يَجْتَهِدُ ٱلْعَارِفُ ٱلْمُصِيبُ وَٱلْعَالِمُ ٱلْأَدِيبُ وَٱلرَّيِّضُ ٱلْحَاذِقُ اَنْ يُدْرِكَ شَأْوَهُ فَلَا يُشَقُّ غُبَارُهُ. قَالَ: سُئِلَ بَعْضُ ٱلْعُلَمَاءِ عَنْ حَدِّ ٱلْبَلَاغَةِ فَقَالَ:

ٱلتَّقَرُّبُ مِنْ مَعْنَى ٱلْبُغْيَةِ وَٱلتَّبَاعُدُ مِنْ حَشْوِ ٱلْكَلَامِ وَٱلدَّلَالَةُ بِقَلِيلٍ عَلَى كَثِيرٍ . قَالَ ٱلشَّيْخُ : وَاكْثَرُ مَا عَلَيْهِ ٱلنَّاسُ فِي ٱلْبَلَاغَةِ انَّهَا ٱلِاخْتِصَارُ وَتَقْرِيبُ ٱلْمَعَانِي بِٱلْأَلْفَاظِ ٱلْقِصَارِ وَٱلِاقْتِصَارُ عَلَى ٱلْإِشَارَةِ إِلَى مَعَانِيهَا وَٱلدَّلَالَةِ بِٱلْقَلِيلِ عَلَى ٱلْكَثِيرِ . وَقَدْ سُئِلَ بَعْضُهُمْ عَنْ ذٰلِكَ فَقَالَ : لَمْحَةٌ دَالَّةٌ . وَإِلَى هٰذَا ذَهَبَ اكْثَرُهُمْ فِي ٱلْحَذْفِ وَٱلِاخْتِصَارِ وَكَذٰلِكَ جَعَلَ ٱمْرُؤُ ٱلْقَيْسِ إِحْضَارَ فَرَسِهِ وَسُرْعَةَ لَحَاقِهِ لِلصَّيْدِ وَانَّ ٱلْأَوَابِدَ لَا تَطْمَعُ فِي ٱلتَّخَلُّصِ مِنْهُ فَجَمَعَ هٰذَا فِي قَوْلِهِ : (قَيْدُ ٱلْأَوَابِدِ) . وَكَذٰلِكَ قَوْلُ زُهَيْرٍ : (إِنَّ ٱلْجَوَادَ عَلَى عِلَّاتِهِ هَرِمُ) . فَفِي قَوْلِهِ (عَلَى عِلَّاتِهِ) مَا يَنُوبُ عَنْ كُلِّ مَانِعٍ كَذٰلِكَ قَوْلُ ٱلْأَعْشَى : فَهُمْ سَاكِنُونَ وَٱلْمَنِيَّةُ تَنْطِقُ وَهٰذَا يَكْثُرُ وَفِي مَا اوْرَدْنَاهُ بَلَاغٌ . . . . وَلِهٰذَا وَقَّعَ جَعْفَرُ بْنُ يَحْيَى إِلَى كُتَّابِهِ لِيَكُنْ كَلَامُكُمْ فِي كُتُبِكُمْ مِثْلَ ٱلتَّوْقِيعِ يَحُضُّ بِذٰلِكَ عَلَى غَايَةِ ٱلْحَذْفِ وَٱلِاخْتِصَارِ . وَمِنْ هٰذَا انَّ ٱلْمَأْمُونَ امَرَ عَمْرَو بْنَ مَسْعَدَةَ ٱلْكَاتِبَ انْ يَكْتُبَ لِرَجُلٍ لَهُ بِهِ عِنَايَةٌ إِلَى بَعْضِ ٱلْعُمَّالِ بِقَضَاءِ حَقِّهِ وَانْ يَخْتَصِرَ كِتَابَهُ مَا امْكَنَهُ حَتَّى تَكُونَ كِتَابَتُهُ فِي سَطْرٍ وَاحِدٍ بِلَا زِيَادَةٍ فَكَتَبَ عَمْرٌو : كِتَابِي إِلَيْكَ كِتَابُ وَاثِقٍ بِمَنْ كُتِبَ إِلَيْهِ مَعْنِيٍّ بِمَنْ كُتِبَ لَهُ وَلَنْ يَضِيعَ بَيْنَ ٱلثِّقَةِ وَٱلْعِنَايَةِ حَامِلُهُ . وَمِنْ هٰذَا مَا كَتَبَ ٱلْوَلِيدُ بْنُ عَبْدِ ٱلْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ إِلَى ٱلْحَجَّاجِ وَقَدْ تَلَكَّأَ عَنْ بَيْعَتِهِ : امَّا بَعْدُ فَإِنِّي ارَاكَ تُقَدِّمُ رِجْلًا وَتُؤَخِّرُ اخْرَى فَإِذَا اتَاكَ كِتَابِي فَٱعْتَمِدْ عَلَى ايِّهِمَا شِئْتَ وَٱلسَّلَامُ . وَسَاذْكُرُ فِي هٰذَا

ٱلْمَوْضِعِ صَدْرًا مِنَ ٱلْفُصُولِ ٱلْمُخْتَارَةِ مِنْ غَيْرِ ٱللِّسَانِ ٱلْعَرَبِيِّ. ثُمَّ أَذْكُرُ بَعْدَهُ صَدْرًا مِنَ ٱلْفُصُولِ ٱلْعَرَبِيَّةِ مِمَّا يَصْلُحُ لِلْمُذَاكَرَةِ وَيَبْعَثُ عَلَى ٱلنَّشَاطِ فَإِذَا قَرَأَهَا قَارِئٌ دَلَّتْ عَلَى أَنْفُسِهَا فِي ٱلْإِيجَازِ وَٱلْحَذْفِ وَٱلْجَمْعِ لِلْمَعَانِي ٱلْكَثِيرَةِ بِٱلْأَلْفَاظِ ٱلْقَلِيلَةِ. فَمِنْ ذٰلِكَ قَوْلُ سُقْرَاطَ: دَلَّ ٱلْجِسْمُ عَلَى صَانِعِهِ. فَجَمَعَ بِثَلَاثِ لَفَظَاتٍ خِفَافٍ مَعَانِيَ كَثِيرَةً جَلِيلَةَ ٱلْقَدْرِ لِأَنَّ ٱلْجِسْمَ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ لَمْ يَصْنَعْ نَفْسَهُ وَأَنَّ لَهُ صَانِعًا حَكِيمًا كَمَا يَدُلُّ ٱلْبِنَاءُ عَلَى ٱلْبَانِي وَٱلْكِتَابُ عَلَى ٱلْكَاتِبِ. فَٱنْظُرْ كَمْ بَيْنَ هٰذَا وَبَيْنَ مَا يُحْكَى عَنْ بَعْضِ مُلُوكِهِمْ أَنَّهُ سُئِلَ مَا ٱلَّذِي يَدُلُّ عَلَى مَعْرِفَةِ ٱللّٰهِ وَيُثْبِتُ ٱلْعِلْمَ بِٱلْغَيْبِ فَقَالَ: إِنَّ لِكُلِّ ظَاهِرٍ مِنْ صَغِيرٍ أَوْ كَبِيرٍ عِلْمًا فَهُوَ يَعْرِفُهُ وَيَحُوطُهُ فَمَنْ كَانَ مُعْتَبِرًا بِٱلْجَلِيلِ مِنْ ذٰلِكَ فَلْيَنْظُرْ إِلَى ٱلسَّمَاءِ فَيَعْلَمَ أَنَّ لَهَا بَارِئًا يُجْرِي فَلَكَهَا وَيُدَبِّرُ أَمْرَهَا. وَمَنِ ٱعْتَبَرَ بِٱلصَّغِيرِ فَلْيَنْظُرْ إِلَى حَبَّةِ ٱلْخَرْدَلِ فَيَعْلَمَ أَنَّ لَهَا مُدَبِّرًا يُنْشِئُهَا وَيُرَكِّبُهَا وَيُقَدِّرُ لَهَا أَقْوَاتًا مِنَ ٱلْأَرْضِ وَٱلْمَاءِ وَيُوَقِّتُ لَهَا زَمَانًا لِهَشِيمِهَا. وَأَمْرُ ٱلنُّبُوَّةِ وَٱلْآيَاتِ وَمَا يَحْدُثُ فِي أَنْفُسِ ٱلنَّاسِ مِنْ حَيْثُ يَعْلَمُونَ ثُمَّ ٱجْتِمَاعُ ٱلْعُلَمَاءِ وَٱلْجُهَّالِ وَٱلْمُهْتَدِينَ وَٱلضُّلَّالِ عَلَى ذِكْرِ ٱللّٰهِ تَعَالَى وَتَعْظِيمِهِ وَٱجْتِمَاعُ مَنْ شَكَّ فِي ٱللّٰهِ وَكَذَّبَ بِهِ عَلَى أَنَّهُمْ لَمْ يُحْدِثُوا أَنْفُسَهُمْ فَكُلُّ ذٰلِكَ يَهْدِيكَ إِلَى ٱللّٰهِ وَيَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ أَنْشَأَ ٱلْخَلْقَ وَدَبَّرَ هٰذِهِ ٱلْأُمُورَ.

(قَالَ ٱلشَّيْخُ) وَهٰذَا ٱلْكَلَامُ عَلَى طُولِهِ قَدِ ٱنْتَظَمَ أَكْثَرُ مَعَانِيهِ فِي قَوْلِ سُقْرَاطَ: دَلَّ ٱلْجِسْمُ عَلَى صَانِعِهِ. (وَقَالَ ٱلْإِسْكَنْدَرُ) وَعَظَكَ

فِكْرُكَ وَارْشَدَكَ عَقْلُكَ حِينَ حَيَّرَكَ سَمْعُكَ وَغَشَّكَ مُخْبِرُكَ وَانَّ ٱلانسَانَ بِٱخْتِلَافِ ٱلْمَسْمُوعِ يَتَحَيَّرُ وَيَضِلُّ بِغِشِّ ٱلْمُخْبِرِينَ وَيَسُومُهُمْ فِي مَا يُخْبِرُونَ بِهِ فَيُمَيِّزُ لَهُ عَقْلُهُ ٱلصَّوَابَ مِنَ ٱلْخَطَإِ وَيُرْشِدُهُ إِلَى ٱلْحَقَائِقِ وَيُخْرِجُهُ مِنَ ٱلْحَيْرَةِ. وَقَالَ مُطَّلِبُ ٱلْعُرَائِيُّ لِلْإِسْكَنْدَرِ: اَخْلَاقُكَ تَجْعَلُ ٱلْعَدُوَّ صَدِيقًا وَاَحْكَامُكَ تَجْعَلُ ٱلصَّدِيقَ عَدُوًّا وَيَشْهَدُ لَكَ عَدَمُ مِثْلِكَ فِي مَا يَكُونُ. (قَالَ ٱلشَّيْخُ) فَٱنْظُرِ ٱلْآنَ كَمْ مَعْنًى حَسَنٍ تَحْتَ هٰذِهِ ٱلْالْفَاظِ ٱلْقَلِيلَةِ يَعْنِي اَنَّ حُسْنَ خُلُقِهِ يَرُدُّ عَدُوَّهُ إِلَى صَدَاقَتِهِ وَانَّ عَدْلَ حُكْمِهِ لَا يُفَرِّقُ بَيْنَ عَدُوٍّ وَصَدِيقٍ وَانَّ عَدَمَ مِثْلِهِ فِي مَاضِي ٱلدُّهُورِ قَدْ شَهِدَ بِاَنَّ مِثْلَهُ لَا يَكُونُ فِي مُسْتَقْبَلِ ٱلْعُصُورِ. وَهٰذَا كَلَامٌ مَنْقُولٌ إِلَى ٱلْعَرَبِيَّةِ وَلَعَلَّهُ بِلُغَتِهِ كَانَ اَفْصَحَ وَاَحْسَنَ. وَلَمَّا شَاوَرَ اَبُو مُسْلِمٍ بَعْضَ ٱلْفُرْسِ فِي اَمْرِهِ قَالَ لَهُ: قُلْ مَا يُقْبَلُ وَخُذْ مَا يَسْهُلُ وَاعْمَلْ مَا يَجْمُلُ. فَجَمَعَ لَهُ بِهٰذِهِ ٱلْكَلِمَاتِ ٱلثَّلَاثِ اَكْثَرَ مَعَانِي ٱلسِّيَاسَةِ. وَفِي مَا يُرْوَى اَنَّ بَعْضَهُمْ رَاى شَابًّا لَا اَدَبَ لَهُ وَعَلَيْهِ خَاتَمُ ذَهَبٍ فَقَالَ: حِمَارٌ عَلَيْهِ لِجَامُ ذَهَبٍ. وَنَظَرَ إِلَى شَابٍّ اَحْمَقَ قَاعِدًا عَلَى حَجَرٍ. فَقَالَ: هٰذَا حَجَرٌ قَاعِدٌ عَلَى حَجَرٍ. وَقَالَ ارِسْطَاطَالِيسُ: ٱلْحَاجَةُ إِلَى ٱلْعَقْلِ اَقْبَحُ مِنَ ٱلْحَاجَةِ إِلَى ٱلْمَالِ. وَقَالَ: غَيْرُ مُحِبِّ ٱلشَّرَفِ هُوَ ٱلَّذِي يُتْعِبُ نَفْسَهُ بِٱلنَّظَرِ فِي ٱلْعِلْمِ. وَقَالَ سُقْرَاطُ: ٱللَّذَّةُ خِنَاقٌ مِنْ عَسَلٍ. وَرَاى سُقْرَاطُ طَبِيبًا جَاهِلًا فَقَالَ: هٰذَا مُسْتَحِثٌّ. يَعْنِي يُعَجِّلُ بِمَنْ يُعَالِجُ إِلَى ٱلْمَوْتِ. وَقِيلَ لِبَعْضِ تَلَامِذَتِهِ: قَدْ مَاتَ اُسْتَاذُكَ. فَقَالَ: ٱلْوَيْحُ لِي

لَقَدْ ضَاعَ مِسَنَّ عَقْلِي

(قَالَ ٱلشَّيْخُ) وَهٰذَا اَكْثَرُ مِنْ اَنْ يُحْصَى فِي كَلَامِ ٱلْعَجَمِ وَلَاسِيَّمَا فِي عُلَمَائِهِمْ وَوُزَرَائِهِمْ ٱلَّذِينَ اَخْرَجُوا كَلَامَهُمْ مُخْرَجَ ٱلتَّوْقِيعِ. فَمِنْ ذٰلِكَ مَا يُحْكَى اَنَّ اَنُوشِرْوَانَ وَقَّعَ فِي وِلَايَةِ ٱلْخَرَاجِ: ٱلْخَرَاجُ عَمُودُ ٱلْمُلْكِ وَمَا ٱسْتُنْزِرَ بِمِثْلِ ٱلْجَوْرِ وَلَا ٱسْتُغْزِرَ بِمِثْلِ ٱلْعَدْلِ. وَوَقَّعَ اَيْضًا فِي رُقْعَةِ رَجُلٍ وَكِيلٍ لَهُ اَمَرَهُ بِبِنَاءِ قَصْرٍ فَاَخَّرَهُ: اَنْتَ مَاشٍ وَٱلْاَيَّامُ رَاكِضَةٌ وَٱلْعَمَلُ بَاعٌ وَٱلْعِنَايَةُ فِتْرٌ. (قَالَ ٱلشَّيْخُ) وَاَبْيَاتُ ٱلشِّعْرِ كَثَّرَتْ اَمْثَالَ ٱلْعَرَبِ وَزَادَتْ عَلَى اَمْثَالِ سَائِرِ ٱلْاُمَمِ وَاِنْ كَانَ فِي غَيْرِ ٱلْعَرَبِ ٱلشِّعْرُ اَيْضًا عَلَى قَدِيمِ ٱلْوَقْتِ فَلِلْفُرْسِ اَشْعَارٌ لَا تُضْبَطُ كَثْرَةً وَلِلْيُونَانِيِّينَ اَشْعَارٌ دُونَ ٱلْفُرْسِ. وَكَانَ اَفْلَاطُونُ بَعْضَ مَنْ يَقُولُ ٱلشِّعْرَ وَيَقُولُ فِي ذَمِّهِ: اِنَّ ٱلشَّاعِرَ مُصَوِّرٌ لِلسَّمْعِ وَٱلْمُزَوِّقَ مُصَوِّرٌ لِلْبَصَرِ. فَاَمَّا ٱلْفُرْسُ فَفِي مَنْثُورِ اَخْبَارِهِمْ وَذِكْرِ حُرُوبِهِمْ اَشْعَارٌ كَانَتْ تُدَوَّنُ وَتُخَلَّدُ فِي ٱلْخَزَائِنِ ٱلَّتِي كَانَتْ بُيُوتَ ٱلْحِكْمَةِ ثُمَّ دَرَسَ اَكْثَرُهَا مَعَ دَرْسِ كَلَامِهِمْ وَبَقِيَ مِنْ اَشْعَارِ ٱلْعَرَبِ ٱلسَّوَائِرِ مِنَ ٱلْاَمْثَالِ تَجْرِي عَلَى اَفْوَاهِ اَهْلِ زَمَانِهِمْ. وَحَكَى اَبُو حَاتِمٍ عَنْ اَبِي عُبَيْدَةَ اَنَّهُ اَوْصَلَ اِلَى اَحْمَدَ بْنِ سَعِيدِ بْنِ سَهْلٍ ٱلْبَاهِلِيِّ اَرْبَعَةَ عَشَرَ اَلْفَ مَثَلٍ عَرَبِيٍّ بَعْضُهَا فِي ٱلْجُلُودِ وَبَعْضُهَا فِي ٱلْقُطْنِيِّ وَبَعْضُهَا فِي ٱلْقِرْطَاسِ فَتَفَرَّدَتِ ٱلْعَرَبُ مِنْ بَيْنِ ٱلْاُمَمِ بِكَثْرَةِ ٱلْاَمْثَالِ... وَمِنْ تَوْقِيعَاتِ ٱلْعَجَمِ تَوْقِيعُ اَرْدَشِيرَ بْنِ بَابَكَ وَكَانَ اَهْلُ زَمَانِهِ قَحَطُوا فَرَفَعُوا اِلَيْهِ قِصَّةً يَشْكُونَ ذٰلِكَ فَوَقَّعَ

الى صاحب بيت المال : إذا قحط المطر جادت سحائب الملك . ففرّق فيهم ما قاتهم ومانهم . وشكي مثل ذلك الى قباذ بن كسرى فوقّع ليكن بنا البرّ للرعيّة والاحسان اليهم فانّي وايّاهم في نفع ذلك مستوون . ومدح رجل من الخاصّة كسرى بن قباذ بمدح اطنب فيه واسهب وذهب كلّ مذهب وكان المدح في رقعة . فوقّع فيها كسرى انّي للمدح مستصغرٌ لعلمي باشياء قد مدحت وكانت بان تذمّ محقوقة . ووقّع انوشروان في رقعة متنصّح : ثمرات النصائح شكر الجوارح وخرج التوقيع الى وزير له امر له بجائزة واثنى عليه وقال : قد جمعنا الى شكر اللسان شكر اليد وهو البذل . ووقّع كسرى في رقعة رجل سأله فيها النقلة عن صناعته الى صناعة غيرها وكانت صناعته خسيسة فاختار صناعة رفيعة فوقّع في رقعته . انا حاملٌ للرعيّة على لزوم منازلهم وصنائعهم ولنفسي على ما يحمل على اللزوم لها

ومن حدّ البلاغة جمع المعاني الكثيرة في الالفاظ اليسيرة فقد سئل خلف الاحمر فقيل له : ما لنا نرى في الكلام القليل عدّة معانٍ . فقال : انّ كلام العرب اوعيةٌ والمعاني امتعةٌ فربّما جعلت ضروبٌ من الامتعة في وعاء واحد... وحكي عن جعفر ابن يحيى وكان قريع دهره بلاغةً في المكاتبة وجودة لسانٍ في المخاطبة انّه قال : اذا كان الايجاز كافياً كان التطويل عيّاً وان كان التطويل واجباً كان التقصير عجزًا . وحكى المفضل قال : قلت

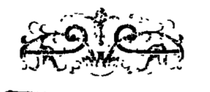
لِأَعرابيّ: مَا ٱلبَلَاغَةُ. فَقَالَ: ٱلْإِيجازُ مِنْ غَيرِ عَجزٍ وَٱلْإِطنَابُ فِي غَيرِ خَطَلٍ. وَوَصَفَ ٱلْجَاحِظُ يَحيَى بنَ خَالِدٍ فَقَالَ: كَانَ لَا يَتَوَقَّفُ وَلَا يَستَدعِي مَعنًى مِن بُعدٍ. قَالُوا: وَٱلبَلِيغُ ٱلكَامِلُ هُوَ ٱلَّذِي تَكُونُ ٱلأَلفَاظُ عِندَهُ عَزِيزَةً وَٱلْمَعَانِي فِي نَفسِهِ جَمَّةً كَثِيرَةً. وَقَالُوا: وَمَحصُورُ ٱلبَلَاغَةِ انَّ لَهَا ثَلَاثَ حَالَاتٍ: حَالًا يَحتَاجُ إِلَى ٱلنَّظَرِ فِي ٱلْمَعَانِي مِنْ اَجلِهَا. وَحَالًا يَحتَاجُ إِلَى ٱلنَّظَرِ فِي ٱلأَلفَاظِ. وَحَالًا مُرَكَّبَةً مِنَ ٱلأَلفَاظِ وَٱلْمَعَانِي وَهِيَ ذَاتُ ٱلبَلَاغَةِ ٱلَّتِي تَختَصُّ بِٱسمِهَا. وَلِلبَلَاغَةِ ثَلَاثَةُ مَذَاهِبَ تُقصَدُ فِي ٱستِعمَالِهَا. اَحَدُهَا ٱلْمُسَاوَاةُ وَهِيَ اَنْ يَكُونَ ٱللَّفظُ كَٱلقَالَبِ لِلمَعنَى لَا يَفضُلُ عَنهُ وَلَا يَنقُصُ مِنهُ. وَٱلثَّانِي ٱلْإِشَارَةُ وَهُوَ اَنْ يَكُونَ ٱللَّفظُ مُشَارًا بِهِ إِلَى ٱلْمَعنَى بِٱللَّمحَةِ ٱلدَّالَّةِ. وَٱلثَّالِثُ ٱلتَّذيِيلُ وَهُوَ إِعَادَةُ ٱلأَلفَاظِ ٱلْمُتَرَادِفَةِ عَلَى ٱلْمَعنَى ٱلْوَاحِدِ بِعَينِهِ حَتَّى يَظهَرَ لِمَنْ لَمْ يَفهَمْهُ وَيَتَوَكَّدَ عِندَ مَنْ فَهِمَهُ. وَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْ هٰذِهِ ٱلْمَذَاهِبِ مَوطِنٌ يَلِيقُ بِهِ وَوَقتٌ لَا يَصلُحُ فِيهِ غَيرُهُ. وَسَاذكُرُ هٰهُنَا صَدَدًا مِنَ ٱلْفُصُولِ ٱلقِصَارِ مِنْ كَلَامِ ٱلْعَرَبِ وَغَيرِهِمْ مِمَّا يَتَضَمَّنُ ٱلْفِقَرَ ٱلْمُختَارَةَ وَٱلْمَعَانِيَ ٱلْمَجمُوعَةَ بِٱللَّفظِ. فَمِنْ ذٰلِكَ قَولُهُم: قِيمَةُ كُلِّ ٱمرِئٍ مَا يُحسِنُهُ. وَكَقَولِ اَمِيرِ ٱلْمُؤمِنِينَ عَلِيِّ بنِ اَبِي طَالِبٍ سِتَّ كَلِمَاتٍ مَا سَبَقَهُ إِلَيهَا اَحَدٌ تُوزَنُ كُلُّ كَلِمَةٍ مِنهَا بِأَلفِ كَلِمَةٍ وَرَوَاهَا عَنهُ كَثِيرٌ مِنْ اَصحَابِهِ وَمِنَ ٱلأُدَبَاءِ وَهِيَ: ٱلأُولَى قَولُهُ: قِيمَةُ كُلِّ ٱمرِئٍ مَا يُحسِنُهُ. ٱلثَّانِيَةُ: ٱلنَّاسُ اَعدَاءُ مَا جَهِلُوا. ٱلثَّالِثَةُ: لِسَانُكَ يَقتَضِيكَ مَا عَوَّدتَهُ.

ٱلرَّابِعَــةُ : رَحِمَ ٱللهُ ٱمْرَءًا عَرَفَ قَدْرَهُ . ٱلْخَامِسَةُ : لَا رَأْيَ لِمَنْ لَا يُطَاعُ . ٱلسَّادِسَةُ : ٱلْمَرْءُ مَخْبُوءٌ تَحْتَ لِسَانِهِ . وَمِنْهَا قَوْلُهُمْ ٱلشِّعْرُ مِيزَانُ ٱلْقَوْمِ وَٱلْعَرُوضُ مِــيزَانُ ٱلشِّعْرِ . وَقَوْلُ عُمَرَ : هَاجِرُوا وَلَا تَهْجُرُوا وَٱلسَّعِيدُ مَنْ وُعِظَ بِغَيْرِهِ . وَقَوْلُهُمْ : ٱلسَّعِيــدُ مَنْ كُفِيَ . وَقَوْلُهُمْ : إِيَّاكَ وَمَا تَعْتَذِرُ مِنْهُ . وَقَوْلُهُمْ : رُبَّ سَاعٍ لِقَاعِدٍ . رُبَّ مَــلُومٍ غَيْرُ مُلِيمٍ . رُبَّمَا قَتَلَ ٱلْبَلِيغَ لِسَانُهُ . ٱلْعُيُونُ عُنْوَانُ ٱلْقُلُوبِ . ٱلْقُلُوبُ أَبْصَرُ مِنَ ٱلْعُيُونِ . مَنْ ضَاقَ قَلْبُهُ ٱتَّسَعَ لِسَانُهُ . وَقَوْلُ ٱلْأَعْرَابِيِّ وَقَدْ سَأَلَهُ بَعْضُهُمْ عَنْ حُضْرِ فَرَسِهِ فَقَالَ : يُحْضِرُ مَا وَجَدَ أَرْضًا . وَقَالَ آخَرُ : يَسْبِقُ ٱلطَّرْفَ وَيَسْتَغْرِقُ ٱلْوَصْفَ . عُوجُ ٱللِّبَــانِ طَوْعُ ٱلْعِنَانِ كَأَنَّهُ مَوْجٌ يَمُورُ أَوْ سَيْلٌ فِي حُدُورٍ . وَقَوْلُهُمْ : ٱلْفِكْرَةُ مُخُّ ٱلْعَمَلِ . وَقِيلَ لِأَعْرَابِيٍّ إِنَّكَ لَتُحْسِنُ ٱلْكُدْيَةَ . فَقَالَ : ذَاكَ عُنْوَانُ نِعْمَةِ ٱللهِ عِنْدِي . وَقَوْلُهُمْ : حَسْبُكَ مِنْ شَرٍّ ٱسْتِمَاعُهُ . دَلَّ ٱلشَّرُّ عَلَى نَفْسِــهِ . ٱلْبَادِئُ أَظْلَمُ . حِفْظُ ٱلْمَوْجُودِ أَيْسَرُ مِنْ طَلَبِ ٱلْمَفْقُودِ . مَنْ عَزَّ بَزَّ . سِرُّكَ مِنْ دَمِكَ غُنْمٌ سَالِمٌ . سُئِــلَ رَجُلٌ رَكِبَ ٱلْبَحْرَ عَنْ أَعْجَبِ مَا رَأَى فَقَالَ : سَلَامَتِي . ٱلْمَلَقُ شُكْرُ ٱلضَّعِيفِ . ٱلصَّدِيقُ يَصْدُقُ وَٱلْعَدُوُّ يَتَمَلَّقُ . ٱقْضِ دُيُونَ ٱلْإِحْسَانِ إِلَيْكَ بِٱللِّسَانِ قَبْلَ فَقْدِ ٱلْإِمْكَانِ . مَنْ وَاكَلَكَ فِي ٱلرَّخَاءِ خَذَلَكَ فِي ٱلْبَلَاءِ . عَجَبًا لِلْخَيْرِ ٱلْمَمْدُوحِ ٱلْمَتْرُوكِ وَٱلشَّرِّ ٱلْمَذْمُومِ ٱلْمَفْعُولِ . مَنْ نَمَّ إِلَيْكَ نَمَّ عَلَيْكَ مَنْ أَسَاءَ ٱسْتَوْحَشَ . سَاعَاتُ ٱللَّذَّةِ هِيَ سَاعَاتُ ٱلْغَفْــلَةِ . (قَالَ ٱلشَّيْخُ) هٰذَا مِثْلُ قَوْلِ سُقْرَاطَ ٱللَّذَّةُ خِنَاقٌ مِنْ عَسَلٍ . عِنْــدَ صَفْوِ

ٱلْعَيْشِ يَكْدُرُ. ٱلْمُرِيبُ مُخِيفٌ. ٱلْمَحْبُوبُ مَذْكُورٌ. مَنْ لَكَ بِأَخِيكَ كُلِّهِ. صَدِيقُ ٱلرَّجُلِ عَقْلُهُ وَعَدُوُّهُ جَهْلُهُ. (قَالَ ٱلشَّيْخُ) وَمِثْلُ هٰذَا قَوْلُ أَرِسْطَاطَالِيسَ فِي مَا يَرُدُّ أَفْلَاطُونَ: إِنْ كَانَ أَفْلَاطُونُ لَنَا صَدِيقًا فَٱلْحَقُّ أَصْدَقُ لَنَا مِنْهُ

وَمِنَ ٱلْفُصُولِ ٱلْكِتَابِيَّةِ مَا كَتَبَ بَعْضُهُمْ: قَلْبِي نَجِيُّ ذِكْرِكَ. وَلِسَانِي خَادِمُ شُكْرِي وَكَتَبَ آخَرُ: فُلَانٌ أَذَلُّ مِنْ شَاهِدِ زُورٍ عِنْدَ مَنْ شَهِدَ لَهُ. وَقَالَ آخَرُ: ٱلِاسْتِطَالَةُ لِسَانُ ٱلْجَهَالَةِ. وَكَتَبَ بَعْضُهُمْ إِلَى عَامِلٍ: أَعْلَمُ أَنَّ ٱلنَّظَرَ إِذَا أَخْلَفَ لَكَ أَخْلَفَ مِنْكَ. وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ وَقَدْ كَانَ جَرَى ذِكْرُ ٱلْبَلَاغَةِ وَأَنَّ بَعْضَ وُلْدِهِ بَلِيغٌ: إِنِّي لَأَكْرَهُ أَنْ يَطُولَ لِسَانُهُ. وَقَالَ آخَرُ: فَضْلُ ٱلْفِعَالِ عَلَى ٱلْمَقَالِ مَكْرُمَةٌ وَفَضْلُ ٱلْمَقَالِ عَلَى ٱلْفِعَالِ خَدِيعَةٌ. وَقَالَ يَحْيَى بْنُ خَالِدٍ: تَرْكُ ٱلشُّكْرِ كُفْرُ ٱلنِّعْمَةِ. وَقَالَ آخَرُ: ٱلشُّكْرُ نَسِيمُ ٱلنِّعْمَةِ. ٱلْهَيْبَةُ خَيْبَةٌ وَٱلْحَيَاءُ حِرْمَانٌ. ٱلْحِكْمَةُ ضَالَّةُ ٱلْمُؤْمِنِ. وَقَالَ إِسْحَاقُ يَوْمًا لِلْعَبَّاسِ بْنِ ٱلْحَسَنِ إِنِّي لَأُحِبُّكَ. فَقَالَ: رَائِدُ ذَاكَ مَعِي. قَرَأْتُ فِي فَصْلٍ لِسَعِيدِ بْنِ حُمَيْدٍ: نَحْنُ فِي زَمَانٍ ٱلْمَعْرُوفُ فِيهِ زَلَلٌ وَٱلصَّوَابُ فِيهِ خَطَلٌ وَٱلْإِنْعَامُ مَثَلٌ. وَقَالَ بَعْضُ ٱلْبُلَغَاءِ: قَدْ رَخَّصَتِ ٱلضَّرُورَةُ فِي ٱلْإِلْحَاحِ. أَرْجُو أَنْ تُحْسِنَ ٱلنَّظَرَ كَمَا أَحْسَنْتَ ٱلِانْتِظَارَ. وَقَالَ أَحْمَدُ بْنُ يَحْيَى: لِسَانُ ٱلْحَالِ أَفْصَحُ مِنْ لِسَانِ ٱلشَّكْوَى. وَكَتَبَ آخَرُ: أَشْكُرُ لِمَنْ أَنْعَمَ عَلَيْكَ وَأَنْعِمْ عَلَى مَنْ شَكَرَكَ. وَكَتَبَ آخَرُ: إِذَا كُنْتَ لَا تُؤْتَى مِنْ ضَعْفِ سَبَبٍ فَكَيْفَ أَخَافُ مِنْكَ

خَيْبَةَ اَمَلٍ اَوْ عُدُولًا عَنِ اغْتِفَارِ زَلَلٍ اَوْ فُتُورًا عَنْ لَمِّ شَعَثٍ وَاِصْلَاحِ خَلَلٍ . كَتَبَ آخَرُ : اَنَا اَسْاَلُ الَّذِي رَحِمَ الْعِبَادَ بِكَ عَلَى حِينِ افْتِقَارِهِمْ اِلَيْكَ اَنْ يَرْحَمَهُمْ مِنْ بَعْدِكَ فَلَا يُعِيدَهُمْ اِلَى الْمَكَارِهِ الَّتِي اسْتَنْقَذَهُمْ مِنْهَا بِيَدِكَ . وَقَالَ الْحَسَنُ بْنُ وَهْبٍ لِلْمَأْمُونِ فِي رَجُلٍ مُذْنِبٍ : هَبْهُ لِي . فَقَالَ : كَيْفَ لَا اَهَبُهُ لِمَنْ بِهِ قَدِرْتُ عَلَيْهِ . وَقَالَ عَبْدُ اللّٰهِ بْنُ طَاهِرٍ : الْقَلَمُ يُحَرِّكُ وَشْيَ الْمَمْلَكَةِ . وَنَظَرَ اِلَى خَطِّ بَعْضِ كُتَّابِهِ فَلَمْ يَرْضَهُ فَقَالَ : نَحُّوا هٰذَا عَنْ مَرْتَبَةِ الدِّيوَانِ فَاِنَّهُ عَلِيلُ الْخَطِّ وَلَا نَأْمَنُ اَنْ يُعْدِيَ غَيْرَهُ . وَقَالَ اِبْرَاهِيمُ بْنُ الْعَبَّاسِ الصَّوْلِيُّ : الْخَطُّ لِسَانُ الْيَدِ . وَقَالَ يَحْيَى بْنُ خَالِدٍ : مَطْلُ الْغَرِيمِ اَحْسَنُ مِنْ مَطْلِ الْكَرِيمِ . وَكَانَ يَحْيَى يَقُولُ : مِنْ حُقُوقِ النُّبْلِ اَنْ تَتَوَاضَعَ لِمَنْ هُوَ دُونَكَ وَتَتَصَدَّقَ عَلَى ضَعِيفِكَ وَتُنْصِفَ مَنْ هُوَ مِثْلُكَ وَتَتَنَبَّلَ عَلَى مَنْ هُوَ فَوْقَكَ



الفصل التاسع

في اجناس الخطابة الثلاثة

البحث الاول

في تقسيم الخطب الى ثلاثة اجناس

(من كتاب تعريب خطابة ارسطاطاليس لابن رشد)

(راجع الصفحة ١٣٤ من الجزء الثاني من علم الادب)

قَدْ تُوجَدُ اجْنَاسُ ٱلْاَشْيَاءِ ٱلَّتِي تَنْظُرُ فِيهَا ٱلْخَطَابَةُ مِنَ ٱلْأُمُورِ ٱلْإِرَادِيَّةِ ثَلَاثَةً كَمَا يُوجَدُ عَدَدُ اصْنَافِ ٱلسَّامِعِينَ لِلْقَوْلِ ٱلْخُطْبِيِّ ثَلَاثَةً. وَذٰلِكَ انَّ ٱلْكَلَامَ مُرَكَّبٌ مِنْ ثَلَاثَةٍ مِنْ قَائِلٍ وَهُوَ ٱلْخَطِيبُ وَمِنْ مَقُولٍ فِيهِ وَهُوَ ٱلَّذِي يُعْمَلُ فِيهِ ٱلْقَوْلُ وَمِنَ ٱلَّذِينَ يُوَجَّهُ إِلَيْهِمِ ٱلْقَوْلُ وَهُمُ ٱلسَّامِعُونَ. وَٱلْغَايَةُ بِٱلْقَوْلِ إِنَّمَا هِيَ مُتَوَجِّهَةٌ نَحْوَ هٰؤُلَاءِ ٱلسَّامِعِينَ. وَٱلسَّامِعُونَ لَا مَحَالَةَ إِمَّا مُنَاظِرٌ وَإِمَّا حَاكِمٌ وَإِمَّا ٱلْمَقْصُودُ إِقْنَاعُهُ. وَٱلْحَاكِمُ إِمَّا اَنْ يَكُونَ حَاكِمًا فِي ٱلْأُمُورِ ٱلْمُسْتَقْبَلَةِ وَهِيَ ٱلنَّافِعَةُ وَٱلضَّارَّةُ. وَإِمَّا فِي ٱلْأُمُورِ ٱلَّتِي قَدْ كَانَتْ. وَٱلْأُمُورُ ٱلَّتِي قَدْ كَانَتْ مِنْهَا مَا تُوجَدُ فِي ٱلْإِنْسَانِ بِٱخْتِيَارِهِ وَتِلْكَ هِيَ ٱلْفَضَائِلُ وَٱلرَّذَائِلُ وَمِنْهَا مَا تُوجَدُ فِي ٱلْانْسَانِ بِغَيْرِ ٱخْتِيَارِهِ بَلْ مِنْ إِنْسَانٍ آخَرَ وَهُوَ ٱلْجَوْرُ وَٱلْعَدْلُ. وَٱلْحَاكِمُ فِي ٱلْأُمُورِ ٱلْمُسْتَقْبَلَةِ هُوَ

ٱلرَّئِيسُ وَٱلْحَاكِمُ فِي ٱلْأُمُورِ ٱلْكَائِنَةِ هُوَ ٱلَّذِي يَنصِبُهُ ٱلرَّئِيسُ (مِثْلُ ٱلْقَاضِي فِي مُدُنِنَا هٰذِهِ وَهِيَ مُدُنُ ٱلْإِسْلَامِ) . وَأَمَّا ٱلْمُنَاظِرُ فَإِنَّمَا يُنَاظِرُ بِقُوَّةِ ٱلْمَلَكَةِ ٱلْخُطْبِيَّةِ فَإِنَّ أَجْنَاسَ ٱلْقَوْلِ ٱلْخُطْبِيِّ ثَلَاثَةٌ مَشُورِيٌّ وَمُشَاجَرِيٌّ وَتَثْبِيتِيٌّ

فَأَمَّا ٱلضَّمِيرُ ٱلْمَشُورِيُّ فَمِنْهُ إِذْنٌ وَمِنْهُ مَنْعٌ وَذٰلِكَ أَنَّ كُلَّ مَنْ يُشِيرُ إِمَّا عَلَى وَاحِدٍ مِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ بِمَا يَخُصُّهُ أَوْ عَلَى جَمِيعِ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ بِمَا يَعُمُّهُمْ فَإِنَّمَا يُشِيرُ أَبَدًا بِقَوْلٍ هُوَ إِذْنٌ أَوْ مَنْعٌ . وَأَمَّا ٱلْقَوْلُ ٱلْمُشَاجَرِيُّ فَهُوَ أَيْضًا صِنْفَانِ شِكَايَةٌ وَتَنَصُّلٌ مِنَ ٱلشِّكَايَةِ . وَأَمَّا ٱلْقَوْلُ ٱلتَّثْبِيتِيُّ فَهُوَ أَيْضًا صِنْفَانِ إِمَّا مَدْحٌ وَإِمَّا ذَمٌّ وَٱلزَّمَانُ ٱلْخَاصُّ بِٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي يُشَارُ بِهَا هُوَ ٱلزَّمَانُ ٱلْمُسْتَقْبَلُ لِأَنَّهُ إِنَّمَا يُشِيرُ إِنْسَانٌ عَلَى إِنْسَانٍ بِأَشْيَاءَ مَعْدُومَةٍ . وَٱلزَّمَانُ ٱلْخَاصُّ بِٱلْأَشْيَاءِ ٱلْمُشَاجَرِيَّةِ هُوَ ٱلزَّمَانُ ٱلْمَاضِي لِأَنَّهُ إِنَّمَا يُتَشَكَّى مِنَ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي قَدْ وَقَعَتْ وَإِنْ تُشُكِّيَ مِنْ أُمُورٍ تُتَوَقَّعُ مِنَ ٱلْمُشْتَكَى بِهِ فَإِنَّمَا تِلْكَ شِكَايَةٌ عَلَى طَرِيقِ ٱلْإِشَارَةِ بِٱلنَّافِعِ فِي ذٰلِكَ . وَكَذٰلِكَ قَدْ يَعْرِضُ أَنْ تَكُونَ ٱلْمَشُورَةُ فِي ٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي قَدْ كَانَتْ لٰكِنْ مِنْ جِهَةِ مَا يُتَوَقَّعُ مِنْهَا فَمَتَى كَانَتِ ٱلشَّكْوَى فِي شَيْءٍ وَاحِدٍ لَا مِنْ أَجْلِ غَيْرِهِ فَإِنَّمَا تَكُونُ أَبَدًا فِي ٱلشَّيْءِ ٱلَّذِي قَدْ وَقَعَ . وَأَمَّا ٱلْأَشْيَاءُ ٱلتَّثْبِيتِيَّةُ فَإِنَّ أَوْلَى ٱلْأَزْمِنَةِ بِهَا هُوَ ٱلزَّمَانُ ٱلْحَاضِرُ أَعْنِي ٱلْقَرِيبَ مِنَ ٱلْآنِ فَإِنَّ ٱلنَّاسَ إِنَّمَا يُمْدَحُونَ وَيُذَمُّونَ بِٱلْأَشْيَاءِ ٱلْمَوْجُودَةِ فِي حِينِ ٱلْمَدْحِ وَحِينِ ٱلذَّمِّ فِي ٱلْمَمْدُوحِ وَٱلْمَذْمُومِ وَرُبَّمَا

مُدِحَ بَعْضُهُمْ عَلَى طَرِيقِ ٱلْحِيلَةِ فِي ٱسْتِكْثَارِ فَضَائِلِ ٱلْمَمْدُوحِ وَمَذَامِّهِ بِٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي يُتَوَقَّعُ حُدُوثُهَا مِنْهُ أَوْ يُرْجَى حُدُوثُهَا مِنْهُ فَيَخْلِطُونَ مَعَ ٱلْمَدْحِ ٱلْإِشَارَةَ عَلَى ٱلْمَمْدُوحِ بِفِعْلِ تِلْكَ ٱلْأَشْيَاءِ

البحث الثاني

في غايات الاجناس الخطبية الثلاثة وانواع مقدماتها

(من الكتاب نفسه)

وَأَمَّا ٱلْغَايَاتُ مِنْ هٰذِهِ ٱلْأَقَاوِيلِ فَهِيَ ثَلَاثُ غَايَاتٍ لِهٰذِهِ ٱلثَّلَاثَةِ ٱلْأَقَاوِيلِ أَمَّا ٱلْقَوْلُ ٱلْمُشِيرُ فَغَايَتُهُ ٱلنَّافِعُ وَٱلضَّارُّ. فَإِنَّ ٱلَّذِي يُشِيرُ فَإِنَّمَا يَأْذَنُ فِي ٱلنَّافِعِ أَوْ فِي ٱلَّذِي هُوَ أَنْفَعُ وَيَمْنَعُ مِنَ ٱلضَّارِّ أَوْ مِنَ ٱلَّذِي هُوَ أَضَرُّ. وَأَمَّا ٱلْقَوْلُ ٱلْمُشَاجِرِيُّ فَغَايَتُهُ ٱلْعَدْلُ وَٱلْجَوْرُ. وَأَمَّا ٱلْقَوْلُ ٱلْمُثْبِتُ فَغَايَتُهُ ٱلْفَضِيلَةُ وَٱلرَّذِيلَةُ وَإِنِ ٱسْتَعْمَلَ وَاحِدٌ مِنْ هٰذِهِ غَايَةَ صَاحِبِهِ فَلَيْسَ عَلَى ٱلْقَصْدِ ٱلْأَوَّلِ بَلْ مِنْ أَجْلِ ٱلْغَايَةِ ٱلْخَاصَّةِ بِهِ. مِثَالُ ذٰلِكَ أَنَّ ٱلْمُشِيرَ قَدْ يُقْنِعُ أَنَّ هٰذَا عَدْلٌ أَوْ جَوْرٌ لِيُشِيرَ بِٱلْإِذْنِ فِيمَا يَكُونُ عَنِ ٱلْعَدْلِ مِنَ ٱلْمَنْفَعَةِ وَبِٱلْمَنْعِ عَنْ مَا يَكُونُ عَلَى طَرِيقِ ٱلْجَوْرِ لِمَا فِي ٱلْجَوْرِ مِنَ ٱلْمَضَرَّةِ ٱلَّتِي تُتَوَقَّعُ. وَكَذٰلِكَ قَدْ تُسْتَعْمَلُ ٱلْفَضِيلَةُ وَٱلرَّذِيلَةُ أَعْنِي مِنْ جِهَةِ مَا يَلْحَقُهَا مِنَ ٱلنَّافِعِ وَٱلضَّارِّ. وَإِذَا كَانَتْ هٰذِهِ ٱلْغَايَاتُ ٱلثَّلَاثُ تَخُصُّ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهَا وَاحِدًا مِنْ هٰذِهِ ٱلْأَقَاوِيلِ أَعْنِي مِنْ جِهَةِ مَا هِيَ غَايَاتٌ عَلَى ٱلْقَصْدِ ٱلْأَوَّلِ فَٱلْحُدُودُ ٱلْمُمَيِّزَةُ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْ هٰذِهِ ٱلْأَقَاوِيلِ

اَلثَّلَاثَةِ إِنَّمَا تَكُونُ اَلْفُصُولُ اَلْمُعْطَاةُ فِيهَا مِنْ قِبَلِ هٰذِهِ اَلْغَايَاتِ. وَقَدْ يَدُلُّ عَلَى اَنَّ هٰذِهِ اَلْغَايَاتِ هِيَ خَاصَّةٌ بِوَاحِدٍ وَاحِدٍ مِنْ هٰذِهِ اَلْاَجْنَاسِ اَلثَّلَاثَةِ مِنَ اَلْاَقَاوِيلِ اَنَّهُ اِذَا اَقْنَعَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهَا فِي غَايَةِ اَلْجِنْسِ اَلْآخَرِ رُبَّمَا لَمْ يَكُنْ لِلْمُنَاظِرِ فِي ذٰلِكَ مُعَاسَرَةٌ وَمُشَاكَسَةٌ بَلْ كَثِيرًا مَا يُسَلِّمُ لَهُ ذٰلِكَ وَلٰكِنْ لَا يُسَلِّمُ لَهُ غَايَةَ ذٰلِكَ اَلْقَوْلِ اَلَّتِي تَخُصُّهُ. مِثَالُ ذٰلِكَ اَنَّ اَلْمُدَّعِي اِذَا اَدَّعَى اَنَّ فُلَانًا اَخَذَ اَلْمَالَ مِنْ فُلَانٍ وَذٰلِكَ لَا شَكَّ ضَرَرٌ بِهِ فَرُبَّمَا يُسَلِّمُ لَهُ اَلْخَصْمُ اَنَّ ذٰلِكَ كَانَ وَلٰكِنْ لَا يُسَلِّمُ لَهُ اَنَّ اَخْذَهُ اَلْمَالَ مِنْهُ كَانَ عَلَى جِهَةِ اَلْجَوْرِ. وَكَذٰلِكَ اَلْمُشِيرُ قَدْ يُسَلِّمُ اَنَّ اَلْفِعْلَ اَلْمُمْكِنَ جَوْرٌ وَلَا يُسَلِّمُ اَنَّهُ ضَارٌّ وَلِمَكَانِ تَدَاخُلِ هٰذِهِ اَلْغَايَاتِ يَعْرِضُ لِلْمُشِيرِينَ كَثِيرًا اَنْ يُشِيرُوا بِاَشْيَاءَ ضَارَّةٍ عَلَى جِهَةِ اَلْمُغَالَطَةِ مِنْ قِبَلِ اَنَّهَا عَدْلٌ اَوْ اَنَّهَا لَيْسَتْ بِجَوْرٍ وَلٰكِنْ لَا يُقِرُّونَ بِاَنَّهَا ضَارَّةٌ بَلْ رُبَّمَا اَحْتَالُوا فِي دَعْوَى وُجُودِ اَلنَّفْعِ فِيهَا. مِثَالُ ذٰلِكَ اَنَّهُمْ قَدْ يُشِيرُونَ بِالصَّبْرِ عَلَى اَلْمَوْتِ فِي اَلْحَرْبِ وَاَلَّا يَفِرُّونَ لِكَوْنِ اَلْفِرَارِ جَوْرًا فِي اَلشَّرِيعَةِ. وَكَذٰلِكَ مَتَى قَهَرَ قَوْمٌ قَوْمًا وَاَسْتَوْلَوْا عَلَيْهِمْ رُبَّمَا اَشَارَ اَلْمُشِيرُ عَلَيْهِمْ اَلَّا يَمْتَعِضُوا لِذٰلِكَ اَلْقَهْرِ لِاَنَّهُ لَمْ يَكُنْ جَوْرًا وَرُبَّمَا اَوْهَمَ فِيهِ اَنَّهُ غَيْرُ ضَارٍّ لَهُمْ. وَكَذٰلِكَ اَلْمَادِحُ قَدْ يُسَلِّمُ اَنَّ اَلشَّيْءَ ضَارٌّ وَلٰكِنْ يَدَّعِي اَنَّهُ فَضِيلَةٌ مِثْلُ مَنْ يُخَلِّصُ اِنْسَانًا مِنَ اَلْمَوْتِ وَيَعْلَمُ اَنَّهُ يَمُوتُ بِتَخْلِيصِهِ ذٰلِكَ اَلْاِنْسَانَ. فَاَلْمَوْتُ يُسَلِّمُ اَلْخَصْمُ اَنَّهُ ضَارٌّ وَلٰكِنْ يَرَى اَنَّهُ فَضِيلَةٌ. وَكَذٰلِكَ رُبَّمَا مَدَحَ بِالرَّذِيلَةِ عَلَى جِهَةِ

ٱلْمُغَالَطَةِ مِنْ جِهَةِ أَنَّهَا نَافِعَةٌ لٰكِنْ لَا يُقِرُّ أَنَّهَا رَذِيلَةٌ بَلْ يَدَّعِي فِيهَا أَنَّهَا فَضِيلَةٌ مَا لِمَكَانِ ٱلنَّفْعِ ٱلَّذِي فِيهَا فَإِذَنْ كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْ هٰذِهِ ٱلْمُخَاطَبَاتِ قَدْ تَسْتَعْمِلُ غَايَةَ صَاحِبَتِهَا بِٱلْعَرَضِ وَلِذٰلِكَ لَا تُشَاكِسُ فِيهَا وَتُشَاكِسُ وَلَا بُدَّ فِي غَايَتِهَا. وَإِذَا ٱسْتَعْمَلَتِ ٱلْوَاحِدَةُ غَايَةَ صَاحِبَتِهَا فَعَلَى جِهَةِ ٱلْمُغَالَطَةِ. (قَالَ) وَلَمَّا كَانَتْ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةُ قِيَاسِيَّةً فَمَعْلُومٌ أَنَّهُ يَجِبُ أَنْ تَكُونَ فِيهَا مُقَدَّمَاتٌ وَمُقَدَّمَاتُهَا هِيَ ٱلثَّلَاثُ ٱلَّتِي وَصَفْنَا: ٱلْمَحْمُودَاتُ وَٱلدَّلَائِلُ وَٱلْعَلَامَاتُ. وَذٰلِكَ أَنَّ ٱلْقِيَاسَ ٱلْمُطْلَقَ يَكُونُ مِنَ ٱلْمُقَدَّمَاتِ ٱلْمُطْلَقَةِ وَٱلْقِيَاسَ ٱلْخَاصَّ بِصِنَاعَةٍ صِنَاعَةٍ يَكُونُ مِنْ مُقَدَّمَاتٍ خَاصَّةٍ. وَلِذٰلِكَ كَانَ ٱلضَّمِيرُ قِيَاسًا يَأْتَلِفُ مِنْ هٰذِهِ ٱلْمُقَدَّمَاتِ ٱلَّتِي ذَكَرْنَا وَلِأَنَّ ٱلْأَمْرَ ٱلَّذِي يُشِيرُ بِهِ يَحْتَاجُ أَنْ يُعْرَفَ مِنْ أَمْرِهِ أَوَّلًا أَنَّهُ مُمْكِنٌ لِأَنَّ ٱلْأُمُورَ ٱلْغَيْرَ ٱلْمُمْكِنَةِ لَا يُسْتَطَاعُ أَنْ تُفْعَلَ لَا فِي ٱلْحَاضِرِ وَلَا فِي ٱلْمُسْتَقْبَلِ. وَكَذٰلِكَ يَحْتَاجُ فِي ٱلْجِنْسَيْنِ ٱلْبَاقِيَيْنِ مِنْ أَجْنَاسِ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ أَعْنِي إِنْ تُمَيِّزَ أَوَّلًا أَنَّ ٱلْأَمْرَ قَدْ كَانَ وَوَقَعَ أَعْنِي ٱلْجِنْسَ ٱلتَّثْبِيتِيَّ وَٱلْجِنْسَ ٱلْمُشَاجِرِيَّ. فَإِذَنْ لَا بُدَّ لِصَاحِبِ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ أَنْ تَكُونَ عِنْدَهُ مُقَدَّمَاتٌ يُقْنِعُ بِهَا فِي أَنَّ ٱلْأَمْرَ مُمْكِنٌ أَوْ غَيْرُ مُمْكِنٍ وَفِي أَنَّهُ قَدْ كَانَ أَوْ لَمْ يَكُنْ سِوَى ٱلْمُقَدَّمَاتِ ٱلَّتِي يُبَيِّنُ بِهَا تِلْكَ ٱلْغَايَاتِ ٱلثَّلَاثَ. ثُمَّ أَيْضًا لَمَّا كَانَ ٱلْخُطَبَاءُ لَيْسَ يَقْتَصِرُونَ عَلَى ٱلْمَدْحِ وَٱلذَّمِّ وَٱلْإِذْنِ وَٱلْمَنْعِ وَٱلشِّكَايَةِ وَٱلْإِعْتِذَارِ بَلْ يَتَكَلَّفُونَ مَعَ هٰذَا أَنْ يُثْبِتُوا أَنَّ ٱلْأَمْرَ ٱلَّذِي هُوَ خَيْرٌ أَوْ شَرٌّ عَظِيمٌ أَوْ صَغِيرٌ

شَرِيفٌ اَوْ خَسِيسٌ وَلَائِقٌ اَوْ غَيْرُ لَائِقٍ وَذٰلِكَ اِمَّا عَلَى ٱلْاِطْلَاقِ وَاِمَّا بِٱلْمُقَايَسَةِ اَعْنِي اَنَّهُ اَعْظَمُ وَاَشْرَفُ اَوْ بِٱلضِّدِّ فَمَعْلُومٌ اَنَّهُ يَنْبَغِي اَنْ تَكُونَ عِنْدَ ٱلْخُطَبَاءِ مُقَدَّمَاتٌ يُثْبِتُونَ بِهَا اَنَّ ٱلْخَيْرَ اَوِ ٱلشَّرَّ عَظِيمٌ اَوْ صَغِيرٌ وَخَسِيسٌ اَوْ شَرِيفٌ وَلَائِقٌ بِٱلْمَنْسُوبِ اِلَيْهِ اَوْ غَيْرُ لَائِقٍ فَهٰذِهِ هِيَ جَمِيعُ اَنْوَاعِ ٱلْمُقَدَّمَاتِ ٱلَّتِي تَسْتَعْمِلُهَا هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةُ

البحث الثالث

في مقدمات الجنس المشوري

(من الكتاب نفسه)

وَاِذْ قَدْ تَبَيَّنَ ذٰلِكَ فَيَنْبَغِي اَنْ نَبْتَدِئَ بِتَعْدِيدِ ٱلْمُقَدَّمَاتِ ٱلَّتِي تَخُصُّ غَرَضًا غَرَضًا مِنَ ٱلْاَغْرَاضِ ٱلثَّلَاثَةِ وَنَجْعَلَ ٱلْكَلَامَ اَوَّلًا فِي تَعْدِيدِ ٱلْمُقَدَّمَاتِ ٱلْمَشُورِيَّةِ ثُمَّ ثَانِيًا فِي ٱلتَّثْبِيتِيَّةِ ثُمَّ ثَالِثًا فِي ٱلْمُشَاجَرِيَّةِ

فَاَوَّلُ مَا يَجِبُ اَنْ نَنْظُرَ فِيهِ مِنْ اَمْرِ ٱلْاَشْيَاءِ ٱلَّتِي يُشَارُ بِهَا مَا هُوَ ٱلْخَيْرُ ٱلَّذِي يُشَارُ بِهِ فَاِنَّهُ لَيْسَ تَكُونُ ٱلْمَشُورَةُ فِي كُلِّ خَيْرٍ لٰكِنْ فِي ٱلْخَيْرَاتِ ٱلَّتِي تَسْتَطِيعُ اَنْ تَكُونَ اَوْ اَنْ لَا تَكُونَ فَاَمَّا ٱلْخَيْرَاتُ ٱلَّتِي كَوْنُهَا اَوْ لَا كَوْنُهَا مِنَ ٱلِاضْطِرَارِ فَلَيْسَ تَكُونُ فِيهَا مَشُورَةٌ وَلَا اَيْضًا ٱلْمَشُورَةُ تَكُونُ فِي جَمِيعِ ٱلْخَيْرَاتِ ٱلْمُمْكِنَةِ. فَاِنَّ هَاهُنَا خَيْرَاتٍ مُمْكِنَةً وُجُودُهَا عَنِ ٱلطَّبِيعَةِ بَلْ فِي ٱلْخَيْرَاتِ ٱلْمُمْكِنَةِ ٱلَّتِي اِلَيْنَا اَنْ تَكُونَ اَوْ اَنْ لَا تَكُونَ وَهِيَ ٱلْاَشْيَاءُ

ٱلَّتِي بَدْءُ كَوْنِهَا مِنْ قِبَلِ ٱلِاخْتِيَارِ وَٱلْإِرَادَةِ • وَمِنْ هٰذِهِ فِيمَا كَانَ وُجُودُهُ أَوْ لَا وُجُودُهُ تَابِعًا لِرَوِيَّتِنَا وَأَفْعَالِنَا عَلَى ٱلْأَكْثَرِ وَأَمَّا مَا كَانَ مِنْهَا يَعْرِضُ عَنِ ٱلرَّوِيَّةِ بِٱلِاتِّفَاقِ وَأَقَلَّ ذٰلِكَ فَلَيْسَتْ هِيَ فِي ٱلْأَكْثَرِ مِمَّا يُشَارُ بِهَا إِلَّا حَيْثُ لَا يُمْكِنُ أَنْ يُوجَدَ ٱلْجِنْسُ ٱلْآخَرُ وَقَدْ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ ٱلْإِشَارَةَ إِنَّمَا تَكُونُ بِهٰذِهِ ٱلْأَشْيَاءِ أَنَّ ٱلْإِنْسَانَ إِنَّمَا يَنْظُرُ أَوَّلًا هَلِ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِي يُرِيدُ أَنْ يَفْعَلَهُ مُمْكِنٌ ثُمَّ إِنْ كَانَ مُمْكِنًا بِأَيِّ شَيْءٍ يُمْكِنُ فَإِذَا تَبَيَّنَ لَهُ ذٰلِكَ شَرَعَ فِي ٱلسَّعْيِ فِيهِ وَإِنْ تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ غَيْرُ مُمْكِنٍ خَلَّى عَنْهُ • وَٱلْأَشْيَاءُ ٱلَّتِي بِهَا نُشِيرُ هِيَ ٱلَّتِي فِيهَا نَرَوِي. فَقَدْ تَبَيَّنَ مِنْ هٰذَا ٱلْقَوْلِ مَا هُوَ ٱلْخَيْرُ ٱلَّذِي نُشِيرُ بِهِ وَفِي أَيِّ ٱلْأَشْيَاءِ يَكُونُ وَٱلْأُمُورُ ٱلْإِرَادِيَّةُ ٱلَّتِي مَبْدَأُ وُجُودِهَا مِنَّا لَا ٱلْأُمُورُ ٱلِاضْطِرَارِيَّةُ ٱلَّتِي لَيْسَ إِلَيْنَا وُجُودُهَا وَإِعْطَاءُ ٱلْفَرْقِ ٱلتَّامِّ بَيْنَ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلْإِرَادِيَّةِ وَغَيْرِ ٱلْإِرَادِيَّةِ وَتَصْحِيحُ عَدَدِ أَنْوَاعِهَا وَمَعْرِفَةُ مَاهِيَّةِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا عَلَى أَقْصَى مَا فِي طِبَاعِهَا أَنْ تُعْلَمَ فَلَيْسَ مِنْ شَأْنِ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ أَنْ تَبْلُغَهُ مِنْ مَعْرِفَةِ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلْإِرَادِيَّةِ وَلٰكِنْ ذٰلِكَ مِنْ شَأْنِ صِنَاعَةِ ٱلْفَلْسَفَةِ ٱلَّتِي لَهَا ٱلْفَضْلُ عَلَى هٰذِهِ فِي ٱلتَّصَوُّرِ وَٱلتَّصْدِيقِ وَٱلْمُقَدَّمَاتُ ٱلْمُسْتَعْمَلَةُ فِيهَا أَصْدَقُ وَأَصَحُّ مِنْ هٰذِهِ • وَذٰلِكَ أَنَّ هُنَا لَسْنَا نَتَكَلَّمُ مِنْ مَعْرِفَةِ هٰذِهِ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلْأَحْوَالَ ٱلذَّاتِيَّةَ ٱلْمُنَاسِبَةَ لَهَا بَلِ ٱلْأُمُورَ ٱلْمَشْهُورَةَ • وَإِذَا كَانَ ٱلْأَمْرُ فِي هٰذِهِ ٱلْأَشْيَاءِ كَمَا وَصَفْنَا فَقَدْ تَبَيَّنَ أَيْضًا مِنْ هٰذَا ٱلْقَوْلِ أَنَّ جَمِيعَ مَا قُلْنَاهُ فِي أَجْزَاءِ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ هُوَ حَقٌّ أَعْنِي أَنَّهَا مُرَكَّبَةٌ مِنْ عِلْمٍ

ٱلْمَنطِقِ وَمِنْ عِلْمِ ٱلسِّيَاسَةِ ٱلْخُلُقِيَّةِ وَانَّ فِيهَا اشْيَاءَ جَدَلِيَّةً اوْ شَبِيهَةً بِٱلْاَشْيَاءِ ٱلْجَدَلِيَّةِ وَايضًا سُوفِسْطَائِيَّةً اوْ شَبِيهَةً بِٱلسُّوفِسْطَائِيَّةِ • وَٱلْاَشْيَاءُ ٱلَّتِي فِي صَنَائِعَ كَثِيرَةٍ اِنَّمَا تَكُونُ اجْزَاءً لِصِنَاعَةٍ وَاحِدَةٍ مَتَى اُخِذَ جَمِيعُهَا بِٱلْجِهَةِ وَٱلْحَالِ ٱلَّتِي بِهَا تَكُونُ تِلْكَ ٱلْاَشْيَاءُ ٱلْكَثِيرَةُ مُتَعَاوِنَةً وَنَافِعَةً فِي غَرَضِ تِلْكَ ٱلصِّنَاعَةِ ٱلْوَاحِدَةِ وَطُرِحَ مِنْهَا ٱلْاَحْوَالُ ٱلَّتِي بِهَا تَخْتَلِفُ اعْنِي ٱلْاَشْيَاءَ ٱلَّتِي لَيْسَتْ تَكُونُ بِهَا مَعْنِيَّةً فِي غَرَضِ تِلْكَ ٱلصِّنَاعَةِ ٱلْوَاحِدَةِ • وَاذَا كَانَ ذٰلِكَ كَذٰلِكَ فَٱلْاَشْيَاءُ ٱلْخُلُقِيَّةُ اِنَّمَا صَارَتْ جُزْءًا مِنْ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ مِنْ حَيْثُ هِيَ مُعَدَّةٌ نَحْوَ ٱلْكَلَامِ وَٱلْمُخَاطَبَةِ وَهِيَ مِنْ صِنَاعَةِ ٱلسِّيَاسَةِ مِنْ حَيْثُ هِيَ احَدُ ٱلْمَوْجُودَاتِ ٱلَّتِي نَقْصِدُ مَعْرِفَتَهَا وَعِلْمَهَا • وَٱلْاَشْيَاءُ ٱلْجَدَلِيَّةُ وَٱلسُّوفِسْطَائِيَّةُ اِنَّمَا صَارَتْ جُزْءًا مِنْ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ مِنْ حَيْثُ انَّهُ ٱلَّذِي تُسْتَعْمَلُ مِنْهَا هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةُ هُوَ سَابِقُ ٱلْمَعْرِفَةِ ٱلْاُولَى لِلْاِنْسَانِ لَامَا هُوَ بَعِيدٌ عَنْ مَعْرِفَةِ ٱلْجُمْهُورِ مِثْلُ انَّهَا اِنَّمَا تَسْتَعْمِلُ مِنَ ٱلْقِيَاسِ ٱلْقِيَاسَ ٱلْمَعْرُوفَ عِنْدَ ٱلْجُمْهُورِ وَهُوَ ٱلتَّمْثِيلُ وَٱلضَّمِيرُ وَكَذٰلِكَ ٱلْحَالُ فِي ٱلْاُمُورِ ٱلسُّوفِسْطَائِيَّةِ اِنَّمَا تُسْتَعْمَلُ مِنْهَا مَا جَرَتِ ٱلْعَادَةُ بِٱسْتِعْمَالِهِ عِنْدَ ٱلْجُمْهُورِ مِثْلُ مَوَاضِعِ ٱلْاِطْلَاقِ وَٱلتَّقْيِيدِ وَغَيْرُ ذٰلِكَ مِمَّا يَسْتَعْمِلُهُ بِطِبَاعِهِمِ ٱلْجُمْهُورُ فَهِيَ اِنَّمَا تُخَالِفُ هٰذِهِ بِمِقْدَارِ ٱلنَّظَرِ وَقَدْ تُخَالِفُ ايضًا بِمِقْدَارِ ٱلنَّظَرِ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةُ فِي ٱلْاُمُورِ ٱلْاِرَادِيَّةِ ٱلنَّظَرَ ٱلَّذِي لِلْعِلْمِ ٱلسِّيَاسِيِّ فِيهَا اعْنِي انَّهَا اِنَّمَا تَنْظُرُ فِي ٱلْاُمُورِ ٱلْاِرَادِيَّةِ ٱلنَّظَرَ ٱلَّذِي هُوَ فِي سَابِقِ ٱلْمَعْرِفَةِ لِلْاِنْسَانِ وَتَدَعُ تَقَصِّيَ ٱلنَّظَرِ فِي ذٰلِكَ

لِلعِلمِ ٱلسِّيَاسِيّ مِنهَا. وَٱلأُمورُ ٱلَّتِي يُشِيرُ بِهَا ٱلخَطِيبُ مِنهَا مَا يُشِيرُ بِهِ عَلَى اَهلِ مَدِينَةٍ بِاَسرِهِمْ وَمِنهَا مَا يُشِيرُ بِـهِ عَلَى وَاحِدٍ مِنْ اَهلِ تِلكَ ٱلمَدِينَةِ اَوْ جَمَاعَةٍ

البحث الرابع

في خمسة امور يدور عليها البحث في النوع المشوري وفي القياسات المختلفة بها

(من الكتاب نفسه)

(قَالَ) : فَاَمَّا ٱلاَشْيَاءُ ٱلَّتِي تَكُونُ فِيهَا ٱلمَشُورَةُ فِي ٱلأُمورِ ٱلعِظَامِ مِنْ اُمورِ ٱلمُدُنِ فَهِيَ قَرِيبَةٌ مِنْ اَنْ تَكُونَ خَمسَةً . اَحَدُهَا ٱلاِشَارَةُ بِٱلعُدَّةِ ٱلمُدَّخَرَةِ مِنَ ٱلاَموَالِ لِلمَدِينَةِ . وَٱلثَّانِي ٱلاِشَارَةُ بِٱلحَربِ اَوِ ٱلسِّلمِ . وَٱلثَّالِثُ ٱلاِشَارَةُ بِحِفظِ ٱلبَلَدِ مِمَّا يَرِدُ عَلَيهِ مِنْ خَارِجٍ . وَٱلرَّابِعُ ٱلاِشَارَةُ بِمَا يَدخُلُ فِي ٱلبَلَدِ وَيَخرُجُ عَنهُ . وَٱلخَامِسُ ٱلاِشَارَةُ بِٱلتِزَامِ ٱلسُّنَنِ . فَٱلَّذِي يُشِيرُ بِٱلعُدَّةِ يَحتَاجُ اَنْ يَعرِفَ ثَلَاثَةَ اُمورٍ اَحَدُهَا اَنْ يَعرِفَ غَلَّاتِ ٱلمَدِينَةِ مَا هِيَ اَعنِي هَلْ هِيَ نَبَاتٌ اَوْ حَيَوَانٌ اَوْ مَعدِنٌ اَوْ جَمِيعُ هٰذِهِ اَوِ ٱثنَانِ مِنهَا كَيمَا اِنْ نَقَصَ مِنَ ٱلفَاضِلِ مِنهَا لِلعُدَّةِ شَيْءٌ اَشَارَ بِٱلزِّيَادَةِ فِيهَا . وَٱلثَّانِي اَنْ يَعرِفَ مَعَ ذٰلِكَ نَفَقَاتِ اَهلِ ٱلمَدِينَةِ كُلِّهَا . وَٱلثَّالِثُ اَنْ يَعرِفَ اَصنَافَ ٱلنَّاسِ ٱلَّذِينَ فِي ٱلمَدِينَةِ فَاِنْ كَانَ فِيهَا اِنسَانٌ بَطَّالٌ

وَهُوَ ٱلَّذِي لَا فَضِيلَةَ عِنْدَهُ اَوْ عَاطِلٌ وَهُوَ ٱلَّذِي لَا صِنَاعَةَ لَهُ اَشَارَ بِتَنْحِيَتِهِ مِنَ ٱلْبَلَدِ. وَاِنْ كَانَ هُنَالِكَ عَظِيمُ ٱلنَّفَقَاتِ فِي غَيْرِ ٱلْجَمِيلِ اَوْ غَيْرِ ٱلضَّرُورِيِّ اَشَارَ بِاَخْذِ ذٰلِكَ ٱلْفَضْلِ مِنَ ٱلْمَالِ مِنْهُ فَاِنَّهُ لَيْسَ يَكُونُ ٱلْغِنَاءُ بِٱلزِّيَادَةِ فِي ٱلْمَالِ بَلْ وَبِٱلنُّقْصَانِ مِنَ ٱلنَّفَقَةِ وَلِذٰلِكَ قِيلَ : قِلَّةُ ٱلْعِيَالِ اَحَدُ ٱلْيَسَارَيْنِ

(قَالَ) وَمِنَ ٱلضَّرُورَةِ ٱلدَّاعِيَةِ اِلَى هٰذِهِ ٱلْاَشْيَاءِ وَمِقْدَارِ ٱلْحَاجَةِ اِلَيْهَا يَقِفُ ٱلْخَطِيبُ عَلَى مَا يَحْتَاجُ اَنْ يُشِيرَ بِهِ فِي وَاحِدٍ وَاحِدٍ مِنْ هٰذِهِ ٱلْاَشْيَاءِ. وَلَيْسَ يَحْتَاجُ عِنْدَ ٱلْاِشَارَةِ بِٱلزِّيَادَةِ فِي ٱلنَّبَاتِ اَنْ يَكُونَ فَلَّاحًا وَلَا فِي ٱلْحَيَوَانِ اَنْ يَكُونَ رَاعِيًا لٰكِنْ يَكْفِيهِ فِي ذٰلِكَ مَعْرِفَتُهُ بِمِقْدَارِ ٱلْحَاجَةِ اِلَيْهَا لٰكِنْ يَحْتَاجُ مَعَ هٰذَا اَنْ يَكُونَ عَالِمًا بِٱلسِّيَرِ ٱلْمُتَقَدِّمَةِ فِي هٰذِهِ ٱلْاَشْيَاءِ وَمَا عِنْدَ ٱلنَّاسِ فِيهَا. وَاَمَّا ٱلْمُشِيرُ بِٱلْحَرْبِ اَوِ ٱلسِّلْمِ فَاِنَّهُ يَحْتَاجُ اَنْ يَعْرِفَ قُوَّةَ مَنْ يُحَارِبُ وَقُوَّةَ مَنْ يُحَارِبُ وَمِقْدَارَ ٱلْاَمْرِ ٱلَّذِي يُنَالُ بِٱلْمُحَارَبَةِ هَلْ هُوَ يَسِيرٌ اَوْ عَظِيمٌ وَحَالُ ٱلْمَدِينَةِ فِي وَثَاقَتِهَا وَحَصَانَتِهَا وَضَعْفِ اَهْلِهَا وَقُوَّتِهِمْ. وَفِي صِغَرِ ٱلْمَدِينَةِ اَوْ فِي عِظَمِهَا اَعْنِي هَلْ مِقْدَارُهُمْ مِقْدَارُ مَنْ يَسْتَطِيعُ ٱلْمُحَارَبَةَ اَمْ لَيْسَ مِقْدَارُهُمْ ذٰلِكَ ٱلْمِقْدَارَ. وَهَلْ هُمْ بِصِفَةِ مَنْ تُمَكِّنُهُمُ ٱلْمُحَارَبَةُ اَمْ لَيْسَ هُمْ. وَاَنْ يَعْرِفَ مَعَ ذٰلِكَ شَيْئًا مِنَ ٱلْحُرُوبِ ٱلْمُتَقَدِّمَةِ لِيَصِفَ لَهُمْ كَيْفَ يُحَارِبُوا اِنْ اَشَارَ عَلَيْهِمْ بِٱلْحَرْبِ وَيُهَوِّنَ عَلَيْهِمْ اَمْرَ ٱلْحَرْبِ. اَوْ يُعَرِّفَهُمْ بِمَا فِي ٱلْحَرْبِ مِنْ مَكْرُوهٍ اِنْ اَشَارَ عَلَيْهِمْ بِتَرْكِ ٱلْحَرْبِ. وَقَدْ يَحْتَاجُ اَنْ يَعْرِفَ لَيْسَ

حَالَ اَهْلِ مَدِينَتِهِ فَقَطْ بَلْ وَحَالَ مَنْ فِي تُخُومِهِ وَثَغْرِهِ اَعْنِي كَيْفَ حَالُهُمْ فِي هٰذِهِ ٱلْاَشْيَاءِ وَحَالُهُمْ مَعَ عَدُوِّهِمْ فِي ٱلظَّفَرِ بِهِ اَوِ ٱلْعَجْزِ عَنْهُ فَاِنَّهُ يَأْخُذُ مِنْ هَاهُنَا مُقَدَّمَاتٍ نَافِعَةً فِي ٱلْاِشَارَةِ عَلَيْهِمْ بِٱلْحَرْبِ اَوِ ٱلسِّلْمِ. وَيَحْتَاجُ مَعَ هٰذَا اَنْ يَعْلَمَ ٱلْحُرُوبَ ٱلْجَمِيلَةَ مِنَ ٱلْحُرُوبِ ٱلْجَائِرَةِ وَاَنْ يَعْلَمَ حَالَ ٱلْاَجْنَادِ هَلْ هُمْ مُتَشَابِهُونَ فِي ٱلْقُوَّةِ وَٱلشَّجَاعَةِ وَٱلرَّأْيِ وَاِجَادَةِ مَا فُوِّضَ اِلَى صِنْفٍ صِنْفٍ مِنْهُمْ مِنَ ٱلْقِيَامِ بِجُزْءٍ جُزْءٍ مِنْ اَجْزَاءِ ٱلْحَرْبِ. اَعْنِي اَنْ يَكُونُوا فِي ذٰلِكَ مُتَشَابِهِينَ فَاِنَّهُ رُبَّمَا كَثُرُوا وَتَنَاسَلُوا حَتَّى يَكُونَ فِيهِمْ مَنْ لَا يَصْلُحُ لِلْحَرْبِ اَوْ لِلْجُزْءِ مِنَ ٱلْحَرْبِ ٱلَّذِي فُوِّضَ اِلَيْهِ ٱلْقِيَامُ بِهِ. وَقَدْ يَنْبَغِي مَعَ هٰذَا اَنْ يَكُونَ نَاظِرًا لَيْسَ فِيمَا اَفْضَتْ اِلَيْهِ مُحَارَبَتُهُمْ بَلْ وَفِيمَا اَفْضَتْ اِلَيْهِ حُرُوبُ سَائِرِ ٱلنَّاسِ مِنَ ٱلْمُتَقَدِّمِينَ ٱلْمُشَابِهِينَ لَهُمْ فَاِنَّ ٱلشَّبِيهَ يُحْكَمُ مِنْهُ عَلَى ٱلشَّبِيهِ. اَعْنِي اَنَّهُ اِنْ كَانَ اَفْضَتِ ٱلْحُرُوبُ ٱلشَّبِيهَةُ بِحَرْبِهِمْ اِلَى مَكْرُوهٍ اَنْ يُشِيرَ بِٱلسِّلْمِ وَاِنْ كَانَتْ اَفْضَتْ اِلَى ٱلظَّفَرِ اَنْ يُشِيرَ بِٱلْحَرْبِ. وَاَمَّا حِفْظُ ٱلْبِلَادِ فَاِنَّهُ يَحْتَاجُ ٱلْمُشِيرُ بِٱلْحِفْظِ اَنْ يَعْرِفَ كَيْفَ تُحْفَظُ ٱلْبِلَادُ وَمَا مِقْدَارُ ٱلْحِفْظِ ٱلْمُحْتَاجِ اِلَيْهِ فِي طَارِئٍ طَارِئٍ وَكَمْ اَنْوَاعُ ٱلْحِفْظِ. وَيَعْرِفَ مَعَ هٰذَا ٱلْمَوَاضِعَ ٱلَّتِي يَكُونُ حِفْظُهَا بِٱلرِّجَالِ وَهِيَ ٱلَّتِي تُسَمَّى ٱلْمَسَالِحَ. فَاِنْ كَانَ ٱلْحِفْظُ لِتِلْكَ ٱلْمَوَاضِعِ قَلِيلًا زَادَ فِيهِمْ وَاِنْ كَانَ فِيهِمْ مَنْ لَا يَصْلُحُ لِلْحِفْظِ نَحَّاهُ مِمَّنْ لَيْسَ يَقْصِدُ قَصْدَ ٱلْمُحَامَاةِ عَنِ ٱلْمَدِينَةِ بَلْ يَقْصِدُ قَصْدَ نَفْسِهِ. وَيَنْبَغِي لَهُ اَنْ يَحْفَظَ اَكْثَرَ مِنْ ذٰلِكَ ٱلْمَوَاضِعَ ٱلْخَفِيَّةَ

اعني التي المنفعة بحفظها اكثر . فمن عرف هذا فقد يمكنه ان يشير بالحفظ وان يكون خبيرًا بالبلاد التي يشير بحفظها . واما الاشارة بالقوت وسائر الاشياء الضرورية التي تحتاجها المدينة فانه يحتاج المشير فيه ان يعرف مقدارها وكم يكفي المدينة منها وكم الحاضر الموجود في المدينة من ذلك وهل ادخل الكافي من ذلك في المدينة واحرز ام لم يدخل . وما الاشياء التي ينبغي ان تخرج من المدينة وهو الفاضل عن اهل المدينة . وما الاشياء التي ينبغي ان تدخل وهو ما قصر عن الضروري لتكون مشورته وما يعهد به على حسب ذلك فانه قد يحتاج المرء ان يحفظ اهل مدينته لامرين : احدهما لمكان ذوي الفضائل والثاني لمكان ذوي المال الذين من اجل ذوي الفضائل . والحافظ للمدن يحتاج بالجملة الى ان يكون عارفًا بجميع هذه الانواع الخمسة عند حفظه لها

(قال) واما النظر في وضع السنن والاشارة بها فليس بيسير في امر المدن فان المدن انما تسلم ويلتئم وجودها بالسنن ولذلك قد ينبغي لواضع السنن ان يعرف كم اصناف السياسات واي سنة تنفع في سياسة سياسة واي سنة لا تنفع واي ناس تصلح بهم سنة سنة وسياسة سياسة واي ناس لا تصلح بهم وان يكون يعرف الاشياء التي يخاف ان يدخل منها الفساد على المدينة . وذلك اما من الاضداد من خارج واما من اهل المدينة فان سائر المدن ما عدا المدينة الفاضلة قد تفسد من قبل السنن

ٱلْمَوْضُوعَةِ فِيهَا وَذٰلِكَ إِذَا كَانَتِ ٱلسُّنَّةُ مُفْرِطَةَ ٱلضَّعْفِ وَٱللِّينِ أَوْ مُفْرِطَةَ ٱلشِّدَّةِ وَسَوَاءٌ كَانَتْ فِي رَأْيٍ أَوْ فِي خُلُقٍ أَوْ فِي فِعْلٍ وَذٰلِكَ أَنَّ ٱلسِّيَاسَةَ ٱلَّتِي تُسَمَّى ٱلْحُرِّيَّةَ قَدْ يَظْهَرُ مِنْ أَمْرِهَا أَنَّهَا تَنْتَقِلُ كَثِيرًا مِنْ قِبَلِ هٰذَا ٱلْمَعْنَى إِلَى رِئَاسَةِ ٱلْخِسَّةِ أَعْنِي رِئَاسَةَ ٱلشَّهَوَاتِ أَوْ رِئَاسَةَ ٱلْمَالِ وَٱلَّذِي قَالَهُ ظَاهِرٌ عِنْدَنَا مِنْ أَمْرِ ذَوِي ٱلسِّيَاسَاتِ ٱلَّتِي وَصَلَتْنَا أَخْبَارُهُمْ

(قَالَ) وَلَيْسَ يَؤُولُ ٱلْأَمْرُ فِي هٰذِهِ ٱلسِّيَاسَةِ أَعْنِي سِيَاسَةَ ٱلْحُرِّيَّةِ إِلَى سِيَاسَةِ ٱلْأَخِسَّاءِ مِنْ قِبَلِ ٱسْتِرْخَاءِ ٱلسُّنَنِ وَلِينِهَا وَإِنْ كَانَ ذٰلِكَ هُوَ ٱلْأَكْثَرَ بَلْ وَمِنْ قِبَلِ ٱلْإِفْرَاطِ فَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ ٱلْأَشْيَاءِ إِذَا أُفْرِطَتْ بَطَلَ وُجُودُهَا كَمَا يَبْطُلُ وُجُودُهَا مِنْ قِبَلِ ٱلضَّعْفِ وَٱلتَّقْصِيرِ. وَمِثَالُ ذٰلِكَ أَنَّ ٱلْفَطَسَ إِذَا أَفْرَطَ وَتَفَاقَمَ كَانَ قَرِيبًا مِنْ أَنْ يُظَنَّ أَنَّهُ لَيْسَ هُنَالِكَ أَنْفٌ وَإِذَا كَانَ غَيْرُ مُفْرِطٍ قَرُبَ مِنَ ٱلْاعْتِدَالِ

(قَالَ) وَيَحْتَاجُ مَعَ ذٰلِكَ أَنْ يَعْرِفَ ٱلسُّنَنَ ٱلَّتِي وَضَعَهَا كَثِيرٌ مِنَ ٱلنَّاسِ فَٱنْتَفَعُوا بِهَا فِي سِيَاسَةٍ سِيَاسَةٍ مِنَ ٱلسِّيَاسَاتِ ٱلْمَشْهُورَةِ وَفِي أُمَّةٍ أُمَّةٍ لِيَسْتَعْمِلَ مِنْهَا ٱلنَّافِعَ ٱلَّذِي يَخُصُّهُ وَٱلْأُمَّةَ ٱلَّتِي تَخُصُّهُ. وَلِذٰلِكَ تَبَيَّنَ أَنَّ مَعْرِفَةَ وَاضِعِ ٱلسُّنَنِ بِأَمْزِجَةِ ٱلنَّاسِ وَأَخْلَاقِهِمْ وَعَادَاتِهِمْ مِمَّا يُنْتَفَعُ بِهِ فِي وَضْعِ ٱلسُّنَنِ فَإِنَّ مِنْ هَاهُنَا يُمْكِنُ أَنْ يَضَعَ ٱلسُّنَنَ ٱلنَّافِعَةَ لِجَمِيعِ ٱلْأُمَمِ ٱلْمُخْتَلِفَةِ ٱلطَّبَائِعِ. وَأَمَّا ٱلْفَسَادُ ٱلدَّاخِلُ عَلَى ٱلْمُدُنِ مِنْ خَارِجٍ أَعْنِي مِنَ ٱلْأَعْدَاءِ فَأَمْرٌ ظَاهِرٌ بِنَفْسِهِ

وَقَدْ كَتَبَ ٱلنَّاسُ فِي ٱلْأَوْجُهِ ٱلَّتِي يُتَوَقَّعُ مِنْهَا غَلَبَةُ ٱلْأَعْدَاء وَٱلْأَوْجُهِ ٱلَّتِي يُتَحَرَّزُ بِهَا مِنْهُمْ. وَمِنْ هٰذِهِ ٱلْأَشْيَاءِ يَأْخُذُ ٱلْمُقَدَّمَاتِ ٱلَّتِي يُشِيرُ بِهَا عَلَى اَهْلِ مَدِينَتِهِ بِٱلتَّحَفُّظِ مِنَ ٱلْأَعْدَاء وَمَا قُلْنَا فِي وَضْعِ ٱلسُّنَنِ وَمَا يَحْتَاجُ اِلَيْهِ وَاضِعُهَا هُوَ مِنْ عِلْمِ ٱلسِّيَاسَةِ لَا مِنْ عِلْمِ ٱلْخَطَابَةِ. وَاِنَّمَا يُذْكَرُ مِنْهَا هَاهُنَا مَا يَكْفِي فِي هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ

البحث الخامس

في السبب الذي من اجلهِ يشير الخطيب وهو سعادة السامع وفي ماهية السعادة وانواع الخيور التي من مجموعها تتولد السعادة

(من الكتاب نفسهِ)

(قَالَ) فَهٰذِهِ هِيَ ٱلْأُمُورُ ٱلْعُظْمَى ٱلَّتِي بِهَا يُشِيرُ ٱلْمُشِيرُونَ عَلَى اَهْلِ ٱلْمُدُنِ وَفِيهَا دَلَالَةٌ عَلَى ٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي مِنْهَا يُشَارُ عَلَى وَاحِدٍ وَاحِدٍ مِنَ ٱلنَّاسِ. وَنَحْنُ قَائِلُونَ ٱلْآنَ فِي ٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي مِنْهَا يَكُونُ ٱلْإِذْنُ وَٱلْمَنْعُ لِوَاحِدٍ وَاحِدٍ مِنَ ٱلنَّاسِ وَمُبْتَدِئُونَ اَوَّلًا بِٱلْإِخْبَارِ عَنِ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي مِنْ اَجْلِهَا يُشِيرُ ٱلْمُشِيرُونَ فَيَأْذَنُونَ فِيهَا اَوْ يَمْنَعُونَ مِنْ اَضْدَادِهَا. وَيُشْبِهُ اَنْ يَكُونَ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنَ ٱلنَّاسِ ٱنْفِعَالٌ مَا وَتَشَوُّقٌ بِٱلطَّبْعِ لِلْخَيْرِ ٱلَّذِي يَتَشَوَّقُهُ ٱلْكُلُّ لِنَفْسِهِ وَيُشِيرُ بِهِ عَلَى غَيْرِهِ مِنْ غَيْرِ اَنْ يَعْرِفَ وَاحِدٌ مِنْهُمْ مَا هُوَ ذٰلِكَ ٱلْخَيْرُ فَيَخْتَارُونَهُ وَيُؤْثِرُونَهُ عَلَى غَيْرِهِ. اَوْ اِذَا سُئِلَ عَنْهُ اَجَابَ فِيهِ بِجَوَابٍ مُنْبِئٍ عَنْ

طبيعته بل انما عند كل واحد منهم وجوده فقط. واذا سئل واحد واحد منهم عما يدل عليه اسمه اجاب فيه بجواب غير الجواب الذي يجيب فيه الآخر. وانما يؤثره الجميع لمكان هذا الانفعال الموجود له بالطبع عند الجميع وهذا الخير في الجملة هو صلاح الحال واجزاء صلاح الحال. ولذلك فقد ينبغي ان نفصل اولا ما هو صلاح الحال بقول عام ثم نفصل اجزاءه ونخبر عن اضدادها وعن الاشياء التي يكون فيها الاذن والمنع وهي النافعة في صلاح الحال او الانفع فيه او الضارة فيه او الاضر فيه فان بهذا يتم لنا القول في الاشياء التي منها تلتئم الاقاويل المشورية المستعملة مع جميع الناس

(قال) والذين تكلموا في هذه الصناعة فلم يتكلموا من هذه الاشياء الا فيما يجري مجرى الامور الكلية مثل انهم قالوا: ينبغي للخطيب ان يعظم الشيء الصغير اذا اراد تفخيمه ويصغر الشيء الكبير اذا اراد تهوينه. وينبغي له ان لا يأذن في الاشياء التي تفسد صلاح الحال وفي الاشياء التي تعوق عن صلاح الحال او تجاوز صلاح الحال الى ضده. ولم يقولوا ما هي الاشياء التي بها يعظم الشيء او يصغر ولا ما هي الاشياء التي توجب اختلال صلاح الحال او تعوقه او تجاوزه الى ضده

(قال) فاما صلاح الحال فهو حسن الفعل مع فضيلة وطول من العمر وحياة لذيذة مع السلامة والسعة في المال وحسن الحال

عِنْدَ ٱلنَّاسِ مَعَ تَحْصِيلِ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلْحَافِظَةِ لِهٰذِهِ ٱلْأَشْيَاءِ وَٱلْفَاعِلَةِ لَهَا . وَقَدْ يَشْهَدُ أَنَّ هٰذَا هُوَ رَسْمُ صَلَاحِ ٱلْحَالِ ٱلْمَشْهُورُ أَنَّ جَمِيعَ ٱلنَّاسِ يَرَوْنَ أَنَّ صَلَاحَ ٱلْحَالِ هُوَ هٰذَا أَوْ شَيْءٌ قَرِيبٌ مِنْ هٰذَا وَإِذَا كَانَ صَلَاحُ ٱلْحَالِ هُوَ هٰذَا فَأَجْزَاؤُهُ هِيَ كَرَمُ ٱلْحَسَبِ وَكَثْرَةُ ٱلْإِخْوَانِ وَٱلْأَوْلَادِ وَٱلْيَسَارُ وَحُسْنُ ٱلْفِعْلِ وَٱلشَّيْخُوخَةُ ٱلصَّالِحَةُ وَفَضَائِلُ ٱلْجَسَدِ مِثْلُ ٱلصِّحَّةِ وَٱلْجَمَالِ وَٱلْجَلَدِ وَٱلْجَزَالَةِ وَٱلْبَطْشِ وَٱلْمَجْدِ وَٱلْجَلَالَةِ وَٱلسَّعَادَةِ وَٱلْفَضِيلَةِ وَأَجْزَاؤُهَا مِثْلُ ٱلْعَقْلِ وَٱلشَّجَاعَةِ وَٱلْعَفَافِ وَٱلْعَدَالَةِ وَٱلْبِرِّ فَإِنَّهُ هٰكَذَا أَحْرَى أَنْ يَكُونَ ٱلْإِنْسَانُ مَوْفُورًا مُكْتَفِيًا أَعْنِي إِذَا كَانَتْ لَهُ ٱلْخَيْرَاتُ ٱلْمَوْجُودَةُ مِنْ خَارِجٍ . وَٱلْخَيْرَاتُ ٱلْمَوْجُودَةُ فِيهِ ٱلنَّفْسَانِيَّةُ وَٱلْجَسَدَانِيَّةُ وَٱلَّتِي مِنْ خَارِجٍ هِيَ ٱلْحَسَبُ وَٱلْإِخْوَانُ وَٱلْمَالُ وَٱلْكَرَامَةُ وَقَدْ يُظَنُّ أَنَّهُ يُعَدُّ مَعَ هٰذِهِ نُفُوذُ ٱلْأَمْرِ وَٱلنَّهْيِ وَٱلِاتِّفَاقَاتُ ٱلْجَمِيلَةُ وَهِيَ ٱلْمُسَمَّاةُ عِنْدَ ٱلنَّاسِ سَعَادَةً فَإِنَّ بِهٰذِهِ ٱلْأَشْيَاءِ تَكُونُ حَيَاةُ ٱلْمَرْءِ فِي سِيرَتِهِ حَيَاةَ مَنْ لَا يَنْقُصُهُ شَيْءٌ مِنْ خَارِجٍ وَلَا يَشُوبُ خَيْرَهُ شَيْءٌ مُضَادٌّ . وَإِذَا كَانَ هٰذَا هٰكَذَا فَيَجِبُ أَنْ نَنْظُرَ فِي كُلِّ وَاحِدٍ مِنْ هٰذِهِ مَا هُوَ بِحَسَبِ ٱلنَّظَرِ ٱلْمَقْصُودِ هُنَا وَهُوَ ٱلنَّظَرُ ٱلْمَشْهُورُ . فَأَمَّا ٱلْحَسَبُ فَهُوَ أَنْ يَكُونَ ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ هُوَ مِنْهُمْ هُمْ أَوَّلَ مَنْ نَزَلَ ٱلْمَدِينَةَ أَوْ يَكُونُوا قُدَمَاءَ ٱلنُّزُولِ فِيهَا وَيَكُونُوا مَعَ هٰذَا حُكَّامًا أَوْ رُؤَسَاءَ ذَوِي ذِكْرٍ جَمِيلٍ وَكَثْرَةِ عَدَدٍ وَأَنْ يَكُونُوا مَعَ هٰذَا أَحْرَارًا لَمْ يَجُزْ عَلَيْهِمْ سِبَاءٌ أَوْ يَكُونُوا مِمَّنْ نَالَ ٱلْأُمُورَ ٱلْجَمِيلَةَ ٱلْمَقْبُولَةَ عِنْدَ ٱلنَّاسِ وَإِنْ لَمْ

يَكُونوا حُكَّاماً وَلَا رُؤَسَاءَ . فَامَّا ٱلنَّظَرُ فِي ٱلْحَسَبِ هَلْ هُوَ مِنَ ٱلرِّجَالِ فَقَطْ اَوْ مِنَ ٱلنِّسَاءِ فَٱلظَّاهِرُ مِنْ ذٰلِكَ وَٱلْمُتَفَقُ عَلَيْهِ عِنْدَ ٱلْجَمِيعِ انَّهُ يَكُونُ اَتَمَّ اِذَا كَانَ مِنْ كِلَيْهِمَا . وَيَنْبَغِي انْ يَسْتَعْمِلَ ٱلْخَطِيبُ مِنْ ذٰلِكَ ٱلْمَشْهُورَ فِي اُمَّةٍ اُمَّةٍ . وَمِنْ شُرُوطِ ٱلْحَسَبِ اَنْ يَكُونَ ٱلرُّؤَسَاءُ وَٱلْاَحْرَارُ مِنْ اُولَئِكَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ شُهِرُوا بِٱلْفَضِيلَةِ وَٱلْيَسَارِ وَغَيْرِ ذٰلِكَ مِنَ ٱلْمَكْرُمَاتِ لَمْ يَنْقَطِعْ وُجُودُهُمْ فِي ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ هُوَ مِنْهُمْ اِلَى وُجُودِهِ هُوَ بَلْ يُوجَدُ فِي ذٰلِكَ ٱلْجِنْسِ اَبَدًا اَشْيَاخٌ بِهٰذِهِ ٱلصِّفَةِ يَخْلُفُهُمْ غِلْمَانٌ فِي تِلْكَ ٱلْخِصَالِ . فَانَّهُ اِنِ ٱنْقَطَعَ ٱلشَّرَفُ فِي ذٰلِكَ ٱلْجِنْسِ ٱلَّذِي هُوَ مِنْهُمْ لَمْ يَكُنْ حَسِيبًا وَاِنْ لَمْ يَنْقَطِعْ مِنْهُمْ فَهُوَ حَسِيبٌ وَاِنِ ٱنْقَطَعَ فِيمَنْ وُلِدَ مِنْهُمْ . وَامَّا حُسْنُ ٱلْحَالِ بِٱلْاَوْلَادِ وَكَثْرَتِهِمْ فَهُوَ مِمَّا لَا خَفَاءَ بِهِ وَحُسْنُ ٱلْحَالِ بِٱلْاَوْلَادِ ٱلْمُشْتَرَكُ لِلْجَمِيعِ هُوَ كَثْرَةُ ٱلْفِتْيَانِ وَصَلَاحُهُمْ فِي فَضَائِلِ ٱلْجَسَدِ وَفَضَائِلِ ٱلنَّفْسِ . امَّا فِي فَضَائِلِ ٱلْجَسَدِ فَبِارْبَعٍ اِحْدَاهَا ٱلْجَزَالَةُ وَهِيَ اَنْ تَكُونَ خِلْقَتُهُمْ خُلُقًا طَبِيعِيَّةً يَفُوقُونَ فِيهَا كَثِيرًا مِنَ ٱلنَّاسِ . وَٱلثَّانِيَةُ ٱلْجَمَالُ . وَٱلثَّالِثَةُ ٱلشِّدَّةُ . وَٱلرَّابِعَةُ ٱلْبَطْشُ فَبِهٰذِهِ ٱلْاَرْبَعِ يَكُونُ ٱلْغِلْمَانُ صَالِحِينَ فِي فَضَائِلِ اَجْسَامِهِمْ . وَامَّا فِي فَضَائِلِ ٱلنُّفُوسِ فَيَكُونُونَ بِٱثْنَتَيْنِ بِٱلْعَفَافِ وَٱلشَّجَاعَةِ . وَامَّا مَا قَدْ يَكُونُ بِهِ صَلَاحُ حَالِ بَعْضِ ٱلنَّاسِ فَكَثْرَةُ ٱلْاَوْلَادِ مِنَ ٱلذُّكُورِ وَٱلْاِنَاثِ . وَصَلَاحُ ٱلْحَالِ بِٱلْاِنَاثِ اَيْضًا يَكُونُ بِفَضِيلَتَيْنِ فِي ٱلْجَسَدِ وَٱلنَّفْسِ . امَّا فِي ٱلْجَسَدِ فَٱثْنَتَانِ ٱلْعَبَالَةُ وَهُوَ عِظَمُ ٱلْاَعْضَاءِ ٱلْعِظَمَ ٱلطَّبِيعِيَّ

وَكَثْرَةُ ٱللَّحْمِ ٱلطَّبِيعِيِّ لَا ٱللَّوْنُ وَٱلْجَمَالُ. وَامَّا فِي ٱلنَّفْسِ فَثَلَاثٌ ٱلْعَفَافُ وَحُبُّ ٱلْأُلْفَةِ وَحُبُّ ٱلْكَدِّ فَانَّ بِهٰذِهِ ٱلْفَضَائِلِ يَكْمُلُ ٱلْمَنْزِلُ وَهٰذِهِ ٱلْفَضَائِلُ ٱلَّتِي قُلْنَا سَبِيلُهَا انْ تُوجَدَ فِي ٱلنِّسَاءِ كُلِّهِنَّ ٱللَّاتِي مِنْ نَسَبِ ذٰلِكَ ٱلرَّجُلِ عَلَى ٱلْعُمُومِ وَفِي ٱلرِّجَالِ كُلِّهِمْ عَلَى ٱلْعُمُومِ وَفِي اوْلَادِهِ ٱلذُّكُورِ خَاصَّةً اذْ كَانَ ٱلْوَلَدُ بِهِ ٱلصَّقَ. وَقَدْ يَنْبَغِي لِلْخَطِيبِ انْ يَنْظُرَ هَلِ ٱلْفَضَائِلُ ٱلَّتِي هُوَ مِنْهَا هِيَ هٰذِهِ ٱلْفَضَائِلُ عِنْدَهُمْ اعْنِي فِي اوْلَادِهِمْ امْ لَيْسَ هِيَ هٰذِهِ فَانَّ كَثِيرًا مِنَ ٱلْامَمِ يُرَبُّونَ اوْلَادَهُمُ ٱلذُّكُورَ وَٱلْانَاثَ بِٱلزِّينَةِ وَٱلسِّمَنِ وَهٰؤُلَاءِ يَقُولُ فِيهِمْ ارِسْطُو انَّهُ قَدْ فَاتَهُمُ ٱلنِّصْفُ مِنْ صَلَاحِ ٱلْحَالِ بِٱلْابْنَاءِ. فَامَّا اجْزَاءُ ٱلْيَسَارِ فَبِكَثْرَةِ ٱلدَّنَانِيرِ وَٱلْارَضِينَ وَٱلْعَقَارِ وَٱلْاثَاثِ وَٱلْامْتِعَةِ وَٱلْمَوَاشِي وَجَمِيعِ ٱلْاشْيَاءِ ٱلْمُخْتَلِفَةِ فِي ٱلنَّوْعِ وَٱلْجِنْسِ. وَكُلُّ ذٰلِكَ اذَا كَانَتْ هٰذِهِ ٱلْاشْيَاءُ فِي حِفْظٍ وَمَعَ حُرِّيَّةٍ وَانْ يَكُونَ فِيهَا مُتَمَتِّعًا ايْ مُلْتَذًّا لَا حَافِظًا لَهَا فَقَطْ اوْ مُنْمِيًا

(قَالَ) وَمِنَ ٱلْامُورِ ٱلنَّافِعَةِ فِي ٱلْيَسَارِ وَٱلْفَاعِلَةِ لَهُ ٱلْاشْجَارُ ٱلْمُثْمِرَةُ وَٱلْغَلَّاتُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ. وَٱللَّذِيذُ مِنْ هٰذِهِ هُوَ مَا يُجْنَى بِغَيْرِ تَعَبٍ وَلَا نَفَقَةٍ وَحَدُّ ٱلْحِفْظِ وَٱلْاحْرَازِ لِلْمَالِ هُوَ انْ يَكُونَ فِي ٱلْمَوْضِعِ ٱلَّذِي لَا يُتَعَذَّرُ مِنْهُ عَلَيْهِ وَانْ يَكُونَ بِٱلْحَالِ ٱلَّتِي يُمْكِنُ انْ يَنْتَفِعَ بِهَا مِثْلَ انْ اذَا كَانَتْ ارْضًا الَّا تَكُونَ سَبِخَةً وَانْ كَانَ فَرَسًا الَّا يَكُونَ جَمُوحًا. وَحَدُّ ٱلْحُرِّيَّةِ فِي ٱلْمَالِ انْ يَكُونَ الَيْهِ ٱلتَّصَرُّفُ فِي ٱلْمَالِ بِٱلْاعْطَاءِ وَٱلْبَيْعِ وَٱلشِّرَاءِ وَامَّا ٱلتَّنَعُّمُ بِٱلْمَالِ

فَهُوَ ٱسْتِعْمَالُهُ عَلَى طَرِيقِ ٱلتَّلَذُّذِ بِهِ . وَإِنَّمَا ٱشْتَرَطَ فِي ٱلْغِنَى هٰذَا ٱلشَّرْطَ لِأَنَّهُ أَنْ يَكُونَ ٱلْغِنَى فِي ٱسْتِعْمَالِ ٱلْمَالِ أَحْرَى مِنْهُ أَنْ يَكُونَ فِي ٱقْتِنَائِهِ لِأَنَّ ٱلِٱقْتِنَاءَ هُوَ فَاعِلُ ٱلْغِنَى وَأَمَّا ٱلِٱسْتِعْمَالُ فَهُوَ ٱلْغِنَى بِعَيْنِهِ وَأَمَّا حُسْنُ ٱلْفِعْلِ عَلَى ٱلرَّأْيِ ٱلصَّوَابِ فَهُوَ ٱلَّذِي يَظُنُّهُ ٱلْكُلُّ فَاعِلًا وَهُوَ ٱلَّذِي يَقْتَنِي ٱلشَّيْءَ ٱلَّذِي يَتَشَوَّقُهُ ٱلْأَكْثَرُ لَا مَحَالَةَ أَوِ ٱلْأَخْيَارُ مِنَ ٱلنَّاسِ وَذَوُو ٱلْكَيْسِ وَٱلْفِطْنَةِ

(قَالَ) وَأَمَّا ٱلْكَرَامَةُ فَإِنَّهَا فِي زَمَانِنَا هٰذَا لِلْمُعْتَنِي بِحُسْنِ ٱلْفِعْلِ وَإِكْرَامِ ٱلنَّاسِ ٱلَّذِينَ لَهُمُ ٱلْعِنَايَةُ ٱلْحَسَنَةُ بِهِمْ هِيَ مُكَافَاةٌ عَلَى طَرِيقِ ٱلْعَدْلِ وَٱلْحَقِّ إِذْ كَانَتْ هٰذِهِ ٱلْأَفْعَالُ لَيْسَ تُكَافِئُهَا ٱلدَّنَانِيرُ وَٱلدَّرَاهِمُ . وَلَيْسَ يُكْرَمُ ٱلَّذِينَ لَهُمُ ٱلْعِنَايَةُ ٱلْحَسَنَةُ بِٱلنَّاسِ فَقَطْ بَلْ وَٱلَّذِينَ يَسْتَطِيعُونَ أَنْ تَكُونَ لَهُمُ ٱلْعِنَايَةُ ٱلْحَسَنَةُ أَعْنِي ٱلَّذِينَ لَهُمْ قُوَّةٌ عَلَى ذٰلِكَ وَإِنْ لَمْ يَفْعَلُوا ذٰلِكَ فِي حَالِ ٱلْإِكْرَامِ وَٱلْعِنَايَةِ بِٱلنَّاسِ ٱلَّتِي تَسْتَوْجِبُ ٱلْكَرَامَةَ هِيَ ٱلْعِنَايَةُ تُخَلِّصُهُمْ مِنَ ٱلشُّرُورِ ٱلَّتِي لَيْسَ ٱلتَّخْلِيصُ مِنْهَا بِهَيِّنٍ أَوْ إِفَادَتُهُمُ ٱلْخَيْرَاتِ ٱلَّتِي لَيْسَ إِفَادَتُهَا بِٱلسَّهْلِ . وَهٰذِهِ ٱلْأَفْعَالُ ٱلْجَمِيلَةُ هِيَ تَكُونُ عَنِ ٱلْغِنَى أَوِ ٱلسُّلْطَانِ أَوْ مَا أَشْبَهَ ذٰلِكَ مِمَّا يَكُونُ لِلْإِنْسَانِ بِهِ ٱلْقُدْرَةُ عَلَى أَمْثَالِ هٰذِهِ ٱلْأَفْعَالِ وَقَدْ يُكْرَمُ كَثِيرٌ مِنَ ٱلنَّاسِ عَلَى خَيْرَاتٍ يَسِيرَةٍ لٰكِنَّهَا تَكُونُ كَثِيرَةً بِٱلْإِضَافَةِ إِلَى ذٰلِكَ ٱلزَّمَانِ وَإِلَى تِلْكَ ٱلْحَالِ . فَكَانَ ٱلْكَرَامَةُ عَلَى ٱلْأَشْيَاءِ ٱلْيَسِيرَةِ هِيَ بِٱلْعَرَضِ أَيْ مِنْ جِهَةِ مَا عَرَضَ لِتِلْكَ ٱلْأَشْيَاءِ أَنْ تَكُونَ كَثِيرَةً بِٱلْإِضَافَةِ

اِلَى ذٰلِكَ ٱلْوَقْتِ اَوِ ٱلْحَالِ. وَاَمَّا ٱلْاَشْيَاءُ ٱلَّتِي تَكُونُ بِهَا ٱلْكَرَامَةُ فَمِنْهَا مُشْتَرَكَةٌ لِجَمِيعِ ٱلْاُمَمِ وَمِنْهَا خَاصَّةٌ. فَٱلْخَاصَّةُ مِثْلُ ٱلذَّبَائِحِ وَٱلْقَرَابِينِ ٱلَّتِي كَانَتْ قَدْ جَرَتْ عَادَةُ ٱلْيُونَانِيِّينَ اَنْ يُكْرِمُوا بِهَا ٱلْاَمْوَاتَ. وَمِنْهَا عَامَّةٌ وَهِيَ ٱلْمَرَاتِبُ فِي ٱلْمَجَالِسِ وَٱلْمُسَارَعَةُ اِلَى اَقْوَالِهِ وَتَرْكُ مُخَالَفَتِهِ وَٱلْهَدَايَا ٱلَّتِي تُوجِبُ ٱلْمَحَبَّةَ وَٱلْقُرْبَ. فَاِنَّ ٱلْهَدِيَّةَ جَمَعَتْ اَمْرَيْنِ بَذْلَ ٱلْمَالِ وَٱلْكَرَامَةَ وَلِذٰلِكَ كَانَتْ مُسْتَحَبَّةً لِجَمِيعِ ٱلنَّاسِ وَكُلُّ اِنْسَانٍ يَجِدُ فِيهَا مَا يَتَشَوَّقُهُ وَذٰلِكَ اَنَّ ٱلنَّاسَ ثَلَاثَةُ اَصْنَافٍ اِمَّا صِنْفٌ يُحِبُّ ٱلْكَرَامَةَ وَاِمَّا صِنْفٌ يُحِبُّ ٱلْمَالَ وَاِمَّا صِنْفٌ يَجْمَعُ ٱلْاَمْرَيْنِ. وَٱلْهَدِيَّةُ قَدْ جَمَعَتْ مُتَشَوَّقَ هٰذِهِ ٱلْاَصْنَافِ ٱلثَّلَاثَةِ

(قَالَ) وَاَمَّا فَضِيلَةُ ٱلْجَسَدِ فَٱلصِّحَّةُ وَذٰلِكَ اَنْ يَكُونُوا عَزِيزِينَ مِنَ ٱلْاَسْقَامِ ٱلْبَتَّةَ وَاَنْ يَسْتَعْمِلُوا اَبْدَانَهُمْ لِاَنَّ مَنْ لَا يَسْتَعْمِلُ صِحَّتَهُ فَلَيْسَ تَغْبِطُ نَفْسُهُ بِٱلصِّحَّةِ اَيْ لَيْسَ هُوَ حَسَنَ ٱلْحَالِ بِهَا وَهُوَ بَعِيدٌ مِنْ جَمِيعِ ٱلْاَفْعَالِ ٱلْاِنْسَانِيَّةِ اَوْ مِنْ اَكْثَرِهَا

(قَالَ) وَاَمَّا ٱلْحُسْنُ فَاِنَّهُ مُخْتَلِفٌ بِٱخْتِلَافِ اَصْنَافِ ٱلْاَسْنَانِ فَحُسْنُ ٱلْغِلْمَانِ وَجَمَالُهُمْ هُوَ اَنْ تَكُونَ اَبْدَانُهُمْ وَخَلْقُهُمْ بِهَيْئَةٍ يَعْسُرُ بِهَا قَبُولُهُمُ ٱلْآلَامَ وَٱلْاِنْفِعَالَ اَيْ لَا يَكُونُونَ غَيْرَ مُحْتَمِلِينَ لِلْاَذَى وَاَنْ يَكُونُوا بِحَيْثُ يُسْتَلَذُّ اَنْ يُنْظَرَ اِلَيْهِمْ عِنْدَ ٱلْجَرْيِ وَٱلْغَلَبَةِ

(قَالَ) وَلِذٰلِكَ مَا يَرَى ٱلنَّاسُ ٱلْغِلْمَانَ ٱلَّذِينَ هُمْ مُهَيَّأُونَ نَحْوَ ٱلْخَمْسِ

ٱلْمُزَاوَلَاتِ وَٱللَّعِبَاتِ حِسَانًا جِدًّا وَنَعْنِي بِٱلْخَمْسِ ٱلْمُزَاوَلَاتِ وَٱللَّعِبَاتِ ٱلْأَشْيَاءَ ٱلَّتِي كَانَ ٱلْيُونَانِيُّونَ يُرَوِّضُونَ بِهَا صِبْيَانَهُمْ وَهِيَ ٱلْعَدْوُ وَٱلرُّكُوبُ وَٱلْمُثَاقَفَةُ وَٱلصِّرَاعُ وَٱلْمُلَاكَزَةُ

(قَالَ) وَإِنَّمَا كَانَ ٱلنَّاسُ يَرَوْنَ فِيمَنْ كَانَ مُهَيَّأً نَحْوَ هٰذِهِ ٱلْأَفْعَالِ ٱلْخَمْسَةِ أَنَّهُ جَمِيلٌ لِأَنَّهُ مُهَيَّأٌ بِهَا نَحْوَ ٱلْخِفَّةِ وَٱلْغَلَبَةِ وَإِذَا شَبَّ أَمْثَالُ هٰؤُلَاءِ ٱلْغِلْمَانِ كَانُوا لَذِيذِي ٱلْمَنْظَرِ عِنْدَ ٱلْعَمَلِ فِي ٱلْحَرْبِ وَذٰلِكَ بِحَسَبِ ٱلْهَيْئَةِ ٱلَّتِي كَانُوا مُعَدِّينَ بِهَا نَحْوَ ٱلْحَرْبِ. وَأَمَّا ٱلشُّيُوخُ فَجَمَالُهُمْ هُوَ ٱسْتِلْذَاذُ أَفْعَالِهِمْ فِي ٱلْأَعْمَالِ ٱلَّتِي هِيَ جِدٌّ وَهِيَ ٱلَّتِي مِنْ أَجْلِهَا يُرَاضُ ٱلصِّبْيَانُ عَلَى هٰذِهِ ٱللَّعِبَاتِ ٱلْخَمْسِ وَهِيَ ٱلْحُرُوبُ وَأَنْ يَكُونُوا مَعَ ذٰلِكَ يُرَوْنَ غَيْرَ ذَوِي أَحْزَانٍ وَلَا غَمٍّ. وَذٰلِكَ أَنَّ ٱلْحُزْنَ وَٱلْغَمَّ إِذَا ظَهَرَ بِٱلشَّيْخِ ظُنَّ بِهِ أَنَّ ذٰلِكَ ٱلطَّارِئَ ٱلَّذِي طَرَأَ عَلَيْهِ مِمَّا يَضُرُّ فِي شَيْخُوخَتِهِ مِثْلَ ٱلْفَقْرِ وَٱلْهَوَانِ أَوْ غَيْرِ ذٰلِكَ

(قَالَ) وَأَمَّا ٱلْبَطْشُ فَإِنَّهُ قُوَّةٌ يُحَرِّكُ ٱلْمَرْءُ بِهَا غَيْرَهُ كَيْفَ شَاءَ. فَإِنَّهُ إِذَا جَذَبَ غَيْرَهُ أَوْ دَفَعَهُ أَوْ أَشَالَهُ أَوْ أَخْرَجَهُ أَوْ ضَغَطَهُ وَكَانَ هٰذَا ٱلْفِعْلُ مِنْهُ بِكُلِّ مَنْ يَتَصَدَّى لَهُ أَوْ بِأَكْثَرِهِمْ فَهُوَ ذُو بَطْشٍ

(قَالَ) وَأَمَّا فَضِيلَةُ ٱلضَّخَامَةِ فَهُوَ أَنْ يَفُوتَ كَثِيرًا مِنَ ٱلنَّاسِ وَيُجَاوِزَهُمْ فِي ٱلطُّولِ وَٱلْعَرْضِ وَٱلْعُمْقِ وَتَكُونَ مَعَ ضَخَامَتِهِ حَرَكَاتُهُ غَيْرَ مُتَكَلِّفَةٍ لِجُودَةِ هٰذِهِ ٱلْفَضِيلَةِ وَتَكُونَ ضَخَامَتُهُ لَيْسَ سَبَبُهَا سِمَنًا

وَلَا أَمرًا مُكتَسبًا

(قَالَ) وَأَمَّا ٱلْهَيئَةُ ٱلَّتِي تُسَمَّى ٱلْجِهَادِيَّةَ فَإِنَّهَا مُرَكَّبَةٌ مِنَ ٱلضَّخَامَةِ وَٱلْجَلَدِ وَٱلْخِفَّةِ وَذٰلِكَ أَنَّهُ إِذَا ٱقْتَرَنَتِ ٱلْخِفَّةُ مَعَ ٱلْقُوَّةِ أَمكَنَ أَنْ يَبْلُغَ بِٱلسُّرعَةِ أَمَدًا بَعِيدًا لِأَنَّهُ إِنْ كَانَ خَفِيفًا دُونَ جَلَدٍ لَمْ يَبلُغْ بِٱلسُّرعَةِ أَمَدًا بَعِيدًا. وَذٰلِكَ أَنَّ ٱلَّذِي جَمَعَ ٱلضَّخَامَةَ وَٱلْقُوَّةَ هُوَ مُصَارِعٌ وَٱلَّذِي جَمَعَ ٱلضَّخَامَةَ وَٱلْقُوَّةَ وَٱلْخِفَّةَ هُوَ مُجَاهِدٌ. وَأَمَّا ٱلَّذِي جَمَعَ ٱلصِّرَاعَ وَٱلْخِفَّةَ مَعًا فَيُسَمَّى عِندَهُمْ بِٱسْمٍ مُشتَقٍّ مِنَ ٱلْحِذقِ بِٱسْتِعْمَالِ ٱلْقُوَّةِ وَٱلْخِفَّةِ وَأَمَّا ٱلَّذِي جَمَعَ هٰذِهِ ٱلْخِصَالَ كُلَّهَا فَهُوَ ٱلَّذِي يُسَمَّى عِندَهُمْ ذَا ٱلْخَمسِ ٱللُّعَبِ

(قَالَ) وَأَمَّا ٱلشَّيْخُوخَةُ ٱلصَّالِحَةُ فَإِنَّهَا دَوَامُ ٱلْكِبَرِ مَعَ ٱلْبَرَاءَةِ مِنَ ٱلْحُزْنِ لِأَنَّهُ إِنْ عُجِّلَتْ وَفَاةُ ٱلْإِنسَانِ قَبلَ أَنْ يَبلُغَ مُنتَهَى ٱلشَّيْخُوخَةِ لَمْ يَكُنْ ذَا شَيْخُوخَةٍ صَالِحَةٍ وَإِنْ كَانَ بَرِيئًا مِنَ ٱلْأَحزَانِ وَلَا أَنْ أُمهِلَ إِلَى مُنتَهَى ٱلشَّيْخُوخَةِ وَكَانَ فِي كَرْبٍ وَحُزْنٍ كَانَ ذَا شَيْخُوخَةٍ صَالِحَةٍ. وَإِنَّمَا يَكُونُ بَرِيئًا مِنَ ٱلْأَحزَانِ إِذَا كَانَ ذَا حَظٍّ مِنَ ٱلْجَدِّ وَفَضَائِلِ ٱلْبَدَنِ أَعنِي أَنْ يَكُونَ صَحِيحًا وَلَمْ تَعتَرِهِ مَصَائِبُ تُكَدِّرُ شَيْخُوخَتَهُ. وَذٰلِكَ أَنَّهُ إِذَا كَانَ مِمْرَاضًا أَوْ كَانَ ٱلْجَدُّ غَيرَ مُسَاعِدٍ لَهُ بِأَنْ يَكُونَ قَدِ ٱعْتَرَتْهُ مَصَائِبُ فَإِنَّهُ لَيسَ بِصَالِحِ ٱلشَّيْخُوخَةِ وَإِنْ كَانَ مُعَمَّرًا. وَكَذٰلِكَ إِنْ كَانَ مِمْرَاضًا وَقَدْ يُشَكُّ كَيفَ يَكُونُ طُولُ ٱلْعُمرِ مَعَ ٱلْأَمرَاضِ لٰكِنْ يُشبِهُ أَنْ تَكُونَ قُوَّةُ طُولِ ٱلْعُمرِ غَيرَ قُوَّةِ ٱلصِّحَّةِ فَإِنَّا نَرَى قَومًا كَثِيرِينَ تَطُولُ

اَعْمَارُهُمْ مَعَ اَنَّهُمْ مِسْقَامُونَ . وَتَصْحِيحُ هٰذَا هُوَ لِلْعِلْمِ ٱلطَّبِيعِيِّ وَلَيْسَ فِي تَصْحِيحِهِ فِي هٰذَا ٱلْعِلْمِ مَنْفَعَةٌ وَٱلْخَطِيبُ اِنَّمَا يَكْتَفِي مِنْ ذٰلِكَ بِٱلشَّيْءِ ٱلظَّاهِرِ

(قَالَ) وَاَمَّا كَثْرَةُ ٱلْخُلَّةِ وَصَلَاحُ حَالِ ٱلْاِنْسَانِ بِٱلْاِخْوَانِ وَذٰلِكَ اَيْضًا غَيْرُ خَفِيٍّ اِذَا حُدَّ مَا هُوَ ٱلْخَلِيلُ وَٱلصَّاحِبُ . وَهُوَ اَنْ يَكُونَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا يَفْعَلُ ٱلْخَيْرَ ٱلَّذِي يَظُنُّ اَنَّهُ يَنْفَعُ بِهِ ٱلْآخَرَ لَا ٱلْخَيْرَ ٱلَّذِي يَنْتَفِعُ بِهِ فِي نَفْسِهِ فَقَطْ . وَاِذَا كَانَتِ ٱلْخُلَّةُ وَٱلصُّحْبَةُ هِيَ هٰذِهِ فَبَيِّنٌ اَنَّ ٱلْمَرْءَ يَكُونُ صَالِحَ ٱلْحَالِ بِٱلْاِخْوَانِ ٱلْكَثِيرَةِ

(قَالَ) وَاَمَّا صَلَاحُ ٱلْجَدِّ فَهُوَ اَنْ يَكُونَ ٱلْاِتِّفَاقُ لِلْاِنْسَانِ مَا عِلَّةً لِوُجُودِ ٱلْخَيْرِ لَهُ . وَذٰلِكَ اِمَّا مِنَ ٱلْخَيْرَاتِ ٱلْمَوْجُودَةِ فِي ذَاتِهِ وَاِمَّا مِنَ ٱلْخَيْرَاتِ ٱلْمَوْجُودَةِ لَهُ مِنْ خَارِجٍ . وَعِلَّةُ ٱلْاِتِّفَاقِ قَدْ تَكُونُ ٱلصِّنَاعَةَ وَقَدْ تَكُونُ ٱلطَّبِيعَةَ وَهُوَ ٱلْاَكْثَرُ . فَمِثَالُ مَا يَكُونُ عَنِ ٱلْاِتِّفَاقِ ٱلطَّبِيعِيِّ اَنْ يُولَدَ ٱلْاِنْسَانُ ذَا قُوَّةٍ وَهَيْئَةٍ يَعْسُرُ بِهَا قَبُولُهُ ٱلْاُمُورَ ٱلْوَارِدَةَ عَلَيْهِ مِنْ خَارِجٍ . فَاَمَّا اَنْ يَكُونَ ٱلْاِنْسَانُ صَحِيحًا فَقَدْ يَكُونُ سَبَبُهُ ٱلْاِتِّفَاقَ ٱلطَّبِيعِيَّ مِثْلَ اَنْ يُولَدَ صَحِيحًا . وَقَدْ يَكُونُ ٱلْاِتِّفَاقَ ٱلصِّنَاعِيَّ مِثْلَ اَنْ يُسْقَى سُمًّا فَيَبْرَأَ مِنْ مَرَضٍ كَانَ بِهِ . وَاَمَّا ٱلْجَمَالُ وَٱلضَّخَامَةُ فَعِلَّتُهُمَا ٱلْاِتِّفَاقُ ٱلصِّنَاعِيُّ وَٱلطَّبِيعِيُّ وَجُمْلَةُ ٱلْاَمْرِ اَنَّ ٱلْخَيْرَاتِ ٱلَّتِي سَبَبُهَا ٱلْجَدُّ ٱلَّذِي هُوَ حُسْنُ ٱلْاِتِّفَاقِ هِيَ ٱلْخَيْرَاتُ ٱلَّتِي يَكُونُ ٱلْمَرْءُ مَغْبُوطًا بِهَا مَحْسُودًا عَلَيْهَا . وَقَدْ يَكُونُ

ٱلْجدُّ عِلَّةَ لِخَيْرَاتٍ لَيْسَتْ هِيَ خَيْرَاتٍ بِٱلْحَقِيقَةِ وَإِنَّمَا تُرَى خَيْرَاتٍ بِٱلاضَافَةِ وَٱلْمُقَايَسَةِ إِلَى ٱلْغَيْرِ. كَمَا قَدْ يَكُونُ ٱلْقُبْحُ فِي حَقِّ إِنْسَانٍ خَيْرًا مَا إِذَا رُئِيَ غَيْرُهُ أَقْبَحَ مِنْهُ وَمِثْلَ أَنْ يَكُونَ إِنْسَانَانِ وَقَفَا مِنَ ٱلْحَرْبِ فِي مَوْضِعٍ وَاحِدٍ فَأَصَابَ أَحَدَهُمَا ٱلسَّهْمُ وَلَمْ يُصِبِ ٱلثَّانِيَ فَإِنَّ ٱلَّذِي لَمْ يُصِبْهُ ٱلسَّهْمُ يَرَى أَنَّهُ قَدْ نَالَهُ بِٱلْإِضَافَةِ إِلَى صَاحِبِهِ خَيْرٌ كَثِيرٌ. وَبِخَاصَّةٍ إِنْ كَانَ ذٰلِكَ ٱلَّذِي لَمْ يُصِبْهُ ٱلسَّهْمُ مِنْ عَادَتِهِ أَنْ يَشْهَدَ ٱلْحُرُوبَ كَثِيرًا وَٱلْآخَرُ لَمْ يَشْهَدْ قَطُّ إِلَّا تِلْكَ ٱلْحَرْبَ وَكَذٰلِكَ إِذَا وَجَدَ ٱلْكَنْزَ وَاحِدٌ مِمَّنْ طَلَبَهُ. قَدْ يَرَى أَنَّهُ خَيْرٌ بِٱلْإِضَافَةِ إِلَى مَنْ لَمْ يُصِبْهُ وَإِنْ كَانَ ٱلْكَنْزُ يَسِيرًا فَمِنْ هٰذَا وَنَحْوِهِ يَنْظُرُ ٱلْخَطِيبُ فِي سَعَادَةِ ٱلْجَدِّ. وَأَمَّا تَعْرِيفُ ٱلْفَضِيلَةِ فَأَوْلَى ٱلْمَوَاضِعِ بِذِكْرِهَا هُوَ عِنْدَ ٱلْقَوْلِ فِي ٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي يُمْدَحُ بِهَا. لِأَنَّ ٱلْفَضِيلَةَ خَاصَّةٌ بِٱلْمَادِحِ وَلِذٰلِكَ وَجَبَ أَنْ يَكُونَ ٱلْمَادِحُ هُوَ ٱلَّذِي يَعْرِفُ بِٱسْتِقْصَاءِ ٱلْفَضِيلَةَ وَٱلْفَضَائِلَ وَإِنْ كَانَ مِنْهَا مُسْتَقْبَلٌ وَحَاضِرٌ فَٱلْمَادِحُ إِنَّمَا يَنْظُرُ فِيهَا مِنْ جِهَةِ مَا هِيَ حَاضِرَةٌ وَٱلْمُشِيرُ مِنْ جِهَةِ أَنَّهَا مُسْتَقْبَلَةٌ أَيْ نَافِعَةٌ



البحث السادس

في الفرق بين الخير والسعادة

(من كتاب تهذيب الاخلاق لابن مسكويه)

نَبدَأُ بِمَعُونَةِ ٱللهِ تَعَالَى فِي هٰذِهِ ٱلْمَقَالَةِ بِذِكْرِ ٱلْفَرْقِ بَيْنَ ٱلْخَيْرِ وَٱلسَّعَادَةِ بَعْدَ اَنْ نَذْكُرَ اَلفَاظَ ارِسْطَاطَاليسَ ٱقْتِدَاءً بِهِ وَتَوْفِيَةً لِحَقِّهِ فَنَقُولُ: اِنَّ ٱلْخَيْرَ عَلَى مَا حَدَّهُ وَٱسْتَحْسَنَهُ مِنْ آرَاءِ ٱلْمُتَقَدِّمِينَ هُوَ ٱلْمَقْصُودُ مِنَ ٱلْكُلِّ وَهِيَ ٱلْغَايَةُ ٱلْاَخِيرَةُ وَقَدْ يُسَمَّى ٱلشَّيْءُ ٱلنَّافِعُ فِي هٰذِهِ ٱلْغَايَةِ خَيْرًا فَاَمَّا ٱلسَّعَادَةُ فَهِيَ ٱلْخَيْرُ بِٱلْاِضَافَةِ اِلى صَاحِبِهَا وَهِيَ كَمَالٌ لَهُ فَٱلسَّعَادَةُ اِذًا خَيْرٌ مَا. وَقَدْ تَكُونُ سَعَادَةُ ٱلانْسَان غَيْرَ سَعَادَةِ ٱلْفَرَسِ وَسَعَادَةُ كُلِّ شَيْءٍ فِي تَمَامِهِ وَكَمَالِهِ ٱلَّذِي يَخُصُّهُ . فَاَمَّا ٱلْخَيْرُ ٱلَّذِي يَقْصِدُهُ ٱلْكُلُّ بِٱلشَّوْقِ فَهُوَ طَبِيعَةٌ تُقْصَدُ وَلَهَا ذَاتٌ وَهُوَ ٱلْخَيْرُ ٱلْعَامُّ لِلنَّاسِ مِنْ حَيْثُ هُمْ نَاسٌ فَهُمْ بِاَجْمَعِهِم مُشْتَرِكُونَ فِيهَا. فَاَمَّا ٱلسَّعَادَةُ فَهِيَ خَيْرٌ مَا لِوَاحِدٍ وَاحِدٍ مِنَ ٱلنَّاسِ فَهِيَ اِذًا بِٱلْاِضَافَةِ لَيسَ لَهَا ذَاتٌ مُعَيَّنَةٌ وَهِيَ تَخْتَلِفُ بِٱلْاِضَافَةِ اِلَى قَاصِدِيهَا. فَلِذٰلِكَ يَكُونُ ٱلْخَيْرُ ٱلْمُطْلَقُ غَيْرَ مُخْتَلِفٍ فِيهِ وَقَدْ يُظَنُّ بِٱلسَّعَادَةِ اَنَّهَا تَكُونُ لِغَيْرِ ٱلنَّاطِقِينَ فَاِنْ كَانَ ذٰلِكَ فَاَنَّمَا هِيَ ٱسْتِعْدَادَاتٌ فِيهَا لِقَبُولِ تَمَامَاتِهَا وَكَمَالَاتِهَا مِنْ غَيْرِ قَصْدٍ وَلَا رَوِيَّةٍ وَلَا اِرَادَةٍ وَتِلْكَ ٱلِاسْتِعْدَادَاتُ هِيَ ٱلشَّوْقُ اَوْ مَا يَجْرِي مَجْرَى ٱلشَّوْقِ

مِنَ ٱلنَّاطِقِينَ بِٱلإِرَادَةِ. فَأَمَّا مَا يَتَأَتَّى لِلْحَيَوَانَاتِ فِي مآكِلِهَا وَمَشَارِبِهَا وَرَاحَاتِهَا فَيَنْبَغِي أَنْ يُسَمَّى بَخْتًا أَوِ ٱتِّفَاقًا وَلَا يُؤَهَّلُ لِلاسْمِ ٱلسَّعَادَةِ كَمَا يُسَمَّى فِي ٱلإِنْسَانِ أَيْضًا. وَإِنَّمَا ٱسْتُحْسِنَ ٱلْحَدُّ ٱلَّذِي ذَكَرْنَا لِلْخَيْرِ ٱلْمُطْلَقِ لِأَنَّ ٱلْعَقْلَ لَا يُطْلِقُ ٱلسَّعْيَ وَٱلْحَرَكَةَ إِلَى لَا نِهَايَةٍ وَهٰذَا أَوَّلُ فِي ٱلْعَقْلِ. وَمِثَالُ ذٰلِكَ أَنَّ ٱلصِّنَاعَاتِ وَٱلْهِمَمَ وَٱلتَّدَابِيرَ ٱلاخْتِيَارِيَّةَ كُلَّهَا يُقْصَدُ بِهَا خَيْرٌ مَا وَمَا لَمْ يُقْصَدْ بِهِ خَيْرٌ مَا فَهُوَ عَبَثٌ وَٱلْعَقْلُ يَحْتَذِرُهُ وَيَمْتَنِعُ مِنْهُ وَبِٱلْوَاجِبِ صَارَ ٱلْخَيْرُ ٱلْمُطْلَقُ هُوَ ٱلْمَقْصُودَ إِلَيْهِ مِنْ كُلِّ ٱلنَّاسِ. وَلٰكِنْ بَقِيَ أَنْ يُعْلَمَ مَا هُوَ وَمَا ٱلْغَايَةُ ٱلأَخِيرَةُ مِنْهُ ٱلَّتِي هِيَ غَايَةُ ٱلْخَيْرَاتِ ٱلَّتِي تَرْتَقِي ٱلْخَيْرَاتُ كُلُّهَا إِلَيْهَا حَتَّى نَجْعَلَهُ غَرَضَنَا وَنَتَوَجَّهَ إِلَيْهِ وَلَا نَلْتَفِتَ إِلَى غَيْرِهِ وَلَا تَنْتَشِرَ أَفْكَارُنَا فِي ٱلْخَيْرَاتِ ٱلْكَثِيرَةِ ٱلَّتِي تُؤَدِّي إِلَيْهِ إِمَّا تَأْدِيَةً بَعِيدَةً وَإِمَّا تَأْدِيَةً قَرِيبَةً وَلَا نَغْلَطَ أَيْضًا فِيمَا لَيْسَ بِخَيْرٍ فَنَظُنَّهُ خَيْرًا ثُمَّ تَفْنَى أَعْمَارُنَا فِي طَلَبِهِ وَٱلتَّعَبِ بِهِ وَكُلًّا سَنُبَيِّنُ بِمَشِيئَةِ ٱللهِ وَعَوْنِهِ

البحث السابع

في اقسام الخير والسعادة

(من الكتاب نفسه)

اَلْخَيْرُ عَلَى مَا قَسَمَهُ أَرِسْطَاطَالِيسُ وَحَكَاهُ عَنْهُ فُرْفُورِيُوسُ وَغَيْرُهُ هٰكَذَا قَالَ: اَلْخَيْرَاتُ مِنْهَا مَا هِيَ شَرِيفَةٌ وَمِنْهَا مَا هِيَ

مَمْدُوحَةٌ وَمِنْهَا مَا هِيَ بِٱلْقُوَّةِ كَذٰلِكَ وَمَا هِيَ نَافِعَةٌ فِيهَا . فَٱلشَّرِيفَةُ مِنْهَا هِيَ ٱلَّتِي شَرَفُهَا مِنْ ذَاتِهَا وَتَجْعَلُ مَنِ ٱقْتَنَاهَا شَرِيفًا وَهِيَ ٱلْحِكْمَةُ وَٱلْعَقْلُ . وَٱلْمَمْدُوحَةُ مِنْهَا مِثْلُ ٱلْفَضَائِلِ وَٱلْأَفْعَالِ ٱلْجَمِيلَةِ ٱلْإِرَادِيَّةِ . وَٱلَّتِي هِيَ بِٱلْقُوَّةِ مِثْلُ ٱلتَّهَيُّؤِ وَٱلِٱسْتِعْدَادِ لِنَيْلِ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي تَقَدَّمَتْ . وَٱلنَّافِعَةُ هِيَ جَمِيعُ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي تُطْلَبُ لَا لِذَاتِهَا بَلْ لِيُتَوَصَّلَ بِهَا إِلَى ٱلْخَيْرَاتِ . (وَعَلَى جِهَةٍ أُخْرَى) ٱلْخَيْرَاتُ مِنْهَا مَا هِيَ غَايَاتٌ وَمِنْهَا مَا هِيَ لَيْسَتْ بِغَايَاتٍ . وَٱلْغَايَاتُ مِنْهَا مَا هِيَ تَامَّةٌ وَمِنْهَا مَا هِيَ غَيْرُ تَامَّةٍ . فَٱلَّتِي هِيَ تَامَّةٌ كَٱلسَّعَادَةِ وَذٰلِكَ أَنَّا إِذَا وَصَلْنَا إِلَيْهَا لَمْ نَحْتَجْ أَنْ نَسْتَزِيدَ إِلَيْهَا شَيْئًا آخَرَ . وَٱلَّتِي هِيَ غَيْرُ تَامَّةٍ فَكَٱلصِّحَّةِ وَٱلْيَسَارِ مِنْ قِبَلِ أَنَّا إِذَا وَصَلْنَا إِلَيْهَا ٱحْتَجْنَا أَنْ نَسْتَزِيدَ فَنَقْتَنِيَ أَشْيَاءَ أُخَرَ . وَأَمَّا ٱلَّتِي لَيْسَتْ بِغَايَةٍ ٱلْبَتَّةَ فَكَٱلْعِلَاجِ وَٱلتَّعَلُّمِ وَٱلرِّيَاضَةِ . (وَعَلَى جِهَةٍ أُخْرَى) ٱلْخَيْرَاتُ مِنْهَا مَا هُوَ مُؤْثَرٌ لِأَجْلِ ذَاتِهِ وَمِنْهَا مَا هُوَ مُؤْثَرٌ لِأَجْلِ غَيْرِهِ وَمِنْهَا مَا هُوَ مُؤْثَرٌ لِلْأَمْرَيْنِ جَمِيعًا وَمِنْهَا مَا هُوَ خَارِجٌ عَنْهَا . (وَعَلَى جِهَةٍ أُخْرَى) ٱلْخَيْرَاتُ مِنْهَا مَا هُوَ خَيْرٌ عَلَى ٱلْإِطْلَاقِ وَمِنْهَا مَا هُوَ خَيْرٌ عِنْدَ ٱلضَّرُورَةِ وَٱلِٱتِّفَاقَاتِ ٱلَّتِي تَتَّفِقُ لِبَعْضِ ٱلنَّاسِ وَفِي وَقْتٍ دُونَ وَقْتٍ وَأَيْضًا مِنْهَا مَا هُوَ خَيْرٌ لِجَمِيعِ ٱلنَّاسِ وَمِنْ جَمِيعِ ٱلْوُجُوهِ وَفِي جَمِيعِ ٱلْأَوْقَاتِ وَمِنْهَا مَا لَيْسَ بِخَيْرٍ لِجَمِيعِ ٱلنَّاسِ وَلَا مِنْ جَمِيعِ ٱلْوُجُوهِ . (وَعَلَى جِهَةٍ أُخْرَى) ٱلْخَيْرَاتُ مِنْهَا مَا هُوَ فِي ٱلْجَوْهَرِ وَمِنْهَا مَا هُوَ فِي ٱلْكَمِّيَّةِ وَمِنْهَا مَا هُوَ فِي ٱلْكَيْفِيَّةِ وَفِي سَائِرِ ٱلْمَقُولَاتِ فَمِنْهَا كَٱلْقُوَى وَٱلْمَلَكَاتِ وَمِنْهَا

كَالأَحوَالِ وَمِنهَا كَالأَفعَالِ وَمِنهَا كَالغَايَاتِ وَمِنهَا كَالموَادِّ وَمِنهَا كَالآلَاتِ. وَوُجودُ الخَيرَاتِ فِي المقُولَاتِ كُلِّهَا يَكُونُ عَلَى هٰذَا المِثَالِ امَّا فِي الجَوهَرِ اعنِي مَا لَيسَ بِعَرَضٍ فَاللّٰهُ تَبَارَكَ وَتعَالَى هُوَ الخَيرُ الاَوَّلُ فَانَّ جَمِيعَ الاَشيَاءِ تَتَحَرَّكُ نَحوَهُ بِالشَّوقِ اِلَيهِ وَلِانَّ مَآلَ الخَيرَاتِ الالٰهِيَّةِ مِنَ البَقَاءِ وَالسَّرمَدِيَّةِ وَالتَّمامِ مِنهُ. وَامَّا فِي الكَمِّيَّةِ فَالعَدَدُ المُعتَدِلُ وَالمِقدَارُ المُعتَدِلُ وَامَّا فِي الكَيفِيَّةِ فَكَاللَّذَّاتِ. وَامَّا فِي الاِضَافَةِ فَكَالصَّدَقَاتِ وَالرِّئَاسَاتِ. وَامَّا فِي الاَينِ وَالمَتَى فَكَالمَكَانِ المُعتَدِلِ وَالزَّمَانِ الاَنِيقِ البَهِجِ. وَامَّا فِي الوَضعِ فَكَالقُعودِ وَالاِضطِجَاعِ وَالاِتِّكَاءِ المُوَافِقِ. وَامَّا فِي المِلكِ فَكَالاَموَالِ وَالمَنَافِعِ. وَامَّا فِي الاِنفِعَالِ فَكَالسَّمَاعِ الطَّيِّبِ وَسَائِرِ المَحسُوسَاتِ المُؤثِّرَةِ. وَامَّا فِي الفِعلِ فَمِثلُ نَفَاذِ الاَمرِ وَرَوَاجِ الفِعلِ. (وَعَلَى جِهَةٍ اُخرَى) الخَيرَاتُ مِنهَا مَعقُولَاتٌ وَمِنهَا مَحسُوسَاتٌ

(وَامَّا السَّعَادَةُ) فَقَدْ قُلنَا اِنَّهَا خَيرٌ مَا وَهِيَ تَمَامُ الخَيرَاتِ وَغَايَاتُهَا وَالتَّمَامُ هُوَ الَّذِي اِذَا بَلَغنَا اِلَيهِ لَمْ نَحتَجْ مَعَهُ اِلَى شَيْءٍ آخَرَ فَلِذٰلِكَ نَقُولُ اِنَّ السَّعَادَةَ هِيَ اَفضَلُ الخَيرَاتِ وَلٰكِنَّا نَحتَاجُ فِي هٰذَا التَّمَامِ الَّذِي هُوَ الغَايَةُ القُصوَى اِلَى سَعَادَاتٍ اُخَرَ وَهِيَ الَّتِي فِي البَدَنِ وَالَّتِي خَارِجَ البَدَنِ. (وَارِسطَاطَالِيسُ) يَقُولُ اِنَّهُ يَعسُرُ عَلَى الاِنسَانِ اَنْ يَفعَلَ الاَفعَالَ الشَّرِيفَةَ بِلَا مَادَّةٍ مِثلِ اِتِّسَاعِ اليَدِ وَكَثرَةِ الاَصدِقَاءِ وَجُودَةِ البَختِ

(وَامَّا اَقسَامُ) السَّعَادَةِ عَلَى مَذهَبِ هٰذَا الحَكِيمِ فَهِيَ خَمسَةُ

اقسام : (احدها) في صحة البدن ولطف الحواس ويكون ذلك من اعتدال المزاج اعني ان يكون جيد السمع والبصر والشم والذوق واللمس . (والثاني) في الثروة والاعوان واشباههما حتى يتسع لان يضع المال في موضعه ويعمل به سائر الخيرات ويؤاسي منه اهل الخيرات خاصة والمستحقين عامة ويعمل به كل ما يزيد في فضائله ويستحق الثناء والمدح عليه . (والثالث) ان تحسن احدوثته في الناس وينشر ذكره بين اهل الفضل فيكون ممدوحا بينهم يكثرون الثناء عليه لما يتصرف فيه من الاحسان والمعروف . (والرابع) ان يكون منجحا في الامور وذلك اذا استتم كل ما روى فيه وعزم عليه حتى يصير الى ما يأمله منه . (والخامس) ان يكون جيد الرأي صحيح الفكر سليم الاعتقادات في دينه بريئا من الخطإ والزلل جيد المشورة في الآراء . فمن اجتمعت له هذه الاقسام كلها فهو السعيد الكامل على مذهب هذا الرجل الفاضل ومن حصل له بعضها كان حظه من السعادة بحسب ذلك .

(واما الحكماء) قبل هذا الرجل مثل فيثاغورس وبقراط وافلاطون واشباههم فانهم اجمعوا على ان الفضائل والسعادة كلها في النفس وحدها ولذلك لما قسموا السعادة جعلوها كلها في قوى النفس التي ذكرناها في اول الكتاب (وهي الحكمة والشجاعة والعفة والعدالة) . واجمعوا على ان هذه الفضائل هي كافية في السعادة ولا يحتاج معها الى غيرها من فضائل البدن

وَلَا مَا هُوَ خَارِجَ ٱلْبَدَنِ فَإِنَّ ٱلْإِنْسَانَ إِذَا حَصَلَ تِلْكَ ٱلْفَضَائِلَ لَمْ يَضُرَّهُ فِي سَعَادَتِهِ أَنْ يَكُونَ سَقِيماً نَاقِصَ ٱلْأَعْضَاءِ مُبْتَلًى بِجَمِيعِ أَمْرَاضِ ٱلْبَدَنِ ٱللَّهُمَّ إِلَّا أَنْ يَلْحَقَ ٱلنَّفْسَ مِنْهَا مَضَرَّةٌ فِي خَاصِّ أَفْعَالِهَا مِثْلُ فَسَادِ ٱلْعَقْلِ وَرَدَاءَةِ ٱلذِّهْنِ وَمَا أَشْبَهَهُمَا. وَأَمَّا ٱلْفَقْرُ وَٱلْخُمُولُ وَسُقُوطُ ٱلْحَالِ وَسَائِرُ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلْخَارِجَةِ عَنْهَا فَلَيْسَتْ عِنْدَهُمْ بِقَادِحَةٍ فِي ٱلسَّعَادَةِ ٱلْبَتَّةَ . وَأَمَّا ٱلرِّوَاقِيُّونَ وَجَمَاعَةٌ مِنَ ٱلطَّبِيعِيِّينَ فَإِنَّهُمْ جَعَلُوا ٱلْبَدَنَ جُزْءاً مِنَ ٱلْإِنْسَانِ وَلَمْ يَجْعَلُوهُ آلَةً كَمَا شَرَحْنَاهُ فِيمَا تَقَدَّمَ فَلِذَلِكَ ٱضْطَرُّوا إِلَى أَنْ يَجْعَلُوا ٱلسَّعَادَةَ ٱلَّتِي فِي ٱلنَّفْسِ غَيْرَ كَامِلَةٍ إِذَا لَمْ يَقْتَرِنْ بِهَا سَعَادَةُ ٱلْبَدَنِ وَمَا هُوَ خَارِجُ ٱلْبَدَنِ أَيْضاً أَعْنِي ٱلْأَشْيَاءَ ٱلَّتِي تَكُونُ بِٱلْبَخْتِ وَٱلْجَدِّ . وَٱلْمُحَقِّقُونَ مِنَ ٱلْفَلَاسِفَةِ يَحْقِرُونَ أَمْرَ ٱلْبَخْتِ وَكُلَّ مَا يَكُونُ بِهِ وَمَعَهُ وَلَا يُؤَهِّلُونَ تِلْكَ ٱلْأَشْيَاءَ لِٱسْمِ ٱلسَّعَادَةِ لِأَنَّ ٱلسَّعَادَةَ شَيْءٌ ثَابِتٌ غَيْرُ زَائِلٍ وَلَا مُتَغَيِّرٍ وَهِيَ أَشْرَفُ ٱلْأُمُورِ وَأَكْرَمُهَا وَأَرْفَعُهَا فَلَا يَجْعَلُونَ لِأَخَسِّ ٱلْأَشْيَاءِ وَهُوَ ٱلَّذِي يَتَغَيَّرُ وَلَا يَثْبُتُ وَلَا يَتَحَصَّلُ بِرَوِيَّةٍ وَلَا فِكْرٍ وَلَا يَتَأَتَّى بِعَقْلٍ وَفَضِيلَةٍ فِيهَا نَصِيباً

وَلِهَذَا ٱلنَّظَرِ ٱخْتَلَفَ ٱلْقُدَمَاءُ فِي ٱلسَّعَادَةِ ٱلْعُظْمَى فَظَنَّ قَوْمٌ أَنَّهَا لَا تَحْصُلُ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا بَعْدَ مُفَارَقَةِ ٱلْبَدَنِ وَٱلطَّبِيعِيَّاتِ كُلِّهَا. وَهٰؤُلَاءِ هُمُ ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ حَكَيْنَا عَنْهُمْ أَنَّ ٱلسَّعَادَةَ ٱلْعُظْمَى هِيَ فِي ٱلنَّفْسِ وَحْدَهَا وَسَمَّوْا ٱلْإِنْسَانَ ذَلِكَ ٱلْجَوْهَرَ وَحْدَهُ دُونَ ٱلْبَدَنِ وَلِذَلِكَ حَكَمُوا إِنَّهَا مَا دَامَتْ فِي ٱلْبَدَنِ وَمُتَّصِلَةً بِٱلطَّبِيعَةِ وَكَدَرِهَا

وَنَجَاسَاتِ ٱلْبَدَنِ وَضَرُورَاتِهِ وَحَاجَاتِ ٱلْإِنْسَانِ بِهِ وَٱفْتِقَارَاتِهِ إِلَى ٱلْأَشْيَاءِ ٱلْكَثِيرَةِ فَلَيْسَتْ سَعِيدَةً عَلَى ٱلْإِطْلَاقِ. وَأَيْضًا لَمَّا رَأَوْهَا لَا تَكْمُلُ لِوُجُودِ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلْعَقْلِيَّةِ لِأَنَّهَا لَا تَسْتَتِرُ عَنْهَا بِظُلْمَةِ ٱلْهَيُولَى أَعْنِي قُصُورَهَا وَنُقْصَانَهَا ظَنُّوا أَنَّهَا إِذَا فَارَقَتْ هٰذِهِ ٱلْكُدُورَةَ فَارَقَتِ ٱلْجَهَالَاتِ وَصَفَتْ وَخَلَصَتْ وَقَبِلَتِ ٱلْإِضَاءَةَ وَٱلنُّورَ ٱلْإِلٰهِيَّ أَعْنِي ٱلْعَقْلَ ٱلتَّامَّ. وَيَجِبُ عَلَى رَأْيِ هٰؤُلَاءِ أَنَّ ٱلْإِنْسَانَ لَا يَسْعَدُ ٱلسَّعَادَةَ ٱلتَّامَّةَ إِلَّا فِي ٱلْآخِرَةِ بَعْدَ مَوْتِهِ. وَأَمَّا ٱلْفِرْقَةُ ٱلْأُخْرَى فَإِنَّهَا قَالَتْ إِنَّهُ مِنَ ٱلْقَبِيحِ ٱلشَّنِيعِ أَنْ يُظَنَّ أَنَّ ٱلْإِنْسَانَ مَا دَامَ حَيًّا يَعْمَلُ ٱلْأَعْمَالَ ٱلصَّالِحَةَ وَيَعْتَقِدُ ٱلْآرَاءَ ٱلصَّحِيحَةَ وَيَسْعَى فِي تَحْصِيلِ ٱلْفَضَائِلِ كُلِّهَا لِنَفْسِهِ أَوَّلًا ثُمَّ لِأَبْنَاءِ جِنْسِهِ ثَانِيًا وَيَخْلُفُ رَبَّ ٱلْعِزَّةِ تَقَدَّسَ ذِكْرُهُ فِي خَلْقِهِ بِهٰذِهِ ٱلْأَفْعَالِ ٱلْمَرْضِيَّةِ فَهُوَ شَقِيٌّ نَاقِصٌ حَتَّى إِذَا مَاتَ وَعَدِمَ هٰذِهِ ٱلْأَشْيَاءَ صَارَ سَعِيدًا تَامَّ ٱلسَّعَادَةِ وَأَرِسْطَاطَالِيسُ يَتَحَقَّقُ بِهٰذَا ٱلرَّأْيِ. وَذٰلِكَ أَنَّهُ تَكَلَّمَ فِي ٱلسَّعَادَةِ ٱلْإِنْسَانِيَّةِ وَٱلْإِنْسَانُ هُوَ ٱلْمُرَكَّبُ عِنْدَهُ مِنْ بَدَنٍ وَنَفْسٍ وَلِذٰلِكَ حَدَّ ٱلْإِنْسَانَ بِٱلنَّاطِقِ ٱلْمَائِتِ وَبِٱلنَّاطِقِ ٱلْمَاشِي بِرِجْلَيْنِ وَمَا أَشْبَهَ ذٰلِكَ. وَهٰذِهِ ٱلْفِرْقَةُ وَهِيَ ٱلَّتِي رَئِيسُهَا أَرِسْطَاطَالِيسُ رَأَتْ أَنَّ ٱلسَّعَادَةَ ٱلْإِنْسَانِيَّةَ تَحْصُلُ لِلْإِنْسَانِ إِذَا سَعَى لَهَا وَتَعِبَ بِهَا حَتَّى يَصِيرَ إِلَى أَقْصَاهَا. وَلَمَّا رَأَى ٱلْحَكِيمُ ذٰلِكَ وَأَنَّ ٱلنَّاسَ مُخْتَلِفُونَ فِي هٰذِهِ ٱلسَّعَادَةِ ٱلْإِنْسَانِيَّةِ وَأَنَّهَا قَدْ أَشْكَلَتْ عَلَيْهِمْ إِشْكَالًا شَدِيدًا ٱحْتَاجَ أَنْ يَتْعَبَ فِي ٱلْإِبَانَةِ عَنْهَا وَإِطَالَةِ ٱلْكَلَامِ فِيهَا. وَذٰلِكَ أَنَّ ٱلْفَقِيرَ يَرَى أَنَّ ٱلسَّعَادَةَ ٱلْعُظْمَى

فِي ٱلثَّرْوَةِ وَٱلْيَسَارِ وَٱلْمَرِيضَ يَرَى أَنَّهَا فِي ٱلصِّحَّةِ وَٱلسَّلَامَةِ وَٱلذَّلِيلَ يَرَى أَنَّهَا فِي ٱلْجَاهِ وَٱلسُّلْطَانِ وَٱلْخَلِيعَ يَرَى أَنَّهَا فِي ٱلتَّمَكُّنِ مِنَ ٱلشَّهَوَاتِ كُلِّهَا عَلَى ٱخْتِلَافِهَا وَٱلْعَاشِقَ يَرَى أَنَّهَا فِي ٱلظَّفَرِ بِٱلْمَعْشُوقِ وَٱلْفَاضِلَ يَرَى أَنَّهَا فِي إِفَاضَةِ ٱلْمَعْرُوفِ عَلَى ٱلْمُسْتَحِقِّينَ وَٱلْفَيْلَسُوفَ يَرَى أَنَّ هٰذِهِ كُلَّهَا إِذَا كَانَتْ مُرَتَّبَةً بِحَسَبِ تَقْسِيطِ ٱلْعَدْلِ أَعْنِي عِنْدَ ٱلْحَاجَةِ وَفِي ٱلْوَقْتِ ٱلَّذِي يَجِبُ وَكَمَا يَجِبُ وَعِنْدَ مَنْ يَجِبُ فَهِيَ سَعَادَاتٌ كُلُّهَا وَمَا كَانَ مِنْهَا يُرَادُ لِشَيْءٍ آخَرَ فَذٰلِكَ ٱلشَّيْءُ أَحَقُّ بِٱسْمِ ٱلسَّعَادَةِ

وَلَمَّا كَانَ كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْ هَاتَيْنِ ٱلْفِرْقَتَيْنِ نَظَرَتْ نَظَرًا مَا وَجَبَ أَنْ نُثْبِتَ فِي ذٰلِكَ مَا نَرَاهُ صَوَابًا وَجَامِعًا لِلرَّأْيَيْنِ فَنَقُولُ: إِنَّ ٱلْإِنْسَانَ ذُو فَضِيلَةٍ رُوحَانِيَّةٍ يُنَاسِبُ بِهَا ٱلْأَرْوَاحَ ٱلطَّيِّبَةَ ٱلَّتِي تُسَمَّى مَلَائِكَةً وَذُو فَضِيلَةٍ جِسْمَانِيَّةٍ يُنَاسِبُ بِهَا ٱلْأَنْعَامَ لِأَنَّهُ مُرَكَّبٌ مِنْهُمَا فَهُوَ بِٱلْخَيْرِ ٱلْجِسْمَانِيِّ ٱلَّذِي يُنَاسِبُ بِهِ ٱلْأَنْعَامَ مُقِيمٌ فِي هٰذَا ٱلْعَالَمِ ٱلسُّفْلِيِّ مُدَّةً قَصِيرَةً لِيَعْمُرَهُ وَيَنْظِمَهُ وَيُرَتِّبَهُ حَتَّى إِذَا ظَفِرَ بِهٰذِهِ ٱلْمَرْتَبَةِ عَلَى ٱلْكَمَالِ ٱنْتَقَلَ إِلَى ٱلْعَالَمِ ٱلْعُلْوِيِّ وَأَقَامَ فِيهِ دَائِمًا سَرْمَدًا فِي صُحْبَةِ ٱلْمَلَائِكَةِ وَٱلْأَرْوَاحِ ٱلطَّيِّبَةِ وَيَنْبَغِي أَنْ يُفْهَمَ مِنْ قَوْلِنَا ٱلْعَالَمَ ٱلسُّفْلِيَّ وَٱلْعَالَمَ ٱلْعُلْوِيَّ مَا ذَكَرْنَاهُ فِيمَا تَقَدَّمَ فَإِنَّا قَدْ قُلْنَا هُنَاكَ إِنَّا لَسْنَا نَعْنِي بِٱلْعُلْوِيِّ ٱلْمَكَانَ ٱلْأَعْلَى فِي ٱلْحِسِّ وَلَا بِٱلْعَالَمِ ٱلسُّفْلِيِّ ٱلْمَكَانَ ٱلْأَسْفَلَ فِي ٱلْحِسِّ بَلْ كُلُّ مَحْسُوسٍ فَهُوَ أَسْفَلُ وَإِنْ كَانَ مَحْسُوسًا فِي ٱلْمَكَانِ ٱلْأَعْلَى وَكُلُّ مَعْقُولٍ فَهُوَ

اعلى وان كان معقولا في المكان الاسفل. وينبغي ان يعلم انه ليس يحتاج في صحة الارواح الطيبة المستغنية عن الابدان الى شيء من السعادات البدنية التي ذكرناها سوى سعادة النفس فقط اعني المعقولات الابدية التي هي الحكمة فقط. فاذا ما دام الانسان انسانا فليس تتم له السعادة الا بتحصيل الحالين جميعا وليس يحصلان على التمام الا بالاشياء النافعة في الوصول الى الحكمة الابدية. فالسعيد اذا من الناس يكون في احدى مرتبتين اما في مرتبة الاشياء الجسمانية متعلقا باحوالها السفلى سعيدا بها وهو مع ذلك يطالع الامور الشريفة باحثا عنها مشتاقا اليها متحركا نحوها مغتبطا بها. واما ان يكون في رتبة الاشياء الروحانية متعلقا باحوالها العليا سعيدا بها وهو مع ذلك يطالع الامور البدنية معتبرا بها ناظرا في علامات القدرة الالهية ودلائل الحكمة البالغة مقتديا بها ناظما لها مفيضا للخيرات عليها سائقا لها نحو الافضل فالافضل بحسب قبولها وعلى نحو استطاعتها. واي امرىء لم يحصل في احدى هاتين المنزلتين فهو في رتبة الانعام بل هو اضل وانما صار اضل لان تلك غير معرضة لهذه الخيرات ولا اعطيت استطاعة تتحرك بها نحو هذه المراتب العالية وانما تتحرك بقواها نحو كمالاتها الخاصة بها والانسان معرض لها مندوب اليها مزاح العلة فيها وهو مع ذلك غير محصل لها ولا ساع نحوها وهو مع ذلك مؤثر لضدها يستعمل قواه الشريفة في

الأمور الدنيئة وتلك محصلة لكمالاتها التي تخصها. فإذا الأنعام إذا منعت الخيرات الإنسية حرمت جوار الأرواح الطيبة ودخول الجنة التي وعد بها المتقون فهي معذورة والإنسان غير معذور. ومثل الأول مثل الأعمى إذا جار عن الطريق فتردى في بئر فهو مرحوم غير ملوم. ومثل الثاني مثل بصير يجور على بصيرة حتى يتردى في البئر فهو ممقوت ملوم. وإذ قد تبين أن السعيد لا محالة في إحدى المرتبتين اللتين ذكرناهما فقد تبين أيضاً أن أحدهما ناقص مقصر عن الآخر وأن الأنقص منهما ليس يخلو ولا يتعرى من الآلام والحسرات لأجل خدائع الطبيعة والزخارف الحسية التي تعترضه فيما يلابسه وتعوقه عما يلاحظه وتمنعه من الترقي فيها على ما ينبغي وتشغله بما يتعلق به من الأمور الجسمانية فصاحب هذه المرتبة غير كامل على الإطلاق ولا سعيد تام. وأن صاحب المرتبة الأخرى هو السعيد التام وهو الذي توفر حظه من الحكمة فهو مقيم بروحانيته بين الملإ الأعلى يستمد منهم لطائف الحكمة ويستنير بالنور الإلهي ويستزيد من فضائله بحسب عنايته بها وقلة عوائقه عنها ولذلك يكون أبداً خالياً من الآلام والحسرات التي لا يخلو صاحب المرتبة الأولى منها. ويكون مسروراً أبداً بذاته مغتبطاً بحاله وبما يحصل له دائماً من فيض نور الأول فليس يسر إلا بتلك الأحوال ولا يغتبط إلا بتلك المحاسن ولا يهش إلا لإظهار تلك الحكمة بين أهلها ولا يرتاح إلا لمن ناسبه أو قاربه

وَاَحبّ ٱلِاقْتِبَاسَ مِنْهُ . وَهٰذِهِ هِيَ ٱلْمَرْتَبَةُ ٱلَّتِي مَنْ وَصَلَ اِلَيْهَا فَقَدْ وَصَلَ اِلَى آخِرِ ٱلسَّعَادَاتِ وَاَقْصَاهَا وَهُوَ ٱلَّذِي لَا يُبَالِي بِفِرَاقِ ٱلْاَحْبَابِ مِنْ اَهْلِ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَتَحَسَّرُ عَلَى مَا يَفُوتُهُ مِنَ ٱلتَّنَعُّمِ فِيهَا وَهُوَ ٱلَّذِي يَرَى جِسْمَهُ وَمَالَهُ وَجَمِيعَ خَيْرَاتِ ٱلدُّنْيَا ٱلَّتِي عَدَدْنَاهَا فِي ٱلسَّعَادَاتِ ٱلَّتِي فِي بَدَنِهِ وَٱلْخَارِجَةِ عَنْهُ كُلَّهَا كَلًّا عَلَيْهِ اِلَّا فِي ضَرُورَاتٍ يَحْتَاجُ اِلَيْهَا لِبَدَنِهِ ٱلَّذِي هُوَ مَرْبُوطٌ بِهِ لَا يَسْتَطِيعُ ٱلِانْحِلَالَ عَنْهُ اِلَّا عِنْدَ مَشِيئَةِ خَالِقِهِ وَهُوَ ٱلَّذِي يَشْتَاقُ اِلَى صُحْبَةِ اَشْكَالِهِ وَمُلَاقَاةِ مَنْ يُنَاسِبُهُ مِنَ ٱلْاَرْوَاحِ ٱلطَّيِّبَةِ وَٱلْمَلَائِكَةِ ٱلْمُقَرَّبِينَ وَهُوَ ٱلَّذِي لَا يَفْعَلُ اِلَّا مَا اَرَادَهُ ٱللّٰهُ مِنْهُ وَلَا يَخْتَارُ اِلَّا مَا قَرَّبَ اِلَيْهِ وَلَا يُخَالِفُهُ اِلَى شَيْءٍ مِنْ شَهَوَاتِهِ ٱلرَّدِيئَةِ وَلَا يَنْخَدِعُ بِخَدَائِعِ ٱلطَّبِيعَةِ وَلَا يَلْتَفِتُ اِلَى شَيْءٍ يَعُوقُهُ عَنْ سَعَادَتِهِ وَهُوَ ٱلَّذِي لَا يَحْزَنُ عَلَى فَقْدِ مَحْبُوبٍ وَلَا يَتَحَسَّرُ عَلَى فَوْتِ مَطْلُوبٍ . اِلَّا اَنَّ ٱلْمَرْتَبَةَ ٱلْاَخِيرَةَ تَتَفَاوَتُ تَفَاوُتًا عَظِيمًا اَعْنِي اَنَّ مَنْ يَصِلُ اِلَيْهَا مِنَ ٱلنَّاسِ يَكُونُ عَلَى طَبَقَاتٍ كَثِيرَةٍ غَيْرِ مُتَقَارِبَةٍ وَهَاتَانِ ٱلْمَرْتَبَتَانِ هُمَا ٱللَّتَانِ سَاقَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْكَلَامَ اِلَيْهِمَا وَٱخْتَارَ ٱلْمَرْتَبَةَ ٱلْاَخِيرَةَ مِنْهُمَا . .

(وَاِذْ قَدْ لَخَّصْنَا اَمْرَ هَاتَيْنِ ٱلْمَنْزِلَتَيْنِ مِنَ ٱلسَّعَادَةِ ٱلْقُصْوَى) فَقَدْ تَبَيَّنَ بَيَانًا كَافِيًا اَنَّ اِحْدَاهُمَا بِٱلْاِضَافَةِ اِلَيْنَا اُولَى وَٱلْاُخْرَى ثَانِيَةٌ وَمِنَ ٱلْمُحَالِ اَنْ نَسْلُكَ اِلَى ٱلثَّانِيَةِ مِنْ غَيْرِ اَنْ نَمُرَّ بِٱلْاُولَى . . ثُمَّ اَعْلَمْ اَنَّ مَنْ عُنِيَ بِبَعْضِ ٱلْقُوَى ٱلَّتِي ذَكَرْنَاهَا دُونَ بَعْضٍ اَوْ تَعَمَّدَ لِاِصْلَاحِهَا فِي وَقْتٍ دُونَ وَقْتٍ لَمْ تَحْصُلْ لَهُ ٱلسَّعَادَةُ ٱلتَّامَّةُ . . .

البحث الثامن

في انهُ ينبغي للخطيب المشير ان يعرف الاشياء النافعة وفي مقابلة الخير مع النافع ومقابلة الخيور مع بعضها

(من كتاب خطابة ارسطاطاليس تعريب ابن رشد)

قَدْ تَبَيَّنَتِ ٱلْغَايَاتُ ٱلَّتِي مِنْ اَجْلِهَا يُشِيرُ ٱلْمُشِيرُ وَمِنْهَا تَتَبَيَّنُ اَضْدَادُهَا ٱلَّتِي مِنْ اَجْلِهَا يَمْنَعُ ٱلْمُشِيرُ وَهِيَ تُؤَلَّفُ مِنْهَا اَقَاوِيلُ ٱلْمَنْعِ اِذْ كَانَ عَدَدُهَا هُوَ ذٰلِكَ ٱلْعَدَدَ بِعَيْنِهِ وَوَضْعُهَا مِنَ ٱلْاَقَاوِيلِ ٱلْمَشُورِيَّةِ هُوَ ذٰلِكَ ٱلْوَضْعُ بِعَيْنِهِ. وَمِنْ اَجْلِ اَنَّ ٱلْمُشِيرَ اِنَّمَا غَرَضُهُ ٱلْمُقَدَّمُ فِي فِكْرِهِ هُوَ اَنْ يُشِيرَ بِٱلشَّيْءِ ٱلنَّافِعِ ٱلَّذِي تَلْزَمُ عَنْهُ وَاحِدَةٌ وَاحِدَةٌ مِنْ هٰذِهِ ٱلْغَايَاتِ وَذٰلِكَ اَنَّ هٰذِهِ ٱلْغَايَاتِ هِيَ اَوَّلُ ٱلْفِكْرَةِ وَآخِرُ ٱلْعَمَلِ وَٱلْاَشْيَاءُ ٱلنَّافِعَةُ هِيَ آخِرُ ٱلْفِكْرَةِ وَاَوَّلُ ٱلْعَمَلِ وَاَعْنِي بِاَوَّلِ ٱلْفِكْرِ ٱلنَّتِيجَةَ وَبِآخِرِ ٱلْفِكْرِ ٱلْمُقَدَّمَاتِ

فَقَدْ يَجِبُ اَنْ يَكُونَ لِلْخَطِيبِ اُصُولٌ وَقَوَانِينُ يَعْرِفُ بِهَا ٱلْاَشْيَاءَ ٱلنَّافِعَةَ فِي ٱلْغَايَاتِ وَهِيَ ٱلْعَوَاقِبُ اِذْ كَانَتْ هِيَ اَوَّلَ ٱلْعَمَلِ وَٱلنَّافِعَاتُ وَاِنْ لَمْ تَكُنْ خَيْرًا مُطْلَقًا فَهِيَ خَيْرٌ لِاَنَّهَا طَرِيقٌ اِلَى ٱلْخَيْرِ بِاِطْلَاقٍ. فَٱلْخَيْرُ ٱلْمُطْلَقُ هُوَ ٱلَّذِي يُخْتَارُ مِنْ اَجْلِ نَفْسِهِ وَيُخْتَارُ غَيْرُهُ مِنْ اَجْلِهِ وَهُوَ ٱلَّذِي يَتَشَوَّقُ اِلَيْهِ ٱلْكُلُّ. وَاَعْنِي هَاهُنَا بِٱلْكُلِّ ذَوِي ٱلْفَهْمِ ٱلْحَسَنِ مِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلذَّكَاءِ. وَذٰلِكَ قَدْ يَكُونُ خَيْرًا فِي ٱلْحَقِيقَةِ وَقَدْ يَكُونُ خَيْرًا فِي ٱلظَّنِّ وَذٰلِكَ بِحَسَبِ ٱعْتِقَادِ اِنْسَانٍ اِنْسَانٍ فِي هٰذَا ٱلْخَيْرِ. وَلِذٰلِكَ اِذَا كَانَ ٱلشَّيْءُ ٱلَّذِي

يَعْتَقِدُ فِيهِ ٱلْإِنْسَانُ هٰذَا ٱلِاعْتِقَادَ مَوْجُودٌ لَهُ فَقَدِ ٱكْتَفَى بِهِ وَنَالَ حَاجَتَهُ وَلَمْ يَبْقَ لَهُ تَشَوُّقٌ إِلَى شَيْءٍ أَصْلًا. وَٱلْأَشْيَاءُ ٱلنَّافِعَةُ فِي هٰذَا ٱلْخَيْرِ هِيَ بِٱلْجُمْلَةِ أَرْبَعَةُ أَجْنَاسٍ ٱلْأَشْيَاءُ ٱلْفَاعِلَةُ وَٱلْأَشْيَاءُ ٱلْحَافِظَةُ لَهُ وَمَا يَلْزَمُ ٱلْفَاعِلَةَ وَذٰلِكَ أَنَّ لَازِمَ ٱلشَّيْءِ يُعَدُّ مَعَ ٱلشَّيْءِ. وَكَذٰلِكَ أَيْضًا لَازِمُ ٱلْمُفْسِدِ لِلشَّيْءِ يُعَدُّ مَعَ ٱلْمُفْسِدِ. وَلَازِمُ ضِدِّ ٱلْفَاعِلِ مَعَ ضِدِّ ٱلْفَاعِلِ فِي ٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي يَنْهِي عَنْهَا وَلُزُومُ ٱلْغَايَـةِ لِلْفَاعِلِ رُبَّمَا كَانَ مَعًا مِثْلَ مَا يَلْزَمُ ٱلْمَدْحَ ٱقْتِنَاءُ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلْمَمْدُوحَةِ وَرُبَّمَا كَانَ مُتَأَخِّرًا مِثْلَ ٱلْعِلْمِ ٱلَّذِي يَتْبَعُ ٱلتَّعَلُّمَ بِآخِرَةٍ. وَٱلْأَشْيَاءُ ٱلْفَاعِلَةُ ثَلَاثَةُ أَصْنَافٍ إِمَّا بِٱلذَّاتِ وَإِمَّا بِٱلْعَرَضِ. وَٱلَّذِي بِٱلذَّاتِ ٱثْنَـانِ إِمَّا قَرِيبٌ مِثْلُ فِعْلِ ٱلْغِذَاءِ لِلصِّحَّةِ. وَإِمَّا بَعِيدٌ مِثْـلُ ٱلطَّبِيبِ. وَٱلَّذِي بِٱلْعَرَضِ مِثْلُ فِعْلِ ٱلتَّعَبِ فِي ٱلرِّيَاضَةِ لِلصِّحَّةِ. وَإِذَا كَانَ وَاجِبًا أَنْ تَـكُونَ أَصْنَافُ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلْفَاعِلَةِ لِلْخَيْرِ هِيَ هٰذِهِ ٱلْأَصْنَافَ ٱلثَّـلَاثَةَ فَبِٱضْطِرَارٍ أَنْ تَـكُونَ ٱلْأُمُورُ ٱلنَّافِعَةُ فِي ٱلْخَيْرِ بَعْضُهَا خَيْرٌ فِي ذَاتِهَا مِثْلُ نَفْعِ ٱلْغِذَاءِ فِي ٱلصِّحَّةِ وَبَعْضُهَا شَرٌّ فِي ذَاتِهَا وَخَـيْرٌ مَا بِحَسَبِ نَفْعِهَا فِي ٱلْخَيْرِ مِثْلُ شُرْبِ ٱلدَّوَاءِ لِلصِّحَّـةِ. وَٱلشُّرُورُ ٱلَّتِي تَنْفَعُ فِي ٱلْخَيْرِ هِيَ نَافِعَةٌ عَلَى وَجْهَـيْنِ أَحَدُهُمَا أَنْ يُسْتَفَادَ بِهَا خَيْرٌ هُوَ أَعْظَمُ مِنَ ٱلشَّرِّ ٱللَّاحِقِ مِنِ ٱسْتِعْمَالِهَا مِثْلَ ٱسْتِفَادَةِ ٱلصِّحَّـةِ عَنْ شُرْبِ ٱلدَّوَاءِ وَمِثْلُ ٱلْمَشَقَّةِ ٱلْيَسِيرَةِ فِي ٱسْتِفَادَةِ ٱلْمَالِ ٱلْـكَثِيرِ. وَمِنْهَا مَا تُنَالُ بِهِ ٱلسَّـلَامَةُ مِنْ شَرٍّ هُوَ أَعْظَمُ مِنَ ٱلشَّرِّ ٱلَّذِي يُنَالُ مِنْهَا مِثْلُ مَا يَنَالُ رُكَّابُ ٱلْبَحْرِ مِنَ ٱلسَّلَامَةِ إِذَا طَرَحُوا أَمْتِعَتَهُمْ فَإِنَّ

طَرْحَ أَمتِعَتِهِمْ شَرٌّ لٰكِنْ تُسْتَفَادُ مِنهُ ٱلسَّلَامَةُ مِنْ شَرٍّ هُوَ أَعْظَمُ وَهُوَ ٱلْعَطَبُ. وَٱلْخَيْرَاتُ ٱلَّتِي تُسْتَفَادُ مِنَ ٱلْخَيْرَاتِ يُسَمِّيهَا ارِسْطُو فَوَائِدَ بِإِطْلَاقٍ وَأَمَّا تِلْكَ فَيُسَمِّيهَا ٱنْتِقَالًا وَيَعْنِي بِذٰلِكَ أَنَّهَا ٱنْتِقَالٌ مِنْ شَرٍّ إِلَى مَا هُوَ أَخَفُّ شَرًّا مِنْهُ أَوِ ٱنْتِقَالٌ مِنْ شَرٍّ إِلَى مَا هُوَ خَيْرٌ

(قَالَ) وَٱلْفَضَائِلُ وَإِنْ كَانَتْ غَايَاتٍ فَهِيَ أَيْضًا خَيْرَاتٌ فِي أَنْفُسِهَا وَنَافِعَةٌ فِي ٱلْخَيْرِ فَإِنَّ ٱلْمُقْتَنِينَ لَهَا هُمْ بِهَا حَسَنُو ٱلْأَحْوَالِ وَهِيَ مَعَ هٰذَا فَاعِلَةٌ لِلْخَيْرِ وَمُسْتَعْمَلَةٌ فِيهِ

(قَالَ) وَقَدْ يَنْبَغِي أَنْ نُخْبِرَ عَنْ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْ هٰذِهِ وَكَيْفَ هِيَ خَيْرٌ فِي نَفْسِهَا وَكَيْفَ هِيَ فَاعِلَةٌ لِلْخَيْرِ وَنُفَصِّلَ ٱلْأَمْرَ فِي ذٰلِكَ. وَٱللَّذَّاتُ أَيْضًا هِيَ خَيْرٌ بِنَفْسِهَا لِأَنَّ جَمِيعَ ٱلْحَيَوَانِ يَشْتَاقُ إِلَيْهَا. وَٱلْأُمُورُ ٱللَّذِيذَةُ إِنَّمَا تَكُونُ خَيْرًا إِذَا كَانَ بِهَا ٱلْمُلْتَذُّ حَسَنَ ٱلْحَالِ وَقَدْ يَسْتَبِينُ مِنَ ٱلتَّصَفُّحِ أَنَّهَا خَيْرٌ وَأَنَّهَا قَدْ تَكُونُ نَافِعَةً فِي ٱلْخَيْرِ وَأَجْزَاءِ صَلَاحِ ٱلْحَالِ. وَبِٱلْجُمْلَةِ مِنْهَا مَا هِيَ غَايَاتٌ فَقَطْ. وَمِنْهَا مَا قَدْ تُعَدُّ غَايَاتٍ وَهِيَ نَافِعَةٌ أَيْضًا فِي ٱلْغَايَاتِ. وَذٰلِكَ أَنَّ لِبَعْضِهَا تَرْتِيبًا عِنْدَ بَعْضٍ أَعْنِي أَنَّ بَعْضَهَا عِلَّةٌ لِوُجُودِ بَعْضٍ وَمُتَقَدِّمٌ عَلَيْهِ. وَمِثَالُ ذٰلِكَ أَنَّ ٱلشَّجَاعَةَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلْعَفَافَ وَكِبَرَ ٱلنَّفْسِ وَٱلنُّبْلَ وَمَا أَشْبَهَهَا مِنْ فَضَائِلِ ٱلنَّفْسِ قَدْ تُخْتَارُ أَشْيَاءُ كَثِيرَةٌ مِنْ أَجْزَاءِ صَلَاحِ ٱلْحَالِ مِنْ أَجْلِهَا. وَكَذٰلِكَ ٱلصِّحَّةُ وَٱلْجَمَالُ مِنْ فَضَائِلِ ٱلْجَسَدِ قَدْ تُخْتَارُ أَشْيَاءُ مِنْ أَجْلِهَا هِيَ مِنْ صَلَاحِ ٱلْحَالِ وَهِيَ فَاعِلَاتُهَا وَكَذٰلِكَ تُخْتَارُ

فَاعِلَاتُ أَشْيَاءَ أُخَرَ مِنْ صَلَاحِ ٱلْحَالِ مِثْلُ فَاعِلَاتِ ٱللَّذَّةِ وَفَاعِلَاتِ ٱلسِّيرَةِ ٱلْحَسَنَةِ . وَلِذٰلِكَ مَا يُظَنُّ بِٱلْيَسَارِ أَنَّهُ خَيْرٌ إِذْ كَانَ سَبَبًا لِهٰذَيْنِ ٱلْأَمْرَيْنِ ٱلشَّرِيفَيْنِ أَحَدُهُمَا ٱللَّذَّةُ وَٱلْآخَرُ حُسْنُ ٱلسِّيرَةِ وَصَلَاحُ ٱلْحَالِ بِكَثْرَةِ ٱلْإِخْوَانِ قَدْ يُوجَدُ فَاعِلًا لِأَشْيَاءَ كَثِيرَةٍ مِنَ ٱلْخَيْرَاتِ وَذٰلِكَ إِذَا كَانَتِ ٱلصَّدَاقَةُ ٱلَّتِي بَيْنَهُمَا مِنْ أَجْلِ ٱلْمَحَبَّةِ نَفْسِهَا لَا أَنْ تَكُونَ ٱلْمَحَبَّةُ بَيْنَهُمَا مِنْ أَجْلِ شَيْءٍ آخَرَ فَإِنَّ ٱلْإِخْوَانَ ٱلَّذِينَ بِهٰذِهِ ٱلصِّفَةِ هُمْ يَفْعَلُونَ ٱلْكَرَامَةَ وَٱلتَّمْجِيدَ وَغَيْرَ ذٰلِكَ مِمَّا يَجْرِي مَجْرَاهُمَا مِنَ ٱلْخَيْرَاتِ وَذٰلِكَ يَكُونُ مِنْهُمْ بِٱلْقَوْلِ وَٱلْفِعْلِ فَإِنَّ ٱلْأَقْوَالَ وَٱلْأَفْعَالَ ٱلَّتِي تُفْعَلُ بِهَا ٱلْكَرَامَةُ وَٱلتَّمْجِيدُ وَغَيْرُ ذٰلِكَ مِمَّا يَجْرِي مَجْرَاهُمَا هِيَ خَيْرٌ وَنَافِعٌ .

(قَالَ) وَمِنَ ٱلنَّافِعَاتِ بِذَاتِهَا ٱلْمَلَكَاتُ ٱلطَّبِيعِيَّةُ ٱلَّتِي يَكُونُ ٱلْإِنْسَانُ بِهَا مُسْتَعِدًّا لِأَشْيَاءَ حَسَنَةٍ مِثْلِ ٱلذَّكَاءِ وَٱلْحِفْظِ وَٱلتَّعَلُّمِ وَخِفَّةِ ٱلْحَرَكَاتِ . وَكَذٰلِكَ ٱلْكَمَالَاتُ مِثْلُ ٱلْعُلُومِ وَٱلصَّنَائِعِ وَكَذٰلِكَ ٱلسِّيَرُ ٱلْمَحْمُودَةُ وَهٰذِهِ كُلُّهَا مَعَ أَنَّهَا نَافِعَةٌ فِي غَيْرِهَا هِيَ خَيْرٌ فِي نَفْسِهَا وَإِنْ لَمْ يَتَّصِلْ بِهَا خَيْرٌ آخَرُ فَهِيَ خَيْرَاتٌ مُنْفَرِدَةٌ بِأَنْفُسِهَا مُخْتَارَةٌ لِذَاتِهَا وَٱلْبُرْءُ أَيْضًا خَيْرٌ نَافِعٌ

(قَالَ) فَهٰذِهِ هِيَ ٱلْخَيْرَاتُ ٱلَّتِي يُعْتَرَفُ بِهَا وَيُجْتَمَعُ أَنَّهَا خَيْرَاتٌ وَنَافِعَاتٌ وَمَتَى بُيِّنَ فِي شَيْءٍ مِنْهَا أَنَّهَا خَيْرٌ فَذٰلِكَ بَيَانٌ لَا عَلَى طَرِيقِ ٱلْمِرَاءِ وَٱلْمُغَالَطَةِ ٱلْمُسْتَعْمَلَةِ فِي هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ . وَأَمَّا إِذَا بُيِّنَ فِي شَيْءٍ مِنْ أَضْدَادِ هٰذِهِ أَنَّهَا خَيْرٌ وَفِيهَا أَنَّهَا شَرٌّ فَذٰلِكَ يَكُونُ فِي هٰذِهِ

ٱلصِّنَاعَةِ عَلَى طَرِيقِ ٱلْمِرَاء أَعْنِي بِبَيَانٍ سُوفِسْطَائِيٍّ. وَذٰلِكَ أَنَّ ٱلشَّرَّ إِنَّمَا يَنْفَعُ بِٱلْعَرَضِ مِثْلَ أَنْ يُبَيِّنَ خَطِيبٌ لِأَهْلِ مَدِينَةٍ مَا أَنَّ ٱلْجُبْنَ لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنَّهُمْ إِنْ شَجُعُوا خَرَجُوا عَنِ ٱلْمَدِينَةِ فَنَالَ مِنْهُمُ ٱلْعَدُوُّ وَلٰكِنِ ٱلْجُبْنُ لَيْسَ هُوَ خَيْرًا عَلَى ٱلْإِطْلَاقِ وَإِنَّمَا كَانَ خَيْرًا بِٱلْإِضَافَةِ إِلَى أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ٱلَّذِينَ عُرِضَ لَهُمْ هٰذَا. وَأَمَّا ٱلنَّافِعُ فِي ٱلْأَكْثَرِ وَبِٱلذَّاتِ لِلْإِنْسَانِ فَهُوَ ٱلْخَيْرُ كَمَا أَنَّ ٱلشَّرَّ ٱلْمُضَادَّ لِلْخَيْرِ هُوَ نَافِعٌ لِلْأَعْدَاءِ وَذٰلِكَ أَنَّ ٱلْجُبْنَ لَمَّا كَانَ شَرًّا لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ بِٱلْعَرَضِ كَانَ نَافِعًا لِلْأَعْدَاءِ. وَٱلشَّجَاعَةُ لَمَّا كَانَتْ بِٱلذَّاتِ خَيْرًا لَهُمْ كَانَتْ ضَارَّةً بِٱلْأَعْدَاءِ إِلَّا أَنَّهُ قَدْ يَلْحَقُ مَا هُوَ شَرٌّ مَا لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَكُونَ ضَارًّا لِعَدُوِّهِ وَمَا هُوَ خَيْرٌ مَا لَهُ أَنْ يَكُونَ نَافِعًا لِعَدُوِّهِ مِثْلُ ٱلْجُبْنِ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ٱلَّذِينَ إِذَا خَرَجُوا عَنِ ٱلْمَدِينَةِ لَمْ تَكُنْ لَهُمْ قُوَّةٌ يُقَاوِمُونَ بِهَا عَدُوَّهُمْ. فَيَنْبَغِي لِلْخَطِيبِ أَنْ يَتَحَرَّى فِي كُلِّ وَقْتٍ ٱلنَّافِعَ مِنْ هٰذِهِ ٱلْأَشْيَاءِ وَهٰذِهِ ٱلْقَضِيَّةُ أَيْضًا لَيْسَتْ كُلِّيَّةً أَعْنِي ٱلْقَائِلَةَ أَنَّ كُلَّ مَا يَضُرُّ ٱلْعَدُوَّ وَيَكْرَهُهُ نَافِعٌ وَكُلُّ مَا يَنْفَعُ ٱلْعَدُوَّ وَيَسُرُّهُ ضَارٌّ فَإِنَّ كَثِيرًا مَا يَكُونُ ٱلْأَمْرُ ٱلْوَاحِدُ ضَارًّا لِلْإِنْسَانِ وَعَدُوِّهِ وَنَافِعًا لِلْإِنْسَانِ وَعَدُوِّهِ. فَمِثَالُ مَا هُوَ نَافِعٌ لِكِلَيْهِمَا وَيُسَرُّ بِهِ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مُفَارَقَةُ ٱلْعَدُوِّ عَدُوَّهُ إِذَا كَانَتْ بَعْدَ مُقَاتَلَةٍ شَدِيدَةٍ بَيْنَهُمَا وَمُقَاوَمَةٍ أَشْفَى كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا عَلَى ٱلْعَطَبِ مِنْهَا مِنْ غَيْرِ أَنْ يَظْفَرَ أَحَدُهُمَا بِصَاحِبِهِ فَإِنَّهُمَا إِذَا ٱفْتَرَقَا فِي إِثْرِ هٰذِهِ ٱلْحَالِ سُرَّ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا بِٱلِٱفْتِرَاقِ وَلِذٰلِكَ قَدْ يَكُونُ ٱلنَّافِعُ

نَافِعًا لِلأَعْدَاءِ أَيضًا. وَأَمَّا مَا هُوَ ضَارٌّ لِكِلَيْهِمَا فَكَثِيرًا مَا يُوجِبُ صَدَاقَةَ ٱلعَدُوِّ . وَذٰلِكَ إِذَا كَانَا مُتَسَاوِيَيْنِ فِي تَزُولِ ٱلشَّرِّ ٱلوَارِدِ بِهِمَا مِنْ غَيْرِ أَنْ يَفْضُلَ أَحَدُهُمَا فِي ذٰلِكَ صَاحِبَهُ . وَكَثِيرٌ مِنَ ٱلأُمَمِ ٱلمُخْتَلِفَةِ كَانَ ٱتِّفَاقُهُمْ بِهٰذَا ٱلسَّبَبِ وَلِذٰلِكَ قِيلَ إِنَّ ٱلشَّرَّ قَدْ يَجْمَعُ ٱلنَّاسَ فَهٰذَا أَيْضًا أَحَدُ مَا يَكُونُ بِهِ ٱلشَّرُّ نَافِعًا أَعْنِي أَنْ يَكُونَ ٱلضَّرُّ ٱلنَّازِلُ بِٱلإِنْسَانِ نَازِلًا بِعَدُوِّهِ . فَإِنَّ ذٰلِكَ يُوجِبُ صَدَاقَةَ ٱلعَدُوِّ وَحِينَئِذٍ يَهْوَى ٱلعَدُوُّ ٱلوَارِدُ ضِدَّ مَا يَهْوَاهُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنَ ٱلْمُتَعَادِيَيْنِ ٱللَّذَيْنِ وَرَدَ عَلَيْهِمَا ٱلعَدُوُّ مِنْ خَارِجٍ . وَذٰلِكَ أَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنَ ٱلْمُتَعَادِيَيْنِ يَهْوَى صَدَاقَةَ صَاحِبِهِ لِمَكَانِ تَعَاوُنِهِمَا عَلَى ٱلعَدُوِّ ٱلوَارِدِ عَلَيْهِمَا مِنْ خَارِجٍ . وَٱلعَدُوُّ ٱلوَارِدُ يَهْوَى بَقَاءَ عَدَاوَتِهِمَا عَلَى حَالِهَا أَوْ تَأَكُّدَهَا . وَأَرِسْطُو يَقُولُ : وَلِذٰلِكَ كَثِيرًا مَا تُنْفَقُ ٱلنَّفَقَاتُ ٱلعَظِيمَةُ وَتُفْعَلُ ٱلأَفْعَالُ ٱلكَثِيرَةُ فِي مِثْلِ هٰذَا ٱلخَيْرِ ٱلَّذِي يُدْفَعُ بِهِ ٱلشَّرُّ ٱلعَظِيمُ وَإِنَّمَا تَطِيبُ ٱلنَّفْسُ بِٱلنَّفَقَاتِ فِي مِثْلِ هٰذِهِ ٱلأَشْيَاءِ لِظُهُورِ مَا يَلْزَمُ عَنْهَا مِنَ ٱلغَايَةِ ٱلمَطْلُوبَةِ وَقُرْبِهَا حَتَّى كَأَنَّهَا إِذَا وُجِدَتْ هٰذِهِ ٱلأَشْيَاءُ وُجِدَتِ ٱلغَايَةُ . وَقَدْ يَكُونُ ٱلشَّرُّ ٱلمُفْرِطُ ٱلنَّازِلُ بِٱلعَدُوِّ أَيْضًا سَبَبًا لِلاعْتِرَافِ بِٱلخَيْرِ ٱليَسِيرِ ٱلَّذِي نَالَهُ مِنْ عَدُوِّهِ وَلَوْلَاهُ لَمْ يَعْتَرِفْ بِهِ ٱلعَدُوُّ . مِثْلَ مَا حَكَى أَرِسْطُو أَنَّهُ عَرَضَ لِبَعْضِ ٱلمُلُوكِ ٱلَّذِينَ كَانُوا أَعْدَاءَ ٱليُونَانِيِّينَ أَنَّهُ ٱشْتَدَّتْ مُحَارَبَتُهُمْ لَهُ وَحَصْرُهُمْ إِيَّاهُ سِنِينَ كَثِيرَةً وَقَتَلُوا فِي ذٰلِكَ ٱلحِصَارِ ٱبْنَهُ فَسَأَلَهُمْ أَنْ يُعْطُوهُ جُثَّتَهُ لِيَحْرِقَهَا عَلَى عَادَتِهِمْ فِي مَوْتَاهُمْ فَفَعَلُوا

ذٰلِكَ فَشَكَرَهُمْ عَلَى ذٰلِكَ وَاَظْهَرَ شُكْرَهُمْ عِنْدَ جَمِيعِ قَوْمِهِ وَاَهْلِ مَدِينَتِهِ. فَلَوْلَا مَا نَزَلَ بِهِ مِنَ ٱلشَّرِّ ٱلْعَظِيمِ لَمَا شَكَرَهُمْ عَلَى هٰذَا ٱلشَّيْءِ ٱلْيَسِيرِ ٱلَّذِي سَمَحُوا لَهُ بِهِ كَمَا قَالَ ذٰلِكَ اُومِيرُوشُ ٱلشَّاعِرُ

(قَالَ) وَمِنَ ٱلِاصْطِنَاعَاتِ ٱلنَّافِعَةِ وَٱلْاَفْعَالِ ٱلَّتِي يَعْظُمُ قَدْرُهَا عِنْدَ ٱلْمُصْطَنَعِ اِلَيْهِمْ فَيَصِيرُ بِهِ ٱلْمُصْطَنِعُ اِلَى خَيْرٍ عَظِيمٍ مِنَ ٱلْمُصْطَنَعِ اِلَيْهِمْ اَنْ يَخْتَارَ ٱلْاِنْسَانُ اِنْسَانًا عَظِيمَ ٱلْقَدْرِ مِنْ جِنْسٍ مَا مِنَ ٱلنَّاسِ لَهُ اَيْضًا عَدُوٌّ عَظِيمُ ٱلْقَدْرِ فِي جِنْسٍ آخَرَ مِنَ ٱلنَّاسِ فَيَفْعَلَ بِعَدُوِّ ذٰلِكَ ٱلْاِنْسَانِ ٱلشَّرَّ وَبِاَصْدِقَائِهِ ٱلْخَيْرَ. مِثْلَ مَا عَرَضَ لِاُومِيرُوشَ مَعَ ٱلْيُونَانِيِّينَ وَاَعْدَائِهِمْ فَاِنَّهُ قَصَدَ اِلَى عَظِيمٍ مِنْ عُظَمَاءِ ٱلْيُونَانِيِّينَ فِي ٱلْقَدِيمِ وَخَصَّهُ بِٱلْمَدْحِ وَاَصْدِقَاءَهُ مِنَ ٱلْيُونَانِيِّينَ. وَخَصَّ عَدُوًّا لَهُ عَظِيمًا بِٱلْهَجْوِ هُوَ وَقَوْمَهُ ٱلْمُعَادِينَ لِلْيُونَانِيِّينَ فِي حُرُوبٍ وَقَعَتْ بَيْنَهُمَا فَكَانَ رَبَّ ٱلنِّعْمَةِ ٱلْعَظِيمَةِ بِذٰلِكَ عِنْدَ ٱلْيُونَانِيِّينَ وَعَظَّمُوهُ كُلَّ ٱلتَّعْظِيمِ حَتَّى اَعْتَقَدُوا فِيهِ اَنَّهُ كَانَ رَجُلًا اِلٰهِيًّا وَاَنَّهُ كَانَ ٱلْمُعَلِّمَ ٱلْاَوَّلَ لِجَمِيعِ ٱلْيُونَانِيِّينَ. وَبِٱلْجُمْلَةِ فَفِعْلَ ٱلشَّرِّ بِٱلْاَعْدَاءِ وَٱلْخَيْرِ بِٱلْاَصْدِقَاءِ مِنَ ٱلْاُمُورِ ٱلنَّافِعَةِ.

وَمِنْ شَرْطِ هٰذَا ٱلْفِعْلِ ٱلَّذِي يَعْظُمُ مَوْقِعُهُ اَنْ يَكُونَ مَا فُعِلَ مِنْهُ يُرَى اَنَّهُ لَمْ يُمْكِنِ ٱلْفَاعِلَ وَلَا تَيَسَّرَ لَهُ غَيْرُهُ وَسَوَاءٌ كَانَ ٱلْفِعْلُ كَثِيرًا فِي نَفْسِهِ اَوْ يَسِيرًا وَاَنْ يُظَنَّ اَنَّ فِعْلَهُ لَمْ يَكُنْ لِمَكَانِ خَوْفٍ وَلَا شَيْءٍ يَرْجُوهُ بَلْ لِاَنَّ شَوْقَهُ وَهَوَاهُ قَادَهُ اِلَى ذٰلِكَ فَاِنَّ بِهٰذَا يَكُونُ ٱلْفِعْلُ مُدَاوَمًا عَلَيْهِ مِنَ ٱلْفَاعِلِ وَهُوَ ٱلسَّهْلُ عَلَيْهِ لِاَنَّ

ٱلأَفعَالَ ٱلَّتِي تَكُونُ مِنْ أَجلِ خَوفٍ إِنَّمَا تَكُونُ غَيرَ شَاقَّةٍ زَمَانًا يَسِيرًا وَإِذَا طَالَ بِهَا ٱلزَّمَانُ كَانَتْ شَاقَّةً فَٱنقَطَعَتْ وَإِذَا ٱنقَطَعَتْ كَانَ مِنْ ذٰلِكَ عَدَاوَةٌ مِنَ ٱلْمُصْطَنَعِ إِلَيْهِ لِلْمُصْطَنِعِ. فَلِذٰلِكَ يُشْتَرَطُ فِي هٰذَا ٱلْفِعْلِ أَنْ يَكُونَ سَهْلًا عَلَى ٱلْفَاعِلِ فَهٰذِهِ هِيَ شُرُوطُ ٱلِٱبْتِدَاءِ بِٱلصَّنَائِعِ ٱلَّتِي يَعْظُمُ مَوْقِعُهَا وَيُوجَدُ نَفْعُهَا. وَأَمَّا ٱلْمُكَافَاةُ ٱلَّتِي لَا يَعْظُمُ مَوْقِعُهَا فَهِيَ ٱلْمُكَافَاةُ ٱلَّتِي لَا تَكُونُ بِحَسَبِ مَا يَهْوَى ٱلْمُكَافِئُ بِٱلطَّبْعِ مِنْ أَكْثَرِ ٱلنَّاسِ وَهُوَ أَنْ تَكُونَ نَاقِصَةً عَنِ ٱلصَّنِيعَةِ ٱلَّتِي أُسْدِيَتْ إِلَيْهِ إِمَّا فِي ٱلْكَمِّيَّةِ وَإِمَّا فِي ٱلْمَنْفَعَةِ وَإِمَّا لِأَنَّهَا قَدْ فَضُلَتْ عِنْدَ ٱلْمُكَافِئِ وَلَيْسَ يَحْتَاجُ إِلَيْهَا وَهِيَ ٱلْمُكَافَاةُ ٱلَّتِي يُغَالَطُ فِيهَا وَإِنَّمَا كَانَ ٱلْمُكَافِئُ بِٱلطَّبْعِ ٱلَّذِي يَشْتَهِي أَنْ تَكُونَ مُكَافَاتُهُ بِأَحَدِ هٰذِهِ ٱلثَّلَاثَةِ ٱلْأَحْوَالِ لِأَنَّ ٱلْمُكَافِئَ كَأَنَّهُ مَقْصُورٌ عَلَى ٱلْإِعْطَاءِ فَهُوَ إِنَّمَا يَشْتَهِي إِمَّا أَلَّا يَلْحَقَهُ نَقْصٌ مِنَ ٱلْخَيْرِ ٱلَّذِي وَصَلَ إِلَيْهِ وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ ٱلنَّقْصُ أَقَلَّ مِنَ ٱلْخَيْرِ ٱلَّذِي وَصَلَ إِلَيْهِ. فَإِذَا لَمْ تَكُنِ ٱلْمُكَافَاةُ بِهٰذِهِ ٱلصِّفَةِ بَلْ كَانَتْ مُقَارِنَةً لِلصَّنِيعَةِ إِمَّا فِي ٱلْجِنْسِ مِثْلَ أَنْ تَكُونَ ٱلْمُكَافَاةُ عَلَى ٱلدَّنَانِيرِ بِدَرَاهِمَ وَإِمَّا فِي ٱلْقُوَّةِ مِثْلَ أَنْ تَكُونَ ٱلْمُكَافَاةُ عَلَى ٱلْمَالِ بِكَرَامَةٍ يُقْتَنَى بِهَا مِثْلُ ذٰلِكَ ٱلْمَالِ فَهِيَ ٱلْمُكَافَاةُ ٱلْعَادِلَةُ لٰكِنَّهَا سُوقِيَّةٌ. فَإِذَا لَمْ تَكُنِ ٱلْمُكَافَاةُ لَا سُوقِيَّةً وَلَا فِيهَا غَبْنٌ بَلْ كَانَ ٱلْمُكَافِئُ يُعْتَقَدُ فِيهِ أَنَّهُ لَيْسَ ٱخْتِيَارُهُ فِي ٱلْمُكَافَاةِ لِمَا هُوَ أَنْقَصُ أَكْثَرَ مِنِ ٱخْتِيَارِهِ لِمَا هُوَ

اَزْيَدُ وَسَوَاءٌ وَقَعَتْ مُكَافَاتُهُ بِمَا هُوَ اَنْقَصُ اَوْ بِمَا هُوَ مُسَاوٍ. اَوْ بِمَا هُوَ شَبِيهٌ فَهِيَ ٱلْمُكَافَاةُ ٱلْجَمِيلَةُ لِاَنَّ مُكَافَاتَهُ بِالْاَنْقَصِ لَمْ تَكُنْ مِنْهُ بِٱخْتِيَارٍ لِذَلِكَ بَلْ لِاَنَّهُ لَمْ يَتَيَسَّرْ ذٰلِكَ فَاِذَا ٱتَّفَقَ اَنْ يَكُونَ مَعَ هٰذَا ذٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِمَّا يَسُرُّ بِهِ ٱلْاَصْدِقَاءُ اَعْنِي اَصْدِقَاءَ ٱلْمُكَافِىءِ بِٱلْفِعْلِ وَيَسُوءُ اَعْدَاءَهُ وَيَكُونُ مَعَ هٰذَا مُتَعَجَّبًا مِنْهُ عِنْدَ ٱلْجُمْهُورِ. وَذٰلِكَ بِٱلْاِضَافَةِ اِلَى مَنْ صَدَرَ عَنْهُ عَظِيمٌ مَوْقِعُهُ مِنَ ٱلْمُصْطَنَعِ اِلَيْهِ وَبِخَاصَّةٍ اِذَا كَانَتِ ٱلصَّنِيعَةُ مِمَّا تُوَافِقُ شَهْوَةَ ٱلْمُصْطَنَعِ اِلَيْهِ مِثْلَ اَنْ يُكَافِئَ اَوْ يَبْدَأَ مُحِبَّ ٱلْكَرَامَةِ بِٱلْكَرَامَةِ وَمُحِبَّ ٱلْمَالِ بِٱلْمَالِ وَمُحِبَّ ٱلْغَلَبَةِ بِٱلْغَلَبَةِ فَاِنَّ هٰذِهِ ٱلصَّنِيعَةَ لَيْسَتْ هِيَ لَذِيذَةً فَقَطْ عِنْدَ ٱلَّذِي تُصْطَنَعُ اِلَيْهِ اَوْ يُكَافَأُ بِهَا بَلْ هِيَ عِنْدَهُ فَاضِلَةٌ وَكَذٰلِكَ ٱلْاَمْرُ فِي سَائِرِ اَصْنَافِ ٱلْخَيْرَاتِ وَاِنَّمَا تَكُونُ اَفْعَالُ ٱلصَّانِعِ وَٱلْمُكَافَاةُ عَلَى ٱلْمُبْتَدِىءِ وَٱلْمُكَافِىءِ اَفْعَالًا سَهْلَةً يُمْكِنُ اَنْ يُدَاوِمُوا عَلَيْهَا مَتَى كَانُوا بِٱسْتِعْدَادِهِمِ ٱلطَّبِيعِيِّ مُهَيَّئِينَ لِتِلْكَ ٱلْاَفْعَالِ وَكَانَتْ قَدْ حَصَلَتْ لَهُمُ ٱلْمَلَكَةُ ٱلَّتِي بِهَا تَصْدُرُ مِنْهُمْ تِلْكَ ٱلْاَفْعَالُ وَمِنَ ٱلصَّنَائِعِ ٱلْيَسِيرَةِ ٱلَّتِي يُظَنُّ بِهَا اَنَّهَا لَيْسَ تُنْقِصُ ٱلْمُصْطَنِعَ شَيْئًا ٱلْاِصْطِنَاعُ بِٱلتَّأْدِيبِ وَٱلْمَوْعِظَةِ



البحث التاسع

في ايثار الخيور وفي شروط تفضيل بعضها على بعض والاسباب الموجبة لذلك

(من الكتاب نفسهِ)

(قَالَ) فَمِنْ هٰذِهِ ٱلْوُجُوهِ يَأْخُذُ ٱلْخَطِيبُ ٱلْمُقَدَّمَاتِ ٱلَّتِي مِنْهَا يُقْنِعُ اَنَّ ٱلشَّيْءَ نَافِعٌ اَوْ غَيْرُ نَافِعٍ. وَمِنْ اَجْلِ اَنَّ ٱلْخَطِيبَ قَدْ يَعْتَرِفُ اَحْيَانًا بِاَنَّ ٱلْاَمْرَ نَافِعٌ وَلٰكِنْ يَدَّعِي اَنَّ هَا هُنَا شَيْئًا هُوَ اَنْفَعُ فَقَدْ يَحْتَاجُ اَنْ تَكُونَ عِنْدَهُ مَوَاضِعُ يَقْدِرُ اَنْ يُبَيِّنَ بِهَا اَنَّ ٱلْاَمْرَ اَنْفَعُ وَاَفْضَلُ. فَمِنْهَا اَنَّ مَا كَانَ نَافِعًا فِي كُلِّ ٱلْاَشْيَاءِ فَهُوَ اَنْفَعُ مِمَّا هُوَ نَافِعٌ فِي بَعْضِ ٱلْاَشْيَاءِ. وَٱلَّذِي هُوَ اَدْوَمُ نَفْعًا هُوَ اَنْفَعُ مِنَ ٱلَّذِي هُوَ اَقْصَرُ نَفْعًا. وَٱلَّذِي هُوَ اَكْبَرُ هُوَ اَنْفَعُ مِنَ ٱلْاَصْغَرِ. وَٱلَّذِي هُوَ اَكْثَرُ هُوَ اَنْفَعُ مِنَ ٱلْاَقَلِّ. وَٱلَّذِي جَمَعَ مِنْ صِفَاتِ ٱلْخَيْرِ اَكْثَرَ اَوْ جَمَعَ صِفَاتِهِ كُلَّهَا فَهُوَ اَنْفَعُ. وَصِفَاتُ ٱلْخَيْرِ ٱلتَّامِّ هُوَ اَنْ يَكُونَ ٱلشَّيْءُ مُخْتَارًا مِنْ اَجْلِ نَفْسِهِ لَا مِنْ اَجْلِ غَيْرِهِ وَاَنْ يَكُونَ مُتَشَوَّقًا عِنْدَ ٱلْكُلِّ وَاَنْ يَكُونَ ذَوُو ٱلْفَضْلِ وَٱللُّبِّ يَخْتَارُونَهُ وَٱلَّذِي جَمَعَ هٰذِهِ ٱلصِّفَاتِ كُلَّهَا اَوْ اَكْثَرَهَا فَهُوَ ٱلْخَيْرُ وَٱلنَّافِعُ ٱلَّذِي فِي ٱلْغَايَةِ وَهُوَ ٱلْغَايَةُ لِسَائِرِ ٱلْاَشْيَاءِ ٱلَّتِي تُوصَفُ بِٱلْخَيْرِ. وَٱلْاَشْيَاءُ ٱلْمُتَّصِفَةُ بِٱلْخَيْرِ ٱلْمُتَعَلِّقَةُ بِهٰذَا ٱلْخَيْرِ ٱلَّذِي

جَمَعَ هٰـذِهِ ٱلصِّفَاتِ إِنَّمَا يُقَالُ فِيهَا أَنَّهَا أَنفَعُ إِذَا وُجِدَ فِي وَاحِدٍ مِنْهَا صِفَةٌ وَاحِدَةٌ مِنْ هٰذِهِ ٱلصِّفَاتِ أَوْ أَكْثَرُ مِنْ صِفَةٍ وَاحِدَةٍ. وَكُلُّ مَا كَانَ مِنْ هٰذِهِ ٱلْأَشْيَاءِ تُوجَدُ فِيهِ صِفَاتٌ أَكْثَرُ مِنْ صِفَاتِ ٱلْخَيْرِ فَهُوَ أَنفَعُ مَا لَمْ تَكُنِ ٱلصِّفَةُ ٱلْوَاحِدَةُ أَنفَعَ مِنِ ٱثْنَتَيْنِ أَوْ مِنْ ثَلَاثٍ. وَأَيْضًا فَمَا كَانَ ٱلْعَظِيمُ فِيهِ أَفْضَلَ مِنَ ٱلْعَظِيمِ فِي جِنْسٍ آخَرَ فَٱلْجِنْسُ ٱلَّذِي فِيهِ ٱلْعَظِيمُ ٱلْأَفْضَلُ هُوَ أَفْضَلُ مِنَ ٱلْجِنْسِ ٱلْآخَرِ وَمَا كَانَ ٱلْجِنْسُ مِنْهُ أَفْضَلَ مِنَ ٱلْجِنْسِ ٱلْأَفْضَلِ فَٱلْعَظِيمُ مِنَ ٱلْجِنْسِ ٱلْأَفْضَلِ أَفْضَلُ مِنَ ٱلْعَظِيمِ مِنَ ٱلْجِنْسِ ٱلْآخَرِ وَهُوَ عَكْسُ ٱلْأَوَّلِ. وَمِثَالُ ذٰلِكَ أَنَّهُ إِنْ كَانَ ٱلذُّكْرَانُ أَفْضَلَ مِنَ ٱلْإِنَاثِ فَٱلرَّجُلُ أَفْضَلُ مِنَ ٱلْمَرْاَةِ وَإِنْ كَانَ ٱلرَّجُلُ أَفْضَلَ مِنَ ٱلْمَرْاَةِ فَٱلذُّكْرَانُ أَفْضَلُ مِنَ ٱلْإِنَاثِ. وَإِنَّمَا كَانَ ذٰلِكَ كَذٰلِكَ لِأَنَّ نِسْبَةَ ٱلْعَظِيمِ إِلَى جِنْسِهِ هِيَ كَنِسْبَةِ ٱلْعَظِيمِ ٱلْآخَرِ إِلَى جِنْسِهِ فَتَكُونُ نِسْبَةُ ٱلْجِنْسِ إِلَى ٱلْجِنْسِ هِيَ نِسْبَةُ ٱلْعَظِيمِ إِلَى ٱلْعَظِيمِ. ثُمَّ إِذَا كَانَ ٱلشَّيْءُ لَازِمًا لِشَيْءٍ مَا وَٱلْآخَرُ غَيْرَ لَازِمٍ لَهُ فَإِنَّ ٱلَّذِي يَلْزَمُ عَنْهُ ٱلشَّيْءُ آثَرُ مِنَ ٱلَّذِي لَا يَلْزَمُ عَنْهُ ٱلشَّيْءُ. مِثَالُ ذٰلِكَ ٱلسُّلْطَانُ وَٱلثَّرْوَةُ فَإِنَّ ٱلثَّرْوَةَ تَلْزَمُ ٱلسُّلْطَانَ وَلَيْسَ يَلْزَمُ ٱلسُّلْطَانُ ٱلثَّرْوَةَ. فَلِذٰلِكَ ٱلسُّلْطَانُ أَفْضَلُ مِنَ ٱلثَّرْوَةِ وَكَذٰلِكَ ٱلْحَالُ فِي ٱلْمَضَارِّ فَإِنَّ ٱلْفَقْرَ يَلْزَمُ عَنْهُ ٱلْبُخْلُ وَلَيْسَ يَلْزَمُ عَنِ ٱلْبُخْلِ ٱلْفَقْرُ. فَٱلْفَقْرُ أَكْثَرُ شَرًّا مِنَ ٱلْبُخْلِ وَٱللَّازِمُ يُوجَدُ عَلَى ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ: إِمَّا أَنْ يُوجَدَا مَعًا أَعْنِي ٱللَّازِمَ وَٱلْمَلْزُومَ مِثْلُ وُجُودِ ٱلْأَبْيَضِ وَٱلْبَيَاضِ

مَعًا وَمِثْلُ لُزُومِ ٱلإِنْسَانِ وَٱلْحَيَوَانِ. وَإِمَّا أَنْ يُوجَدَ ٱللَّازِمُ تَابِعًا بِآخِرَةٍ مِثْلُ لُزُومِ ٱلعِلْمِ عَنِ ٱلتَّعَلُّمِ. وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ تَلَازُمُهُمَا فِي ٱلْقُوَّةِ أَيْ يَكُونَ أَحَدُهُمَا يَفْعَلُ فِعْلَ ٱلآخَرِ وَلَا يَنْعَكِسُ أَعْنِي أَلَّا يَفْعَلَ ٱلْآخَرُ فِعْلَ ٱلْأَوَّلِ. مِثَالُ ذٰلِكَ ٱلفَقْرُ وَٱلْبُخْلُ فَإِنَّ ٱلفَقْرَ يَلْزَمُ عَنْهُ أَنْ يَفْعَلَ ٱلإِنْسَانُ فِعْلَ ٱلبُخْلِ وَلَيْسَ يَلْزَمُ عَنِ ٱلبُخْلِ فِعْلُ ٱلفَقْرِ فَإِنَّ ٱلفَقْرَ يَعُوقُ عَنْ أَشْيَاءَ أَكْثَرَ مِنْ عَدَمِ ٱسْتِعْمَالِ ٱلْمَالِ ٱلَّذِي هُوَ ٱلبُخْلُ وَأَيْضًا ٱلَّذِي يَفْعَلُ ٱلْخَيْرَ ٱلْأَنْفَعَ هُوَ أَنْفَعُ مِنَ ٱلنَّافِعِ. مِثَالُ ذٰلِكَ ٱلْجَلَدُ وَٱلْجَمَالُ فَإِنَّ كِلَيْهِمَا نَافِعٌ وَخَيْرٌ وَٱلْجَلَدُ يُفْعَلُ بِهِ خَيْرٌ أَعْظَمُ مِمَّا يُفْعَلُ بِٱلْجَمَالِ فَهُوَ أَعْظَمُ نَفْعًا. وَكَذٰلِكَ ٱلصِّحَّةُ أَيْضًا أَعْظَمُ نَفْعًا مِنَ ٱللَّذَّةِ لِأَنَّ ٱلصِّحَّةَ يُفْعَلُ بِهَا خَيْرَاتٌ أَكْثَرُ مِمَّا يُفْعَلُ بِٱللَّذَّاتِ. وَأَيْضًا فَإِنَّ ٱلَّذِي يُخْتَارُ مُفْرَدًا أَفْضَلُ نَفْعًا مِنَ ٱلَّذِي لَا يُخْتَارُ إِلَّا مَعَ ذٰلِكَ ٱلْمُخْتَارِ مُفْرَدًا. وَمِثَالُ ذٰلِكَ أَنَّ ٱلْجَمَالَ لَا يُخْتَارُ إِلَّا مَعَ ٱلصِّحَّةِ وَٱلصِّحَّةُ تُخْتَارُ دُونَ ٱلْجَمَالِ فَٱلصِّحَّةُ أَفْضَلُ نَفْعًا مِنَ ٱلْجَمَالِ. وَأَيْضًا إِذَا كَانَ شَيْئَانِ أَحَدُهُمَا كَمَالٌ وَٱلْآخَرُ طَرِيقٌ إِلَى ٱلْكَمَالِ فَٱلَّذِي هُوَ كَمَالٌ أَفْضَلُ. مِثْلُ ٱلصِّحَّةِ وَٱللَّذَّةِ فَإِنَّ ٱلصِّحَّةَ كَمَالٌ وَٱللَّذَّةَ كَوْنٌ وَٱلْكَوْنُ طَرِيقٌ إِلَى ٱلْكَمَالِ. وَإِذَا كَانَ شَيْئَانِ أَحَدُهُمَا يُخْتَارُ لِذَاتِهِ وَٱلْآخَرُ يُخْتَارُ مِنْ أَجْلِ غَيْرِهِ فَٱلَّذِي يُخْتَارُ مِنْ أَجْلِ نَفْسِهِ أَفْضَلُ مِنَ ٱلَّذِي يُخْتَارُ مِنْ أَجْلِ غَيْرِهِ. مِثَالُ ذٰلِكَ ٱلْحِكْمَةُ وَٱلْيَسَارُ فَإِنَّ ٱلْحِكْمَةَ تُخْتَارُ لِذَاتِهَا وَٱلْيَسَارَ يُخْتَارُ لِغَيْرِهِ. وَأَيْضًا فَإِنَّ ٱلَّذِي يَجْعَلُ ٱلْمَرْءَ إِذَا ٱقْتَنَاهُ أَقَلَّ

حَاجَةً إِلَى اَصْدِقَائِهِ اَوْ إِلَى ٱلإِنْسَانِ فَهُوَ اَفْضَلُ مِنَ ٱلَّذِي يَجْعَلُهُ اَكْثَرَ حَاجَةً. فَإِنَّ مَنْ هُوَ اَكْثَرُ كِفَايَةً وَٱسْتِغْنَاءً عَنِ ٱلنَّاسِ هُوَ ٱلَّذِي يَحْتَاجُ إِلَى اَشْيَاءَ قَلِيلَةِ ٱلعَدَدِ سَهْلٍ وُجُودُهَا. وَاَيْضًا إِذَا كَانَ شَيْئَانِ اَحَدُهُمَا يُحْوِجُ اَقْتِنَاؤُهُ إِلَى ٱلثَّانِي وَٱلثَّانِي لَا يُحْوِجُ اَقْتِنَاؤُهُ إِلَى ٱلآخَرِ فَإِنَّ ٱلَّذِي لَا يُحْوِجُ اَقْتِنَاؤُهُ إِلَى ٱلآخَرِ هُوَ آثَرُ. مِثَالُ ذٰلِكَ ٱلْيَسَارُ وَٱلْبَنُونَ فَإِنَّ ٱلْبَنِينَ يُحْوِجُونَ إِلَى ٱقْتِنَاءِ ٱلْمَالِ وَٱلْيَسَارُ لَيْسَ يُحْوِجُ إِلَى اَقْتِنَاءِ ٱلْبَنِينَ فَٱلْيَسَارُ اَفْضَلُ نَفْعًا

(قَالَ) وَيَسْتَبِينُ اَنَّ ٱلشَّيْءَ ٱلَّذِي هُوَ مَبْدَأٌ لَيْسَ يَلْزَمُ اَنْ يَكُونَ اَعْظَمَ مِنَ ٱلشَّيْءِ ٱلَّذِي هُوَ لَهُ مَبْدَأٌ. وَذٰلِكَ اَنَّ ٱلإِرَادَةَ مَبْدَأُ ٱلْخَيْرِ وَفِعْلُ ٱلْخَيْرِ اَعْظَمُ مِنْ إِرَادَةِ ٱلْخَيْرِ. وَكَذٰلِكَ ٱلتَّعَلُّمُ وَٱلعِلْمُ وَإِنْ كَانَ لَيْسَ يُمْكِنُ اَنْ يَكُونَ ٱلشَّيْءُ ٱلنَّافِعُ دُونَ مَبْدَإٍ. وَإِذَا كَانَ شَيْئَانِ مَبْدَأَيْنِ لِشَيْئَيْنِ وَاحِدُ ٱلْمَبْدَأَيْنِ اَعْظَمُ مِنَ ٱلثَّانِي فَإِنَّ ٱلَّذِي يَكُونُ عَنِ ٱلْمَبْدَإِ ٱلاَعْظَمِ اَعْظَمُ. وَعَكْسُ هٰذَا اَيْضًا وَهُوَ إِذَا كَانَ شَيْئَانِ مَبْدَأَيْنِ لِشَيْئَيْنِ عَلَى اَنَّهُمَا فَاعِلٌ وَاَحَدُهُمَا اَعْظَمُ مِنَ ٱلثَّانِي فَإِنَّ ٱلَّذِي هُوَ مَبْدَأٌ لِلاَعْظَمِ اَعْظَمُ. وَكَذٰلِكَ إِذَا كَانَ مَبْدَآنِ عَلَى اَنَّهُمَا غَايَةٌ وَإِذَا قِيسَ ٱلْمَبْدَأُ ٱلْفَاعِلُ إِلَى ٱلْغَايَةِ اَمْكَنَ اَنْ يُتَوَهَّمَ اَنَّ ٱلْفَاعِلَ اَعْظَمُ مِنَ ٱلْغَايَةِ. وَذٰلِكَ اَنَّ ٱلْفَاعِلَ هُوَ ٱلَّذِي يَفْعَلُ ٱلْغَايَةَ وَلَوْلَا هُوَ لَمْ تُوجَدِ ٱلْغَايَةُ وَاَمْكَنَ اَنْ يُتَوَهَّمَ اَيْضًا اَنَّ ٱلْغَايَةَ اَعْظَمُ مِنَ ٱلْمَبْدَإِ. وَذٰلِكَ اَنَّهُ لَوْلَا ٱلْغَايَةُ لَكَانَ ٱلْفَاعِلُ فَضْلًا. فَمِثَالُ مَا تَجْعَلُ ٱلْغَايَةُ فِيهِ اَعْظَمَ مِنَ ٱلْفَاعِلِ قَوْلُ مَنْ يَقُولُ فِي ٱلذَّمِّ: إِنَّ

فُلاَنًا اَوْلَى بِاَنْ يُنْسَبَ اِلَى ٱلْجَوْرِ فِي فِعْلِهِ كَذَا مِنْ فُلاَنٍ ٱلَّذِي اَشَارَ عَلَيْهِ بِذٰلِكَ لِاَنَّهُ لَوْ لَمْ يَكُنْ مِنْهُ ذٰلِكَ ٱلْفِعْلُ اِذْ لَوْ لَمْ يَفْعَلْ هُوَ ذٰلِكَ ٱلْفِعْلَ لَمْ يَقَعْ ذٰلِكَ ٱلضَّرَرُ. وَمِثَالُ مَا يُجْعَلُ ٱلْفَاعِلُ فِيهِ اَعْظَمَ مِنَ ٱلْغَايَةِ قَوْلُ ٱلْقَائِلِ: فُلاَنٌ اَحَقُّ بِٱلشُّكْرِ عَلَى هٰذَا ٱلْفِعْلِ مِنْ فُلاَنٍ لِاَنَّ فُلاَنًا هُوَ ٱلَّذِي اَشَارَ عَلَيْهِ بِذٰلِكَ ٱلْفِعْلِ وَلَوْلَا اِشَارَتُهُ لَمْ يَكُنْ لِيَفْعَلَ ذٰلِكَ ٱلْفِعْلَ ٱلْمَحْمُودَ وَفِي كِلَا ٱلْمَوْضِعَيْنِ مَا قَبْلَ ٱلْغَايَةِ اِنَّمَا يُفْعَلُ لِمَكَانِ ٱلْغَايَةِ. وَاَيْضًا فَاِنَّ ٱلَّذِي وُجُودُهُ اَقَلُّ فَهُوَ اَفْضَلُ مِثْلُ ٱلذَّهَبِ وَٱلْحَدِيدِ غَيْرَ اَنَّهُ اِنْ كَانَ ٱلذَّهَبُ اَقَلَّ وُجُودًا مِنَ ٱلْحَدِيدِ فَلَيْسَ هُوَ اَنْفَعَ. وَاَيْضًا مُقَابِلُ هٰذَا وَهُوَ اَنَّ مَا كَثُرَ وُجُودُهُ فَهُوَ اَفْضَلُ مِمَّا قَلَّ وُجُودُهُ لِكَثْرَةِ مَنَافِعِهِ وَمِنْ هُنَا يُقَالُ اِنَّ ٱلْمَاءَ خَيْرٌ لِكَثْرَةِ وُجُودِهِ وَعُمُومِ مَنَافِعِهِ. وَاَيْضًا فَاِنَّ مَا هُوَ اَعْسَرُ وُجُودًا فَهُوَ اَفْضَلُ لِاَنَّ مَا عَسُرَ وُجُودُهُ قَلَّ وُجُودُهُ وَمَا قَلَّ وُجُودُهُ فَهُوَ غَرِيبٌ وَيُتَنَافَسُ فِيهِ. وَمُقَابِلُ هٰذَا وَهُوَ اَنَّ مَا سَهُلَ وُجُودُهُ فَهُوَ اَفْضَلُ لِاَنَّهُ يُوجَدُ فِي كُلِّ حِينٍ يُتَشَوَّقُ اِلَيْهِ. وَاَيْضًا ٱلشَّيْءُ ٱلَّذِي ضِدُّهُ اَعْظَمُ فَهُوَ اَفْضَلُ. وَاَيْضًا ٱلَّذِي عَدَمُهُ اَشَدُّ ضَرَرًا فَهُوَ اَنْفَعُ. وَلَيْسَ يَنْبَغِي اَنْ يُفْهَمَ هَا هُنَا مِنَ ٱلْاَعْظَمِ وَٱلْاَقَلِّ عِظَمُ ٱلْمُقَايَسَةِ فِي ٱلْخَيْرِ فَقَطْ بَلْ وَفِي ٱلشَّرِّ وَفِيمَا هُوَ لَا خَيْرٌ وَلَا شَرٌّ. وَاَيْضًا فَاِنَّ ٱلْغَايَاتِ وَٱلْاَشْيَاءَ ٱلَّتِي مِنْ اَجْلِهَا تُفْعَلُ ٱلْاَفْعَالُ اِذَا كَانَتِ ٱلْغَايَاتُ بَعْضُهَا اَزْيَدَ خَيْرًا مِنْ بَعْضٍ اَوْ اَزْيَدَ شَرًّا مِنْ بَعْضٍ فَاِنَّ ٱلْاُمُورَ ٱلْمُتَقَدِّمَةَ لِتِلْكَ ٱلْغَايَاتِ ٱلْاَزْيَدِ هِيَ

ازيد. وايضاً فإنّ ما كان من الملكات والفضائل وبالجملة الاشياء الفاعلة اعظم فإنّ افعالها الصادرة عنها تكون اعظم لأنّ نسبة الأفعال الى مبادئها هي نسبة المبادئ بعضها الى بعض. فإنّه ان كان البصر آثر من الشمّ فإنّ الابصار آثر من الشمّ وهكذا يوجد الامر في جميع الأفعال مع اسبابها الفاعلة ليس في الذاتيّة فقط بل وفيما يعرض عن الشيء بالاتفاق فإنّ العظيم يكون الاتفاق الذي يعرض له عظيماً وفي الاعراض الموجودة في الشيء اعني انّ الشيء الاعظم العرض الموجود فيه اعظم. وايضاً ان يحبّ الانسان صاحب المال افضل من ان يحبّ المال لأنّ حبّ الانسان افضل من حبّ المال. وايضاً فإنّ الفضائل افضل من ذوي الفضائل والاشياء التي شهوتها فاضلة افضل من التي شهوتها غير فاضلة. مثال ذلك انّ شهوة العلوم فاضلة وشهوة الأكل والشرب غير فاضلة فالعلوم افضل من الأكل والشرب. وايضاً عكس هذا وهو انّ ما هو افضل فشهوته افضل مثل انّ الحكمة افضل من الصحّة فشهوتها افضل من شهوة الصحّة. وايضاً فإنّ العلوم التي هي احسن وافضل فأفعالها خير وافضل. مثال ذلك انّه لما كانت العلوم العلميّة افضل من العمليّة كان فعلها الذي هو الصدق افضل من التي فعلها العمل. وعكس هذا وهو انّ التي فعلها افضل من العلوم فهي افضل وذلك انّ الوقوف على الحقّ لما كان افضل من العمل كانت

ٱلصَّنائعُ ٱلعِلْمِيَّةُ اَفضَلَ مِنَ ٱلعَمَلِيَّــةِ وَاِنَّمَا كَانَا هٰذَانِ ٱلْمَوْضِعَانِ مُتَلَازِمَيْنِ لِاَنَّ نِسبَةَ ٱلصِّنَاعَةِ اِلَى ٱلصِّنَاعَةِ هِيَ نِسْبَةُ فِعلِهَا اِلَى فِعلِهَا

(قَالَ) وَٱلَّذِي يَحْكُمُ بِهِ ٱلكُلُّ مِنَ ٱلْجُمْهُورِ اَوِ ٱلاَكْثَرُ اَوْ ذَوُو ٱلاَلْبَابِ وَٱلاَخيَارُ ٱلصَّالِحُونَ اَنَّهُ خَيْرٌ وَاَفضَلُ فَهُوَ اَفضَلُ بِاِطْلَاقٍ وَفِي نَفسِهِ اِذَا كَانَ حُكْمُهُمْ فِي ٱلاَشْيَاءِ بِحَسَبِ فِطَرِهِمْ وَكَانُوا ذَوِي لُبٍّ لَا بِحَسَبِ مَا ٱستَفَادُوهُ مِنَ ٱلآرَاءِ مِنْ خَارِجٍ. فَاِنَّ ذَوِي ٱلاَلْبَابِ مِنَ ٱلنَّاسِ قَدْ يَقُولُونَ بِفِطَرِهِمْ فِي ٱلفَضَائِلِ وَٱلخَيْرَاتِ مَا هِيَ وَكَمْ هِيَ وَعِنْدَ اَيِّ شَيْءٍ هِيَ وَاِنْ كَانَ مَا يَقِفُونَ عَلَيْهِ بِفِطَرِهِمْ دُونَ مَا يُوقَفُ عَلَيْهِ مِنْ ذٰلِكَ فِي ٱلعُلُومِ. وَمَا قِيلَ فِي حَدِّ ٱلخَيْرِ مِنْ اَنَّهُ ٱلَّذِي يَتَشَوَّقُهُ ٱلكُلُّ اِنَّمَا يُرَادُ بِذٰلِكَ ٱلخَيْرُ ٱلَّذِي يَتَشَوَّقُهُ ٱلكُلُّ بِحَسَبِ فِطَرِهِمِ ٱلطَّبِيعِيَّةِ اَعْنِي ٱللَّبِيبَةَ فَاِنَّ مَا تَتَشَوَّقُهُ ٱلفِطَرُ ٱللَّبِيبَةُ بِمَا هِيَ فِطَرٌ لَبِيبَةٌ هُوَ خَيْرٌ مُطلَقٌ اَوْ خَيْرٌ اَفضَــلُ مِنْ خَيْرٍ مِثْلُ عِلْمِهِمْ اَنَّ ٱلشَّجَاعَةَ وَٱلاَدَبَ وَٱلجَلَدَ خَيْرَاتٌ وَتَشَوُّقِهِمْ اِيَّاهَا. وَاَمَّا ٱلَّذِي هُوَ خَيْرٌ بِٱلاِضَافَةِ اِلَى اِنسَانٍ مَا مِثْلُ مَنْ يَرَى مِنَ ٱلنَّاسِ ٱلفَاضِلِينَ اَنَّهُ اَنْ يُجَارَ عَلَيهِ اَفضَلُ مِنْ اَنْ يَجُورَ هُوَ فَاِنَّ هٰذَا ٱلخَيْرَ لَا يُدْرِكُهُ ٱلنَّاسُ بِحَسَبِ طِبَاعِهِمْ وَاِنَّمَـا يَرَى هٰذَا ٱلرَّأْيَ ٱلَّذِي هُوَ مِنَ ٱلنَّاسِ فِي غَايَةِ ٱلعَدْلِ وَٱلفَضْلِ. وَاَيضًا مَا كَانَ مِنَ ٱلخَيْرَاتِ مَعَــهُ اَكْثَرَ لَذَّةً فَهُوَ آثَرُ. وَاِنَّمَا كَانَ ذٰلِكَ كَذٰلِكَ لِاَنَّ ٱلكُلَّ مِنَ ٱلجُمْهُورِ يَبْتَــدِرُونَ اِلَى ٱللَّذَّةِ وَيَطْلُبُونَهَا وَطَلَبُهُمْ ٱللَّذَّةَ هُوَ مِنْ اَجْلِ ٱللَّذَّةِ نَفْسِهَا لَا مِنْ اَجْلِ شَيْءٍ آخَرَ غَــيْرِهَا. وَمَا

كَانَ بِهٰذِهِ ٱلصِّفَةِ اَعْنِي مُتَشَوَّقًا لِلْكُلِّ فَقَدْ قِيلَ اِنَّهُ ٱلْخَيْرُ وَٱلْغَايَةُ فَٱللَّذَّةُ اِذَنْ خَيْرٌ وَٱلْاَزْيَدُ لَذَّةً هِيَ ٱلْمَلَذَّاتُ ٱلَّتِي هِيَ اَبْرَأُ مِنَ ٱلْاَذَى وَٱلْحُزْنِ وَاَدْوَمُ بَقَاءً. وَٱللَّذَّةُ ٱلْجَمِيلَةُ اَلَذُّ مِنَ ٱللَّذَّةِ ٱلْقَبِيحَةِ لِاَنَّ ٱلْجَمِيلَ مِمَّا قَدْ يُخْتَارُ بِذَاتِهِ وَاِنْ لَمْ يَكُنْ لَذِيذًا وَهُوَ مِنَ ٱلْاَشْيَاءِ ٱلَّتِي يَخْتَارُ ٱلْمَرْءُ اَنْ يَكُونَ عِلَّةً لِكَوْنِهِ اِمَّا لِنَفْسِهِ وَاِمَّا لِصَدِيقِهِ. وَبِٱلْجُمْلَةِ فَكُلُّ مَا كَانَ مِنَ ٱلْاَشْيَاءِ ٱلْمَلَذَّةِ اَفْضَلَ فَهُوَ اَلَذُّ مِمَّا هُوَ اَخَسُّ وَكُلُّ مَا هُوَ مِنْهَا اَطْوَلُ مُدَّةً فَهُوَ اَلَذُّ مِنَ ٱلَّتِي هِيَ مِنْهَا اَقْصَرُ مُدَّةً وَكُلُّ مَا كَانَ مِنَ ٱلْخَيْرَاتِ اَثْبَتَ فِينَا فَهُوَ اَلَذُّ مِمَّا هُوَ اَقَلُّ ثَبَاتًا وَذٰلِكَ اَنَّ ٱلصِّحَّةَ لَمَّا كَانَتْ اَرْسَخَ فِينَا مِنَ ٱلْجَمَالِ كَانَ وُجُودُ ٱلصِّحَّةِ لَنَا اَلَذَّ مِنْ وُجُودِ ٱلْجَمَالِ . وَٱلْاَشْيَاءُ ٱللَّذِيذَةُ اَوِ ٱلْاَكْثَرُ لَذَّةً اِنَّمَا ٱلسَّبَبُ فِي وُجُودِهَا لَنَا بِهٰذِهِ ٱلصِّفَةِ اَحَدُ اَمْرَيْنِ اِمَّا طُولُ اعْتِيَادِ ٱلشَّيْءِ حَتَّى يَصِيرَ لَنَا ٱلِالْتِذَاذُ بِهِ مِنْ قِبَلِ ٱلْعَادَةِ كَٱلْحَالِ فِي ٱللَّذَّةِ ٱلْحَاصِلَةِ عَنِ ٱلْعِلْمِ. وَاِمَّا مِنْ قِبَلِ اَنَّهَا لَذِيذَةٌ جِدًّا عِنْدَنَا بِٱلطَّبْعِ وَٱلْهَوَى فَٱلْاَشْيَاءُ اِذَنْ اِنَّمَا تَصِيرُ اَكْثَرَ لَذَّةً اِمَّا مِنْ قِبَلِ طُولِ ٱلزَّمَانِ وَاِمَّا مِنْ قِبَلِ ٱلْهَوَى وَٱلْمُوَافَقَةِ ٱلَّتِي بِٱلطَّبْعِ. وَجَمِيعُ ٱلْاَشْيَاءِ ٱلَّتِي تُلَائِمُ هَوَانَا مُلَائِمَةٌ اَكْثَرَ فَاِنَّ مَنْفَعَتَهَا لَنَا اِنَّمَا تَكُونُ فِي رُسُوخِهَا وَثُبُوتِهَا. وَقَدْ تُؤْخَذُ مُقَدَّمَاتُ ٱلْاَنْفَعِ وَٱلْاَفْضَلِ مِنْ مَوَاضِعِ ٱلنَّظَائِرِ وَٱلتَّصَارِيفِ. وَذٰلِكَ اَنَّهُ اِنْ كَانَتِ ٱلشَّجَاعَةُ آثَرَ مِنَ ٱلْعَفَافِ فَٱلرَّجُلُ ٱلشُّجَاعُ آثَرُ مِنَ ٱلرَّجُلِ ٱلْعَفِيفِ

(قَالَ) وَمَا اخْتَارَهُ ٱلْكُلُّ آثَرُ مِمَّا لَا يَخْتَارُهُ ٱلْكُلُّ مِنَ

ٱلْجُمْهُورِ وَمَا ٱخْتَارَهُ ايضا كَثِيرٌ مِنَ ٱلنَّاسِ آثَرُ مِمَّا يَخْتَارُهُ ٱلْقَلِيلُ مِنَ ٱلنَّاسِ فَإِنَّ ٱلْخَيْرَ كَمَا قِيلَ هُوَ ٱلَّذِي يَشْتَاقُ إِلَيْهِ ٱلْكُلُّ • وَمَا ٱخْتَارَهُ ايضًا ٱلْحُكَّامُ ٱلْأُوَلُ اعني ٱلَّذِينَ لَا يَأْخُذُونَ ٱلْأَحْكَامَ مِنْ غَيْرِهِمْ وَهُمُ ٱلشُّرَّاعُ افضلُ مِمَّا لَمْ يَخْتَارُوهُ • وَمَا ٱخْتَارَهُ ايضًا ٱلَّذِينَ يَتَلَقَّوْنَ ٱلْأَحْكَامَ مِنْ هٰؤُلَاءِ افضلُ مِمَّا لَيْسَ يَخْتَارُهُ هٰؤُلَاءِ • وَٱلَّذِينَ يَتَلَقَّوْنَ ٱلْأَحْكَامَ مِنَ ٱلْحُكَّامِ ٱلْأُوَلِ وَهُمُ ٱلَّذِينَ تُؤْخَذُ عَنْهُمْ اُصُولُ ٱلْأَحْكَامِ صِنْفَانِ إِمَّا سَامِعٌ فَقَطْ مُبَلِّغٌ وَإِمَّا سَامِعٌ عَالِمٌ اي قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَسْتَنْبِطَ مِنْ تِلْكَ ٱلْأُصُولِ أَحْكَامًا مَا لَمْ يُصَرِّحْ بِهَا ٱلْحُكَّامُ ٱلْأُوَلُ • وَهٰؤُلَاءِ صِنْفَانِ إِمَّا مُسَلَّطُونَ مِنْ قِبَلِ ٱلْحُكَّامِ ٱلْأُوَلِ وَهُمُ ٱلْقُضَاةُ وَمَا أَشْبَهَهُمْ وَإِمَّا غَيْرُ مُسَلَّطِينَ وَهُمُ ٱلْفُقَهَاءُ • وَمِنْ هٰذِهِ ٱلْأَشْيَاءِ مَا لِجَمِيعِ أَصْنَافِ ٱلْمُتَلَقِّينَ مِنَ ٱلْحُكَّامِ ٱلْأُوَلِ أَنْ يَقُولُوا فِيهَا • وَهُوَ مَا سَمِعُوهُ أَوْ مَا شَاهَدُوهُ مِنَ ٱلْحَاكِمِ ٱلْأَوَّلِ وَمِنْهَا مَا يَخْتَصُّ بِذَوِي ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَهُوَ ٱلْقَوْلُ فِي ٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي تُسْتَنْبَطُ عَنِ ٱلْأَحْكَامِ ٱلْأُوَلِ ٱلَّتِي صَرَّحَ بِهَا ٱلْحَاكِمُ ٱلْأَوَّلُ وَلَيْسَ لِلسَّامِعِينَ دُونَ عِلْمٍ أَنْ يَقُولُوا فِي هٰذِهِ ٱلْأَشْيَاءِ • وَأَمَّا ٱلَّذِي يَخُصُّ ٱلْحُكَّامَ ٱلْأُوَلَ ٱلْقَوْلُ فِيهِ فَهِيَ ٱلْأُصُولُ ٱلَّتِي تَتَنَزَّلُ مَنْزِلَةَ ٱلْمَبَادِئِ لِسَائِرِ مَا يَحْكُمُ بِهِ ٱلسَّامِعُونَ ذَوُو ٱلْعِلْمِ أَعْنِي ٱلْمُسَلَّطِينَ وَٱلْفُقَهَاءَ وَهِيَ ٱلَّتِي يُسَمِّيهَا ارسطو ٱلْأُمُورَ ٱلْعُظْمَى • وَٱلْفُضَلَاءُ ٱلْأَبْرَارُ ٱلَّذِينَ جَرَتِ ٱلْعَادَةُ أَنْ يُؤْخَذَ عَنْهُمُ ٱلْجَمِيعُ أَوِ ٱلْأَكْثَرُ فَحُكْمُهُمْ افضلُ فَإِنَّ عَدَمَ ٱلْأَخْذِ قَدْ يُخَيِّلُ هَوَانًا وَنَقْصًا فِي ٱلْمَرْءِ ٱلْفَاضِلِ ٱلْبَرِّ

وَقِلَّةَ قَبُولِ لِقَوْلِهِ وَقَدْ يُخَيَّلُ الْأَمْرُ بِعَكْسِ هٰذَا. وَذٰلِكَ أَنَّهُ رُبَّمَا كَانَ هٰؤُلَاءِ الْأَبْرَارُ الْفَاضِلُونَ مَقْبُولِي الْقَوْلِ مَعَ أَنَّهُ لَمْ يَأْخُذْ أَحَدٌ مِنَ الْجُمْهُورِ عَنْهُمْ أَصْلًا شَيْئًا أَوْ إِنَّمَا أَخَذَ عَنْهُمْ قَلِيلٌ. وَذٰلِكَ أَنَّ أَقَاوِيلَ هٰؤُلَاءِ قَدْ يُظَنُّ بِهَا أَنَّهَا مَقْبُولَةٌ بِجِهَةٍ أُخْرَى وَذٰلِكَ أَنَّهُ قَدْ يَكُونُ الْمَرْضِيُّ عِنْدَ الْجُمْهُورِ مَنْ لَيْسَ مَرْضِيًّا فِي نَفْسِهِ وَالْأَقَلِّ مِنَ الْجُمْهُورِ وَهُمْ ذَوُو التَّمْيِيزِ. وَأَيْضًا فَإِنَّ الْفَاضِلِينَ الَّذِينَ كَتَمُوا فَضَائِلَهُمْ عَنِ الْجُمْهُورِ هُمْ مَمْدُوحُونَ أَكْثَرَ وَهُمْ أَقَلُّ وُجُودًا وَأَعَزُّ لِأَنَّهُمْ إِنَّمَا كَتَمُوا فَضَائِلَهُمْ عَنِ الْجُمْهُورِ لِمَا خَافُوا أَنْ يَلْحَقَهُمْ مِنَ الْكَرَامَاتِ وَالرِّئَاسَاتِ الَّتِي يُخَافُ إِذَا لَحِقَتِ الْمَرْءَ أَنْ تَكُونَ سَبَبًا لِأَنْ تَكُونَ هٰذِهِ الْأَشْيَاءُ اللَّاحِقَةُ لِلْفَضَائِلِ هِيَ الْمَقْصُودَةَ عِنْدَهُ بِالْفَضَائِلِ. فَمِنْ هَا هُنَا صَارَتْ أَقْوَالُ هٰذَا الصِّنْفِ مَقْبُولَةً كَمَا صَارَتْ أَقْوَالُ الصِّنْفِ الْأَوَّلِ الْمُضَادِّ لِهٰذَا مَقْبُولَةً وَهُمُ الَّذِينَ أَخَذَ عَنْهُمُ الْجُمْهُورُ

(قَالَ) وَمِنَ الصِّنْفِ الْمَقْبُولِ الْقَوْلِ مِنَ النَّاسِ جِدًّا جِدًّا الصِّنْفُ الَّذِينَ كَرَامَاتُهُمْ أَعْظَمُ لِأَنَّ الْكَرَامَةَ لَمَّا كَانَتْ مُكَافَأَةَ الْفَضِيلَةِ كَانَ الْمَرْءُ كُلَّمَا عَظُمَتْ كَرَامَتُهُ ظُنَّ بِهِ أَنَّهُ قَدْ عَظُمَتْ. فَضِيلَتُهُ. وَالصِّنْفُ مِنَ النَّاسِ الَّذِينَ نَالَتْهُمُ الْمَضَرَّةُ الْعَظِيمَةُ وَالشَّقَاءُ الْكَبِيرُ لِمَكَانِ الْفَضَائِلِ هُمْ أَيْضًا مَقْبُولُو الْأَقْوَالِ جِدًّا جِدًّا بِمَنْزِلَةِ سُقْرَاطَ وَغَيْرِهِ وَالصِّنْفُ مِنَ النَّاسِ الَّذِينَ يُرَى فِيهِ هٰذَانِ الصِّنْفَانِ مِنَ النَّاسِ أَعْنِي الَّذِينَ كَرَامَتُهُمْ أَعْظَمُ وَالَّذِينَ نَالَهُمُ الضَّرَرُ

ٱلْكَبِيرُ مِنْ قِبَلِ ٱلْفَضَائِلِ أَنَّهُمْ فَاضِلُونَ وَيَعْتَرِفُونَ لَهُمْ بِٱلْفَضْلِ هُمْ أَيْضًا أَفْضَلُ وَأَعْظَمُ . فَهٰؤُلَاءِ هُمْ أَصْنَافُ ٱلنَّاسِ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱخْتَارُوا شَيْئًا وَٱخْتَارَ غَيْرُهُمْ سِوَاهُ كَانَ مَا يَخْتَارُهُ هٰؤُلَاءِ أَفْضَلَ وَآثَرَ

(قَالَ) وَقِسْمَةُ ٱلشَّيْءِ إِلَى جُزْئِيَّاتِهِ يُخَيِّلُ فِي ٱلشَّيْءِ أَنَّهُ أَعْظَمُ وَلِذٰلِكَ لَمَّا أَرَادَ أُومِيرُوشُ ٱلشَّاعِرُ أَنْ يُعَظِّمَ ٱلشَّرَّ ٱلَّذِي لَحِقَ ٱلْمَدِينَةَ أَخَذَ بَدَلَهُ جُزْئِيَّاتِهِ فَذَكَرَ قَتْلَ ٱلْأَوْلَادِ وَٱلنَّوْحَ عَلَيْهِمْ وَحَرْقَ ٱلْمَدِينَةِ بِٱلنَّارِ وَغَيْرَ ذٰلِكَ مِنْ أَصْنَافِ ٱلشُّرُورِ ٱللَّاحِقَةِ لَهَا

(قَالَ) وَكَذٰلِكَ ٱلتَّرْكِيبُ قَدْ يُخَيِّلُ فِي ٱلشَّيْءِ أَنَّهُ أَعْظَمُ وَهُوَ عَكْسُ . هٰذَا أَعْنِي أَنْ يُؤْخَذَ بَدَلَ ٱلْجُزْئِيَّاتِ ٱلْكُلِّيُّ ٱلَّذِي يَعُمُّهَا وَٱلسَّبَبُ فِي ٱلْإِقْنَاعِ فِي هٰذَيْنِ ٱلصِّنْفَيْنِ هُوَ ٱلتَّغْيِيرُ وَٱلْإِبْدَالُ

(قَالَ) وَلَمَّا كَانَتِ ٱلْأَشْيَاءُ ٱلْأَعْسَرُ وُجُودًا فِي نَفْسِهَا وَٱلْأَقَلُّ وُجُودًا يُظَنُّ بِهَا أَنَّهَا أَفْضَلُ كَانَتِ ٱلْأَشْيَاءُ ٱلْكَثِيرَةُ ٱلْوُجُودِ فِي نَفْسِهَا وَٱلسَّهْلَةُ ٱلْوُجُودِ قَدْ تُرَى عَظِيمَةً إِذَا وُجِدَتْ فِي ٱلْمَوَاضِعِ ٱلَّتِي يَقِلُّ فِيهَا وُجُودُهَا أَوْ فِي ٱلْأَزْمِنَةِ ٱلَّتِي يَقِلُّ وُجُودُهَا فِيهَا أَيْضًا أَوْ فِي ٱلْأَسْنَانِ مِنَ ٱلنَّاسِ ٱلَّتِي يَقِلُّ وُجُودُهَا فِيهَا مِثْلُ وُجُودِ ٱلْإِنْسَانِ خَطِيبًا فِي سِنِّ ٱلصِّبَا أَوْ فِي ٱلْمُدَدِ ٱلَّتِي لَيْسَ مِنْ شَأْنِهَا أَنْ تُوجَدَ فِيهِ . مِثْلُ مَنْ يَفْعَلُ مَا شَأْنُهُ أَنْ يُفْعَلَ فِي زَمَانٍ طَوِيلٍ فِي زَمَانٍ قَصِيرٍ أَوْ تَكُونَ صَادِرَةً عَنِ ٱلْقُوَى ٱلَّتِي يَقِلُّ صُدُورُهَا عَنْهَا مِثْلَ أَنْ يَفْعَلَ ٱلضَّعِيفُ فِعْلَ ٱلْقَوِيِّ وَٱلْمَرِيضُ فِعْلَ

ٱلصَّحِيحِ . وَكُلُّ هٰذِهِ وَأَشْبَاهُهَا مِمَّا يُصَيِّرُ ٱلْأَمْرَ ٱلَّذِي لَيْسَ بِعَظِيمٍ عَظِيمًا وَمُسْتَغْرَبًا . وَأَيْضًا فَإِنَّ ٱلْجُزْءَ ٱلْعَظِيمَ مِنَ ٱلشَّيْءِ هُوَ مِنَ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي هِيَ أَعْظَمُ مِثْلُ ٱلْقَلْبِ مِنَ ٱلْحَيَوَانِ وَٱلدِّمَاغِ أَوِ ٱلرَّبِيعِ مِنَ ٱلسَّنَةِ وَٱلشَّبَابِ مِنَ ٱلْمَدِينَةِ . وَأَيْضًا فَإِنَّ ٱلنَّافِعَ فِيمَا ٱلْحَاجَةُ إِلَيْهِ أَشَدُّ هُوَ أَعْظَمُ نَفْعًا وَٱلضَّارَّ فِيهِ أَكْثَرُ ضَرَرًا مِثْلُ ٱلصِّحَّةِ فِي ٱلشَّيْخُوخَةِ وَٱلْمَرَضِ فِيهَا . فَإِنَّ ٱلصِّحَّةَ فِيهَا آثَرُ مِنَ ٱلصِّحَّةِ فِي ٱلصِّبَا وَٱلْمَرَضُ فِيهَا أَضَرُّ . وَأَيْضًا مَا كَانَ مِنَ ٱلْأَمْرَيْنِ أَقْرَبَ إِلَى ٱلْغَايَةِ فَهُوَ أَفْضَلُ . وَأَيْضًا مَا كَانَ فِي آخِرِ ٱلْعُمْرِ فَهُوَ أَفْضَلُ فَإِنَّ ٱلْأَشْيَاءَ ٱلَّتِي سَبِيلُهَا أَنْ تَكُونَ لِلنَّاسِ فِي آخِرِ أَعْمَارِهِمْ هِيَ أَفْضَلُ مِثْلَ ٱلْحِكْمَةِ وَٱلْحِلْمِ وَغَيْرِ ذٰلِكَ مِنَ ٱلْفَضَائِلِ ٱلَّتِي تَكْمُلُ مَعَ طُولِ ٱلْعُمْرِ . وَأَيْضًا ٱلْأَشْيَاءُ ٱلَّتِي فُعِلَتْ أَوْ قُبِلَتْ كَانَ فِعْلُهَا حَقِيقَتَهَا أَعْظَمَ مِنَ ٱلَّتِي إِذَا فُعِلَتْ لَمْ يَكُنْ فِعْلُهَا حَقِيقَةً تَامَّةً . وَأَرِسْطُو يُسَمِّي ٱلَّتِي إِذَا فُعِلَتْ كَانَ فِعْلُهَا حَقِيقَتَهَا ٱلَّتِي يُتَعَمَّدُ بِهَا ٱلْحَقِيقَةُ وَيُسَمِّي ٱلْآخَرَ ٱلَّتِي يُتَعَمَّدُ بِهَا ٱلْمَدْحُ أَعْنِي ٱلَّتِي لَيْسَ فِعْلُهَا حَقِيقَتَهَا

(قَالَ) وَحَدُّ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي يُتَعَمَّدُ بِهَا ٱلْمَدْحُ أَنَّهَا ٱلَّتِي إِذَا فُعِلَتْ بِجَهْلٍ أَوْ بِغَلَطٍ لَمْ تُمْدَحْ أَصْلًا وَٱلَّتِي يُتَعَمَّدُ بِهَا ٱلْحَقِيقَةُ هِيَ ٱلْأَشْيَاءُ ٱلَّتِي كَيْفَ مَا فُعِلَتْ فَقَدْ حَصَلَتْ عَلَى ٱلتَّمَامِ

(قَالَ) وَلِذٰلِكَ كَانَ حُسْنُ قَبُولِ ٱلشَّيْءِ ٱلْجَمِيلِ آثَرَ مِنْ فِعْلِ ٱلشَّيْءِ ٱلْجَمِيلِ لِأَنَّ فِعْلَ ٱلْجَمِيلِ إِذَا فُعِلَ عَنْ غَلَطٍ أَوْ جَهْلٍ لَمْ يُقْبَلْ وَلَا مُدِحَ فَاعِلُهُ . وَأَمَّا حُسْنُ ٱلِٱنْفِعَالِ وَٱلْقَبُولِ فَكَيْفَ مَا

حصل فقد استفاد الخير منه القابل له . وايضاً ما أوثر فعله لنفسه وان لم يعلم به احد آثر مما لا يختار الا من جهة ما يعلم كالحال في الصحة والجمال . فان الصحة مؤثرة بذاتها والجمال مؤثر للغير . وايضاً فان النافعة في اشياء كثيرة فهي انفع كالنافعة في طول العمر وفي حسن العيش اعني العيش الرغد وفي اللذات وفي اصطناع الخيرات . ولذلك ما يظن بالصحة واليسار انهما عظيمان لانهما يجمعان الخلو من الحزن والفعل باللذة اعني ان الصحة هي سبب الفعل باللذة واليسار سبب الخلو من الاحزان . وكل واحد من هذين على الانفراد فاضل ومختار بنفسه اعني الخلو من الاحزان والافعال اللذيذة فاذا اجتمعا لامرئ جعلاه اعظم من كل شيء سواء علم ذلك من علمه او جهله من جهله لان هذه خيرات مستفادة بالحقيقة لا من الخيرات التي يتعمد بها المدح . ولكون اليسار سبباً لدفع الاحزان ظن به انه السعادة قوم وآخرون رأوا ان السعادة هي ان يقترن به شيء آخر وذلك واجب من قبل انه احرى ان تكون السعادة ثابتة ومأمونة الزوال . فانه ليس الضرر اللاحق لمن له عينان ففقد احداهما كمن له عين واحدة ففقدها لان الذي له عين واحدة سلب احب مما سلب من له عينان . وكذلك ان كانت السعادة في المال وفي شيء آخر لم يكن الضرر اللاحق عن سلب المال كالضرر اللاحق عن سلبه ان كان هو السعادة وحده

(قَالَ) وَالْكَلَامُ فِي هٰذِهِ الْأَشْيَاءِ كُلِّهَا هَا هُنَا لَيْسَ هُوَ عَلَى جِهَةِ التَّصْحِيحِ وَإِنَّمَا الْكَلَامُ فِيهَا بِالْقَدْرِ الَّذِي يَحْتَاجُ إِلَيْهِ الْخَطِيبُ مِنْ ذٰلِكَ وَيَجِبُ لِلْخَطِيبِ أَبَدًا مَتَى أَتَى بِالنَّتَائِجِ مِنْ أَمْثَالِ هٰذِهِ الْمُقَدَّمَاتِ أَنْ يُرْفِدَهَا بِالْمِثَالَاتِ الْمَأْخُوذَةِ مِنَ النَّاسِ الَّذِينَ فَعَلُوا تِلْكَ الْأَفَاعِيلَ فَلَحِقَهُمُ النَّفْعُ أَوِ الضَّرَرُ فَلِذٰلِكَ مَا يَجِبُ لِلْخَطِيبِ أَنْ يَكُونَ حَافِظًا لِلْقِصَصِ وَالْأَخْبَارِ

البحث العاشر

في ان الخطيب المشوري ينبغي ان يعرف اصناف السياسات وفي بيان اجناس هذه السياسات الاربعة

(من الكتاب نفسه)

(قَالَ) فَهٰذِهِ هِيَ الْأَشْيَاءُ الَّتِي يُثْبَتُ بِهَا أَنَّ الشَّيْءَ أَنْفَعُ أَوْ أَضَرُّ. وَأَمَّا الْأَشْيَاءُ الَّتِي يَكُونُ بِهَا الْإِذْنُ وَالْمَنْعُ فَقَدْ قِيلَ فِيهَا قَبْلَ هٰذَا بِمَا فِيهِ كِفَايَةٌ. لٰكِنْ أَهَمُّ وَأَعْظَمُ مَا فِيهَا هُوَ الْقَوْلُ فِي الْأَشْيَاءِ الَّتِي بِهَا يَقْدِرُ عَلَى جُودَةِ الْإِقْنَاعِ فِي السُّنَنِ وَالْإِشَارَةِ بِالسُّنَنِ الَّتِي لَا يُوجَدُ أَنْفَعَ مِنْهَا. وَلِذٰلِكَ قَدْ يَجِبُ أَنْ نَسْتَقْصِيَ الْقَوْلَ فِيهَا هَا هُنَا فَنَقُولُ: إِنَّ الْإِشَارَةَ بِالسُّنَنِ النَّافِعَةِ وَالْإِقْنَاعَ التَّامَّ فِيهَا يَتَأَتَّى بِمَعْرِفَةِ أَصْنَافِ السِّيَاسَاتِ وَالْأَخْلَاقِ وَالسُّنَنِ الَّتِي تَخُصُّ سِيَاسَةً سِيَاسَةً. وَذٰلِكَ أَنَّ فِي كُلِّ وَاحِدَةٍ مِنَ السِّيَاسَاتِ سُنَنًا نَافِعَةً فِيهَا وَهِيَ السُّنَنُ الَّتِي بِهَا

يَكُونُ خَلَاصُ تِلْكَ ٱلْمَدِينَةِ وَقِوَامُهَا . وَٱلسُّنَنُ ٱلنَّفِيسَةُ ٱلْخَطِيرَةُ هِيَ ٱلسُّنَنُ ٱلْعَادِلَةُ أَعْنِي ٱلْمَوْضُوعَةَ فِي ٱلْعَدْلِ ٱلَّتِي رَسَمَهَا ٱلرَّئِيسُ ٱلْأَوَّلُ فِي تِلْكَ ٱلْمَدِينَةِ أَوِ ٱلْمُسَلَّطُ عَلَيْهَا مِنْ قِبَلِ ٱلرَّئِيسِ ٱلْأَوَّلِ . وَهٰذِهِ ٱلسُّنَنُ ٱلنَّفِيسَةُ أَعْنِي ٱلسُّنَنَ ٱلْعَادِلَةَ تَخْتَلِفُ فِي ٱلسِّيَاسَاتِ بِحَسَبِ ٱخْتِلَافِ غَايَتِهَا . وَعَدَدُهَا عَلَى عَدَدِ ٱلسِّيَاسَاتِ . مِثَالُ ذٰلِكَ أَنَّ ٱلْعَدْلَ فِي سِيَاسَةِ ٱلتَّغَلُّبِ أَنَّهُ لَا شَيْءَ عَلَى ٱلرَّئِيسِ إِذَا لَطَمَ ٱلْمَرْؤُوسَ . وَفِي سِيَاسَةِ ٱلْحُرِّيَّةِ ٱلْعَدْلُ فِي ذٰلِكَ أَنْ يُلْطَمَ ٱلرَّئِيسُ مِثْلَ ٱللَّطْمَةِ ٱلَّتِي لَطَمَهَا . وَٱلسِّيَاسَاتُ بِٱلْجُمْلَةِ أَرْبَعٌ ٱلسِّيَاسَةُ ٱلْجَمَاعِيَّةُ وَسِيَاسَةُ ٱلْخِسَّةِ وَسِيَاسَةُ جُودَةِ ٱلتَّسَلُّطِ وَسِيَاسَةُ ٱلْوَحْدَانِيَّةِ وَهِيَ ٱلْكَرَامِيَّةُ . وَهٰذِهِ ٱلسِّيَاسَاتُ كُلُّهَا ٱلْمَقْصُودُ بِٱلسُّنَنِ ٱلْمَوْضُوعَةِ فِيهَا إِنَّمَا هُوَ ٱلْمَدِينَةُ وَٱلْكُلُّ لَا ٱلشَّخْصُ . فَأَمَّا ٱلْمَدِينَةُ ٱلْجَمَاعِيَّةُ فَهِيَ ٱلَّتِي تَكُونُ ٱلرِّئَاسَةُ فِيهَا بِٱلِٱتِّفَاقِ وَٱلْبَخْتِ لَا عَنِ ٱسْتِئْهَالٍ إِذْ كَانَ لَيْسَ فِي هٰذِهِ ٱلْمَدِينَةِ لِأَحَدٍ عَلَى أَحَدٍ فَضْلٌ . وَأَمَّا خِسَّةُ ٱلرِّئَاسَةِ فَهِيَ ٱلَّتِي يَتَسَلَّطُ فِيهَا ٱلْمُتَسَلِّطُونَ عَلَى ٱلْمَدَنِيِّينَ بِأَدَاءِ ٱلْإِتَاوَةِ وَٱلتَّغْرِيمِ لَا عَلَى جِهَةِ أَنْ تَكُونَ نَفَقَةٌ لِلْحُمَاةِ وَٱلْحَفَظَةِ وَلَا عُدَّةٌ لِلْمَدِينَةِ عَلَى مَا عَلَيْهِ ٱلْأَمْرُ فِي ٱلسِّيَاسَاتِ ٱلْأُخَرِ بَلْ عَلَى جِهَةِ أَنْ تَحْصُلَ ٱلثَّرْوَةُ لِلرَّئِيسِ ٱلْأَوَّلِ . فَإِنْ جَعَلَ لَهُمْ حَظًّا مِنَ ٱلثَّرْوَةِ كَانَتْ رِئَاسَةَ ٱلثَّرْوَةِ . وَإِنْ لَمْ يَجْعَلْ لَهُمْ حَظًّا مِنَ ٱلثَّرْوَةِ كَانَتْ رِئَاسَةَ ٱلتَّغَلُّبِ وَكَانُوا بِمَنْزِلَةِ ٱلْعَبِيدِ لِلرَّئِيسِ ٱلْأَوَّلِ . وَكَانَتْ مُحَامَاتُهُ عَنْهُمْ بِمَنْزِلَةِ مُحَامَاةِ ٱلْإِنْسَانِ عَنْ عَبِيدِهِ . وَأَمَّا جُودَةُ ٱلتَّسَلُّطِ فَهُوَ ٱلتَّسَلُّطُ ٱلَّذِي

يكون على طريق الادب والاقتداء بما توجبه السنة فان الذين يشيرون بما توجبه السنة هم متسلطون بجودة التسلط. وهذا هو التسلط الذي يحصل به صلاح حال اهل المدينة والسعادة الانسانية. ولذلك كان هؤلاء اهل فضائل واقتدار على الافعال التي تصلح المدينة واهل حزم وتحرز مما شأنه ان يفسد المدينة من خارج او من داخل. ولذلك سميت هذه المدينة بهذا الاسم. وهذا التسلط الذي ذكره صنفان رئاسة الملك وهي المدينة التي تكون آراؤها وافعالها بحسب ما توجبه العلوم النظرية. والثانية رئاسة الاخيار وهي التي تكون افعالها فاضلة فقط. وهذه تعرف بالامامية ويقال انها كانت موجودة في الفرس الاول فيما حكاه ابو نصر

(قال) واما وحدانية التسلط فهي الرئاسة التي يحب الملك ان يتوحد فيها بالكرامة الرئاسية والا ينقصه منها شيء بان يشاركه فيها غيره وذلك بضد مدينة الاخيار. وهذه المدن ربما كانت السنن الموضوعة فيها محدودة غير متبدلة واحدة في الدهور على ما عليه الامر في سنننا الاسلامية. وربما كانت غير ذات سنن محدودة بل يفوض الامر فيها الى المتسلطين عليها بحسب الانفع في وقت وقت على ما عليه الامر في كثير من سنن الروم اليوم

(قال) وليس ينبغي ان يخفى علينا من هذا الذي رسمنا به هذه

ٱلسِّيَاسَاتِ غَايَةُ كُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهَا لِأَنَّا إِذَا عَرَفْنَا ٱلْغَايَةَ عَلِمْنَا ٱلْأَشْيَاءَ ٱلْمُخْتَارَةَ مِنْ أَجْلِ ٱلْغَايَةِ فَغَايَةُ ٱلسِّيَاسَةِ ٱلْجَمَاعِيَّةِ ٱلْحُرِّيَّةُ. وَغَايَةُ خِسَّةِ ٱلرِّئَاسَةِ ٱلثَّرْوَةُ وَغَايَةُ جُودَةِ ٱلتَّسَلُّطِ ٱلْفَضِيلَةُ وَٱلتَّمَسُّكُ بِٱلسُّنَّةِ . وَغَايَةُ ٱلْوَحْدَانِيَّةِ ٱلْكَرَامَةُ وَٱلسِّيَاسَاتُ ٱلَّتِي لَيْسَ يُوضَعُ فِيهَا سُنَنٌ غَيْرُ مُتَبَدِّلَةٍ فَغَايَةُ وَاضِعِهَا هُوَ ٱلتَّحَفُّظُ وَٱلِٱحْتِرَاسُ مِنَ ٱلْخَلَلِ ٱلْوَاقِعِ فِي ٱلسُّنَنِ بِتَبَدُّلِ ٱلْأَزْمِنَةِ وَٱلْأَمْكِنَةِ. وَيَنْبَغِي أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ هٰذِهِ ٱلسِّيَاسَاتِ ٱلَّتِي ذَكَرَهَا أَرِسْطُو لَيْسَ تُلْفَى بَسِيطَةً وَإِنَّمَا تُلْفَى أَكْثَرَ ذٰلِكَ مُرَكَّبَةً كَٱلْحَالِ فِي ٱلسِّيَاسَةِ ٱلْمَوْجُودَةِ ٱلْآنَ فَإِنَّهَا إِذَا تُؤُمِّلَتْ تُوجَدُ مُرَكَّبَةً مِنْ فَضِيلَةٍ وَكَرَامَةٍ وَحُرِّيَّةٍ وَتَغَلُّبٍ

(قَالَ) وَإِذَا كَانَتْ أَصْنَافُ ٱلسِّيَاسَاتِ مَعْلُومَةً عِنْدَنَا فَهُوَ بَيِّنٌ أَنَّا نَسْتَطِيعُ أَنْ نَعْرِفَ ٱلْأَخْلَاقَ وَٱلسُّنَنَ ٱلَّتِي تُؤَدِّي إِلَى غَايَةِ كُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْ هٰذِهِ ٱلسِّيَاسَاتِ أَعْنِي ٱلنَّافِعَةَ فِيهَا وَأَنْ نَعْتَمِدَ فِي أَنْفُسِنَا ٱلتَّخَلُّقَ بِتِلْكَ ٱلْأَخْلَاقِ وَٱلتَّمَسُّكَ بِٱلصِّنْفِ مِنَ ٱلسُّنَنِ ٱلَّتِي نَرُومُ ٱلْإِقْنَاعَ فِيهَا. فَإِنَّهُ إِنَّمَا تَكُونُ ٱلْأَقَاوِيلُ ٱلَّتِي يُحَثُّ بِهَا عَلَى ٱلسُّنَنِ مُقْنِعَةً إِذَا كَانَ ٱلْمُشِيرُونَ بِهَا ذَوِي صَلَاحٍ وَحُسْنِ فِعْلٍ حَتَّى تَكُونَ هٰذِهِ ٱلْأَشْيَاءُ ٱلْمَذْكُورَةُ هَاهُنَا مَعْلُومَةً لَنَا وَمَوْجُودَةً فِينَا. فَإِنَّهُ إِذَا وُجِدَ فِينَا ٱلْخُلُقُ ٱلَّذِي نَحُثُّ عَلَيْهِ كَانَ قَوْلُنَا فِي ٱلْحَثِّ عَلَيْهِ أَشَدَّ إِقْنَاعًا وَلِذٰلِكَ يَنْبَغِي أَلَّا نُشِيرَ إِلَّا بِمَا هُوَ مَوْجُودٌ لَنَا أَوْ نَحْنُ عَازِمُونَ عَلَى أَنْ يُوجَدَ لَنَا. وَمَعْلُومٌ أَنَّ ٱلْوُقُوفَ عَلَى ٱلسُّنَنِ

ٱلنَّافِعَةِ فِي ٱلْغَايَةِ لِأَنَّهَا إِنَّمَا تُسْتَنْبَطُ عَلَى جِهَةِ ٱلتَّحْلِيلِ مِنَ ٱلنَّظَرِ إِلَى ٱلْغَايَةِ. فَقَدْ تَبَيَّنَ مِنْ هٰذَا ٱلْقَوْلِ مِنْ أَيْنَ تُوجَدُ ٱلْمُقْنِعَاتُ فِي ٱلنَّافِعِ مِنَ ٱلسُّنَنِ فِي سِيَاسَةٍ سِيَاسَةٍ وَكَمْ أَنْحَاءُ ٱلسِّيَاسَاتِ وَٱلسُّنَنِ ٱلَّتِي تَحْتَذِي فِيهَا وَذٰلِكَ بِحَسَبِ ٱلْكَافِي فِي هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ. وَأَمَّا ٱلْقَوْلُ فِي هٰذِهِ ٱلْأَشْيَاءِ عَلَى ٱلتَّحْقِيقِ فَفِي ٱلْأَقَاوِيلِ ٱلْمَدَنِيَّةِ

البحث الحادي عشر

في ما ينبغي للخطيب ان يعرفهُ في النوع التثبيتي. وفي الفضيلة والنقيصة والمدح والذمّ وتصرُّف الخطيب فيهما وفي انواع الامور الفاضلة والناقصة

(من الكتاب نفسهِ)

(قَالَ) وَأَمَّا بَعْدَ هٰذَا فَنَحْنُ قَائِلُونَ فِي ٱلْفَضِيلَةِ وَٱلنَّقِيصَةِ وَٱلْجَمِيلِ وَٱلْقَبِيحِ لِأَنَّ هٰذِهِ هِيَ ٱلَّتِي يُمْدَحُ بِهَا وَيُذَمُّ. وَيَلْحَقُ مِنْ تَعْرِيفِنَا هٰذِهِ ٱلْأَشْيَاءَ أَنْ نُعْرَفَ ٱلْأُمُورَ ٱلَّتِي بِهَا يُثْبِتُ ٱلْمَرْءُ فَضِيلَةَ نَفْسِهِ إِذْ كَانَ ذٰلِكَ هُوَ ٱلطَّرِيقَ ٱلثَّانِي مِنَ ٱلطُّرُقِ ٱلثَّلَاثَةِ ٱلَّتِي يَقَعُ بِهَا ٱلْإِقْنَاعُ كَمَا تَقَدَّمَ مِنْ قَوْلِنَا. وَذٰلِكَ أَنَّهُ نَوْعٌ مِنَ ٱلْمَدْحِ أَعْنِي أَنْ يَكُونَ بِٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي نَقْدِرُ بِهَا عَلَى مَدْحِ غَيْرِنَا نَقْدِرُ بِهَا أَنْفُسِهَا عَلَى مَدْحِ أَنْفُسِنَا. وَإِنْ لَمْ يَكُنْ ذٰلِكَ يَتَّفِقُ فِي جَمِيعِ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي يُمْدَحُ بِهَا ٱلْغَيْرُ بَلْ إِنَّمَا يَكُونُ ذٰلِكَ بِٱلْفَضِيلَةِ فَقَطْ

وَهِيَ ٱلأُمورُ ٱلرَّاجِعَةُ إِلَى ٱلِاخْتِيَارِ

(قَالَ) وَمِنْ أَجْلِ أَنَّهُ يَعرِضُ كَثِيرًا أَنْ يُمدَحَ ٱلنَّاسُ وَٱلرُّوحَانِيُّونَ بِٱلفَضِيلَةِ وَبِأَشيَاءَ غَيرِ ٱلفَضِيلَةِ وَلَيسَ يَعرِضُ هٰذَا فِي مَدحِ هٰؤُلَاءِ فَقَطْ بَلْ وَفِي مَدحِ ٱلأَشيَاءِ ٱلمُتَنَفِّسَةِ وَغَيرِ ٱلمُتَنَفِّسَةِ. أَعنِي أَنَّهَا تُمدَحُ بِأَشيَاءَ خَارِجَةٍ عَنِ ٱلفَضِيلَةِ. فَقَدْ يَنبَغِي أَنْ نَقُولَ هَا هُنَا فِي ٱلأَشيَاءِ ٱلَّتِي تُؤْخَذُ مِنهَا ٱلمُقَدَّمَاتُ فِي ٱلمَدحِ بِٱلفَضَائِلِ وَبِغَيرِ ٱلفَضَائِلِ لِيَكُونَ ٱلقَولُ فِي ذٰلِكَ عَامًّا فَنَقُولُ: إِنَّ ٱلجَمِيلَ هُوَ ٱلَّذِي يُختَارُ مِنْ أَجلِ نَفسِهِ وَهُوَ مَمدُوحٌ وَخَيرٌ وَلَذِيذٌ مِنْ جِهَةِ أَنَّهُ خَيرٌ. وَإِذَا كَانَ ٱلجَمِيلُ هُوَ هٰذَا فَبَيِّنٌ أَنَّ ٱلفَضِيلَةَ جَمِيلَةٌ لَا مَحَالَةَ لِأَنَّهَا خَيرٌ وَهِيَ مَمدُوحَةٌ. وَٱلفَضِيلَةُ هِيَ مَلَكَةٌ مُقَدِّرَةٌ لِكُلِّ فِعلٍ هُوَ خَيرٌ مِنْ جِهَةِ ذٰلِكَ ٱلتَّقدِيرِ أَوْ يُظَنُّ بِهِ أَنَّهُ خَيرٌ أَعنِي ٱلحَافِظَةَ لِهٰذَا ٱلتَّقدِيرِ وَٱلفَاعِلَةَ لَهُ. وَلِذٰلِكَ كَانَتْ مُوجِدَةً لِكُلِّ فِعلٍ يُقصَدُ بِهِ نَحوُ غَايَةٍ مَا جَلِيلِ ٱلقَدرِ عَظِيمِ ٱلشَّأْنِ فِي حُصُولِ تِلْكَ ٱلغَايَةِ عَنهُ. فَأَمَّا أَجزَاءُ ٱلفَضِيلَةِ فَٱلبِرُّ أَيِ ٱلعَدلُ ٱلعَامُّ وَٱلشَّجَاعَةُ وَٱلمُرُوءَةُ وَٱلعِفَّةُ وَكِبَرُ ٱلهِمَّةِ وَٱلحِلمُ وَٱلسَّخَاءُ وَٱللُّبُّ وَٱلحِكمَةُ. وَهٰذِهِ ٱلفَضَائِلُ مِنهَا مَا هِيَ فَضَائِلُ فِي ذَاتِ ٱلفَاضِلِ فَقَطْ وَمِنهَا مَا هِيَ فَضَائِلُ مِنْ جِهَةِ أَنَّهَا تُفعَلُ فِي أُنَاسٍ آخَرِينَ وَهٰذِهِ ٱلَّتِي تُفعَلُ فِي أُنَاسٍ آخَرِينَ تَكُونُ أَعظَمَ عِندَ قَومٍ مِنهَا عِندَ آخَرِينَ وَفِي حَالٍ دُونَ حَالٍ. مِثَالُ ذٰلِكَ أَنَّ فَضِيلَةَ ٱلشَّجَاعَةِ آثَرُ فِي وَقتِ ٱلحَربِ مِنهَا فِي وَقتِ ٱلسِّلمِ. وَأَمَّا فَضِيلَةُ ٱلعَدلِ فَمُؤثِرَةٌ فِي ٱلسِّلمِ وَٱلحَربِ

جَمِيعًا . وَفَضِيلَةُ ٱلسَّخَاءِ وَٱلْمُرُوءَةِ عِنْدَ ٱلْمَحَاوِيجِ آثَرُ مِنْهَا عِنْدَ غَيْرِ ٱلْمَحَاوِيجِ . وَإِنَّمَا تَنْفَصِلُ فَضِيلَةُ ٱلْمُرُوَّةِ مِنَ ٱلسَّخَاءِ بِٱلْأَقَلِّ وَٱلْأَكْثَرِ لِأَنَّ فِعْلَ كِلْتَيْهِمَا هُوَ فِي ٱلْمَالِ لٰكِنَّ ٱلْمُرُوءَةَ هِيَ فِعْلٌ أَكْثَرُ مِنْ فِعْلِ ٱلسَّخَاءِ . فَأَمَّا ٱلْبِرُّ فَهُوَ فَضِيلَةٌ عَادِلَةٌ يُعْطِي ٱلْفَاضِلُ بِهَا لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا يَسْتَحِقُّ وَذٰلِكَ بِقَدْرِ مَا تَأْمُرُ بِهِ ٱلسُّنَّةُ . وَٱلْجَوْرُ هُوَ ٱلْخُلُقُ ٱلَّذِي يَأْخُذُ بِهِ ٱلْمَرْءُ ٱلْأَشْيَاءَ ٱلْغَرِيبَةَ ٱلَّتِي لَيْسَ لَهُ أَنْ يَأْخُذَهَا فِي ٱلسُّنَّةِ . وَأَمَّا ٱلشَّجَاعَةُ فَفَضِيلَةٌ يَكُونُ ٱلْمَرْءُ بِهَا فَعَّالًا لِلْأَفْعَالِ ٱلصَّالِحَةِ ٱلنَّافِعَةِ فِي ٱلْجِهَادِ عَلَى حَسَبِ مَا تَأْمُرُ بِهِ ٱلسُّنَّةُ حَتَّى يَكُونَ بِفِعْلِهِ ذٰلِكَ خَادِمًا لِلسُّنَّةِ . وَأَمَّا ٱلْجُبْنُ فَضِدُّ هٰذَا . وَأَمَّا ٱلْعِفَّةُ فَفَضِيلَةٌ يَكُونُ بِهَا ٱلْمَرْءُ فِي شَهَوَاتِ ٱلْبَدَنِ عَلَى مِقْدَارِ مَا تَأْمُرُ بِهِ ٱلسُّنَّةُ . وَٱلْفُجُورُ ضِدُّ هٰذَا . وَأَمَّا ٱلسَّخَاءُ فَفَضِيلَةٌ تَفْعَلُ ٱلْجَمِيلَ ٱلْمَشْهُورَ فِي ٱلْمَالِ . وَٱلدَّنَاءَةُ ضِدُّ هٰذَا . وَأَمَّا كِبَرُ ٱلْهِمَّةِ فَفَضِيلَةٌ يَكُونُ بِهَا حُسْنُ ٱلْأَفْعَالِ ٱلْعَظِيمَةِ وَصِغَرُ ٱلنَّفْسِ . وَٱلنَّذَالَةُ ضِدُّهَا . وَأَمَّا ٱللُّبُّ فَفَضِيلَةُ ٱلْعَقْلِ ٱلَّذِي يَكُونُ بِهِ حُسْنُ ٱلْمَشُورَةِ وَٱلرَّوِيَّةِ مَعَ وُجُودِ ٱلْفَضَائِلِ ٱلْخُلُقِيَّةِ لَهُ ٱلَّتِي هِيَ مِنْ صَلَاحِ ٱلْحَالِ . فَهٰذَا هُوَ ٱلْقَوْلُ فِي ٱلْفَضِيلَةِ وَأَجْزَائِهَا بِقَدْرِ مَا يُحْتَاجُ إِلَيْهِ فِي هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ . وَأَمَّا سَائِرُ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي يُمْدَحُ بِهَا مِمَّا عَدَا ٱلْفَضِيلَةَ فَلَيْسَ يَعْسُرُ ٱلْوُقُوفُ عَلَيْهَا . وَذٰلِكَ أَنَّهُ مَعْلُومٌ أَنَّ فَاعِلَاتِ ٱلْفَضَائِلِ مِثْلَ ٱلتَّأَدُّبِ وَٱلِٱرْتِيَاضِ بِٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي بِهَا تَحْصُلُ ٱلْفَضَائِلُ هِيَ أُمُورٌ حِسَانٌ وَمَمْدُوحٌ بِهَا . وَأَمَّا ٱلْأَشْيَاءُ ٱلَّتِي تُوجَدُ فِي ٱلْفَضَائِلِ أَنْفُسِهَا أَعْنِي ٱلْأَعْرَاضَ ٱلَّتِي تُوجَدُ فِيهَا . وَٱلْأَشْيَاءُ ٱلَّتِي تُوجَدُ تَابِعَةً

لِلفضائلِ فهِيَ ٱلَّتِي يُقالُ فِيها ٱلآنَ وهِيَ علاماتُ ٱلفضائلِ وَاعراضُها ٱللاحِقةُ لها. وافعالُها إِنَّما يُمدَحُ بِها إِذا كانت حسنةً محمُودةً فإِنَّ كثِيرًا مِن افعالِ ٱلفضائلِ قد لا يُمدَحُ بها وكذلك كثيرٌ من ٱلاعراضِ. فمثالُ ٱلافعالِ وٱلاعراضِ ٱلَّتِي هِيَ محمُودةٌ افعالُ ٱلشُّجعانِ فِي ٱلحربِ او مَن فعلَ فِي ٱلحربِ فِعلَهُم وإِن لم تكُن لهم ملكةُ ٱلشجاعةِ. وكذلكَ ٱلاعراضُ ٱلتِي تلحقُ ٱلشُّجعانَ مِمَّا يُمدَحُ بِها. ومثالُ ٱلافعالِ ٱلَّتِي لا يُمدَحُ بِها فِي وقتٍ ما بذلُ ٱلمالِ فانَّهُ فعلٌ مِن افعالِ ٱلسَّخاءِ لكن رُبَّما كانَ ذلكَ ٱلفعلُ على جهةِ ٱلتَّبذيرِ. ومثالُ ٱلاعراضِ ٱلَّتِي لا يُمدَحُ بِها ٱنفعالُ ٱلمرءِ عن ٱلعدلِ وقبولُهُ إِيَّاهُ وذلكَ انَّ فِعلَ ٱلعدلِ ممدُوحٌ وامَّا ٱلانفعالُ عنهُ فليسَ بِممدُوحٍ لِانَّهُ يُظَنُّ بِهِ انَّهُ مهانةٌ وضيمٌ. وبِٱلجملةِ فافعالُ ٱلفضائلِ إِنَّما تكُونُ ممدُوحةً إِذا كانت مُقدَّرةً تقديرَ ٱلعدلِ ومِمَّا يُمدَحُ بِها ٱلافعالُ ٱلعظِيمةُ ٱلشاقَّةُ ٱلَّتِي جزاؤُها ٱلكرامةُ فقط. فانَّ ٱلافعالَ ٱلَّتِي يكُونُ جزاؤُها ٱلكرامةَ خيرٌ مِنَ ٱلافعالِ ٱلَّتِي جزاؤُها ٱلمالُ. ولِذلكَ إِذا كانَ فِعلٌ يُجازَى عليهِ بِٱلامرينِ جميعًا ففعلهُ فاعلٌ مِن اجلِ ٱلكرامةِ فقط مُدِحَ بِهِ وكُلُّ ما يفعلُهُ ٱلمرءُ مِنَ ٱلفضائلِ لا مِن اجلِ نفسِهِ مُدِحَ بِهِ. وفعلُ ٱلاشياءِ ٱلَّتِي هِيَ خيراتٌ بِإِطلاقٍ كذلكَ مِمَّا يُمدَحُ بِهِ. وٱلاشياءُ ٱلَّتِي فِي طبيعتِها خيراتٌ وإِن كانت ضارَّةً لِلفاعِلِ يُمدَحُ بِها ايضًا. مِثلُ فِعلِ ٱلعدلِ فانَّ ٱلعادِلَ كثيرًا ما يَستضِرُّ بِهِ.

وَٱلْأَفعَالُ ٱلَّتِي تَخْتَصُّ بِإِكْرَامِ ٱلْأَمْوَاتِ مَمْدُوحَةٌ لِأَنَّ ٱلأَفعَالَ ٱلَّتِي تَكُونُ لِلْأَحْيَاءِ إِنَّمَا يَقْصِدُ مِنْهَا ٱلْمَرْءُ أَكْثَرَ ذٰلِكَ مَنْفَعَةَ نَفْسِهِ. وَبِٱلْجُمْلَةِ فَكُلُّ فِعلٍ كَانَ ٱلْمَقْصُودُ بِهِ ٱلْغَيْرَ وَلَمْ يَكُنْ يَنْتَفِعُ بِهِ ٱلْفَاعِلُ لَهُ أَوْ كَانَ يَلْحَقُهُ مِنْهُ ضَرَرٌ فَهُوَ مَمْدُوحٌ بِهِ. وَٱلْفِعْلُ ٱلَّذِي يَكُونُ إِلَى ٱلْمُحْسِنِينَ إِلَى ٱلنَّاسِ مَمْدُوحٌ بِهِ أَيْضًا لِأَنَّ هٰذَا هُوَ عَدْلٌ إِذْ كَانَ لَيْسَ يَنْتَفِعُ بِهِ ٱلْفَاعِلُ لَهُ. وَمِمَّا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ ٱلْإِنْسَانَ ذُو فَضِيلَةٍ أَنْ لَا يَفْعَلَ ٱلْأَفعَالَ ٱلَّتِي يَفْتَضِحُ بِهَا أَهْلُ ٱلْفَوَاحِشِ وَأَنْ يُؤَدِّبَهُمْ بِٱلْقَوْلِ وَٱلْفِعْلِ. وَكَذٰلِكَ نُصْرَةُ ذَوِي ٱلْفَضَائِلِ وَمَحْمَدَتُهُمْ مِمَّا يُمْدَحُ بِهِ. وَٱلْخَجَلُ عِنْدَ ذِكْرِ ٱلْقَبَائِحِ مِمَّا قَدْ يَدُلُّ عَلَى ٱلْفَضِيلَةِ لِأَنَّهُ يُظَنُّ بِهِ أَنَّ ٱلْحَيَاءَ يَمْنَعُهُ عَنْ إِتْيَانِ تِلْكَ ٱلرَّذِيلَةِ. وَقَدْ يَكُونُ أَيْضًا عَدَمُ ٱلْحَيَاءِ عِنْدَ ذِكْرِ ٱلْفَوَاحِشِ عَلَامَةً يُمْدَحُ بِهَا. وَذٰلِكَ أَنَّهُ قَدْ يُظَنُّ أَنَّ ٱلْإِنْسَانَ إِنَّمَا يَسْتَحِي عِنْدَ ذِكْرِ ٱلْقَبَائِحِ إِذَا كَانَ قَدْ فَعَلَهَا أَوْ نَالَهَا أَوْ هُوَ مُزْمِعٌ أَنْ يَفْعَلَهَا. مِثْلُ مَا حَكَى أَرِسْطُو أَنَّهُ عَرَضَ لِامْرَأَةٍ مَشْهُورَةٍ بِٱلْحِكْمَةِ عِنْدَهُمْ وَذٰلِكَ أَنَّ إِنْسَانًا مَشْهُورًا عَرَّضَ لَهَا بِٱلْقَبِيحِ بِأَنْ قَالَ لَهَا: إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَقُولَ قَوْلًا يَمْنَعُنِي عَنْهُ ٱلْحَيَاءُ فَخَلَّمَتْ عَنْهُ وَلَمْ تُجِبْهُ بِقَوْلٍ قَبِيحٍ وَلَمْ يُدْرِكْهَا مِنْ ذٰلِكَ تَأَلُّمٌ وَلَا ٱنْفِعَالٌ لِأَنَّهَا كَانَتْ تَرَى لِمَكَانِ فَضِيلَتِهَا أَنَّ أَحَدًا لَا يُعَرِّضُ لَهَا لَا بِمِثَالٍ وَلَا بِقَوْلٍ كُلِّيٍّ (وَهُمَا صِنْفَا ٱلتَّعْرِيضِ). لٰكِنَّهَا فِي تِلْكَ ٱلْحَالِ جَعَلَتْ تَمُصُّ ٱلْفَضَائِلَ وَتَمْدَحُ أَهْلَهَا وَتَتَعَصَّبُ لَهُمْ وَتُحَامِي عَنْهُمْ. وَكَانَ أَيْضًا مَنْ مَعَهَا لَمْ يَأْنَفُوا

أيضاً لقول ذلك ولا لتعريضه لعلمهم ان مثلها لا يتهم بمثل هذا

(قال) ولذلك كان التعصب للاشياء التي تكتسب المجد والمحاماة عنها قد تجعل المتعصب لها والمحامي عنها من اهل الفضائل التي لا تحصل للانسان الا بمجاهدة كبيرة للطبيعة مثل العفاف والشجاعة وغيرهما. وذلك اذا صارت له ملكة بترداد فعلها والتعصب لها والمحاماة عنها كما عرض لهذه المرأة التي اقتصصنا ذكرها مع ذلك الرجل. وذلك ان امثال هذه الافعال قد يصير بها الانسان من اهل الفضائل التي لا تحصل للانسان الا بمجاهدة كبيرة

(قال) والانعام على الغير اذا لم يستفد المنعم منه شيئاً هو مما يمدح به ولذلك ما كان العدل والبر يمدح بهما الانسان من جهة انهما نافعان كما يمدح بهما من جهة ما هما جميلان. والانتقام ايضاً من الاعداء والا يرضى عنهم في حال مما يمدح به. فان الانتقام منهم هو جزاء والجزاء عدل والعدل جميل. ومحبة الغلبة ايضاً ومحبة الكرامة مما يمدح بهما لانهما علامتان تدلان على ايثار الفضائل لا لمكان اكتساب مال بهما. اما محبة الغلبة فتدل على ايثار الشجاعة. واما محبة الكرامة فعلى ايثار جميع الفضائل ولذلك كانت الفضائل الاثيرة المختارة هي التي ليس يقصد بها مقتنيها الى اكتساب مال. لان ذلك يدل على شرف

ٱلْفَضِيلَةِ وَمِنَ ٱلْأَفْعَالِ ٱلَّتِي يُمْدَحُ بِهَا ٱلَّتِي شَأْنُهَا أَنْ يَبْقَى ذِكْرُهَا مَحْفُوظًا أَبَدًا عِنْدَ ٱلنَّاسِ. وَمِنَ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي يُمْدَحُ بِهَا ٱلْهَيْئَاتُ ٱلْمَحْمُودَةُ عِنْدَ قَوْمٍ ٱلَّتِي يَجْعَلُونَهَا عَلَامَةً لِذَوِي ٱلشَّرَفِ مِثْلُ تَوْفِيرِ ٱلشُّعُورِ عِنْدَ ٱلْيُونَانِيِّينَ فَإِنَّهُ يَدُلُّ عَلَى ٱلشَّرَفِ إِذْ كَانَ لَيْسَ كُلُّ أَحَدٍ يَسْهُلُ عَلَيْهِ تَوْفِيرُ شَعَرِهِ لِأَنَّ ٱلْمُوفُورِي ٱلشُّعُورِ لَا يَعْمَلُونَ عَمَلَ مَنْ لَيْسَ بِمَوْفُورِ ٱلشَّعَرِ وَلَا يُمْتَهَنُونَ بِأَيِّ مِهْنَةٍ ٱتَّفَقَتْ. وَٱلْأَزْيَاءُ ٱلَّتِي كَانَتْ تُتَّخَذُ عِنْدَنَا هِيَ مِنْ هٰذَا ٱلنَّوْعِ ٱلَّذِي ذَكَرَهُ أَرِسْطُو

(قَالَ) وَمِنَ ٱلشَّرَفِ أَلَّا يَحْتَاجَ ٱلْإِنْسَانُ إِلَى آخَرِينَ بَلْ يَكُونَ مُكْتَفِيًا بِنَفْسِهِ

(قَالَ) وَقَدْ يَنْبَغِي أَنْ نَأْخُذَ فِي ٱلْمَدْحِ وَٱلذَّمِّ وَٱلْأُمُورِ ٱلْقَرِيبَةِ مِنَ ٱلْفَضَائِلِ وَٱلنَّقَائِصِ وَهِيَ ٱلنَّقَائِصُ ٱلَّتِي قَدْ تُوجَدُ عَنْهَا أَفْعَالُ ٱلْفَضِيلَةِ أَوِ ٱلْفَضَائِلُ ٱلَّتِي قَدْ تُوجَدُ عَنْهَا أَفْعَالُ ٱلنَّقَائِصِ. فَيُمْدَحُ بِٱلنَّقَائِصِ ٱلَّتِي تُوجَدُ عَنْهَا أَفْعَالُ ٱلْفَضِيلَةِ بِأَنْ يُوهِمَ أَنَّهَا فَضَائِلُ مِنْ أَجْلِ أَنَّ تِلْكَ ٱلْأَفْعَالَ هِيَ مِنْ أَفْعَالِ ٱلْفَضَائِلِ. وَكَذٰلِكَ يُوهِمُ فِي ٱلْفَضَائِلِ أَنَّهَا نَقَائِصُ مِنْ أَجْلِ أَنَّهُ عَرَضَ أَنْ وُجِدَ عَنْهَا أَفْعَالُ ٱلنَّقَائِصِ. فَمِثَالُ ٱلنَّقَائِصِ ٱلَّتِي تُوجَدُ عَنْهَا أَفْعَالُ ٱلْفَضَائِلِ فَتُوهِمُ أَنَّهَا فَضَائِلُ ٱلْعِيُّ ٱلَّذِي قَدْ يَكُونُ عَنْهُ أَفْعَالُ ٱلْحَلِيمِ فَيُوهِمُ بِهِ أَنَّهُ حَلِيمٌ. وَٱلْبَلَهُ ٱلَّذِي قَدْ تُوجَدُ عَنْهُ أَفْعَالُ ذَوِي ٱلسَّمْتِ فَيُوهِمُ بِذٰلِكَ أَنَّهُ ذُو سَمْتٍ. وَكَذٰلِكَ ٱلْعَدِيمُ ٱلْحِسِّ قَدْ يُوهِمُ فِيهِ أَنَّهُ عَفِيفٌ إِذْ كَانَ قَدْ يُوجَدُ لَهُ فِعْلُ ٱلْعَفِيفِ بِٱلْعَرَضِ. وَكَذٰلِكَ

ٱلْمُتَهَوِّرُ قَدْ يُوهِمُ فِيهِ أَنَّهُ شُجَاعٌ وَٱلسَّفِيهُ أَنَّهُ كَرِيمٌ. وَمِثَالُ مَا يُوهِمُ بِهِ إِنَّهُ نَقِيصَةٌ وَلَيْسَ بِنَقِيصَةٍ مَا يَعْرِضُ لِلْكَبِيرِ ٱلْهِمَّةِ مِنْ أَنْ يَتَجَافَى عَنِ ٱلْأُمُورِ ٱلْيَسِيرَةِ فَيُظَنُّ بِهِ أَنَّهُ يَغْلَطُ وَيَنْخَدِعُ. وَٱلْكَبِيرُ ٱلْهِمَّةِ إِنَّمَا يَصْنَعُ ذٰلِكَ فِي ٱلْأُمُورِ ٱلْيَسِيرَةِ ٱلَّتِي لَيْسَ يَلْحَقُهُ مِنْهَا خَوْفٌ كَبِيرٌ وَلَا ضَرَرٌ شَدِيدٌ وَذٰلِكَ أَيْضًا فِي ٱلْمَوْضِعِ ٱلَّذِي يَحْسُنُ فِيهِ أَنْ يَتَغَافَلَ عَنْهَا. وَقَدْ يُوهِمُ أَيْضًا هٰذَا ٱلْمَوْضِعُ عَكْسَ هٰذَا. وَهُوَ أَنْ يُقَالَ فِي ٱلْمُنْخَدِعِ إِنَّهُ كَبِيرُ ٱلْهِمَّةِ. وَمِمَّا يُمْدَحُ بِهِ أَنْ يَكُونَ ٱلْمَرْءُ يُعْطِي أَصْدِقَاءَهُ وَغَيْرَ أَصْدِقَائِهِ وَمَنْ يَعْرِفُ وَمَنْ لَا يَعْرِفُ لِأَنَّهُ يُظَنُّ أَنَّ شَرَفَ فَضِيلَةِ ٱلسَّخَاءِ هُوَ بَذْلُ ٱلْمَالِ لِلْكُلِّ

(قَالَ) وَقَدْ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ ٱلْمَدْحُ بِحَضْرَةِ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ ٱلْمَمْدُوحَ كَمَا قَالَ سُقْرَاطُ: إِنَّهُ يَسْهُلُ مَدْحُ أَهْلِ أَثِينِيَةَ بِأَثِينِيَا. وَيَنْبَغِي أَنْ يُمْدَحَ كُلُّ إِنْسَانٍ بِٱلَّذِي هُوَ مَمْدُوحٌ عِنْدَ قَوْمِهِ وَأَهْلِ مَدِينَتِهِ إِنْ كَانَ ذٰلِكَ يَخْتَلِفُ

(قَالَ) وَمِنَ ٱلْمَدْحِ بِٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي مِنْ خَارِجٍ مَدْحُ ٱلْآبَاءِ وَذِكْرُ مَآثِرِهِمْ ٱلْمُتَقَدِّمَةِ وَمَدْحُ ٱلْمَرْءِ بِمَا تَسْمُو إِلَيْهِ هِمَّتُهُ مِنَ ٱلْمَرَاتِبِ. وَأَنَّهُ لَيْسَ يَقْتَصِرُ عَلَى مَا حَصَلَ لَهُ مِنْهَا. وَٱلرَّجُلُ ٱلْكَبِيرُ ٱلْهِمَّةِ ٱلَّذِي لَا يَقْتَصِرُ بِهِمَّتِهِ عَلَى مَا نَالَ مِنَ ٱلْمَرَاتِبِ يُمْدَحُ بِهٰذَيْنِ ٱلْأَمْرَيْنِ مِنْ خَارِجٍ أَعْنِي بِفَضَائِلِ آبَائِهِ وَبِمَا يُؤَمِّلُ أَنْ يَسْمُوَ نَحْوَهُ كَمَا يُقَالُ مِنْ أَيِّ مَأْثَرٍ ٱبْتَدَأَ مِنْ قِبَلِ آبَائِهِ وَإِلَى أَيِّ مَأْثَرٍ يَنْتَهِي مِنْ قِبَلِ هِمَّتِهِ. وَأَمَّا ٱلَّذِي لَا يَسْمُو بِهِمَّتِهِ إِلَى نَيْلِ أَكْثَرَ مِمَّا

حَصَلَ لَهُ مِنَ ٱلْمَرْتَبَةِ فَإِنَّمَا يُمدَحُ مِنَ ٱلْأَمْرَيْنِ ٱللَّذَيْنِ مِنْ خَارِجٍ بِآبائِهِ فَقَطْ. وَكَأَنَّهُ يَرَى هَا هُنَا انَّ ٱلْمَـدْحَ بِمَنَاقِبِ ٱلْآبَاءِ لَيسَ يَنْبَغِي انْ يَقتَصِرَ عَلَيهِ دُونَ انْ يُمدَحَ بِفَضِيلَةِ ذَاتِهِ كَمَا قَالَ ٱلشَّاعِرُ:

لَسْنَا وَإِنْ كَرُمَتْ اوَائِلُنَا يَوماً عَلَى ٱلْأَحسَابِ نَتَّكِلُ
نَبْنِي كَمَا كَانَتْ اوَائِلُنَـا تَبْنِي وَنَفعَلُ مِثْلَ مَا فَعَلُوا

وَإِنَّهُ قَدْ يُقتَصَرُ بِٱلْمَدحِ عَلَى ٱلْفَضِيلَةِ دُونَ ذِكْرِ ٱلْآبَاءِ كَمَا قَالَ:

نفسُ عِصَامٍ سَوَّدَتْ عِصَامَا

(قَالَ) وَانَّمَا يَكُونُ ٱلْمَدْحُ عَلَى ٱلْحَقِيقَةِ بِٱلْأَفعَالِ ٱلَّتِي تَكُونُ عَنِ ٱلْمَشِيئَةِ وَٱلِٱخْتِيَارِ فَإِنَّ ٱلْفِعْـلَ ٱلَّذِي يَـكُونُ بِٱلْمَشِيئَةِ وَٱلِٱخْتِيَارِ هُوَ ٱلْفِعْلُ ٱلْفَاضِلُ. وَٱلَّذِي يُمدَحُ بِٱلْأَشيَاءِ ٱلَّتِي تَـكُونُ بِٱلِٱتِّفَاقِ اَوْ بِٱلْعَرَضِ مِنْ اَجلِ اَنَّ لَهَا اِذَا ٱقْتَرَنَتْ بِٱلْفَضَائِـلِ تَزْيِينًا لَهَا وَتَفْخِيمًا بِمَنْزِلَةِ ٱلْحَسَبِ ٱلْمُقْتَرِنِ إِلَى ٱلْفَضِيلَةِ وَجُودَةِ ٱلْبَخْتِ ٱلْمُقْتَرِنِ بِأَفعَالِ ٱلْفَضَائِلِ. وَإِنَّمَا يَدْخُلُ فِي ٱلْمَدحِ ٱلْأَفعَالُ ٱلَّتِي تَـكُونُ بِٱتِّفَاقٍ وَٱلْأَعْرَاضُ ٱلَّتِي تَقْتَرِنُ بِٱلْعَرَضِ مَعَ ٱلْأَفعَالِ ٱلَّتِي تَـكُونُ بِٱلْمَشِيئَةِ مَتَى تَـكَرَّرَتْ مِرَارًا كَثِيرَةً عَلَى صِفَةٍ وَاحِدَةٍ حَتَّى اَوْهَمَتْ اَنَّهَا بِٱلذَّاتِ. وَذٰلِكَ اَنَّهُ اِذَا عَرَضَ لَهَا ذٰلِكَ ظُنَّ بِهَا اَنَّهَا عَـلَامَةٌ لِلْفَضِيلَةِ مِثْلَ اَنْ يَنْجَلَ ٱلْإِنْسَانُ مِرَارًا كَثِيرَةً بِٱلِٱتِّفَاقِ فِي مَوَاضِعَ يُمدَحُ ٱلنَّجَلُ فِيهَا. وَإِنَّمَا دَخَلَتْ هٰذِهِ ٱلْأَشيَاءُ فِي ٱلْمَـدِيحِ لِأَنَّ ٱلْمَدِيحَ هُوَ قَوْلٌ يَصِفُ عِظَمَ ٱلْفَضِيلَةِ وَهٰذِهِ ٱلْأَشيَاءُ هِيَ مِمَّا تَعْظُمُ بِهَا ٱلْفَضِيلَةُ. وَإِذَا ٱسْتُعْمِلَتْ هٰذِهِ ٱلْأَشيَاءُ فِي ٱلْمَدِيحِ فَيَنْبَغِي اَنْ تُستَعمَلَ

على انها حدثت عن الروية . والاشياء التي بالاتفاق منها اشياء ليس الانسان سببها لا بالذات ولا بالعرض مثل الحسب والمنشإ الفاضل ومنها اشياء تعرض عن الافعال التي تكون عن الروية . فاما الاتفاقات الجيدة التي تعرض عن الافعال فتؤخذ علامة على الفضائل . واما الاتفاقات المتقدمة على الانسان فتؤخذ في تقرير الفضيلة وتثبيتها مثل ما يقال في المدح : ان الخيار يولد في الخيار . وفي الذم : ان الحية تلد الحية . والافعال بالجملة هي التي عليها يحمد الفاعل . واما آثار الافعال فهي دلائل على الفعل وانما نمدح بها اذا اثبتنا منها الفعل

(قال) وجودة البخت التي قيل فيما تقدم انها السعادة على ما يراه الجمهور هي وسائر الاشياء الاتفاقية التي نمدح بها واحدة في الجنس وليست هي والفضائل واحدة بالجنس بل كما ان صلاح الحال جنس للفضيلة اعني محيطا بها كذلك ما يحدث بالاتفاق جنس يحيط بالسعادة . وهذان الجنسان اعني الفضائل وما بالاتفاق يدخلان جميعا في باب المدح وفي باب المشورة لكن من جهتين مختلفتين . وانما كان الامر كذلك لانا اذا عرفنا الاشياء التي يجب ان تفعل فقد عرفنا الاشياء التي اذا فعلت مدح بها الانسان . ولذلك اذا ذكرت هذه الاشياء ذكرا مطلقا امكن ان تدخل في المشورة وفي المدح وذلك بزيادة الجهة التي بها تدخل في المشورة او الجهة التي بها تدخل في المدح . وذلك مثل ما يقول القائل

إِنَّــهُ لَيسَ يَنبَغِي أَنْ يُوجِبَ ٱلعِظَمُ وَٱلفَضلُ لِلأَشيَاءِ ٱلَّتِي تَـكُونُ لِلإِنسَانِ بِٱلعَرَضِ بَلْ لِلأَشيَاءِ ٱلَّتِي تَـكُونُ عَنْ رَوِيَّتِــهِ وَٱختِيَارِهِ . فَإِذَا زِيدَ إِلَى هٰذَا . فَلِذٰلِكَ لَيسَ يَنبَغِي أَنْ يُمــدَحَ ٱلَّذِينَ سَعَادَتُهُمْ بِٱلبَختِ وَإِنَّمَا يَنبَغِي أَنْ يُمدَحَ ٱلَّذِينَ سَعَادَتُهُمْ عَنْ رَوِيَّةٍ وَٱختِيَارٍ كَفُلَانٍ كَانَ دَاخِلًا فِي بَابِ ٱلمَدحِ . وَإِذَا زِيدَ إِلَى هٰذَا فَلِذٰلِكَ لَا يَنبَغِي أَنْ تُطلَبَ ٱلأَشيَاءُ ٱلَّتِي تَـكُونُ عَنِ ٱلاِتِّفَاقِ بَلِ ٱلأَشيَاءُ ٱلَّتِي تَـكُونُ عَنِ ٱلرَّوِيَّةِ دَخَلَ فِي ٱلمَشُورَةِ . وَٱلأَشيَاءُ ٱلاِتِّفَاقِيَّةُ قَدْ يُمـكِنُ أَنْ تُستَعمَلَ فِي ٱلمَدِيحِ تَارَةً وَفِي ٱلذَّمِّ أُخرَى . فَإِنَّ ظُنُونَ ٱلنَّاسِ فِيهَا مُختَلِفَةٌ فَإِنَّ قَومًا يَرَونَ أَنَّ ٱلخَــيرَاتِ ٱلَّتِي تَـكُونُ بِٱلاِتِّفَاقِ لَيسَ يَنبَغِي أَنْ يُمدَحَ بِهَا إِذْ كَانَتْ شَيئًا غَيرَ مُحَصَّلٍ وَلَا مُـكتَسَبٍ لِلإِنسَانِ . وَقَومٌ يَرَونَ أَنَّهُ يَجِبُ أَنْ يُمدَحَ بِهَــا وَأَنَّهَا تَدُلُّ عَلَى عِنَايَةِ إِلٰهِيَّةٍ بِٱلَّذِي تَعرِضُ لَــهُ وَأَمَّا ٱلأَشيَاءُ ٱلَّتِي عَنِ ٱلاِختِيَارِ فَٱلمَمدُوحُ مِنهَا يُمدَحُ بِهِ أَبَدًا وَٱلمَذمُومُ مِنهَا يُذَمُّ بِهِ أَبَدًا

(قَالَ) وَيَنبَغِي أَنْ يُستَعمَلَ فِي ٱلمَدحِ ٱلأَشيَاءُ ٱلَّتِي يَـكُونُ بِهَا تَعظِيمُ ٱلشَّيءِ وَتَنبِيتُهُ وَهُوَ أَنْ يُخَيَّلَ فِي ٱلشَّيءِ أَنَّهُ بِٱلقُوَّةِ أَشيَاءُ كَثِيرَةٌ . وَذٰلِكَ إِذَا قِيلَ إِنَّهُ أَوَّلُ مَنْ فَعَلَ هٰذَا كَمَا قِيلَ فِي قِصَّةِ هَابِيلَ وَقَابِيلَ . أَوْ إِنَّهُ وَحدَهُ فَعَلَ هٰذَا . أَوْ إِنَّهُ فَعَــلَ فِي زَمَانٍ يَسِيرٍ مَا شَأْنُهُ أَنْ يُفعَلَ فِي زَمَانٍ كَثِيرٍ . أَوْ إِنَّهُ فَعَلَ فِعــلًا كَبِيرًا . فَإِنَّ هٰذِهِ كُلَّهَا إِنَّمَا تُفِيدُ عِظَمَ ٱلفِعلِ . وَكَذٰلِكَ إِذَا قِيلَ أَنَّهُ فَعَلَ فِي زَمَانٍ يَعسُرُ فِعــلُهُ . وَذٰلِكَ إِذَا كَانَ بِحَسَبِ مَا يُشَاكِلُ إِنسَانًا

اِنسانًا . ثُمَّ انَّهُ اِنْ كانَ ٱلفَاعِلُ مِمَّنْ يُقتَدَى بِهِ فِي افعالِهِ وَاقوالِهِ مِرارًا كَثيرَةً فَاِنَّ فِعلَهُ عظِيمٌ كَمَا قِيلَ : اِنَّكُمْ ايُّها ٱلرَّهطُ ائِمَّةٌ يُقتَدَى بِكُمْ . وَٱلافعالُ ٱلَّتِي يُقتَدَى بِهَا لَيسَتْ هِيَ ٱلافعالَ ٱلَّتِي تَكُونُ بِٱلاِتّفاقِ بَلِ ٱلافعالُ ٱلَّتِي تَكُونُ عَنِ ٱلمَشِيئَةِ وَٱلرَّوِيَّةِ . وَهٰذِهِ ٱلاَشياءُ قَدْ يُمكِنُ انْ تَدخُلَ فِي ٱلمَشُورَةِ اعنِي ٱلاشياءَ ٱلَّتِي تُعَظِّمُ ٱلشَّيْءَ مِثْلُ انْ يُشارَ عَلَى ٱلمَرْءِ انْ يَتَشَبَّهَ بِٱلمَمدُوحِ ٱلاوَّلِ فِي ذٰلِكَ ٱلجِنسِ اوْ يَتَشَبَّهَ بِهِ فِي ٱلمَدحِ اوْ يُشارَ عَلَيهِ انْ يَكُونَ مِنْ جُملَةِ ٱلمَمدُوحِينَ ٱلَّذِينَ لَا يُنَازِعُ احَدٌ فِي حَمدِهِمْ . مِثْلُ ٱلَّذِينَ يُمدَحُونَ فِي ٱلاَسوَاقِ اوْ يُتَشَبَّهُ بِهِمْ فِي ٱلمَدحِ . وَمِمَّا يُعَظِّمُ ٱلمَمدُوحِينَ انْ يُقَاسُوا بِٱلَّذِينَ يَفعَلُونَ اضدادَ افعالِهِمْ وَذٰلِكَ عِندَ ذِكرِ افعالِهِمِ ٱلفاضِلَةِ

(قَالَ) وَٱلَّذِينَ شَأْنُهُمْ انْ يَتَشَبَّهُوا بِٱلمَمدُوحِينَ ٱلَّذِينَ فِي ٱلغَايَةِ وَيُقَايِسُوا انفُسَهُمْ مَعَهُمْ دَائِمًا فَقَدْ يَنبَغِي انْ يُشَبَّهُوا بِأُولائِكَ وَانْ يُجرَوا مَجرَاهُمْ فِي ٱلمَدحِ وَاِنْ لَمْ يَكُونُوا وَصَلُوا مَرَاتِبَهُمْ . فَاِنَّ فَضَائِلَهُمْ فِي نُمُوٍّ دائِمٍ . وَمُقَايَسَةُ ٱلاِنسَانِ نَفسَهُ مَعَ غَيرِهِ لَا تَصِحُّ اِلَّا مِنَ ٱلرَّجُلِ ٱلفَاضِلِ لِمَوضِعِ حُبِّ ٱلاِنسَانِ لِنَفسِهِ فَهُوَ يَرَى نَقَائِصَهُ اقَلَّ مِنْ نَقَائِصِ غَيرِهِ وَاِنْ كَانَتْ اعظَمَ . وَيَرَى فَضَائِلَهُ اكثَرَ وَاِنْ كَانَتْ اصغَرَ وَلِذٰلِكَ لَيسَ كُلُّ احَدٍ يَستَطِيعُ ٱلمُقَايَسَةَ وَاِنَّمَا يَستَطِيعُهَا ٱلفُضَلاءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مِثْلُ مَا حَكَى ارِسطُو عَنْ سُقرَاطَ انَّهُ كَانَ يُقَايِسُ بَينَهُ وَبَينَ غَيرِهِ وَيُجرِي ٱلاَحكَامَ

عَلَى اخلَاقِ نَفسِهِ. بِمَعْنَى انَّهُ كَانَ يَنظُرُ بَينَهُ وَبَينَ غَيرِهِ فَانْ وَجَدَ فِيهِ فَضِيلَةً اَثَابَ نَفسَهُ عَلَيهَا وَانْ وَجَدَ فِيهِ رَذِيلَةً عَاقَبَ نَفسَهُ عَلَيهَا. وَٱلْمُقَايَسَةُ ٱلنَّافِعَةُ لِمَنْ يُرِيدُ اَنْ يَتَزَيَّدَ فِي ٱلْفَضَائِلِ اِنَّمَا يَنبَغِي اَنْ يَكُونَ بِٱلْمَمْدُوحِينَ جِدًّا. وَقَدْ يَدُلُّ عَلَى اَنَّ اَمثَالَ هٰؤُلَاءِ مَمْدُوحُونَ اَعْنِي ٱلَّذِينَ فَضَائِلُهُمْ فِي نُمُوٍّ دَائِمٍ. اَنَّ ٱلَّذِينَ اَجهَدُوا اَنفُسَهُمْ فِي اَنْ يَبلُغُوا مَبلَغَ ٱلْفَاضِلِينَ فَعَجَزُوا عَنْ ذٰلِكَ فَهُمْ مَمْدُوحُونَ عِنْدَ ٱلْجُمْهُورِ. وَهُوَ بَيِّنٌ اَنَّ تَعظِيمَ ٱلشَّيْءِ دَاخِلٌ فِي ٱلْمَدحِ. فَاِنَّ ٱلتَّعظِيمَ لِلشَّيْءِ تَشرِيفٌ لَهُ وَٱلتَّشرِيفُ مِنَ ٱلْاُمُورِ ٱلَّتِي يُمدَحُ بِهَا. وَيَنبَغِي اِذَا اُرِيدَ ٱلتَّعظِيمُ بِٱلتَّشبِيهِ اَنْ يُشَبَّهَ بِكَثِيرٍ مِنَ ٱلْمَحمُودِينَ فَاِنَّ فِي هٰذَا ٱلْفِعلِ تَشرِيفًا لِلْمَمْدُوحِ وَدَلَالَةً لِلْجُمْهُورِ عَلَى فَضِيلَتِهِ. وَجُمْلَةُ ٱلْقَولِ فِي ٱلْاَنوَاعِ ٱلْمُشتَرَكَةِ لِاَجنَاسِ ٱلْاَقَاوِيلِ ٱلثَّلَاثَةِ اَنَّ ٱلتَّعظِيمَ وَاِنْ كَانَ مُشتَرَكًا لِاَجنَاسِ ٱلْاَقَاوِيلِ ٱلْخُطَبِيَّةِ ٱلثَّلَاثَةِ فَهُوَ اَخَصُّ بِٱلْمَدحِ وَٱلذَّمِّ. لِاَنَّهُ اِنَّمَا يُمدَحُ ٱلْاِنسَانُ اَوْ يُذَمُّ بِٱلْاَشيَاءِ ٱلْمَوجُودَةِ ٱلْمُعتَرَفِ بِوُجُودِهَا. وَتَعظِيمُ ٱلشَّيْءِ اَخَصُّ بِٱلْمَوجُودِ مِنْهُ بِٱلْمَعدُومِ. وَلِذٰلِكَ قَدْ يَنبَغِي لِلْمَادِحِ اَنْ يَصِفَ جَلَالَةَ ٱلشَّيْءِ وَبَهَاءَهُ وَزِينَتَهُ. وَاَمَّا ٱستِعمَالُ ٱلْعَلَامَاتِ وَٱلْمِثَالَاتِ فَهُوَ اَخَصُّ بِٱلْمَشُورَةِ لِاَنَّ مِنَ ٱلْاُمُورِ ٱلْمُتَصَرِّمَةِ ٱلَّتِي قَدْ سَلَفَتْ نَحْدُسُ عَلَى ٱلَّتِي سَتَكُونُ وَاِعطَاءِ ٱلسَّبَبِ وَٱلْعِلَّةِ مِنَ ٱلْاَشيَاءِ ٱلَّتِي قَدْ سَلَفَتْ نَحْنُ لَهُ اَكثَرُ قَبُولًا وَتَعظِيمًا لِاَنقِضَائِهِ وَتَصَرُّمِهِ. وَاَمَّا مَعرِفَةُ ٱلْعَدلِ وَٱلْجَورِ فَهُوَ خَاصٌّ بِٱلْمُشَاجَرِيَّةِ. وَبِٱلْجُملَةِ فَجَمِيعُ ٱلْمَدحِ

وَٱلذَّمِّ إِنَّمَا يَكُونُ بِٱلْمُقَايَسَةِ بِمَنْ سَلَفَ مِنَ ٱلْمَحْمُودِينَ وَٱلْمَذْمُومِينَ. وَقَدْ يَنْبَغِي لِلْمَادِحِ وَٱلذَّامِّ أَنْ يَعْلَمَ بِحَضْرَةِ مَنْ يَكُونُ ٱلْمَدْحُ أَوِ ٱلذَّمُّ أَعْنِي أَنْ يَمْدَحَ بِحَضْرَةِ ٱلْأَصْدِقَاءِ وَيَذُمَّ بِحَضْرَةِ ٱلْأَعْدَاءِ كَمَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَعْلَمَ ٱلْمَوَاضِعَ ٱلَّتِي يَأْخُذُ مِنْهَا ٱلْمَدْحَ وَٱلذَّمَّ وَهِيَ ٱلَّتِي سَلَفَ ذِكْرُهَا وَهِيَ ٱلْفَضَائِلُ وَفَاعِلَاتُهَا وَعَلَامَاتُهَا وَأَعْرَاضُهَا وَهُوَ بَيِّنٌ أَنْ مِمَّا ذَكَرْنَاهُ مِنْ حُدُودِ هٰذِهِ ٱلْأَشْيَاءِ تُعْرَفُ حُدُودُ أَضْدَادِهَا إِذْ كَانَ ٱلضِّدُّ يُعْرَفُ مِنْ ضِدِّهِ

الفصل العاشر

في انواع الخطب ومن برع فيها

البحث الاول

في خطب التهانئ

(من كتاب صناعة الترسل)

إِنَّ ٱلتَّهَانِيَ لَيْسَ فِيهَا إِلَّا بَسْطُ ٱلْكَلَامِ وَٱلْإِطْنَابُ فِي شُكْرِ نِعَمِ ٱللهِ وَٱلتَّبَرُّؤُ مِنَ ٱلْحَوْلِ وَٱلْقُوَّةِ إِلَّا بِهِ وَوَصْفُ مَا أُعْطِيَ مِنَ ٱلنَّصْرِ وَمُنِحَ مِنَ ٱلثَّبَاتِ وَتَعْظِيمُ مَا يُسِّرَ مِنَ ٱلْفَتْحِ ثُمَّ مَا وُصِفَ بَعْدَ ذٰلِكَ مِنْ عَزْمٍ وَإِقْدَامٍ وَصَبْرٍ وَجَلَدٍ عَنِ ٱلْمَلِكِ وَعَنْ جَيْشِهِ حَسُنَ وَنَفَعَهُ فَلَاقَ ذِكْرُهُ وَرَاقَ ٱلتَّوْسِيعُ وَعَذُبَ بَسْطُ

ٱلْـكَلَامِ فِيهِ فَإِنَّهُ مُتَرَتِّبٌ عَلَى مَا قَدَّمْنَا مِنْ نِسْبَـةِ ٱلنَّصْرِ إِلَى وَاهِبِهِ وَٱلْجَلَدِ إِلَى مُعْطِيـهِ وَٱلثَّبَاتِ إِلَى ٱلْمُوَفِّقِ لَهُ ثُمَّ كُلَّمَا ٱتَّسَعَ مَجَالُ ٱلْـكَلَامِ فِي ذِكْرِ ٱلْمُوَافَقَـةِ وَوَصْفِهَا كَانَ أَحْسَنَ وَأَدَلَّ عَلَى ٱلْبَلَاغَةِ وَأَدْعَى لِسُرُورِ ٱلْمَمْدُوحِ وَأَحْسَنَ لِمَوْقِعِ ٱلنِّعْمَـةِ عِنْدَهُ وَأَشْهَى إِلَى سَمْعِهِ وَأَشْفَى لِغَلِيلِ شَوْقِهِ إِلَى مَعْرِفَـةِ ٱلْحَالِ عَلَى جَلِيَّتِهِ وَلَا بَأْسَ بِتَهْوِيلِ أَمْرِ ٱلْعَدُوِّ وَوَصْفِ جَمْعِهِ وَإِقْدَامِهِ فَإِنَّ فِي تَصْغِيرِ أَمْرِهِ تَحْقِيرَ ٱلظَّفَرِ بِهِ

البحث الثاني

في خطب التقليد

(من الكتاب نفسه)

ٱلْأَحْسَنُ مِنْهَا بَسْطُ ٱلْـكَلَامِ وَتُعْتَبَرُ كَثْرَتُهُ وَقِلَّتُـهُ بِحَسَبِ ٱلرُّتَبِ وَيَجِبُ أَنْ يُرَاعَى فِيهَا أُمُورٌ مِنْهَا بَرَاعَةُ ٱلِٱسْتِهْلَالِ بِذِكْرِ ٱلرُّتْبَةِ أَوِ ٱلْحَالِ وَقَدْرِ ٱلنِّعْمَةِ أَوْ لَقَبِ صَاحِبِ ٱلتَّقْلِيـدِ أَوِ ٱسْمِهِ لَا يَكُونُ ٱلْمَطْلَعُ أَجْنَبِيًّا مِنْ هٰذِهِ ٱلْأَحْوَالِ وَلَا بَعِيـدًا مِنْهَا وَلَا مُبَايِنًا لَهَا ثُمَّ يَسْتَصْحِبُ مَا يُنَاسِبُ ٱلْغَرَضَ وَيُوَافِقُ ٱلْمَقْصَدَ مِنْ أَوَّلِ ٱلْخُطْبَةِ إِلَى آخِرِهَا وَيَحْسُنُ أَنْ يَكُونَ ٱلْـكَلَامُ مُنْقَسِمًا فِي ٱلتَّقْلِيـدِ عَلَى أَرْبَعَةِ أَقْسَامٍ مُتَقَارِبَةِ ٱلْمَقَادِيرِ فَٱلرُّبْعُ ٱلْأَوَّلُ ٱلْخُطْبَـةُ وَٱلثَّانِي ذِكْرُ مَوْقِعِ ٱلْإِنْعَامِ فِي حَقِّ ٱلْمُقَلَّدِ وَذِكْرُ ٱلرُّتْبَـةِ وَتَفْخِيمُ أَمْرِهَا

وَٱلثَّالِثُ فِي اَوْصَافِ ٱلْمُقَلَّدِ وَذِكْرِ مَا يُنَاسِبُ تِلْكَ ٱلرُّتْبَةَ وَيُنَاسِبُ حَالَهُ مِنْ عَدْلٍ وَسِيَاسَةٍ وَمَهَابَةٍ وَبُعْدِ صِيتٍ وَسُمْعَةٍ وَشَجَاعَةٍ اِنْ كَانَ نَائِبًا وَوَصْفِ ٱلْعَدْلِ وَٱلرَّأْيِ وَحُسْنِ ٱلتَّدْبِيرِ وَٱلْمَعْرِفَةِ بِوُجُوهِ ٱلْاَمْوَالِ وَعِمَارَةِ ٱلْبِلَادِ وَصَلَاحِ ٱلْاَحْوَالِ وَمَا يُنَاسِبُ ذٰلِكَ اِنْ كَانَ وَزِيرًا وَكَذٰلِكَ فِي كُلِّ رُتْبَةٍ بِحَسَبِهَا. وَٱلرَّابِعُ فِي ٱلْوَصَايَا وَهٰذِهِ هِيَ ٱلْقَاعِدَةُ فِي مِثْلِ ذٰلِكَ وَمِنْهَا تُرَاعَى ٱلْمُنَاسَبَةُ وَمَا يَقْتَضِيهِ ٱلْحَالُ فَلَا يُعْطِي اَحَدًا فَوْقَ حَقِّهِ وَلَا يَصِفُهُ بِاَكْثَرَ مِمَّا يُرَادُ مِنْ مِثْلِهِ وَيُرَاعِي اَيْضًا مِقْدَارَ ٱلنِّعْمَةِ وَٱلرُّتْبَةِ فَيَكُونُ وَصْفُ ٱلْمِنَّةِ بِهَا عَلَى مِقْدَارِ ذٰلِكَ وَمِنْهَا اَنْ لَا يَصِفَ ٱلْمُتَوَلِّيَ بِمَا يَكُونُ فِيهِ تَعْرِيضٌ بِٱلْمَعْزُولِ وَتَنْقِيصٌ لَهُ فَاِنَّ ذٰلِكَ مِمَّا يُوغِرُ ٱلصُّدُورَ وَيُورِثُ ٱلضَّغَائِنَ فِي ٱلْقُلُوبِ وَيَدِلُّ عَلَى ضَعْفِ ٱلْآرَاءِ فِي ٱخْتِيَارِ ٱلْاَوَّلِ وَلَهُ اَنْ يَصِفَ ٱلثَّانِيَ بِمَا يَحْصُلُ بِهِ ٱلْمَقْصُودُ مِنْ غَيْرِ تَعْرِيضٍ بِٱلْاَوَّلِ وَمِنْهَا اَنْ يَتَخَيَّرَ ٱلْكَلَامَ وَٱلْمَعَانِيَ فَاِنَّهُ مِمَّا يَشِيعُ وَيَذِيعُ وَلَا يُعْذَرُ ٱلْمُقَصِّرُ فِي ذٰلِكَ بِعَجَلَةٍ وَلَا ضِيقٍ فَاِنَّ مَجَالَ ٱلْكَلَامِ عَلَيْهِ مُتَّسِعٌ وَٱلْبَلَاغَةُ تَظْهَرُ فِي ٱلْقَلِيلِ وَٱلْكَثِيرِ وَٱلْاَمْرُ ٱلْجَارِي فِي ذٰلِكَ عَلَى ٱلْعَادَةِ مَعْرُوفٌ وَفِي اَيْدِي ٱلنَّاسِ مِمَّا كُتِبَتْ فِيهِ شَيْءٌ كَثِيرٌ لٰكِنْ تَقَعُ اَشْيَاءُ خَارِجَةٌ عَنِ ٱلْعَادَةِ فَيَحْتَاجُ ٱلْكَاتِبُ اِلَى ٱلتَّصَرُّفِ فِيهَا عَلَى مَا يَقْتَضِيهِ ٱلْحَالُ



البحث الثالث

في الارتجال والبديهة واشارات الخطيب

(من كتاب بدائع البدائه والعقد الفريد)

قِيلَ اِنَّ ٱلِارْتِجَالَ فِي ٱللُّغَةِ مَأْخُوذٌ مِنَ ٱلِٱنْصِبَابِ وَٱلسُّهُولَةِ وَمِنْهُ قِيلَ : شَعْرٌ رَجْلٌ اِذَا كَانَ سَبِطًا غَيْرَ جَعْدٍ وَمُسْتَرْسِلًا غَيْرَ مُنْقَبِضٍ. وَقِيلَ مِنِ ٱرْتَجَلَ ٱلْبِئْرَ وَهُوَ اَنْ يَنْزِلَهَا ٱلرَّجُلُ بِرِجْلَيْهِ مِنْ غَيْرِ حَبْلٍ فَكَاَنَّهُمْ شَبَّهُوا ٱقْتِدَارَ ٱلشَّاعِرِ عَلَى ٱلْقَوْلِ مِنْ غَيْرِ فِكْرَةٍ وَلَا اُهْبَةٍ بِٱقْتِدَارِ نَازِلِ ٱلْبِئْرِ عَلَى ٱلنُّزُولِ مِنْ غَيْرِ حَبْلٍ وَلَا آلَةٍ. وَٱلْبَدِيهَةُ مُشْتَقَّةٌ مِنْ بَدَهَ يَبْدَهُ بِمَعْنَى بَدَاَ يَبْدَاُ اَبْدَلُوا ٱلْهَمْزَةَ هَاءً لِقُرْبِهَا مِنْهَا كَمَا قَالُوا : لَهِنَّكَ بِمَعْنَى لَاَنَّكَ وَكَمَا اَبْدَلُوا ٱلْحَاءَ اَيْضًا بِٱلْهَاءِ لِقُرْبِهَا مِنْهَا فَقَالُوا مَدَحَ وَمَدَهَ. وَٱشْتِقَاقَا ٱلِارْتِجَالِ وَٱلْبَدِيهَةِ وَاِنْ كَانَا مُتَقَارِبَيْنِ اِلَّا اَنَّ اَهْلَ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ مَيَّزُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا عَنِ ٱلْآخَرِ بِمَا سَنَذْكُرُهُ فَنَقُولُ :

ٱلِارْتِجَالُ هُوَ اَنْ يَقُولَ ٱلْقَائِلُ مَا يَقُولُ فِي اَوْحَى مِنْ خَطْفِ ٱلْبَارِقِ وَٱخْتِطَافِ ٱلسَّارِقِ وَاَسْرَعَ مِنِ ٱلْتِمَاحِ ٱلْوَامِقِ وَنُفُوذِ ٱلسَّهْمِ ٱلْمَارِقِ حَتَّى يُخَالَ مَا يُعْمَلُ مَحْفُوظًا اَوْ مَرْئِيًّا مَلْحُوظًا مِنْ غَيْرِ حَاجَةٍ اِلَى كِتَابَةٍ وَلَا تَعَلُّلٍ بِتَقْفِيَةٍ وَتَنْفَرِدُ عِنْدَ ذٰلِكَ قَضِيَّةُ ٱلْحَالِ بِٱخْتِرَاعِ ٱلْوَزْنِ وَٱلْقَافِيَةِ وَهُمُ ٱلشُّهُودُ ٱلْعُدُولُ ٱلَّذِينَ يَجِبُ ٱلرُّجُوعُ

إِلَيْهِمْ وَلَا يَجُوزُ عَنْهُمُ ٱلْعُدُولُ بِٱلشَّهَادَةِ عَلَى ٱسْتِطَاعَتِهِ وَأَنَّ ذَٰلِكَ ٱلْمَنْظُومَ ٱبْنُ سَاعَتِهِ. وَٱلْبَدِيهَةُ أَنْ يَنْزِلَ عَلَى هٰذِهِ ٱلطَّبَقَةِ قَلِيلًا وَيُفَكِّرَ مُقَصِّرًا لَا مُطِيلًا فَإِنْ أَطَالَ ذُو ٱلْبَدِيهَةِ ٱلْفِكْرَةَ ٱنْعَكَسَتِ ٱلْقَضِيَّةُ وَخَرَجَتْ مِنْ حَدِّ ٱلْبَدِيهَةِ إِلَى حَدِّ ٱلرَّوِيَّةِ وَعِنْدَ ذَٰلِكَ تَقْصُرُ نَهْضَةُ ٱلِٱقْتِدَارِ عَنْ بُلُوغِ ذَٰلِكَ ٱلْمِضْمَارِ إِذِ ٱلْمُرْتَجِلُ وَٱلْبَادِهُ يُقْنَعُ مِنْهُمَا بِٱلرَّدِيِّ ٱلْيَسِيرِ وَلَا يُقْنَعُ مِنُ ٱلْمُرَوِّي إِلَّا بِٱلْجَيِّدِ ٱلْكَثِيرِ وَكَفَاكَ فِي ذِكْرِهِمَا قَوْلُ ٱبْنِ ٱلْمُعْتَزِّ:

وَٱلْفِكْرُ قَبْلَ ٱلْقَوْلِ يُؤْمِنُ زَيْغَهُ ... شَتَّانَ بَيْنَ رَوِيَّةٍ وَبَدِيهِ

وَقَوْلُ ٱبْنِ جُرَيْجٍ:

نَارُ ٱلرَّوِيَّةِ نَارٌ تُلْقَى مُنْضِجَةً ... وَلِلْبَدِيهَةِ نَارٌ ذَاتُ تَلْوِيحِ
وَقَدْ يُفَضِّلُهَا قَوْمٌ لِعَاجِلِهَا ... لٰكِنَّهَا عَاجِلٌ يَمْضِي مَعَ ٱلرِّيحِ

وَحَسْبُكَ بِهَرَبِ إِمَامِ ٱلشُّعَرَاءِ وَفَاتِكِهِمْ مِنَ ٱلْبَدِيهَةِ فَمَا ظَنُّكَ بِٱلِٱرْتِجَالِ وَإِذَا كَانَ عَبْدُ ٱللهِ بْنُ وَهْبٍ ٱلرَّاسِيِّ رَئِيسُ ٱلْخَوَارِجِ فِي يَوْمِ ٱلنَّهْرَوَانِ يَقُولُ وَهُوَ ٱلْبَدَوِيُّ ٱلْفَصِيحُ وَٱلْعَرَبِيُّ ٱلصَّرِيحُ إِيَّاكُمْ وَٱلرَّأْيَ ٱلْفَطِيرَ وَٱلْكَلَامَ ٱلْقَضِيبَ يَقُولُ هٰذَا فِي مُطْلَقِ ٱلْكَلَامِ وَهُوَ غَيْرُ مُقَيَّدٍ بِوَزْنٍ وَلَا قَافِيَةٍ فَكَيْفَ ٱلظَّنُّ بِٱلْمُقَيَّدِ بِهِمَا لَعَمْرِي أَنَّهُ لَمَقَامٌ يَجْبُنُ فِيهِ ٱلشُّجَاعُ وَيَكْذِبُ فِيهِ رَائِدُ ٱلْفِكْرِ فِي طَلَبِ ٱلِٱنْتِجَاعِ.

قَالَ مُحَمَّدٌ كَاتِبُ إِبْرَاهِيمَ وَكَانَ شَاعِرًا رَاوِيًا وَطَالِبًا لِلنَّحْوِ عَلَّامَةً قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا دَاوُدَ وَجَرَى شَيْءٌ مِنْ ذِكْرِ ٱلْخُطَبِ وَتَمْيِيزِ ٱلْكَلَامِ.

فقال: تلخيص المعاني رفق والاستعانة بالغريب عجز والتشادق في غير اهل البادية نقص والنظر في عيوب الناس عيّ ومس اللحية هلك والخروج مما بني عليه الكلام اسهاب (فقال) وسمعته يقول رأس الخطابة الطبع وعمودها الدربة وحليها الاعراب وبهاؤها تخير اللفظ والمحبة مقرونة بقلة الاستكراه وانشدني بيتاً في خطبة اياد

يومون باللفظ الخفي وتارة   رمي الملاحظ خيفة الرقباء

(وقال) ابن الاعرابي قلت للفضل ما الايجاز عندك قال حذف الفضول وتقريب البعيد (وتكلم) ابن السماك يوماً وجارية له تسمع فلما دخل قال لها كيف سمعت كلامي قالت الى ان تفهمه من لم يفهمه مله من فهمه

البحث الرابع

في خطب الوعاظة

(من كتاب التبيان للجاحظ وكتاب العقد الفريد

وزهر الاداب للحصري بتصرف)

قال ابن الجوزي في المنتخب. لما كانت المواعظ مندوبا اليها بقوله: فذكر فان الذكرى تنفع المؤمنين وقوله لعماله تعاهدوا الناس بالتذكرة. ولان ادواء القلوب تفتقر الى ادوية كما تحتاج امراض البدن الى معالجة الفت في هذا

ٱلفنّ كتبًا تشتمل على اصوله وفروعه وكان السلف يقتنعون من المواعظ باليسير من غير تحسين لفظ او زخرفة نطق ومن تأمل مواعظ الحسين بن علي وغيره مما اشرت اليه. وكذلك كانت الفقهاء في قديم الزمان يتناظرون من غير معارضة في تسمية قياس علة او قياس شبه ونرجو ان يكون ما اخذت من الالفاظ والاسامي لا يخرج عن مرضاة الاوائل ولذلك ما اخذت من العلماء المذكورين من تحسين لفظ او تسجيع وعظ ولا يخرج من قانون الجواد وما ذاك الا بمثابة جمع القرآن الذي ابتدأ به ابو بكر وثنّى به عثمان في شهر رمضان واذن لتميم الداري ان يقص ومثل هذه لا تذم لكونها ابتدعت اذ ليست تخارج عن الاصل المشروع وقال الحسن القصص بدعة كم من اخ يستفاد ودعوة تستجاب

قال بعض القدماء ان الوعظ حبل الله الممدود وعهده المعهود وظله العميم وصراطه المستقيم وحجته الكبرى ومحجته الوسطى وهو الواضح سبيله الراشد دليله الذي من استضاء بمصابيحه ابصر ونجا ومن اعرض عنه ضل وهوى حجة الله وعهده ووعيده ووعده به يعلم الجاهل ويعمل العالم العامل ويتنبه الساهي ويتذكر اللاهي بشير الثواب ونذير العقاب وشفاء الصدور وجلاء الامور من فضائله انه يقرأ دائمًا ويكتب ويملى ولا يمل ما اهون الدنيا على من جعل الدين امامه وتصور الموت امامه قال بعض الحكماء الحكمة موقظة للقلوب من سنة الغفلة ومنقذة للبصائر من سكرة

الحَيرَةِ وَمُحْيِيَةٌ لَهَا مِنْ مَوتِ الجَهالَةِ وَمُسْتَخْرِجَةٌ لَهَا مِنْ ضِيقِ الضَلَالَةِ وَالعِلْمُ دَوَاءٌ لِلقُلُوبِ العَلِيلَةِ وَمَشْحَذٌ لِلأَذهَانِ الكَلِيلَةِ وَنُورٌ فِي الظُلْمَةِ وَأُنسٌ فِي الوَحْشَةِ وَصَاحِبٌ فِي الوَحْدَةِ وَسَمِيرٌ فِي الخَلوَةِ وَرَوضَةٌ فِي المَجلِسِ وَمَادَّةٌ لِلعَقلِ وَتَلْقِيحٌ لِلفَهْمِ وَنَافٍ لِلعِيِّ المُزرِي بِأَهلِ الأَحسَابِ المُقصِرِ بِذَوِي الأَلبَابِ أَنطَقَ اللهُ سُبْحَانَهُ أَهلَهُ بِالبَيَانِ الَّذِي جَعَلَهُ صِفَةً لِكَلَامِهِ فِي تَنزِيلِهِ وَأَيَّدَهُ رُسُلَهُ إِيضَاحًا لِلمُشكِلَاتِ وَفَصْلًا بَينَ الشُبُهَاتِ شَرَّفَ بِهِ الوَضِيعَ وَأَعَزَّ بِهِ الذَلِيلَ وَسَوَّدَ بِهِ المُسَوَّدَ مَنْ تَحَلَّى بِغَيرِهِ فَهُوَ مُعَطَّلٌ وَمَنْ تَعَطَّلَ مِنْهُ فَهُوَ مُغَفَّلٌ لَا تُبلِيهِ الأَيَامُ وَلَا تَختَرِمُهُ الدُهُورُ يَتَجَدَّدُ عَلَى الِابتِذَالِ وَيَذكُو عَلَى الإِنفَاقِ لِلهِ عَلَى مَنْ بِهِ مِنْ عِبَادِهِ الحَمْدُ وَالشُكْرُ. قِيلَ لِعَمرِو بنِ عُبَيدٍ مَا البَلَاغَةُ قَالَ مَا بَلَغَكَ الجَنَّةَ وَعَدَلَ بِكَ عَنِ النَّارِ وَبَصَّرَكَ مَوَاقِعَ رُشدِكَ وَعَوَاقِبَ عَمَلِكَ. قَالَ السَّائِلُ لَيسَ هٰذَا أُرِيدُ قَالَ مَنْ لَمْ يُحْسِنْ أَنْ يَسكُتَ لَمْ يُحْسِنْ أَنْ يَستَمِعَ وَمَنْ لَمْ يُحْسِنِ الِاستِمَاعَ لَمْ يُحْسِنِ القَولَ قَالَ لَيسَ هٰذَا أُرِيدُ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ إِنَّا مَعشَرَ الأَنبِيَاءِ فِينَا تَلَكَّأٌ أَيْ قِلَّةُ الكَلَامِ وَكَانُوا يَكرَهُونَ أَنْ يَزِيدَ مَنطِقُ الرَّجُلِ عَلَى عَقلِهِ. قَالَ السَّائِلُ لَيسَ هٰذَا أُرِيدُ. قَالَ: كَانُوا يَخَافُونَ مِنْ فِتنَةِ القَولِ وَمِنْ سَقَطَاتِ الكَلَامِ مَا لَا يَخَافُونَ مِنْ فِتنَةِ السُكُوتِ وَسَقَطَاتِ الصَّمتِ. قَالَ: لَيسَ هٰذَا أُرِيدُ. قَالَ عَمرٌو: يَا هٰذَا فَكَأَنَّكَ تُرِيدُ تَخَيُّرَ اللَّفظِ فِي حُسْنِ الإِفهَامِ. قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: إِنَّكَ إِنْ أَرَدتَ تَقرِيرَ حُجَّةِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي عُقُولِ

ٱلْمُكَلَّفِينَ وَتَخْفِيفَ ٱلْمُؤْونَةِ عَلَى ٱلْمُسْتَمِعِينَ وَتَزْيِينَ تِلْكَ ٱلْمَعَانِي فِي قُلُوبِ ٱلْمُرِيدِينَ بِٱلْأَلْفَاظِ ٱلْحَسَنَةِ فِي ٱلْآذَانِ ٱلْمَتْوُلَةِ عِنْدَ ٱلْأَذْهَانِ رَغْبَةً فِي سُرْعَةِ إِجَابَتِهِمْ وَنَفْيِ ٱلشَّوَاغِلِ عَنْ قُلُوبِهِمْ بِٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ عَلَى ٱلْكِتَابِ وَٱلسُّنَّةِ كُنْتَ قَدْ أُوتِيتَ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ وَٱسْتَوْجَبْتَ مِنَ ٱللهِ جَزِيلَ ٱلثَّوَابِ

قَالَ ٱبْنُ عَبْدِ رَبِّهِ: وَأَحْكَمُ ٱلْمَوَاعِظِ مَوَاعِظُ ٱللهِ ثُمَّ مَوَاعِظُ ٱلْأَنْبِيَاءِ ثُمَّ مَوَاعِظُ ٱلْآبَاءِ لِلْأَبْنَاءِ ثُمَّ مَوَاعِظُ ٱلْحُكَمَاءِ وَٱلْأُدَبَاءِ ثُمَّ مَقَامَاتُ ٱلْعُبَّادِ بَيْنَ أَيْدِي ٱلْخُلَفَاءِ ثُمَّ قَوْلُهُمْ فِي ٱلزُّهْدِ وَرِجَالِهِ ٱلْمَعْرُوفِينَ بِهِ ثُمَّ ٱلْمَشْهُورِينَ مِنَ ٱلْمُنْتَسِبِينَ إِلَيْهِ وَٱلْمَوْعِظَةُ ثَقِيلَةٌ عَلَى ٱلسَّمْعِ مُتَحَرِّجَةٌ عَلَى ٱلنَّفْسِ بَعِيدَةٌ مِنَ ٱلْقَبُولِ لِٱعْتِرَاضِهَا ٱلشَّهْوَةَ وَمُضَادَّتِهَا ٱلْهَوَى ٱلَّذِي هُوَ رَبِيعُ ٱلْقَلْبِ وَمُرَادُ ٱلرُّوحِ وَمَرْبَعُ ٱللَّهْوِ وَمَسْرَحُ ٱلْأَمَانِيِّ إِلَّا مَنْ وَعَظَهُ عِلْمُهُ وَأَرْشَدَهُ قَلْبُهُ وَأَحْكَمَتْهُ تَجْرِبَتُهُ. قَالَ ٱلشَّاعِرُ:

لَنْ تَرْجِعَ ٱلنَّفْسُ عَنْ غَيِّهَا ... حَتَّى يُرَى مِنْهَا لَهَا وَاعِظُ

(وَقَالَتِ ٱلْحُكَمَاءُ) ٱلسَّعِيدُ مَنْ وُعِظَ بِغَيْرِهِ وَلَا يَعْنُونَ مَنْ وَعَظَهُ غَيْرُهُ وَلٰكِنْ مَنْ رَأَى ٱلْعِبَرَ فِي غَيْرِهِ فَٱتَّعَظَ بِهَا فِي نَفْسِهِ وَلِذٰلِكَ كَانَ يَقُولُ ٱلْحَسَنُ: ٱقْرَعُوا هٰذِهِ ٱلنُّفُوسَ فَإِنَّهَا طَلِعَةٌ وَحَادِثُوهَا بِٱلذِّكْرِ فَإِنَّهَا سَرِيعَةُ ٱلدُّثُورِ وَٱعْصُوهَا فَإِنَّهَا إِنْ أُطِيعَتْ نَزَعَتْ فِي ٱلشَّرِّ غَايَةً وَكَانَ يَقُولُ عِنْدَ ٱنْقِضَاءِ مَجْلِسِهِ وَخَتْمِ مَوْعِظَتِهِ يَا لَهَا مِنْ مَوْعِظَةٍ لَوْ صَادَفَتْ مِنَ ٱلْقُلُوبِ حَيَاةً. وَكَانَ ٱبْنُ ٱلسَّمَّاكِ يَقُولُ

إِذَا فَرَغَ مِنْ كَلَامِهِ: أَلْسُنٌ تَصِفُ وَقُلُوبٌ تَعْرِفُ وَأَعْمَالٌ تُخَالِفُ. وَقَالَ يُونُسُ بْنُ عُبَيْدٍ: لَوْ أُمِرْنَا بِالْجَزَعِ لَصَبَرْنَا يُرِيدُ ثِقَلَ الْمَوْعِظَةِ عَلَى السَّمْعِ وَجُنُوحَ النَّفْسِ إِلَى مُخَالَفَتِهَا. وَمِنْهُ قَوْلُهُمْ: (أَحَبُّ شَيْءٍ إِلَى الْإِنْسَانِ مَا مُنِعَا). وَقَوْلُهُمْ: وَالشَّيْءُ يُرْغَبُ فِيهِ حِينَ يُمْتَنَعُ وَالْمَوْعِظَةُ مَانِعَةٌ لَكَ مِمَّا تَشْتَهِي حَامِلَةٌ لَكَ عَلَى مَا تَكْرَهُ إِلَّا أَنْ تَلْقَاهَا بِسَمْعٍ قَدْ فَتَقَتْهُ الْعِبْرَةُ وَقَلْبٍ قَدَحَتْ فِيهِ الْفِكْرَةُ وَنَفْسٍ لَهَا مِنْ عِلْمِهَا زَاجِرٌ وَمِنْ عَقْلِهَا رَادِعٌ فَيُفْتَحُ لَكَ بَابُ التَّوْبَةِ وَيُوضَحُ لَكَ سَبِيلُ الْإِنَابَةِ (قَالَ النَّبِيُّ) حُفَّتِ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ وَحُفَّتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ يُرِيدُ أَنَّ الطَّرِيقَ إِلَى الْجَنَّةِ احْتِمَالُ الْمَكْرُوهِ فِي الدُّنْيَا وَالطَّرِيقَ إِلَى النَّارِ رُكُوبُ الشَّهَوَاتِ وَخَيْرُ الْمَوْعِظَةِ مَا كَانَتْ مِنْ قَائِلٍ مُخْلِصٍ إِلَى سَامِعٍ مُنْصِفٍ (وَقَالَ بَعْضُهُمْ) الْكَلِمَةُ إِذَا خَرَجَتْ مِنَ الْقَلْبِ وَقَعَتْ فِي الْقَلْبِ وَإِذَا خَرَجَتْ مِنَ اللِّسَانِ لَمْ تُجَاوِزِ الْآذَانَ. وَقَالُوا مَا أَحْسَنَ التَّاجَ. وَهُوَ عَلَى رَأْسِ الْمَلِكِ أَحْسَنُ. وَمَا أَحْسَنَ الدُّرَّ. وَهُوَ عَلَى نَحْرِ الْفَتَاةِ أَحْسَنُ وَمَا أَحْسَنَ الْمَوْعِظَةَ. وَهِيَ مِنَ الْفَاضِلِ التَّقِيِّ أَحْسَنُ. (وَقَالَ زِيَادٌ) أَيُّهَا النَّاسُ لَا يَمْنَعْكُمْ سُوءُ مَا تَعْلَمُونَ مِنَّا أَنْ تَنْتَفِعُوا بِأَحْسَنِ مَا تَسْمَعُونَ مِنَّا. قَالَ الشَّاعِرُ:

اِعْمَلْ بِقَوْلِي وَإِنْ قَصَّرْتُ فِي عَمَلِي

يَنْفَعْكَ قَوْلِي وَلَا يَضْرُرْكَ تَقْصِيرِي

البحث الخامس

في غاية الوعظ

(من كتاب الغصن الرطيب للمقري)

قَالَ لِسَانُ ٱلدِّينِ بْنُ ٱلْخَطِيبِ فِي ٱلرَّوْضَةِ فِي مُحَرِّكَاتِ ٱلْعَزِيمَةِ وَهِيَ ٱلْيَقَظَةُ مَا نَصُّهُ قُلْتُ وَٱلْمُحَرِّكَاتُ ٱلْمُشْتَرِكَاتُ فِي بَاعِثِ ٱلْيَقَظَةِ كَثِيرَةٌ مِنْهَا ٱلْوَعْظُ ٱلسَّائِقُ بِعُقُودِ ٱلشَّارِدِ عَنِ ٱللهِ تَعَالَى إِلَى مَرْبَطِ ٱلتَّوْبَةِ وَمُحَرِّكُ ٱلْعَزِيمَةِ يُرَدِّدُ آذَانَهُ عَلَى نُوَّامِ أَهْلِ ٱلْكَهْفِ وَقَدْ ضَرَبَ نَوْمُ ٱلْغَفْلَةِ عَلَى آذَانِهِمْ حَتَّى يَحُولَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ آذَانِهِمْ وَيُرْكِبَهُمْ ظَهْرَ ٱلرِّيَاضَةِ حَتَّى تَلْحَقَهُمْ بِٱلْمَجْذُوبِينَ مِنْ إِخْوَانِهِمْ وَلَمَّا كَانَ حُبُّ ٱلدُّنْيَا هُوَ ٱلْمَانِعَ عَنِ ٱلشُّرُوعِ فِي إِطْلَاقِ ٱلْعَمَلِ وَٱلْقَاطِعَ بِهِ لِمَا بَعْدَهُ لَمْ نَجِدْ إِسَاءَةَ خَبَلِ ٱلْهَوَى وَجُنُونَ ٱلْكَسَلِ أَنْجَعَ مِنْ وَقْيِ ٱلْعَذْلِ وَٱلتَّأْنِيبِ وَتَشْبِيحِ ٱلْمَحْبُوبِ سِيَّمَا إِذَا ٱنْتَزَعَتْ نِبَالُ نَبْلِهِ عَنْ حَنِيَّاتِ ضُلُوعِ ٱلصِّدْقِ وَقَالَ بَعْضُهُمْ ٱلْكَلَامُ إِذَا خَرَجَ مِنَ ٱلْقَلْبِ دَخَلَ ٱلْقَلْبَ

اَوْقِدِ ٱلنَّارَ مِنْ رِسَالَةِ لَيْلَى ... وَٱحْذَرِ ٱلسَّيْلَ بَعْدَهَا مِنْ دُمُوعِي

وَلَا تَعْدِلِ ٱلْوَعْظَ ٱلْبَلِيغَ بِٱللِّسَانِ ٱلْفَصِيحِ وَٱلْقَلْبِ ٱلْقَرِيحِ فَإِذَا رَأَيْتَ ٱلْأَرْضَ قَدِ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَهِضَابَ ٱلْقُلُوبِ ٱلْقَاسِيَةِ قَدْ تَقَلَّبَتْ فَشَمِّرْ لِلْغِرَاسِ وَٱلزِّرَاعِ عَنِ ٱلذِّرَاعِ وَٱغْتَنِمِ ٱلسِّرَاعَ وَٱلْإِسْرَاعَ

إِذَا هَبَّتْ رِيَاحُكَ فَٱغْتَنِمْهَا ... فَإِنَّ لِكُلِّ خَافِقَةٍ سُكُونَا

وَكَقَوْلِ ٱلْآخَرِ:

حقِّرْ لها ماءً يُريها بداءةً　　وَٱضمنْ لها حوضاً وإنْ لم تُحفَرِ
وَٱرْبأْ بنفسِكَ عن تسامحِ بائعٍ　　وَٱغنمْ إذا سامتْكَ نُهزةَ مشتري

قالوا ٱلوعظ يضربُ وجهَ ٱلنفسِ عن ٱلتثبُّطِ في بساطِ ٱللذّاتِ وينقلُ خطراتِها عن ٱلخطوِ في ملعبِ ٱلخطيئاتِ ويمثّلُ لها ٱلصبرَ عياناً ويبيّنُ ٱلعواقبَ ٱلمُحجَّبةَ بياناً ويُنشئُ سحابَ ٱلحزنِ في أجوافِ أجزائِها ويذكّرُها بآلِها وٱنتهائِها ويعرضُ عن مصارعِ فنائِها وخرابِ بنائِها وفراقِ حبائبِها وأبنائِها عندَ نزولِ هادمِ ٱللذّاتِ بفنائِها فترجعُ إلى ٱللهِ تعالى بحكمِ ٱلاضطرارِ أفكارُها وتخشعُ من خيفةِ ٱللهِ تعالى وجلالِهِ أبصارُها وٱلوعظُ يكونُ بلسانَيْنِ ويوجدُ فنَّيْنِ لسانَ حالٍ ولسانَ مقالٍ وربّما كانَ لسانُ ٱلحالِ أبلغَ وهو يُسمَعُ من ٱلقبورِ ٱلموحشةِ وٱلقصورِ ٱلخاليةِ وٱلعظامِ ٱلباليةِ وفيهِ حكاياتٌ وأخبارٌ. ولسانُ مقالٍ كقولِهِ سبحانَهُ وتعالى وسكنتُمْ في مساكنِ ٱلذينَ ظلموا أنفسَهُمْ وتبيّنَ لكُمْ كيفَ فعلْنا بهِمْ وضربْنا لكُمُ ٱلأمثالَ وهو سبيلُ ٱللهِ تعالى ٱلتي بعثَ بها ٱلنبيّينَ وضمّنَ فصولَها ٱلكتابَ ٱلمبينَ وٱلسوطَ ٱلذي يحملُ على ٱلأوبةِ ويسوقُ دوَدَ ٱلمتطهّرينَ إلى غديرِ ٱلتوبةِ ونحنُ نجعلُهُ هنيمةً بينَ يدَيِ ٱلفراسةِ لتذكيةِ ٱلنفوسِ إنْ صدقَ حكمُ ٱلفراسةِ من ذاكَ فمنْ ذلكَ ما صدرَ عنّي على لسانِ واعظٍ



البحث السادس

في فوائد الوعظ وجهل كثيرين من الخطباء في هذا الفن

(من كتاب الكلم الثمان للشيخ الحسين المرصفي)

وَلَمَّا كَانَ ٱلْإِنسَانُ مَوْضِعًا لِلسَّهْوِ وَٱلنِّسْيَانِ وَمَحَلًّا لِلذُّهُولِ وَٱلْغَفْلَةِ لِمَا يَعْتَوِرُهُ وَيَكْتَنِفُهُ مِنَ ٱلْأَهْوَاءِ وَٱلشَّهَوَاتِ ٱلَّتِي بِٱتِّبَاعِهَا وَٱلِٱنْقِيَادِ مَعَهَا يَدْخُلُ ٱلِٱخْتِلَالُ عَلَى ٱلنِّظَامِ ٱلْكُلِّيِّ وَٱلْمَصْلَحَةِ ٱلْعَامَّةِ ثُمَّ يَسْرِي بِغَايَةِ ٱلسُّرْعَةِ إِلَى ٱلنِّظَامَاتِ ٱلْجُزْئِيَّةِ وَٱلْمَصَالِحِ ٱلْخَاصَّةِ فَيُضْحِي ٱلْغَنِيُّ فَقِيرًا وَٱلْقَادِرُ عَاجِزًا وَٱلشُّجَاعُ جَبَانًا وَٱلذَّكِيُّ غَبِيًّا وَٱلْفَطِنُ بَلِيدًا وَيَصِيرُ ٱسْمُ ٱلْبَهَائِمِ أَوْلَى بِهِمْ مِنِ ٱسْمِ ٱلْأَنَاسِيِّ بَلْ كَانَتِ ٱلْبَهَائِمُ أَحْسَنَ حَالًا مِنْهُمْ كَمَا سَلَفَ وَكَانُوا مَوْضِعَ قَوْلِهِ : إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا. تَعَيَّنَ أَنْ يَصْحَبَهُ مُذَكِّرٌ دَائِمٌ وَوَاعِظٌ مُسْتَمِرٌّ يَهْدِيهِ إِلَى قَصْدِ ٱلسَّبِيلِ وَجَادَّةِ ٱلْمَحَجَّةِ كُلَّمَا جَارَتْ بِهِ ٱلْخَيَالَاتُ ٱلْفَاسِدَةُ وَٱلْوَسَاوِسُ ٱلرَّدِيئَةُ. وَلِتَحْصِيلِ ذٰلِكَ وَرَدَ ٱلْأَمْرُ فِي قَوْلِهِ وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ. فَقَدْ أَبَانَ أَنْ لَا صَلَاحَ لِلْكَافَّةِ إِلَّا بِوُجُودِ أُمَّةٍ تَكُونُ وَظِيفَتُهَا دُعَاءَ ٱلنَّاسِ لِلْخَيْرِ وَصَرْفَهُمْ عَنْ نَاحِيَةِ ٱلشَّرِّ وَأَمْرَهُمْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهْيَهُمْ عَنِ ٱلْمُنْكَرِ. وَنَوَّهَ بِمِقْدَارِ هٰذِهِ ٱلْأُمَّةِ إِذَا وُجِدَتْ وَنَبَّهَ عَلَى شَرَفِهَا وَفَضْلِ مَكَانِهَا حَيْثُ جَعَلَهَا مُخْتَصَّةً بِٱلْفَلَاحِ

وَٱلْفَوْزِ بِحَقِيقَةِ ٱلسَّعَادَةِ إِذْ قَدْ تَكُونُ هِيَ فِي نَفْسِهَا صَالِحَةً وَبِهَا يَعُمُّ ٱلصَّلَاحُ فَيَصِيرُ فَلَاحُهَا أَصْلًا لِفَلَاحِ سِوَاهَا فَٱسْتَحَقَّتْ أَنْ يُقَالَ فِيهَا بِعِبَارَةِ ٱلتَّخْصِيصِ وَأُولَئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ وَإِنَّمَا يُمْكِنُ تَأْدِيَةُ تِلْكَ ٱلْوَظِيفَةِ وَٱلْقِيَامُ بِهَا حَقَّ ٱلْقِيَامِ لِقَوْمٍ تَقَدَّسَتْ نُفُوسُهُمْ وَتَنَقَّتْ طِبَاعُهُمْ وَتَهَذَّبَتْ أَخْلَاقُهُمْ وَتَنَوَّرَتْ عُقُولُهُمْ وَصَحَّتْ أَفْهَامُهُمْ وَرَجَحَتْ أَحْلَامُهُمْ وَصَدَقَتْ عَزَائِمُهُمْ وَعَلَتْ هِمَمُهُمْ وَعَرَفُوا أَجْنَاسَ ٱلْخَيْرِ وَأَحَاطُوا بِأَنْوَاعِهِ وَمَيَّزُوهَا مِنْ أَصْنَافِ ٱلشَّرِّ فَرُبَّمَا ٱشْتَبَهَ ٱلْحَالُ وَتَمَثَّلَ كُلٌّ فِي صُورَةِ ٱلْآخَرِ وَلَوْلَا ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ تَمَيُّزُ ٱلْخَيْرِ مِنَ ٱلشَّرِّ أَمْرًا عَسِرًا إِذْ كَانَ ٱلْأَسَاسُ ٱلضَّرَرَ وَٱلنَّفْعَ وَلَا تَجِدُ أَحَدًا يَجْهَلُهُمَا وَلَكِنْ رُبَّ ضَارٍّ فِي ٱلْحَالِ نَافِعٌ فِي ٱلْمَآلِ فَيَكُونُ خَيْرًا وَرُبَّ نَافِعٍ فِي ٱلْحَالِ ضَارٌّ فِي ٱلْمَآلِ فَيَكُونُ شَرًّا وَرُبَّمَا ٱجْتَمَعَتِ ٱلْمَضَرَّةُ وَٱلْمَنْفَعَةُ وَٱسْتَوَتَا أَوْ غَلَبَتْ إِحْدَاهُمَا وَمِنْ هُنَا ثَبَتَ ٱلِٱحْتِيَاجُ لِوُجُودِ أُمَّةٍ تُفَرِّغُ أَنْفُسَهَا لِلِٱشْتِغَالِ بِذَلِكَ حَتَّى تُحْكِمَ أَمْرَهَا ثُمَّ تُلَاحِظُ ٱلنَّاسَ فِي جَمِيعِ حَرَكَاتِهِمْ لِتَدْعُوَهُمْ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَتَأْمُرَهُمْ بِمَا عَرَفَتْهُ خَيْرًا وَتَنْهَاهُمْ عَمَّا أَنْكَرَتْهُ وَعَرَفَتْهُ شَرًّا تَنْصَحُهُمْ بِٱلْتِزَامِ مَا عَرَفُوهُ وَتَدُلُّهُمْ عَلَى مَا جَهِلُوهُ فَأَكْثَرُ ٱلْمَنَافِعِ وَٱلْمَضَارِّ مَعْرُوفٌ بَيِّنٌ لَا يَخْتَلِفُ بِٱلنَّاسِ عِلْمُهُ حَتَّى قِيلَ إِنَّ ٱلدِّينَ أَمْرٌ تَقْتَضِيهِ ٱلطِّبَاعُ وَتَدْفَعُ إِلَيْهِ ٱلْفِطْرَةُ وَلَكِنَّ ٱلْإِنْسَانَ لِغَلَبَةِ هَوَاهُ قَدْ يُبِيحُ لِنَفْسِهِ مَا يُحَكِّمُ عَقْلُهُ بِمَنْعِهِ وَيَجِدُ فِي طَبْعِهِ ٱسْتِقْبَاحَهُ أَلَا تَرَى إِلَى ٱلسَّارِقِ وَٱلْغَاصِبِ كَيْفَ يَسْتَجِيزُ أَنْ يَفْعَلَ

بِغَيْرِهِ مَا لَا يَسْتَجِيزُ أَنْ يَفْعَلَهُ بِهِ غَيْرُهُ. فَمَتَى سُرِقَ مَالُهُ اوِ اغْتُصِبَ مِنْهُ وَجَدَ بِذٰلِكَ فِي قَلْبِهِ حَرَارَةً وَفِي نَفْسِهِ ضِيقًا وَتَشَوَّشَ فِكْرُهُ وَاخْتَلَّتْ حَالُهُ وَبَطَلَ نِظَامُ سَيْرِهِ. وَهُوَ لَا يُرِيدُ ذٰلِكَ. بَلْ يُرِيدُ أَنْ يَدُومَ مُنْشَرِحَ الصَّدْرِ طَيِّبَ النَّفْسِ مُسْتَقِيمَ الاحْوَالِ. فَهُوَ يَحْكُمُ بِقُبْحِ ذٰلِكَ وَحُسْنِ هٰذَا. وَإِنْ كَانَ لَا يُعَبِّرُ عَنْ ذٰلِكَ لِقُصُورِهِ عَنْ مَعْرِفَةِ الالْفَاظِ بِالْحِلِّ وَالْحُرْمَةِ. وَإِلَى ذٰلِكَ الْمَعْنَى الإِشَارَةُ بِقَوْلِهِ الْحَلَالُ بَيِّنٌ وَالْحَرَامُ بَيِّنٌ وَبَيْنَهُمَا أُمُورٌ مُشْتَبِهَاتٌ. وَعَلَى هٰذِهِ الأُمَّةِ أَنْ تَعْرِفَ الْمُتَجَدِّدَاتِ الزَّمَانِيَّةَ لِتَكُونَ أَعْمَالُهَا مُطَابِقَةً لِلاحْوَالِ الْحَاضِرَةِ. فَرُبَّ أَمْرٍ يَكُونُ خَيْرًا فِي عَصْرٍ فَيُضْحِي شَرًّا فِي غَيْرِهِ. وَهَلْ هٰذِهِ الأُمَّةُ كَائِنَةٌ أَوْ كَانَتْ. لَا أُثْبِتُ ذٰلِكَ وَلَا أَنْفِيهِ حَتَّى أُفَاوِضَكَ الْحَدِيثَ فِيهِ. إِنْ قُلْتَ هٰذِهِ الأُمَّةُ مُتَحَقِّقَةٌ فِي خُطَبَاءِ الْمَنَابِرِ. قُلْتُ لَكَ: أَتُرِيدُ بِهِمْ هٰؤُلَاءِ الَّذِينَ تَرَاهُمْ وَتَسْمَعُهُمْ وَهُمْ إِنَّمَا تَمَيَّزُوا عَنْ آخِرِ طَبَقَةٍ مِنْ طَبَقَاتِ الْعَامَّةِ لِتَمَكُّنِهِمْ مِنْ قِرَاءَةِ نَوْعٍ مِنْ أَنْوَاعِ الْخَطِّ. فَغَايَةُ أَمْرِ الْوَاحِدِ مِنْهُمْ أَنْ يَقْرَأَ دِيوَانَ خُطَبٍ صَنَّفَهُ بَعْضُ أَسْلَافِهِ كَمَا تَخَيَّلَ مُنَاسِبًا لِلشُّهُورِ وَالْمَوَاسِمِ. يَتَحَفَّظُ مَا تُعْطِيهِ تِلْكَ النُّقُوشُ مِنْ مَوَادِّ الالْفَاظِ. أَوْ يَنْسَخُ صُورَةَ خُطْبَةٍ لِيَخِفَّ حَمْلُهَا عَلَيْهِ إِذَا قَامَ بِهَا خَطِيبًا. يَسْرُدُ الْفَاظًا حَفِظَهَا أَوْ نَظَرَ حُرُوفَهَا لَا يَعْقِلُ مَعْنَاهَا وَلَا يَفْهَمُ الْمُرَادَ مِنْهَا. كَمَا إِذَا لَمْ يَكُنِ الدِّيوَانُ مَشْكُولًا وَلَمْ يَقْرَإِ الْخُطْبَةَ عَلَى ذِي دِرَايَةٍ سَمِعْتَ مِنْهُ الْمُعْجِبَ وَالْمُطْرِبَ مِنَ اللَّحْنِ الْفَاحِشِ وَالتَّصْحِيفِ الْقَبِيحِ. فَإِنَّ مِنْهُمْ

مَنْ يَخَافُ عَلَى نَفسِهِ ٱنْتِقَادَ ٱلسَّامِعِينَ فَيَقرَأُ ٱلْخُطْبَةَ مِرَارًا عَلَى بَعْضِ اَهْلِ ٱلْمَعْرِفَةِ حَتَّى يَقِفَ عَلَى صِحَّةِ ٱلنُّطقِ بِهَا. وَمِنْهُمْ مَنْ يَقْتَصِرُ عَلَى تَصْحِيحِ ٱلْحَدِيثِ ٱحْتِرَامًا لِكَلَامِ ٱلنَّبِيِّ. وَرُبَّمَا قَرَأَهُ عَلَى رَجُلٍ يُقِيمُهُ لَهُ بِضَاعَةِ ٱلنَّحْوِ فَيَضِلَّانِ جَمِيعًا. اِذْ لَا عَمَلَ لِصِنَاعَةِ ٱلنَّحْوِ اِلَّا بَعْدَ فَهْمِ ٱلْمَعْنَى. وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُبَالِي بِتَصْحِيحِ آيَةٍ وَلَا حَدِيثٍ. مَا اَظُنُّ اَنَّكَ تَسْتَجِيزُ اَنْ تَقُولَ اَرَدتُّ هٰؤُلَاءِ. فَاِنْ قُلْتَ اِنَّمَا اَرَدتُّ خُطَبَاءَ ٱلْاَسْلَافِ قُلْتُ لَكَ: تَجَاوَزْ عَصْرَ ٱلنَّبِيِّ وَعَصْرَ اَصْحَابِهِ ثُمَّ اقْرَأْ خُطَبَ ٱلْخُلَفَاءِ وَنُوَّابِهِمْ فِي ٱلنَّوَاحِي ثُمَّ ٱمْضِ فِي ذٰلِكَ طَبَقَةً بَعْدَ طَبَقَةٍ وَعَصْرًا خَلْفَ عَصْرٍ حَتَّى تَنْتَهِيَ اِلَى وَقْتِكَ هٰذَا تَجِدْ اَنَّ جَمِيعَ ٱلْخُطَبِ يَدُورُ اَمْرُهَا عَلَى مَعَانٍ وَاحِدَةٍ وَاَلْفَاظٍ مُعَيَّنَةٍ لَا تُجَاوِزُهَا. وَهِيَ ٱلتَّزْهِيدُ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلتَّرْغِيبُ فِي ٱلْآخِرَةِ وَتَبْشِيرُ ٱلْمُطِيعِ وَاِنْذَارُ ٱلْعَاصِي. يُكَرِّرُونَ ذٰلِكَ كُلَّ جُمُعَةٍ وَكُلَّ مَوْسِمٍ حَتَّى لَمْ يَبْقَ لَهُ تَأْثِيرٌ وَٱلْتَحَقَ بِٱلْاُمُورِ ٱلْمُعْتَادَةِ. اِنَّمَا يَسْمَعُ ٱلنَّاسُ اَصْوَاتًا ذَاتَ كَيْفِيَّاتٍ مُخْتَلِفَةٍ اِقَامَةً لِذٰلِكَ ٱلرَّسْمِ حَسْبَمَا يَصِلُ اِلَيْهِ فَهْمُ ٱلْعَامَّةِ مِنْ اَنَّ تِلْكَ ٱلصُّورَةَ هِيَ اِقَامَةُ ٱلدِّينِ. وَفِي صِفَةِ خُطَبَاءِ ٱلْعَصْرِ ٱلثَّانِي بَعْدَ عَصْرِ ٱلنَّبِيِّ وَاَصْحَابِهِ يَقُولُ شَاعِرُهُ:

وَذَمُّوا لَنَا ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَرْضَعُونَهَا اَفَاوِيقَ حَتَّى مَا يَدُرُّ لَنَا ثُعْلُ

وَٱلثُّعْلُ بِفَتْحِ اَوَّلِهِ اَوْ ضَمِّهِ وَسُكُونِ ثَانِيهِ زِيَادَةٌ فِي اَطْبَاءِ ٱلنَّاقَةِ وَغَيْرِهَا تُشْبِهُ حَلَمَةَ ٱلثَّدْيِ لَا يَخْرُجُ مِنْهَا فِي ٱلْعَادَةِ لَبَنٌ. وَلَا تَظُنَّ اَنِّي اَنْتَقِصُ بِذٰلِكَ خُطَبَاءَ ٱلْعُصُورِ ٱلْاُولَى فَاِنَّهُمْ كَانُوا يَرَوْنَ

كِفَايَةَ ذَلِكَ لِكَثْرَةِ أَهْلِ ٱلْمَعْرِفَةِ حِينَ ذَاكَ . وَبِٱلْجُمْلَةِ فَكَيْفَمَا كَانَ ٱلْحَالُ فِي ٱلْخَطَابَةِ فَهِيَ غَيْرُ كَافِيَةٍ فِي تَحَقُّقِ ٱلدُّعَاءِ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَٱلْأَمْرِ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّهْيِ عَنِ ٱلْمُنْكَرِ. فَلَا تَكُونُ ٱلْأُمَّةُ مُتَحَقِّقَةً بِخُطَبَاءِ ٱلْمَنَابِرِ . وَإِنْ قُلْتَ : إِنَّهَا ٱلْعُلَمَاءُ قُلْتُ : هٰذَا قَرِيبٌ وَلٰكِنْ نَنْظُرُ . أَمَّا عُلَمَاءُ ٱلصَّدْرِ ٱلْأَوَّلِ جَزَاهُمُ ٱللّٰهُ عَنِ ٱلدِّينِ وَٱلْأُمَّةِ خَيْرًا فَكَانَ ٱشْتِغَالُهُمْ بِجَمْعِ ٱلْأُصُولِ وَتَنْقِيَتِهَا مِنَ ٱلدَّخِيلِ ٱلَّذِي بَادَرَ بِإِدْخَالِهِ أَهْلُ ٱلنِّفَاقِ وَٱلزَّنْدَقَةِ لِأَغْرَاضٍ شَتَّى. مِنْهَا ٱلتَّشْكِيكُ فِي ٱلدِّينِ . وَمِنْهَا ٱلْتِمَاسُ مَا عِنْدَ ٱلْمُلُوكِ وَمِنْهَا ٱبْتِنَاءُ مَنْزِلَةٍ فِي قُلُوبِ ٱلْعَامَّةِ إِلَى غَيْرِ ذٰلِكَ مِمَّا يُحِيطُ بِهِ مَنْ قَرَأَ ٱلتَّوَارِيخَ وَتَأَمَّلَهَا . وَٱجْتِهَادُهُمْ وَبَذْلُ هِمَمِهِمْ فِي تَفْرِيعِ ٱلْفُرُوعِ وَتَقْرِيرِ أَحْكَامِ ٱلْحَوَادِثِ مَا كَانَ مِنْهَا وَمَا لَمْ يَكُنْ يُفْرَضُ وَيُقَدَّرُ حَتَّى إِذَا وَقَعَتِ ٱلْحَادِثَةُ وَجَدَتْ لَهَا حُكْمًا حَاضِرًا وَأَمْرًا كَافِيًا فِي إِنْفَاذِ أَعْمَالِهِمْ مَانِعًا لَهُمْ عَنْ رَاحَةِ أَبْدَانِهِمْ فَكَانَ ٱلْوَاحِدُ مِنْهُمْ يَقُولُ لَا يُنَالُ ٱلْعِلْمُ بِرَاحَةِ ٱلْجِسْمِ . وَأَمَّا مَنْ خَلَفَهُمْ فَكَانَ إِقْبَالُهُمْ عَلَى دَوَاوِينِ مَشْيَخَتِهِمْ يُهَذِّبُونَهَا وَيُجِيدُونَ تَرْتِيبَهَا وَيُوَضِّحُونَ مَا يَحْتَاجُ لِلتَّوْضِيحِ مِنْهَا وَيَسْتَدْرِكُونَ عَلَيْهِمْ مَا فَاتَهُمْ تَخْرِيجًا عَلَى أُصُولِهِمِ ٱلَّتِي قَرَّرُوهَا إِلَى غَيْرِ ذٰلِكَ مِنَ ٱلْأَعْمَالِ نَاظِمًا لَهُمْ فِي سِلْكِ سَلَفِهِمْ . فَكَانَ حُكْمُهُمْ وَاحِدًا لَا يَفْرُغُ لَهُمْ وَقْتٌ يَسْتَعْمِلُونَهُ فِي تَعَهُّدِ ٱلنَّاسِ وَدُعَائِهِمْ إِلَى ٱلْخَيْرِ كَمَا هُوَ وَظِيفَةُ تِلْكَ ٱلْأُمَّةِ . ثُمَّ جَاءَ مِنْ بَعْدِ هٰؤُلَاءِ خَلَفٌ ٱتَّخَذُوا ٱلْجَدَلَ شِرْعَةً وَٱلْمُنَازَعَةَ سَبِيلًا . وَخَرَجَ بِهِمْ ذٰلِكَ

إلى سباب ومشاتمة واحتقار قوم قوماً ورجع بهم إلى القدح في السلف وصار الاختلاف بين أهل المذاهب منشأً لعداوة إن لم تكن فوق العداوة بين أهل الأديان فليست دونها. فكثيراً ما كانت سبباً لتجريد السيوف يقاتل بعضهم بعضاً حتى دخل بينهم الحكام لإصلاحهم وكانوا هم الأولى بذلك. وهو حقهم الذي ما كان ينبغي أن يمكنوا منه غيرهم وصاروا أحزاباً ينحاز كل حزب إلى ملك من ملوك النواحي وصارت المدائن بمنزلة المعاقل والحصون حتى دخل أهلها تحت نظر السياسة وقهرها وبدلت سيوف المنابر بقطع خشب في صورتها تتكي عليها الخطباء حال صعودهم وهبوطهم. وآل أمر العلماء إلى كونهم طائفة من الطوائف المربوبة المسوسة تلحظ حركاتهم أرصاد الحكومة وتأخذهم عيونها منعاً لتعدي بعضهم على بعض وحسماً لمادة الشر بينهم. ولعبت بهم أهواء الملوك الجائرة الجهلة من التتر والديلم وغيرهم. ونشأ من ذلك مفاسد عظيمة منها تمكن كثير من الجهلة الذين أمضوا صدور أعمارهم في اللهو واللعب دون فكرة في تحصيل سبب من أسباب المعيشة حتى دهمهم وقت الاحتياج لذلك من الانتساب إلى العلم وأهله فصنفوا كتباً ملأوها أحاديث كاذبة وحكايات غير معقولة وروجوها على العامة وأكلوا بها الخبز وخلطوا ما ليس من الدين به. فأي مفسدة أكبر من ذلك وليس له سبب إلا افتراق العلماء وإهمالهم أمر الرعاية. ولم يزل الاختلاف الذي هو منشأ تلك

ٱلعداوة مُستترًا يُخفيه ٱلضعفُ وتُظهرُهُ ٱلقوَّةُ كما ترى. فهل يسوغ لكَ بعدَ معرفةِ هذا ان تقولَ إنها ٱلعلماء. وإن قلتَ إنها ٱلوعاظ قلتُ هذا اقربُ فإنَّ ٱلوعاظةَ كانت حرفةً شائعةً وصناعةً فاشيةً كانَ اهلُها يتنافسونها وكثيرٌ منهم اخذَ عليها ٱلرواتبَ من بيوتِ ٱلأموالِ واكثرُهم كانَ يأمُّ بها ٱلقِطعَ منَ ٱلعامَّةِ ٱلذينَ يحضرونَ مجالسهم. فكانَ ٱلواعظ اذا فرغَ من كلامهِ ٱلذي اعدَّهُ لذلكَ ٱلمجلسِ بسطَ منديلَهُ وطرحَ فيهِ كلٌّ ما سمحت بهِ نفسُهُ

وصُنِّفت لأجلِ ٱلوعاظةِ كُتبٌ لقَّبوها بٱلمجالسِ تشتملُ على تفسيرِ آياتٍ من آياتِ ٱلترغيبِ وٱلترهيبِ وبعضِ احاديثَ صحيحةٍ وبعضِ اشعارٍ وحكاياتٍ منْ ذلكَ ٱلوادي. ونموذجُ ذلكَ ما تراهُ في ٱلمسجدِ ٱلحُسينيِّ بعدَ ٱلعصرِ في رمضانَ. وبٱلجملةِ فمحصولُ تلكَ ٱلكتبِ هو محصولُ خُطَبِ ٱلمنابرِ. وإن كانَ بعضُ اهلِ تلكَ ٱلصناعةِ وهم قليلٌ كانوا منَ ٱلفطنةِ وٱلذكاءِ وبراعةِ ٱلمنطقِ وبلاغةِ ٱلعبارةِ بمكانٍ رفيعٍ. فإنَّ اكثرَهُمُ ٱلقُصَّاصُ ٱلجهلةُ ٱلذينَ غايةُ امرِ ٱلواحدِ منهم ان يُلفِّقَ احاديثَ يضعُها او وضعها غيرُهُ يُفرحُ بها نفوسَ ٱلعامَّةِ بما يذكرُ من كثرةِ ٱلثوابِ معَ قلَّةِ ٱلعملِ وما يهوِّنُ من امرِ ٱلمعصيةِ حتّى يكونَ ذلكَ بمنزلةِ ٱلتحريضِ على ٱرتكابِ ٱلشهواتِ وٱلاسترسالِ معَ ٱلأهواءِ وطرحِ ٱلمبالاةِ ٱعتمادًا على ما ركزوهُ في نفوسِهم وشغلوا بهِ عقولَهم من كثرةِ اسبابِ ٱلمغفرةِ وسعةِ ٱلرحمةِ وعظمِ ٱلعفوِ إلى غيرِ ذلكَ. لا

يَتَكَلَّمُونَ فِي سِوَاهُ حَتَّى صَارَ سَبَبًا قَوِيًّا فِي خُمُودِ ٱلطِّبَاعِ وَٱسْتِحْكَامِ ٱلْغَفْلَةِ وَٱلِٱنْصِرَافِ عَنْ تَذَكُّرِ مَعْنَى ٱلِٱجْتِمَاعِ ٱلْإِنْسَانِيِّ وَتَعَقُّلِ ضَرُورَةِ ٱلتَّعَاوُنِ وَٱلتَّفَكُّرِ فِي إِحْكَامِ أَسْبَابِ ٱلتَّعَارُفِ وَٱلتَّوَاصُلِ وَمُحَاوَرَةِ ٱلنَّاسِ بَعْضِهِمْ بَعْضًا فِيمَا يُوجِبُ عِزَّ ٱلْأُمَّةِ وَسَعَادَتَهَا وَسُرُورَ آحَادِهَا وَٱبْتِهَاجَهُمْ بِٱلتَّنَاصُفِ وَإِفْضَالَ ٱلْأَقْوِيَاءِ عَلَى ٱلضُّعَفَاءِ مِنْ ثِمَارِ قِوَاهُمْ فَلَا يَتَلَاقَوْنَ إِلَّا وَصُدُورُهُمْ مُنْشَرِحَةٌ وَقُلُوبُهُمْ فَرِحَةٌ وَثُغُورُهُمْ بَاسِمَةٌ وَوُجُوهُهُمْ مُنْبَسِطَةٌ . قَدْ أَمِنَ بَعْضُهُمْ غَوَائِلَ بَعْضٍ وَتَحَقَّقُوا ٱلسَّلَامَةَ مِنْ مَقَاصِدِ ٱلسُّوءِ وَٱلتَّمَاكُرِ بِٱسْتِلَابِ ٱلْأَمْوَالِ وَقَهْرِ ٱلنُّفُوسِ وَتَسْخِيرِ ٱلْأَقْوِيَاءِ ٱلضُّعَفَاءَ فِيمَا يَخْتَصُّونَ بِهِ مِنَ ٱللَّذَّاتِ وَيُحَافِظُونَ عَلَيْهِ بِجُدْرَانِ ٱلصُّخُورِ وَأَبْوَابِ ٱلْحَدِيدِ حَتَّى كَانَ ذٰلِكَ مُولِدًا فِي ٱلنَّاسِ كَثِيرًا مِنْ خَسِيسِ ٱلطِّبَاعِ ٱلَّتِي تَمِيلُ بِأَصْحَابِهَا نَحْوَ ٱلِٱكْتِسَابِ بِجِهَةِ ٱلسَّرِقَةِ وَٱلسُّؤَالِ بِٱلضَّرَاعَةِ وَٱلتَّرَامِي عَلَى أَعْتَابِ ٱلْمُكْثِرِينَ . وَأَنْتَ لِذٰلِكَ عَارِفٌ وَإِلَيْهِ نَاظِرٌ لَا تَجْهَلُ تِلْكَ ٱلطَّوَائِفَ ٱلْكَاسِبَةَ بِهٰذِهِ ٱلْوُجُوهِ ٱلرَّدِيئَةِ . وَأَسْوَأُهَا حَالًا وَأَخَسُّهَا عَمَلًا وَأَبْغَضُهَا مُتَرَدَّدًا هٰؤُلَاءِ ٱلَّذِينَ أَطْفَأُوا أَنْوَارَ عُقُولِهِمُ ٱلْخَلْقِيَّةِ وَأَخْمَدُوا لَهَبَ قِوَاهُمُ ٱلطَّبِيعِيَّةِ وَعَطَّلُوا جَوَارِحَ أَبْدَانِهِمْ بِمَا يَمْلَأُونَ بِهِ رُؤُوسَهُمْ مِنْ أَشْرِبَةِ خُرَافَاتٍ تَخْرُجُ بِهِمْ مِنْ نَوْعِ ٱلْحَيَوَانِ لَا يَجُوزُ أَنْ أَقُولَ مِنْ نَوْعِ ٱلْإِنْسَانِ يَؤُولُ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱلِٱحْتِيَاجِ وَطَلَبِ ٱلْمَعَاشِ بِأَبْدَانِهِمْ وَأَبْدَانٍ ٱنْتَقَضَتْ عَنْهُمْ وَشَغَلُوا بِهَا كَثِيرًا مِنَ ٱلْفَرَاغِ أَيْ أَبْدَانِهِمْ وَأَبْدَانَ نِسَائِهِمْ إِلَى أَنْ يَطْرَحُوا نُفُوسَهُمْ بَيْنَ أَيْدِي أَهْلِ ٱلْمَكَاسِبِ بِطُرُقِ

ٱلأَعْمَالِ ٱلْمُتْعِبَةِ وَٱلْمحَاوَلَاتِ ٱلشَّاقَّةِ . يُذَكِّرُونَهُمْ ثَوَابَ ٱلصَّدَقَاتِ وَيُلْحِفُونَ فِي ٱلسُّؤَالِ حَتَّى تَمَلَّ ذٰلِكَ نُفُوسُهُمْ وَيَضْعُفَ يَقِينُهُمْ وَتَقْسُوَ قُلُوبُهُمْ وَيَلْتَمِسُوا وُجُوهًا لِلطَّعْنِ عَلَى تِلْكَ ٱلطَّائِفَةِ لَا يَفْرِقُونَ بَيْنَ أَهْلِ ٱلنَّزَاهَةِ مِنْهُمْ وَغَيْرِهِمْ . فَيَكُونُ ٱلْقَدْحُ عَامًّا وَٱلِاحْتِقَارُ شَامِلًا . وَجِهَةُ ٱلِاعْتِبَارِ فِيهِ أَنَّ مَنْ نَصَبَ نَفْسَهُ لِوَظِيفَةِ ٱلْهُدَى وَدُعَاءِ ٱلنَّاسِ إِلَى ٱلْخَيْرِ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ أَبْعَدَهُمْ مِنَ ٱلتَّصَنُّعِ وَأَحْرَصَهُمْ عَلَى ٱلْكَمَالِ . فَإِنَّ أَدْنَى هَفْوَةٍ مِنْهُ تُسْقِطُ ٱعْتِبَارَهُ وَتُسَهِّلُ ٱلتَّهَاوُنَ بِهِ فَلَا يَكُونُ لِكَلَامِهِ تَأْثِيرٌ فِي ٱلْقُلُوبِ وَيَصِيرُ مَجْلِسُهُ مَسْلَاةً يُتَلَهَّى بِحُضُورِهِ فَكَثِيرًا مَا كَانَتْ تِلْكَ ٱلْمَجَالِسُ مَوَاعِدَ لِأَهْلِ ٱلْخَلَاعَاتِ وَٱلْمُجُونِ

البحث السابع

في الخطب عند العرب

(نقلًا عن الجاحظ والشريشي والقيرواني)

إِنَّا لَا نَعْرِفُ ٱلْخُطَبَ إِلَّا لِلْعَرَبِ وَٱلْفُرْسِ . فَأَمَّا ٱلْهِنْدُ فَإِنَّمَا لَهُمْ مَعَانٍ مُدَوَّنَةٌ وَكُتُبٌ مُخَلَّدَةٌ لَا تُضَافُ إِلَى رَجُلٍ مَعْرُوفٍ وَلَا إِلَى عَالِمٍ مَوْصُوفٍ . وَإِنَّمَا هِيَ كُتُبٌ مُتَوَارَثَةٌ وَآدَابٌ عَلَى وَجْهِ ٱلدَّهْرِ سَائِرَةٌ مَذْكُورَةٌ . وَلِلْيُونَانِيِّينَ فَلْسَفَةٌ وَصِنَاعَةُ مَنْطِقٍ وَكَانَ صَاحِبُ ٱلْمَنْطِقِ نَفْسُهُ عَيِيَّ ٱللِّسَانِ غَيْرَ مَوْصُوفٍ بِٱلْبَيَانِ مَعَ عِلْمِهِ بِتَمْيِيزِ ٱلْكَلَامِ وَتَفْصِيلِهِ وَمَعَانِيهِ وَبِخَصَائِصِهِ . وَهُمْ يَزْعُمُونَ أَنَّ جَالِينُوسَ كَانَ أَنْطَقَ ٱلنَّاسِ وَلَمْ يَذْكُرُوهُ بِٱلْخَطَابَةِ وَلَا بِهٰذَا ٱلْجِنْسِ مِنَ

ٱلْبَلَاغَةِ وَفِي ٱلْفُرْسِ خُطَبَاءُ إِلَّا أَنَّ كَلَامَ ٱلْفُرْسِ وَكُلَّ مَعْنًى لَهُمْ فَإِنَّمَا هُوَ عَنْ طُولِ فِكْرَةٍ وَعَنِ ٱجْتِهَادِ رَأْيٍ وَعَنْ مُشَاوَرَةٍ وَمُعَاوَنَةٍ وَعَنْ طُولِ ٱلتَّفَكُّرِ وَدِرَاسَةِ ٱلْكُتُبِ وَحِكَايَةِ ٱلثَّانِي عِلْمَ ٱلْأَوَّلِ وَزِيَادَةِ ٱلثَّالِثِ فِي عِلْمِ ٱلثَّانِي حَتَّى ٱجْتَمَعَتْ ثِمَارُ تِلْكَ ٱلْفِكَرِ عِنْدَ آخِرِهِمْ. وَكُلُّ شَيْءٍ لِلْعَرَبِ فَإِنَّمَا هُوَ بَدِيهَةٌ وَٱرْتِجَالٌ وَكَأَنَّهُ إِلْهَامٌ وَلَيْسَتْ هُنَاكَ مُعَانَاةٌ وَلَا مُكَابَدَةٌ وَلَا إِجَالَةُ فِكْرٍ وَلَا ٱسْتِعَانَةٌ وَإِنَّمَا هُوَ أَنْ يَصْرِفَ أَحَدُهُمْ وَهْمَهُ إِلَى ٱلْكَلَامِ وَإِلَى زَجْرِ يَوْمِ ٱلْخِصَامِ أَوْ حِينَ يَمْتَحُ عَلَى رَأْسِ بِئْرٍ أَوْ يَحْدُو بِبَعِيرٍ أَوْ عِنْدَ ٱلْمُقَارَعَةِ أَوِ ٱلْمُنَاقَلَةِ أَوْ عِنْدَ صِرَاعٍ أَوْ حَرْبٍ فَمَا هُوَ إِلَّا أَنْ يَصْرِفَ وَهْمَهُ إِلَى جُمْلَةِ ٱلْمَذْهَبِ وَإِلَى ٱلْعَمُودِ ٱلَّذِي إِلَيْهِ يَقْصِدُ فَتَأْتِيهِ ٱلْمَعَانِي أَرْسَالًا وَتَنْثَالُ عَلَيْهِ ٱلْأَلْفَاظُ ٱنْثِيَالًا. ثُمَّ لَا يُقَيِّدُهُ عَلَى نَفْسِهِ وَلَا يَدْرُسُهُ أَحَدٌ مِنْ وُلْدِهِ وَكَانُوا أُمِّيِّينَ لَا يَكْتُبُونَ وَمَطْبُوعِينَ لَا يَتَكَلَّفُونَ وَكَانَ ٱلْكَلَامُ ٱلْجَيِّدُ عِنْدَهُمْ أَظْهَرَ وَأَكْثَرَ وَهُمْ عَلَيْهِ أَقْدَرُ وَلَهُ أَقْهَرُ وَكُلُّ وَاحِدٍ فِي نَفْسِهِ أَنْطَقُ وَمَكَانُهُ مِنَ ٱلْبَيَانِ أَرْفَعُ وَخُطَبَاؤُهُمْ لِلْكَلَامِ أَجْوَدُ وَٱلْكَلَامُ عَلَيْهِمْ أَسْهَلُ وَهُوَ عَلَيْهِمْ أَيْسَرُ مِنْ أَنْ يَفْتَقِرُوا إِلَى تَحَفُّظٍ وَيَحْتَاجُوا إِلَى تَدَارُسٍ. وَلَيْسَ هُمْ كَمَنْ حَفِظَ عِلْمَ غَيْرِهِ وَٱحْتَذَى عَلَى كَلَامِ مَنْ قَبْلَهُ فَمَا يَحْفَظُونَ إِلَّا مَا عَلِقَ بِقُلُوبِهِمْ وَٱلْتَحَمَ بِصُدُورِهِمْ وَٱتَّصَلَ بِعُقُولِهِمْ مِنْ غَيْرِ تَكَلُّفٍ وَلَا قَصْدٍ وَلَا تَحَفُّظٍ وَلَا طَلَبٍ وَإِنَّ هٰذَا ٱلَّذِي فِي أَيْدِينَا جُزْءٌ مِنْهُ (اه)

وَمِمَّنِ ٱشْتَهَرَ فِي ٱلْخِطَابَةِ أَيْضًا قُسُّ بْنُ سَاعِدَةَ ٱلْإِيَادِيُّ أُسْقُفُ

نَجْرَانَ خَطِيبُ ٱلْعَرَبِ وَشَاعِرُهَا وَحَاسِبُهَا وَحَكِيمُهَا وَحَكَمُهَا فِي عَصْرِهِ يُقَالُ إِنَّهُ أَوَّلُ مَنْ عَلَا عَلَى شَرَفٍ وَخَطَبَ عَلَيْهِ. وَأَوَّلُ مَنْ قَالَ فِي كَلَامِهِ: أَمَّا بَعْدُ. قِيلَ: وَبَعْدُ لَفْظَةٌ عَرَبِيَّةٌ وَفَصْلُ ٱلْخِطَابِ وَٱلَّذِي أُوتِيَهُ قُسٌّ هُوَ فَصْلُ ٱلْخُصُومَةِ وَهٰذَا يُؤَيِّدُ مَا قِيلَ عَنْهُ إِنَّهُ أَوَّلُ مَنْ قَالَ: ٱلْبَيِّنَةُ عَلَى ٱلْمُدَّعِي وَٱلْيَمِينُ عَلَى مَنْ أَنْكَرَ. وَأَوَّلُ مَنِ ٱتَّكَأَ عِنْدَ خُطْبَتِهِ عَلَى سَيْفٍ أَوْ عَصًا. وَأَوَّلُ مَنْ كَتَبَ: مِنْ فُلَانٍ إِلَى فُلَانٍ. أَدْرَكَهُ رَسُولُ ٱلْمُسْلِمِينَ وَرَآهُ بِعُكَاظَ فَكَانَ يَأْثُرُ عَنْهُ كَلَامًا يَسْمَعُهُ مِنْهُ. وَكَانَ مُؤْمِنًا بِٱللهِ وَٱلْبَعْثِ. بَلِيغَ ٱلنُّطْقِ وَفِيهِ يَقُولُ ٱلْأَعْشَى:

وَأَفْصَحُ مِنْ قُسٍّ وَأَجْرَى مِنَ ٱلَّذِي
بِذِي ٱلْغَيْنِ (١) مِنْ خَفَّانَ أَصْبَحَ خَادِرَا

وَكَانَ قُسٌّ يَفِدُ عَلَى قَيْصَرَ زَائِرًا فَيُكْرِمُهُ وَيُعَظِّمُهُ فَقَالَ لَهُ قَيْصَرُ: مَا أَفْضَلُ ٱلْعِلْمِ. قَالَ: مَعْرِفَةُ ٱلرَّجُلِ بِنَفْسِهِ. قَالَ: فَمَا أَفْضَلُ ٱلْعَقْلِ. قَالَ: وُقُوفُ ٱلْمَرْءِ عِنْدَ عِلْمِهِ. قَالَ: فَمَا أَفْضَلُ ٱلْأَدَبِ. قَالَ: ٱسْتِبْقَاءُ ٱلرَّجُلِ مَاءَ وَجْهِهِ. قَالَ: فَمَا أَفْضَلُ ٱلْمُرُوءَةِ. قَالَ: قِلَّةُ رَغْبَةِ ٱلْمَرْءِ فِي إِخْلَافِ وَعْدِهِ. قَالَ: فَمَا أَفْضَلُ ٱلْمَالِ. قَالَ: مَا قُضِيَ بِهِ ٱلْحَقُّ

وَقِيلَ إِنَّ ٱلْجَارُودَ بْنَ عَبْدِ ٱللهِ لَمَّا وَفَدَ فِي وَفْدِ عَبْدِ ٱلْقَيْسِ عَلَى رَسُولِ ٱلْمُسْلِمِينَ وَكَانَ سَيِّدًا فِي قَوْمِهِ مُعَظَّمًا فِي عَشِيرَتِهِ فَأَسْلَمَ سَأَلَهُ

(١) وروى الميداني: بذي الغيل

ٱلرَّسُولُ: يَا جَارُودُ هَلْ فِي جَمَاعَةِ عَبْدِ ٱلْقَيْسِ مَنْ يَعْرِفُ لَنَا قُسًّا. قَالَ: كُلُّنَا نَعْرِفُهُ. وَأَنَا كُنْتُ مِنْ بَيْنِهِمْ أَقْفُو أَثَرَهُ وَأَطَّلِعُ خَبَرَهُ. كَانَ قُسٌّ سَبْطًا مِنْ أَسْبَاطِ ٱلْعَرَبِ. صَحِيحَ ٱلنَّسَبِ فَصِيحًا ذَا شَيْبَةٍ حَسَنَةٍ. يَتَقَفَّرُ ٱلْقِفَارَ. وَلَا تُكِنُّهُ دَارٌ. وَلَا يُقِرُّهُ قَرَارٌ. يَتَحَسَّى فِي تَقَفُّرِهِ بَعْضَ ٱلطَّعَامِ. وَيَأْنَسُ بِٱلْوُحُوشِ وَٱلْهَوَامِّ. يَلْبَسُ ٱلْمُسُوحَ. وَيَتْبَعُ ٱلسُّيَّاحَ عَلَى مِنْهَاجِ ٱلْمَسِيحِ. لَا يُغَيِّرُ ٱلرَّهْبَانِيَّةَ. مُقِرًّا بِٱلْوَحْدَانِيَّةِ. تُضْرَبُ بِحِكْمَتِهِ ٱلْأَمْثَالُ. وَتُكْشَفُ بِهِ ٱلْأَهْوَالُ. وَتَتْبَعُهُ ٱلْأَبْدَالُ. أَدْرَكَ رَأْسَ ٱلْحَوَارِيِّينَ سِمْعَانَ فَهُوَ أَوَّلُ مَنْ تَأَلَّهَ مِنَ ٱلْعَرَبِ. وَأَعْبَدُ مَنْ تَعَبَّدَ فِي ٱلْحِقَبِ. وَأَيْقَنَ بِٱلْبَعْثِ وَٱلْحِسَابِ. وَحَذِرَ سُوءَ ٱلْمُنْقَلَبِ وَٱلْمَآبِ. وَوَعَظَ بِذِكْرِ ٱلْمَوْتِ. وَأَمَرَ بِٱلْعَمَلِ قَبْلَ ٱلْفَوْتِ. ٱلْحَسَنُ ٱلْأَلْفَاظِ. ٱلْخَاطِبُ بِسُوقِ عُكَاظَ. ٱلْعَارِفُ بِشَرْقٍ وَغَرْبٍ. وَيَابِسٍ وَرَطْبٍ. وَأُجَاجٍ وَعَذْبٍ. كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَيْهِ. وَٱلْعَرَبُ بَيْنَ يَدَيْهِ يُقْسِمُ بِٱلرَّبِّ ٱلَّذِي هُوَ لَهُ. لَيَبْلُغَنَّ ٱلْكِتَابُ أَجَلَهُ. وَلَيُوَفَّيَنَّ كُلُّ عَامِلٍ عَمَلَهُ. ثُمَّ أَنْشَأَ يَقُولُ:

هَاجَ لِلْقَلْبِ مِنْ هَوَاهُ ٱدِّكَارُ ... وَلَيَالٍ خِلَالَهُنَّ نَهَارُ
وَجِبَالٌ شَوَامِخٌ رَاسِيَاتٌ ... وَبِحَارٌ مِيَاهُهُنَّ غِزَارُ
وَنُجُومٌ يَحُثُّهَا قَمَرُ ٱللَّيْلِ (١) ... م وَشَمْسٌ فِي كُلِّ يَوْمٍ تُدَارُ
ضَوْؤُهَا يَطْمِسُ ٱلْعُيُونَ وَإِرْ ... عَادٌ شَدِيدٌ فِي ٱلْخَافِقَيْنِ مُثَارُ (٢)
وَغُلَامٌ وَأَشْمَطٌ وَرَضِيعٌ ... كُلُّهُمْ فِي ٱلتُّرَابِ يَوْمًا يُزَارُ

(١) ويروى: ونجوم تلوح في ظلم الليل (٢) ويُروى: مُطار

وَقُصُورٌ مشيدَةٌ حوتِ ٱلخيرَ م وَأُخرى خوتْ (١) فهُنَّ قِفارُ
وَكَثِيرٌ مِمَّا تُقصِّرُ عَنهُ حدسَةُ ٱلنَّاظِرِ ٱلَّذي لَا يُحَارُ
وَٱلَّذِي قَدْ ذَكَرْتُ دَلَّ عَلَى ٱللهِ م نُفوساً لَهَا هُدًى وَٱعتِبارُ

فَقالَ رَسُولُ ٱلْمُسْلِمِينَ: يَرحَمُ ٱللهُ قُسًّا إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ يُبعَثَ يَوْمَ ٱلقِيَامَةِ أُمَّةً وَحْدَهُ

وَمِنْ خُطَبِ قُسٍّ ٱلمَأْثورَةِ مَا رَوَاهُ أَبُو بَكْرٍ ٱلصِّدِّيقُ قَالَ: لَسْتُ أَنْسَاهُ بِسُوقِ عُكَاظَ (وَهُوَ سُوقٌ بَيْنَ بطنِ ٱلنَّخْلَةِ وَٱلطَّائِفِ كَانَ لِثَقيفٍ وَقَيس) عَلَى جَمَلٍ لَهُ أَوْرَقَ. وَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِكَلَامٍ مُؤْنِقٍ. فَقَالَ حِينَ خَطَبَ فَأَطنَبَ. وَرَغَّبَ وَرَهَّبَ. وَحَذَّرَ وَأَنذَرَ. وَقَالَ فِي خُطْبَتِهِ: أَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱسْمَعُوا وَعُوا. وَإِذَا وَعَيتُمْ فَٱنتَفِعُوا. إِنَّهُ مَنْ عَاشَ مَاتَ. وَمَنْ مَاتَ فَاتَ. وَكُلُّ مَا هُوَ آتٍ آتٍ. مَطَرٌ وَنَبَاتٌ. وَأَرزَاقٌ وَأَقْوَاتٌ. وَآبَاءٌ وَأُمَّهَاتٌ. وَأَحيَاءٌ وَأَمْوَاتٌ. وَجَمعٌ وَشَتَاتٌ. وَآيَاتٌ بَعْدَ آيَاتٍ. لَيلٌ مَوضُوعٌ. وَسَقْفٌ مَرفُوعٌ. وَنُجُومٌ تَغُورُ. وَأَرَاضٍ تَمُورُ. وَبُحُورٌ تَمُوجُ. وَتِجَارَةٌ تَرُوجُ. وَضَوءٌ وَظَلَامٌ. وَبِرٌّ وَآثَامٌ. وَمَطْعَمٌ وَمَشْرَبٌ. وَمَلْبَسٌ وَمَرْكَبٌ. أَلَا إِنَّ أَبْلَغَ ٱلعِظَاتِ. ٱلسَّيْرُ فِي ٱلفَلَوَاتِ. وَٱلنَّظَرُ إِلَى مَحَلِّ ٱلأَموَاتِ. إِنَّ فِي ٱلسَّمَاءِ لَخَبَرًا. وَإِنَّ فِي ٱلأَرْضِ لَعِبَرًا. لَيلٌ دَاجٍ. وَسَمَاءٌ ذَاتُ أَبْرَاجٍ. وَأَرضٌ ذَاتُ رِتَاجٍ. وَبِحَارٌ ذَاتُ أَمْوَاجٍ. مَا لِي أَرَى ٱلنَّاسَ يَذْهَبُونَ فَلَا يَرجِعُونَ. أَرَضُوا بِٱلمَقَامِ فَأَقَامُوا. أَمْ تُرِكُوا هُنَاكَ فَنَامُوا. أَقْسَمَ قُسٌّ

(١) ويروى: خلت

بِٱللهِ قَسَماً حَقًّا لَا آثِمًا فِيهِ وَلَا حَانِثًا إِنَّ لِلهِ دِينًا هُوَ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ دِينِكُمُ ٱلَّذِي أَنْتُمْ عَلَيْهِ. ثُمَّ قَالَ: تَبًّا لِأَرْبَابِ ٱلْغَفْلَةِ مِنَ ٱلْأُمَمِ ٱلْخَالِيَةِ. وَٱلْقُرُونِ ٱلْمَاضِيَةِ. يَا مَعْشَرَ إِيَادٍ. أَيْنَ ٱلْآبَاءُ وَٱلْأَجْدَادُ. وَأَيْنَ ٱلْمَرِيضُ وَٱلْعُوَّادُ. وَأَيْنَ ٱلْفَرَاعِنَةُ ٱلشِّدَادُ. أَيْنَ مَنْ بَنَى وَشَيَّدَ. وَزَخْرَفَ وَنَجَّدَ. وَغَرَّهُ ٱلْمَالُ وَٱلْوَلَدُ. أَيْنَ مَنْ بَغَى وَطَغَى. وَجَمَعَ فَأَوْعَى. وَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَى. أَلَمْ يَكُونُوا أَكْثَرَ مِنْكُمْ أَمْوَالًا. وَأَطْوَلَ مِنْكُمْ آجَالًا. طَحَنَهُمُ ٱلثَّرَى بِكَلْكَلِهِ. وَمَزَّقَهُمْ بِتَطَاوُلِهِ. فَتِلْكَ عِظَامُهُمْ بَالِيَةٌ. وَبُيُوتُهُمْ خَاوِيَةٌ. عَمَرَتْهَا ٱلذِّئَابُ ٱلْعَاوِيَةُ. كَلَّا بَلْ هُوَ ٱلْمَعْبُودُ. ثُمَّ أَنْشَأَ يَقُولُ:

فِي ٱلذَّاهِبِينَ ٱلْأَوَّلِينَ م مِنَ ٱلْقُرُونِ لَنَا بَصَائِرْ
لَمَّا رَأَيْتُ مَوَارِدًا لِلْمَوْتِ لَيْسَ لَهَا مَصَادِرْ
وَرَأَيْتُ قَوْمِي نَحْوَهَا تَمْضِي ٱلْأَصَاغِرُ وَٱلْأَكَابِرْ
لَا يَرْجِعُ ٱلْمَاضِي وَلَا يَبْقَى مِنَ ٱلْبَاقِينَ غَابِرْ (١)
أَيْقَنْتُ أَنِّي لَا مَحَا لَةَ حَيْثُ صَارَ ٱلْقَوْمُ صَائِرْ

وَمِمَّنِ ٱشْتَهَرَ عِنْدَ ٱلْعَرَبِ سَحْبَانُ بْنُ زُفَرَ بْنِ إِيَاسٍ ٱلْوَائِلِيُّ وَائِلُ بَاهِلَةٍ خَطِيبٌ مُفْصِحٌ يُضْرَبُ بِهِ ٱلْمَثَلُ فِي ٱلْبَيَانِ. أَدْرَكَ ٱلْإِسْلَامَ وَأَسْلَمَ وَمَاتَ سَنَةَ أَرْبَعٍ وَخَمْسِينَ. وَحَكَى ٱلْأَصْمَعِيُّ قَالَ: كَانَ إِذَا خَطَبَ يَسِيلُ عَرَقًا وَلَا يُعِيدُ كَلِمَةً وَلَا يَتَوَقَّفُ وَلَا يَقْعُدُ حَتَّى يَفْرُغَ. وَقَدِمَ

---

(١) ويروى: لا يرجع الماضي اليَّ ولا من الماضين غابر

عَلَى مُعاوِيَةَ وَفْدٌ مِنْ خُرَاسَانَ فِيهِمْ سَعِيدُ بْنُ عُثْمَانَ فَطَلَبَ سَحْبَانَ فَلَمْ يُوجَدْ فِي مَنْزِلِهِ فَاقْتُضِبَ مِنْ نَاحِيَةٍ اقْتِضَابًا وَأُدْخِلَ عَلَيْهِ فَقَالَ: تَكَلَّمْ فَقَالَ: انْظُرُوا إِلَى عَصاً تُقَوِّمُ مِنْ أَوَدِي. قَالُوا: وَمَا تَصْنَعُ بِهَا وَأَنْتَ بِحَضْرَةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ قَالَ: مَا كَانَ يَصْنَعُ بِهَا مُوسَى وَهُوَ يُخَاطِبُ رَبَّهُ وَعَصَاهُ فِي يَدِهِ. فَضَحِكَ مُعَاوِيَةُ وَقَالَ: هَاتُوا عَصاً فَجَاؤُوا بِهَا إِلَيْهِ فَرَكَبَهَا بِرِجْلِهِ وَلَمْ يَرْضَهَا وَقَالَ: هَاتُوا عَصَايَ فَأَتَوْا بِهَا فَأَخَذَهَا. ثُمَّ قَامَ وَتَكَلَّمَ مُنْذُ صَلَاةِ الظُّهْرِ إِلَى أَنْ قَامَتْ صَلَاةُ الْعَصْرِ مَا تَنَحْنَحَ وَلَا سَعَلَ وَلَا تَوَقَّفَ وَلَا ابْتَدَأَ فِي مَعْنًى فَخَرَجَ مِنْهُ وَقَدْ بَقِيَ عَلَيْهِ مِنْهُ شَيْءٌ. فَمَا زَالَتْ تِلْكَ حَالُهُ حَتَّى أَشَارَ مُعَاوِيَةُ بِيَدِهِ فَأَشَارَ إِلَيْهِ سَحْبَانُ أَنْ لَا تَقْطَعْ عَلَيَّ كَلَامِي فَقَالَ مُعَاوِيَةُ: الصَّلَاةَ. قَالَ: هِيَ أَمَامَكَ وَنَحْنُ فِي صَلَاةٍ وَتَحْمِيدٍ وَوَعْدٍ وَوَعِيدٍ. فَقَالَ مُعَاوِيَةُ: أَنْتَ أَخْطَبُ الْعَرَبِ. فَقَالَ سَحْبَانُ: وَالْعَجَمِ وَالْجِنِّ وَالْإِنْسِ. وَمِمَّا رُوِيَ عَنْهُ فِي بَعْضِ خُطَبِهِ الْبَلِيغَةِ يَقُولُ: إِنَّ الدُّنْيَا دَارُ بَلَاغٍ وَالْآخِرَةَ دَارُ قَرَارٍ. أَيُّهَا النَّاسُ فَخُذُوا مِنْ دَارِ مَمَرِّكُمْ لِدَارِ مَقَرِّكُمْ وَلَا تَهْتِكُوا أَسْتَارَكُمْ. عِنْدَ مَنْ لَا تَخْفَى عَلَيْهِ أَسْرَارُكُمْ. وَأَخْرِجُوا مِنَ الدُّنْيَا قُلُوبَكُمْ. قَبْلَ أَنْ تَخْرُجَ مِنْهَا أَبْدَانُكُمْ. فَفِيهَا حَيِيتُمْ وَلِغَيْرِهَا خُلِقْتُمْ. إِنَّ الرَّجُلَ إِذَا هَلَكَ. قَالَ النَّاسُ مَا تَرَكَ. وَقَالَتِ الْمَلَائِكَةُ مَا قَدَّمَ لِلّهِ. قَدِّمُوا بَعْضاً يَكُونُ لَكُمْ وَلَا تُخَلِّفُوا كُلّاً يَكُونُ عَلَيْكُمْ. وَمِنْ شِعْرِهِ يَمْدَحُ طَلْحَةَ الطَّلَحَاتِ وَهُوَ طَلْحَةُ بْنُ عَبْدِ اللهِ الْخُزَاعِيُّ:

يَا طَلْحَ اَكْرَمَ مَنْ بِهَا حَسَبًا وَاَعْطَاهُمْ لِتَالِدْ
مِنْكَ الْعَطَاءُ فَاَعْطِنِي وَعَلَيَّ مَدْحُكَ فِي الْمَشَاهِدْ

فَيُقَالُ انَّ طَلْحَةَ قَالَ لَهُ: اَحْتَكِمْ. قَالَ: فَرَسَكَ الْوَرْدَ وَقَصْرَكَ بِكَذَا. فَقَالَ طَلْحَةُ أُفٍّ لَكَ لَوْ سَأَلْتَنِي عَلَى قَدْرِي اَعْطَيْتُكَ كُلَّ فَرَسٍ لِي وَكُلَّ قَصْرٍ وَلٰكِنْ اَبَيْتَ اِلَّا بِاَهْلِيَّتِكَ

وَذَكَرَ جَعْفَرَ بْنَ يَحْيَى فِي مَجْلِسِ ثُمَامَةَ بْنِ اَشْرَسَ فَقَالَ: مَا رَاَيْتُ اَحَدًا مِنْ خَلْقِ اللّٰهِ كَانَ اَبْسَطَ لِسَانًا وَلَا اَلْحَنَ بِحُجَّتِهِ وَلَا اَقْدَرَ عَلَى كَلَامٍ بِنَظْمٍ حَسَنٍ وَاَلْفَاظٍ عَذْبَةٍ وَمَنْطِقٍ فَصِيحٍ مِنْ جَعْفَرِ بْنِ يَحْيَى كَانَ لَا يَتَوَقَّفُ وَلَا يَتَحَبَّسُ وَلَا يَصِلُ كَلَامَهُ بِحَشْوٍ مِنَ الْكَلَامِ وَلَا يُعِيدُ لَفْظًا وَلَا مَعْنًى وَلَا يَخْرُجُ مِنْ فَنٍّ اِلَى غَيْرِهِ حَتَّى يَبْلُغَ آخِرَ مَا فِيهِ. وَكَانَ لَا يَرَى شَيْئًا اِلَّا حَكَاهُ وَلَا يَحْكِي شَيْئًا اِلَّا كَانَ اَكْثَرَ مِنْهُ وَلَا يَمُرُّ بِذِهْنِهِ شَيْءٌ اِلَّا حَفِظَهُ. وَكَانَ اِذَا شَاءَ اَضْحَكَ الثَّكْلَى وَاَذْهَلَ الزَّاهِدَ وَخَشَّنَ قَلْبَ الْعَابِدِ. قُلْتُ فَكَيْفَ كَانَتْ مَعْرِفَتُهُ. قَالَ: كَانَ مِنْ اَعْلَمِ النَّاسِ بِالْخَبَرِ الْبَاهِرِ وَالشِّعْرِ النَّادِرِ وَالْمَثَلِ السَّائِرِ وَالْفَصَاحَةِ التَّامَّةِ وَاللِّسَانِ الْبَسِيطِ. قَالَ سَهْلُ بْنُ هَارُونَ وَذَكَرَ يَحْيَى بْنَ خَالِدٍ وَاَبْنَهُ جَعْفَرًا فَقَالَ: لَوْ كَانَ الْكَلَامُ مُتَصَوَّرًا دُرًّا وَيُلْقِيهِ الْمَنْطِقُ جَوْهَرًا لَكَانَ كَلَامُهُمَا وَالْمُنْتَقَى مِنْ اَلْفَاظِهِمَا. وَلَقَدْ غَبَرْتُ مَعَهُمَا وَاَدْرَكْتُ طَبَقَةَ الْمُتَكَلِّمِينَ فِي اَيَّامِهِمَا وَهُمْ يَرَوْنَ الْبَلَاغَةَ لَمْ تَسْتَكْمِلْ اِلَّا فِيهِمَا. وَلَمْ تَكُنْ مَقْصُورَةً اِلَّا عَلَيْهِمَا وَلَا انْقَادَتْ اِلَّا لَهُمَا وَاِنَّهُمَا لَلُبَابُ الْكَرَمِ

عتق منظر وجودة مخبر وسهولة لفظ وجزالة منطق ونزاهة نفس وكمال خصال حتى لو فاخرت الدنيا بقليل ايامها والمأثور من خصائصها جميع ايام من سواهما من لدن آدم الى ان ينفخ في الصور ويبعث اهل القبور حاشا انبياء الله الكرام وسلف عباده الصالحين لما باهت الا بهما ولا عولت في الفخر الا عليهما. ولقد كانا مع تهذيب اخلاقهما ومعسول مذاقهما وسنا اشراقهما وكمال خصال الخير فيهما في محاسن المأمون كالنقطة في البحر والخردلة في القفر



القسم الثاني

في علم الشعر

الفصل الاول

في تعريف الشعر وانواعه وفوائده

البحث الاول

في تحديد الشعر

(عن ابن خلدون)

اِعلَمْ انَّ لِسانَ ٱلعَرَبِ وَكَلامَهُمْ عَلَى فَنَّيْنِ فَنِّ ٱلشِّعْرِ ٱلْمَنظُومِ وَهُوَ ٱلكَلامُ ٱلْمَوْزُونُ ٱلْمُقَفَّى وَمَعنَاهُ ٱلَّذِي تَكُونُ اوزَانُهُ كُلُّهَا عَلَى رَوِيٍّ وَاحِدٍ وَهُوَ ٱلقَافِيَةُ . وَفَنِّ ٱلنَّثْرِ وَهُوَ ٱلكَلامُ غَيْرُ ٱلمَوْزُونِ . وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنَ ٱلفَنَّيْنِ يَشْتَمِلُ عَلَى فُنُونٍ وَمَذَاهِبَ فِي ٱلكَلامِ . فَامَّا ٱلشِّعْرُ فَمِنْهُ ٱلمَدْحُ وَٱلهِجَاءُ وَٱلرِّثَاءُ . وَامَّا ٱلنَّثْرُ فَمِنْهُ ٱلكَلامُ ٱلَّذِي يُؤْتَى بِهِ قِطَعًا وَيُلتَزَمُ فِي كُلِّ كَلِمَتَيْنِ مِنْهُ قَافِيَةٌ وَاحِدَةٌ وَيُسَمَّى سَجْعًا . وَمِنْهُ ٱلمُرسَلُ وَهُوَ ٱلَّذِي يُطلَقُ فِيهِ ٱلكَلامُ اِطْلاقًا

وَلَا يُقَطَّعُ أَجْزَاءً بَلْ يُرْسَلُ إِرْسَالًا مِنْ غَيْرِ تَقْيِيدٍ بِقَافِيَةٍ وَلَا غَيْرِهَا. وَيُسْتَعْمَلُ فِي ٱلْخُطَبِ وَٱلدُّعَاءِ وَتَرْغِيبِ ٱلْجُمْهُورِ وَتَرْهِيبِهِمْ.

وَأَمَّا ٱلْقُرْآنُ فَهُوَ وَإِنْ كَانَ مِنَ ٱلْمَنْثُورِ إِلَّا أَنَّهُ خَارِجٌ عَنِ ٱلْوَصْفَيْنِ وَلَيْسَ يُسَمَّى مُرْسَلًا مُطْلَقًا وَلَا مُسَجَّعًا بَلْ تَفْصِيلَ آيَاتٍ يَنْتَهِي إِلَى مَقَاطِعَ يَشْهَدُ ٱلذَّوْقُ بِٱنْتِهَاءِ ٱلْكَلَامِ عِنْدَهَا. ثُمَّ يُعَادُ ٱلْكَلَامُ فِي ٱلْآيَةِ ٱلْأُخْرَى بَعْدَهَا وَيُثَنَّى مِنْ غَيْرِ ٱلْتِزَامِ حَرْفٍ يَكُونُ سَجْعًا أَوْ قَافِيَةً. وَهُوَ مَعْنَى قَوْلِ ٱلْقُرْآنِ: ٱللّٰهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ. وَقَالَ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْآيَاتِ. وَيُسَمَّى آخِرُ ٱلْآيَاتِ مِنْهُ فَوَاصِلَ إِذْ لَيْسَتْ أَسْجَاعًا وَلَا ٱلْتُزِمَ فِيهَا مَا يُلْتَزَمُ فِي ٱلسَّجْعِ وَلَا هِيَ أَيْضًا قَوَافٍ. وَأُطْلِقَ ٱسْمُ ٱلْمَثَانِي عَلَى آيَاتِ ٱلْقُرْآنِ كُلِّهَا عَلَى ٱلْعُمُومِ لِمَا ذَكَرْنَاهُ وَٱخْتَصَّتْ بِأُمِّ ٱلْقُرْآنِ لِلْغَلَبَةِ فِيهَا كَٱلنَّجْمِ لِلثُّرَيَّا وَلِهٰذَا سُمِّيَتِ ٱلسَّبْعَ ٱلْمَثَانِيَ. وَٱنْظُرْ هٰذَا مَعَ مَا قَالَهُ ٱلْمُفَسِّرُونَ فِي تَعْلِيلِ تَسْمِيَتِهَا بِٱلْمَثَانِي يَشْهَدْ لَكَ ٱلْحَقُّ بِرُجْحَانِ مَا قُلْنَاهُ. وَٱعْلَمْ أَنَّ لِكُلٍّ وَاحِدٍ مِنْ هٰذِهِ ٱلْفُنُونِ أَسَالِيبَ تَخْتَصُّ بِهِ عِنْدَ أَهْلِهِ وَلَا تَصْلُحُ لِلْفَنِّ ٱلْآخَرِ وَلَا تُسْتَعْمَلُ فِيهِ مِثْلَ ٱلنَّسِيبِ ٱلْمُخْتَصِّ بِٱلشِّعْرِ وَٱلْحَمْدِ وَٱلدُّعَاءِ ٱلْمُخْتَصِّ بِٱلْخُطَبِ وَٱلدُّعَاءِ ٱلْمُخْتَصِّ بِٱلْمُخَاطَبَاتِ وَأَمْثَالِ ذٰلِكَ. وَقَدِ ٱسْتَعْمَلَ ٱلْمُتَأَخِّرُونَ أَسَالِيبَ ٱلشِّعْرِ وَمَوَازِينَهُ فِي ٱلْمَنْثُورِ مِنْ كَثْرَةِ ٱلْأَسْجَاعِ وَٱلْتِزَامِ ٱلتَّقْفِيَةِ وَتَقْدِيمِ ٱلنَّسِيبِ بَيْنَ يَدَيِ ٱلْأَغْرَاضِ وَصَارَ هٰذَا ٱلْمَنْثُورُ إِذَا تَأَمَّلْتَهُ مِنْ بَابِ ٱلشِّعْرِ وَفَنِّهِ وَلَمْ يَفْتَرِقَا إِلَّا فِي ٱلْوَزْنِ. وَٱسْتَمَرَّ

المتأخرون من الكتاب على هذه الطريقة واستعملوها في المخاطبات السلطانية وقصروا الاستعمال في المنثور كله على هذا الفن الذي ارتضوه وخلطوا الاساليب فيه وهجروا المرسل وتناسوه وخصوصاً اهل المشرق وصارت المخاطبات السلطانية لهذا العهد عند الكتاب الغفل جارية على هذا الاسلوب الذي اشرنا اليه. وهو غير صواب من جهة البلاغة لما يلاحظ في تطبيق الكلام على مقتضى الحال من احوال المخاطب والمخاطب. وهذا الفن المنثور المقفى ادخل المتأخرون فيه اساليب الشعر فوجب ان تنزه المخاطبات السلطانية عنه اذ اساليب الشعر تنافيها اللوذعية وخلط الجد بالهزل والاطناب في الاوصاف وضرب الامثال وكثرة التشبيهات والاستعارات حيث لا تدعو ضرورة الى ذلك في الخطاب. والمحمود في المخاطبات السلطانية الترسل وهو اطلاق الكلام وارساله من غير تسجيع الا في الاقل النادر وحيث ترسله الملكة ارسالا من غير تكلف له. ثم اعطاء الكلام حقه في مطابقته لمقتضى الحال فان المقامات مختلفة ولكل مقام اسلوب يخصه من اطناب او ايجاز او حذف او اثبات او تصريح او اشارة وكناية واستعارة. واما اجراء المخاطبات السلطانية على هذا النحو الذي هو على اساليب الشعر فمذموم وما حمل عليه اهل العصر الا استيلاء العجمة على السنتهم وقصورهم لذلك عن اعطاء الكلام حقه في مطابقته لمقتضى الحال فعجزوا عن الكلام المرسل لبعد امده

فِي ٱلْبَلَاغَةِ وَٱنْفِسَاحِ خَطْوَتِـهِ وَوَلِعُوا بِهٰذَا ٱلْمُسَجَّعِ يُلَفِّقُونَ بِهِ مَا نَقَصَهُمْ مِنْ تَطْبِيقِ ٱلْكَلَامِ عَلَى ٱلْمَقْصُودِ وَمُقْتَضَى ٱلْحَالِ فِيهِ وَيَجْبُرُونَهُ بِذٰلِكَ ٱلْقَدَرِ مِنَ ٱلتَّزْيِينِ بِٱلْأَسْجَاعِ وَٱلْأَلْقَابِ ٱلْبَدِيعَةِ وَيَغْفُلُونَ عَمَّا سِوَى ذٰلِكَ. وَأَكْثَرُ مَنْ أَخَذَ بِهٰذَا ٱلْفَنِّ وَبَالَغَ فِيهِ فِي سَائِرِ أَنْحَاءِ كَلَامِهِمْ كُتَّابُ ٱلْمَشْرِقِ وَشُعَرَاؤُهُ لِهٰذَا ٱلْعَهْدِ حَتَّى إِنَّهُمْ لَيُخِلُّونَ بِٱلْإِعْرَابِ فِي ٱلْكَلِمَاتِ وَٱلتَّصْرِيفِ إِذَا دَخَلَتْ لَهُمْ فِي تَجْنِيسٍ أَوْ مُطَابَقَةٍ لَا يَجْتَمِعَانِ مَعَهَا فَيُرَجِّحُونَ ذٰلِكَ ٱلصِّنْفَ مِنَ ٱلتَّجْنِيسِ وَيَدَعُونَ ٱلْإِعْرَابَ وَيُفْسِدُونَ بِنْيَةَ ٱلْكَلِمَةِ عَسَاهَا تُصَادِفُ ٱلتَّجْنِيسَ. فَتَأَمَّلْ ذٰلِكَ بِمَا قَدَّمْنَاهُ لَكَ تَقِفْ عَلَى صِحَّةِ مَا ذَكَرْنَاهُ وَٱللّٰهُ ٱلْمُوَفِّقُ إِلَى ٱلصَّوَابِ بِمَنِّهِ وَكَرَمِهِ وَٱللّٰهُ تَعَالَى أَعْلَمُ

البحث الثاني

في صناعة الشعر وانواع الاشعار

(عن تلخيص كتاب ارسطاطاليس في الشعر تأليف ابي الوليد بن رشد)

ٱلْغَرَضُ فِي هٰذَا ٱلْقَوْلِ تَلْخِيصُ مَا فِي كِتَابِ أَرِسْطَاطَالِيسَ فِي ٱلشِّعْرِ مِنَ ٱلْقَوَانِينِ ٱلْكُلِّيَّةِ ٱلْمُشْتَرَكَةِ لِجَمِيعِ ٱلْأُمَمِ أَوْ لِلْأَكْثَرِ إِذْ كَثِيرٌ مِمَّا فِيهِ هِيَ قَوَانِينُ خَاصَّةٌ بِأَشْعَارِهِمْ وَعَادَتِهِمْ فِيهَا. وَإِمَّا أَنْ تَكُونَ نِسَبًا مَوْجُودَةً فِي كَلَامِ ٱلْعَرَبِ أَوْ مَوْجُودَةً فِي غَيْرِهِ مِنَ ٱلْأَلْسِنَةِ. (قَالَ) إِنَّ قَصْدَنَا ٱلْآنَ ٱلتَّكَلُّمُ فِي صِنَاعَةِ ٱلشِّعْرِ وَفِي أَنْوَاعِ ٱلْأَشْعَارِ. وَقَدْ يَجِبُ عَلَى مَنْ يُرِيدُ أَنْ تَكُونَ ٱلْقَوَانِينُ

اَلَّتِي يُعطَى فِيهَا تَجرِي مَجرَى اَلْجُودَةِ اَنْ يَقُولَ اَوَّلًا مَا فِعلُ كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ اَلْاَنوَاعِ اَلشِّعرِيَّةِ وَمِمَّاذَا تَتَقَوَّمُ اَلْاَقَاوِيلُ اَلشِّعرِيَّةُ وَمِنْ كَمْ شَيْءٍ تَتَقَوَّمُ وَاَيُّمَا هِيَ اَجزَاؤُهَا اَلَّتِي تَتَقَوَّمُ بِهَا وَكَمْ اَصنَافُ اَلْاَغرَاضِ اَلَّتِي تُقصَدُ بِالْاَقَاوِيلِ اَلشِّعرِيَّةِ. وَاَنْ يَجعَلَ كَلَامَهُ مِنَ اَلْاَوَائِلِ اَلَّتِي لَنَا بِالطَّبعِ فِي هٰذَا اَلْمَعنَى. (قَالَ) فَكُلُّ شِعرٍ وَكُلُّ قَولٍ شِعرِيٍّ فَهُوَ اِمَّا هِجَاءٌ وَاِمَّا مَدِيحٌ وَذٰلِكَ بَيِّنٌ بِاستِقرَاءِ اَلْاَشعَارِ وَبِخَاصَّةٍ اَشعَارُهُمُ اَلَّتِي كَانَتْ فِي اَلْاُمُورِ اَلْاِرَادِيَّةِ اَعنِي اَلْحَسَنَةَ وَاَلْقَبِيحَةَ وَكَذٰلِكَ اَلْحَالُ فِي اَلصَّنَائِعِ اَلْمُحَاكِيَةِ لِصِنَاعَةِ اَلشِّعرِ اَلَّتِي هِيَ اَلضَّربُ بِالْعِيدَانِ وَاَلزَّمرُ وَاَلرَّقصُ اَعنِي اَنَّهَا مُعَدَّةٌ بِالطَّبعِ لِهٰذَينِ اَلْغَرَضَينِ. وَاَلْاَقَاوِيلُ اَلشِّعرِيَّةُ هِيَ اَلْاَقَاوِيلُ اَلْمُخَيِّلَةُ. وَاَصنَافُ اَلتَّخيِيلِ وَاَلتَّشبِيهِ ثَلَاثَةٌ اِثنَانِ بَسِيطَانِ وَثَالِثٌ مُرَكَّبٌ مِنهُمَا. اَمَّا اَلْاِثنَانِ اَلْبَسِيطَانِ فَاَحَدُهُمَا تَشبِيهُ شَيْءٍ بِشَيْءٍ وَتَمثِيلُهُ بِهِ وَذٰلِكَ يَكُونُ فِي لِسَانٍ لِسَانٍ بِاَلفَاظٍ خَاصَّةٍ عِندَهُمْ مِثلَ كَاَنَّ وَاِخَالُ وَمَا اَشبَهَ ذٰلِكَ فِي لِسَانِ اَلْعَرَبِ وَهِيَ اَلَّتِي تُسَمَّى عِندَهُمْ حُرُوفَ اَلتَّشبِيهِ. وَاِمَّا اَخذُ اَلشَّبِيهِ بِعَينِهِ بَدَلَ اَلشَّبِيهِ وَهُوَ اَلَّذِي يُسَمَّى اَلْاِبدَالَ فِي هٰذِهِ اَلصِّنَاعَةِ وَذٰلِكَ مِثلُ قَولِ اَلشَّاعِرِ:

هُوَ اَلْبَحرُ مِنْ اَيِّ اَلْمَوَاضِعِ جِئتَهُ

وَيَنبَغِي اَنْ نَعلَمَ اَنَّ فِي هٰذَا اَلْقِسمِ تَدخُلُ اَلْاَنوَاعُ اَلَّتِي يُسَمِّيهَا اَهلُ زَمَانِنَا اَستِعَارَةً وَكِنَايَةً مِثلَ قَولِ اَلشَّاعِرِ:

وَعُرِّيَ اَفرَاسُ اَلصِّبَا وَرَوَاحِلُهُ

إلا أنَّ الكنايات أكثر ذلك هي إبدالات من لواحق الشيء . والاستعارة هي إبدال من مناسبه أعني إذا كان شيء نسبته إلى الثاني نسبة الثالث إلى الرابع فإبدال اسم الثالث إلى الأول وبالعكس . وقد تقدم في كتاب الخطابة من كم شيء تكون الإبدالات . وأما القسم الثاني فهو أن يبدل التشبيه مثل أن تقول : الشمس كأنها فلان أو الشمس هي فلان لا فلان كالشمس ولا هو الشمس

والصنف الثالث من الأقاويل الشعرية هو المركب من هذين (قال) وكما أن الناس بالطبع قد يخيلون ويحاكون بعضهم بعضا بالأفعال مثل محاكاة بعضهم بعضا بالألوان والأشكال والأصوات وذلك إما بصناعة وملكة توجد للمحاكين وإما من قبل عادة تقدمت لهم في ذلك . كذلك توجد لهم المحاكاة بالأقاويل بالطبع والتخييل . والمحاكاة في الأقاويل الشعرية تكون من قبل ثلاثة أشياء : من قبل النغم المتفقة ومن قبل الوزن ومن قبل التشبيه نفسه . وهذه قد يوجد كل واحد منها مفردا عن صاحبه مثل وجود النغم في المزامير والوزن في الرقص والمحاكاة في اللفظ . أعني الأقاويل المخيلة الغير موزونة . وقد تجتمع هذه الثلاثة بأسرها مثل ما يوجد عندنا في النوع الذي يسمى الموشحات والأزجال وهي الأشعار التي استنبطها في هذا اللسان أهل هذه الجزيرة إذ كانت الأشعار الطبيعية هي ما جمعت

ٱلْأَمْرَيْنِ جَمِيعًا. وَٱلْأُمُورُ ٱلطَّبِيعِيَّةُ إِنَّمَا تُوجَدُ لِلْأُمَمِ ٱلطَّبِيعِيِّينَ فَإِنَّ أَشْعَارَ ٱلْعَرَبِ لَيْسَ فِيهَا لَحْنٌ. وَإِنَّمَا هِيَ إِمَّا ٱلْوَزْنُ فَقَطْ وَإِمَّا ٱلْوَزْنُ وَٱلْمُحَاكَاةُ مَعًا فِيهَا. وَإِذَا كَانَ هٰذَا هٰكَذَا فَٱلصِّنَاعَةُ ٱلْمُخَيِّلَةُ أَوِ ٱلَّتِي تَفْعَلُ فِعْلَ ٱلتَّخْيِيلِ ثَلَاثَةٌ. صِنَاعَةُ ٱللَّحْنِ وَصِنَاعَةُ ٱلْوَزْنِ وَصِنَاعَةُ عَمَلِ ٱلْأَقَاوِيلِ ٱلْمُحَاكِيَةِ وَهٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةُ ٱلْمَنْطِقِيَّةُ ٱلَّتِي نَنْظُرُ فِيهَا فِي هٰذَا ٱلْكِتَابِ. (قَالَ): وَكَثِيرًا مَا يُوجَدُ مِنَ ٱلْأَقَاوِيلِ ٱلَّتِي تُسَمَّى أَشْعَارًا مَا لَيْسَ فِيهَا مِنْ مَعْنَى ٱلشِّعْرِيَّةِ إِلَّا ٱلْوَزْنُ فَقَطْ كَأَقَاوِيلِ سُقْرَاطَ ٱلْمَوْزُونَةِ وَأَقَاوِيلِ إِنْبَادُقْلِيسَ فِي ٱلطَّبِيعِيَّاتِ بِخِلَافِ ٱلْأَمْرِ فِي أَشْعَارِ أُومِيرُوشَ فَإِنَّهُ يُوجَدُ فِيهَا ٱلْأَمْرَانِ جَمِيعًا. (قَالَ): وَلِذٰلِكَ لَيْسَ يَنْبَغِي أَنْ يُسَمَّى شِعْرًا بِٱلْحَقِيقَةِ إِلَّا مَا جَمَعَ هٰذَيْنِ. وَأَمَّا تِلْكَ فَهِيَ أَنْ تُسَمَّى أَقَاوِيلَ أَحْرَى مِنْهَا أَنْ تُسَمَّى شِعْرًا وَكَذٰلِكَ ٱلْفَاعِلُ أَقَاوِيلَ مَوْزُونَةً بِٱلطَّبِيعِيَّاتِ هُوَ أَحْرَى أَنْ يُسَمَّى مُتَكَلِّمًا مِنْ أَنْ يُسَمَّى شَاعِرًا. وَكَذٰلِكَ ٱلْأَقَاوِيلُ ٱلْمُخَيِّلَةُ ٱلَّتِي تَكُونُ مِنْ أَوْزَانٍ مُخْتَلِطَةٍ لَيْسَتْ أَشْعَارًا. وَحُكِيَ أَنْ كَانَتْ تُوجَدُ عِنْدَهُمْ أَعْنِي مِنْ أَوْزَانٍ مُخْتَلِطَةٍ وَهٰذَا غَيْرُ مَوْجُودٍ عِنْدَنَا فَقَدْ تَبَيَّنَ مِنْ هٰذَا ٱلْقَوْلِ كَمْ هِيَ أَصْنَافُ ٱلْمُحَاكَاةِ وَمِنْ أَيِّ ٱلصَّنَائِعِ تَلْتَئِمُ ٱلْمُحَاكَاةُ بِٱلْقَوْلِ حَتَّى تَكُونَ تَامَّةَ ٱلْفِعْلِ



البحث الثاني

في غاية صناعة الشعر

(من الكتاب نفسهِ)

(قَالَ) وَلَمَّا كَانَ ٱلمُحَاكُونَ وَٱلْمُشَبِّهُونَ إِنَّمَا يَقْصِدُونَ بِذٰلِكَ أَنْ يَحُثُّوا عَلَى عَمَلِ بَعْضِ ٱلأَفْعَالِ ٱلإِرَادِيَّةِ وَأَنْ يَكُفُّوا عَنْ عَمَلِ بَعْضِهَا فَقَدْ يَجِبُ ضَرُورَةً أَنْ تَكُونَ ٱلأُمُورُ ٱلَّتِي تُقْصَدُ مُحَاكَاتُهَا إِمَّا فَضَائِلَ وَإِمَّا رَذَائِلَ وَذٰلِكَ أَنَّ كُلَّ فِعْلٍ وَكُلَّ خُلْقٍ إِنَّمَا هُوَ تَابِعٌ لِأَحَدِ هٰذَيْنِ أَعْنِي ٱلْفَضِيلَةَ وَٱلرَّذِيلَةَ فَقَدْ يَجِبُ ضَرُورَةً أَنْ تَكُونَ ٱلْفَضَائِلُ إِنَّمَا تُحَاكَى بِٱلْفَضَائِلِ وَٱلْفَاضِلِينَ وَأَنْ تَكُونَ ٱلرَّذَائِلُ تُحَاكَى بِٱلرَّذَائِلِ وَٱلأَرْذَلِينَ. وَإِذَا كَانَ كُلُّ تَشْبِيهٍ وَحِكَايَةٍ إِنَّمَا تَكُونُ بِٱلْحَسَنِ وَٱلْقَبِيحِ فَظَاهِرٌ أَنَّ كُلَّ تَشْبِيهٍ وَحِكَايَةٍ إِنَّمَا يُقْصَدُ بِهَا ٱلتَّحْسِينُ وَٱلتَّقْبِيحُ وَقَدْ يَجِبُ مَعَ هٰذَا ضَرُورَةً أَنْ يَكُونَ ٱلمُحَاكُونَ لِلْفَضَائِلِ أَعْنِي ٱلْمَائِلِينَ بِٱلطَّبْعِ إِلَى مُحَاكَاتِهَا أَفَاضِلَ. وَٱلمُحَاكُونَ لِلرَّذَائِلِ أَنْقَصُ طَبْعًا مِنْ هٰؤُلَاءِ وَأَقْرَبُ إِلَى ٱلرَّذِيلَةِ وَعَنْ هٰذَيْنِ ٱلصِّنْفَيْنِ مِنَ ٱلنَّاسِ وُجِدَ ٱلْمَدِيحُ وَٱلْهَجْوُ. أَعْنِي مَدْحَ ٱلْفَضَائِلِ وَهَجْوَ ٱلرَّذَائِلِ وَلِهٰذَا كَانَ بَعْضُ ٱلشُّعَرَاءِ يُجِيدُ ٱلْمَدْحَ وَلَا يُجِيدُ ٱلْهَجْوَ وَبَعْضُهُمْ بِٱلْعَكْسِ أَعْنِي يُجِيدُ ٱلْهَجْوَ وَلَا يُجِيدُ ٱلْمَدْحَ فَإِذَنْ بِٱلْوَاجِبِ مَا كَانَ يُوجَدُ لِكُلِّ تَشْبِيهٍ وَحِكَايَةٍ هٰذَانِ

ٱلْفَصْلَانِ اَعْنِي ٱلتَّحْسِينَ وَٱلتَّقْبِيحَ وَهٰذَانِ ٱلْفَصْلَانِ اِنَّمَا يُوجَدَانِ لِلتَّشْبِيهِ وَٱلْمُحَاكَاةِ ٱلَّتِي تَكُونُ بِٱلْقَوْلِ لَا ٱلْمُحَاكَاةِ ٱلَّتِي تَكُونُ بِٱلْوَزْنِ وَلَا ٱلَّتِي تَكُونُ بِٱللَّحْنِ. وَقَدْ يُوجَدُ لِلتَّشْبِيهِ بِٱلْقَوْلِ فَصْلٌ ثَالِثٌ وَهُوَ ٱلتَّشْبِيهُ ٱلَّذِي يُقْصَدُ بِهِ مُطَابَقَةُ ٱلْمُشَبَّهِ بِهِ مِنْ غَيْرِ اَنْ يُقْصَدَ فِي ذٰلِكَ تَحْسِينٌ اَوْ تَقْبِيحٌ لٰكِنْ نَفْسُ ٱلْمُطَابَقَةِ وَهٰذَا ٱلنَّوْعُ مِنَ ٱلتَّشْبِيهِ هُوَ كَٱلْمَادَّةِ ٱلْمُعَدَّةِ لِاَنْ يَسْتَحِيلَ اِلَى ٱلطَّرَفَيْنِ اَعْنِي اَنَّهَا تَسْتَحِيلُ تَارَةً اِلَى ٱلتَّحْسِينِ بِزِيَادَةٍ عَلَيْهَا وَتَارَةً اِلَى ٱلتَّقْبِيحِ بِزِيَادَةٍ اَيْضًا عَلَيْهَا (قَالَ) وَهٰذِهِ كَانَتْ طَرِيقَةُ اُومِيرُوشَ اَعْنِي اَنَّهُ كَانَ يَأْتِي فِي تَشْبِيهَاتِهِ بِٱلْمُطَابَقَةِ وَٱلزِّيَادَةِ ٱلْمُحَسِّنَةِ وَٱلْمُقَبِّحَةِ. وَمِنَ ٱلشُّعَرَاءِ مَنْ اِجَادَتُهُ اِنَّمَا هِيَ فِي ٱلْمُطَابَقَةِ فَقَطْ. وَمِنْهُمْ مَنْ اِجَادَتُهُ فِي ٱلتَّحْسِينِ وَٱلتَّقْبِيحِ. وَمِنْهُمْ مَنْ جَمَعَ ٱلْاَمْرَيْنِ مِثْلُ اُومِيرُوشَ وَتَمَثَّلَ فِي كُلِّ صِنْفٍ مِنْ هٰؤُلَاءِ بِاَصْنَافٍ مِنَ ٱلشُّعَرَاءِ كَانُوا مَشْهُورِينَ فِي مُدَّتِهِمْ وَسِيَاسَتِهِمْ بِٱسْتِعْمَالِ صِنْفٍ صِنْفٍ مِنْ اَصْنَافِ هٰذِهِ ٱلتَّشْبِيهَاتِ ٱلثَّلَاثَةِ. وَاَنْتَ فَلَيْسَ يَعْسُرُ عَلَيْكَ وُجُودُ مِثَالَاتِ ذٰلِكَ فِي اَشْعَارِ ٱلْعَرَبِ وَاِنْ كَانَتْ اَكْثَرُ اَشْعَارِ ٱلْعَرَبِ اِنَّمَا هِيَ كَمَا يَقُولُ اَبُو نَصْرٍ فِي ٱلنَّهِمِ وَٱلْكَرِيهِ. وَذٰلِكَ اَنَّ ٱلنَّوْعَ ٱلَّذِي يُسَمُّونَهُ ٱلنَّسِيبَ اِنَّمَا هُوَ حَثٌّ عَلَى ٱلْفُسُوقِ وَلِذٰلِكَ يَنْبَغِي اَنْ يَتَجَنَّبَهُ ٱلْوِلْدَانُ وَيُؤَدَّبُونَ مِنْ اَشْعَارِهِمْ بِمَا يُحَثُّ فِيهِ عَلَى ٱلشَّجَاعَةِ وَٱلْكَرَمِ. فَاِنَّهُ لَيْسَ تَحُثُّ ٱلْعَرَبُ فِي اَشْعَارِهَا مِنَ ٱلْفَضَائِلِ عَلَى سِوَى هَاتَيْنِ ٱلْفَضِيلَتَيْنِ وَاِنْ كَانَتْ لَيْسَ تَتَكَلَّمُ فِيهِمَا عَلَى طَرِيقِ ٱلْحَثِّ عَلَيْهِمَا

وَإِنَّمَا تَتَكَلَّمُ فِيهِمَا عَلَى طَرِيقِ ٱلْفَخْرِ. وَأَمَّا ٱلصِّنْفُ مِنَ ٱلْأَشْعَارِ ٱلَّذِي ٱلْمَقْصُودُ بِهِ ٱلْمُطَابَقَةُ فَقَطْ فَهُوَ مَوْجُودٌ كَثِيرٌ فِي أَشْعَارِهِمْ وَلِذٰلِكَ يَصِفُونَ ٱلْجَمَادَاتِ كَثِيرًا وَٱلْحَيَوَانَاتِ وَٱلنَّبَاتَ. وَأَمَّا ٱلْيُونَانِيُّونَ فَلَمْ يَكُونُوا يَقُولُونَ أَكْثَرَ ذٰلِكَ شِعْرًا إِلَّا وَهُوَ مُوَجَّهٌ نَحْوَ ٱلْفَضِيلَةِ أَوِ ٱلْكَفِّ عَنِ ٱلرَّذِيلَةِ أَوْ مَا يُفِيدُ أَدَبًا مِنَ ٱلْآدَابِ أَوْ مَعْرِفَةً مِنَ ٱلْمَعَارِفِ. فَقَدْ تَبَيَّنَ مِنْ هٰذَا ٱلْقَوْلِ أَنَّ أَصْنَافَ ٱلتَّشْبِيهَاتِ ثَلَاثَةُ أُصُولٍ وَأَنَّ فُصُولَهَا ثَلَاثَةٌ وَتَبَيَّنَ مَا هِيَ هٰذِهِ ٱلْفُصُولُ ٱلثَّلَاثَةُ وَٱلْأَصْنَافُ ٱلثَّلَاثَةُ. وَيُشْبِهُ إِذَا ٱسْتُقْرِيَتِ ٱلْأَشْعَارُ أَنْ يَقَعَ ٱلْيَقِينُ بِأَنَّهُ لَيْسَ هَاهُنَا صِنْفٌ رَابِعٌ مِنْ أَصْنَافِ ٱلتَّشْبِيهَاتِ وَلَا فَصْلٌ رَابِعٌ مِنْ فُصُولِ تِلْكَ ٱلْأَصْنَافِ

البحث الثالث

في العلل المولّدة للشعر

(من الكتاب نفسهِ)

(قَالَ) وَيُشْبِهُ أَنْ تَكُونَ ٱلْعِلَلُ ٱلْمُوَلِّدَةُ لِلشِّعْرِ بِٱلطَّبْعِ فِي ٱلنَّاسِ عِلَّتَيْنِ. أَمَّا ٱلْعِلَّةُ ٱلْأُولَى فَوُجُودُ ٱلتَّشْبِيهِ وَٱلْمُحَاكَاةِ لِلْإِنْسَانِ بِٱلطَّبْعِ مِنْ أَوَّلِ مَا يَنْشَأُ أَعْنِي أَنَّ هٰذَا ٱلْفِعْلَ يُوجَدُ لِلنَّاسِ وَهُمْ أَطْفَالٌ وَهٰذَا شَيْءٌ يَخْتَصُّ بِهِ ٱلْإِنْسَانُ مِنْ دُونِ سَائِرِ ٱلْحَيَوَانَاتِ وَٱلْعِلَّةُ فِي ذٰلِكَ أَنَّ ٱلْإِنْسَانَ مِنْ بَيْنِ سَائِرِ ٱلْحَيَوَانِ هُوَ ٱلَّذِي

يَلتَذُّ بِالتَّشبِيهِ لِلاَشيَاءِ الَّتِي قَدْ اَحسَّهَا وَبِالمُحَاكَاةِ لَهَا. وَالدَّلِيلُ عَلَى اَنَّ الاِنسَانَ يُسَرُّ بِالتَّشبِيهِ بِالطَّبعِ وَيَفرَحُ هُوَ اَنَّا نَلتَذُّ وَنُسَرُّ بِمُحَاكَاةِ الاَشيَاءِ الَّتِي لَا نَلتَذُّ بِاِحسَاسِهَا وَبِخَاصَّةٍ اِذَا كَانَتِ المُحَاكَاةُ شَدِيدَةَ الاِستِقصَاءِ مِثلُ مَا يَعرِضُ فِي تَصَاوِيرِ كَثِيرٍ مِنَ الحَيَوَانَاتِ الَّتِي يَعمَلُهَا المَهَرَةُ مِنَ المُصَوِّرِينَ وَلِهٰذِهِ العِلَّةِ اَستُعمِلَ فِي التَّعلِيمِ عِندَ الاِفهَامِ وَالتَّخَاطُبِ الاِشَارَاتُ فَاِنَّهَا اَدَاةٌ مُعِينَةٌ عَلَى فَهمِ الاَمرِ الَّذِي يُقصَدُ تَفهِيمُهُ لِمَكَانِ مَا فِيهَا مِنَ الاِلتِذَاذِ الَّذِي هُوَ مَوجُودٌ فِي الاِشَارَاتِ مِن قِبَلِ مَا فِيهَا مِنَ التَّخيِيلِ فَتَكُونُ النَّفسُ بِحَسَبِ التِذَاذِهَا بِهِ اَتَمَّ قُبُولًا لَهُ. فَاِنَّ التَّعلِيمَ لَيسَ اِنَّمَا يُوجَدُ لِلفَيلَسُوفِ فَقَط بَل وَلِلنَّاسِ فِي ذٰلِكَ مُشَارَكَةٌ يَسِيرَةٌ مَعَ الفَيلَسُوفِ. وَذٰلِكَ اَنَّهُ يُوجَدُ التَّعلِيمُ بِالطَّبعِ يَصدُرُ مِن اِنسَانٍ اِلَى اِنسَانٍ بِحَسَبِ قِيَاسِ ذٰلِكَ الاِنسَانِ المُعَلِّمِ مِنَ الاِنسَانِ المُتَعَلِّمِ. وَالاِشَارَاتُ لَمَّا كَانَت اِنَّمَا هِيَ تَشبِيهَاتٌ لِاُمُورٍ قَد اُحِسَّت فَبَيِّنٌ اَنَّهَا اِنَّمَا تُستَعمَلُ لِمَوَاضِعِ المُسَارَعَةِ اِلَى الفَهمِ وَالقَبُولِ لَهُ وَاَنَّهُ اِنَّمَا يُفهَمُ بِمَا فِيهَا مِنَ الاِلتِذَاذِ لِمَوضِعِ التَّخيِيلِ الَّذِي فِيهَا. فَهٰذِهِ هِيَ العِلَّةُ الاُولَى المُوَلِّدَةُ لِلشِّعرِ. وَاَمَّا العِلَّةُ الثَّانِيَةُ فَالتِذَاذُ الاِنسَانِ اَيضًا بِالطَّبعِ بِالوَزنِ وَالاَلحَانِ فَاِنَّ الاَلحَانَ يَظهَرُ مِن اَمرِهَا اَنَّهَا مُنَاسِبَةٌ لِلوَزنِ عِندَ الَّذِينَ فِي طِبَاعِهِم اَن يُدرِكُوا الاَوزَانَ وَالاَلحَانَ فَالتِذَاذُ النَّفسِ بِالطَّبعِ بِالمُحَاكَاةِ وَالاَلحَانِ وَالاَوزَانِ هُوَ السَّبَبُ فِي وُجُودِ الصِّنَاعَاتِ الشِّعرِيَّةِ

وَبِخَاصَّةٍ عِنْدَ ٱلفِطَرِ ٱلفَائِقَةِ فِي ذٰلِكَ فَإِذَا نَشَأَتِ ٱلأُمَّـةُ تَوَلَّدَتْ فِيهِمْ صِنَاعَةُ ٱلشِّعْرِ مِنْ حَيْثُ إِنَّ ٱلأَوَّلَ يَأْتِي مِنْهَا اوَّلًا بِجُزْءٍ يَسِيرٍ ثُمَّ يَأْتِي مَنْ بَعْدَهُ بِجُزْءٍ آخَرَ وَهٰكَذَا إِلَى انْ تَكْمُلَ ٱلصِّنَاعَاتُ ٱلشِّعْرِيَّةُ . وَتَكْمُلُ ايضًا اصْنَافُهَا بِحَسَبِ ٱسْتِعْدَادِ صِنْفٍ صِنْفٍ مِنَ ٱلنَّاسِ لِلِالْتِذَاذِ اكْثَرَ بِصِنْفٍ صِنْفٍ مِنْ اصْنَافِ ٱلشِّعْرِ . مِثَالُ ذٰلِكَ انَّ ٱلنُّفُوسَ ٱلَّتِي هِيَ فَاضِلَةٌ وَشَرِيفَةٌ بِٱلطَّبْعِ هِيَ ٱلَّتِي تُنْشِئُ اوَّلًا صِنَاعَةَ ٱلْمَدِيحِ اعْنِي مَدِيحَ ٱلافْعَالِ ٱلجَمِيلَةِ . وَٱلنُّفُوسُ ٱلَّتِي هِيَ اخَسُّ مِنْ هٰذِهِ هِيَ ٱلَّتِي تُنْشِئُ صِنَاعَةَ ٱلهِجَاءِ اعْنِي هِجَاءَ ٱلافْعَالِ ٱلقَبِيحَةِ وَإِنْ كَانَ قَدْ يُضْطَرُّ ٱلَّذِي مَقْصِدُهُ ٱلهِجَاءُ لِلشِّرَارِ وَٱلشُّرُورِ انْ يَمْدَحَ ٱلاخْيَارَ وَٱلافْعَالَ ٱلفَاضِلَةَ لِيَكُونَ ظُهُورُ قُبْحِ ٱلشُّرُورِ اكْثَرَ اعْنِي إِذَا ذَكَرَهَا ثُمَّ ذَكَرَ بِإِزَائِهَا ٱلافْعَالَ ٱلقَبِيحَةَ . فَهٰذَا مَا فِي هٰذَا ٱلفَصْلِ مِنَ ٱلأُمُورِ ٱلمُشْتَرَكَةِ لِجَمِيعِ ٱلأُمَمِ اوْ لِلأَكْثَرِ وَسَائِرُ مَا يُذْكَرُ فِيهِ فَكُلُّهُ اوْ جُلُّهُ مِمَّا يَخُصُّ اشْعَارَهُمْ وَعَادَتَهُمْ فِيهَا وَذٰلِكَ انَّهُ يَذْكُرُ اصْنَافَ ٱلصِّنَاعَاتِ ٱلشِّعْرِيَّةِ ٱلَّتِي كَانَتْ تُسْتَعْمَلُ عِنْدَهُمْ وَكَيْفَ كَانَ مَنْشَأُ وَاحِدَةٍ وَاحِدَةٍ مِنْهَا بِٱلطَّبْعِ وَايُّ جُزْءٍ هُوَ ٱلمُتَقَدِّمُ مِنْهَا فِي ٱلكَوْنِ عَلَى ايِّ جُزْءٍ وَبِخَاصَّةٍ فِي صِنَاعَةِ ٱلمَدِيحِ وَصِنَاعَةِ ٱلهِجَاءِ ٱلمَشْهُورَتَيْنِ عِنْدَهُمْ وَيَذْكُرُ مَعَ هٰذَا اوَّلَ مَنِ ٱبْتَدَأَ صِنَاعَةً صِنَاعَةً مِنْ تِلْكَ ٱلصَّنَائِعِ ٱلشِّعْرِيَّةِ ٱلمُعْتَادَةِ عِنْدَهُمْ وَمَنْ زَادَ فِيهَا وَمَنْ كَمَّلَهَا بَعْدُ . وَهُوَ فِي هٰذَا ٱلبَابِ يُثْنِي عَلَى اومِيرُوشَ ثَنَاءً كَثِيرًا وَيَعْرِفُ انَّهُ ٱلَّذِي اعْطَى مَبَادِئَ هٰذِهِ ٱلصَّنَائِعِ وَانَّهُ لَمْ يَكُنْ لِأَحَدٍ

قَبْلَهُ فِي صِنَاعَةِ ٱلْمَدِيحِ عَمَلٌ لَهُ قَدْرٌ يُعْتَدُّ بِهِ وَلَا فِي صِنَاعَةِ ٱلْهِجَاءِ وَلَا فِي غَيْرِ ذٰلِكَ مِنَ ٱلصَّنَائِعِ ٱلْمَشْهُورَةِ عِنْدَهُمْ. قَالَ وَٱلْأَنْقَصُ مِنَ ٱلْأَشْعَارِ وَٱلْأَقْصَرُ هِيَ ٱلْمُتَقَدِّمَةُ بِٱلزَّمَانِ لِأَنَّ ٱلطِّبَاعَ أَسْهَلُ وُقُوعًا عَلَيْهَا أَوَّلًا. وَٱلْأَقْصَرُ هِيَ ٱلَّتِي تَكُونُ مِنْ مَقَاطِعَ أَقَلَّ وَٱلْأَنْقَصُ هِيَ ٱلَّتِي تَكُونُ مِنْ نَغَمَاتٍ أَقَلَّ أَيْضًا. (قَالَ) وَٱلدَّلِيلُ عَلَى أَنَّ هٰذِهِ ٱلْأَنْوَاعَ أَسْبَقُ إِلَى ٱلنُّفُوسِ أَنَّ ٱلنَّاسَ عِنْدَ ٱلْمُنَازَعَاتِ قَدْ يَرْتَجِلُونَ مَصَارِيعَ مِنْ هٰذِهِ فِي مُجَادَلَتِهِمْ وَذٰلِكَ عِنْدَ ٱلْحَرَجِ. يُرِيدُ فِيمَا أَحْسِبُ مِثْلَ قَوْلِ ٱلْقَائِلِ: لَا لَا لَا يُعَدُّ بِهَا صَوْتُهُ. وَمِثْلَ قَوْلِهِ لَيْسَ هٰذَا كَذَا مَاذَا بِهَا صَوْتُهُ فَإِنَّ أَمْثَالَ هٰذِهِ ٱلْمُرَاجَعَاتِ هِيَ مَصَارِيعُ مَوْزُونَةٌ ذَاتُ لَحْنٍ وَأَمَّا ٱلَّتِي هِيَ أَطْوَلُ وَأَتَمُّ فَإِنَّمَا ظَهَرَتْ بِآخِرَةٍ كَٱلْحَالِ فِي سَائِرِ ٱلصَّنَائِعِ. (قَالَ) وَصِنَاعَةُ ٱلْهِجَاءِ لَيْسَ إِنَّمَا يُقْصَدُ بِهَا ٱلْمُحَاكَاةُ بِكُلِّ مَا هُوَ شَرٌّ وَقَبِيحٌ فَقَطْ بَلْ وَبِكُلِّ مَا هُوَ شَيْءٌ مُسْتَهْزَأٌ بِهِ أَيْ مَرْذُولٌ قَبِيحٌ غَيْرُ مُغْتَمٍّ بِهِ. (قَالَ) وَٱلدَّلِيلُ عَلَى أَنَّ ٱلِٱسْتِهْزَاءَ يَجِبُ أَنْ يَجْمَعَ هٰذِهِ ٱلثَّلَاثَةَ ٱلْأَوْصَافَ أَنَّهُ يُوجَدُ فِي وَجْهِ ٱلْمُسْتَهْزِئِ هٰذِهِ ٱلْأَحْوَالُ ٱلثَّلَاثَةُ أَعْنِي قَبَاحَةَ ٱلْوَجْهِ وَهَيْئَةَ ٱلِٱسْتِصْغَارِ وَقِلَّةَ ٱلِٱكْتِرَاثِ بِٱلْمُسْتَهْزَإِ بِهِ وَذٰلِكَ بِخِلَافِ وَجْهِ ٱلْغَاضِبِ أَعْنِي أَنَّ فِيهِ قُبْحًا وَٱهْتِمَامًا وَتِلْكَ هِيَ حَالَةُ نَفْسِ ٱلْغَاضِبِ عَلَى ٱلشَّيْءِ ٱلَّذِي يُغْضَبُ عَلَيْهِ



البحث الرابع

في وزن الشعر ولحنه

(من الكتاب نفسه)

(قَالَ) وَإِجادُ صِناعَةِ ٱلْمَدِيحِ يَكُونُ تَعَلُّمُهَا فِي ٱلْأَعَارِيضِ ٱلطَّوِيلَةِ لَا فِي ٱلْقَصِيرَةِ وَلِذٰلِكَ رَفَضَ ٱلْمُتَأَخِّرُونَ ٱلْأَعَارِيضَ ٱلْقِصَارَ ٱلَّتِي كَانَتْ تُسْتَعْمَلُ فِيهَا وَفِي غَيْرِهَا مِنْ صَنَائِعِ ٱلشِّعْرِ. وَأَخَصُّ ٱلْأَوْزَانِ بِهَا هُوَ ٱلْوَزْنُ ٱلْبَسِيطُ ٱلْغَيْرُ مُرَكَّبٍ وَلٰكِنْ يَنْبَغِي أَلَّا يُبْلَغَ فِيهَا مِنَ ٱلطُّولِ إِلَى حَدٍّ يُسْتَكْرَهُ. وَٱلْحَدُّ ٱلْمُفْهِمُ جَوْهَرَ صِنَاعَةِ ٱلْمَدِيحِ هُوَ أَنَّهَا نِسْبَةٌ وَمُحَاكَاةٌ لِلْعَمَلِ ٱلْإِرَادِيِّ ٱلْفَاضِلِ ٱلْكَامِلِ ٱلَّذِي لَهُ قُوَّةٌ كُلِّيَّةٌ فِي ٱلْأُمُورِ ٱلْفَاضِلَةِ لَا قُوَّةٌ جُزْئِيَّةٌ فِي وَاحِدٍ وَاحِدٍ مِنَ ٱلْأُمُورِ ٱلْفَاضِلَةِ مُحَاكَاةً تَنْفَعِلُ لَهَا ٱلنُّفُوسُ ٱنْفِعَالًا مُعْتَدِلًا بِمَا يُوَلِّدُ فِيهَا مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَٱلْخَوْفِ وَذٰلِكَ بِمَا يُخَيِّلُ فِي ٱلْفَاضِلِينَ مِنَ ٱلنَّقِيِّ وَٱلنَّظَافَةِ فَإِنَّ ٱلْمُحَاكَاةَ إِنَّمَا هِيَ لِلْهَيْئَاتِ ٱلَّتِي تَلْزَمُ ٱلْفَضَائِلَ لَا لِلْمَلَكَاتِ إِذْ لَيْسَ يُمْكِنُ فِيهَا أَنْ يُتَخَيَّلَ. وَهٰذِهِ ٱلْمُحَاكَاةُ بِٱلْقَوْلِ تَكْمُلُ إِذَا قُرِنَ بِهَا ٱللَّحْنُ وَٱلْوَزْنُ وَقَدْ تُوجَدُ مِنَ ٱلْمُنْشِدِينَ أَحْوَالٌ أُخَرُ خَارِجَةٌ عَنِ ٱلْوَزْنِ وَٱللَّحْنِ تَجْعَلُ ٱلْقَوْلَ أَتَمَّ مُحَاكَاةً وَهِيَ ٱلْإِشَارَاتُ وَٱلْأَخْذُ بِٱلْوُجُوهِ ٱلَّذِي قِيلَ فِي كِتَابِ ٱلْخَطَابَةِ فَأَوَّلُ أَجْزَاءِ صِنَاعَةِ ٱلْمَدِيحِ ٱلشِّعْرِيَّةِ فِي ٱلْعَمَلِ هُوَ أَنْ تُحْصَى

ٱلْمَعَانِي ٱلشَّرِيفَةُ ٱلَّتِي بِهَا يَكُونُ ٱلتَّخْيِيلُ . ثُمَّ تُكْسَى تِلْكَ ٱلْمَعَانِي ٱللَّحْنَ وَٱلْوَزْنَ ٱلْمُلَائِمَيْنِ لِلشَّيْءِ ٱلْمَقُولِ فِيهِ . وَعَمَلُ ٱللَّحْنِ فِي ٱلشِّعْرِ هُوَ أَنَّهُ يُعِدُّ ٱلنَّفْسَ لِقَبُولِ خَيَالِ ٱلشَّيْءِ ٱلَّذِي يُقْصَدُ تَخْيِيلُهُ فَكَانَ ٱللَّحْنُ هُوَ ٱلَّذِي يُفِيدُ ٱلنَّفْسَ ٱلِٱسْتِعْدَادَ ٱلَّذِي بِهِ يُقْبَلُ ٱلتَّشْبِيهُ وَٱلْمُحَاكَاةُ لِلشَّيْءِ ٱلْمَقْصُودِ تَشْبِيهُهُ . وَإِنَّمَا يُفِيدُ ٱلنَّفْسَ هٰذِهِ ٱلْهَيْئَةَ فِي نَوْعٍ نَوْعٍ مِنْ أَنْوَاعِ ٱلشِّعْرِ ٱللَّحْنُ ٱلْمُلَائِمُ لِذٰلِكَ ٱلنَّوْعِ مِنَ ٱلشِّعْرِ بِنَغَمَاتِهِ وَتَأْلِيفِهِ . فَإِنَّهُ كَمَا أَنَّا نَجِدُ ٱلنَّغَمَ ٱلْحَادَّةَ تُلَائِمُ نَوْعًا مِنَ ٱلْقَوْلِ غَيْرَ ٱلَّذِي تُلَائِمُهُ ٱلنَّغَمَاتُ ٱلثِّقَالُ كَذٰلِكَ يَنْبَغِي أَنْ نَعْتَقِدَ فِي تَرْكِيبِ ٱلْأَلْحَانِ وَهَيْئَاتِ ٱلْمُحَدِّثِينَ وَٱلْقُصَّاصِ ٱلَّتِي تُكْمِلُ ٱلتَّخْيِيلَ ٱلْمَوْجُودَ فِي ٱلْأَقَاوِيلِ ٱلشِّعْرِيَّةِ أَنْفُسِهَا مِنْ قِبَلِ هٰذِهِ ٱلثَّلَاثَةِ أَعْنِي ٱلتَّشْبِيهَ وَٱلْوَزْنَ وَٱللَّحْنَ ٱلَّتِي هِيَ إِسْطَقِسَّاتُ ٱلْمُحَاكَاةِ هِيَ بِٱلْجُمْلَةِ هَيْئَتَانِ إِحْدَاهُمَا هَيْئَةٌ تَدُلُّ عَلَى خُلُقٍ وَعَادَةٍ كَمَنْ يَتَكَلَّمُ كَلَامَ عَاقِلٍ أَوْ كَلَامَ غَضُوبٍ وَٱلثَّانِيَةُ هَيْئَةٌ تَدُلُّ عَلَى ٱعْتِقَادٍ فَإِنَّهُ لَيْسَ هَيْئَةُ مَنْ يَتَكَلَّمُ وَهُوَ مُتَحَقِّقٌ بِٱلشَّيْءِ هَيْئَةَ مَنْ يَتَكَلَّمُ فِيهِ وَهُوَ شَاكٌّ . فَٱلْقَاصُّ وَٱلْمُحَدِّثُ فِي ٱلْمَدِيحِ يَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ هَيْئَةُ قَوْلِهِ وَشَكْلِهِ هَيْئَةَ مُحِقٍّ لَا شَاكٍّ وَهَيْئَةَ جَادٍّ لَا هَازِلٍ وَٱلْقَصَصُ وَٱلْحَدِيثُ ٱلَّذِي يَنْبَغِي أَنْ يُعَبِّرَ عَنْهُ ٱلْقَاصُّ وَٱلْمُحَدِّثُ وَهُوَ بِهَاتَيْنِ ٱلْحَالَتَيْنِ هُوَ ٱلْخُرَافَةُ ٱلَّتِي تَكُونُ بِٱلتَّشْبِيهِ وَٱلْمُحَاكَاةِ وَأَعْنِي بِٱلْخُرَافَةِ تَرْكِيبَ ٱلْأُمُورِ ٱلَّتِي تُقْصَدُ مُحَاكَاتُهَا إِمَّا بِحَسَبِ مَا هِيَ عَلَيْهِ فِي أَنْفُسِهَا أَعْنِي فِي ٱلْوُجُودِ وَإِمَّا بِحَسَبِ مَا ٱعْتِيدَ فِي ٱلشِّعْرِ

مِنْ ذٰلِكَ وَإِنْ كَانَ كَذِبًا. وَلِهٰذَا قِيلَ لِلْأَقَاوِيلِ ٱلشِّعْرِيَّةِ خُرَافَاتٌ فَٱلْقُصَّاصُ وَٱلْمُحَدِّثُونَ بِٱلْجُمْلَةِ هُمُ ٱلَّذِينَ لَهُمْ قُدْرَةٌ عَلَى مُحَاكَاةِ ٱلْعَادَاتِ وَٱلِٱعْتِقَادَاتِ (قَالَ) وَقَدْ يَجِبُ أَنْ تَكُونَ أَجْزَاءُ صِنَاعَةِ ٱلْمَدِيحِ سِتَّةً: ٱلْأَقَاوِيلُ ٱلْخُرَافِيَّةُ وَٱلْعَادَاتُ وَٱلْوَزْنُ وَٱلِٱعْتِقَادَاتُ وَٱلنَّظَرُ وَٱللَّحْنُ. وَٱلدَّلِيلُ عَلَى ذٰلِكَ أَنَّ كُلَّ قَوْلٍ شِعْرِيٍّ قَدْ يَنْقَسِمُ إِلَى مُشَبَّهٍ وَمُشَبَّهٍ بِهِ وَٱلَّذِي بِهِ يُشَبَّهُ ثَلَاثَةٌ ٱلْمُحَاكَاةُ وَٱلْوَزْنُ وَٱللَّحْنُ وَٱلَّذِي يُشَبَّهُ فِي ٱلْمَدْحِ ثَلَاثَةٌ أَيْضًا: ٱلْعَادَاتُ وَٱلِٱعْتِقَادَاتُ وَٱلنَّظَرُ أَعْنِي ٱلِٱسْتِدْلَالَ لِصَوَابِ ٱلِٱعْتِقَادِ فَتَكُونُ أَجْزَاءُ صِنَاعَةِ ٱلْمَدِيحِ ضَرُورَةً سِتَّةً. وَإِنَّمَا كَانَتِ ٱلْعَادَاتُ وَٱلِٱعْتِقَادَاتُ أَعْظَمَ أَجْزَاءِ ٱلْمَدِيحِ لِأَنَّ صِنَاعَةَ ٱلْمَدِيحِ لَيْسَتْ هِيَ صِنَاعَةً تُحَاكِي ٱلنَّاسَ أَنْفُسَهُمْ مِنْ جِهَةِ مَا هُمْ أَشْخَاصُ نَاسٍ مَحْسُوسُونَ بَلْ إِنَّمَا تُحَاكِيهِمْ مِنْ قِبَلِ عَادَاتِهِمِ ٱلْجَمِيلَةِ وَأَفْعَالِهِمِ ٱلْحَسَنَةِ وَٱعْتِقَادَاتِهِمِ ٱلسَّعِيدَةِ تَشْمَلُ ٱلْأَفْعَالَ وَٱلْخُلُقَ وَلِذٰلِكَ جُعِلَتِ ٱلْعَادَةُ أَحَدَ أَجْزَاءِ ٱلسِّتَّةِ وَٱسْتُغْنِيَ بِذِكْرِهَا فِي ٱلتَّقْسِيمِ عَنْ ذِكْرِ ٱلْأَفْعَالِ وَٱلْخُلُقِ. وَأَمَّا ٱلنَّظَرُ فَهُوَ إِبَانَةُ صَوَابِ ٱلِٱعْتِقَادِ وَكَأَنَّهُ كَانَ عِنْدَهُمْ ضَرْبًا مِنَ ٱلِٱحْتِجَاجِ لِصَوَابِ ٱلِٱعْتِقَادِ ٱلْمَمْدُوحِ بِهِ. وَهٰذَا كُلُّهُ لَيْسَ يُوجَدُ فِي أَشْعَارِ ٱلْعَرَبِ وَإِنَّمَا يُوجَدُ فِي ٱلْأَقَاوِيلِ ٱلشَّرْعِيَّةِ ٱلْمَدِيحِيَّةِ وَكَانُوا يُحَاكُونَ هٰذِهِ ٱلثَّلَاثَةَ ٱلْأَشْيَاءَ أَعْنِي ٱلْعَادَاتِ وَٱلِٱعْتِقَادَاتِ وَٱلِٱسْتِدْلَالَ بِٱلثَّلَاثَةِ ٱلْأَصْنَافِ مِنَ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي بِهَا يُحَاكَى أَعْنِي ٱلْقَوْلَ ٱلْمُخَيِّلَ وَٱلْوَزْنَ وَٱللَّحْنَ (قَالَ) وَأَجْزَاءُ ٱلْقَوْلِ ٱلْخُرَافِيِّ مِنْ جِهَةِ مَا هُوَ مُحَاكٍ جُزْءَانِ وَذٰلِكَ أَنَّ

كُلَّ مُحاكَاةٍ فَامَّا انْ تُوطِئَ لِمحاكَاتِهِ بمُحاكَاةِ ضِدِّهِ ثُمَّ يُنتَقلُ مِنهُ الى مُحاكَاتِهِ وَهُوَ ٱلَّذي كَانَ يُعرَفُ عِندَهُم بِٱلِادارَةِ وَامَّا انْ يُحاكي ٱلشَّيْءَ نفسَهُ دُونَ انْ يَعرِضَ لِمحاكَاةِ ضِدِّهِ وَهُوَ ٱلَّذي كَانَ يُسَمُّونَهُ بِٱلِاستِدلَالِ. وَٱلَّذي يَتنَزَّلُ مِن هٰذِهِ ٱلاجزاءِ مَنزِلَةَ ٱلمَبدإِ وَٱلاسِّ هُوَ ٱلقَولُ ٱلخُرافيُّ ٱلمُحاكي. وَٱلجزءُ ٱلثَّاني ٱلعاداتُ وَهُوَ ٱلَّذي تُستَعمَلُ اوَّلًا فيهِ ٱلمُحاكَاةُ اعني انَّهُ ٱلَّذي يُحاكَى وَانَّما كَانَتِ ٱلحِكايَةُ هِيَ ٱلعَمودَ وَٱلاسَّ في هٰذِهِ ٱلصِّناعَةِ لِانَّ ٱلِالتِذاذَ لَيسَ يَكونُ بِذِكرِ ٱلشَّيْءِ ٱلمَقصودِ ذِكرُهُ دُونَ انْ يُحاكَى بَلْ اِنَّما يَكونُ ٱلِالتِذاذُ بِهِ وَٱلقَبولُ لَهُ اِذا حُوكِيَ. وَلِذٰلِكَ لَا يَلتَذُّ ٱلانسانُ بِٱلنَّظَرِ الى صُوَرِ ٱلاشياءِ ٱلمَوجودَةِ انفُسِها وَيَلتَذُّ بِمُحاكَاتِها وَتَصويرِها بِٱلاصباغِ وَٱلالوانِ وَلِذٰلِكَ ٱستَعمَلَ ٱلنَّاسُ صِناعَةَ ٱلزِّواقَةِ وَٱلتَّصويرِ. وَٱلجُزءُ ٱلثَّالِثُ لِصِناعَةِ ٱلمَديحِ اعني ٱلتَّالي لِلثَّاني هُوَ ٱلِاعتِقادُ وَهٰذا هُوَ ٱلقُدرَةُ عَلى مُحاكَاةِ ما هُوَ مَوجودٌ كَذا اوْ لَيسَ بِمَوجودٍ كَذا. وَذٰلِكَ مِثلُ ما تَتَكَلَّفُهُ ٱلخِطابَةُ مِنْ تَبيينِ انَّ شَيئًا مَوجودٌ اوْ غَيرُ مَوجود اِلَّا انَّ ٱلخِطابَةَ تَتَكَلَّفُ ذٰلِكَ بِقَولٍ مُقنِعٍ وَٱلشِّعرَ بِقَولٍ مُحاكٍ وَهٰذِهِ ٱلمُحاكَاةُ هِيَ ايضًا مَوجودَةٌ في ٱلاقاويلِ ٱلشِّعرِيَّةِ. (قالَ) وَقَدْ كَانَ ٱلاقدَمونَ مِنْ وَاضِعي ٱلسِّياسَاتِ يَقتَصِرونَ عَلى تَمكينِ ٱلِاعتِقاداتِ فِي ٱلنُّفوسِ بِٱلاقاويلِ ٱلشِّعرِيَّةِ حَتَّى شَعَرَ ٱلمُتَاخِّرونَ بِٱلطُّرُقِ ٱلخَطَبِيَّةِ وَٱلفَرقَ بَينَ ٱلقَولِ ٱلشِّعرِيِّ ٱلَّذي يَحُثُّ عَلى ٱلِاعتِقادِ وَٱلَّذي يَحُثُّ عَلى ٱلعادَةِ.

إنَّ ٱلَّذي يَحُثُّ عَلَى ٱلْعَادَةِ يَحُثُّ عَلَى عَمَلِ شَيْءٍ أَوْ عَلَى ٱلْهَرَبِ مِنْ شَيْءٍ وَٱلْقَوْلَ ٱلَّذي يَحُثُّ عَلَى ٱلِاعْتِقَادِ إنَّمَا يَحُثُّ عَلَى أَنَّ شَيْئًا مَوْجُودٌ أَوْ غَيْرُ مَوْجُودٍ لا عَلَى شَيْءٍ يُطْلَبُ أَوْ يُهْرَبُ عَنْهُ. وَٱلْجُزْءُ ٱلرَّابِعُ لِهٰذِهِ ٱلْأَجْزَاءِ أَعْنِي ٱلتَّالِيَ لِلثَّالِثِ هُوَ ٱلْوَزْنُ وَمِنْ تَمَامِهِ أَنْ يَكُونَ مُنَاسِبًا لِلْغَرَضِ فَرُبَّ وَزْنٍ يُنَاسِبُ غَرَضًا وَلَا يُنَاسِبُ غَرَضًا آخَرَ. وَٱلْجُزْءُ ٱلْخَامِسُ فِي ٱلْمَرْتَبَةِ هُوَ ٱللَّحْنُ وَهُوَ أَعْظَمُ هٰذِهِ ٱلْأَجْزَاءِ تَأْثِيرًا وَأَفْعَلُهَا فِي ٱلنُّفُوسِ. وَٱلْجُزْءُ ٱلسَّادِسُ هُوَ ٱلنَّظَرُ أَعْنِي ٱلِاحْتِجَاجَ لِصَوَابِ ٱلِاعْتِقَادِ أَوْ صَوَابِ ٱلْعَمَلِ لَا بِقَوْلٍ إقْنَاعِيٍّ فَإنَّ ذٰلِكَ غَيْرُ مُلَائِمٍ لِهٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ بَلْ بِقَوْلٍ مُحَاكٍ فَإنَّ صِنَاعَةَ ٱلشِّعْرِ لَيْسَتْ مَبْنِيَّةً عَلَى ٱلِاحْتِجَاجِ وَٱلْمُنَاظَرَةِ وَبِخَاصَّةٍ صِنَاعَةُ ٱلْمَدِيحِ وَلِذٰلِكَ لَيْسَ يَسْتَعْمِلُ ٱلْمَدِيحُ صِنَاعَةَ ٱلنِّفَاقِ وَٱلْأَخْذِ بِٱلْوُجُوهِ كَمَا تَسْتَعْمِلُهَا ٱلْخَطَابَةُ. (قَالَ) وَٱلصِّنَاعَةُ ٱلْعِلْمِيَّةُ ٱلَّتي تُعَرِّفُ مِمَّاذَا تُعْمَلُ ٱلْأَشْعَارُ وَكَيْفَ تُعْمَلُ أَتَمُّ رِئَاسَةً مِنْ عَمَلِ ٱلْأَشْعَارِ فَإنَّ كُلَّ صِنَاعَةٍ تُوَقِّفُ مَا تَحْتَهَا مِنَ ٱلصَّنَائِعِ عَلَى عَمَلِهَا هِيَ أَرْأَسُ مِمَّا تَحْتَهَا



البحث الخامس

في صناعة المديح واجزائها

(من الكتاب نفسه)

فَاذْ قَدْ قِيلَ مَا هِيَ صِنَاعَةُ ٱلْمَدِيحِ وَمِمَّاذَا تَلْتَئِمُ وَكَمْ اَجْزَاؤُهَا وَمَا هِيَ فَلْنَقُلْ فِي ٱلاَشْيَاءِ ٱلَّتِي بِهَا يَكُونُ حُسْنُ ٱلْاُمُورِ ٱلَّتِي يَتَقَوَّمُ بِهَا ٱلشِّعْرُ . فَاِنَّ ٱلقَولَ فِي هٰذِهِ ٱلاَشْيَاءِ ضَرُورِيٌّ فِي صِنَاعَةِ ٱلْمَدِيحِ وَفِي غَيْرِهَا وَهُوَ لَهَا بِمَنْزِلَةِ ٱلْمَبْدَإِ وَذٰلِكَ اَنَّ ٱلْاُمُورَ ٱلَّتِي تَتَقَوَّمُ مِنْهَا ٱلصَّنَائِعُ صِنْفَانِ اُمُورٌ ضَرُورِيَّةٌ وَاُمُورٌ تَكُونُ بِهَا اَتَمَّ وَاَفْضَلَ فَنَقُولُ اِنَّهُ يَجِبُ اَنْ تَكُونَ صِنَاعَةُ ٱلْمَدِيحِ مُسْتَوْفِيَةً لِغَايَاتِ فِعْلِهَا اَعْنِي اَنْ تَبْلُغَ مِنَ ٱلتَّشْبِيهِ وَٱلْمُحَاكَاةِ ٱلْغَايَةَ ٱلَّتِي فِي طِبَاعِهَا اَنْ تَبْلُغَهَا وَذٰلِكَ يَكُونُ بِاَشْيَاءَ اَحَدُهَا اَنْ يَكُونَ لِلْقَصِيدَةِ عِظَمٌ مَا مَحْدُودٌ تَكُونُ بِهِ كُلاًّ وَكَامِلَةً وَٱلْكُلُّ وَٱلْكَامِلُ هُوَ مَا كَانَ لَهُ مَبْدَأٌ وَوَسَطٌ وَآخِرٌ وَٱلْمَبْدَأُ قَبْلُ وَلَيْس يَجِبُ اَنْ يَكُونَ مَعَ ٱلاَشْيَاءِ ٱلَّتِي هُوَ لَهَا مَبْدَأٌ وَٱلآخِرُ هُوَ مَعَ ٱلاَشْيَاءِ ٱلَّتِي هُوَ لَهَا آخِرٌ وَلَيْسَ قَبْلُ وَٱلْوَسَطُ هُوَ قَبْلُ وَمَعًا فَهُوَ اَفْضَلُ مِنَ ٱلطَّرَفَيْنِ اِذْ كَانَ ٱلْوَسَطُ فِي ٱلْمَكَانِ قَبْلُ وَبَعْدُ فَاِنَّ ٱلشُّجْعَانَ هُمُ ٱلَّذِينَ مَكَانُهُمْ فِي ٱلْحَرْبِ مَا بَيْنَ مَكَانِ ٱلْجُبَنَاءِ وَٱلْمُتَهَوِّرِينَ وَهُوَ ٱلْمَكَانُ ٱلْوَسَطُ وَكَذٰلِكَ ٱلْحَدُّ ٱلْفَاضِلُ فِي ٱلتَّرْكِيبِ هُوَ ٱلْوَسَطُ وَهُوَ ٱلَّذِي يَتَرَكَّبُ مِنَ ٱلاَطْرَافِ وَلَا تَتَرَكَّبُ ٱلاَطْرَافُ مِنْهُ وَلَيْسَ يَجِبُ اَنْ

يَكُونَ ٱلْمُتَوَسِّطُ وَسَطاً اَيْ خِيَارًا فِي ٱلتَّرْكِيبِ وَٱلتَّرْتِيبِ فَقَطْ بَلْ وَفِي ٱلْمِقْدَارِ وَاِذَا كَانَ ذٰلِكَ كَذٰلِكَ فَقَدْ يَجِبُ اَنْ يَكُونَ لِلْقَصِيدَةِ اَوَّلٌ وَوَسَطٌ وَآخِرٌ وَاَنْ يَكُونَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْ هٰذِهِ ٱلْاَجْزَاءِ وَسَطاً فِي ٱلْمِقْدَارِ وَكَذٰلِكَ يَجِبُ فِي ٱلْجُمْلَةِ ٱلْمُرَكَّبَةِ مِنْهَا اَنْ تَكُونَ بِقَدْرٍ مَحْدُودٍ لَا اَنْ تَكُونَ بِاَيِّ عِظَمٍ ٱتَّفَقَ وَذٰلِكَ اَنَّ ٱلْجُودَةَ فِي ٱلْمُرَكَّبِ تَكُونُ مِنْ قِبَلِ شَيْئَيْنِ اَحَدُهُمَا ٱلتَّرْتِيبُ وَٱلثَّانِي ٱلْمِقْدَارُ وَلِهٰذَا لَا يُقَالُ فِي ٱلْحَيَوَانِ ٱلصَّغِيرِ ٱلْجُثَّةِ بِٱلْاِضَافَةِ اِلَى اَشْخَاصِ نَوْعِهِ اِنَّهُ جَيِّدٌ. وَٱلْحَالُ فِي ٱلْمُخَاطَبَةِ ٱلشِّعْرِيَّةِ فِي ذٰلِكَ كَٱلْحَالِ فِي ٱلتَّعْلِيمِ ٱلْبُرْهَانِيِّ اَعْنِي اَنَّ ٱلتَّعْلِيمَ اِنْ كَانَ قَصِيرَ ٱلْمُدَّةِ لَمْ يَكُنِ ٱلْفَهْمُ جَيِّدًا وَلَا اِنْ كَانَ اَطْوَلَ مِمَّا يَنْبَغِي لِاَنَّهُ يَلْحَقُ ٱلْمُتَعَلِّمَ فِي ذٰلِكَ ٱلنِّسْيَانُ وَٱلْحَالُ فِي ذٰلِكَ كَٱلْحَالِ فِي ٱلنَّظَرِ اِلَى ٱلْمَحْسُوسِ اَعْنِي اَنَّ ٱلنَّظَرَ اِلَى ٱلْمَحْسُوسِ اِنَّمَا يَكُونُ جَيِّدًا اِذَا كَانَ بَيْنَ ٱلنَّاظِرِ وَبَيْنَهُ بُعْدٌ مُتَوَسِّطٌ لَا اِذَا كَانَ بَعِيدًا مِنْهُ جِدًّا وَلَا اِذَا كَانَ قَرِيبًا مِنْهُ جِدًّا. وَٱلَّذِي يَعْرِضُ فِي ٱلتَّعْلِيمِ بِعَيْنِهِ يَعْرِضُ فِي ٱلْاَقَاوِيلِ ٱلشِّعْرِيَّةِ اَعْنِي اَنَّهُ اِذَا كَانَتِ ٱلْقَصِيدَةُ قَصِيرَةً لَمْ تَسْتَوْفِ اَجْزَاءَ ٱلْمَدِيحِ وَاِنْ كَانَتْ طَوِيلَةً لَمْ يُمْكِنْ اَنْ تُحْفَظَ فِي ذِكْرِ ٱلسَّامِعِينَ اَجْزَاؤُهَا فَيَعْرِضُ لَهُمْ اِذَا سَمِعُوا ٱلْاَجْزَاءَ ٱلْاَخِيرَةَ اَنْ يَكُونُوا قَدْ نَسُوا ٱلْاُولَى وَاَمَّا ٱلْاَقَاوِيلُ ٱلْخُطْبِيَّةُ ٱلَّتِي تُسْتَعْمَلُ فِي ٱلْمُنَاظَرَةِ فَلَيْسَ لَهَا قَدْرٌ مَحْدُودٌ بِٱلطَّبْعِ وَلِذٰلِكَ ٱحْتَاجَ ٱلنَّاسُ اَنْ يُقَدِّرُوا زَمَانَ ٱلْمُنَاظَرَةِ بَيْنَ ٱلْخُصُومِ اِمَّا بِآلَةِ ٱلْمَاءِ عَلَى مَا جَرَتْ بِهِ

اَلْعَادَةُ عِنْدَ ٱلْيُونَانِيِّينَ إِذْ كَانُوا إِنَّمَا يَعْتَمِدُونَ ٱلضَّمَائِرَ فَقَطْ وَأَمَّا بِتَأْجِيلِ ٱلْأَيَّامِ كَٱلْحَالِ عِنْدَنَا إِذْ كَانَ ٱلْمُعْتَمَدُ فِي ٱلْخُصُومَاتِ عِنْدَنَا إِنَّمَا هِيَ ٱلْأَشْيَاءُ ٱلْمُقْنِعَةُ ٱلَّتِي مِنْ خَارِجٍ وَلِذٰلِكَ لَوْ كَانَتْ صِنَاعَةُ ٱلْمَدِيحِ بِٱلْمُنَاظَرَةِ لَكَانَ يُحْتَاجُ فِيهَا إِلَى تَقْدِيرِ زَمَانِ ٱلْمُنَاظَرَةِ بِسَاعَاتِ ٱلْمَاءِ أَوْ غَيْرِهَا. لَكِنْ لَمَّا لَمْ يَكُنِ ٱلْأَمْرُ كَذٰلِكَ وَجَبَ أَنْ يَكُونَ لِصِنَاعَةِ ٱلشِّعْرِ حَدٌّ طَبِيعِيٌّ كَٱلْحَالِ فِي ٱلْأَقْدَارِ ٱلطَّبِيعِيَّةِ لِلْأُمُورِ ٱلْمَوْجُودَةِ وَذٰلِكَ أَنَّهُ كَمَا أَنَّ جَمِيعَ ٱلْمُتَكَوِّنَاتِ إِذْ لَمْ يَعُقْهَا فِي حَالِ ٱلْكَوْنِ سُوءُ ٱلْبَخْتِ صَارَتْ إِلَى عِظَمٍ مَحْدُودٍ بِٱلطَّبْعِ. كَذٰلِكَ يَجِبُ أَنْ تَكُونَ ٱلْحَالُ فِي ٱلْأَقَاوِيلِ ٱلشِّعْرِيَّةِ وَبِخَاصَّةٍ فِي صِنْفَيِ ٱلْمُحَاكَاةِ أَعْنِي ٱلَّتِي يُنْتَقَلُ فِيهَا مِنَ ٱلضِّدِّ إِلَى ٱلضِّدِّ أَوْ يُحَاكَى فِيهَا ٱلشَّيْءُ نَفْسُهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يُنْتَقَلَ إِلَى ضِدِّهِ (قَالَ) وَمِمَّا يُحَسِّنُ بِهِ قِوَامُ ٱلشِّعْرِ أَلَّا يُطَوِّلَ فِيهِ بِذِكْرِ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلْكَثِيرَةِ ٱلَّتِي تَعْرِضُ لِلشَّيْءِ ٱلْوَاحِدِ ٱلْمَقْصُودِ بِٱلشِّعْرِ فَإِنَّ ٱلشَّيْءَ ٱلْوَاحِدَ تَعْرِضُ لَهُ أَشْيَاءُ كَثِيرَةٌ وَكَذٰلِكَ يُوجَدُ لِلشَّيْءِ ٱلْوَاحِدِ ٱلْمُشَارِ إِلَيْهِ أَفْعَالٌ كَثِيرَةٌ (قَالَ) وَيُشْبِهُ أَنْ يَكُونَ جَمِيعُ ٱلشُّعَرَاءِ لَا يَتَحَفَّظُونَ بِهٰذَا بَلْ يَنْتَقِلُونَ مِنْ شَيْءٍ إِلَى شَيْءٍ وَلَا يَلْزَمُونَ غَرَضًا وَاحِدًا بِعَيْنِهِ مَا عَدَا أُومِيرُوشَ. وَأَنْتَ تَجِدُ هٰذَا كَثِيرًا مَا يَعْرِضُ فِي أَشْعَارِ ٱلْعَرَبِ وَٱلْمُحْدَثِينَ وَبِخَاصَّةٍ عِنْدَ ٱلْمَدْحِ أَعْنِي أَنَّهُ إِذَا عَنَّ لَهُمْ شَيْءٌ مَا مِنْ أَسْبَابِ ٱلْمَمْدُوحِ مِثْلُ سَيْفٍ أَوْ قَوْسٍ ٱشْتَغَلُوا بِمُحَاكَاتِهِ وَأَضْرَبُوا عَنْ ذِكْرِ ٱلْمَمْدُوحِ وَبِٱلْجُمْلَةِ فَيَجِبُ أَنْ تَكُونَ ٱلصِّنَاعَةُ تَتَشَبَّهُ بِٱلطَّبِيعَةِ

أعني أن تكون إنما تفعل جميع ما تفعله من أجل غرض واحد وغاية واحدة. وإذا كان ذلك كذلك فواجب أن يكون التشبيه والمحاكاة لواحد ومقصودًا به غرض واحد وأن يكون لأجزائه عظم محدود وأن يكون فيها مبدأ ووسط وآخر وأن يكون الوسط أفضلها فإن الموجودات التي وجودها في الترتيب وحسن النظام إذا عدمت ترتيبها لم يوجد لها الفعل الخاص بها. (قال) وظاهر أيضا مما قيل من مقصد الأقاويل الشعرية أن المحاكاة التي تكون بالأمور المخترعة الكاذبة ليست من فعل الشاعر وهي التي تسمى امثالا وقصصا مثل ما في كتاب دمنة وكليلة. لكن الشاعر إنما يتكلم في الأمور الموجودة أو الممكنة الوجود لأن هذه هي التي يقصد الهرب عنها أو طلبها أو مطابقة التشبيه لها على ما قيل في فصول المحاكاة. وأما الذين يعملون الأمثال والقصص فإن عملهم غير عمل الشعراء وإن كانوا قد يعملون تلك الأمثال والأحاديث المخترعة بكلام موزون. وذلك أن كليهما وإن كانا يشتركان في الوزن فأحدهما يتم له العمل الذي قصده بالخرافة وإن لم تكن موزونة وهو التعقل الذي يستفاد من الأحاديث المخترعة والشاعر لا يحصل له مقصوده على التمام من التخييل إلا بالوزن فالفاعل للأمثال المخترعة والقصص إنما يخترع أشخاصا ليس لها وجود أصلا ويضع لها أسماء وأما الشاعر فإنما يضع أسماء لأشياء موجودة وربما تكلموا في الكليات ولذلك كانت صناعة الشعر أقرب إلى الفلسفة من صناعة اختراع الأمثال وهذا الذي

قَالَهُ هُوَ بِحَسَبِ عَادَتِهِمْ فِي ٱلشِّعْرِ ٱلَّذِي يُشْبِهُ اَنْ يَكُونَ هُوَ ٱلْاَمْرَ ٱلطَّبِيعِيَّ ٱلْاُمَمِ ٱلطَّبِيعِيَّةِ (قَالَ) وَاَكْثَرُ مَا يَجِبُ اَنْ يُعْتَمَدَ فِي صِنَاعَةِ ٱلْمَدِيحِ اَنْ تَكُونَ ٱلْاَشْيَاءُ ٱلْمُحَاكَيَاتُ اُمُورًا مَوْجُودَةً لَا اُمُورًا لَهَا اَسْمَاءٌ مُخْتَرَعَةٌ فَاِنَّ ٱلْمَدِيحَ اِنَّمَا يَتَوَجَّهُ نَحْوَ ٱلتَّحْرِيكِ اِلَى ٱلْاَفْعَالِ ٱلْاِرَادِيَّةِ فَاِذَا كَانَتِ ٱلْاَفْعَالُ مُمْكِنَةً كَانَ ٱلْاِقْنَاعُ فِيهَا اَكْثَرَ وُقُوعًا اَعْنِي ٱلتَّصْدِيقَ ٱلشِّعْرِيَّ ٱلَّذِي يُحَرِّكُ ٱلنَّفْسَ اِلَى ٱلطَّلَبِ وَٱلْهَرَبِ. وَاَمَّا ٱلْاَشْيَاءُ ٱلْغَيْرُ ٱلْمَوْجُودَةِ فَلَيْسَ تُوضَعُ وَتُخْتَرَعُ لَهَا اَسْمَاءٌ فِي صِنَاعَةِ ٱلْمَدِيحِ اِلَّا اَقَلَّ ذٰلِكَ مِثْلُ وَضْعِهِمِ ٱلْجُودَ شَخْصًا ثُمَّ يَضَعُونَ اَفْعَالًا لَهُ وَيُحَاكُونَهَا وَيُطْنِبُونَ فِي مَدْحِهِ. وَهٰذَا ٱلنَّحْوُ مِنَ ٱلتَّخْيِيلِ وَاِنْ كَانَ قَدْ يُنْتَفَعُ بِهِ مَنْفَعَةً غَيْرَ يَسِيرَةٍ لِمُنَاسَبَةِ اَفْعَالِ ذٰلِكَ ٱلشَّيْءِ ٱلْمُخْتَرَعِ وَٱنْفِعَالَاتِهِ لِلْاُمُورِ ٱلْمَوْجُودَةِ فَلَيْسَ يَنْبَغِي اَنْ يُعْتَمَدَ فِي صِنَاعَةِ ٱلْمَدِيحِ فَاِنَّ هٰذَا ٱلنَّحْوَ مِنَ ٱلتَّخْيِيلِ لَيْسَ مِمَّا يُوَافِقُ جَمِيعَ ٱلطِّبَاعِ بَلْ قَدْ يَضْحَكُ مِنْهُ وَيَزْدَرِيهِ كَثِيرٌ مِنَ ٱلنَّاسِ. وَمِنْ جَيِّدِ مَا فِي هٰذَا ٱلْبَابِ لِلْعَرَبِ وَاِنْ لَمْ يَكُنْ عَلَى طَرِيقِ ٱلْحَثِّ عَلَى ٱلْفَضِيلَةِ قَوْلُ ٱلْاَعْشَى:

لَعَمْرِي لَقَدْ لَاحَتْ عُيُونٌ نَوَاظِرٌ ... اِلَى ضَوْءِ نَارٍ بِٱلْيَفَاعِ تُحَرِّقُ
تُشَبُّ لِمَقْرُورَيْنِ يَصْطَلِيَانِهَا ... وَبَاتَ عَلَى ٱلنَّارِ ٱلنَّدَى وَٱلْمُحَلَّقُ
رَضِيعَيْ لِبَانٍ ثَدْيَ اُمٍّ تَحَالَفَا ... بِاَسْحَمَ دَاجٍ عَوْضُ لَا نَتَفَرَّقُ

وَاِذَا كَانَ هٰذَا هٰكَذَا فَظَاهِرٌ اَنَّ ٱلشَّاعِرَ اِنَّمَا يَكُونُ شَاعِرًا بِعَمَلِ ٱلْخُرَافَاتِ وَٱلْاَوْزَانِ بِقَدْرِ مَا يَكُونُ قَادِرًا عَلَى عَمَلِ ٱلتَّشْبِيهِ

وَٱلْمحاكَاةِ وَهُوَ إِنَّمَا يَعْمَلُ ٱلتَّشْبِيهَ لِلأُمُورِ ٱلإِرَادِيَّةِ ٱلْمَوْجُودَةِ وَلَيسَ مِنْ شَرْطِهِ أَنْ يُحَاكِيَ ٱلأُمُورَ ٱلَّتِي هِيَ مَوْجُودَةٌ فَقَطْ بَلْ وَقَدْ يُحَاكِي ٱلأُمُورَ ٱلَّتِي يُظَنُّ بِهَا أَنَّهَا مُمْكِنَةُ ٱلْوُجودِ وَهُوَ فِي ذٰلِكَ شَاعِرٌ لَيسَ بِدُونِ مَا هُوَ فِي مُحَاكَاةِ ٱلأُمُورِ ٱلْمَوْجُودَةِ مِنْ قِبَلِ أَنَّهُ لَيسَ مَانِعٌ يَمْنَعُ أَنْ تُوجَدَ تِلْكَ ٱلأَشْيَاءُ عَلَى مِثْلِ حَالِ ٱلأَشْيَاءِ ٱلَّتِي هِيَ ٱلآنَ مَوْجُودَةٌ فَلَيسَ يَحْتَاجُ فِي ٱلتَّخْيِيلِ ٱلشِّعْرِيِّ إِلى مِثْلِ هٰذِهِ ٱلْخُرَافَاتِ ٱلْمُخْتَرَعَةِ وَلَا أَيضاً يَحْتَاجُ ٱلشَّاعِرُ ٱلْمُفْلِقُ أَنْ تَتِمَّ مُحَاكَاتُهُ بِٱلأُمُورِ ٱلَّتِي مِنْ خَارِجٍ وَهُوَ ٱلَّذِي يُدْعَى نِفَاقًا وَأَخْذًا بِٱلْوُجُوهِ فَإِنَّ ذٰلِكَ إِنَّمَا يَسْتَعْمِلُهُ ٱلْمُمَوِّهُونَ مِنَ ٱلشُّعَرَاءِ أَعْنِي ٱلَّذِينَ يُرَوْنَ أَنَّهُمْ شُعَرَاءُ وَلَيسُوا شُعَرَاءَ. وَأَمَّا ٱلشُّعَرَاءُ بِٱلْحَقِيقَةِ فَلَيسَ يَسْتَعْمِلُونَهُ إِلَّا عِنْدَ مَا يُرِيدُونَ أَنْ يُقَابِلُوا بِهِ ٱسْتِعْمَالَ شُعَرَاءِ ٱلزُّورِ لَهُ وَأَمَّا إِذَا قَابَلُوا ٱلشُّعَرَاءَ ٱلْمُجِيدِينَ فَلَيسَ يَسْتَعْمِلُونَهُ أَصْلًا. وَقَدْ يُضْطَرُّ ٱلْمُفْلِقُونَ فِي مَوَاضِعَ أَنْ يَسْتَعِينُوا بِٱسْتِعْمَالِ ٱلأَشْيَاءِ ٱلْخَارِجَةِ عَنْ عَمُودِ ٱلشِّعْرِ مِنْ قِبَلِ أَنَّ ٱلْمُحَاكَاةَ لَيسَ تَكُونُ فِي كُلِّ مَوْضِعٍ لِلأَشْيَاءِ ٱلْكَامِلَةِ ٱلَّتِي تُمْكِنُ مُحَاكَاتُهَا عَلَى ٱلتَّمَامِ بَلْ لِأَشْيَاءَ نَاقِصَةٍ تَعْسُرُ مُحَاكَاتُهَا بِٱلْقَوْلِ فَيُسْتَعَانُ عَلَى مُحَاكَاتِهَا بِٱلأَشْيَاءِ ٱلَّتِي مِنْ خَارِجٍ وَبِخَاصَّةٍ إِذَا قَصَدُوا مُحَاكَاةَ ٱلاعْتِقَادَاتِ لِأَنَّ تَخْيِيلَهَا يَعْسُرُ إِنْ كَانَتْ لَيسَتْ أَفْعَالًا وَلَا جَوَاهِرَ وَقَدْ تُمْزَجُ هٰذِهِ ٱلأَشْيَاءُ ٱلَّتِي مِنْ خَارِجٍ بِٱلْمُحَاكَيَاتِ ٱلشِّعْرِيَّةِ أَحْيَانًا كَأَنَّهَا بِٱتِّفَاقٍ مِنْ غَيْرِ قَصْدٍ فَيَكُونُ لَهَا فِعْلٌ مُعْجِبٌ إِذَا كَانَتِ ٱلأَشْيَاءُ ٱلَّتِي شَأْنُهَا أَنْ تَقَعَ بِٱتِّفَاقٍ مُعْجِبَةً

(قَالَ) وَكَثِيرٌ مِنَ ٱلْأَقَاوِيلِ ٱلشِّعْرِيَّةِ تَكُونُ جُودَتُهَا فِي ٱلْمُحَاكَاةِ ٱلْبَسِيطَةِ ٱلْغَيْرِ ٱلْمُتَفَنِّنَةِ وَكَثِيرٌ مِنْهَا إِنَّمَا تَكُونُ جُودَتُهَا فِي نَفْسِ ٱلتَّشْبِيهِ وَٱلْمُحَاكَاةِ وَذٰلِكَ أَنَّ ٱلْحَالَ فِي ٱلتَّشْبِيهِ كَٱلْحَالِ فِي ٱلْأَعْمَالِ فَكَمَا أَنَّ مِنَ ٱلْأَعْمَالِ مَا يُنَالُ بِفِعْلٍ وَاحِدٍ بَسِيطٍ وَمِنْهَا مَا يُنَالُ بِفِعْلٍ مُرَكَّبٍ كَذٰلِكَ ٱلْأَمْرُ فِي ٱلْمُحَاكَاةِ. وَٱلْمُحَاكَاةُ ٱلْبَسِيطَةُ هِيَ ٱلَّتِي يُسْتَعْمَلُ فِيهَا أَحَدُ نَوْعَيِ ٱلتَّخْيِيلِ أَعْنِي ٱلنَّوْعَ ٱلَّذِي يُسَمَّى ٱلْإِدَارَةَ أَوِ ٱلنَّوْعَ ٱلَّذِي يُسَمَّى ٱلِٱسْتِدْلَالَ. وَأَمَّا ٱلْمُحَاكَاةُ ٱلْمُرَكَّبَةُ فَهِيَ ٱلَّتِي يُسْتَعْمَلُ فِيهَا ٱلصِّنْفَانِ جَمِيعًا وَذٰلِكَ إِمَّا بِأَنْ يُبْتَدَأَ بِٱلْإِدَارَةِ ثُمَّ يُنْتَقَلَ مِنْهُ إِلَى ٱلِٱسْتِدْلَالِ أَوْ يُبْتَدَأَ بِٱلِٱسْتِدْلَالِ ثُمَّ يُنْتَقَلَ مِنْهُ إِلَى ٱلْإِدَارَةِ وَٱلِٱعْتِمَادُ هُوَ أَنْ يُبْدَأَ بِٱلْإِدَارَةِ ثُمَّ يُنْتَقَلَ مِنْهُ إِلَى ٱلِٱسْتِدْلَالِ فَإِنَّهُ فَرْقٌ كَبِيرٌ بَيْنَ أَنْ يُبْدَأَ أَوَّلًا بِٱلْإِدَارَةِ ثُمَّ يُنْتَقَلَ إِلَى ٱلِٱسْتِدْلَالِ أَوْ يُبْدَأَ بِٱلِٱسْتِدْلَالِ ثُمَّ يُنْتَقَلَ إِلَى ٱلْإِدَارَةِ. (قَالَ) وَأَعْنِي بِٱلْإِدَارَةِ مُحَاكَاةَ ضِدِّ ٱلْمَقْصُودِ مَدْحُهُ أَوَّلًا بِمَا يَنْفِرُ ٱلنَّفْسُ عَنْهُ ثُمَّ يُنْتَقَلُ مِنْهُ إِلَى مُحَاكَاةِ ٱلْمَمْدُوحِ نَفْسِهِ مَثَلًا إِنَّهُ إِذَا أَرَادَ أَنْ يُحَاكِيَ ٱلسَّعَادَةَ وَأَهْلَهَا ٱبْتَدَأَ أَوَّلًا بِمُحَاكَاةِ ٱلشَّقَاوَةِ وَأَهْلِهَا ثُمَّ ٱنْتَقَلَ إِلَى مُحَاكَاةِ أَهْلِ ٱلسَّعَادَةِ وَذٰلِكَ بِضِدِّ مَا حَاكَى بِهِ أَهْلَ ٱلشَّقَاوَةِ. وَأَمَّا ٱلِٱسْتِدْلَالُ فَهُوَ مُحَاكَاةُ ٱلشَّيْءِ فَقَطْ (قَالَ) وَأَحْسَنُ ٱلِٱسْتِدْلَالِ مَا خَلَطَ بِٱلْإِدَارَةِ. (قَالَ) وَقَدْ يُسْتَعْمَلُ ٱلِٱسْتِدْلَالُ وَٱلْإِدَارَةُ فِي ٱلْأَشْيَاءِ ٱلْغَيْرِ ٱلْمُتَنَفِّسَةِ وَفِي ٱلْمُتَنَفِّسَةِ لَا مِنْ جِهَةِ مَا يُقْصَدُ بِهِ عَمَلٌ

اَوْ تَرْكٌ بَلْ مِنْ جِهَةِ ٱلتَّخْيِيلِ فَقَطْ اَعْنِي ٱلْمُطَابَقَةَ . وَهٰذَا ٱلنَّوْعُ مِنَ ٱلِاَسْتِدْلَالِ ٱلَّذِي ذَكَرَهُ هُوَ ٱلْغَالِبُ عَلَى اَشْعَارِ ٱلْعَرَبِ اَعْنِي ٱلِاَسْتِدْلَالَ وَٱلْاِدَارَةَ فِي غَيْرِ ٱلْمُتَنَفِّسَةِ وَهُوَ مِثْلُ قَوْلِ اَبِي ٱلطَّيِّبِ:

كَمْ زَوْرَةٍ لَكَ فِي ٱلْاَعْرَابِ خَافِيَةٍ
اَدْهَى وَقَدْ رَقَدُوا مِنْ زَوْرَةِ ٱلذِّيبِ
اَزُورُهُمْ وَسَوَادُ ٱللَّيْلِ يَشْفَعُ لِي
وَاَنْثَنِي وَبَيَاضُ ٱلصُّبْحِ يُغْرِي بِي

فَاِنَّ ٱلْبَيْتَ ٱلْاَوَّلَ هُوَ اَسْتِدْلَالٌ . وَٱلثَّانِي اِدَارَةٌ وَلَمَّا جَمَعَ هٰذَانِ ٱلْبَيْتَانِ صِنْفَيِ ٱلْمُحَاكَاةِ كَانَا فِي غَايَةٍ مِنَ ٱلْحُسْنِ (قَالَ) وَٱلِاَسْتِدْلَالُ ٱلْاِنْسَانِيُّ وَٱلْاِدَارَةُ اِنَّمَا يُسْتَعْمَلَانِ فِي ٱلطَّلَبِ وَٱلْهَرَبِ وَهٰذَا ٱلنَّوْعُ مِنَ ٱلِاَسْتِدْلَالِ هُوَ ٱلَّذِي يُثِيرُ فِي ٱلنَّفْسِ ٱلرَّحْمَةَ تَارَةً وَٱلْخَوْفَ تَارَةً وَهٰذَا هُوَ ٱلَّذِي نَحْتَاجُ اِلَيْهِ فِي صِنَاعَةِ مَدِيحِ ٱلْاَفْعَالِ ٱلْاِنْسَانِيَّةِ ٱلْجَمِيلَةِ وَهَجْوِ ٱلْقَبِيحَةِ (قَالَ) فَهٰذَانِ ٱلْجُزْءَانِ ٱللَّذَانِ اَخْبَرْنَا عَنْهُمَا هُمَا جُزْءَا صِنَاعَةِ ٱلْمَدِيحِ وَهَاهُنَا جُزْءٌ ثَالِثٌ وَهُوَ ٱلْجُزْءُ ٱلَّذِي يُوَلِّدُ ٱلِاَنْفِعَالَاتِ ٱلنَّفْسَانِيَّةَ اَعْنِي اَنْفِعَالَاتِ ٱلْخَوْفِ وَٱلرَّحْمَةِ وَٱلْحُزْنِ وَهُوَ يَكُونُ بِذِكْرِ ٱلْمَصَائِبِ وَٱلرَّزَايَا ٱلنَّازِلَةِ بِٱلنَّاسِ فَاِنَّ هٰذِهِ ٱلْاَشْيَاءَ هِيَ ٱلَّتِي تَبْعَثُ ٱلرَّحْمَةَ وَٱلْخَوْفَ وَهُوَ جُزْءٌ عَظِيمٌ مِنْ اَجْزَاءِ ٱلْحَثِّ عَلَى ٱلْاَفْعَالِ ٱلَّتِي هِيَ مَقْصُودَةُ ٱلْمَدِيحِ عِنْدَهُمْ

البحث السادس

في اجزاء صناعة المديح من جهة الكمية

(من الكتاب نفسه)

(قَالَ) فَامَّا اَجزَاءُ صِنَاعَةِ ٱلْمَدِيحِ مِنْ بَابِ ٱلْكَيْفِيَّةِ فَقَدْ تَكَلَّمْنَا فِيهَا . وَامَّا اَجزَاؤُهَا مِنْ جِهَةِ ٱلْكَمِّيَّةِ فَيَنْبَغِي اَنْ نَتَكَلَّمَ فِيهَا وَهُوَ يَذْكُرُ فِي هٰذَا ٱلْمَعْنَى اَجزَاءً خَاصَّةً بِاَشْعَارِهِمْ وَٱلَّذِي يُوجَدُ مِنْهَا فِي اَشْعَارِ ٱلْعَرَبِ فَهُوَ ثَلَاثَةٌ . ٱلْجُزْءُ ٱلَّذِي يَجْرِي عِنْدَهُمْ مَجْرَى ٱلصَّدْرِ فِي ٱلْخُطْبَةِ وَهُوَ ٱلَّذِي فِيهِ يَذْكُرُونَ ٱلدِّيَارَ وَٱلْآثَارَ وَيَتَغَزَّلُونَ فِيهِ وَٱلْجُزْءُ ٱلثَّانِي ٱلْمَدْحُ . وَٱلْجُزْءُ ٱلثَّالِثُ ٱلَّذِي يَجْرِي مَجْرَى ٱلْخَاتِمَةِ فِي ٱلْخُطْبَةِ وَهٰذَا ٱلْجُزْءُ اَكْثَرُ مَا هُوَ عِنْدَهُمْ اِمَّا دُعَاءٌ لِلْمَمْدُوحِ وَامَّا فِي تَقْرِيضِ ٱلشِّعْرِ ٱلَّذِي قَالَهُ وَٱلْجُزْءُ ٱلْاَوَّلُ اَشْهَرُ مِنْ هٰذَا ٱلْآخِرِ وَلِذٰلِكَ يُسَمُّونَ ٱلْاِنْتِقَالَ مِنَ ٱلْجُزْءِ ٱلْاَوَّلِ اِلَى ٱلثَّانِي اَسْتِطْرَادًا وَرُبَّمَا اَتَوْا بِٱلْمَدِيحِ دُونَ صَدْرٍ . مِثْلُ قَوْلِ اَبِي تَمَّامٍ :

لَهَانَ عَلَيْنَا اَنْ نَقُولَ وَنَفْعَلَا

وَمِثْلُ قَوْلِ اَبِي ٱلطَّيِّبِ :

لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِنْ دَهْرِهِ مَا تَعَوَّدَا

وَلَمَّا فَرَغَ مِنْ تَعْدِيدِ اَجزَاءِ ٱلشِّعْرِ عِنْدَهُمْ (قَالَ) فَامَّا اَجزَاءُ صِنَاعَةِ ٱلْمَدِيحِ ٱلَّتِي مِنْ جِهَةِ ٱلْكَيْفِيَّةِ وَٱلَّتِي مِنْ جِهَةِ ٱلْكَمِّيَّةِ فَقَدْ

اخبرنا بها. فاما من اي المواضع يمكن عمل صناعة المديح فنحن مخبرون عنها بعد ومضيفون ذلك الى ما تقدم (قال) وينبغي كما قيل ان لا يكون تركيب المدائح من محاكاة بسيطة بل مخلوطة من انواع الاستدلالات وانواع الادارة ومن المحاكاة التي توجب الانفعالات المخيفة المحزنة المرققة للنفوس وذلك انه يجب ان تكون المدائح التي يقصد بها الحث على الفضائل مركبة من محاكاة الفضائل ومن محاكاة اشياء مخوفة محزنة يتفجع لها وهي الشقاوة التي تلحق من عدم الفضائل لا باستيهال وذلك ان بهذه الاشياء يشتد تحرك النفس لقبول الفضائل فان انتقال الشاعر من محاكاة فضيلة الى محاكاة لا فضيلة او من محاكاة فاضل الى محاكاة لا فاضل ليس فيه شيء مما يحث الانسان ويزعجه الى فعل الفضائل اذا كان ليس يوجب محبة لها زائدة ولا خوفا. والاقاويل المديحية يجب ان يوجد فيها هذان الامران وذلك يكون اذا انتقل من محاكاة الفضائل الى محاكاة الشقاوة ورداءة البخت النازلة بالافاضل او انتقل من هذه الى محاكاة اهل الفضائل فان هذه المحاكاة ترق النفوس وتذعجها الى قبول الفضائل وانت تجد اكثر المحاكاة الواقعة في الاقاويل الشرعية على هذا النحو الذي ذكر اذ كانت تلك هي اقاويل مديحية تدل على العمل مثل ما ورد من حديث يوسف واخوته وغير ذلك من الاقاصيص التي تسمى مواعظ (قال) وانما تحدث الرحمة والرقة بذكر حدوث الشقاوة

بِمَنْ لَا يَسْتَحِقُّ وَعَلَى غَيْرِ ٱلْوَاجِبِ . وَٱلْخَوْفُ إِنَّمَا يَحْدُثُ عِنْدَ ذِكْرِ هٰذِهِ مِنْ قِبَلِ تَخَيُّلِ وُقُوعِ ٱلضَّارِّ بِمَنْ هُوَ دُونَهُم أَعْنِي بِنَفْسِ ٱلسَّامِعِ إِذْ كَانَ أَحْرَى بِذٰلِكَ وَٱلْحُزْنُ وَٱلرَّحْمَةُ إِنَّمَا تَحْدُثُ عِنْدَ هٰذِهِ مِنْ قِبَلِ وُقُوعِهَا بِمَنْ لَا يَسْتَحِقُّ وَإِذَا كَانَ ذِكْرُ ٱلْفَضَائِلِ مُفْرَدَةً لَا يُوقِعُ فِي ٱلنَّفْسِ خَوْفًا مِنْ فَوَاتِهَا وَلَا رَحْمَةً وَمَحَبَّةً فَوَاجِبٌ عَلَى مَنْ يُرِيدُ أَنْ يَحُثَّ عَلَى ٱلْفَضَائِلِ أَنْ يَجْعَلَ جُزْءًا مِنْ مُحَاكَاتِهِ لِلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي تَبْعَثُ ٱلْحُزْنَ وَٱلْخَوْفَ وَٱلرَّحْمَةَ (قَالَ) وَلِذٰلِكَ ٱلْمَدَائِحُ ٱلْحِسَانُ ٱلْمَوْجُودَةُ لِصِنَاعَةِ ٱلشِّعْرِ هِيَ ٱلْمَدَائِحُ ٱلَّتِي يُوجَدُ فِيهَا هٰذَا ٱلتَّرْكِيبُ أَعْنِي ذِكْرَ ٱلْفَضَائِلِ وَٱلْأَشْيَاءِ ٱلْمُحْزِنَةِ ٱلْمُخَوِّفَةِ وَٱلْمُرَقِّقَةِ (قَالَ) وَلِذٰلِكَ يُخْطِئُ ٱلَّذِينَ يَلُومُونَ مَنْ يَجْعَلُ أَحَدَ أَجْزَاءِ شِعْرِهِ هٰذِهِ ٱلْخُرَافَاتِ وَمِنَ ٱلدَّلِيلِ عَلَى أَنَّ ذٰلِكَ نَافِعٌ فِي ٱلْمَدِيحِ أَنَّ صِنَاعَةَ ٱلْمَدِيحِ ٱلْجِهَادِيَّةَ قَدْ تَدْخُلُ فِيهَا ٱلْمُغْضِبَاتُ وَٱلْغَضَبُ هُوَ حُزْنٌ مَعَ حُبٍّ شَدِيدٍ لِلْاِنْتِقَامِ وَإِذْ كَانَ ذٰلِكَ كَذٰلِكَ فَذِكْرُ ٱلرَّزَايَا وَٱلْمَصَائِبِ ٱلنَّازِلَةِ بِأَهْلِ ٱلْفَضْلِ يُوجِبُ حُبًّا زَائِدًا لَهُمْ وَخَوْفًا مِنْ فَوَاتِ ٱلْفَضَائِلِ فَأَمَّا مُحَاكَاةُ ٱلنَّقَائِصِ فِي ٱلْمَدَائِحِ فَقَدْ يُدْخِلُهَا قَوْمٌ فِيهَا لِأَنَّ فِيهَا ضَرْبًا مِنَ ٱلْإِدَارَةِ لٰكِنَّ مُنَاسَبَةَ ذَمِّ ٱلنَّقَائِصِ لِصِنَاعَةِ ٱلْهِجَاءِ أَكْثَرُ مِنْهَا لِصِنَاعَةِ ٱلْمَدِيحِ وَلِذٰلِكَ لَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ تَحْبِيلُهَا فِي ٱلْمَدَائِحِ عَلَى ٱلْقَصْدِ ٱلْأَوَّلِ بَلْ مِنْ قِبَلِ ٱلْإِدَارَةِ وَإِذَا كَانَ ٱلشِّعْرُ ٱلْمَدِيحِيُّ تُذْكَرُ فِيهِ ٱلنَّقَائِصُ فَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ فِيهِ ذِكْرُ ٱلْأَعْدَاءِ ٱلْمُبْغِضِينَ وَٱلْمَدَائِحُ إِنَّمَا تُبْتَنَى عَلَى ذِكْرِ أَفْعَالِ ٱلْأَوْلِيَاءِ

وَٱلأَصْدِقَاءِ. وَامَّا عدُوُّ ٱلعَدُوِّ اوِ صَدِيقُ ٱلصَّدِيقِ فَلَيسَ يُذْكَرُ لَا فِي ٱلمَدْحِ وَلَا فِي ٱلذَّمِّ اِذْ كَانَ لَا صَدِيقًا وَلَا عدُوًّا (قَالَ) وَيَنبَغِي انْ تَكُونَ ٱلخُرَافَةُ ٱلمُخِيفَةُ ٱلمُحْزِنَةُ مَخْرَجُهَا مَخْرَجَ مَا يَقَعُ تَحْتَ ٱلبَصرِ يُرِيدُ مِنْ وُقُوعِ ٱلتَّصْدِيقِ بِهَا لِأَنَّهُ اِذْ كَانَتِ ٱلخُرَافَةُ مَشْكُوكًا فِيهَا اَوْ اُخْرِجَتْ مُخْرَجَ مَشْكُوكٍ فِيهَا لَمْ تَفعَلِ ٱلفِعْلَ ٱلمَقْصُودَ بِهَا وَذٰلِكَ اَنَّ مَا لَا يُصدِّقُهُ ٱلمَرْءُ فَهُوَ لَا يَفْزَعُ مِنْهُ وَلَا يُشفِقُ لَهُ. وهٰذَا ٱلَّذِي ذُكِرَ هُوَ ٱلسَّبَبُ فِي اَنَّ كَثِيرًا مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يُصدِّقُونَ بِٱلقَصصِ ٱلشَّرْعِيِّ يَصِيرُونَ اَرَاذِلَ لِأَنَّ ٱلنَّاسَ اِنَّمَا يَتَحَرَّكُونَ بِٱلطَّبعِ لِأَحَدِ قَوْلَيْنِ اِمَّا قَولٍ بُرْهَانِيٍّ وَامَّا قَوْلٍ لَيسَ بُرْهَانِيا. وَهٰذَا ٱلصِّنفُ ٱلخَسِيسُ مِنَ ٱلنَّاسِ قَدْ عدِمَ ٱلتَّحَرُّكَ عَنْ هٰذَيْنِ ٱلقَوْلَيْنِ (قَالَ) وَمِنَ ٱلشُّعَرَاءِ مَنْ يُدْخِلُ فِي ٱلمَدَائِحِ مُحَاكَاةَ اَشْيَاءَ يُقْصَدُ بِهَا ٱلتَّعَجُّبُ فَقَطْ مِنْ غَيْرِ اَنْ تَكُونَ مُخِيفَةً وَلَا مُحْزِنَةً وَانْتَ تَجِدُ مِثْلَ هٰذِهِ ٱلأَشْيَاءِ كُلِّهَا كَثِيرًا فِي ٱلمَكْتُوبَاتِ ٱلشَّرْعِيَّةِ اِذْ كَانَتْ مَدَائِحُ ٱلفَضَائِلِ لَيسَ تُوجَدُ فِي اَشْعَارِ ٱلعَرَبِ وَاِنَّمَا تُوجَدُ فِي زَمَانِنَا هٰذَا فِي ٱلسُّنَنِ ٱلمَكْتُوبَةِ (قَالَ) وَهٰذَا ٱلفِعْلُ لَيسَ فِيهِ مُشَارَكَةٌ لِصِنَاعَةِ ٱلمَدِيحِ بِوَجهٍ مِنَ ٱلوُجُوهِ وَذٰلِكَ اَنَّهُ لَيسَ يُقْصَدُ مِنْ صِنَاعَةِ ٱلشِّعْرِ اَيُّ لَذَّةٍ اتَّفَقَتْ لَكِنْ اِنَّمَا يُقصَدُ بِهَا حُصُولُ ٱلِالتِذَاذِ بِتَخْيِيلِ ٱلفَضَائِلِ وَهِيَ ٱللَّذَّةُ ٱلمُنَاسِبَةُ لِصِنَاعَةِ ٱلمَدِيحِ (قَالَ) وَهُوَ مَعلُومٌ مَا هِيَ ٱلأَشْيَاءُ ٱلَّتِي تَفعَلُ ٱللَّذَّاتِ بِمُحَاكَاتِهَا مِنْ غَيْرِ اَنْ يَلحَقَ عَنْ ذٰلِكَ حُزْنٌ وَلَا خَوفٌ. وَامَّا ٱلأَشْيَاءُ ٱلَّتِي تَلحَقُ مَعَ ٱلِالتِذَاذِ بِمُحَاكَاتِهَا

ٱلرَّحمَةَ وَٱلخَوفَ فَإِنَّمَا يَقْدِرُ ٱلإِنسَانُ عَلَى ذٰلِكَ إِذَا ٱلتَمَسَ أَيَّ ٱلأَشْيَاءِ هِيَ ٱلصَّعْبَةُ مِنَ ٱلنَّوَائِبِ ٱلَّتِي تَنُوبُ وَأَيَّ ٱلأَشْيَاءِ هِيَ ٱلأَشْيَاءُ ٱليَسِيرَةُ ٱلهَيِّنَةُ ٱلَّتِي لَيسَ يَلحَقُ عَنهَا كَبِيرُ حُزْنٍ وَلَا خَوفٍ وَأَمثَالُ هٰذِهِ ٱلأَشْيَاءِ هِيَ مَا يَنزِلُ بِٱلأَصدِقَاءِ بَعضِهِمْ مِنْ بَعضٍ مِنْ قِبَلِ ٱلإِرَادَةِ مِنَ ٱلرَّزَايَا وَٱلمَصَائِبِ لَا مَا يَنزِلُ بِٱلأَعدَاءِ بَعضِهِمْ مِنْ بَعضٍ فَإِنَّ ٱلإِنسَانَ لَيسَ يَحزَنُ وَلَا يُشفِقُ لِمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسُّوءِ بِٱلعَدُوِّ مِنْ عَدُوِّهِ كَمَا يَحزَنُ وَيَخَافُ مِنَ ٱلسُّوءِ ٱلنَّازِلِ بِٱلصَّدِيقِ مِنْ صَدِيقِهِ وَإِنْ كَانَ قَدْ يَلحَقُ عَنْ ذٰلِكَ أَلَمٌ فَلَيسَ يَلحَقُ مِثلُ ٱلأَلَمِ ٱلَّذِي يَلحَقُ مِنَ ٱلسُّوءِ ٱلَّذِي يَنزِلُ مِنَ ٱلمُحِبِّينَ بَعضِهِمْ بِبَعضٍ مِثلُ قَتلِ ٱلإِخوَةِ بَعضُهُمْ بَعضًا أَوْ قَتلِ ٱلآبَاءِ ٱلأَبنَاءَ أَوِ ٱلأَبنَاءِ ٱلآبَاءَ وَلِهٰذَا ٱلَّذِي ذَكَرَهُ كَانَ قَصَصُ إِبرَاهِيمَ فِيمَا أُمِرَ فِي ٱبنِهِ فِي غَايَةِ ٱلأَقَاوِيلِ ٱلمُوجِبَةِ لِلحُزنِ وَٱلخَوفِ (قَالَ) وَٱلمَدحُ إِنَّمَا يَنبَغِي أَنْ يَكُونَ بِٱلأَفعَالِ ٱلفَاضِلَةِ ٱلَّتِي تَصدُرُ عَنْ إِرَادَةٍ وَعِلمٍ لِأَنَّ مِنَ ٱلأَشْيَاءِ مَا يُفعَلُ عَنْ إِرَادَةٍ وَعِلمٍ وَمِنهَا مَا يُفعَلُ لَا عَنْ إِرَادَةٍ وَلَا عِلمٍ وَمِنهَا يُفعَلُ عَنْ عِلمٍ لَا عَنْ إِرَادَةٍ أَوْ عَنْ إِرَادَةٍ لَا عَنْ عِلمٍ وَكَذٰلِكَ ٱلأَفعَالُ مِنهَا مَا تَكُونُ لِمَنْ يَعرِفُ وَلِمَنْ لَا يَعرِفُ فَٱلفِعلُ إِذَا صَدَرَ مِنْ غَيرِ مَعرِفَةٍ وَلَا إِرَادَةٍ فَلَيسَ يَدخُلُ فِي بَابِ ٱلمَدِيحِ وَكَذٰلِكَ إِذَا كَانَ صَادِرًا مِنْ غَيرِ مَعرُوفٍ لِأَنَّهُ يَكُونُ حِينَئِذٍ فِي ٱلأُكذُوبَاتِ أُدخِلَ مِنهُ فِي ٱلشِّعرِ وَلَا يَجِبُ أَنْ يُحَاكَى . وَأَمَّا ٱلأَفعَالُ ٱلَّتِي لَا يُشَكُّ أَنَّهَا صَدَرَتْ عَنْ إِرَادَةٍ وَمَعرِفَةٍ

وَعَنْ مَعْرُوفِينَ فَمَا اَحْسَنَ ٱلِاسْتِدْلَالَ ٱلَّذِي يَكُونُ فِي هٰذِهِ ٱلْاَفْعَالِ (قَالَ) فَامَّا فِي حُسْنِ قِوَامِ ٱلْاُمُورِ ٱلَّتِي تُرَكَّبُ مِنْهَا ٱلْاَشْعَارُ وَكَيْفَ يَنْبَغِي اَنْ يَكُونَ تَرْكِيبُهَا فَقَدْ قُلْنَا فِي ذٰلِكَ قَوْلًا كَافِيًا فَامَّا اَيُّ ٱلْعَادَاتُ هِيَ ٱلْعَادَاتُ ٱلَّتِي يَنْبَغِي اَنْ تُحَاكَى فِي ٱلْمَدْحِ فَقَدْ يَجِبُ اَنْ نَقُولَ فِيهَا فَنَقُولُ اِنَّ ٱلْعَادَاتِ ٱلَّتِي تُحَاكَى عِنْدَ ٱلْمَدْحِ ٱلْجَيِّدِ اَعْنِي ٱلَّذِي يَحْسُنُ مَوْقِعُهَا مِنَ ٱلسَّامِعِينَ اَرْبَعَةٌ اِحْدَاهَا ٱلْعَادَاتُ ٱلَّتِي هِيَ خَيِّرَةٌ وَفَاضِلَةٌ فِي ذٰلِكَ ٱلْمَمْدُوحِ فَاِنَّ ٱلَّذِي يُؤَثِّرُ فِي ٱلنَّفْسِ هُوَ مُحَاكَاةُ ٱلْاَشْيَاءِ ٱلْحَقِّ ٱلْمَوْجُودَةِ فِي ذٰلِكَ ٱلْمَمْدُوحِ وَكُلُّ جِنْسٍ فَفِيهِ خَيْرٌ مَا وَاِنْ كَانَ فِيهِ اَشْيَاءُ لَيْسَتْ خَيْرًا. وَٱلثَّانِيَةُ اَنْ تَكُونَ ٱلْعَادَاتُ مِنَ ٱلَّتِي تَلِيقُ بِٱلْمَمْدُوحِ وَتَصْلُحُ لَهُ وَذٰلِكَ اَنَّ ٱلْعَادَاتِ ٱلَّتِي تَلِيقُ بِٱلْمَرْاَةِ لَيْسَتْ تَلِيقُ بِٱلرَّجُلِ. وَٱلثَّالِثَةُ اَنْ تَكُونَ مِنَ ٱلْعَادَاتِ ٱلْمَوْجُودَةِ فِيهِ عَلَى اَتَمِّ مَا يُمْكِنُ اَنْ تُوجَدَ فِيهِ مِنَ ٱلشَّبَهِ وَٱلْمُوَافَقَةِ. وَٱلرَّابِعَةُ اَنْ تَكُونَ مُعْتَدِلَةً مُتَوَسِّطَةً بَيْنَ ٱلْاَطْرَافِ وَاِنَّمَا كَانَ ذٰلِكَ كَذٰلِكَ لِاَنَّ ٱلْعَوَائِدَ ٱلرَّذْلَةَ لَيْسَ مِمَّا يُمْدَحُ بِهَا وَكَذٰلِكَ ٱلْعَوَائِدُ ٱلَّتِي لَا تَلِيقُ بِٱلْمَمْدُوحِ وَاِنْ كَانَتْ جِيَادًا وَكَذٰلِكَ ٱلْعَوَائِدُ ٱللَّائِقَةُ اِذَا لَمْ تُوجَدْ عَلَى اَتَمِّ مَا يُمْكِنُ فِيهَا مِنَ ٱلْمُشَابَهَةِ اَوْ لَمْ تُوجَدْ مُسْتَوْفَاةً وَٱلْعَوَائِدُ ٱلَّتِي هِيَ خَيْرٌ وَتَدُلُّ عَلَى ٱلْخُلُقِ ٱلْخَيِّرِ ٱلْفَاضِلِ مِنْهَا مَا هِيَ كَذٰلِكَ فِي ٱلْحَقِيقَةِ وَمِنْهَا مَاهِيَ كَذٰلِكَ فِي ٱلْمَشْهُورِ وَمِنْهَا مَا هِيَ شَبِيهَةٌ بِهٰذَيْنِ وَٱلْعَوَائِدُ ٱلْجِيَادُ اِمَّا حَقِيقِيَّةٌ وَاِمَّا شَبِيهَةٌ بِٱلْحَقِيقِيَّةِ وَاِما مَشْهُورَةٌ اَوْ شَبِيهَةٌ بِٱلْمَشْهُورَةِ وَكُلُّ

هٰذِهِ تدخُلُ فِي ٱلْمَدْحِ (قَالَ) وَيَجِبُ اَنْ تَكُونَ خَوَاتِمُ ٱلْاَشْعَارِ وَٱلْقَصَائِدِ تَدُلُّ بِاِجْمَالٍ عَلَى مَا تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ مِنَ ٱلْعَوَائِدِ ٱلَّتِي وَقَعَ ٱلْمَدْحُ بِهَا كَٱلْحَالِ فِي خَوَاتِمِ ٱلْخُطَبِ وَاَنْ يَكُونَ ٱلشَّاعِرُ لَا يُورِدُ فِي شِعْرِهِ مِنَ ٱلْمُحَاكَاةِ ٱلْخَارِجَةِ عَنِ ٱلْقَوْلِ اِلَّا بِقَدْرِ مَا يَحْتَمِلُهُ ٱلْمُخَاطَبُونَ مِنْ ذٰلِكَ حَتَّى لَا يُنْسَبَ فِي ذٰلِكَ اِلَى ٱلْغُلُوِّ وَٱلْخُرُوجِ عَنْ طَرِيقَةِ ٱلشِّعْرِ وَلَا اِلَى ٱلتَّقْصِيرِ (قَالَ) وَٱلتَّشْبِيهُ وَٱلْمُحَاكَاةُ هِيَ مَدَائِحُ ٱلْاَشْيَاءِ ٱلَّتِي فِي غَايَةِ ٱلْفَضِيلَةِ فَكَمَا اَنَّ ٱلْمُصَوِّرَ ٱلْحَاذِقَ يُصَوِّرُ ٱلشَّيْءَ بِحَسَبِ مَا هُوَ عَلَيْهِ فِي ٱلْوُجُودِ حَتَّى اَنَّهُمْ قَدْ يُصَوِّرُونَ ٱلْغِضَابَ وَٱلْكَسَالَى مَعَ اَنَّهَا صِفَاتٌ نَفْسَانِيَّةٌ كَذٰلِكَ يَجِبُ اَنْ يَكُونَ ٱلشَّاعِرُ فِي مُحَاكَاتِهِ يُصَوِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِحَسَبِ مَا هُوَ عَلَيْهِ حَتَّى يُحَاكِيَ ٱلْاَخْلَاقَ وَاَحْوَالَ ٱلنَّفْسِ وَذَكَرَ مِثَالَ ذٰلِكَ فِي شِعْرٍ لِاُومِيرُوشَ قَالَهُ فِي صِفَةِ قَضِيَّةٍ عَرَضَتْ لِرَجُلٍ. وَمِنْ هٰذَا ٱلنَّحْوِ مِنَ ٱلتَّخْيِيلِ اَعْنِي ٱلَّذِي يُحَاكِي حَالَ ٱلنَّفْسِ قَوْلُ اَبِي ٱلطَّيِّبِ يَصِفُ رَسُولَ ٱلرُّومِ ٱلْوَاصِلَ اِلَى سَيْفِ ٱلدَّوْلَةِ:

اَتَاكَ يَكَادُ ٱلرَّأْسُ يَجْحَدُ عُنْقَهُ ... وَتَنْقَدُّ تَحْتَ ٱلذُّعْرِ مِنْهُ ٱلْمَفَاصِلُ

يُقَوِّمُ تَقْوِيمُ ٱلسِّمَاطَيْنِ مَشْيَهُ ... اِلَيْكَ اِذَا مَا عَوَّجَتْهُ ٱلْاَفَاكِلُ

(قَالَ) وَيَجِبُ عَلَى ٱلشَّاعِرِ اَنْ يَلْزَمَ فِي تَخْيِيلَاتِهِ وَمُحَاكَيَاتِهِ ٱلْاَشْيَاءَ ٱلَّتِي جَرَتِ ٱلْعَادَةُ بِٱسْتِعْمَالِهَا فِي ٱلتَّشْبِيهِ وَاَلَّا يَتَعَدَّى فِي ذٰلِكَ طَرِيقَةَ ٱلشِّعْرِ (قَالَ) وَاَنْوَاعُ ٱلِاسْتِدْلَالَاتِ ٱلَّتِي تَجْرِي عَلَى هٰذَا ٱلْمَجْرَى اَعْنِي ٱلْمُحَاكَاةَ ٱلْجَارِيَةَ مَجْرَى ٱلْجُودَةِ عَلَى ٱلطَّرِيقِ ٱلصِّنَاعِيِّ

انواعٌ كثيرةٌ فمنها ان تكونَ المحاكاةُ لأشياء محسوسةٍ بأشياء محسوسةٍ من شأنها ان توقعَ الشكَّ لمن ينظرُ اليها وتوهمُ انها هي لاشتراكها في احوالٍ محسوسةٍ وذلكَ مثلُ تسميتهم لبعض صورِ الكواكبِ سرطانًا ولبعضها ممسكَ الحربةِ لأنها من جهةِ الشكلِ يمكنُ ان يتوهمَ متوهمٌ انها هي هي. وجلُّ تشبيهاتِ العربِ راجعةٌ الى هذا الموضعِ ولذلكَ كانت حروفُ التشبيهِ عندهم تقتضي الشكَّ وكلما كانت هذه المتوهماتُ اقربَ الى وقوعِ الشكِّ كانت اتمَّ تشبيهًا وكلما كانت ابعدَ من وقوعِ الشكِّ كانت انقصَ تشبيهًا وهذه هي المحاكاةُ البعيدةُ وينبغي ان تُطرحَ وذلكَ مثلُ قولِ امرىءِ القيسِ في الفرسِ:

كأنها هراوةُ منوالِ

ومثلُ قولهِ:

اذا اقبلتْ قلتُ دُبَّاءةٌ ... من الخضرِ مغموسةٌ في الغُدُرْ

وانْ ادبرتْ قلتُ اُثفيَّةٌ ... ململمةٌ ليس فيها اثرْ

وانْ كانَ هذا اقربَ من الاوّلِ لانَّ فيه مقابلةً ما. ومنها ان تكونَ المحاكاةُ لأمورٍ معنويةٍ بأمورٍ محسوسةٍ اذ كانَ لتلكَ الامورِ افعالٌ مناسبةٌ لتلكَ المعاني حتى توهمَ انها هي مثلُ قولهم في المنّةِ انها طوقُ العنقِ وفي الاحسانِ قيدٌ كما قالَ ابو الطيّبِ:

ومن وجدَ الاحسانَ قيدًا تقيّدا

وَهٰذَا كَثِيرٌ فِي اَشْعَارِ ٱلْعَرَبِ وَمِنْهُ قَوْلُ ٱمْرِئِ ٱلْقَيْسِ:

قَيْدِ ٱلْاَوَابِدِ هَيْكَلِ

وَمَا كَانَ مِنْ هٰذِهِ اَيْضًا غَيْرَ مُنَاسِبٍ وَلَا شَبِيهٍ فَيَنْبَغِي اَنْ يُطْرَحَ وَهٰذَا كَثِيرًا مَا يُوجَدُ فِي اَشْعَارِ ٱلْمُحْدَثِينَ وَبِخَاصَّةٍ فِي شِعْرِ اَبِي تَمَّامٍ مِثْلُ قَوْلِهِ:

لَا تَسْقِنِي مَاءَ ٱلْمَلَامِ

فَاِنَّ ٱلْمَاءَ غَيْرُ مُنَاسِبٍ لِلْمَلَامِ. وَاَسْخَفُ مِنْ هٰذَا قَوْلُهُ:

كُثُبَ ٱلْمَوْتِ رَائِبًا وَحَلِيبًا

وَكَمَا اَنَّ ٱلْبَعِيدَ ٱلْوُجُودِ هَاهُنَا مُطَّرَحٌ كَذٰلِكَ يَنْبَغِي اَنْ يَكُونَ ٱلتَّشْبِيهُ بِٱلْخَسِيسِ ٱلْوُجُودِ مُطَّرَحًا اَيْضًا وَاَنْ يَكُونَ ٱلتَّشْبِيهُ بِٱلْاَشْيَاءِ ٱلْفَاضِلَةِ. فَمِثَالُ تَشْبِيهِ ٱلشَّرِيفِ بِٱلْخَسِيسِ قَوْلُ ٱلرَّاجِزِ:

وَٱلشَّمْسُ مَائِلَةٌ وَلَمَّا تَفْعَلِ ... فَكَاَنَّهَا فِي ٱلْاُفْقِ عَيْنُ ٱلْاَحْوَلِ

وَكَمَا قَالَ بَعْضُ ٱلشُّعَرَاءِ يَمْدَحُ سَيْفَ ٱلدَّوْلَةِ:

وَقَدْ عَلِمَ ٱلرُّومُ ٱلشَّقِيُّونَ اَنَّهُمْ ... سَتَلْقَاهُمُ يَوْمًا وَتَلْقَى ٱلدُّمُسْتُقَا

وَكَانُوا كَفَارٍ وَثَّبُوا خَلْفَ حَائِطٍ ... وَكُنْتَ كَسِنَّوْرٍ عَلَيْهِمْ تَسَلَّقَا

قَالَ وَهُنَا نَوْعٌ آخَرُ مِنَ ٱلشِّعْرِ وَهِيَ ٱلْاَشْعَارُ ٱلَّتِي هِيَ فِي بَابِ ٱلتَّصْدِيقِ وَٱلْاِقْنَاعِ اُدْخِلَ مِنْهَا فِي بَابِ ٱلتَّخْيِيلِ وَهِيَ اَقْرَبُ اِلَى ٱلْمِثَالَاتِ ٱلْخُطْبِيَّةِ مِنْهَا اِلَى ٱلْمُحَاكَاةِ ٱلشِّعْرِيَّةِ وَهٰذَا ٱلْجِنْسُ ٱلَّذِي ذَكَرَهُ مِنَ ٱلشِّعْرِ هُوَ كَثِيرٌ فِي شِعْرِ اَبِي ٱلطَّيِّبِ مِثْلُ قَوْلِهِ:

لَيْسَ ٱلتَّكَحُّلُ فِي ٱلْعَيْنَيْنِ كَٱلْكَحَلِ

وَقَوْلِهِ :

فِي طَلْعَةِ ٱلشَّمْسِ مَا يُغْنِيكَ عَنْ زُحَلِ

وَمِنْ أَحْسَنِ مَا فِي هٰذَا ٱلْمَعْنَى قَوْلُ أَبِي فِرَاسٍ :

وَنَحْنُ أُنَاسٌ لَا تَوَسُّطَ عِنْدَنَا　　لَنَا ٱلصَّدْرُ دُونَ ٱلْعَالَمِينَ أَوِ ٱلْقَبْرُ
تَهُونُ عَلَيْنَا فِي ٱلْمَعَالِي نُفُوسُنَا　　وَمَنْ خَطَبَ ٱلْحَسْنَاءَ لَمْ يُغْلِهِ ٱلْمَهْرُ

(قَالَ) وَٱلنَّوْعُ ٱلثَّالِثُ مِنَ ٱلْمُحَاكَاةِ هِيَ ٱلْمُحَاكَاةُ ٱلَّتِي تَقَعُ بِٱلتَّذَكُّرِ وَذٰلِكَ أَنْ يُورِدَ ٱلشَّاعِرُ شَيْئًا يُتَذَكَّرُ بِهِ شَيْءٌ آخَرُ مِثْلَ أَنْ يَرَى ٱلْإِنْسَانُ خَطَّ إِنْسَانٍ فَيَتَذَكَّرُهُ فَيَحْزَنُ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مَيِّتًا أَوْ يَتَشَوَّقُ إِلَيْهِ إِنْ كَانَ حَيًّا وَهٰذَا مَوْجُودٌ فِي أَشْعَارِ ٱلْعَرَبِ كَثِيرًا مِثْلُ قَوْلِ مُتَمِّمِ بْنِ نُوَيْرَةَ :

وَقَالُوا أَتَبْكِي كُلَّ قَبْرٍ رَأَيْتَهُ　　لِقَبْرٍ ثَوَى بَيْنَ ٱللِّوَى وَٱلدَّكَادِكِ
فَقُلْتُ لَهُمْ إِنَّ ٱلْأَسَى يَبْعَثُ ٱلْأَسَى　　دَعُونِي فَهٰذَا كُلُّهُ قَبْرُ مَالِكِ

وَمِنْهُ قَوْلُ قَيْسٍ ٱلْمَجْنُونِ :

وَدَاعٍ دَعَا إِذْ نَحْنُ بِٱلْخَيْفِ مِنْ مِنًى
فَهَيَّجَ أَحْزَانَ ٱلْفُؤَادِ وَمَا يَدْرِي
دَعَا بِٱسْمِ لَيْلَى غَيْرَهَا فَكَأَنَّمَا
أَطَارَ بِلَيْلَى طَائِرًا كَانَ فِي صَدْرِي

وَمِنْ هٰذَا ٱلنَّوْعِ قَوْلُ ٱلْخَنْسَاءِ :

يُذَكِّرُنِي طُلُوعُ ٱلشَّمْسِ صَخْرًا　　وَأَذْكُرُهُ لِكُلِّ غُرُوبِ شَمْسِ

وَقَوْلُ ٱلْهُذَلِيِّ :

أَبِي ٱلصَّبْرُ إِنِّي لَا يَزَالُ يَهِيجُنِي مَبِيتٌ لَنَا فِيمَا مَضَى وَمَقِيلُ
إِذَا مَا بَيَاضُ ٱلصُّبْحِ آنَسْتُ ضَوْءَهُ يُعَاوِدُنِي جِنْحٌ عَلَيَّ ثَقِيلُ

وَهٰذَا ٱلنَّوْعُ كَثِيرٌ فِي أَشْعَارِ ٱلْعَرَبِ وَمِنْ هٰذَا ٱلْمَوْضِعِ تَذَكُّرُهَا ٱلْأَحِبَّةَ بِٱلدِّيَارِ وَٱلْأَطْلَالِ كَمَا قَالَ:

قِفَا نَبْكِ مِنْ ذِكْرَى حَبِيبٍ وَمَنْزِلِ

وَيَقْرُبُ مِنْ هٰذَا ٱلْمَوْضِعِ مَا جَرَتْ بِهِ عَادَةُ ٱلْعَرَبِ مِنْ تَذَكُّرِ ٱلْأَحِبَّةِ بِٱلْخَيَالِ وَإِقَامَتِهِ مُقَامَ ٱلْمُتَخَيَّلِ كَمَا قَالَ شَاعِرُهُمْ:

وَإِنِّي لَأَسْتَغْشِي وَمَا بِيَ نَعْسَةٌ لَعَلَّ خَيَالًا مِنْكِ يَلْقَى خَيَالِيَا
وَأَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ ٱلْبُيُوتِ لَعَلَّنِي أُحَدِّثُ عَنْكِ ٱلنَّفْسَ فِي ٱلسِّرِّ خَالِيَا

وَتَصَرُّفُ ٱلْعَرَبِ وَٱلْمُحْدَثِينَ فِي ٱلْخَيَالِ مُتَفَنِّنٌ وَأَنْحَاءُ ٱسْتِعْمَالِهِمْ لَهُ كَثِيرَةٌ وَلِذٰلِكَ يُشْبِهُ أَنْ يَكُونَ مِنَ ٱلْمَوَاضِعِ ٱلشِّعْرِيَّةِ ٱلْخَاصَّةِ بِٱلنَّسِيبِ وَقَدْ يَدْخُلُ فِي ٱلرِّثَاءِ كَمَا قَالَ ٱلْبُحْتُرِيُّ:

خَلَا نَاظِرِي مِنْ طَيْفِهِ بَعْدَ شَخْصِهِ فَيَا عَجَبًا لِلدَّهْرِ فَقْدٌ عَلَى فَقْدِ

(قَالَ) وَأَمَّا ٱلنَّوْعُ ٱلرَّابِعُ مِنَ ٱلْمُحَاكَاةِ فَهُوَ أَنْ يُذْكَرَ أَنَّ شَخْصًا مَا شَبِيهٌ بِشَخْصٍ مِنْ ذٰلِكَ ٱلنَّوْعِ بِعَيْنِهِ وَهٰذَا ٱلتَّشْبِيهُ لَا يَكُونُ إِلَّا فِي ٱلْخَلْقِ أَوِ ٱلْخُلُقِ مِثْلُ قَوْلِ ٱلْقَائِلِ جَاءَ شَبِيهُ يُوسُفَ وَلَمْ يَأْتِ إِلَّا فُلَانٌ وَمِنْ هٰذَا قَوْلُ ٱمْرِئِ ٱلْقَيْسِ:

وَتَعْرِفُ فِيهِ مِنْ أَبِيهِ شَمَائِلَا

وَٱلتَّصْرِيحُ بِٱلتَّشْبِيهِ خِلَافُ ٱلتَّشْبِيهِ فَإِنَّ ٱلتَّشْبِيهَ هُوَ إِيقَاعُ شَكٍّ وَٱلتَّصْرِيحَ بِٱلشَّبِيهِ بَيْنَ ٱثْنَيْنِ هُوَ تَحْقِيقٌ لِوُجُودِ ٱلشَّبَهِ وَهُوَ ٱلْغَايَةُ فِي

مُطَابَقَةِ ٱلتَّخْيِيلِ أَعْنِي إِذْ قِيلَ شَبِيهُ فُلَانٍ (قَالَ) وَٱلنَّوْعُ ٱلْخَامِسُ هُوَ ٱلَّذِي يَسْتَعْمِلُهُ ٱلسُّوفُسْطَائِيُّونَ مِنَ ٱلشُّعَرَاءِ وَهُوَ ٱلْغُلُوُّ ٱلْكَاذِبُ وَهٰذَا كَثِيرٌ فِي أَشْعَارِ ٱلْعَرَبِ وَٱلْمُحْدَثِينَ مِثْلُ قَوْلِ ٱلنَّابِغَةِ:

تَقُدُّ ٱلسَّلُوقِيَّ ٱلْمُضَاعَفَ نَسْجُهُ ... وَتُوقِدُ بِٱلصُّفَّاحِ نَارَ ٱلْحُبَاحِبِ

وَقَوْلِ ٱلْآخَرِ:

فَلَوْلَا ٱلرِّيحُ أُسْمِعَ مَنْ بِحُجْرٍ ... صَلِيلَ ٱلْبِيضِ تُقْرَعُ بِٱلذُّكُورِ

وَهٰذَا كُلُّهُ كَذِبٌ وَمِنْ هٰذَا قَوْلُ أَبِي ٱلطَّيِّبِ:

عَدُوُّكَ مَذْمُومٌ بِكُلِّ لِسَانِ ... وَلَوْ كَانَ مِنْ أَعْدَائِكَ ٱلْقَمَرَانِ

وَقَوْلُهُ فِي هٰذِهِ ٱلْقَصِيدَةِ:

لَوِ ٱلْفَلَكَ ٱلدَّوَّارَ أَبْغَضْتَ سَيْرَهُ ... لَعَوَّقَهُ شَيْءٌ عَنِ ٱلدَّوَرَانِ

وَمِنْ هٰذَا ٱلْبَابِ قَوْلُ ٱمْرِئِ ٱلْقَيْسِ:

مِنَ ٱلْقَاصِرَاتِ ٱلطَّرْفِ لَوْ دَبَّ مُحْوِلٌ
مِنَ ٱلذَّرِّ فَوْقَ ٱلْإِتْبِ مِنْهَا لَأَثَّرَا

وَهٰذَا كَثِيرٌ مَوْجُودٌ فِي أَشْعَارِ ٱلْعَرَبِ وَلَيْسَ تَجِدُ فِي ٱلْكِتَابِ ٱلْعَزِيزِ مِنْهُ شَيْئًا إِذْ كَانَ يَتَنَزَّلُ مِنْ هٰذَا ٱلْجِنْسِ مِنَ ٱلْقَوْلِ أَعْنِي ٱلشِّعْرَ مَنْزِلَةَ ٱلْكَلَامِ ٱلسُّوفُسْطَائِيِّ مِنَ ٱلْبُرْهَانِ وَلٰكِنْ قَدْ يُوجَدُ لِلْمَطْبُوعِ مِنَ ٱلشُّعَرَاءِ مِنْهُ شَيْءٌ مَحْمُودٌ مِثْلُ قَوْلِ ٱلْمُتَنَبِّي:

وَأَنَّى ٱهْتَدَى هٰذَا ٱلرَّسُولُ بِأَرْضِهِ
وَمَا سَكَنَتْ مُذْ سِرْتَ فِيهَا ٱلْقَسَاطِلُ

وَمِنْ أيِّ مَاءٍ كَانَ يَسقِي جِيَادَهُ
وَلَمْ تَصْفُ مِنْ مَزْجِ الدِّمَاءِ المَنَاهِلُ

وَقَوْلِهِ:

لَبِسْنَ الوَشْيَ لَا مُتَجَمِّلَاتٍ وَلٰكِنْ كَيْ يَصُنَّ بِهِ الجَمَالَا
وَضَفَّرْنَ الغَدَائِرَ لَا لِحُسْنٍ وَلٰكِنْ خِفْنَ فِي الشَّعَرِ الضَّلَالَا

وَهَا هُنَا مَوْضِعٌ سَادِسٌ مَشْهُورٌ يَسْتَعْمِلُهُ العَرَبُ وَهُوَ إقَامَةُ الجَمَادَاتِ مَقَامَ النَّاطِقِينَ فِي مُخَاطَبَتِهِمْ وَمُرَاجَعَتِهِمْ إذَا كَانَتْ فِيهَا أحْوَالٌ تَدُلُّ عَلَى النُّطْقِ مِثْلُ قَوْلِ الشَّاعِرِ:

وَأَجْهَشْتُ لِلتَّوْبَاذِ لَمَّا رَأَيْتُهُ وَكَبَّرَ لِلرَّحْمٰنِ حِينَ رَآنِي
فَقُلْتُ لَهُ أيْنَ الَّذِينَ عَهِدْتُهُمْ حَوَالَيْكَ فِي أَمْنٍ وَخَفْضِ زَمَانِ
فَقَالَ مَضَوْا وَاسْتَوْدَعُونِي بِلَادَهُمْ وَمَنْ ذَا الَّذِي يَبْقَى عَلَى الحَدَثَانِ

وَمِنْ هٰذَا البَابِ مُخَاطَبَتُهُمُ الدِّيَارَ وَالأَطْلَالَ وَمُجَاوَبَتُهَا لَهُمْ كَقَوْلِ ذِي الرُّمَّةِ:

وَأَسْقِيهِ حَتَّى كَادَ مِمَّا أبُثُّهُ تُكَلِّمُنِي أحْجَارُهُ وَمَلَاعِبُهْ

وَقَوْلِ عَنْتَرَةَ:

أعْيَاكَ رَسْمُ الدَّارِ لَمْ يَتَكَلَّمِ حَتَّى تَكَلَّمَ كَالأَصَمِّ الأَعْجَمِ
يَا دَارَ عَبْلَةَ بِالجِوَاءِ تَكَلَّمِي وَعِمِي صَبَاحًا دَارَ عَبْلَةَ وَاسْلَمِي

إلَى غَيْرِ ذٰلِكَ مِمَّا يُشْبِهُ هٰذَا مِمَّا هُوَ كَثِيرٌ فِي أشْعَارِهِمْ وَقَدْ ذَكَرَ هُوَ هٰذَا المَوْضِعَ فِي كِتَابِ الخَطَابَةِ وَذَكَرَ أنَّ أومِيرُوشَ كَانَ يَعْتَمِدُهُ كَثِيرًا (قَالَ) وَالاِسْتِدْلَالُ الفَاضِلُ وَالإِدَارَةُ إنَّمَا تَكُونُ لِلأَفْعَالِ

ٱلْإِرَادِيَّةِ وَأَكْثَرُ مَا يُوجَدُ هٰذَا ٱلنَّوْعُ مِنَ ٱلِٱسْتِدْلَالِ فِي ٱلْكِتَابِ ٱلْعَزِيزِ أَعْنِي فِي مَدْحِ ٱلْأَفْعَالِ ٱلْفَاضِلَةِ وَذَمِّ ٱلْأَفْعَالِ ٱلْغَيْرِ فَاضِلَةٍ وَهُوَ قَلِيلٌ فِي أَشْعَارِ ٱلْعَرَبِ. وَمِثَالُ ٱلْإِدَارَةِ فِي ٱلْمَدْحِ قَوْلُ ٱلْقُرْآنِ: ضَرَبَ ٱللهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً إِلَى قَوْلِهِ: مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ. وَمِثَالُ ٱلِٱسْتِدْلَالِ. قَوْلُهُ: كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ ٱلْآيَةَ.

(قَالَ) وَإِجَادَةُ ٱلْقَصَصِ ٱلشِّعْرِيِّ وَٱلْبُلُوغُ بِهِ إِلَى غَايَةِ ٱلتَّمَامِ إِنَّمَا يَكُونُ مَتَى بَلَغَ ٱلشَّاعِرُ مِنْ وَصْفِ ٱلشَّيْءِ أَوِ ٱلْقَضِيَّةِ ٱلْوَاقِعَةِ ٱلَّتِي يَصِفُهَا مَبْلَغًا يُرِي ٱلسَّامِعِينَ لَهُ كَأَنَّهُ مَحْسُوسٌ وَمَنْظُورٌ إِلَيْهِ وَيَكُونُ مَعَ هٰذَا ضِدُّهُ غَيْرَ ذَاهِبٍ عَلَيْهِمْ مِنْ ذٰلِكَ ٱلْوَصْفِ وَهٰذَا يُوجَدُ كَثِيرًا فِي شِعْرِ ٱلْفُحُولِ وَٱلْمُفْلِقِينَ مِنَ ٱلشُّعَرَاءِ لٰكِنْ إِنَّمَا يُوجَدُ هٰذَا ٱلنَّحْوُ مِنَ ٱلتَّخْيِيلِ لِلْعَرَبِ إِمَّا فِي أَفْعَالٍ غَيْرِ عَفِيفَةٍ وَإِمَّا فِيمَا ٱلْقَصْدُ مِنْهُ مُطَابَقَةُ ٱلتَّخْيِيلِ فَقَطْ فَمِثَالُ مَا وَرَدَ مِنْ ذٰلِكَ فِي ٱلْفُجُورِ قَوْلُ أَمْرِئِ ٱلْقَيْسِ:

سَمَوْتُ إِلَيْهَا بَعْدَ مَا نَامَ أَهْلُهَا ... سُمُوَّ حَبَابِ ٱلْمَاءِ حَالًا عَلَى حَالِ
فَقَالَتْ سَبَاكَ ٱللهُ إِنَّكَ فَاضِحِي ... أَلَسْتَ تَرَى ٱلسُّمَّارَ وَٱلنَّاسَ أَحْوَالِي
فَقُلْتُ يَمِينُ ٱللهِ أَبْرَحُ قَاعِدًا ... وَلَوْ قَطَعُوا رَأْسِي لَدَيْكِ وَأَوْصَالِي

وَمِثَالُ مَا وَرَدَ مِنْ ذٰلِكَ مِمَّا ٱلْقَصْدُ بِهِ مُطَابَقَةُ ٱلتَّشْبِيهِ فَقَطْ قَوْلُ ذِي ٱلرُّمَّةِ يَصِفُ ٱلنَّارَ:

وَسِقْطٍ كَعَيْنِ ٱلدِّيكِ عَاوَرْتُ صُحْبَتِي
أَبَاهَا وَهَيَّأْنَا لِمَوْقِعِهَا وَكْرَا

فَقُلْتُ لَهَا ٱرْفَعْهَا إِلَيْكَ وَأَحْيِهَا
بِرُوحِكَ وَٱقْتَتْهُ لَهَا قُتَةً قَدْرًا
وَظَاهِرْ لَهَا مِنْ يَابِسِ ٱلشَّخْتِ وَٱسْتَعِنْ
عَلَيْهَا ٱلصَّبَا وَٱجْعَلْ يَدَيْكَ لَهَا سِتْرًا

وَقَدْ يُوجَدُ فِي أَشْعَارِهِمْ فِي وَصْفِ ٱلْأَحْوَالِ ٱلْوَاقِعَةِ مِثْلِ ٱلْحُرُوبِ وَغَيْرِ ذٰلِكَ مِمَّا يَتَمَدَّحُونَ بِهِ وَٱلْمُتَنَبِّي أَفْضَلُ مَنْ يُوجَدُ لَهُ هٰذَا ٱلصِّنْفُ مِنَ ٱلتَّخْيِيلِ وَذٰلِكَ كَثِيرٌ فِي أَشْعَارِهِ وَلِذٰلِكَ يُحْكَى عَنْهُ أَنَّهُ كَانَ لَا يُرِيدُ أَنْ يَصِفَ ٱلْوَقَائِعَ ٱلَّتِي لَمْ يَشْهَدْهَا مَعَ سَيْفِ ٱلدَّوْلَةِ وَإِجَادَةُ هٰذَا ٱلنَّوْعِ مِنَ ٱلتَّشْبِيهِ يَتَأَتَّى بِأَنْ يَحْصُلَ لِلْإِنْسَانِ أَوَّلًا جَمِيعُ ٱلْمَعَانِي ٱلَّتِي فِي ٱلشَّيْءِ ٱلَّذِي يَقْصِدُ وَصْفَهُ ثُمَّ يُرَكِّبَ عَلَى تِلْكَ ٱلْمَعَانِي ٱلْأَجْزَاءَ ٱلثَّلَاثَةَ مِنْ أَجْزَاءِ ٱلشِّعْرِ أَعْنِي ٱلتَّخْيِيلَ وَٱلْوَزْنَ وَٱللَّحْنَ (قَالَ) وَتَعْدِيدُ مَوَاضِعِ ٱلِٱسْتِدْلَالَاتِ مِمَّا يَطُولُ وَإِنَّمَا أَشَارَ بِذٰلِكَ إِلَى كَثْرَتِهَا وَٱخْتِلَافِ ٱلْأُمَمِ فِيهَا (قَالَ) وَكُلُّ مَدِيحٍ فَمِنْهُ مَا فِيهِ رِبَاطٌ بَيْنَ أَجْزَائِهِ وَمِنْهُ مَا فِيهِ حَلٌّ وَيُشْبِهُ أَنْ يَكُونَ أَقْرَبَ ٱلْأَشْيَاءِ شَبَهًا بِٱلرِّبَاطِ ٱلْمَوْجُودِ فِي أَشْعَارِهِمْ هُوَ ٱلْجُزْءُ ٱلَّذِي يُسَمَّى عِنْدَنَا ٱلِٱسْتِطْرَادَ وَهُوَ رَبْطُ جُزْءِ ٱلنَّسِيبِ وَبِٱلْجُمْلَةِ صَدْرِ ٱلْقَصِيدَةِ بِٱلْجُزْءِ ٱلْمَدِيحِيِّ . وَٱلْحَلُّ تَفْصِيلُ ٱلْجُزْئَيْنِ أَحَدِهِمَا مِنَ ٱلْآخَرِ أَيْ يُؤْتَى بِهِمَا مُفَصَّلًا . وَأَكْثَرُ مَا يُوجَدُ ٱلرِّبَاطُ فِي أَشْعَارِ ٱلْمُحْدَثِينَ وَذٰلِكَ مِثْلُ قَوْلِ أَبِي تَمَّامٍ :

عَامِي وَعَامُ ٱلْعِيسِ بَيْنَ وَدِيقَةٍ   مَسْجُورَةٍ وَتَنُوفَةٍ صَيْخُودِ

حَتَّى أُغَادِرَ كُلَّ يَوْمٍ بِٱلْفَلَا ... لِلطَّيْرِ عِيدًا مِنْ بَنَاتِ ٱلْعِيدِ
هَيْهَاتَ مِنْهَا رَوْضَةٌ مَحْمُودَةٌ ... حَتَّى تُنَاخَ بِأَحْمَدَ ٱلْمَحْمُودِ

وَكَقَوْلِ أَبِي ٱلطَّيِّبِ:

مَرَّتْ بِنَا بَيْنَ تِرْبَيْهَا فَقُلْتُ لَهَا ... مِنْ أَيْنَ جَانَسَ هٰذَا ٱلشَّادِنُ ٱلْعَرَبَا
فَٱسْتَضْحَكَتْ ثُمَّ قَالَتْ كَٱلْمُغِيثِ يُرَى ... لَيْثَ ٱلشَّرَى وَهُوَ مِنْ عِجْلٍ إِذَا ٱنْتَسَبَا

وَأَمَّا ٱلْحَلُّ فَهُوَ مَوْجُودٌ كَثِيرًا فِي أَشْعَارِ ٱلْعَرَبِ مِثْلُ قَوْلِ زُهَيْرٍ:

دَعْ ذَا وَعَدِّ ٱلْقَوْلَ فِي هَرِمٍ

(قَالَ) وَأَنْوَاعُ ٱلْمَدَائِحِ أَرْبَعَةٌ ثَلَاثَةٌ مِنْهَا بَسِيطَةٌ وَهِيَ ٱلَّتِي تَقَدَّمَتْ أَحَدُهَا ٱلْإِدَارَةُ. وَٱلثَّانِي ٱلْإِسْتِدْلَالُ. وَٱلثَّالِثُ ٱلْإِنْفِعَالُ (قَالَ) مِثْلُ مَا يُقَالُ فِي أَهْلِ ٱلْجَحِيمِ فَإِنَّ هٰذِهِ مُحْزِنَةٌ مُفْزِعَةٌ. وَٱلرَّابِعُ ٱلْمُرَكَّبُ مِنْ هٰذِهِ إِمَّا مِنْ ثَلَاثَتِهَا وَإِمَّا مِنِ ٱثْنَيْنِ مِنْهَا وَيَنْبَغِي أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ أَمْثَالَ أَنْوَاعِ هٰذِهِ ٱلْمَدَائِحِ ٱلْأَرْبَعَةِ لِلْفِعْلِ ٱلْإِرَادِيِّ ٱلْفَاضِلِ غَيْرُ مَوْجُودَةٍ فِي أَشْعَارِ ٱلْعَرَبِ وَإِنَّمَا هِيَ مَوْجُودَةٌ فِي ٱلْكِتَابِ ٱلْعَزِيزِ كَثِيرًا (قَالَ) وَمِنَ ٱلشُّعَرَاءِ مَنْ يُجِيدُ ٱلْقَوْلَ فِي ٱلْقَصَائِدِ ٱلْمُطَوَّلَةِ وَمِنْهُمْ مَنْ يُجِيدُ ٱلْأَشْعَارَ ٱلْقِصَارَ وَٱلْقَصَائِدَ ٱلْقَصِيرَةَ وَهِيَ ٱلَّتِي تُسَمَّى عِنْدَنَا ٱلْمُقَطَّعَاتِ وَٱلسَّبَبُ فِي ذٰلِكَ أَنَّهُ لَمَّا كَانَ ٱلشَّاعِرُ ٱلْمُجِيدُ هُوَ ٱلَّذِي يَصِفُ كُلَّ شَيْءٍ بِخَوَاصِّهِ وَعَلَى كُنْهِهِ وَكَانَتْ هٰذِهِ ٱلْأَشْيَاءُ تَخْتَلِفُ بِٱلْكَثْرَةِ وَٱلْقِلَّةِ فِي شَيْءٍ شَيْءٍ مِنَ

ٱلْأَشْيَاءِ ٱلْمَوْصُوفَةِ وَجَبَ أَنْ يَكُونَ ٱلتَّخْيِيلُ ٱلْفَاضِلُ هُوَ ٱلَّذِي لَا يَتَجَاوَزُ خَوَاصَّ ٱلشَّيْءِ وَلَا حَقِيقَتَهَا فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَنْ لَقَدِ ٱعْتَادَ أَوْ مَنْ فِطْرَتُهُ مُعَدَّةٌ نَحْوَ تَخْيِيلِ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلْقَلِيلَةِ ٱلْخَوَاصِّ فَهَؤُلَاءِ تَجُودُ أَشْعَارُهُمْ فِي ٱلْمُقَطَّعَاتِ وَلَا تَجُودُ فِي ٱلْقَصَائِدِ وَمِنَ ٱلشُّعَرَاءِ مَنْ هُوَ عَلَى ضِدِّ هَؤُلَاءِ وَهُمُ ٱلْمُقْصِدُونَ كَٱلْمُتَنَبِّيءِ وَحَبِيبٍ وَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَادُوا ٱلْقَوْلَ فِي ٱلْأَشْيَاءِ ٱلْكَثِيرَةِ ٱلْخَوَاصِّ أَوْ هُمْ بِفِطَرِهِمْ مُعَدُّونَ لِمُحَاكَاتِهَا أَوِ ٱجْتَمَعَ لَهُمُ ٱلْأَمْرَانِ جَمِيعًا (قَالَ) وَمِنَ ٱلتَّخْيِيلَاتِ وَٱلْمَعَانِي مَا يُنَاسِبُ ٱلْأَوْزَانَ ٱلطَّوِيلَةَ وَمِنْهَا مَا يُنَاسِبُ ٱلْقَصِيرَةَ وَرُبَّمَا كَانَ ٱلْوَزْنُ مُنَاسِبًا لِلْمَعْنَى غَيْرَ مُنَاسِبٍ لِلتَّخْيِيلِ وَرُبَّمَا كَانَ ٱلْأَمْرُ بِٱلْعَكْسِ وَرُبَّمَا كَانَ غَيْرَ مُنَاسِبٍ لِكِلَيْهِمَا وَأَمْثِلَةُ هَذِهِ مِمَّا يَعْسُرُ وُجُودُهَا فِي أَشْعَارِ ٱلْعَرَبِ أَوْ تَكُونُ غَيْرَ مَوْجُودَةٍ فِيهَا إِذْ أَعَارِيضُهُمْ قَلِيلَةُ ٱلْقَدْرِ (قَالَ) وَقَدْ يُضَافُ إِلَى ٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي بِهَا قِوَامُ ٱلْأَشْعَارِ أُمُورٌ مِنْ خَارِجٍ وَهِيَ ٱلْهَيْئَاتُ ٱلَّتِي تَكُونُ فِي صَوْتِ ٱلشَّاعِرِ وَصُورَتِهِ عَلَى مَا تَقَدَّمَ وَأَكْثَرُ مَا تُوجَدُ هَذِهِ مِنَ ٱلشُّعَرَاءِ ٱلْمُسْتَعْمِلِينَ لَهَا فِي ٱلْأَشْعَارِ ٱلِٱنْفِعَالِيَّةِ مِثْلُ ٱلَّتِي تُقَالُ فِي أَهْلِ ٱلْجَحِيمِ وَغَيْرِهِمْ وَلَمَّا كُنَّا قَدْ قُلْنَا فِي ٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي تَتَقَوَّمُ بِهَا ٱلْأَشْعَارُ ٱلَّتِي هِيَ أَجْزَاؤُهَا بِٱلْحَقِيقَةِ فَقَدْ يَنْبَغِي أَنْ نَقُولَ فِي هَذِهِ أَيْضًا فَنَقُولُ: إِنَّ هَذِهِ ٱلْأَفْعَالَ بِٱلْجُمْلَةِ هِيَ ٱلَّتِي تَدُلُّ عَلَيْهَا ٱلْأَقْوَالُ ٱلَّتِي تُسَمَّى ٱلِٱنْفِعَالِيَّةَ وَلِذَلِكَ يَنْبَغِي إِذَا ٱسْتُعْمِلَتْ هَذِهِ أَنْ تُسْتَعْمَلَ مَعَ هَذِهِ ٱلْأَقَاوِيلِ. وَذَلِكَ أَنَّ هَذِهِ تُرِي ٱلِٱنْفِعَالَ ٱلَّذِي يُقْصَدُ بِٱلْقَوْلِ تَثْبِيتُهُ كَأَنَّهُ قَدْ وَقَعَ

وَٱسْتَيْقَنَ. وَقَدْ تَقَدَّمَ لَكَ فِي كِتَابِ ٱلْخَطَابَةِ ٱلْاَقَاوِيلُ ٱلِٱنْفِعَالِيَّةُ ٱلْخُطْبِيَّةُ وَضُرُوبُ ٱلِٱنْفِعَالَاتِ ٱلَّتِي تَفْعَلُهَا هٰذِهِ ٱلْاَقَاوِيلُ وَلِذٰلِكَ كَانَتْ هٰذِهِ ٱلْاَفْعَالُ اَخَصَّ بِكِتَابِ ٱلْخَطَابَةِ مِنْهَا بِكِتَابِ ٱلشِّعْرِ. وَٱلِٱنْفِعَالَاتُ ٱلَّتِي تَثْبُتُ بِٱلْقَوْلِ ٱلْخُطْبِيِّ اَوِ ٱلشِّعْرِيِّ هِيَ ٱلْخَوْفُ وَٱلْغَضَبُ وَٱلرَّحْمَةُ وَٱلتَّعْظِيمُ وَسَائِرُ ٱلْاَشْيَاءِ ٱلَّتِي عُدِّدَتْ فِي كِتَابِ ٱلْخَطَابَةِ. وَهُوَ ظَاهِرٌ اَنَّهُ كَمَا اَنَّ هَا هُنَا اَقْوَالًا تُوجِبُ هٰذِهِ ٱلِٱنْفِعَالَاتِ كَذٰلِكَ هَا هُنَا هَيْئَاتٌ وَاَشْكَالٌ تَدُلُّ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّمِ عَلَى حُضُورِ ٱلْاَشْيَاءِ ٱلَّتِي تُوجِبُ هٰذِهِ ٱلِٱنْفِعَالَاتِ وَاَنَّهَا قَدْ وَقَعَتْ لِوُقُوعِ ٱلْاَشْيَاءِ ٱلْفَاعِلَةِ لَهَا فَيَنْفَعِلُ لِذٰلِكَ ٱلنَّاظِرُ لَهَا فَهٰذِهِ ٱلصُّوَرُ وَٱلْهَيْئَاتُ اِنَّمَا يَنْبَغِي اَنْ تُسْتَعْمَلَ فِي ٱلشِّعْرِ اِنِ ٱسْتُعْمِلَتْ مَعَ ٱلْاَقَاوِيلِ ٱلِٱنْفِعَالِيَّةِ ٱلشِّعْرِيَّةِ وَذٰلِكَ اِمَّا فِي ٱلتَّعْظِيمِ وَاِمَّا فِي ٱلتَّصْغِيرِ وَاِمَّا فِي ٱلْاَشْيَاءِ ٱلْمُحْزِنَةِ ٱلْمُخَوِّفَةِ اِذْ كَانَتْ هٰذِهِ ٱلْاَشْيَاءُ هِيَ ٱلَّتِي تَسْتَعْمِلُ صِنَاعَةَ ٱلْمَدِيحِ مِنَ ٱلْاَقَاوِيلِ ٱلِٱنْفِعَالِيَّةِ عَلَى مَا سَلَفَ. وَاِنَّمَا تُسْتَعْمَلُ هٰذِهِ مَعَ ٱلْاَقَاوِيلِ ٱلِٱنْفِعَالِيَّةِ ٱلَّتِي لَيْسَتْ صَادِقَةً اَعْنِي ٱلَّتِي لَيْسَتْ هِيَ ظَاهِرَةَ ٱلتَّخْيِيلِ. وَاَمَّا ٱلْاَقَاوِيلُ ٱلِٱنْفِعَالِيَّةُ ٱلَّتِي هِيَ ظَاهِرَةُ ٱلتَّخْيِيلِ وَمُنَاسِبَةٌ لِلْغَرَضِ ٱلْمَقُولِ فِيهِ وَهِيَ حَقٌّ فَلَيْسَ يُحْتَاجُ اَنْ تُسْتَعْمَلَ فِيهَا هٰذِهِ ٱلْاُمُورُ ٱلَّتِي مِنْ خَارِجٍ فَاِنَّهَا تُهَجِّنُهَا اِذْ كَانَتْ هٰذِهِ اِنَّمَا تُسْتَعْمَلُ فِي ٱلْاَقَاوِيلِ ٱلَّتِي تَضْعُفُ اَنْ تَفْعَلَ مَا قُصِدَ بِهَا اِلَّا بِٱقْتِرَانِ هٰذِهِ ٱلْاَشْيَاءِ بِهَا وَهِيَ ٱلْاَقَاوِيلُ ٱلشِّعْرِيَّةُ فَاِنَّ ٱلْقَائِلَ مِنَ ٱلْفُقَهَاءِ لِعَبْدِ ٱلرَّحْمٰنِ ٱلنَّاصِرِ بِحَضْرِ ٱلْمَلَاءِ مِنْ اَهْلِ قُرْطُبَةَ يُحَرِّضُهُ عَلَى حَسْدَايَ ٱلْيَهُودِيِّ:

اِنَّ ٱلَّذِي شُرِّفْتَ مِنْ اَجْلِهِ ... يَزْعُمُ هٰذَا اِنَّــهُ كَاذِبُ

لَمْ يَحْتَجْ فِي إغْضَابِ النَاصِرِ عَلَيْهِ إلَى أكْثَرَ مِنْ هٰذَا القَوْلِ وَإنْ كَانَ لَمْ يَخْرُجْ عَنْ سِمَتِهِ وَهَيْئَتِهِ لِكَوْنِ هٰذَا القَوْلِ حَقًّا فَلِذٰلِكَ لَا يَنْبَغِي لِلشَّاعِرِ أنْ يَسْتَعْمِلَهَا اِذْ كَانَتْ لَيْسَتْ اِنَّمَا هِيَ فَضْلٌ فَقَطْ بَلْ وَقَدْ تُهَجِّنُ القَوْلَ وَالقَائِلَ اِذَا كَانَ بِالسَّمْتِ وَالوَقَارِ (قَالَ) وَقَدْ يَكْتَفِي الشَّاعِرُ مِنْ هٰذِهِ بِاسْتِعْمَالِ الاَشْكَالِ الخَاصَّةِ بِصِنْفٍ صِنْفٍ مِنْ اَصْنَافِ الاَقَاوِيلِ وَذٰلِكَ اِذَا اضْطُرَّ اِلَى ذٰلِكَ مَعَ الَّذِينَ يَسْتَعْمِلُونَ الاَخْذَ بِالوُجُوهِ. وَاعْنِي بِاَشْكَالِ القَوْلِ شَكْلَ الخَبَرِ وَشَكْلَ السُّؤَالِ وَشَكْلَ الاَمْرِ وَشَكْلَ التَّضَرُّعِ وَذٰلِكَ اَنَّ شَكْلَ المُخْبِرِ غَيْرُ شَكْلِ السَّائِلِ وَشَكْلَ الاَمِرِ غَيْرُ شَكْلِ الطَّالِبِ اَوِ المُتَضَرِّعِ فَالشَّاعِرُ قَدْ يَكْتَفِي بِاَشْكَالِ الاَقَاوِيلِ عَنْ سَائِرِ الاَشْيَاءِ الَّتِي مِنْ خَارِجٍ فَاِنَّ تِلْكَ اِذْ كَانَ مِنْ شَأْنِهَا تَهْجِينُ الاَقَاوِيلِ الشِّعْرِيَّةِ فَلَيْسَ يَنْبَغِي اَنْ تُجْعَلَ جُزْءًا مِنْ صِنَاعَةِ الشِّعْرِ وَاِنَّمَا يَنْبَغِي اَنْ تُجْعَلَ جُزْءًا مِنْ صِنَاعَةٍ اُخْرَى

البحث السابع

في اسطقسات الاقاويل الشعريّة

(من الكتاب نفسه)

(قَالَ) وَالاَسْمَاءُ صِنْفَانِ اِمَّا بَسِيطٌ وَهُوَ الَّذِي لَيْسَ هُوَ مُرَكَّبًا مِنْ اَسْمَاءٍ تَدُلُّ وَاِمَّا مُضَاعَفٌ وَهُوَ الَّذِي يُرَكَّبُ مِنْ اَسْمَاءٍ تَدُلُّ وَاِنْ كَانَ مِنْ حَيْثُ يُقْصَدُ بِهِ تَسْمِيَةُ شَيْءٍ وَاحِدٍ لَا

تدلُّ تلكَ الاسماء التي رُكِّبَ منها مثلُ عبدِ شمسٍ وعبدِ القيسِ (قالَ) وكلُّ اسمٍ فهوَ اما حقيقيٌّ واما دخيلٌ في اللسانِ واما منقولٌ نادرُ الاستعمالِ واما مزيَّنٌ واما معمولٌ واما معقولٌ واما مفارقٌ واما مغيَّرٌ . فالحقيقيُّ هوَ الاسمُ الذي يكونُ خاصًّا بأُمَّةٍ أُمَّةٍ والدخيلُ هوَ الذي يكونُ لأُمَّةٍ أُخرى فيُدخِلُهُ الشاعرُ في شعرِهِ وذلكَ مثلُ الإستبرقِ والمشكاةِ وغيرِ ذلكَ منَ الاسماء الاعجميَّةِ الدخيلةِ في لسانِ العربِ . واما الاسمُ النادرُ المنقولُ فهوَ نقلُ اسمٍ غريبٍ اما منَ النوعِ الى الجنسِ مثلُ تسميةِ القتلِ موتًا واما منَ الجنسِ الى النوعِ مثلُ تسميةِ النقلةِ حركةً واما من نوعٍ الى نوعٍ آخرَ مثلُ تسميةِ الخيانةِ سرقةً واما ان يُنقلَ شيءٌ منسوبٌ الى ثانٍ الى شيءٍ ثالثٍ منسوبٍ الى رابعٍ مثلُ نسبةِ الاوَّلِ الى الثاني مثلَ ما كانَ يُسمّي بعضُ القدماء الشيخوخةَ عشيَّةَ العمرِ ويُسمّي العشيَّةَ شيخوخةَ النهارِ وذلكَ انَّ نسبةَ الشيخوخةِ الى العمرِ نسبةُ العشيَّةِ الى النهارِ واما الاسمُ المعمولُ المرتجلُ فهوَ الاسمُ الذي يخترعُهُ الشاعرُ اختراعًا ويكونُ هوَ اوَّلَ من استعملَهُ وهذا غيرُ موجودٍ في اشعارِ العربِ وانَّما يوجدُ ذلكَ في الصنائعِ الناشئةِ واكثرُ ما في الصنائعِ هوَ منقولٌ لا معمولٌ مخترعٌ وربَّما استعملَهُ المحدَثونَ منَ الشعراء على طريقِ الاستعارةِ اعني المنقولَ الى الصنائعِ مثلُ قولِ ابي الطيِّبِ :

إِذَا كَانَ مَا تَنوِيهِ فِعلًا مُضَارِعًا

مَضَى قَبلَ أَنْ تُلقَى عَلَيهِ الجَوَازِمُ

وَرُبَّمَا اسْتَعْمَلُوا تَصرِيفًا لَمْ يُسْتَعْمَلْ قَبلُ مِثْلُ قَوْلِهِ:

تَفَاوَحَ مِسْكُ الغَانِيَاتِ وَرَنْدُهُ

وَأَمَّا الْمُفَارِقُ وَالْمَعْقُولُ فَلَيسَ يُوجَدَانِ فِي لِسَانِ العَرَبِ. وَالْمُزَيَّنَةُ هِيَ أَسْمَاءٌ كَانَتْ تُجْعَلُ بَعْضُ أَجْزَائِهَا نَغَمًا فَتَزَيَّنُ بِهَا وَقَدْ قِيلَ إِنَّهُ يَعْنِي بِالْمُفَارِقِ الأَسْمَاءَ الْمُغَيَّرَةَ بِالزِّيَادَةِ فِيهَا وَالنُّقْصَانِ مِنْهَا وَالْحَذْفِ أَوِ الْقَلْبِ وَقِيلَ بَلْ يَعْنِي بِذَلِكَ الأَسْمَاءَ الَّتِي يَعْسُرُ النُّطْقُ بِهَا وَظَاهِرُ كَلَامِهِ أَنَّهُ اسْمٌ كَانَ يُؤَلَّفُ عِنْدَهُمْ مِنْ مَقَاطِعَ مَحْدُودَةٍ وَالإِسْمُ الْمَعْقُولُ فَإِنَّهُ فِيمَا أَحْسَبُ الَّذِي سَمَّاهُ الْمُخْتَلِفَ وَظَاهِرُ كَلَامِهِ أَنَّهُ الإِسْمُ الْمَحْذُوفُ بِالنُّقْصَانِ مِثْلُ الأَسْمَاءِ الْمُرَخَّمَةِ عِنْدَنَا وَأَمَّا الْمُغَيَّرَةُ فَهِيَ الْمُسْتَعَارَةُ الَّتِي تُسْتَعَارُ إِمَّا مِنَ الشَّبِيهِ مِثْلُ تَسْمِيَتِهِمِ الْكَوْكَبَ نَسْرًا وَإِمَّا مِنَ الضِّدِّ مِثْلُ تَسْمِيَتِهِمِ الشَّمْسَ جَوْنَةً وَإِمَّا مِنَ اللَّازِمِ مِثْلُ تَسْمِيَتِهِمِ الشَّحْمَ نَدًا وَالْمَطَرَ سَمَاءً (قَالَ) وَأَفْضَلُ الْقَوْلِ فِي التَّفْهِيمِ إِنَّمَا هُوَ الْقَوْلُ الْمَشْهُورُ الْمُبْتَذَلُ الَّذِي لَا يَخْفَى عَلَى أَحَدٍ وَهَذِهِ الأَقَاوِيلُ إِنَّمَا تُؤَلَّفُ مِنَ الأَسْمَاءِ الْمَشْهُورَةِ الْمُبْتَذَلَةِ وَهِيَ الَّتِي سَمَّاهَا فِي مَا قَبلُ الْحَقِيقِيَّةَ وَتُسَمَّى الْمُسْتَوْلِيَةَ وَالأَهْلِيَّةَ (قَالَ) وَذَلِكَ مِثْلُ شِعْرِ فُلَانٍ وَفُلَانٍ لِقَوْمٍ مَشْهُورِينَ عِنْدَهُمْ. وَيَنْبَغِي أَنْ نَتَفَقَّدَ مِنَ الْغَالِبِ عَلَى أَشْعَارِهِ هَذَا النَّوْعَ مِنَ الأَلْفَاظِ مِنْ شُعَرَاءِ الْعَرَبِ (قَالَ) وَالأَقَاوِيلُ الْعَفِيفَةُ الْمَدِيحِيَّةُ

فَهِيَ ٱلْأَقَاوِيلُ ٱلَّتِي تُؤَلَّفُ مِنَ ٱلْأَسْمَاءِ ٱلْمُبْتَذَلَةِ وَمِنَ ٱلْأَسْمَاءِ ٱلْأُخَرِ أَعْنِي ٱلْمَنْقُولَةَ ٱلْغَرِيبَةَ ٱلْمُغَيَّرَةَ وَٱللُّغَوِيَّةَ لِأَنَّهُ مَتَى تَعَرَّى ٱلشِّعْرُ كُلُّهُ مِنَ ٱلْأَلْفَاظِ ٱلْحَقِيقِيَّةِ ٱلْمُسْتَوْلِيَةِ كَانَ رَمْزًا وَلُغْزًا وَلِذٰلِكَ كَانَتِ ٱلْأَلْغَازُ وَٱلرُّمُوزُ هِيَ ٱلَّتِي تُؤَلَّفُ مِنَ ٱلْأَسْمَاءِ ٱلْغَرِيبَةِ أَعْنِي بِٱلْغَرِيبَةِ ٱلْمَنْقُولَ ٱلْمُسْتَعَارَ وَٱلْمُشْتَرَكَ وَٱللُّغَوِيَّ. وَٱلرَّمْزُ وَٱللُّغْزُ هُوَ ٱلْقَوْلُ ٱلَّذِي يَشْتَمِلُ عَلَى مَعَانٍ لَا يُمْكِنُ أَوْ يَعْسُرُ ٱتِّصَالُ تِلْكَ ٱلْمَعَانِي ٱلَّتِي يَشْتَمِلُ عَلَيْهَا بَعْضًا بِبَعْضٍ حَتَّى يُطَابِقَ بِذٰلِكَ أَحَدَ ٱلْمَوْجُودَاتِ. وَيَكُونُ إِمَّا بِحَسَبِ ٱلْأَلْفَاظِ ٱلْمَشْهُورَةِ فَٱتِّصَالُ تِلْكَ ٱلْمَعَانِي بَعْضِهَا بِبَعْضٍ غَيْرُ مُمْكِنٍ وَإِمَّا بِحَسَبِ ٱلْأَلْفَاظِ ٱلْغَيْرِ ٱلْمَشْهُورَةِ فَمُمْكِنٌ وَذٰلِكَ كَثِيرٌ فِي شِعْرِ ذِي ٱلرُّمَّةِ مِنْ شُعَرَاءِ ٱلْعَرَبِ. وَفَضِيلَةُ ٱلْقَوْلِ ٱلشِّعْرِيِّ ٱلْعَفِيفِيِّ أَنْ يَكُونَ مُؤَلَّفًا مِنَ ٱلْأَسْمَاءِ ٱلْمُسْتَوْلِيَةِ مِنْ تِلْكَ ٱلْأَنْوَاعِ ٱلْأُخَرِ وَأَنْ يَكُونَ ٱلشَّاعِرُ حَيْثُ يُرِيدُ ٱلْإِيضَاحَ يَأْتِي بِٱلْأَسْمَاءِ ٱلْمُسْتَوْلِيَةِ وَحَيْثُ يُرِيدُ ٱلتَّعَجُّبَ وَٱلْإِلْذَاذَ يَأْتِي بِٱلصِّنْفِ ٱلْآخَرِ مِنَ ٱلْأَسْمَاءِ وَلِذٰلِكَ قَدْ يُتَضَاحَكُ بِمَنْ يُرِيدُ ٱلْإِيضَاحَ فَيَأْتِي بِٱلْأَسْمَاءِ ٱلْمُشْتَرَكَةِ أَوِ ٱلْغَرِيبَةِ أَوِ ٱلْأَلْسُنِ أَوِ ٱلْمَعْمُولَاتِ وَيُتَضَاحَكُ أَيْضًا بِمَنْ يُرِيدُ ٱلتَّعَجُّبَ وَٱلْإِلْذَاذَ فَيَأْتِي بِٱلْأَسْمَاءِ ٱلْمُبْتَذَلَةِ وَكَانَ ٱلشَّاعِرُ يَجِبُ لَهُ أَلَّا يُفْرِطَ فِي ٱسْتِعْمَالِ ٱلْأَسْمَاءِ ٱلْغَيْرِ ٱلْمُسْتَوْلِيَةِ فَيَخْرُجَ إِلَى حَدِّ ٱلرَّمْزِ وَلَا أَيْضًا يُفْرِطَ فِي ٱلْأَسْمَاءِ ٱلْمُسْتَوْلِيَةِ فَيَخْرُجَ عَنْ طَرِيقَةِ ٱلشِّعْرِ إِلَى ٱلْكَلَامِ ٱلْمُتَعَارَفِ (قَالَ) وَأَمَّا مُوَافَقَةُ ٱلْأَلْفَاظِ بَعْضِهَا لِبَعْضٍ فِي ٱلْمِقْدَارِ

وَمُعَادَلَـةُ ٱلْمَعَانِي بَعْضِهَا لِبَعْضٍ وَمُوَازَنَتُهَا فَأَمْرٌ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ عَامًّا وَمُشْتَرَكًا لِجَمِيعِ ٱلْأَلْفَاظِ ٱلَّتِي هِيَ أَجْزَاءُ ٱلْقَوْلِ ٱلشِّعْرِيِّ وَذٰلِكَ أَنَّا نَجِدُ ٱلشُّعَرَاءَ وَإِنِ ٱسْتَعْمَلُوا ٱلْأَلْفَاظَ ٱلْحَقِيقِيَّةَ فِي ٱلْمَوَاضِعِ ٱلَّتِي يَهْزَأُ بِهِمْ فِي ٱسْتِعْمَالِهِمْ إِيَّاهَا لَيْسَ يَخْلُو شِعْرُهُمْ مِنْ هٰذَيْنِ ٱلْأَمْرَيْنِ أَعْنِي مِنَ ٱلْمُوَازَنَةِ وَٱلْمُوَافَقَةِ فِي ٱلْمِقْدَارِ وَلٰكِنْ كَانَ هٰذَا عَامًّا لِجَمِيعِ أَنْوَاعِ ٱلشِّعْرِ. وَأَمَّا ٱلْأَشْعَارُ ٱلَّتِي تَأْتَلِفُ مِنَ ٱلْأَسْمَاءِ ٱلْمُخْتَلِفَةِ فَوُجُودُ هٰذَا ٱلْمَعْنَى فِيهَا أَبْيَنُ وَمُوَافَقَةُ ٱلْأَلْفَاظِ ٱلَّتِي ذُكِرَ فِي ٱلْمِقْــدَارِ هِيَ مُقَارَنَةُ بَعْضِهَا لِبَعْضٍ فِي عَدَدِ ٱلْحُرُوفِ وَإِنْ وَافَقَتْ مَعَ هٰــذَا فِي كُلِّ ٱللَّفْظِ أَوْ فِي بَعْضِ ٱللَّفْظِ فَهُوَ ٱلَّذِي يُعْرَفُ بِٱلْمُطَابَقَةِ وَٱلْمُجَانَسَةِ عِنْدَ أَهْلِ زَمَانِنَا. وَٱلْمُوَافَقَةُ أَنْحَاءٌ وَذٰلِكَ أَنَّهُ لَا تَخْلُو ٱلْمُوَافَقَةُ أَنْ تَكُونَ فِي كُلِّ ٱللَّفْظِ وَكُلِّ ٱلْمَعْنَى وَهٰذَا مِثْلُ قَوْلِ ٱلشَّاعِرِ:

لَا أَرَى ٱلْمَوْتَ يَسْبِقُ ٱلْمَوْتَ شَيْءٌ

وَمِثْلُ قَوْلِهِمْ طَوِيلُ ٱلنِّجَادِ طَوِيلُ ٱلْعِمَادِ. أَوْ أَنْ تَكُونَ فِي بَعْضِ ٱللَّفْظِ وَبَعْضِ ٱلْمَعْنَى أَوْ أَنْ تَكُونَ فِي بَعْضِ ٱللَّفْظِ وَكُلِّ ٱلْمَعْنَى أَوْ تَكُونَ فِي كُلِّ ٱللَّفْظِ وَبَعْضِ ٱلْمَعْنَى أَوْ تَكُونَ فِي كُلِّ ٱللَّفْظِ فَقَطْ أَوْ فِي بَعْضِ ٱللَّفْظِ فَقَطْ أَوْ تَكُونَ فِي كُلِّ ٱلْمَعْنَى فَقَطْ أَوْ فِي بَعْضِ ٱلْمَعْنَى. فَمِثَالُ ٱلْمُوَافَقَــةِ فِي بَعْضِ ٱللَّفْظِ وَبَعْضِ ٱلْمَعْنَى ٱلْأَسْمَاءُ ٱلْمُشْتَقَّةُ مِنْ تَصْرِيفٍ وَاحِدٍ وَذٰلِكَ مِثْلُ قَوْلِ ٱلْمُتَنَبِّي:

عَلَى قَدْرِ أَهْلِ ٱلْعَزْمِ تَأْتِي ٱلْعَزَائِمُ
وَتَأْتِي عَلَى قَدْرِ ٱلْكِرَامِ ٱلْمَكَارِمُ

وَمِثَالُ ٱلْمُوَافَقَةِ فِي بَعْضِ ٱللَّفْظِ وَكُلِّ ٱلْمَعْنَى قَوْلُهُمْ دِرْهَمٌ ضَرْبُ ٱلْأَمِيرِ وَمَضْرُوبُ ٱلْأَمِيرِ. وَمِثَالُ عَكْسِ هٰذَا أَعْنِي فِي كُلِّ ٱللَّفْظِ وَبَعْضِ ٱلْمَعْنَى ٱلْأَسْمَاءُ ٱلْمُشَكِّكَةُ وَٱلشُّعَرَاءُ يَسْتَعْمِلُونَهَا كَثِيرًا وَمِثَالُ ٱلْمُوَافَقَةِ فِي كُلِّ ٱللَّفْظِ فَقَطِ ٱلْأَسْمَاءُ ٱلْمُشْتَرَكَةُ مِثْلُ قَوْلِ ٱلْمَعَرِّيِّ:

مَعَانٌ مِنْ أَحِبَّتِنَا مَعَانُ

وَمِثْلُ قَوْلِهِ:

فَزَنْدُكَ مُغْتَالٌ وَطَرْفُكَ مُغْتَالُ

وَمِثَالُ ٱلْمُتَّفِقَةِ فِي بَعْضِ ٱللَّفْظِ فَقَطْ قَوْلُ حَبِيبٍ:

مَا أَنْتَ عَنْ ذُهْلِيَّةٍ بِذَاهِلِ

وَقَوْلُ أَبِي ٱلطَّيِّبِ:

أُقَلِّبُ ٱلطَّرْفَ بَيْنَ ٱلْخَيْلِ وَٱلْخَوَلِ

وَهٰذَا كُلُّهُ فِي لُغَةِ ٱلْعَرَبِ مِثْلُ ٱلضَّرْبِ وَٱلضَّرَبِ وَٱلْحَمْلِ وَٱلْحَمَلِ وَأَشْرَقَتِ ٱلشَّمْسُ وَشَرَقَتْ. وَمِثَالُ ٱلْمُوَافَقَةِ فِي كُلِّ ٱلْمَعْنَى فَقَطِ ٱلْأَسْمَاءُ ٱلْمُتَرَادِفَةُ مِثْلُ قَوْلِهِ أَقْوَى وَأَقْفَرَ. وَمِثَالُ ٱلْمُتَّفِقَةِ فِي بَعْضِ ٱلْمَعْنَى فَقَطِ ٱلْأَسْمَاءُ ٱلْمُخْتَلِفَةُ ٱلَّتِي تَدُلُّ مِنَ ٱلشَّيْءِ ٱلْوَاحِدِ عَلَى جِهَاتٍ مُخْتَلِفَةٍ مِثْلَ ٱلصَّارِمِ وَٱلذَّكَرِ. وَٱلْقَوَافِي عِنْدَ ٱلْعَرَبِ هِيَ مُوَافَقَةٌ فِي ٱلْمِقْدَارِ وَفِي بَعْضِ ٱللَّفْظِ وَذٰلِكَ إِمَّا فِي حَرْفٍ وَاحِدٍ

وَهُوَ ٱلْآخِرُ وَإِمَّا فِي حَرْفَيْنِ وَهُوَ ٱلَّذِي يُعَرِّفُهُ ٱلْمُحْدَثُونَ بِٱللُّزُومِ. وَأَمَّا ٱلْمُوَازَنَةُ فِي أَجْزَاءِ ٱلْقَوْلِ فَهِيَ عَلَى أَنْحَاءٍ أَرْبَعَةٍ أَحَدُهَا أَنْ يَأْتِيَ ٱلشَّاعِرُ بِٱلشَّيْءِ وَشَبِيهِهِ مِثْلَ ٱلشَّمْسِ وَٱلْقَمَرِ أَوْ يَأْتِيَ بِٱلْأَضْدَادِ مِثْلَ ٱللَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ أَوْ يَأْتِيَ بِٱلشَّيْءِ وَمَا يُسْتَعْمَلُ فِيهِ مِثْلُ ٱلْقَوْسِ وَٱلسَّهْمِ وَٱلْفَرَسِ وَٱللِّجَامِ أَوْ يَأْتِيَ بِٱلْأَشْيَاءِ ٱلْمُنَاسِبَةِ مِثْلُ ٱلْمَلِكِ وَٱلْإِلٰهِ وَهٰذِهِ ٱلْمُنَاسَبَةُ إِنَّمَا تُؤْخَذُ مِنْ أَرْبَعَةِ أَشْيَاءَ. وَفِي هٰذَا ٱلْبَابِ عِيبَ عَلَى ٱلْكُمَيْتِ:

تَكَامَلَ فِيهِ ٱلدَّلُّ وَٱلشَّنَبُ

لِأَنَّ ٱلدَّلَّ غَيْرُ شَبِيهٍ بِٱلشَّنَبِ. وَمِنْ هٰذَا ٱلْبَابِ قَالَ بَعْضُهُمْ فِي قَوْلِ ٱمْرِئِ ٱلْقَيْسِ:

كَأَنِّيَ لَمْ أَرْكَبْ جَوَادًا لِلَذَّةٍ ... وَلَمْ أَتَعَرَّفْ كَاعِبًا ذَاتَ خَلْخَالِ
وَلَمْ أَسْبَإِ ٱلزِّقَّ ٱلرَّوِيَّ وَلَمْ أَقُلْ ... لِخَيْلِيَ كُرِّي كَرَّةً بَعْدَ إِجْفَالِ

إِنَّهُ غَيْرُ مُنَاسِبٍ وَإِنَّ ٱلتَّنَاسُبَ فِيهِ هُوَ عَكْسُ مَا فَعَلَ أَعْنِي أَنْ يَكُونَ صَدْرُ ٱلْبَيْتِ ٱلْأَوَّلِ صَدْرَ ٱلثَّانِي وَصَدْرُ ٱلثَّانِي صَدْرَ ٱلْأَوَّلِ وَمِثْلُ هٰذَا قِيلَ فِي قَوْلِ أَبِي ٱلطَّيِّبِ:

وَقَفْتَ وَمَا فِي ٱلْمَوْتِ شَكٌّ لِوَاقِفٍ
كَأَنَّكَ فِي جَفْنِ ٱلرَّدَى وَهُوَ نَائِمُ
تَمُرُّ بِكَ ٱلْأَبْطَالُ كَلْمَى هَزِيمَةً
وَوَجْهُكَ وَضَّاحٌ وَثَغْرُكَ بَاسِمُ

إِنَّ ٱلتَّنَاسُبَ فِيهِ أَنْ يَكُونَ صَدْرُ ٱلْبَيْتِ ٱلْأَوَّلِ لِلثَّانِي وَصَدْرُ

ٱلثَّانِي لِلْاَوَّلِ وَمَا قَالَهُ ابُو ٱلطَّيِّبِ لَهُ وَجْهٌ مِنَ ٱلتَّنَاسُبِ وَكَذٰلِكَ مَا قَالَهُ ٱمْرُوءُ ٱلقَيْسِ (قَالَ) وَٱلقَوْلُ إِنَّمَا يَكُونُ مُخْتَلِفًا اي مُغَيَّرًا عَنِ ٱلقَوْلِ ٱلْحَقِيقِيِّ مِنْ حَيْثُ تُوضَعُ فِيهِ ٱلأَسْمَاءُ مُتَوَافِقَةً فِي ٱلْمُوَازَنَةِ وَٱلْمِقْدَارِ وَبِٱلْاَسْمَاءِ ٱلْغَرِيبَةِ وَبِغَيْرِ ذٰلِكَ مِنْ أَنْوَاعِ ٱلتَّغْيِيرِ. وَقَدْ يُسْتَدَلُّ عَلَى انَّ ٱلقَوْلَ ٱلشِّعْرِيَّ هُوَ ٱلْمُغَيَّرُ أَنَّهُ إِذَا غُيِّرَ ٱلقَوْلُ ٱلْحَقِيقِيُّ سُمِّيَ شِعْرًا أَوْ قَوْلًا شِعْرِيًا وَوُجِدَ لَهُ فِعْلُ ٱلشِّعْرِ مِثَالُ ذٰلِكَ قَوْلُ ٱلقَائِلِ:

وَلَمَّا قَضَيْنَا مِنْ مِنًى كُلَّ حَاجَةٍ   وَمَسَّحَ بِٱلْاَرْكَانِ مَنْ هُوَ مَاسِحُ
اَخَذْنَا بِأَطْرَافِ ٱلاَحَادِيثِ بَيْنَنَا   وَسَالَتْ بِأَعْنَاقِ ٱلْمَطِيِّ ٱلاَبَاطِحُ

إِنَّمَا صَارَ شِعْرًا مِنْ قِبَلِ أَنَّهُ ٱسْتَعْمَلَ قَوْلَهُ:

اَخَذْنَا بِأَطْرَافِ ٱلاَحَادِيثِ بَيْنَنَا   وَسَالَتْ بِأَعْنَاقِ ٱلْمَطِيِّ ٱلاَبَاطِحُ

بَدَلَ قَوْلِهِ تَحَدَّثْنَا وَمَشَيْنَا وَكَذٰلِكَ قَوْلُهُ:

بَعِيدَةُ مَهْوَى ٱلقُرْطِ

إِنَّمَا صَارَ شِعْرًا لِأَنَّهُ ٱسْتَعْمَلَ هٰذَا ٱلقَوْلَ بَدَلَ قَوْلِهِ طَوِيلَةُ ٱلعُنُقِ وَكَذٰلِكَ قَوْلُ ٱلْآخَرِ:

يَا دَارُ ايْنَ ظِبَاؤُكِ ٱللُّعْسُ   قَدْ كَانَ لِي فِي إِنْسِهَا أُنْسُ

إِنَّمَا صَارَ شِعْرًا لِأَنَّهُ أَقَامَ ٱلدَّارَ مُقَامَ ٱلنَّاطِقِ بِمُخَاطَبَتِهَا وَأَبْدَلَ لَفْظَ ٱلنِّسَاءِ بِٱلظِّبَاءِ وَأَتَى بِمُوَافَقَةِ ٱلإِنْسِ وَٱلأُنْسِ فِي ٱللَّفْظِ وَأَنْتَ إِذَا تَأَمَّلْتَ ٱلأَشْعَارَ ٱلْمُحَرِّكَةَ وَجَدْتَهَا بِهٰذِهِ ٱلْحَالِ. وَمَا عَدَا هٰذِهِ ٱلتَّغْيِيرَاتِ فَلَيْسَ فِيهِ مِنْ مَعْنَى ٱلشِّعْرِيَّةِ إِلَّا ٱلْوَزْنُ فَقَطْ وَٱلتَّغْيِيرَاتُ

تَكُونُ بِالْمُوازَنَةِ وَالْمُدافَعَةِ وَالْإِبْدالِ وَالتَّشْبِيهِ وَبِالْجُمْلَةِ بِإِخْراجِ الْقَوْلِ غَيْرَ مُخْرَجِ الْعادَةِ مِثْلُ الْقَلْبِ وَالْحَذْفِ وَالزِّيادَةِ وَالنُّقْصانِ وَالتَّقْدِيمِ وَالتَّأْخِيرِ وَتَغْيِيرِ الْقَوْلِ مِنَ الْإِيجابِ إِلَى السَّلْبِ وَمِنَ السَّلْبِ إِلَى الْإِيجابِ وَبِالْجُمْلَةِ مِنَ الْمُقابِلِ إِلَى الْمُقابِلِ وَبِالْجُمْلَةِ بِجَمِيعِ الْأَنْواعِ الَّتِي تُسَمَّى عِنْدَنا مَجازًا فَالْحَذْفُ مِثْلُ قَوْلِ الْقُرْآنِ وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ. وَقَوْلِهِ: وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى. وَالْقَلْبُ مِثْلُ قَوْلِ الْقائِلِ: فُلانٌ مِنْ أَجْلِ بَنِيهِ لا بَنُوهُ مِنْ أَجْلِهِ وَالسُّنَّةُ سَبَبُ الْإِنْسانِ لا الْإِنْسانُ سَبَبُ السُّنَّةِ. وَالتَّقْدِيمُ وَالتَّأْخِيرُ مِثْلُ قَوْلِهِ: وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا قَيِّمًا. وَقَوْلِهِ: وَإِذِ ابْتَلَى إِبْراهِيمَ رَبُّهُ. وَالزِّيادَةُ مِثْلُ قَوْلِهِ: تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ وَمِثْلُ قَوْلِهِ: لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَمِثْلُ قَوْلِهِ وَلا طائِرٌ يَطِيرُ بِجَناحَيْهِ وَمِثالُ التَّغْيِيرِ مِنَ الْإِيجابِ إِلَى السَّلْبِ قَوْلُ الْقائِلِ: ما فَعَلَهُ أَحَدٌ إِلَّا أَنْتَ بَدَلَ قَوْلِهِ: أَنْتَ فَعَلْتَهُ وَمِنْ هٰذا الْمَعْنَى قَوْلُ النّابِغَةِ:

وَلا عَيْبَ فِيهِمْ غَيْرَ أَنَّ سُيُوفَهُمْ ... بِهِنَّ فُلُولٌ مِنْ قِراعِ الْكَتائِبِ

فَإِنَّهُ أَوْجَبَ لَهُمُ الْفَضائِلَ لِنَفْيِ الْعُيُوبَ وَاسْتَثْنَى مِنْها ما لَيْسَ بِعَيْبٍ عَلَى جِهَةِ تَسْمِيَةِ الشَّيْءِ بِاسْمِ ضِدِّهِ. وَمِنَ التَّغْيِيراتِ اللَّذِيذَةِ جَمْعُ الْأَضْدادِ فِي شَيْءٍ واحِدٍ كَقَوْلِهِ:

فِيكَ الْخِصامُ وَأَنْتَ الْخَصْمُ وَالْحَكَمُ

وَكَوْنُ الضِّدِّ سَبَبًا لِضِدٍّ كَقَوْلِهِ: وَلَكُمْ فِي الْقِصاصِ حَياةٌ وَلَيْسَ يَخْفَى عَلَيْكَ أَنْواعُها الْبَسِيطَةُ وَالْمُرَكَّبَةُ الْمَحْصُورَةُ فِي هٰذِهِ الْكُلِّيّاتِ

وَيُشبِهُ اَنْ يَكُونَ اِحْصَاءُ اَنْوَاعِهَا ٱلْاَخِيرَةِ عَسِيرًا جِدًّا وَلِذٰلِكَ اَقْتَصَرَ هُنَا عَلَى ٱلْكُلِّيَّاتِ فَقَطْ. وَٱلْفَاضِلُ مِنْ هٰذِهِ ٱلْاَشْيَاءِ هُوَ اَنْ يُسْتَعْمَلَ مِنْ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا مَا هُوَ اَبْيَنُ وَاَظْهَرُ وَاَشْبَهُ وَهٰذَا لَا يُوجَدُ اِلَّا فِي ٱلنَّادِرِ مِنَ ٱلشُّعَرَاءِ وَذٰلِكَ اَنَّ اَسْتِعْمَالَ ٱلْاَبْيَنِ مِنْ هٰذِهِ ٱلْاَشْيَاءِ وَٱلْاَشْبَهِ هُوَ دَلِيلُ ٱلْمَهَارَةِ. وَهٰذَا ٱلصِّنْفُ هُوَ ٱلَّذِي يَجْمَعُ اِلَى جُودَةِ ٱلْاِفْهَامِ فِعْلَ ٱلْاَقَاوِيلِ ٱلشِّعْرِيَّةِ اَعْنِي تَحْرِيكَ ٱلنَّفْسِ مِثَالُ ذٰلِكَ اَنَّ ٱلْاِبْدَالَ اِذَا كَانَ شَدِيدَ ٱلشَّبَهِ اَفَادَ جُودَةَ ٱلتَّخْيِيلِ وَٱلْاِفْهَامِ مَعًا وَرُبَّمَا عَرَضَ مِنَ ٱلْاِبْدَالِ ٱلْمُنَاسِبِ قِلَّةُ فَهْمٍ عِنْدَ ٱلْفِدَامِ مِنَ ٱلسَّامِعِينَ كَمَا عَرَضَ فِي قَوْلِهِ: حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْاَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْاَسْوَدِ اَنْ ظَنَّ بَعْضُهُمْ اَنَّهُ ٱلْخَيْطُ ٱلْحَقِيقِيُّ فَنَزَلَتْ مِنَ ٱلْفَجْرِ. (قَالَ) وَٱلْاَسْمَاءُ ٱلْمُرَكَّبَةُ تَصْلُحُ لِلْوَزْنِ ٱلَّذِي يُثْنَى فِيهِ عَلَى ٱلْاَخْيَارِ مِنْ غَيْرِ تَعْيِينِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْهُمْ وَهٰذِهِ ٱلْاَسْمَاءُ هِيَ قَلِيلَةُ ٱلْوُجُودِ فِي لِسَانِ ٱلْعَرَبِ وَهِيَ مِثْلُ قَوْلِهِمِ ٱلْعَبْشَمِيُّ ٱلْمَنْسُوبُ اِلَى عَبْدِ شَمْسٍ. وَاَمَّا ٱللُّغَاتُ فَتَصْلُحُ لِلشِّعْرِ ٱلَّذِي يُذْكَرُ فِيهِ اَمْرُ ٱلْمَعَادِ وَمَا فِيهِ مِنَ ٱلْاَهْوَالِ وَكَانَ صِنْفًا مِنَ ٱلشِّعْرِ عِنْدَهُمْ مَعْرُوفًا. وَاَمَّا ٱلْاَسْمَاءُ ٱلْمَنْقُولَةُ ٱلْغَرِيبَةُ فَتَخْتَصُّ بِٱلْاَشْعَارِ ٱلَّتِي تُقَالُ فِي ٱلْاَمْثَالِ وَٱلْحِكَمِ وَٱلْقِصَصِ ٱلْمَشْهُورَةِ



البحث الثامن

في صناعة الاشعار القَصصية

(من الكتاب نفسه)

(قَالَ) فَفِيمَا قُلْنَاهُ فِي صِنَاعَةِ ٱلْمَدِيحِ وَفِي ٱلْاَشْيَاءِ ٱلْمُشْتَرَكَةِ لِاَصْنَافِ ٱلْاَشْعَارِ مِنَ ٱلتَّشْبِيهِ وَغَيْرِ ذٰلِكَ كِفَايَةٌ. وَٱلْاَشْعَارُ ٱلْقَصَصِيَّةُ سَبِيلُهَا فِي ٱلْاَجْزَاءِ ٱلَّتِي هِيَ ٱلْمَبْدَأُ وَٱلْوَسَطُ وَٱلنِّهَايَةُ سَبِيلُ اَجْزَاءِ صِنَاعَةِ ٱلْمَدِيحِ وَكَذٰلِكَ فِي ٱلْمُحَاكَاةِ اِلَّا اَنَّ ٱلْمُحَاكَاةَ لَيْسَ تَكُونُ لِلْاَفْعَالِ فِيهَا وَاِنَّمَا تَكُونُ لِلْاَزْمِنَةِ ٱلْوَاقِعَةِ فِيهَا تِلْكَ ٱلْاَفْعَالُ وَذٰلِكَ اَنَّهُ اِنَمَا يُحَاكَى فِي هٰذِهِ كَيْفَ كَانَتْ اَحْوَالُ ٱلْمُتَقَدِّمِ مَعَ اَحْوَالِ ٱلْمُتَاخِّرِ وَكَيْفَ تُنْقَلُ ٱلدُّوَلُ وَٱلْمَمَالِكُ وَٱلْاَيَّامُ. وَمُحَاكَاةُ هٰذَا ٱلنَّوْعِ مِنَ ٱلْوُجُودِ قَلِيلٌ فِي لِسَانِ ٱلْعَرَبِ وَهُوَ كَثِيرٌ فِي ٱلْكُتُبِ ٱلشَّرْعِيَّةِ. وَذَكَرَ مُجِيدِينَ فِي هٰذَا ٱلصِّنْفِ مِنْ شُعَرَائِهِمْ وَاَثْنَى ثَنَاءً عَامًا عَلَى اُومِيرُوشَ. وَمِنْ جَيِّدِ مَا فِي هٰذَا ٱلْمَعْنَى لِلْعَرَبِ قَوْلُ ٱلْاَسْوَدِ بْنِ يَعْفُرَ:

مَاذَا اُؤَمِّلُ بَعْدَ آلِ مُحَرِّقٍ ... تَرَكُوا مَنَازِلَهُمْ وَبَعْدَ اِيَادِ
اَرْضِ ٱلْخَوَرْنَقِ وَٱلسَّدِيرِ وَبَارِقٍ ... وَٱلْقَصْرِ ذِي ٱلشُّرُفَاتِ مِنْ سِنْدَادِ
نَزَلُوا بِاَنْقِرَةٍ يَسِيلُ عَلَيْهِمِ ... مَاءُ ٱلْفُرَاتِ يَجِيءُ مِنْ اَطْوَادِ
جَرَتِ ٱلرِّيَاحُ عَلَى مَحَلِّ دِيَارِهِمْ ... فَكَاَنَّهُمْ كَانُوا عَلَى مِيعَادِ
فَاَرَى ٱلنَّعِيمَ وَكُلَّ مَا يُلْهَى بِهِ ... يَوْمًا يَصِيرُ اِلَى بِلًى وَنَفَادِ

(قالَ) وَأَجزَاء هٰذا ٱلنَّوعِ هِيَ أَجزَاء صِناعَةِ ٱلمَديحِ ٱلعَفيفيَّةِ مِنَ ٱلإِدارَةِ وَٱلإِستِدلالِ وَٱلتَّركيبِ مِنهُما.وَرُبَّما كانَ بَعضُ أَجزائِها ٱنفِعالِيًّا كَٱلحالِ في صِناعَةِ ٱلمَديحِ . وَصَنائِعُ ٱلشِّعرِ وَأَحكامُها في ٱلتَّلحينِ وَٱلغِناءِ أَحكامُ صِناعَةِ ٱلمَديحِ . وَذَكَرَ فُرُوقًا بَينَ صِناعَةِ ٱلمَديحِ وَبَينَ صَنائِعِ ٱلشِّعرِ ٱلأُخَرِ عِندَهُم وَخَواصَّ تَختَصُّ بِها تِلكَ ٱلأَشعارُ ٱلأُخَرُ في ٱلأَوزانِ وَٱلأَجزاءِ وَٱلمُحاكاةِ وَٱلقَدرِ وَأَنَّ هاهُنا أَوزانًا هِيَ ٱلَّتي بِبَعضِ ٱلأَشعارِ مِن بَعضٍ وَذَكَرَ مَن أَجادَ مِنَ ٱلشُّعَراءِ في هٰذِهِ ٱلأَشياءِ وَمَن لَم يُجِد وَأَثنَى في هٰذا كُلِّهِ عَلَى أُوميرُوشَ وَكُلُّ ذٰلِكَ خاصٌّ بِهِم وَغَيرُ مَوجُودٍ مِثالُهُ عِندَنا إِمَّا لِأَنَّ ذٰلِكَ ٱلَّذي ذَكَرَ غَيرُ مُشتَرَكٍ لِلأَكثَرِ مِنَ ٱلأُمَمِ وَإِمَّا أَنَّهُ عَرَضَ لِلعَرَبِ في هٰذِهِ ٱلأَشياءِ أَمرٌ خارِجٌ عَنِ ٱلطَّبعِ وَهُوَ أَبيَنُ فَإِنَّهُ ما كانَ لِيُثبِتَ في كِتابِهِ هٰذا ما هُوَ خاصٌّ بِهِم بَل ما هُوَ مُشتَرَكٌ لِلأُمَمِ ٱلطَّبيعيَّةِ

البحث التاسع

في كيفية التخلص الى ما يراد محاكاته

(من الكتاب نفسه)

وَيَنبَغي أَن يَكُونَ ما يَأتي بِهِ ٱلشّاعِرُ مِنَ ٱلكَلامِ يَسيرًا بِٱلإِضافَةِ إِلَى ٱلكَلامِ ٱلمُحاكي كَما كانَ يَفعَلُ أُوميرُوشُ فَإِنَّهُ إِنَّما كانَ يَعمَلُ صَدرًا يَسيرًا ثُمَّ يَتَخَلَّصُ إِلَى ما يُريدُ مُحاكاتَهُ مِن غَيرِ أَن يَأتِيَ في ذٰلِكَ بِشَيءٍ لَم يُعتَد لٰكِن ما قَدِ ٱعتيدَ فَإِنَّ غَيرَ ٱلمُعتادِ

مُنْكَرٌ وَإِنَّمَا قَالَ ذٰلِكَ فِيمَا أَحسِبُ لِأَنَّ لِلْأُمَمِ فِي تَشْبِيهَاتِهِمْ عَوَائِدَ خَاصَّةً مِثْلُ قَوْلِ ٱمْرِىءِ ٱلْقَيْسِ:

يُهِيلُ وَيُذْرِي تُرْبَهَا وَيُثِيرُهُ   إِثَارَةَ نَبَّاثِ ٱلْهَوَاجِرِ مُخْمِسِ

وَكَذٰلِكَ تَشْبِيهُهُمْ ٱلضَّبَّ بِٱلنُّونِ لِمَكَانِ ٱلسَّرَابِ ٱلْمَوْجُودِ فِي بِلَادِهِمْ وَمِنْ هٰذَا قَوْلُهُ: وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ (قَالَ) وَمَتَى طَالَ ٱلْكَلَامُ وَلَيْسَ فِيهِ تَغْيِيرٌ وَلَا مُحَاكَاةٌ فَيَنْبَغِي أَنْ يُعْتَنَى فِي ذٰلِكَ بِإِيرَادِ ٱلْأَلْفَاظِ ٱلْبَيِّنَةِ ٱلدَّلَالَةِ وَهِيَ ٱلَّتِي تَدُلُّ عَلَى أَشْيَاءَ بِأَعْيَانِهَا لَا عَلَى أَشْيَاءَ مُتَضَادَّةٍ أَوْ مُخْتَلِفَةٍ وَأَنْ يَكُونَ تَرْكِيبُهَا عَلَى ٱلْمَشْهُورِ عِنْدَهُمْ وَتَكُونَ سَهْلَةً عِنْدَ ٱلنُّطْقِ. وَيُشْبِهُ أَنْ يَكُونَ هٰذَا هُوَ أَكْثَرُ مَا يُطْلَقُ عَلَيْهِ فِي لِسَانِ ٱلْعَرَبِ ٱسْمُ ٱلْفَصَاحَةِ إِلَّا أَنْ يَكُونَ ذٰلِكَ ٱلْقَوْلُ ظَاهِرَ ٱلصِّدْقِ وَمَشْهُورًا فَإِنَّ ٱلصِّدْقَ ٱلَّذِي يَتَضَمَّنُهُ يَشْفَعُ لِمَا فِيهِ مِنْ قِلَّةِ ٱلْفَصَاحَةِ وَقِلَّةِ ٱلتَّغْيِيرِ وَٱلْمُحَاكَاةِ

البحث العاشر

في انواع المحاكاة غير المقبولة

(من الكتاب نفسه)

وَٱلْغَلَطُ ٱلَّذِي يَقَعُ فِي ٱلشِّعْرِ وَيَجِبُ عَلَى ٱلشَّاعِرِ تَوْبِيخُهُ فِيهِ سِتَّةُ أَصْنَافٍ. أَحَدُهَا أَنْ يُحَاكِيَ بِغَيْرِ مُمْكِنٍ بَلْ مُمْتَنِعٍ. وَمِثَالُ هٰذَا عِنْدِي قَوْلُ ٱبْنِ ٱلْمُعْتَزِّ يَصِفُ ٱلْقَمَرَ فِي تَنَقُّصِهِ:

أُنْظُرْ إِلَيْهِ كَزَوْرَقٍ مِنْ فِضَّةٍ   قَدْ أَثْقَلَتْهُ حُمُولَةٌ مِنْ عَنْبَرِ

فَإِنَّ هٰذَا مُمْتَنِعٌ . وَإِنَّمَا آنَسَهُ بِذٰلِكَ شِدَّةُ ٱلشَّبَهِ وَإِنَّهُ لَمْ يُقْصَدْ بِهِ حَثٌّ وَلَا نَهْيٌ بَلْ إِنَّمَا يَجِبُ أَنْ يُحَاكَى بِمَا هُوَ مَوْجُودٌ أَوْ يُظَنُّ أَنَّهُ مَوْجُودٌ مِثْلُ مُحَاكَاةِ ٱلْأَشْرَارِ بِٱلشَّيَاطِينِ أَوْ بِمَا هُوَ مُمْكِنُ ٱلْوُجُودِ فِي ٱلْأَكْثَرِ لَا فِي ٱلْأَقَلِّ أَوْ عَلَى ٱلتَّسَاوِي فَإِنَّ هٰذَا ٱلنَّوْعَ مِنَ ٱلْوُجُودِ هُوَ ٱلْيَقُ بِٱلْخَطَابَةِ مِنْهُ بِٱلشِّعْرِ . وَٱلْمَوْضِعُ ٱلثَّانِي مِنْ غَلَطِ ٱلشَّاعِرِ أَنْ يُحَرِّفَ ٱلْمُحَاكَاةَ وَذٰلِكَ مِثْلُ مَا يَعْرِضُ لِلْمُصَوِّرِ أَنْ يَزِيدَ فِي ٱلصُّورَةِ عُضْوًا لَيْسَ فِيهَا أَوْ يُصَوِّرَهُ فِي غَيْرِ ٱلْمَكَانِ ٱلَّذِي هُوَ فِيهِ كَمَنْ يُصَوِّرُ ٱلرِّجْلَيْنِ فِي مُقَدَّمِ ٱلْحَيَوَانِ ذِي ٱلْأَرْبَعِ وَٱلْيَدَيْنِ فِي مُؤَخَّرِهِ وَيَنْبَغِي أَنْ يُتَفَقَّدَ مِثَالُ هٰذَا فِي أَشْعَارِ ٱلْعَرَبِ وَقَرِيبٌ مِنْهُ عِنْدِي قَوْلُ بَعْضِ ٱلْمُحْدَثِينَ ٱلْأَنْدَلُسِيِّينَ يَصِفُ ٱلْفَرَسَ :

وَعَلَى أُذْنَيْهِ أُذْنٌ ثَالِثٌ مِنْ سِنَانِ ٱلسَّمْهَرِيِّ ٱلْأَزْرَقِ

وَٱلْمَوْضِعُ ٱلثَّالِثُ أَنْ يُحَاكِيَ ٱلنَّاطِقِينَ بِأَشْيَاءَ غَيْرِ نَاطِقَةٍ فَإِنَّ هٰذَا أَيْضًا مِنْ مَوَاضِعِ ٱلتَّوْبِيخِ وَذٰلِكَ أَنَّ ٱلصِّدْقَ فِي هٰذِهِ ٱلْمُحَاكَاةِ يَكُونُ قَلِيلًا وَٱلْكَذِبَ كَثِيرًا إِلَّا أَنْ يُشَبَّهَ مِنَ ٱلنَّاطِقِ صِفَةً مُشْتَرَكَةً لِلنَّاطِقِ وَغَيْرِ ٱلنَّاطِقِ وَقَدْ تُؤْنِسُ بِمِثْلِ هٰذَا ٱلْعَادَةُ مِثْلُ تَشْبِيهِ ٱلْعَرَبِ ٱلنِّسَاءَ بِٱلظِّبَاءِ وَبَقَرِ ٱلْوَحْشِ . وَٱلْمَوْضِعُ ٱلرَّابِعُ أَنْ يُشَبِّهَ ٱلشَّيْءَ بِشَبِيهِ ضِدِّهِ أَوْ بِضِدِّ نَفْسِهِ وَذٰلِكَ مِثْلُ قَوْلِ ٱلْعَرَبِ سَقِيمَةُ ٱلْجُفُونِ فِي ٱلْحَسَنَةِ ٱلْغَاضَّةِ ٱلنَّظَرِ وَقَرِيبٌ مِنْهُ قَوْلُهُمْ :

رَاحُوا كَأَنَّهُمُ مَرْضَى مِنَ ٱلْكَرَمِ

وَقَوْلُ ٱلْآخَرِ :

وَمُخَرَّقٍ عَنْـهُ ٱلْقَمِيصُ تَخَالُهُ ... وَسْطَ ٱلْبُيُوتِ مِنَ ٱلْحَيَاءِ سَقِيمَا

فَإِنَّ هٰذِهِ كُلَّهَا هِيَ أَضْدَادُ ٱلصِّفَاتِ ٱلْحَسَنَةِ وَإِنَّمَا آنَسَ بِذٰلِكَ ٱلْعَادَةُ. وَٱلْمَوْضِعُ ٱلْخَامِسُ أَنْ يَأْتِيَ بِٱلْأَسْمَاءِ ٱلَّتِي تَدُلُّ عَلَى ٱلْمُتَضَادَّيْنِ بِٱلسَّوَاءِ مِثْلُ ٱلصَّرِيمِ فِي لِسَانِ ٱلْعَرَبِ وَٱلْقَرْءِ وَٱلْجَلَدِ وَغَيْرِ ذٰلِكَ مِمَّا قَدْ ذَكَرَهُ أَهْلُ ٱللُّغَةِ. وَٱلْمَوْضِعُ ٱلسَّادِسُ أَنْ يَتْرُكَ ٱلْمُحَاكَاةَ ٱلشِّعْرِيَّةَ وَيَنْتَقِلَ إِلَى ٱلْإِقْنَاعِ وَٱلْأَقَاوِيلِ ٱلتَّصْدِيقِيَّةِ وَبِخَاصَّةٍ مَتَى كَانَ ٱلْقَوْلُ هَجِينًا قَلِيلَ ٱلْإِقْنَاعِ وَذٰلِكَ مِثْلُ قَوْلِ ٱمْرِئِ ٱلْقَيْسِ يَعْتَذِرُ عَنْ جُبْنِهِ :

وَمَا جُبِنَتْ خَيْلِي وَلٰكِنْ تَذَكَّرَتْ ... مَرَابِطَهَا مِنْ بَرْبَعِيصَ وَمَيْسَرَا

وَقَدْ يَحْسُنُ هٰـذَا ٱلصِّنْفُ إِذَا كَانَ حَسَنَ ٱلْإِقْنَاعِ أَوْ صَادِقًا مِثْلُ قَوْلِ ٱلْآخَرِ يَعْتَذِرُ عَنِ ٱلْفِرَارِ :

ٱللهُ يَعْلَمُ مَـا تَرَكْتُ قِتَالَهُمْ ... حَتَّى رَمَوْا فَرَسِي بِأَشْقَرَ مُزْبِـدِ
وَعَلِمْتُ أَنِّي إِنْ أُقَاتِلْ وَاحِدًا ... أُقْتَلْ وَلَا يَنْكِي عَدُوِّيَ مَشْهَدِي
فَصَدَدْتُ عَنْهُمْ وَٱلْأَحِبَّةُ فِيهِمِ ... طَمَعًا لَهُمْ بِعِقَابِ يَوْمٍ مُفْسِـدِ

فَإِنَّ هٰذَا ٱلْقَوْلَ إِنَّمَا حَسُنَ فِي ٱلْأَكْثَرِ لِصِدْقِهِ لِأَنَّ ٱلتَّغْيِيرَ ٱلَّذِي فِيهِ يَسِيرٌ وَلِذٰلِكَ قَالَ ٱلْقَائِلُ: يَا مَعْشَرَ ٱلْعَرَبِ لَقَـدْ حَسَّنْتُمْ كُلَّ شَيْءٍ حَتَّى ٱلْفِرَارَ (قَالَ) وَإِذَا كَانَتْ مَوَاضِعُ ٱلْغَلَطِ سِتَّـةً وَمَوَاضِعُ ٱلتَّوْبِيخِ مُقَابِلَتَهَا فَيَجِبُ أَنْ تَكُونَ مَوَاضِعُ ٱلْغَلَطِ ٱلذَّاتِيِّ وَٱلتَّوْبِيخِ ٱلْخَاصِّيِّ ٱثْنَيْ عَشَرَ مَوْضِعًا سِتَّةٌ أَغَالِيطُ وَسِتَّةٌ تَوْبِيخَاتٌ وَأَمْثِلَةُ ٱلتَّوْبِيخَاتِ غَيْرُ مَوْجُودَةٍ عِنْدَنَا إِذْ كَانَ شُعَرَاؤُنَا لَمْ تَتَمَـيَّزْ

لَهُمْ هٰذِهِ ٱلْأَشْيَاءُ وَلَا شَعَرُوا بِهَا فَهٰذَا هُوَ مَا تَأَدَّى إِلَى فَهْمِنَا مِمَّا ذَكَرَهُ أَرِسْطُو فِي كِتَابِهِ هٰذَا مِنَ ٱلْأَقَاوِيلِ ٱلْمُشْتَرَكَةِ لِجَمِيعِ أَصْنَافِ ٱلشِّعْرِ وَٱلْخَاصَّةِ بِٱلْمَدِيحِ أَعْنِي ٱلْمُشْتَرَكَةَ مِنْهَا أَيْضًا لِلْأَكْثَرِ أَوْ لِلْجَمِيعِ وَسَائِرُ مَا ذَكَرَهُ فِي كِتَابِهِ هٰذَا مِنَ ٱلْفُصُولِ ٱلَّتِي بَيْنَ سَائِرِ أَصْنَافِ ٱلشِّعْرِ عِنْدَهُمْ وَبَيْنَ صِنْفِ ٱلْمَدِيحِ فَهُوَ خَاصٌّ بِهِمْ وَمَعَ ذٰلِكَ فَلَسْنَا نَجِدُهُ ذَكَرَ مِنْ ذٰلِكَ فِي هٰذَا ٱلْكِتَابِ ٱلْوَاصِلِ إِلَيْنَا إِلَّا بَعْضَ ذٰلِكَ. وَذٰلِكَ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ هٰذَا ٱلْكِتَابَ لَمْ يُتَرْجَمْ عَلَى ٱلتَّمَامِ وَأَنَّهُ بَقِيَ مِنْهُ ٱلتَّكَلُّمُ فِي سَائِرِ فُصُولِ أَصْنَافٍ كَثِيرٍ مِنَ ٱلْأَشْعَارِ عِنْدَهُمْ وَقَدْ كَانَ هُوَ وَعَدَ بِٱلتَّكَلُّمِ فِي هٰذِهِ كُلِّهَا فِي صَدْرِ كِتَابِهِ. وَٱلَّذِي نَقَصَ مِمَّا هُوَ مُشْتَرَكٌ هُوَ ٱلتَّكَلُّمُ فِي صِنَاعَةِ ٱلْهِجَاءِ لٰكِنْ يُشْبِهُ أَنْ يَكُونَ ٱلْوُقُوفُ عَلَى ذٰلِكَ بِقُرْبٍ مِنَ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي قِيلَتْ فِي بَابِ ٱلْمَدِيحِ إِذْ كَانَتِ ٱلْأَضْدَادُ يُعْرَفُ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ. وَأَنْتَ تَتَبَيَّنُ إِذَا وَقَفْتَ عَلَى مَا كَتَبْنَاهُ هَاهُنَا أَنَّ مَا شَعَرَ بِهِ أَهْلُ لِسَانِنَا مِنَ ٱلْقَوَانِينِ ٱلشِّعْرِيَّةِ بِٱلْإِضَافَةِ إِلَى مَا فِي كِتَابِ أَرِسْطُو هٰذَا وَفِي كِتَابِ ٱلْخَطَابَةِ نَزْرٌ يَسِيرٌ كَمَا يَقُولُهُ أَبُو نَصْرٍ. وَلَيْسَ يَخْفَى عَلَيْكَ أَيْضًا كَيْفَ تَرْجِعُ تِلْكَ ٱلْقَوَانِينُ إِلَى هٰذِهِ وَلَا مَا ذَكَرُوا مِنْ ذٰلِكَ عَلَى وَجْهِ ٱلصَّوَابِ مِمَّا ذُكِرَ عَلَى غَيْرِ ذٰلِكَ وَٱللّٰهُ ٱلْمُوَفِّقُ لِلصَّوَابِ بِفَضْلِهِ وَرَحْمَتِهِ



الفصل الثاني

في معرفة الشعراء

البحث الاول

في القدماء من الشعراء

(من كتاب المزهر في علوم اللغة للعلّامة جلال الدين السيوطي)

وَمِنْ قُدَمَاءِ ٱلشُّعَرَاءِ أَعصُرُ بْنُ سَعْدِ بْنِ قَيْسِ عَيْلَانَ بْنِ مُضَرَ وَهُوَ مُنَبِّهٌ أَبُو بَاهِلَةَ وَغَنِيٍّ وَٱلطُّفَاوَةُ . وَمِنْهُمُ ٱلْمُسْتَوْغِرُ بْنُ رَبِيعَةَ ٱبْنِ كَعْبِ بْنِ نَهْدٍ وَكَانَ قَدِيمًا وَبَقِيَ بَقَاءً طَوِيلًا حَتَّى قَالَ :

وَلَقَدْ سَئِمْتُ مِنَ ٱلْحَيَاةِ وَطُولِهَا   وَٱزْدَدتُ مِنْ عَدَدِ ٱلسِّنِينَ مِئِينَا
مِائَةٌ أَتَتْ مِنْ بَعْدِهَا مِائَتَانِ لِي   وَٱزْدَدتُ مِنْ عَدَدِ ٱلشُّهُورِ سِنِينَا

وَمِنْهُمْ زُهَيْرُ بْنُ جَنَابٍ ٱلْكَلْبِيُّ كَانَ قَدِيمًا شَرِيفًا وَهُوَ ٱلْقَائِلُ :

إِذَا قَالَتْ حَذَامِ فَصَدِّقُوهَا   فَإِنَّ ٱلْقَوْلَ مَا قَالَتْ حَذَامِ

وَمِنْهُمْ جَذِيمَةُ ٱلْأَبْرَشُ وَلُجَيْمُ بْنُ صَعْبِ بْنِ عَلِيِّ بْنِ بَكْرِ ٱبْنِ وَائِلٍ وَهُوَ ٱلْقَائِلُ :

مِنْ كُلِّ مَا نَالَ ٱلْفَتَى   قَدْ نِلْتُهُ إِلَّا ٱلتَّحِيَّهْ

وقال امرؤ القيس بن حجر :

عوجا على طلل الديار لعلنا   نبكي الديار كما بكى ابن حذام

وهو رجل من طيء لم نسمع شعره الذي بكى فيه ولا شعرا غير هذا البيت الذي ذكره امرؤ القيس . وكان اول من قصد القصائد وذكر الوقائع المهلهل بن ربيعة التغلبي في قتل اخيه كليب قال الفرزدق :

ومهلهل الشعراء ذاك الاول

وزعمت العرب انه كان يتكثر ويدعي في قوله اكثر من فعله . وكان شعراء الجاهلية في ربيعة اولهم المهلهل وهو خال امرىء القيس بن حجر الكندي والمرقشان والاكبر منهما عم الاصغر والاصغر عم طرفة بن العبد . واسم الاكبر عوف بن سعد واسم الاصغر عمرو بن حرملة وقيل ربيعة بن سفيان . ومنهم سعد بن مالك وطرفة بن العبد وعمرو بن قمئة والمتلمس وهو خال طرفة . والاعشى والمسيب بن علس والحرث بن حلزة . ثم تحول الشعر في قيس فمنهم النابغتان وزهير بن ابي سلمى وابنه كعب ولبيد والحطيئة والشماخ واخوه مزرد وخداش بن زهير ثم آل الى تميم فلم يزل فيهم الى اليوم ومنهم كان اوس بن حجر شاعر مضر في الجاهلية لم يتقدمه احد منهم حتى نشأ النابغة وزهير واخملاه وبقي شاعر تميم في الجاهلية غير مدافع . وكان الاصمعي يقول اوس اشعر من زهير ولكن النابغة طأطأ منه

وَكَانَ رَاوِيَةَ أَوسِ زُهَيرٌ وَكَانَ اوسٌ زَوجَ أُمِّ زُهَيرٍ (قَالَ عُمَرُ بنُ شَبَّةَ) فِي طَبَقَاتِ ٱلشُّعَرَاءِ: لِلشِّعْرِ وَٱلشُّعَرَاءِ اوَّلُ لَا يُوقَفُ عَلَيهِ وَقَدِ ٱختَلَفَ فِي ذٰلِكَ ٱلعُلَمَاءُ وَٱدَّعَتِ ٱلقَبَائِلُ كُلُّ قَبِيلَةٍ لِشَاعِرِهَا أَنَّهُ ٱلأَوَّلُ وَلَمْ يَدَّعُوا ذٰلِكَ لِقَائِلِ ٱلبَيتَينِ وَٱلثَّلَاثَةِ لِأَنَّهُم لَا يُسَمُّونَ ذٰلِكَ شِعرًا فَٱدَّعَتِ ٱليَمَانِيَةُ لِأَمرِئِ ٱلقَيسِ وَبَنُو اَسَدٍ لِعَبِيدِ بنِ ٱلأَبرَصِ وَتَغلِبُ لِمُهَلهِلٍ وَبَكرٌ لِعَمرِو بنِ قَمِيئَةَ وَٱلمُرَقِّشِ ٱلأَكبَرِ وَإِيَادٌ لِأَبِي دُؤَادٍ (قَالَ) وَزَعَمَ بَعضُهُمْ أَنَّ ٱلأَفوَهَ ٱلأَودِيَّ أَقدَمُ مِنْ هٰؤُلَاءِ وَأَنَّهُ اوَّلُ مَنْ قَصَّدَ ٱلقَصِيدَ (قَالَ) وَهٰؤُلَاءِ ٱلنَّفَرُ ٱلمُدَّعَى لَهُمُ ٱلتَّقَدُّمُ فِي ٱلشِّعرِ مُتَقَارِبُونَ لَعَلَّ أَقدَمَهُمْ لَا يَسبُقُ ٱلهِجرَةَ بِمِائَةِ سَنَةٍ اَوْ نَحوِهَا (وَقَالَ ثَعلَبٌ فِي أَمَالِيهِ) قَالَ ٱلأَصمَعِيُّ: اَوَّلُ مَنْ يُروَى لَهُ كَلِمَةٌ تَبلُغُ ثَلَاثِينَ بَيتًا مِنَ ٱلشِّعرِ مُهَلهِلٌ ثُمَّ ذُؤَيبُ بنُ كَعبِ بنِ عَمرِو بنِ تَمِيمٍ ثُمَّ ضَمرَةُ رَجُلٌ مِنْ بَنِي كِنَانَةَ وَٱلأَضبَطُ بنُ قُرَيعٍ (قَالَ) وَكَانَ بَينَ هٰؤُلَاءِ وَبَينَ ٱلإِسلَامِ اَربَعمِائَةِ سَنَةٍ وَكَانَ امرُؤُ ٱلقَيسِ بَعدَ هٰؤُلَاءِ بِكَثِيرٍ (وَقَالَ ٱبنُ خَالَوَيهِ فِي كِتَابِ لَيسَ) اَوَّلُ مَنْ قَالَ ٱلشِّعرَ ٱبنُ حِذَامٍ (وَقَالَ ٱبنُ رَشِيقٍ فِي ٱلعُمدَةِ): ٱلمَشَاهِيرُ مِنَ ٱلشُّعَرَاءِ اَكثَرُ مِنْ اَنْ يُحِيطَ بِهِمْ عَدَدٌ وَمِنهُمْ مَشَاهِيرُ قَدْ طَارَتْ اَسمَاؤُهُمْ وَسَارَ شِعرُهُمْ وَكَثُرَ ذِكرُهُمْ حَتَّى غَلَبُوا عَلَى سَائِرِ مَنْ كَانَ فِي زَمَانِهِمْ وَلِكُلِّ اَحَدٍ مِنهُمْ طَائِفَةٌ تُفَضِّلُهُ وَتَتَعَصَّبُ لَهُ وَقَلَّمَا تَجتَمِعُ عَلَى وَاحِدٍ اِلَّا مَا رُوِيَ عَنِ ٱلرَّسُولِ فِي امرِئِ ٱلقَيسِ اَنَّهُ اَشعَرُ ٱلشُّعَرَاءِ وَقَائِدُهُمْ اِلَى ٱلنَّارِ يَعنِي شُعَرَاءَ ٱلجَاهِلِيَّةِ وَٱلمُشرِكِينَ

قَالَ دِعبِلُ بْنُ عَلِيٍّ ٱلْخُزَاعِيُّ . وَلَا يَقُودُ قَوْمًا إِلَّا أَمِيرُهُمْ . قَالَ عُمَرُ بْنُ ٱلْخَطَّابِ لِلعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ ٱلْمُطَّلِبِ وَقَدْ سَأَلَهُ عَنِ ٱلشُّعَرَاءِ: ٱمْرُؤُ ٱلْقَيْسِ سَابِقُهُمْ خَسَفَ لَهُمْ عَيْنَ ٱلشِّعْرِ فَٱفْتَقَرَ عَن مَعَانٍ عُورٍ أَصَحَّ بَصَرًا (قَالَ عَبْدُ ٱلْكَرِيمِ) خَسَفَ مِنَ ٱلْخَسْفِ وَهِيَ ٱلْبِئْرُ ٱلَّتِي حُفِرَتْ فِي حِجَارَةٍ فَخَرَجَ مِنْهَا مَاءٌ كَثِيرٌ . وَقَوْلُهُ ٱفْتَقَرَ أَيْ فَتَحَ وَهُوَ مِنَ ٱلْفَقْرِ وَهُوَ فَمُ ٱلْقَنَاةِ وَقَوْلُهُ: عَنْ مَعَانٍ عُورٍ يُرِيدُ أَنَّ ٱمْرَأَ ٱلْقَيْسِ مِنَ ٱلْيَمَنِ وَأَنَّ أَهْلَ ٱلْيَمَنِ لَيْسَتْ لَهُمْ فَصَاحَةُ نِزَارٍ فَجَعَلَ لَهُمْ مَعَانِيَ عُورًا فَكَانَ فَتْحُ ٱمْرِئِ ٱلْقَيْسِ أَصَحَّ بَصَرًا فَإِنَّ ٱمْرَأَ ٱلْقَيْسِ يَمَانِيُّ ٱلنَّسَبِ نِزَارِيُّ ٱلدَّارِ وَٱلْمَنْشَإِ . وَفَضَّلَهُ عَلِيٌّ بِأَنْ قَالَ: رَأَيْتُهُ أَحْسَنَهُمْ نَادِرَةً وَأَسْبَقَهُمْ بَادِرَةً وَأَنَّهُ لَمْ يَقُلْ لِرَغْبَةٍ وَلَا لِرَهْبَةٍ (وَقَدْ قَالَ ٱلْعُلَمَاءُ بِٱلشِّعْرِ) إِنَّ ٱمْرَأَ ٱلْقَيْسِ لَمْ يَتَقَدَّمِ ٱلشُّعَرَاءَ لِأَنَّهُ قَالَ مَا لَمْ يَقُولُوا وَلٰكِنَّهُ سَبَقَ إِلَى أَشْيَاءَ فَٱسْتَحْسَنَهَا ٱلشُّعَرَاءُ وَٱتَّبَعُوهُ فِيهَا لِأَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ لَطَّفَ ٱلْمَعَانِيَ وَمِنِ ٱسْتَوْقَفَ عَلَى ٱلطُّلُولِ وَوَصَفَ ٱلنِّسَاءَ بِٱلظِّبَاءِ وَٱلْمَهَى وَٱلْبِيضِ وَشَبَّهَ ٱلْخَيْلَ بِٱلْعِقْبَانِ وَٱلْعِصِيِّ وَفَرَّقَ بَيْنَ ٱلنَّسِيبِ وَمَا سِوَاهُ مِنَ ٱلْقَصِيدَةِ وَقَرَّبَ مَأْخَذَ ٱلْكَلَامِ فَقَيَّدَ ٱلْأَوَابِدَ وَأَجَادَ ٱلِٱسْتِعَارَةَ وَٱلتَّشْبِيهَ وَحَكَى مُحَمَّدُ بْنُ سَلَامٍ ٱلْجُمَحِيُّ . إِنَّ سَائِلًا سَأَلَ ٱلْفَرَزْدَقَ مَنْ أَشْعَرُ ٱلنَّاسِ فَقَالَ ذُو ٱلْقُرُوحِ (وَسُئِلَ لَبِيدٌ): مَنْ أَشْعَرُ ٱلنَّاسِ فَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱلضِّلِّيلُ قِيلَ ثُمَّ مَنْ قَالَ: ٱلشَّابُّ ٱلْقَتِيلُ قِيلَ: ثُمَّ مَنْ قَالَ: ٱلشَّيْخُ أَبُو عَقِيلٍ يَعْنِي نَفْسَهُ . وَكَانَ ٱلْحُذَّاقُ يَقُولُونَ: ٱلْفُحُولُ فِي ٱلْجَاهِلِيَّةِ ثَلَاثَةٌ

مُتَشَابِهُونَ زُهَيْرٌ وَٱلْفَرَزْدَقُ وَٱلنَّابِغَةُ وَٱلأَخْطَلُ وَٱلأَعْشَى وَجَرِيرٌ وَكَانَ خَلَفٌ ٱلأَحْمَرُ يَقُولُ: أَجْمَعُهُمُ ٱلأَعْشَى. وَقَالَ أَبُو عَمْرِو ٱبْنُ ٱلْعَلَاءِ: مَثَلُهُ مَثَلُ ٱلْبَازِي يَضْرِبُ كَبِيرَ ٱلطَّيْرِ وَصَغِيرَهُ. وَكَانَ أَبُو ٱلْخَطَّابِ ٱلأَخْفَشُ يُقَدِّمُهُ جِدًّا لَا يُقَدِّمُ عَلَيْهِ أَحَدًا. وَحَكَى ٱلأَصْمَعِيُّ عَنِ ٱبْنِ أَبِي طَرَفَةَ: كَفَاكَ مِنَ ٱلشُّعَرَاءِ أَرْبَعَةٌ زُهَيْرٌ إِذَا رَغِبَ وَٱلنَّابِغَةُ إِذَا رَهِبَ وَٱلأَعْشَى إِذَا طَرِبَ وَعَنْتَرَةُ إِذَا كَلِبَ وَزَادَ قَوْمٌ: وَجَرِيرٌ إِذَا غَضِبَ. وَقِيلَ لِكُثَيِّرٍ أَوْ لِنُصَيْبٍ مَنْ أَشْعَرُ ٱلْعَرَبِ فَقَالَ: ٱمْرُؤُ ٱلْقَيْسِ إِذَا رَكِبَ وَزُهَيْرٌ إِذَا رَغِبَ وَٱلنَّابِغَةُ إِذَا رَهِبَ وَٱلأَعْشَى إِذَا شَرِبَ. وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ يُقَدِّمُ ٱلنَّابِغَةَ وَيَقُولُ هُوَ أَحْسَنُهُمْ شِعْرًا وَأَعْذَبُهُمْ بَحْرًا وَأَبْعَدُهُمْ قَعْرًا. وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي ٱلْخَطَّابِ فِي كِتَابِهِ ٱلْمَوْسُومِ بِجَمْهَرَةِ أَشْعَارِ ٱلْعَرَبِ إِنَّ أَبَا عُبَيْدَةَ قَالَ: أَصْحَابُ ٱلسَّبْعِ ٱلَّتِي تُسَمَّى ٱلسُّمْطَ ٱمْرُؤُ ٱلْقَيْسِ وَزُهَيْرٌ وَٱلنَّابِغَةُ وَٱلأَعْشَى وَلَبِيدٌ وَعَمْرٌو وَطَرَفَةُ. (قَالَ) وَقَالَ ٱلْمُفَضَّلُ: مَنْ زَعَمَ أَنَّ فِي ٱلسَّبْعِ ٱلَّتِي تُسَمَّى ٱلسُّمْطَ لِأَحَدٍ غَيْرِ هٰؤُلَاءِ فَقَدْ أَبْطَلَ وَأَسْقَطَا مِنْ أَصْحَابِ ٱلْمُعَلَّقَاتِ عَنْتَرَةَ وَٱلْحٰرِثَ بْنَ حِلِزَّةَ وَأَثْبَتَا ٱلأَعْشَى وَٱلنَّابِغَةَ وَكَانَتِ ٱلْمُعَلَّقَاتُ تُسَمَّى ٱلْمُذَهَّبَاتِ وَذٰلِكَ أَنَّهَا ٱخْتِيرَتْ مِنْ سَائِرِ ٱلشِّعْرِ فَكُتِبَتْ فِي ٱلْقَبَاطِيِّ بِمَاءِ ٱلذَّهَبِ وَعُلِّقَتْ عَلَى ٱلْكَعْبَةِ فَلِذٰلِكَ يُقَالُ مُذَهَّبَةُ فُلَانٍ إِذَا كَانَتْ أَجْوَدَ شِعْرِهِ. ذَكَرَ ذٰلِكَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ ٱلْعُلَمَاءِ وَقِيلَ بَلْ كَانَ ٱلْمَلِكُ إِذَا ٱسْتُجِيدَتْ قَصِيدَةٌ يَقُولُ: عَلِّقُوا لَنَا هٰذِهِ

لِتَكُونَ فِي خِزَانَتِهِ (وَقَالَ ٱلْجُمَحِيُّ) سَأَلَ عِكْرِمَةُ بْنُ جَرِيرٍ أَبَاهُ جَرِيرًا. مَنْ أَشْعَرُ ٱلنَّاسِ قَالَ: أَعَنِ ٱلْجَاهِلِيَّةِ تَسْأَلُنِي أَمِ ٱلْإِسْلَامِ. قَالَ: مَا أَرَدتُّ إِلَّا ٱلْإِسْلَامَ فَإِذْ ذَكَرْتَ ٱلْجَاهِلِيَّةَ فَأَخْبِرْنِي عَنْ أَهْلِهَا قَالَ: زُهَيْرٌ شَاعِرُهُمْ (قَالَ) قُلْتُ: فَٱلْإِسْلَامُ قَالَ: ٱلْفَرَزْدَقُ نَبْعَةُ ٱلشِّعْرِ قُلْتُ: وَٱلْأَخْطَلُ قَالَ: يُجِيدُ مَدْحَ ٱلْمُلُوكِ وَيُصِيبُ صِفَةَ ٱلْخَمْرِ قُلْتُ: فَمَا تَرَكْتَ لِنَفْسِكَ قَالَ: دَعْنِي فَإِنِّي نَحَرْتُ ٱلشِّعْرَ نَحْرًا (وَسُئِلَ) ٱلْفَرَزْدَقُ مَرَّةً: مَنْ أَشْعَرُ ٱلْعَرَبِ فَقَالَ بِشْرُ بْنُ أَبِي خَازِمٍ. قِيلَ لَهُ: بِمَاذَا. قَالَ: بِقَوْلِهِ:

ثَوَى فِي مُلْحَدٍ لَا بُدَّ مِنْهُ   كَفَى بِٱلْمَوْتِ نَأْيًا وَٱغْتِرَابَا

ثُمَّ سُئِلَ جَرِيرٌ فَقَالَ: بِشْرُ بْنُ أَبِي خَازِمٍ. قِيلَ: لَهُ بِمَاذَا قَالَ بِقَوْلِهِ:

رَهِينُ بِلًى وَكُلُّ فَتًى سَيَبْلَى   فَشُقِّي ٱلْجَيْبَ وَٱنْتَحِبِي ٱنْتِحَابَا

فَٱتَّفَقَا عَلَى بِشْرِ بْنِ أَبِي خَازِمٍ كَمَا تَرَى (وَكَتَبَ) ٱلْحَجَّاجُ بْنُ يُوسُفَ إِلَى قُتَيْبَةَ بْنِ مُسْلِمٍ يَسْأَلُهُ عَنْ أَشْعَرِ ٱلشُّعَرَاءِ فِي ٱلْجَاهِلِيَّةِ وَأَشْعَرِ شُعَرَاءِ وَقْتِهِ فَقَالَ: أَشْعَرُ ٱلْجَاهِلِيَّةِ ٱمْرُؤُ ٱلْقَيْسِ وَأَضْرَبُهُمْ مَثَلًا طَرَفَةُ. وَأَمَّا شُعَرَاءُ ٱلْوَقْتِ فَٱلْفَرَزْدَقُ أَفْخَرُهُمْ وَجَرِيرٌ أَهْجَاهُمْ وَٱلْأَخْطَلُ أَوْصَفُهُمْ (وَأَمَّا ٱلْحُطَيْئَةُ) فَسُئِلَ مَنْ أَشْعَرُ ٱلنَّاسِ فَقَالَ أَبُو دُؤَادٍ حَيْثُ يَقُولُ:

لَا أَعُدُّ ٱلْإِقْتَارَ عُدْمًا وَلٰكِنْ   فَقْدُ مَنْ قَدْ رُزِئْتُهُ ٱلْإِعْدَامُ

وَهُوَ كَانَ فَحْلًا قَدِيمًا وَكَانَ ٱمْرُؤُ ٱلْقَيْسِ يَتَوَكَّأُ عَلَيْهِ

وَيَروِي شِعرَهُ فَلَمْ يَقُلْ فِيهِ اَحَدٌ مِنَ ٱلنُّقَّادِ مَقَالَةَ ٱلْحُطَيئَةِ (وَسَأَلَهُ ٱبْنُ عَبَّاسٍ مَرَّةً أُخرَى) فَقَالَ ٱلَّذِي يَقُولُ:

وَمَنْ يَجْعَلِ ٱلْمَعْرُوفَ مِنْ دُونِ عِرْضِهِ
يَفِرْهُ وَمَنْ لَا يَتَّقِ ٱلشَّتْمَ يُشْتَمِ

وَلَيسَ ٱلَّذِي يَقُولُ:

وَلَسْتَ بِمُسْتَبْقٍ اَخًا لَا تَلُمُّهُ عَلَى شَعَثٍ ايُّ ٱلرِّجَالِ ٱلْمُهَذَّبُ

وَلٰكِنِ ٱلضَّرَاعَةُ اَفْسَدَتْهُ كَمَا اَفْسَدَتْ جَرْوَلًا وَٱللهِ لَوْلَا وَلَوْلَا لَكُنْتُ اَشعَرَ ٱلْمَاضِينَ. وَامَّا ٱلْبَاقُونَ فَلَا اَشُكُّ اَنِّي اَشعَرُهُمْ (وَزَعَمَ) ٱبْنُ اَبِي ٱلْخَطَّابِ اَنَّ اَبَا عَمْرٍو يَقُولُ اَشعَرُ ٱلنَّاسِ: اَربَعَةٌ ٱمْرُؤُ ٱلقَيسِ وَٱلنَّابِغَةُ وَطَرَفَةُ وَمُهَلْهِلٌ وَقَالَ ٱلْمُفَضَّلُ: سُئِلَ ٱلفَرَزدَقُ فَقَالَ: ٱمْرُؤُ ٱلقَيسِ اَشعَرُ ٱلنَّاسِ وَقَالَ جَرِيرٌ: ٱلنَّابِغَةُ اَشعَرُ ٱلنَّاسِ وَقَالَ ٱلأَخطَلُ: ٱلأَعشَى اَشعَرُ ٱلنَّاسِ وَقَالَ ٱبْنُ اَحمَرَ: زُهَيرٌ اَشعَرُ ٱلنَّاسِ وَقَالَ ذُو ٱلرُّمَّةِ: لَبِيدٌ اَشعَرُ ٱلنَّاسِ وَقَالَ نَضرُ بْنُ شُمَيلٍ: طَرَفَةُ اَشعَرُ ٱلنَّاسِ وَقَالَ ٱلْكُمَيتُ: عَمْرُو بْنُ كُلْثُومٍ اَشعَرُ ٱلنَّاسِ وَهٰذَا يَدُلُّكَ عَلَى ٱختِلَافِ ٱلأَهوَاءِ وَقِلَّةِ ٱلِاتِّفَاقِ. وَكَانَ ٱبْنُ اَبِي إِسحَاقَ وَهُوَ عَالِمٌ نَاقِدٌ وَمُقَدَّمٌ مَشهُورٌ يَقُولُ: اَشعَرُ ٱلجَاهِلِيَّةِ ٱلْمُرَقِّشُ ٱلأَكبَرُ وَاَشعَرُ ٱلإِسلَامِيِّينَ كُثَيِّرٌ وَهٰذَا غُلُوٌّ مُفرِطٌ غَيرَ اَنَّهُم مُجمِعُونَ عَلَى اَنَّهُ اَوَّلُ مَنْ اَطَالَ ٱلْمَدحَ (وَقِيلَ) لِنُصَيبٍ مَرَّةً: مَنْ اَشعَرُ ٱلعَرَبِ فَقَالَ: اَخُو تَمِيمٍ يَعنِي عَلقَمَةَ بْنَ عَبَدَةَ وَقِيلَ اَوسَ بْنَ حَجَرٍ. وَلَيسَ لِاَحَدٍ مِنَ ٱلشُّعَرَاءِ بَعْدَ ٱمرِئِ ٱلقَيسِ مَا

لِزُهَيْرٍ وَٱلنَّابِغَةِ وَٱلْأَعْشَى فِي ٱلنُّفُوسِ. وَعُلَمَاءُ ٱلْبَصْرَةِ كَانُوا يُقَدِّمُونَ ٱمْرَأَ ٱلْقَيْسِ وَأَهْلُ ٱلْكُوفَةِ كَانُوا يُقَدِّمُونَ ٱلْأَعْشَى وَأَهْلُ ٱلْحِجَازِ وَٱلْبَادِيَةِ كَانُوا يُقَدِّمُونَ زُهَيْرًا وَٱلنَّابِغَةَ وَكَانَ أَهْلُ ٱلْعَالِيَةِ لَا يَعْدِلُونَ بِٱلنَّابِغَةِ أَحَدًا كَمَا أَنَّ أَهْلَ ٱلْحِجَازِ لَا يَعْدِلُونَ بِزُهَيْرٍ أَحَدًا. قَالَ ٱبْنُ سَلَامٍ: قَالَ أَهْلُ ٱلنَّظَرِ كَانَ زُهَيْرٌ أَحْصَفَهُمْ شِعْرًا وَأَبْعَدَهُمْ مِنْ سُخْفٍ وَأَجْمَعَهُمْ لِكَثِيرٍ مِنَ ٱلْمَعَانِي فِي قَلِيلٍ مِنَ ٱلْمَنْطِقِ. وَأَمَّا ٱلنَّابِغَةُ فَقَالَ مَنْ يَحْتَجُّ لَهُ كَانَ أَحْسَنَهُمْ دِيبَاجَةَ شِعْرٍ وَأَكْثَرَهُمْ رَوْنَقَ كَلَامٍ وَأَجْزَلَهُمْ بَيْتًا كَأَنَّ شِعْرَهُ كَلَامٌ لَيْسَ فِيهِ تَكَلُّفٌ. وَزَعَمَ أَصْحَابُ ٱلْأَعْشَى أَنَّهُ أَكْثَرُهُمْ عَرُوضًا وَأَذْهَبُهُمْ فِي فُنُونِ ٱلشِّعْرِ وَأَكْثَرُهُمْ طَوِيلَةً جَيِّدَةً وَمَدْحًا وَهِجَاءً وَفَخْرًا وَصِفَةً (وَقَالَ بَعْضُ مُتَقَدِّمِي ٱلْعُلَمَاءِ) ٱلْأَعْشَى أَشْعَرُ ٱلْأَرْبَعَةِ قِيلَ لَهُ: فَأَيْنَ ٱلْخَبَرُ عَنِ ٱلنَّبِيِّ إِنَّ ٱمْرَأَ ٱلْقَيْسِ بِيَدِهِ لِوَاءُ ٱلشِّعْرِ فَقَالَ: بِهٰذَا ٱلْخَبَرِ صَحَّ لِلْأَعْشَى مَا قُلْتُ وَذٰلِكَ أَنَّهُ مَا مِنْ حَامِلِ لِوَاءٍ إِلَّا عَلَى رَأْسِ أَمِيرٍ فَٱمْرُؤُ ٱلْقَيْسِ حَامِلُ ٱللِّوَاءِ وَٱلْأَعْشَى ٱلْأَمِيرُ (وَسُئِلَ) حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ مَنْ أَشْعَرُ ٱلنَّاسِ فَقَالَ: أَرَجُلًا أَمْ حَيًّا قِيلَ بَلْ حَيًّا قَالَ: أَشْعَرُ ٱلنَّاسِ حَيًّا هُذَيْلٌ. قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ سَلَامٍ ٱلْجُمَحِيُّ وَأَشْعَرُ هُذَيْلٍ أَبُو ذُؤَيْبٍ غَيْرَ مُدَافَعٍ (وَقَالَ ٱلْأَصْمَعِيُّ) قَالَ أَبُو عَمْرِو بْنُ ٱلْعَلَاءِ: أَفْصَحُ ٱلشُّعَرَاءِ أَلْسُنًا وَأَعْرَبُهُمْ أَهْلُ ٱلسَّرَوَاتِ وَهُنَّ ثَلَاثٌ وَهِيَ ٱلْجِبَالُ ٱلْمُطِلَّةُ عَلَى تِهَامَةَ مِمَّا يَلِي ٱلْيَمَنَ فَأَوَّلُهَا هُذَيْلٌ وَهِيَ تَلِي ٱلرَّمْلَ مِنْ تِهَامَةَ ثُمَّ عِلْيَةُ ٱلسَّرَاةِ

ٱلْوُسْطَى وَقَدْ شَرِكَتْهُمْ ثَقِيفٌ فِي نَاحِيَةٍ مِنْهَا . ثُمَّ سَرَاةُ ٱلْأَزْدِ أَزْدِشَنُوءَةَ وَهُمْ بَنُو ٱلْحَرِثِ بْنِ كَعْبِ بْنِ ٱلْحَرِثِ بْنِ نَصْرِ بْنِ ٱلْأَزْدِ وَقَالَ أَبُو عَمْرٍو أَيْضًا: أَفْصَحُ ٱلنَّاسِ عُلْيَا تَمِيمٍ وَسُفْلَى قَيْسٍ وَقَالَ أَبُو زَيْدٍ) أَفْصَحُ ٱلنَّاسِ سَافِلَةُ ٱلْعَالِيَةِ وَعَالِيَةُ ٱلسَّافِلَةِ يَعْنِي هَوَازِنَ وَأَهْلُ ٱلْعَالِيَةِ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَمَنْ يَلِيهَا وَدَنَا مِنْهَا وَلُغَتُهُمْ لَيْسَتْ بِتِلْكَ عِنْدَهُ. وَقَوْمٌ يَرَوْنَ تَقْدِمَةَ ٱلشِّعْرِ لِلْيَمَنِ فِي ٱلْجَاهِلِيَّةِ بِأَمْرِئِ ٱلْقَيْسِ وَفِي ٱلْإِسْلَامِ بِحَسَّانَ بْنِ ثَابِتٍ وَفِي ٱلْمُوَلَّدِينَ بِٱلْحَسَنِ بْنِ هَانِئٍ وَأَصْحَابِهِ . وَأَشْعَرُ أَهْلِ ٱلْمَدَرِ بِإِجْمَاعٍ مِنَ ٱلنَّاسِ وَٱتِّفَاقٍ حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ . وَقَالَ أَبُو عَمْرِو بْنُ ٱلْعَلَاءِ: خُتِمَ ٱلشِّعْرُ بِذِي ٱلرُّمَّةِ وَٱلرَّجَزُ بِرُؤْبَةَ بْنِ ٱلْعَجَّاجِ . وَزَعَمَ يُونُسُ : أَنَّ ٱلْعَجَّاجَ لَيْسَ فِي شِعْرِهِ شَيْءٌ يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ أَنْ يَقُولَ: لَوْ كَانَ مَكَانَهُ غَيْرُهُ لَكَانَ أَجْوَدَ (وَقَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ) إِنَّمَا كَانَ ٱلشَّاعِرُ يَقُولُ مِنَ ٱلرَّجَزِ ٱلْبَيْتَيْنِ وَٱلثَّلَاثَةَ وَنَحْوَ ذٰلِكَ إِذَا حَارَبَ أَوْ شَاتَمَ أَوْ فَاخَرَ حَتَّى كَانَ ٱلْعَجَّاجُ أَوَّلَ مَنْ أَطَالَهُ وَقَصَّدَهُ وَشَبَّبَ فِيهِ وَذَكَرَ ٱلدِّيَارَ وَٱسْتَوْقَفَ ٱلرِّكَابَ عَلَيْهَا وَٱسْتَوْصَفَ مَا فِيهَا وَبَكَى عَلَى ٱلشَّبَابِ وَوَصَفَ ٱلرَّاحِلَةَ كَمَا فَعَلَتِ ٱلشُّعَرَاءُ بِٱلْقَصِيدِ فَكَانَ فِي ٱلرُّجَّازِ كَامْرِئِ ٱلْقَيْسِ فِي ٱلشُّعَرَاءِ . وَقَالَ غَيْرُهُ : أَوَّلُ مَنْ طَوَّلَ شِعْرَ ٱلرَّجَزِ ٱلْأَغْلَبُ ٱلْعِجْلِيُّ وَهُوَ قَدِيمٌ . وَزَعَمَ ٱلْجُمَحِيُّ وَغَيْرُهُ أَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ رَجَزَ . وَقَالَ ٱبْنُ رَشِيقٍ فِي ٱلْعُمْدَةِ : وَلَا أَظُنُّ ذٰلِكَ صَحِيحًا لَهُ لِأَنَّهُ إِنَّمَا كَانَ عَلَى عَهْدِ ٱلنَّبِيِّ وَنَحْنُ نَجِدُ ٱلرَّجَزَ أَقْدَمَ مِنْ ذٰلِكَ .

وَكَانَ أَبُو عُبَيْدَةَ يَقُولُ: اُفْتُتِحَ ٱلشِّعْرُ بِٱمْرِئِ ٱلْقَيْسِ وَخُتِمَ بِٱبْنِ هَرْمَةَ وَقَالَتْ طَائِفَةٌ: ٱلشُّعَرَاءُ ثَلَاثَةٌ جَاهِلِيٌّ وَإِسْلَامِيٌّ وَمُوَلَّدٌ فَٱلْجَاهِلِيُّ ٱمْرُؤُ ٱلْقَيْسِ وَٱلْإِسْلَامِيُّ ذُو ٱلرُّمَّةِ وَٱلْمُوَلَّدُ ٱبْنُ ٱلْمُعْتَزِّ وَهٰذَا قَوْلُ مَنْ يُفَضِّلُ ٱلْبَدِيعَ وَخَاصَّةً ٱلتَّشْبِيهَ عَلَى جَمِيعِ فُنُونِ ٱلشِّعْرِ. وَطَائِفَةٌ أُخْرَى تَقُولُ بَلِ ٱلثَّلَاثَةُ ٱلْأَعْشَى وَٱلْأَخْطَلُ وَأَبُو ٱلْفَوَارِسِ وَهٰذَا مَذْهَبُ أَصْحَابِ ٱلْخَمْرِ وَمَا نَاسَبَهَا وَمَنْ يَقُولُ بِٱلتَّصَرُّفِ وَقِلَّةِ ٱلتَّكَلُّفِ. وَقَالَ قَوْمٌ بَلِ ٱلثَّلَاثَةُ مُهَلْهِلٌ وَٱبْنُ أَبِي رَبِيعَةَ وَعَبَّاسُ بْنُ ٱلْأَحْنَفِ وَهٰذَا قَوْلُ مَنْ يُؤْثِرُ ٱلْأَنَفَةَ وَسُهُولَةَ ٱلْكَلَامِ وَٱلْقُدْرَةَ عَلَى ٱلصَّنْعَةِ وَٱلتَّجْوِيدَ فِي فَنٍّ وَاحِدٍ وَلَيْسَ فِي ٱلْمُوَلَّدِينَ أَشْهَرُ ٱسْمًا مِنَ ٱلْحَسَنِ ثُمَّ حَبِيبٍ وَٱلْبُحْتُرِيِّ. وَيُقَالُ إِنَّهُمَا أَخْمَلَا فِي زَمَانِهِمَا خَمْسَمِائَةِ شَاعِرٍ كُلُّهُمْ مُجِيدٌ ثُمَّ تَبِعَهُمَا فِي ٱلْإِشْتِهَارِ ٱبْنُ ٱلرُّومِيِّ وَٱبْنُ ٱلْمُعْتَزِّ وَطَارَ ٱسْمُ ٱبْنِ ٱلْمُعْتَزِّ حَتَّى صَارَ كَٱلْحَسَنِ فِي ٱلْمُوَلَّدِينَ وَٱمْرِئِ ٱلْقَيْسِ فِي ٱلْقُدَمَاءِ. ثُمَّ جَاءَ ٱلْمُتَنَبِّي فَمَلَأَ ٱلدُّنْيَا وَهٰذَا كُلُّهُ كَلَامُ ٱبْنِ رَشِيقٍ

قَالَ صَاحِبُ ٱلْأَغَانِي:

وَمِمَّنْ صَنَعَ مِنْ أَوْلَادِ ٱلْخُلَفَاءِ فَأَجَادَ وَأَحْسَنَ وَبَرَعَ وَتَقَدَّمَ أَهْلَ عَصْرِهِ فَضْلًا وَشَرَفًا وَأَدَبًا وَشِعْرًا وَظَرْفًا وَتَصَرُّفًا فِي سَائِرِ ٱلْآدَابِ أَبُو ٱلْعَبَّاسِ عَبْدُ ٱللهِ بْنُ ٱلْمُعْتَزِّ بِٱللهِ وَأَمْرُهُ مَعَ قُرْبِ عَصْرِنَا هٰذَا مَشْهُورٌ فِي فَضَائِلِهِ وَآدَابِهِ. وَشِعْرُهُ وَإِنْ كَانَ فِيهِ رِقَّةُ ٱلْمُلُوكِيَّةِ وَغَزَلُ ٱلظُّرَفَاءِ وَهَلْهَلَةُ ٱلْمُحْدَثِينَ

فَانَّ فِيهِ اَشْيَاءَ كَثِيرَةً تَجْرِي فِي اُسْلُوبِ ٱلْمُجِيدِينَ وَلَا تُقَصِّرُ عَنْ مَدَى ٱلسَّابِقِينَ وَاَشْيَاءَ ظَرِيفَةً مِنْ اَشْعَارِ ٱلْمُلُوكِ فِي جِنْسِ مَا هُمْ بِسَبِيلِهِ لَيْسَ عَلَيْهِ اَنْ يَتَشَبَّهَ فِيهَا بِفُحُولِ ٱلْجَاهِلِيَّةِ. فَلَيْسَ يُمْكِنُ وَاصِفًا لِصَبُوحٍ فِي مَجْلِسٍ شَكْلٍ ظَرِيفٍ بَيْنَ نُدَامَى وَقِيَانٍ وَعَلَى مَيَادِينَ مِنَ ٱلنَّورِ وَٱلْبَنَفْسَجِ وَٱلنَّرْجِسِ وَمَنْضُودٍ مِنْ اَمْثَالِ ذٰلِكَ اِلَى غَيْرِ مَا ذَكَرْتُهُ مِنْ جِنْسِ ٱلْمَجَالِسِ وَفَاخِرِ ٱلْفَرْشِ وَمُخْتَارِ ٱلْآلَاتِ وَرِقَّةِ ٱلْخَدَمِ اَنْ يَعْدِلَ بِذٰلِكَ عَمَّا يُشْبِهُهُ مِنَ ٱلْكَلَامِ ٱلسَّبْطِ ٱلرَّقِيقِ ٱلَّذِي يَفْهَمُهُ كُلُّ مَنْ حَضَرَ اِلَى جَعْدِ ٱلْكَلَامِ وَوَحْشِيِّهِ وَاِلَى وَصْفِ ٱلْبِيدِ وَٱلْمَهَامِهِ وَٱلظِّبَاءِ وَٱلظَّلِيمِ وَٱلنَّاقَةِ وَٱلْجَمَلِ وَٱلدِّيَارِ وَٱلْقِفَارِ وَٱلْمَنَازِلِ ٱلْخَالِيَةِ ٱلْمَهْجُورَةِ وَلَا اِذَا عَدَلَ عَنْ ذٰلِكَ وَاَحْسَنَ قِيلَ لَهُ مُسِيءٌ وَلَا اَنْ يُغْمَطَ حَقُّهُ كُلُّهُ اِذَا اَحْسَنَ ٱلْكَثِيرَ وَتَوَسَّطَ فِي ٱلْبَعْضِ وَقَصَّرَ فِي ٱلْيَسِيرِ وَيُنْسَبَ اِلَى ٱلتَّقْصِيرِ فِي ٱلْجَمِيعِ لِنَشْرِ ٱلْمَقَابِحِ وَطَيِّ ٱلْمَحَاسِنِ. فَلَوْ شَاءَ اَنْ يَفْعَلَ هٰذَا كُلُّ اَحَدٍ بِمَنْ تَقَدَّمَ لَوَجَدَ مَسَاغًا وَلَوْ اَنَّ قَائِلًا اَرَادَ ٱلطَّعْنَ عَلَى صُدُورِ ٱلشُّعَرَاءِ لَقَدَرَ اَيْ اَنْ يَطْعَنَ عَلَى ٱلْاَعْشَى وَهُوَ اَحَدُ مَنْ يُقَدِّمُهُ ٱلْاَوَائِلُ عَلَى سَائِرِ ٱلشُّعَرَاءِ بِقَوْلِهِ :

فَاَصَابَ حَبَّةَ قَلْبِهِ وَطِحَالَهَا

وَبِقَوْلِهِ :

وَقَدْ كَانَ اِنْ يَأْمُرْهُمْ كُلَّ لَيْلَةٍ بِقَتٍّ وَتَعْلِيقٍ فَقَدْ كَادَ يَسْبِقُ

وَاَمْثَالُ هٰذَا كَثِيرَةٌ. وَاِنَّمَا عَلَى ٱلْاِنْسَانِ اَنْ يَحْفَظَ مِنَ

ٱلشَّيْءِ أَحْسَنُهُ وَيُلْغِي مَا لَا يَسْتَحْسِنُهُ فَلَيْسَ مَأْخُوذًا بِهِ وَلٰكِنَّ أَقْوَامًا أَرَادُوا أَنْ يَرْفَعُوا أَنْفُسَهُمُ ٱلْوَضِيعَةَ وَيُشِيدُوا بِذِكْرِهِمِ ٱلْخَامِلِ وَيُعْلُوا أَقْدَارَهُمُ ٱلسَّاقِطَةَ بِٱلطَّعْنِ عَلَى أَهْلِ ٱلْفَضْلِ وَٱلْقَدْحِ فِيهِمْ فَلَا يَزْدَادُونَ بِذٰلِكَ إِلَّا ضَعَةً وَلَا يَزْدَادُ ٱلْآخَرُ إِلَّا ٱرْتِفَاعًا. أَلَا تَرَى إِلَى ٱبْنِ ٱلْمُعْتَزِّ قَدْ قُتِلَ أَسْوَأَ قِتْلَةٍ وَدَرَجَ فَلَمْ يَبْقَ لَهُ خَلَفٌ يُقَرِّظُهُ وَلَا عَقِبٌ يَرْفَعُ مِنْهُ وَمَا يَزْدَادُ بِأَدَبِهِ وَشِعْرِهِ وَفَضْلِهِ وَحُسْنِ أَخْبَارِهِ وَتَصَرُّفِهِ فِي كُلِّ فَنٍّ مِنَ ٱلْعُلُومِ إِلَّا رِفْعَةً وَعُلُوًّا وَلَا تَظَرَ إِلَى أَضْدَادِهِ كُلَّمَا ٱزْدَادُوا فِي طَعْنِهِ وَتَقْرِيظِ أَنْفُسِهِمْ. وَأَسْلَافُهُمُ ٱلَّذِينَ كَانُوا مِثْلَهُمْ فِي ثَلْبِهِ وَٱلطَّعْنِ عَلَيْهِ زَادُوهَا سُقُوطًا وَضَعَةً وَكُلَّمَا وَصَفُوا أَشْعَارَهُمْ وَقَرَّظُوا آدَابَهُمْ زَادُوا بِهَا ثِقَلًا وَمَقْتًا فَإِذَا وَقَعَ عَلَيْهِمِ ٱلْمُحَصَّلُ ٱلْمُوَافِقُ عَدَلُوا عَنْ ثَلْبِهِ فِي ٱلْآدَابِ إِلَى ٱلتَّشْنِيعِ بِأَمْرِ ٱلدِّينِ وَهِجَاءِ آلِ أَبِي طَالِبٍ وَهُمْ أَوَّلُ مَنْ فَعَلَ ذٰلِكَ وَشَنَّعَ بِهِ عَلَى آلِ أَبِي طَالِبٍ عِنْدَ ٱلْمُكْتَفِي حَتَّى نَهَاهُمْ عَنْهُ فَعَدَلُوا عَنْ عَيْبِ أَنْفُسِهِمْ بِذٰلِكَ إِلَى عَيْبِهِ وَٱرْتَكَبُوا أَكْثَرَ مِنْهُ. وَكَانَ عَبْدُ ٱللّٰهِ حَسَنَ ٱلْعِلْمِ بِصِنَاعَةِ ٱلْمُوسِيقَى وَٱلْكَلَامِ عَلَى ٱلنَّغَمِ وَعِلَلِهَا وَلَهُ فِي ذٰلِكَ وَفِي غَيْرِهِ مِنَ ٱلْآدَابِ كُتُبٌ مَشْهُورَةٌ وَمُرَاسَلَاتٌ جَرَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ عُبَيْدِ ٱللّٰهِ بْنِ عَبْدِ ٱللّٰهِ بْنِ طَاهِرٍ وَبَيْنَ بَنِي حَمْدُونَ وَغَيْرِهِمْ تَدُلُّ عَلَى فَضْلِهِ وَغَزَارَةِ عِلْمِهِ وَأَدَبِهِ وَلَقَدْ قَرَأْتُ بِخَطِّ عُبَيْدِ ٱللّٰهِ بْنِ طَاهِرٍ رُقْعَةً إِلَيْهِ بِخَطِّهِ وَقَدْ بَعَثَ إِلَيْهِ بِرِسَالَةٍ إِلَى ٱبْنِ حَمْدُونَ فِي أَنَّهُ يَجُوزُ وَلَا يُنْكَرُ أَنْ يُغَيِّرَ ٱلْإِنْسَانُ بَعْضَ نَغَمِ ٱلْغِنَاءِ

ٱلْقَدِيمِ وَيَعْدِلَ بِهَا إِلَى مَا يَحْسُنُ فِي خُلُقِهِ وَمَذْهَبِهِ وَهِيَ رِسَالَةٌ طَوِيلَةٌ لَيْسَ هٰذَا مَوْضِعُ ذِكْرِهَا

البحث الثاني

في المقلّين من الشعراء

(من الكتاب نفسه)

ثُمَّ قَالَ: وَلَمَّا كَانَ ٱلْمَشَاهِيرُ مِنَ ٱلشُّعَرَاءِ كَمَا قَدَّمْتُ أَكْثَرَ مِنْ أَنْ يُحْصَوا ذَكَرْتُ مِنَ ٱلْمُقِلِّينَ مَنْ وَسِعَ ذِكْرُهُ فِي هٰذَا ٱلْمَوْضِعِ. فَمِنْهُمْ طَرَفَةُ بْنُ ٱلْعَبْدِ وَعُبَيْدُ بْنُ ٱلْأَبْرَصِ وَعَلْقَمَةُ ٱلْفَحْلُ وَعَدِيُّ ٱبْنُ زَيْدٍ. وَطَرَفَةُ فَضَلَ ٱلنَّاسَ بِوَاحِدَةٍ عِنْدَ ٱلْعُلَمَاءِ وَهِيَ ٱلْمُعَلَّقَةُ:

لِخَوْلَةَ أَطْلَالٌ بِبُرْقَةِ ثَهْمَدِ

وَلَهُ سِوَاهَا يَسِيرٌ لِأَنَّهُ قُتِلَ صَغِيرًا حَوْلَ ٱلْعِشْرِينَ فِيمَا رُوِيَ وَأَصَحُّ مَا فِي ذٰلِكَ قَوْلُ أُخْتِهِ تَرْثِيهِ:

عَدَدْنَا لَهُ سِتًّا وَعِشْرِينَ حِجَّةً ... فَلَمَّا تَوَفَّاهَا ٱسْتَوَى سَيِّدًا ضَخْمَا
فُجِعْنَا بِهِ لَمَّا رَجَوْنَا إِيَابَهُ ... عَلَى خَيْرِ حَالٍ لَا وَلِيدًا وَلَا قَحْمَا

أَنْشَدَهُ ٱلْمُبَرِّدُ وَٱلْقَحْمُ ٱلْمُتَنَاهِي فِي ٱلسِّنِّ. وَعُبَيْدٌ قَلِيلُ ٱلشِّعْرِ فِي أَيْدِي ٱلنَّاسِ عَلَى قِدَمِ ذِكْرِهِ وَعِظَمِ شُهْرَتِهِ وَطُولِ عُمْرِهِ يُقَالُ إِنَّهُ عَاشَ ثَلَاثَمِائَةِ سَنَةٍ وَكَذٰلِكَ أَبُو دُؤَادٍ. وَلِعَلْقَمَةَ ٱلْفَحْلِ ثَلَاثُ قَصَائِدَ مَشْهُورَاتٌ إِحْدَاهَا قَوْلُهُ:

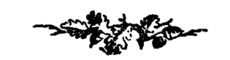
(ذَهَبْتَ مِنَ ٱلْهِجْرَانِ فِي كُلِّ مَذْهَبِ) وَٱلثَّانِيَةُ قَوْلُهُ (طَحَا بِكَ قَلْبٌ

فِي ٱلْحِسَانِ طَرُوبُ) وَٱلثَّالِثَةُ قَوْلُهُ (هَلْ مَا عَلِمْتَ وَمَا ٱسْتُودِعْتَ مَكْتُومُ)

وَامَّا عَدِيُّ بْنُ زَيْدٍ فَمَشْهُورَاتُهُ ارْبَعٌ قَوْلُهُ: (ارَوَاحٌ مُوَدِّعٌ امْ بُكُورُ) وَقَوْلُهُ (اَتَعْرِفُ رَسْمَ ٱلدَّارِ مِنْ أُمِّ مَعْبَدِ) وَقَوْلُهُ (لَيْسَ شَيْءٌ عَلَى ٱلْمَنُونِ بِبَاقِ) وَقَوْلُهُ:

لَمْ ارَ مِثْلَ ٱلْفِتْيَانِ فِي غَيَرِ ٱلْأَيَّامِ يَنْسَوْنَ مَا عَوَاقِبُهَا

وَقَالَ ابُو عَمْرٍو: عَدِيٌّ فِي ٱلشُّعَرَاءِ مِثْلُ سُهَيْلٍ فِي ٱلنُّجُومِ يُعَارِضُهَا وَلَا يَجْرِي مَعَهَا. هٰؤُلَاءِ اشْعَارُهُمْ كَثِيرَةٌ فِي ذَاتِهَا قَلِيلَةٌ فِي ايْدِي ٱلنَّاسِ ذَهَبَتْ بِذَهَابِ ٱلرُّوَاةِ ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَهَا • وَمِنَ ٱلْمُقِلِّينَ سَلَامَةُ بْنُ جَنْدَلٍ وَحُصَيْنُ بْنُ ٱلْحُمَامِ ٱلْمُرِّيُّ وَٱلْمُتَلَمِّسُ وَٱلْمُسَيَّبُ بْنُ عَلَسٍ كُلُّ اشْعَارِهِمْ قَلِيلٌ فِي ذَاتِهِ جَيِّدُ ٱلْجُمْلَةِ. وَيُرْوَى عَنْ ابِي عُبَيْدَةَ انَّهُ قَالَ: اتَّفَقُوا انَّ اشْعَرَ ٱلْمُقِلِّينَ فِي ٱلْجَاهِلِيَّةِ ثَلَاثَةٌ ٱلْمُتَلَمِّسُ وَٱلْمُسَيَّبُ بْنُ عَلَسٍ وَحُصَيْنُ بْنُ ٱلْحُمَامِ ٱلْمُرِّيُّ. وَامَّا اصْحَابُ ٱلْوَاحِدَةِ فَطَرَفَةُ اوَّلُهُمْ وَمِنْهُمْ عَنْتَرَةُ وَٱلْحٰرِثُ ٱبْنُ حِلِّزَةَ وَعَمْرُو بْنُ كُلْثُومٍ اصْحَابُ ٱلْمُعَلَّقَاتِ ٱلْمَشْهُورَاتِ وَعَمْرُو بْنُ مَعْدِي كَرِبَ وَٱلْاشْعَرُ بْنُ حُمْرَانَ ٱلْجُعْفِيُّ وَسُوَيْدُ بْنُ ابِي كَاهِلٍ وَٱلْاسْوَدُ بْنُ يَعْفُرٍ وَكَانَ ٱمْرُؤُ ٱلْقَيْسِ مُقِلًّا كَثِيرَ ٱلْمَعَانِي وَٱلتَّصَرُّفِ لَا يَصِحُّ لَهُ إِلَّا نَيِّفٌ وَعِشْرُونَ شِعْرًا بَيْنَ طَوِيلٍ وَقِطْعَةٍ



البحث الثالث

في المغلَّبين من الشعراء

(من الكتاب نفسهِ)

وَامَّا ٱلْمُغَلَّبُونَ فمِنهُمْ نَابِغَةُ بْنُ جَعْدَةَ وَمَعْنَى ٱلْمُغَلَّبِ ٱلَّذِي لَا زَالَ مَغْلُوبًا قَالَ أمْرُؤُ ٱلْقَيْسِ:

فَإِنَّكَ لَمْ يَفْخَرْ عَلَيْكَ كَفَاخِرٍ ضَعِيفٍ وَلَمْ يَغْلِبْكَ مِثْلُ مُغَلَّبِ

يَعْنِي إِذَا قَدَرَ لَمْ يُبْقِ وَقَدْ غَلَبَ عَلَى ٱلْجَعْدِيِّ اوسُ بْنُ مَغْرَاء وَلَيْلَى ٱلْأَخْيَلِيَّةُ وَغَيْرُهُمَا. وَقِيلَ إِنَّ مَوْتَ ٱلْجَعْدِيِّ كَانَ بِسَبَبِ لَيْلَى ٱلْأَخْيَلِيَّةِ فَرَّ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهَا فَمَاتَ فِي ٱلطَّرِيقِ مُسَافِرًا. وَٱلْمُغَلَّبُون ٱلزِّبْرِقَانُ غَلَبَهُ عَمْرُو بْنُ ٱلْأَهْتَمِ وَغَلَبَهُ ٱلْمُخَبَّلُ ٱلسَّعْدِيُّ وَغَلَبَهُ ٱلْحُطَيْئَةُ وَقَالَ يُونُسُ بْنُ حَبِيبٍ كَانَ ٱلْبَعِيثُ مُغَلَّبًا فِي ٱلْخُطَبِ

قَالَ ٱبْنُ رَشِيقٍ فِي ٱلْعُمْدَةِ فِي بَابِ ٱلْقُدَمَاءِ وَٱلْمُحْدَثِينَ: كُلُّ قَدِيمٍ مِنَ ٱلشُّعَرَاءِ فَهُوَ مُحْدَثٌ فِي زَمَانِهِ بِٱلْإِضَافَةِ إِلَى مَنْ كَانَ قَبْلَهُ وَكَانَ أَبُو عَمْرٍو بْنُ ٱلْعَلَاءِ يَقُولُ لَقَدْ حَسُنَ هٰذَا ٱلْمُوَلَّدُ حَتَّى هَمَمْتُ أَنْ آمُرَ صِبْيَانَنَا بِرِوَايَتِهِ يَعْنِي بِذٰلِكَ شِعْرَ جَرِيرٍ وَٱلْفَرَزْدَقِ فَجَعَلَهُ مُوَلَّدًا بِٱلْإِضَافَةِ إِلَى شِعْرِ ٱلْجَاهِلِيَّةِ وَٱلْمُخَضْرَمِينَ وَكَانَ لَا يَعُدُّ ٱلشِّعْرَ إِلَّا مَا كَانَ لِلْمُتَقَدِّمِينَ قَالَ ٱلْأَصْمَعِيُّ: جَلَسْتُ إِلَيْهِ عَشْرَ حِجَجٍ فَمَا سَمِعْتُهُ يَحْتَجُّ بِبَيْتٍ إِسْلَامِيٍّ وَسُئِلَ عَنِ ٱلْمُوَلَّدِينَ فَقَالَ: مَا كَانَ مِنْ حَسَنٍ فَقَدْ سُبِقُوا إِلَيْهِ وَمَا كَانَ مِنْ

قبيحٍ فهو من عندهم ليس النمط واحدًا. هذا مذهب ابي عمرو وأصحابه كالأصمعي وابن الاعرابي اعني ان كل واحد منهم يذهب في اهل عصره هذا المذهب ويقدم من قبلهم وليس ذلك لشيء الا لحاجتهم في الشعر الى الشاهد وقلة ثقتهم بما يأتي به المولدون فاما ابن قتيبة فقال: لم يقصر الله الشعر والعلم والبلاغة على زمن دون زمن ولا خص قوما دون قوم بل جعل ذلك مشتركا مقسوما بين عباده في كل دهر وجعل كل قديم حديثا في عصره. ثم قال ابن رشيق في باب آخر: طبقات الشعراء اربع جاهلي قديم ومخضرم وهو الذي ادرك الجاهلية والاسلامي ومحدث ثم صار المحدثون طبقات اولى وثانية على التدريج هكذا في الهبوط الى وقتنا هذا فليعلم المتأخر مقدار ما بقي له من الشعر متصفحا اشعار من قبله لينظر كم بين المخضرم والجاهلي وبين الاسلامي والمخضرم وان للمحدث الاول فضلا عمن بعده في المنزلة. ففي الجاهلية والاسلاميين من ذهب بكل ملاحة ورشاقة وسبق الى كل طلاوة ولباقة (قال) ابو الحسن الاخفش: يقال ماء خضرم اذا تناهى في الكثرة والسعة فمنه سمي الرجل الذي شهد الجاهلية والاسلام مخضرما كأنه استوفى الامرين (قال) ويقال: اذن مخضرمة اذا كانت مقطوعة فكأنه انقطع عن الجاهلية الى الاسلام. (وحكى) ابن قتيبة عن الاصمعي قال: اسلم قوم في

ٱلْجَاهِلِيَّةِ عَلَى إِبِلٍ قَطَعُوا آذَانَهَا فَسُمِّيَ كُلُّ مَنْ أَدْرَكَ ٱلْجَاهِلِيَّةَ وَٱلْإِسْلَامَ مُخَضْرَمًا وَزَعَمَ أَنَّهُ لَا يَكُونُ مُخَضْرَمًا حَتَّى يَكُونَ إِسْلَامُهُ بَعْدَ وَفَاةِ ٱلرَّسُولِ وَقَدْ أَدْرَكَهُ كَبِيرًا فَلَمْ يُسْلِمْ (قَالَ) ٱبْنُ رَشِيقٍ: وَهٰذَا عِنْدِي خَطَأٌ لِأَنَّ ٱلنَّابِغَةَ ٱلْجَعْدِيَّ وَلَبِيدًا قَدْ وَقَعَ عَلَيْهِمَا هٰذَا ٱلِٱسْمُ فَأَمَّا عَلِيُّ بْنُ ٱلْحَسَنِ كُرَاعٌ فَقَدْ حَكَى: شَاعِرٌ مُخْضَرَمٌ بِحَاءٍ غَيْرِ مُعْجَمَةٍ مَأْخُوذٌ مِنَ ٱلْحَضْرَمَةِ وَهِيَ ٱلْخَلْطَةُ لِأَنَّهُ خَلَطَ ٱلْجَاهِلِيَّةَ وَٱلْإِسْلَامَ وَقَالُوا: ٱلشُّعَرَاءُ أَرْبَعَةٌ: شَاعِرٌ خِنْذِيذٌ وَهُوَ ٱلَّذِي يَجْمَعُ إِلَى جُودَةِ شِعْرِهِ رِوَايَةَ ٱلْجَيِّدِ مِنْ شِعْرِ غَيْرِهِ. وَسُئِلَ رُؤْبَةُ عَنِ ٱلْفُحُولِ فَقَالَ: هُمُ ٱلرُّوَاةُ. وَشَاعِرٌ مُفْلِقٌ وَهُوَ ٱلَّذِي لَا رِوَايَةَ لَهُ إِلَّا أَنَّهُ مُجَوِّدٌ كَٱلْخِنْذِيذِ فِي شِعْرِهِ. وَشَاعِرٌ فَقَطْ وَهُوَ فَوْقَ ٱلرَّدِيءِ بِدَرَجَةٍ وَشُعْرُورٌ وَهُوَ لَا شَيْءَ. قَالَ بَعْضُ ٱلشُّعَرَاءِ:

يَا رَابِعَ ٱلشُّعَرَاءِ كَيْفَ هَجَوْتَنِي ... وَزَعَمْتَ أَنِّي مُفْحَمٌ لَا أَنْطِقُ

وَقِيلَ بَلْ هُمْ شَاعِرٌ مُفْلِقٌ مُطْبِقٌ وَشُوَيْعِرٌ وَشُعْرُورٌ وَٱلْمُفْلِقُ ٱلَّذِي يَأْتِي فِي شِعْرِهِ بِٱلْفَلَقِ وَهُوَ ٱلْعَجَبُ وَقِيلَ ٱلدَّاهِيَةُ (قَالَ ٱلْأَصْمَعِيُّ) ٱلشُّوَيْعِرُ حُمْرَانُ بْنُ أَبِي حُمْرَانَ سَمَّاهُ بِذٰلِكَ ٱمْرُؤُ ٱلْقَيْسِ وَمِثْلُ عَبْدِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْمَعْرُوفِ بِٱلشُّوَيْعِرِ. قَالَ ٱلْجَاحِظُ: وَٱلشَّاعِرُ عَبْدُ يَالِيلَ مِنْ بَنِي سَعْدِ بْنِ لَيْثٍ وَقِيلَ ٱسْمُهُ رَبِيعَةُ بْنُ عُثْمَانَ وَقَالَ بَعْضُهُمْ شَاعِرٌ وَشُوَيْعِرٌ وَشُعْرُورٌ. قَالَ ٱلْعَبْدِيُّ فِي شَاعِرٍ يُدْعَى ٱلْمُفَوَّفَ مِنْ بَنِي ضَبَّةَ ثُمَّ مِنْ بَنِي حُمَيْسٍ:

أَلَا تَنْهَى سَرَاةُ بَنِي حُمَيْسٍ ... شُوَيْعِرَهَا فُوَيْلِيَةَ ٱلْأَفَاعِي

فَسَمَّاهُ شُوَيعِرًا. وَفَالِيَةُ ٱلْأَفَاعِي دُوَيْبَّةٌ فَوقَ ٱلْخُنفَساءِ فَصغَّرَها تحقِيرًا بِهِ وَزَعَمَ ٱلحَاتِمِيُّ انَّ ٱلنَّابِغَةَ سُئِلَ: مَنْ اشعَرُ ٱلنَّاسِ فقَالَ من اسْتُجِيدَ جَيِّدُهُ وَاضْحَكَ رَدِيئُهُ كَانَ مِنْ سَفِلَةِ ٱلشُّعَرَاءِ اِلَّا انْ يَكُونَ ذٰلِكَ فِي ٱلهِجاءِ خَاصَّةً وَقَالَ ٱلْحُطَيْئَةُ:

ٱلشِّعرُ صَعبٌ وَطَوِيلٌ سُلَّمُهُ وَٱلشِّعرُ لَا يَسْطِيعُهُ مَنْ يَظْلِمُهْ
اِذَا ارْتَقَى فِيهِ ٱلَّذِي لَا يَعْلَمُهُ زَلَّتْ بِهِ اِلَى ٱلْحَضِيضِ قَدَمُهْ
يُرِيدُ اَنْ يُعْرِبَهُ فَيُعْجِمُهْ

وَقَالَ بَعضُهُمْ:

ٱلشُّعَرَاءُ فَٱعْلَمَنَّ اَربَعَهْ فَشَاعِرٌ لَا يُرْتَجَى لِمَنْفَعَهْ
وَشَاعِرٌ يُنْشِدُ وَسْطَ ٱلْمَجْمَعَهْ وَشَاعِرٌ آخَرُ لَا يُجْرَى مَعَهْ
وَشَاعِرٌ يُقَالُ خَمِّرْ فِي دَعَهْ

قَالَ ٱبْنُ رَشِيقٍ: وَاِنَّمَا سُمِّيَ ٱلشَّاعِرُ شَاعِرًا لِاَنَّهُ يَشْعُرُ بِمَا لَا يَشْعُرُ بِهِ غَيْرُهُ. قَالَ ٱبْنُ خَالَوَيْهِ فِي شَرْحِ ٱلدُّرَيْدِيَّةِ يُقَالُ: اَنْشَدَتُهُ مُقَلَّدَاتِ ٱلشُّعَرَاءِ اَيْ اَبْيَاتَهُمُ ٱلطَّنَّانَةَ ٱلْمُسْتَحْسَنَةَ وَيَقُولُ آخَرُونَ: اِنَّ ٱلْمُقَلَّدَ مِنَ ٱلشِّعْرِ مَا كَانَ ٱسْمُ ٱلْمَمْدُوحِ فِيهِ مَذْكُورًا فِي قَافِيَتِهِ وَيُقَالُ: هٰذَا ٱلْبَيْتُ عُقْرُ هٰذِهِ ٱلْقَصِيدَةِ اَيْ اَجْوَدُ بَيْتٍ فِيهَا كَمَا يُقَالُ: هٰذَا بَيْتٌ طَنَّانٌ. اه. وَفِي ٱلْمَقْصُورِ وَٱلْمَمْدُودِ لِلقَالِي: قَالَ اَبُو عُبَيْدَةَ فِي قَوْلِ ٱلنَّابِغَةِ ٱلذُّبْيَانِيِّ:

يَصُدُّ ٱلشَّاعِرُ ٱلثُّنْيَانُ عَنِّي صُدُودَ ٱلْبَكْرِ عَنْ قَرْمِ ٱلْهِجَانِ

قَالَ ٱلثُّنْيَانُ ٱلَّذِي هُوَ شَاعِرٌ وَاَبُوهُ شَاعِرٌ كَكَعْبِ بْنِ زُهَيْرٍ

وَعَبدِ ٱلرَّحمانِ بن حَسَّانَ ورُؤْبَةَ بنِ ٱلعجاجِ. وَقالَ ابُو عَمرٍو ٱلشَّيبَانِيُّ ٱلثُّنيَانُ ٱلَّذِي يُستَثنى فيُقالُ مَا فِي ٱلقومِ اشعَرُ مِنْ فُـلانٍ إِلَّا فُلانٌ فَفُلانٌ ٱلمُستثنى هُوَ ٱلأفضَلُ ٱلأشعَرُ. وَقالَ ٱلأَصمَعِيُّ ٱلثُّنيَانُ ٱلَّذِي تُثنَى عَلَيهِ ٱلخَناصِرُ فِي ٱلعَـدَدِ لِأَنَّهُ اوَّلُ وَقالَ ٱبنُ هِشَامٍ هُوَ ٱلَّذِي يُستَثنَى مِنَ ٱلشُّعَراءِ لِأَنَّهُ دُونَهُم. وَقالَ غَـيرُهُ ٱلثُّنيَانُ ٱلضَّعِيفُ. وَقالَ ٱلقَالِي : ٱلثُّنيَانُ عِنـدِي ٱلَّذِي يُستَثنَى مِنَ ٱلقَومِ رَفِيعًا كَانَ اوْ ضَعِيفًا فيُقَالُ لِلدُّونِ وَٱلضَّعِيفِ ثُنيَـانٌ وَلِلرَّفِيعِ وَٱلشَّاعِرِ ثِنيَانٌ (وَقَالَ ٱلقَالِي) فِي ٱلمَقصُورِ وَٱلمَمـدُودِ. حَدَّثَنا ابُو بَـكرِ بنِ دُرَيدٍ قَالَ. ذَكَرَ ابُو عُبَيدَةَ وَاحسِبُ ٱلأَصمَعِيَّ قَدْ ذَكَرَهُ ايضًا قَالَ. لَقِيتِ ٱلسِّعـلَاةُ حَسَّانَ بنَ ثَابِتٍ فِي بَعضِ طُرُقَاتِ ٱلمَدِينَةِ وَهُوَ غُلَامٌ قَبلَ انْ يَقُولَ ٱلشِّعرَ فَبَرَكَتْ عَلَى صَدرِهِ وَقَالَتْ انتَ ٱلَّذِي يَرجُو قَومُكَ انْ تَـكُونَ شَاعِرَهُمْ قَالَ : نَعَمْ . قَالَتْ. فَانشِدْنِي ثَلَاثَةَ ابيَاتٍ عَلَى رَوِيٍّ وَاحِدٍ وَإِلَّا قَتَلتُكَ فَقَالَ :

إِذَا مَـا تَرَعرَعَ فِينَـا ٱلغُـلَا ... مُ فَمَا إِنْ يُقَالُ لَهُ مَنْ هُوَهْ

إِذَا لَمْ يَسُدْ قَبـلَ شَـدِّ ٱلْإِزَا ... رِ فَذَلِكَ فِينَـا ٱلَّـذِي لَا هُـوَهْ

وَلِي صَاحِبٌ مِنْ بَنِي ٱلشَّيصَبَا ... نِ فَحِينًا اقُـولُ وَحِينًا هُوَهْ

فَخَلَّتْ سَبِيلَهُ وَقَالَتْ : اوْلَى لَكَ قَالَ ٱلأَصمَعِيُّ : يُقَالُ ٱلسِّعلَاةُ سَاحِرَةُ ٱلجِنِّ

(فَائِدَةٌ) قَالَ ابُو إِسحَاقَ ٱلبَطلَيُوسِيُّ . وَقَـدْ انشَدَ قَولَ ٱلفَرَزدَقِ :

وَمَا مِثْلُهُ فِي ٱلنَّاسِ إِلَّا مُمَلَّكًا   أَبُو أُمِّهِ حَيٌّ أَبُوهُ يُقَارِبُهْ

هٰذَا وَأَمْثَالُهُ وَإِنْ كَانَ جَائِزًا فِي ٱلْإِعْرَابِ. فَلَيْسَ يَحْسُنُ فِي ٱلشِّعْرِ عِنْدَ ذَوِي ٱلْأَلْبَابِ. لِمَا فِيهِ مِنْ وَهْيِ ٱلنَّسْجِ وَٱلِٱضْطِرَابِ. وَٱلشِّعْرُ إِذَا أُحْوِجَ إِلَى شَرْحٍ لَمْ يُعَدَّ فِي فَاخِرِ ٱلْمَسَاقِ. وَلَا قَامَ فِي ٱلْإِحْسَانِ عَلَى سَاقٍ. وَلَا عَذُبَ فِي ٱلْمَذَاقِ. فَهُوَ مَكْرُوهٌ عِنْدَ ٱلْحُذَّاقِ. وَيَحْتَاجُ ٱلشِّعْرُ إِلَى أَنْ يَسْبِقَ مَعْنَاهُ لَفْظَهُ. فَتَسْتَلِذَّ ٱلنُّفُوسُ رِوَايَتَهُ وَحِفْظَهُ. وَأَوَّلُ مَا يَنْبَغِي لِلشَّاعِرِ وَٱلْمُتَكَلِّمِ. بَيَانُ مَا يُحَاوِلُهُ لِلْعَالِمِ وَٱلْمُتَعَلِّمِ. فَإِنْ تَكَلَّمَ بِمَقْلُوبٍ. مَجَّتْهُ ٱلْأَسْمَاعُ وَٱلْقُلُوبُ. وَلَمْ يَتَحَصَّلْ مِنْهُ ٱلْغَرَضُ ٱلْمَطْلُوبُ. فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ أَمَا تَرَى فِي ٱلْأَشْعَارِ أَمْثَالَ هٰذَا كَقَوْلِهِ:

لَهَا مُقْلَتَا أَدْمَاءَ طَلَّ خَمِيلَةٍ   مِنَ ٱلْوَحْشِ مَا يَنْفَكُّ يَرْعَى عَرَارَهَا

قِيلَ لَهُ وَهٰذَا أَيْضًا قَدْ أَحَالَ وَمَنْ تَكَلَّفَ مِثْلَ هٰذَا لَمْ يُخَفِّفْ عَنْ نَفْسِهِ ٱلْكُلْفَةَ وَٱلْمَلَامَ. وَتَعَرَّضَ لِأَنْ يُلَامَ. وَتَرَكَ بَيِّنَ ٱلْكَلَامِ. وَإِنَّمَا يَتَفَاضَلُ ٱلْكَلَامُ وَٱلشِّعْرُ بِحُسْنِ ٱلْعِبَارَةِ وَٱلدِّيبَاجَةِ. وَرَوْنَقِ ٱلْفَصَاحَةِ حَتَّى تَكُونَ أَلْفَاظُهَا كَٱلزُّجَاجَةِ. وَإِلَّا فَٱلْمَعَانِي مُعَرَّضَةٌ لِكُلِّ جِيلٍ مِنْ أَهْلِ ٱلتَّوْحِيدِ وَٱلشِّرْكِ حَتَّى لِلزَّنْجِ وَٱلتَّتَرِ وَٱلتُّرْكِ لٰكِنَّهُمْ قَصُرَتْ بِهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ عَنْ بُلُوغِ مَا رَامُوهُ مِنْ أَرَبٍ. قَدْ تَهَيَّأَ عَلَى أَلْسِنَةِ ٱلْعَرَبِ. وَأَقَلُّ مَا يَجِبُ عَلَى ٱلْمُتَكَلِّمِ ٱلْبَيَانُ لِمُخَاطَبِهِ. وَإِلَّا كَانَ كَخَابِطِ ٱللَّيْلِ وَحَاطِبِهِ. يُخَاطِبُ ٱلْعَرَبِيَّ بِٱلْعَجَمِيَّةِ وَيُخَاطِبُ ٱلْعَجَمِيَّ بِٱلْعَرَبِيَّةِ. وَصِنَاعَةُ ٱلشِّعْرِ أَشَدُّ

حصرًا. وَامَدُّ عصرًا وَذٰلِكَ انَّ الشَّاعِرَ اِنَّمَا هُوَ رَاغِبٌ رَاهِبٌ اَوْ مُعَاتِبٌ بَيْنَ يَدَيْ مَلِكٍ فَاِنْ حَكَى عَنْ نَفْسِهِ وَاِلَّا كَانَ جَدِيرًا بِاَنْ يَهْلِكَ فَمِنْ ذٰلِكَ مَا رَوَاهُ ٱبْنُ جِنِّيٍّ قَالَ: حَدَّثَنَا اَحْمَدُ بْنُ زَكَرِيَّاءَ حدَّثنا اَبو عَبْدِ ٱللهِ ٱلغَلَابِيُّ حَدَّثَنَا مَهْدِيُّ بْنُ سَابِقٍ قَالَ: دَخَلَ ٱلنَّابِغَةُ عَلَى ٱلنُّعْمَانِ بْنِ ٱلْمُنْذِرِ فَقَالَ:

تَخِفُّ ٱلْاَرْضُ اِنْ تَفْقِدْكَ يَوْمًا ... وَتَبْقَى مَا بَقِيتَ بِهَا ثَقِيلَا

فَنَظَرَ اِلَيْهِ ٱلنُّعْمَانُ نَظَرَ غَضْبَانَ . وَكَانَ كَعْبُ بْنُ زُهَيْرٍ حَاضِرًا فَقَالَ: اَصْلَحَ ٱللهُ ٱلْمَلِكَ اِنَّ مَعَ هٰذَا بَيْتًا ضَلَّ عَنْهُ هُوَ

لِاَنَّكَ مَوْضِعُ ٱلْقِسْطَاسِ مِنْهَا ... فَتَمْنَعُ جَانِبَيْهَا اَنْ تَمِيلَا

فَضَحِكَ ٱلنُّعْمَانُ وَاَمَرَ لَهُمَا بِجَائِزَتَيْنِ فَلَوْلَا كَعْبٌ كَانَ قَدْ هَلَكَ . فَاِنْ كَانَ ٱلشَّاعِرُ مُخَاطِبًا مَنْ دُونَ ٱلْمَلِكِ ٱلْاَشَمِّ بِمَا لَا يَفْهَمُ وَكَانَ رَاغِبًا فِي دِرْهَمٍ كَانَ ذٰلِكَ سَبَبًا لِبُطْلَانِ حَاجَتِهِ وَٱسْتِهْجَانِ شِعْرِهِ وَتَحْقِيرِ اَمْرِهِ وَٱلْقُدَمَاءُ فِي هٰذَا اَعْذَرُ لِاَنَّهَا لُغَتُهُمْ



الفصل الثالث

في فنون الشعر

البحث الاول

في المطبوع والمصنوع

(من كتاب العمدة لابن رشيق)

وَمِنَ ٱلشِّعْرِ مَطْبُوعٌ وَمَصْنُوعٌ فَٱلْمَطْبُوعُ هُوَ ٱلْأَصْلُ وُضِعَ عَلَيْهِ اَوَّلًا وَعَلَيْهِ ٱلْمَدَارُ وَٱلْمَصْنُوعُ وَإِنْ وَقَعَ عَلَيْهِ هٰذَا ٱلِٱسْمُ فَلَيْسَ مُتَكَلَّفًا تَكَلُّفَ اَشْعَارِ ٱلْمُوَلَّدِينَ. لٰكِنْ وَقَعَ فِي هٰذَا ٱلنَّوْعِ ٱلَّذِي سَمَّوْهُ صَنْعَةً مِنْ غَيْرِ قَصْدٍ وَلَا تَعَمُّلٍ لٰكِنْ بِطِبَاعِ ٱلْقَوْمِ عَنُوا وَٱسْتَحْسَنُوهُ وَمَالُوا اِلَيْهِ بَعْضَ ٱلْمَيْلِ بَعْدَ اَنْ عَرَفُوا وَجْهَ ٱخْتِيَارِهِ عَلَى غَيْرِهِ حَتَّى صَنَعَ زُهَيْرٌ ٱلْحَوْلِيَّاتِ عَلَى ٱلتَّنْقِيحِ وَٱلتَّثْقِيفِ يَصْنَعُ ٱلْقَصِيدَةَ ثُمَّ يُكَرِّرُ نَظَرَهُ بِهَا خَوْفًا مِنَ ٱلتَّعَقُّبِ بَعْدَ اَنْ يَكُونَ قَدْ فَرَغَ مِنْ عَمَلِهَا فِي سَاعَةٍ اَوْ لَيْلَةٍ. وَرُبَّمَا قَصَدَ اِقَامَةَ نَشَاطِهِ فَتَبَاطَأَ عَمَلُهُ لِذٰلِكَ. وَٱلْعَرَبُ لَا تَنْظُرُ فِي اَعْطَافِ شِعْرِهَا بِاَنْ تُجَنِّسَ اَوْ تُطَابِقَ اَوْ تُقَابِلَ فَتَتْرُكَ لَفْظَةً لِلَفْظَةٍ اَوْ مَعْنًى لِمَعْنًى كَمَا يَفْعَلُ ٱلْمُحْدَثُونَ وَلٰكِنْ نَظَرُهَا فِي فَصَاحَةِ ٱلْكَلَامِ اَوْ جَزَالَتِهِ

وَبسطِ ٱلْمعنَى اَوْ اِبرَازِهِ وَاِتقَانِ بِنْيَةِ ٱلشِعْرِ وَاِحكَامِ ٱلقَافِيَةِ وَتَلَاحُمِ ٱلكَلَامِ بَعضِهِ بِبَعضٍ حَتَّى عَدُّوا مِنْ فَضلِ صَنْعَةِ ٱلْحُطَيئَةِ حَتَّى نَسقَهُ ٱلكَلَامَ بَعضَهُ عَلَى بَعضٍ:

فَلَا وَاَبِيكَ مَا ظَلَمَتْ قُرَيعٌ ... بِاَنْ يَبنُوا ٱلْمَكَارِمَ حَيثُ شَاؤُوا

وَلا وَاَبِيكَ مَا ظَلَمَتْ قُرَيعٌ ... وَلَا عَنُفُوا بِذَاكَ وَلَا اَسَاؤُوا

فَاِنَّ ٱلْجَارَ مِثلَ ٱلضَّيفِ يَغدُو ... لِوُجهَتِهِ وَاِنْ طَالَ ٱلثَّوَاءُ

وَاِنِّي قَدْ عَلِقْتُ بِحَبلِ قَومٍ ... اَعَانَهُمُ عَلَى ٱلْحَسَبِ ٱلثَّرَاءُ

وَٱستَظرَفُوا مَا جَاءَ مِنَ ٱلصَّنعَةِ نَحوَ ٱلبَيتِ وَٱلبَيتَيْنِ فِي ٱلقَصِيدَةِ بَيْنَ ٱلقَصَائِدِ يُستَدَلُّ بِذَلِكَ عَلَى جُودَةِ شِعْرِ ٱلرَّجُلِ وَصِدْقِ حِسِّهِ وَصَفَاءِ خَاطِرِهِ. وَاَمَّا اِذَا كَثُرَ ذَلِكَ فَهُوَ عَيبٌ يَشهَدُ بِخِلَافِ ٱلطَّبعِ وَاِيثَارِ ٱلكُلفَةِ وَلَيسَ يَتَّجِهُ ٱلبَتَّةَ اَنْ يَأْتِيَ مِنَ ٱلشَّاعِرِ قَصِيدَةٌ كُلُّهَا اَوْ اَكثَرُهَا مُتَصَنَّعٌ مِنْ غَيرِ قَصدٍ كَٱلَّذِي يَأْتِي مِنْ اَشعَارِ حَبِيبٍ وَٱلبُحتُرِيِّ وَغَيرِهِمَا وَقَدْ كَانَا يَطلُبَانِ ٱلصَّنعَةَ وَيُولَعَانِ بِهَا. فَاَمَّا حَبِيبٌ فَيَذهَبُ اِلَى حُزُونَةِ ٱللَّفظِ وَمَا يَمْلَأُ ٱلاَسمَاعَ مِنْهُ مَعَ ٱلتَّصنِيعِ ٱلمُحكَمِ طَوعًا وَكَرْهًا يَأْتِي ٱلاَشيَاءَ مِنْ بُعدٍ وَيَطلُبُهَا بِكُلفَةٍ وَيَأْخُذُهَا بِقُوَّةٍ. وَاَمَّا ٱلبُحتُرِيُّ فَكَانَ اَملَحَ وَاَحسَنَ مَذهَبًا فِي ٱلكَلَامِ يَسلُكُ مِنْهُ دَمَاثَةً وَسُهُولًا مَعَ اِحكَامِ ٱلتَّصَنُّعِ وَقُربِ ٱلمَأْخَذِ لَا يَظهَرُ عَلَيهِ كُلفَةٌ وَلَا مَشَقَّةٌ. وَمَا اَعلَمُ شَاعِرًا اَكمَلَ وَلا اَملَحَ تَصَنُّعًا مِنْ عَبدِ ٱللهِ بنِ ٱلمُعتَزِّ فَاِنَّ صَنعَتَهُ خَفِيَّةٌ لَا تَكَادُ تَظهَرُ فِي بَعضِ ٱلمَوَاضِعِ اِلَّا لِلبَصِيرِ بِدَقَائِقِ ٱلشِّعرِ وَهُوَ عِندِي

أنظف أصحابه شعرًا وأكثرهم بديعًا وأفتنانًا وأقربهم قوافي وأوزانًا ولا أرى وراءه غايةً لطالبها في هذا الباب. غير أنّا لا نجد المبتدئ في طلب التصنيع ومزاولة الكلام أكثر انتفاعًا منه بمطالعة شعر حبيب وشعر مسلم بن الوليد لما فيهما من الفضيلة لمبتغيها ولأنّهما طرقا إلى الصنعة ومعرفتها طريقًا سابلةً وكثّرا منها في أشعارهما تكثيرًا سهّلها عند الناس وجسّرهم عليها. على أنّ مسلمًا أسهل شعرًا من حبيب وأقلّ تكلّفًا وهو أوّل من تكلّف البديع من المولّدين وأخذ نفسه بالصنعة وكثّر منها ولم يكن في الأشعار المحدثة قبل مسلم إلا النبذ اليسيرة. وهو زهير المولّدين كان يبطئ في صنعته ويجيدها. وقالوا: أوّل من فتق البديع من المحدثين بشّار بن برد وهو ساقة العرب وآخر من يُستشهد بشعره ثمّ اتّبعهما مقتديًا بهما كلثوم بن عمرو العتّابي ومنصور النمري ومسلم بن الوليد وأبو نواس واتّبع هؤلاء أبو تمّام والبحتري وعبد الله بن المعتزّ فانتهى علم البديع والصنعة وختم به. وشبّه قوم أبا نواس بالنابغة لما اجتمع له من الجزالة مع الرشاقة وحسن الديباجة والمعرفة بمدح الملوك. وأمّا بشّار فقد شبّهوه بامرئ القيس لتقدّمه على المولّدين وأخذهم عنه. ومن كلامهم: بشّار أبو المحدثين. وسمعنا أبا عبد الله غير مرّة يقول: إنّما سُمّي الأعشى صنّاجة العرب لأنّه أوّل من ذكر الصنج في شعره. قال ويقال بل سُمّي صنّاجة لقوّة طبعه وحلية شعره يخيّل إليك إذا

أنشدته أن آخر ينشد معك . ومثله بشار بن برد تنشد أقصر شعره عروضا وألينه كلاما فتجد له في نفسك هزة وجلبة من قوة الطبع

انقضى كلام عبد الله ورجعنا الى القول في الطبع والتصنيع .
فاذا كان الشاعر مصنعا فان جيده من سائر شعره كأبي تمام فصار محصورا معروفا بأعيانه فاذا كان الطبع غالبا عليه لم يبن جيده كل البينونة وكان قريبا من قريب كالبحتري ومن شاكله وقد نص ابن الرومي في بعض تسطيراته على محمد بن أبي حكيمة الشاعر حين عاب عليه قوله في الفرس من قصيدة رثى بها عبد الله بن طاهر :

فله شهامة سودنيق باكر وحوافر حفر ورأس صنتع

وذكر قول أبي تمام (بحوافر حفر وصلب صلب) فحفل به واعتذر له وخرج التخاريج الحسان وذكر أن الحافر الوأب والحافر المقعب ونحوهما أشرف في اللفظ من الحافر الاحفر الا أن أبا تمام كان يطلب المعنى ولا يبالي باللفظ حتى لو تم له المعنى بلفظة نبطية لأتى بها . والذي أراه أن ابن الرومي أبصر بأبي تمام وغيره منا وأن التسليم له والرجوع اليه أحزم . غير أني لو شئت أن أقول ولست رادا عليه ولا معترضا بين يديه أن المعنى الذي أراده وأشار اليه من جهة أبي تمام انما هو معنى الصنعة مثل التطبيق والتجنيس وما أشبههما لا معنى الكلام الذي هو روحه . وأما اللفظ الذي ذكر أنه لا يبالي به انما هو فصيح

الكلام ومستعمله ويدلك على صحة ما ادعيته على ابن الرومي قوله ان الحافر الوأب والمقعب اشرف في اللفظ من الحافر الاخفر . فكلامه راجع الى ما قلته في ابي تمام غير مخالف له وان كان في الظاهر على خلافه لساغ ذلك الا ان اكثر الناس على ما قال وانما هو هذا معرض للكلام لا مخالفة . وقال الجاحظ : كما لا ينبغي ان يكون اللفظ عاميا ولا ساقطا سوقيا فكذلك لا ينبغي ان يكون وحشيا الا ان يكون المتكلم به بدويا اعرابيا فان الوحشي من الكلام يفهمه الوحشي من الناس كما يفهم السوقي رطانة السوقي (قال) وانشد رجل قوما شعرا فاستغربوه فقال : والله ما هو بغريب ولكنكم في الادب غرباء . وعن غيره ان رجلا قال لابي تمام في مجلس قد حفل واراد تبكيته لما انشده : يا ابا تمام لم لا تقول من الشعر ما يفهم . فقال له : وانت لم لا تفهم من الشعر ما يقال ففضحه . ويروى ان هذه الحكاية كانت مع ابي العميثل وصاحبين له خاطباه فاجابهما . وقال بعض من نظر بين ابي تمام وابي الطيب انما ابو تمام كالقاضي العدل يضع اللفظة موضعها ويعطي المعنى حقه بعد طول النظر والبحث عن البينة او كالفقيه الورع يتحرى في كلامه ويتحرج . وابو الطيب كالشجاع الجريء يهجم على ما يريده لا يبالي ما لقي ولا حيث وقع . وكان الاصمعي يقول زهير والنابغة من عبيد الشعر يريد انهما يتكلفان اصلاحه ويشغلان به خواطرهما وحواسهما . ومن

اَصْحَابِهِمَا فِي اَلتَّنْقِيحِ وَفِي اَلتَّثْقِيفِ وَالتَّحْكِيكِ طُفَيْلُ اَلْغَنَوِيُّ. وَقَدْ قِيلَ اِنَّ زُهَيْرًا اَيْضًا رَوَى لَهُ وَكَانَ يُسَمَّى مُحَبِّرًا لِحُسْنِ شِعْرِهِ. وَمِنْهُمُ اَلْحُطَيْئَةُ وَالنَّمِرُ بْنُ تَوْلَبٍ وَكَانَ يُسَمِّيهِ اَبُو عَمْرِو بْنُ اَلْعَلَاءِ اَلْكَيِّسَ. وَكَانَ بَعْضُ اَلْحُذَّاقِ يَقُولُ: قُلْ مِنَ اَلشِّعْرِ مَا يَخْدُمُكَ وَلَا تَقُلْ مِنْهُ مَا تَخْدُمُهُ وَهُوَ مَعْنَى كَلَامِ اَلْاَصْمَعِيِّ. وَسَاُحَلِّي هٰذَا اَلْبَابَ مِنْ كَلَامِ اَلسَّيِّدِ اَبِي اَلْحَسَنِ بِحِلْيَةٍ تَكُونُ لَهُ زِينَةً فَائِقَةً وَاَخْتِمُهُ بِخَاتِمَةٍ تَكْسُوهُ حُلَّةً رَائِقَةً لِاُوفِيَ بِذٰلِكَ بَعْضَ مَا ضَمِنْتُ وَاَقْضِيَ بِهِ حَقَّ مَا شَرَطْتُ اِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى. فَمِنْ ذٰلِكَ قَوْلُهُ سَنَةَ ٤٠٥ يَتَشَوَّقُ اَهْلَهُ:

وَلِي كَبِدٌ مَكْلُومَةٌ لِفِرَاقِكُمْ ... اُطَأْ مِنْهَا صَبْرًا عَلَى مَا اَجَنَّتِ
تَمَنَّيْتُكُمْ شَوْقًا اِلَيْكُمْ وَصَبْوَةً ... عَسَى اللهُ اَنْ يُبْدِي لَهَا مَا تَمَنَّتِ
وَعَيْنٌ جَفَاهَا النَّوْمُ وَاعْتَادَهَا الْبُكَا ... اِذَا عَنَّ ذِكْرُ الْقَيْرَوَانِ اَسْتَهَلَّتِ

وَلَوْ اَنَّ اَعْرَابِيًّا تَذَكَّرَ نَجْدًا فَحَنَّ بِهِ اِلَى اَلْوَطَنِ اَوْ تَشَوَّقَ فِيهِ بَعْضَ اَلسَّكَنِ مَا حَسِبْتُهُ يَزِيدُ عَلَى مَا اَتَى بِهِ هٰذَا اَلْوَلَدُ اَلْحَضَرِيُّ اَلْمُتَاَخِّرُ اَلْعَصْرِ. وَمَا اَلْحَطُّ فِي هٰذَا اَلتَّمْيِيزِ فِي هَوَايَ وَلَا اَنْتَعِقُ بِهٰذَا اَلْقَوْلِ عِنْدَ مَوْلَايَ وَلَا اَلْخَدِيعَةُ مِمَّا نُظَنُّ بِهِ وَلَا فِيهِ وَلٰكِنْ قَدْ رَاَيْتُ وَجْهَ اَلْحَقِّ فَعَرَفْتُهُ وَالْحَقُّ لَا يَتَلَثَّمُ وَمَا هُوَ فِي بَلَاغَتِهِ وَاِيجَازِهِ اِلَّا كَمَا قَالَ اَلْاَحْمَرُ اَلسَّعْدِيُّ فِي وَصِيَّتِهِ:

مِنَ اَلْقَوْلِ مَا يَكْفِي اَلْمُصِيبَ قَلِيلُهُ
وَمِنْهُ اَلَّذِي لَا يَكْتَفِي اَلدَّهْرَ قَائِلُهُ

يَصُدُّ عَنِ ٱلْمَعْنَى فَيَتْرُكُ مَا نَجَا
وَيَذْهَبُ فِي ٱلتَّقْصِيرِ مِنْهُ تَطَاوُلُهْ
فَلَا تَكُ مِكْثَارًا تَزِيدُ عَلَى ٱلَّذِي
عُنِيتَ بِهِ فِي خَطْبِ امْرٍ تُزَاوِلُهْ

البحث الرابع

في اقسام الشعر

(من الكتاب نفسه)

قَالَ عَبْدُ ٱلْكَرِيمِ يَجْمَعُ أَصْنَافَ ٱلشِّعْرِ أَرْبَعَةٌ ٱلْمَدِيحُ وَٱلْهِجَاءُ وَٱلْحِكْمَةُ وَٱللَّهْوُ ثُمَّ يَتَفَرَّعُ مِنْ كُلِّ صِنْفٍ مِنْ ذٰلِكَ فُنُونٌ فَيَكُونُ فِي ٱلْمَدِيحِ ٱلْمَرَاثِي وَٱلِاٌفْتِخَارُ وَٱلشُّكْرُ ثُمَّ يَكُونُ مِنَ ٱلْهِجَاءِ ٱلذَّمُّ وَٱلْعِتَابُ وَٱلِاسْتِبْطَاءُ وَمِنَ ٱلْحِكْمَةِ ٱلْأَمْثَالُ وَٱلتَّزْهِيدُ وَٱلْمَوَاعِظُ وَيَكُونُ مِنَ ٱللَّهْوِ ٱلْغَزَلُ وَصِفَةُ ٱلْخَمْرِ وَٱلْخُمُورِ. وَقَالَ قَوْمٌ ٱلشِّعْرُ كُلُّهُ نَوْعَانِ مَدْحٌ وَهِجَاءٌ فَإِلَى ٱلْمَدْحِ يَرْجِعُ ٱلرِّثَاءُ وَٱلِافْتِخَارُ وَٱلتَّشْبِيبُ وَمَا تَعَلَّقَ بِذٰلِكَ مِنْ مَحْمُودِ ٱلْوَصْفِ كَصِفَاتِ ٱلْحُمُولِ وَٱلْآثَارِ وَٱلتَّشْبِيهَاتِ ٱلْحِسَانِ وَكَذٰلِكَ تَحْسِينُ ٱلْخُلُقِ كَٱلْأَمْثَالِ وَٱلْحِكَمِ وَٱلْمَوَاعِظِ وَٱلزُّهْدِ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْقَنَاعَةِ. وَٱلْهِجَاءُ ضِدُّ ذٰلِكَ كُلِّهِ غَيْرَ أَنَّ ٱلْعِتَابَ حَالٌ مِنَ ٱلْحَالَيْنِ فَهُوَ طَرَفٌ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا وَكَذٰلِكَ ٱلْإِغْرَاءُ لَيْسَ بِمَدْحٍ وَلَا هِجَاءٍ لِأَنَّكَ لَا تُغْرِي بِإِنْسَانٍ فَتَقُولُ إِنَّهُ حَقِيرٌ وَلَا ذَلِيلٌ إِلَّا كَانَ عَلَيْكَ وَعَلَى ٱلْمُغْرَى ٱلدَّرْكُ وَلَا تَقْصِدُ

اَيضًا بمدحِهِ الثناء عليهِ فيكون ذلكَ على وجهِهِ . وَالبيتُ مِنَ الشعرِ كالبيتِ مِنَ الابنيةِ وَالشعرِ قرارهُ الطبعُ وَسمكهُ الروايةُ وَدعائمهُ العلمُ وبابهُ الدربةُ وساكنهُ المعنى ولا خيرَ في بيتٍ غيرِ مسكونٍ . وَصارتِ الاعاريضُ وَالقوافي كالموازينِ وَالامثلةِ للابنيةِ او كالاواخيِّ وَالاوتادِ للاخبيةِ . وَامَّا ما سوى ذلكَ مِنْ محاسنِ الشعرِ فانَّما هوَ زينةٌ مستأنفةٌ لو لم تكنْ لاستُغنِيَ عنها . قالَ القاضي عليُّ بنُ عبدِ العزيزِ الجرجانيُّ صاحبُ كتابِ الوساطةِ : الشعرُ علمٌ مِنْ علومِ العربِ يشتركُ فيهِ الطبعُ وَالروايةُ وَالذكاء ثمَّ تكونُ الدربةُ مادةً لهُ وقوةً لكلِّ واحدٍ مِنْ اسبابهِ فمنِ اجتمعتْ لهُ هذهِ الخصالُ فهوَ المحسنُ المبرزُ وبقدرِ نصيبهِ منها تكونُ مرتبتهُ مِنَ الاحسانِ . قالَ ولستُ افصلُ في هذهِ القضيةِ بينَ القديمِ وَالمحدثِ وَالجاهليِّ وَالمخضرمِ وَالاعرابيِّ وَالمولَّدِ الّا انّي ارى حاجةَ المحدثِ الى الروايةِ امسَّ واجدهُ الى كثرةِ الحفظِ افقرَ فاذا استكشفتَ عنْ هذهِ الحالةِ وجدتَ سببها وَالعلّةَ فيها انَّ المطبوعَ الذي لا يمكنهُ تناولَ الفاظِ العربِ الّا روايةً وَلا روايةَ وَلا طريقَ الى الروايةِ الّا السمعُ وملاكُ السمعِ الحفظُ . وقالَ دِعبلٌ في كتابهِ مَنْ ارادَ المديحَ فبالرغبةِ وَمَنْ ارادَ الهجاء فبالبغضاءِ وَمَنْ ارادَ التشبيبَ فبالشوقِ وَالعشقِ وَمَنْ ارادَ المعاتبةَ فبالاستبطاءِ : فقسَّمَ الشعرَ كهذهِ الاقسامِ الاربعةِ وكانَ الرثاء عندهُ مِنْ بابِ المدحِ على ما قدَّمتُ . الّا انَّهُ جعلَ العتابَ

بَدَلًا مِنْهُ وَقَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ ٱلْعُلَمَاءِ: ٱلشِّعْرُ مَا ٱشْتَمَلَ عَلَى ٱلْمَثَلِ ٱلسَّائِرِ وَٱلِٱسْتِعَارَةِ ٱلرَّائِعَةِ وَٱلتَّشْبِيهِ ٱلْوَاقِعِ وَمَا سِوَى ذٰلِكَ فَإِنَّمَا لِقَائِلِهِ فَضْلُ ٱلْوَزْنِ

البحث العاشر

في صناعة المديح

(من الكتاب نفسهِ)

وَسَبِيلُ ٱلشَّاعِرِ إِذَا مَدَحَ مَلِكًا أَنْ يَسْلُكَ طَرِيقَةَ ٱلْإِفْصَاحِ وَٱلْإِشَادَةِ بِذِكْرِ ٱلْمَمْدُوحِ وَأَنْ يَجْعَلَ مَعَانِيَهُ جَزْلَةً وَأَلْفَاظَهُ نَقِيَّةً غَيْرَ مُبْتَذَلَةٍ سُوقِيَّةٍ وَيَجْتَنِبَ مَعَ ذٰلِكَ ٱلتَّقْصِيرَ وَٱلتَّطْوِيلَ فَإِنَّ لِلْمَلِكِ سَآمَةً وَضَجَرًا وَرُبَّمَا عَابَ مِنْ أَجْلِهَا مَا لَا يُرِيدُ حِرْمَانَهُ وَقَدْ رَأَيْتَ عَمَلَ ٱلْبُحْتُرِيِّ إِذَا مَدَحَ ٱلْخَلِيفَةَ كَيْفَ يُقِلُّ ٱلْأَبْيَاتَ وَيُبْرِزُ وُجُوهَ ٱلْمَعَانِي فَإِذَا مَدَحَ ٱلْكُتَّابَ عَمِلَ طَاقَتَهُ وَبَلَغَ مُرَادَهُ. وَقَدْ حُكِيَ عَنْ عُمَارَةَ أَنَّ جَدَّهُ جَرِيرًا قَالَ: يَا بُنَيَّ إِذَا مَدَحْتُمْ فَلَا تُطِيلُوا ٱلْمُمَادَحَةَ وَإِذَا هَجَوْتُمْ فَخَالِفُوا. وَحَكَى آخَرُ قَالَ: دَخَلَ ٱلْفَرَزْدَقُ عَلَى عَبْدِ ٱلرَّحْمَانِ ٱبْنِ أُمِّ ٱلْحَكَمِ فَقَالَ لَهُ عَبْدُ ٱلرَّحْمَانِ: يَا أَبَا فِرَاسٍ دَعْنِي مِنْ شِعْرِكَ ٱلَّذِي لَيْسَ يَأْتِي آخِرُهُ حَتَّى يُنْسَى أَوَّلُهُ وَقُلْ فِيَّ بَيْتَيْنِ يَعْلَقَانِ بِٱلرِّوَايَةِ وَأَنَا أُعْطِيكَ عَطِيَّةً لَمْ يُعْطِكَهَا أَحَدٌ قَبْلِي فَغَدَا عَلَيْهِ وَقَالَ:

وَأَنتَ ٱبنُ بَطحَاوَى قُرَيشٍ وَإِنْ تَشَا
تَكُنْ مِنْ ثَقِيفٍ سَيْلَ ذِي حَذَرٍ غَمْرِ
وَأَنتَ ٱبنُ سَوَّارِ ٱليَدَيْنِ إِلَى ٱلعُلَا
تَلَقَّتْ بِكَ ٱلشَّمسُ ٱلمُضِيئَةُ لِلبَدْرِ

فَقَالَ لَهُ: أَحسَنتَ وَأَمَرَ لَهُ بِعَشَرَةِ آلَافٍ. وَإِذَا كَانَ ٱلمَمدُوحُ مَلِكًا لَمْ يُبَالِ ٱلشَّاعِرُ مَا قَالَ فِيهِ وَلَا كَيفَ أَطْنَبَ وَذٰلِكَ مَحمُودٌ وَسِوَاهُ ٱلمَذمُومُ. فَإِن كَانَ سُوقَةً فَإِيَّاهُ وَٱلتَّجَاوُزَ بِهِ خُطَّتَهُ فَإِنَّهُ مَتَى تَجَاوَزَ بِهِ خُطَّتَهُ كَانَ كَمَنْ نَقَصَهُ مِنهَا وَكَذٰلِكَ لَا يَجِبُ أَنْ يُقَصِّرَ بِهِ عَمَّا يَستَحِقُّ وَلَا أَنْ يُعطِيَهُ صِفَةَ غَيرِهِ فَيَصِفَ ٱلكَاتِبَ بِٱلشَّجَاعَةِ وَٱلقَاضِيَ بِٱلحَمِيَّةِ وَٱلمَهَابَةِ. وَكَثِيرًا مَا يَقَعُ هٰذَا لِشُعَرَاءِ وَقتِنَا وَهُوَ خَطَأٌ إِلَّا أَنْ تَصحَبَهُ قَرِينَةٌ تَدُلُّ عَلَى صَوَابِ ٱلرَّأْيِ فِيهِ وَكَذٰلِكَ لَا يَجُوزُ أَنْ يُمدَحَ ٱلمَلِكُ بِبَعضِ مَا يُمَجَّدُ فِي غَيرِهِ مِنَ ٱلرُّؤَسَاءِ وَإِنْ كَانَ فَضِيلَةً وَذٰلِكَ مِثلُ قَولِ ٱلبُحتُرِيِّ فِي مَدحِ ٱلمُعتَزِّ:

لَا ٱلعَذلُ يَردَعُهُ وَلَا مِ ٱلتَّعنِيفُ عَنْ كَرَمٍ يَصُدُّهْ

فَإِنَّهُ مِمَّا أَنكَرَهُ عَلَيهِ أَبُو ٱلعَبَّاسِ أَحمَدُ بنُ عُبَيدِ ٱللهِ قَالَ: وَمَنْ ذَا يُعَنِّفُ ٱلخَلِيفَةَ عَنِ ٱلكَرَمِ أَوْ يَصُدُّهُ. هٰذَا بِٱلهِجَاءِ أَولَى مِنهُ بِٱلمَدحِ. وَعِيبَ عَلَى ٱلأَخطَلِ قَولُهُ فِي عَبدِ ٱلمَلِكِ بنِ مَروَانَ هٰذَا ٱلبَيتَ:

وَقَدْ جَعَلَ ٱللهُ ٱلخِلَافَةَ مِنهُمُ
لِأَبيَضَ لَا عَارِي ٱلخِوَانِ وَلَا جَدبِ

وَقَالُوا: لَوْ مَدَحَ بِهَـذَا حَرَسِيًّا لِعَبْدِ ٱلْمَلِكِ لَكَانَ قَصَّرَ بِهِ. وَأَجْوَدُ مِنْهُ فِي مَعْنَاهُ قَوْلُ حَسَّانَ فِي آلِ جَفْنَةَ:

يَسْقُونَ مَنْ وَرَدَ ٱلْبَرِيضَ عَلَيْهِمِ
بَرَدَى يُصَفَّقُ بِٱلرَّحِيقِ ٱلسَّلْسَلِ

وَيُرْوَى مِسْكًا. وَعَابُوا عَلَى ٱلْأَحْوَصِ قَوْلَهُ لِلْمَلِكِ:

وَأَرَاكَ تَفْعَلُ مَا تَقُولُ وَبَعْضُهُمْ
مَذِقُ ٱللِّسَانِ يَقُولُ مَا لَا يَفْعَلُ

قَالُوا لِأَنَّ ٱلْمُلُوكَ لَا تُمْدَحُ بِمَا يَلْزَمُهَا فِعْلُهُ كَمَا تُمْدَحُ بِهِ ٱلْعَامَّةُ وَإِنَّمَا تُمْدَحُ بِٱلْإِغْرَاقِ وَٱلتَّفَضُّلِ لَا بِمَا يَتَّسِعُ غَيْرُهُمْ لِبَذْلِهِ. وَمِنْ هٰذَا ٱلنَّوْعِ قَوْلُ كُثَيِّرٍ:

رَأَيْتُ ٱبْنَ لَيْلَى يَعْتَرِي صُلْبَ مَالِهِ
مَسَائِلُ شَتَّى مِنْ غَنِيٍّ وَمُصْرِمِ

مَسَائِلُ إِنْ تُوجَدْ لَدَيْكَ تَجُدْ بِهَا
يَدَاكَ وَإِنْ تُظْلَمْ بِهَا تَتَظَلَّمِ

لِأَنَّ هٰذَا إِنَّمَا يُقَالُ لِمَنْ دُونَ ٱلْخَلِيفَةِ وَٱلْمَلِكِ وَإِنَّمَا أَخَذَهُ مِنْ قَوْلِ زُهَيْرٍ فِي هَرِمٍ وَلَيْسَ بِمَلِكٍ فَلِذٰلِكَ حَسُنَ قَوْلُهُ:

هُوَ ٱلْجَوَادُ ٱلَّذِي يُعْطِيكَ نَائِلَهُ   عَفْوًا وَيُظْلَمُ أَحْيَانًا فَيَظَّلِمُ

يُرِيدُ أَنَّهُ يُسْأَلُ مَا لَيْسَ قِبَلَهُ فَيَتَحَمَّلُهُ. وَحُكِيَ عَنِ ٱلصُّولِيِّ أَنَّ مَرْوَانَ بْنَ أَبِي حَفْصَةَ كَانَ يُقَدِّمُ كُثَيِّرًا فِي ٱلْمَدْحِ عَلَى جَرِيرٍ وَٱلْفَرَزْدَقِ. وَمِمَّا قُدِّمَ بِهِ زُهَيْرٌ قَوْلُهُ:

لَوْ كَانَ يَقْعُدُ فَوقَ ٱلنَّجْمِ مِنْ كَرَمٍ
قَومٌ بِأَوَّلِهِمْ اَوْ مَجْدِهِمْ قَعَدُوا

وَقَدَّمَهُ قُدَامَةُ بْنُ جَعْفَرٍ ٱلْكَاتِبُ فَقَالَ فِي كِتَابِهِ نَقْدِ ٱلشِّعْرِ لَوْ كَانَتْ فَضَائِلُ ٱلنَّاسِ مِنْ حَيْثُ هُمْ نَاسٌ لَا مِنْ طَرِيقِ مَا هُمْ مُشْتَرِكُونَ فِيهِ مَعَ سَائِرِ ٱلْحَيَوَانِ عَلَى مَا عَلَيْهِ اَهْلُ ٱلْأَلْبَابِ مِنَ ٱلْاتِّفَاقِ فِي ذٰلِكَ اِنَّمَا هِيَ ٱلْعَقْلَ وَٱلْعِفَّةَ وَٱلْعَدَالَةَ وَٱلشَّجَاعَةَ كَانَ ٱلْقَاصِدُ لِلْمَدْحِ بِهٰذِهِ ٱلْأَرْبَعَةِ مُصِيباً وَبِمَا سِوَاهَا مُخْطِئاً. وَقَدْ قَالَ زُهَيْرٌ:

اَخِي ثِقَةٍ لَا يُتْلِفُ ٱلْخَمْرَ مَالُهُ وَلٰكِنَّهُ قَدْ يُتْلِفُ ٱلْمَالَ نَائِلُهْ

لِأَنَّهُ قَدْ وَصَفَهُ بِٱلْعِفَّةِ لِقِلَّةِ اِمْعَانِهِ فِي ٱللَّذَّاتِ وَاَنَّهُ لَا يُنْفِدُ فِيهَا مَالَهُ بِٱلسَّخَاءِ لِإِهْلَاكِ مَالِهِ فِي ٱلنَّوَالِ وَٱنْحِرَافِهِ فِي ذٰلِكَ عَنِ ٱللَّذَّاتِ وَذٰلِكَ هُوَ ٱلْعَدْلُ (قَالَ) ثُمَّ قَالَ:

تَرَاهُ اِذَا مَا جِئْتَهُ مُتَهَلِّلًا كَاَنَّكَ تُعْطِيهِ ٱلَّذِي اَنْتَ سَائِلُهْ

اَرَادَ اَنَّ فَرَحَهُ بِمَا يُعْطِي اَكْثَرُ مِنْ فَرَحِهِ بِمَا يَأْخُذُ فَزَادَ فِي وَصْفِ ٱلسَّخَاءِ مِنْهُ بِاَنَّهُ جَعَلَهُ يَهَشُّ وَلَا يَلْحَقُهُ مَضَضٌ وَلَا تَكَرُّهٌ لِفِعْلِهِ ثُمَّ قَالَ:

وَمَنْ مِثْلُ حِصْنٍ فِي ٱلْحُرُوبِ وَمِثْلُهُ
لِإِنْكَارِ ضَيْمٍ اَوْ لِأَمْرٍ يُحَاوِلُهْ

وَيُرْوَى اَوْ لِخَصْمٍ يُجَادِلُهُ. فَاَتَى فِي هٰذَا ٱلْبَيْتِ بِٱلْوَصْفِ مِنْ جِهَةِ ٱلشَّجَاعَةِ وَٱلْعَقْلِ فَٱسْتَوْفَى فِي ضُرُوبِ ٱلْمَدْحِ ٱلْأَرْبَعَةِ ٱلَّتِي هِيَ فَضَائِلُ ٱلْإِنْسَانِ عَلَى ٱلْحَقِيقَةِ وَزَادَهَا بِهٰذَا وَاِنْ كَانَ دَاخِلًا فِي

ٱلْأَرْبَعَةِ وَكَثِيرٌ مِنَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْرِفُ وَجْهَ دُخُولِهِ فِيهَا حَيْثُ قَالَ : (أَخِي ثِقَةٍ) فَوَصَفَهُ بِٱلْوَفَاءِ وَٱلْوَفَاءُ دَاخِلٌ فِي هٰذِهِ ٱلْفَضَائِلِ ٱلَّتِي قَدَّمْنَا وَقَدْ يَحْدُثُ هٰذَا لِلشُّعَرَاءِ فَيَعُدُّونَ أَنْوَاعَ ٱلْفَضَائِلِ ٱلْأَرْبَعِ وَأَقْسَامَهَا وَكُلٌّ دَاخِلٌ فِي جُمْلَتِهَا مِثْلَ أَنْ يَذْكُرُوا ٱلْمَعْرِفَةَ وَٱلْحَيَاءَ وَٱلْبَيَانَ وَٱلسِّيَاسَةَ وَٱلصَّدْعَ بِٱلْحُجَّةِ وَٱلْعِلْمَ وَٱلْحِلْمَ وَغَيْرَ ذٰلِكَ مِمَّا يَجْرِي هٰذَا ٱلْمَجْرَى . وَهِيَ مِنْ أَقْسَامِ ٱلْعَقْلِ . وَكَذِكْرِهِمِ ٱلْقَنَاعَةَ وَقِلَّةَ ٱلشَّرَهِ وَطَهَارَةَ ٱلْإِزَارِ وَغَيْرَ ذٰلِكَ وَهِيَ مِنْ أَقْسَامِ ٱلْعِفَّةِ . وَكَذِكْرِهِمِ ٱلْحِمَايَةَ وَٱلْأَخْذَ بِٱلثَّارِ وَٱلدِّفَاعَ عَنِ ٱلْجَارِ وَٱلنِّكَايَةَ فِي ٱلْعَدُوِّ وَقَتْلَ ٱلْأَقْرَانِ وَٱلْمَهَابَةَ وَٱلسَّيْرَ فِي ٱلْمَهَامِهِ وَٱلْقِفَارِ ٱلْمُوحِشَةِ وَمَا شَاكَلَ ذٰلِكَ وَهِيَ مِنْ أَقْسَامِ ٱلشَّجَاعَةِ . وَكَذِكْرِهِمِ ٱلسَّمَاحَةَ وَٱلتَّغَابُنَ وَٱلِٱنْظِلَامَ وَٱلتَّبَرُّعَ بِٱلنَّائِلِ وَإِجَابَةَ ٱلسَّائِلِ وَقِرَى ٱلْأَضْيَافِ وَمَا جَانَسَ هٰذِهِ ٱلْأَشْيَاءَ وَهِيَ مِنْ أَقْسَامِ ٱلْعَدْلِ

وَأَمَّا تَرْكِيبُ بَعْضِهَا مَعَ بَعْضٍ فَتَحْدُثُ مِنْهُ سِتَّةُ أَقْسَامٍ : يَحْدُثُ مِنْ تَرْكِيبِ ٱلْعَقْلِ مَعَ ٱلشَّجَاعَةِ ٱلصَّبْرُ عَلَى ٱلْمُلِمَّاتِ وَنَوَازِلِ ٱلْخُطُوبِ . وَعَنْ تَرْكِيبِ ٱلْعَقْلِ وَٱلسَّخَاءِ ٱلْبِرُّ وَإِنْجَازُ ٱلْوَعْدِ وَمَا أَشْبَهَ ذٰلِكَ . وَعَنْ تَرْكِيبِ ٱلْعَقْلِ وَٱلْعِفَّةِ ٱلتَّنَزُّهُ وَٱلرَّغْبَةُ عَنِ ٱلْمَسْأَلَةِ وَٱلِٱقْتِصَارُ عَلَى أَدْنَى مَعِيشَةٍ وَمَا أَشْبَهَ ذٰلِكَ . وَعَنْ تَرْكِيبِ ٱلشَّجَاعَةِ مَعَ ٱلسَّخَاءِ ٱلْإِتْلَافُ وَٱلْإِسْرَافُ وَمَا جَانَسَ ذٰلِكَ . وَعَنْ تَرْكِيبِ ٱلشَّجَاعَةِ مَعَ ٱلْعِفَّةِ إِنْكَارُ ٱلْفَوَاحِشِ وَٱلْغَيْرَةُ عَلَى ٱلْحَرِيمِ . وَعَنِ ٱلسَّخَاءِ مَعَ ٱلْعِفَّةِ ٱلْإِسْعَافُ بِٱلْقُوتِ وَٱلْإِيثَارُ عَلَى ٱلنَّفْسِ وَمَا شَاكَلَ ذٰلِكَ . قَالَ وَكُلُّ

وَاحِدٍ مِنْ هٰذِهِ ٱلْفَضَائِلِ ٱلْأَرْبَعِ ٱلْمُتَقَدِّمِ ذِكْرُهَا وَسَطٌ بَيْنَ طَرَفَيْنِ مَذْمُومَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَدِيحِ ٱلْمَنْصُوصِ عَلَيْهِ قَوْلُ زُهَيْرٍ :

وَفِيهِمْ مَقَامَاتٌ حِسَانٌ وُجُوهُهُمْ وَأَنْدِيَةٌ يَنْتَابُهَا ٱلْقَوْلُ وَٱلْفِعْلُ
وَإِنْ جِئْتَهُمْ أَلْفَيْتَ حَوْلَ بُيُوتِهِمْ مَجَالِسَ قَدْ يُشْفَى بِأَحْلَامِهَا ٱلْجَهْلُ
عَلَى مُكْثِرِيهِمْ رِزْقُ مَنْ يَعْتَرِيهِمُ وَعِنْدَ ٱلْمُقِلِّينَ ٱلسَّمَاحَةُ وَٱلْبَذْلُ
سَعَى بَعْدَهُمْ قَوْمٌ لِكَيْ يُدْرِكُوهُمُ فَلَمْ يَفْعَلُوا وَلَمْ يُلِيمُوا وَلَمْ يَأْلُوا
وَلَمْ يَكُ مِنْ خَيْرٍ أَتَوْهُ وَإِنَّمَا تَوَارَثَهُ آبَاءُ آبَائِهِمْ قَبْلُ
وَهَلْ يُنْبِتُ ٱلْخَطِّيَّ إِلَّا وَشِيجُهُ وَتُغْرَسُ إِلَّا فِي مَنَابِتِهَا ٱلنَّخْلُ

وَقَوْلُهُ :

مَنْ يَلْقَ يَوْمًا عَلَى عِلَّاتِهِ هَرِمًا يَلْقَ ٱلسَّمَاحَةَ مِنْهُ وَٱلنَّدَى خُلُقَا
لَيْثٌ بِعَثَّرَ يَصْطَادُ ٱلرِّجَالَ إِذَا مَا كَذَّبَ ٱللَّيْثُ عَنْ أَقْرَانِهِ صَدَقَا
يَطْعَنُهُمْ مَا ٱرْتَمَوْا حَتَّى إِذَا طَعَنُوا ضَارَبَ حَتَّى إِذَا مَا ضَارَبُوا ٱعْتَنَقَا
لَوْ نَالَ حَيٌّ مِنَ ٱلدُّنْيَا بِمَنْزِلَةٍ أُفُقَ ٱلسَّمَاءِ لَنَالَتْ كَفُّهُ ٱلْأُفُقَا

وَيَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ قَصْدُ ٱلشِّعْرِ فِي مَدْحِ ٱلْوَزِيرِ وَٱلْكَاتِبِ عَلَى مَا ٱخْتَارَهُ قُدَامَةُ وَغَيْرُهُ مَا نَاسَبَ حُسْنَ ٱلرَّوِيَّةِ وَسُرْعَةَ ٱلْخَاطِرِ بِٱلصَّوَابِ وَشِدَّةَ ٱلْحَزْمِ وَقِلَّةَ ٱلْغَفْلَةِ وَجُودَةَ ٱلنَّظَرِ لِلْخَلِيفَةِ وَٱلنِّيَابَةَ عَنْهُ فِي ٱلْمُعْضِلَاتِ بِٱلرَّأْيِ أَوْ بِٱلذَّاتِ كَمَا قَالَ أَبُو نُوَاسٍ :

إِذَا نَابَهُ أَمْرٌ فَإِمَّا كَفَيْتَهُ وَإِمَّا عَلَيْهِ بِٱلْكَفِيِّ تُشِيرُ

وَبِأَنَّهُ مَحْمُودُ ٱلسِّيرَةِ حَسَنُ ٱلسِّيَاسَةِ لَطِيفٌ فَإِنْ أَضَافَ إِلَى ذٰلِكَ ذِكْرَ ٱلْبَلَاغَةِ وَٱلْخَطِّ وَٱلتَّفَنُّنِ فِي ٱلْعِلْمِ كَانَ غَايَةً. وَأَفْضَلُ مَا

مُدِحَ بِهِ ٱلْقَائِدُ ٱلْجُودُ وَٱلشَّجَاعَةُ وَمَا تَفَرَّعَ مِنْهَا مِنَ ٱلْإِفْرَاطِ فِي ٱلنَّجْدَةِ وَسُرْعَةِ ٱلْبَطْشِ وَمَا شَاكَلَ ذٰلِكَ. وَيُمْدَحُ ٱلْقَاضِي بِمَا نَاسَبَ ٱلْعَدْلَ وَٱلْإِنْصَافَ وَتَقْرِيبَ ٱلْبَعِيدِ فِي ٱلْحَقِّ وَتَبْعِيدَ ٱلْقَرِيبِ فِي ٱلْأَخْذِ لِلضَّعِيفِ مِنَ ٱلْقَوِيِّ وَٱلْمُسَاوَاةِ بَيْنَ ٱلْفَقِيرِ وَٱلْغَنِيِّ بِبَسْطِ ٱلْوَجْهِ وَلِينِ ٱلْجَانِبِ وَقِلَّةِ ٱلْمُبَالَاةِ فِي إِقَامَةِ ٱلْحُدُودِ وَٱسْتِخْرَاجِ ٱلْحُقُوقِ فَإِنْ زَادَ إِلَى ذٰلِكَ وَذَكَرَ ٱلْوَرَعَ وَٱلتَّحَرُّجَ وَمَا شَاكَلَهُمَا فَقَدْ بَلَغَ ٱلنِّهَايَةَ. وَصِفَاتُ ٱلْقَاضِي كُلُّهَا لَائِقَةٌ بِصَاحِبِ ٱلْمَظَالِمِ وَمَنْ كَانَ دُونَ هٰذِهِ ٱلثَّلَاثِ ٱلطَّبَقَاتِ سِوَى طَبَقَةِ ٱلْمَلِكِ فَلَا أَرَى لِمَدْحِهِ وَجْهًا فَإِنْ دَعَتْ إِلَى ذٰلِكَ ضَرُورَةٌ مُدِحَ كُلُّ إِنْسَانٍ بِٱلْفَضْلِ فِي صِنَاعَتِهِ وَٱلْمَعْرِفَةِ بِطَرِيقَتِهِ ٱلَّتِي هُوَ فِيهَا. وَأَكْثَرُ مَا يُعَوَّلُ عَلَى ٱلْفَضَائِلِ ٱلنَّفْسَانِيَّةِ ٱلَّتِي ذَكَرَهَا قُدَامَةُ وَإِنْ أُضِيفَتْ إِلَيْهَا فَضَائِلُ عَرَضِيَّةٌ أَوْ جِسْمِيَّةٌ كَٱلْجَمَالِ وَٱلْأُبَّهَةِ وَبَسْطَةِ ٱلْخَلْقِ وَسَعَةِ ٱلدُّنْيَا وَكَثْرَةِ ٱلْعَشِيرَةِ كَانَ ذٰلِكَ جَيِّدًا. إِلَّا أَنَّ قُدَامَةَ قَدْ أَبَى مِنْهُ وَأَنْكَرَهُ جُمْلَةً وَلَيْسَ ذٰلِكَ صَوَابًا وَإِنَّمَا ٱلْوَاجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يَقُولَ: ٱلْمَدْحُ بِٱلْفَضَائِلِ ٱلنَّفْسَانِيَّةِ أَشْرَفُ وَأَصَحُّ فَأَمَّا إِنْكَارُ مَا سِوَاهَا جُمْلَةً وَاحِدَةً فَمَا أَظُنُّ أَحَدًا يُسَاعِدُهُ فِيهِ وَلَا يُوَافِقُهُ عَلَيْهِ وَقَدْ كَرِهَ ٱلْحُذَّاقُ أَنْ يُمْدَحَ ٱلْمُلُوكُ بِمَا نَاسَبَ قَوْلَ مُوسَى شَهَوَاتٍ وَيُرْوَى لِغَيْرِهِ:

أَنْتَ نِعْمَ ٱلْمَتَاعُ لَوْ كُنْتَ تَبْقَى ... غَيْرَ أَنْ لَا بَقَاءَ لِلْإِنْسَانِ

لَيْسَ فِيمَا بَدَا لَنَا مِنْكَ عَيْبٌ ... عَابَهُ ٱلنَّاسُ غَيْرُ أَنَّكَ فَانِي

وَحُكِيَ عَنْ بَعْضِ ٱلْمُلُوكِ أَنَّهُ قَالَ مَا لِهٰؤُلَاءِ ٱلشُّعَرَاءِ قَاتَلَهُمُ ٱللّٰهُ رُبَّمَا ذَكَّرُونَا شَيْئًا نَحْنُ أَكْثَرُ لَهُ ذِكْرًا مِنْهُمْ فَيُنَغِّصُونَ بِهِ عَلَيْنَا أَوْقَاتَ لَذَّاتِنَا يَعْنِي بِذٰلِكَ ٱلْمَوْتَ. وَمِنْ أَبْشَعِ مَا فِي ذٰلِكَ قَوْلُ أَبِي تَمَّامٍ:

فَلْيَطُلْ عُمْرُهُ فَلَوْ مَاتَ فِي طَوْ … سٍ مُقِيمًا لَمَاتَ فِيهَا غَرِيبَا

مَا ٱلَّذِي دَعَاهُ إِلَى ذِكْرِ ٱلْمَوْتِ هٰهُنَا إِلَّا ٱلنَّكَدُ وَٱلْبَغَاضَةُ

وَأَجْمَعَ ٱلنَّاسُ عَلَى تَقْدِيمِ قَوْلِ كَعْبِ بْنِ زُهَيْرٍ يَمْدَحُ ٱلرَّسُولَ:

تَحْمِلُهُ ٱلنَّاقَةُ ٱلْأَدْمَاءُ مُعْتَجِرًا … بِٱلْبُرْدِ كَٱلْبَدْرِ جَلَّى لَيْلَةَ ٱلظُّلَمِ

وَفِي عِطَافِهِ أَوْ أَثْنَاءِ رَيْطَتِهِ … مَا يَعْلَمُ ٱللّٰهُ مِنْ دِينٍ وَمِنْ كَرَمِ

وَٱلْجُهَّالُ يَرْوُونَ ٱلْبَيْتَ لِأَبِي دِعْبِلٍ ٱلْجُمَحِيِّ. وَيُنَاسِبُهُ قَوْلُ ٱلْعَجَّاجِ:

يَحْمِلْنَ كُلَّ سُؤْدُدٍ وَفَخْرِ … يَحْمِلْنَ مَا نَدْرِي وَمَا لَا نَدْرِي

قَالَ ٱلْأَصْمَعِيُّ أَصْلُهُ مِنْ قَوْلِ ٱلْحَارِثِ بْنِ حِلِّزَةَ:

وَفَعَلْنَا بِهِمْ كَمَا عَلِمَ ٱللّٰهُ … وَمَا إِنْ لِلْحَائِنِينَ دِمَاءُ

قَالَ وَلَمْ يُقَلْ شِعْرٌ قَطُّ أَحْسَنُ مِنْ هٰذِهِ ٱلثَّلَاثَةِ ٱلْمَعَانِي. قَالَ أَبُو ٱلْعَبَّاسِ ٱلْمُبَرِّدُ: مِنَ ٱلشُّعَرَاءِ مَنْ يُجْمِلُ ٱلْمَدْحَ فَيَكُونُ ذٰلِكَ وَجْهًا حَسَنًا لِبُلُوغِهِ ٱلْإِرَادَةَ مَعَ خُلُوِّهِ مِنَ ٱلْإِطَالَةِ وَبُعْدِهِ عَنِ ٱلْإِكْثَارِ وَدُخُولِهِ فِي ٱلِٱخْتِصَارِ وَذٰلِكَ نَحْوُ قَوْلِ ٱلْحُطَيْئَةِ:

تَزُورُ فَتًى يُعْطِي عَلَى ٱلْحَمْدِ مَالَهُ … وَيَعْلَمُ أَنَّ ٱلْمَرْءَ غَيْرُ مُخَلَّدِ

كَسُوبٌ وَمِتْلَافٌ إِذَا مَا سَأَلْتَهُ … تَهَلَّلَ وَٱهْتَزَّ ٱهْتِزَازَ ٱلْمُهَنَّدِ

مَتَى تَأْتِهِ تَعْشُو إِلَى ضَوْءِ نَارِهِ   تَجِدْ خَيْرَ نَارٍ عِنْدَهَا خَيْرُ مُوقِدِ

تَصَرَّفَ فِي أَبْيَاتِهِ هٰذِهِ فِي أَصْنَافِ ٱلْمَدِيحِ وَأَتَى بِجِمَاعِ ٱلْوَصْفِ وَجُمْلَةِ ٱلْمَدْحِ عَلَى سَبِيلِ ٱلِاقْتِصَادِ فِي ٱلْبَيْتِ ٱلْآخِرِ. وَمِثْلُهُ قَوْلُ ٱلشَّمَّاخِ:

رَأَيْتُ عُرَابَةَ ٱلْأَوْسِيَّ يَسْمُو   إِلَى ٱلْخَيْرَاتِ مُنْقَطِعَ ٱلْقَرِينِ

إِذَا مَا رَايَةٌ رُفِعَتْ لِمَجْدٍ   تَلَقَّاهَا عُرَابَةُ بِٱلْيَمِينِ

وَأَفْضَلُ مَدْحٍ مُدِحَ بِهِ ٱلْمُلُوكُ وَأَكْثَرُهُ إِصَابَةً لِلْغَرَضِ مَا يُنَاسِبُ قَوْلَ ٱبْنِ هَرْمَةَ فِي ٱلْمَنْصُورِ:

لَهُ لَحَظَاتٌ عَنْ حِفَافِ سَرِيرِهِ   إِذَا كَرَّهَا فِيهَا عِقَابٌ وَنَائِلُ

فَأَمَّا ٱلَّذِي آمَنْتَ آمَنَهُ ٱلرَّدَى   وَأَمَّا ٱلَّذِي أَوْعَدْتَ بِٱلثُّكْلِ ثَاكِلُ

وَقَوْلَ أَبِي ٱلْعَتَاهِيَةِ يَمْدَحُ ٱلْهَادِيَ:

يَضْطَرِبُ ٱلْخَوْفُ وَٱلرَّجَاءُ إِذَا   حَرَّكَ مُوسَى ٱلْقَضِيبَ أَوْ فَكَّرْ

وَكَذٰلِكَ قَوْلَ ٱلْحَزِينِ ٱلْكِنَانِيِّ فِي عَبْدِ ٱللهِ بْنِ عَبْدِ ٱلْمَلِكِ ٱبْنِ مَرْوَانَ وَتُرْوَى لِلْفَرَزْدَقِ فِي عَلِيِّ بْنِ ٱلْحُسَيْنِ وَقِيلَ بَلْ قَالَهَا فِي ٱللَّعِينِ ٱلْمِنْقَرِيِّ وَقِيلَ هِيَ لِدَاوُدَ بْنِ مُسْلِمٍ فِي قُثَمَ بْنِ ٱلْعَبَّاسِ ٱبْنِ عَبْدِ ٱللهِ بْنِ عَبَّاسٍ:

فِي كَفِّهِ خَيْزُرَانٌ رِيحُهُ عَبِقٌ   مِنْ كَفِّ أَرْوَعَ فِي عِرْنِينِهِ شَمَمُ

يُغْضِي حَيَاءً وَيُغْضَى مِنْ مَهَابَتِهِ   فَمَا يُكَلَّمُ إِلَّا حِينَ يَبْتَسِمُ

وَٱجْتَمَعَ ٱلشُّعَرَاءُ بِبَابِ ٱلْمُعْتَصِمِ فَبَعَثَ إِلَيْهِمْ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُحْسِنُ أَنْ يَقُولَ مِثْلَ قَوْلِ مَنْصُورٍ ٱلنَّمَرِيِّ فِي ٱلرَّشِيدِ:

اِنَّ ٱلْمَكَارِمَ وَٱلْمَعْرُوفَ اَوْدِيَةٌ   اَحَلَّكَ ٱللّٰهُ مِنْهَا حَيْثُ تَجْتَمِعُ
اِذَا رَفَعْتَ ٱمْرَأً فَٱللّٰهُ رَافِعُهُ   وَمَنْ وَضَعْتَ مِنَ ٱلْاَقْوَامِ مُتَّضِعُ
مَنْ لَمْ يَكُنْ بِاَمِينِ ٱللّٰهِ مُعْتَصِمًا   فَلَيْسَ بِٱلصَّلَوَاتِ ٱلْخَمْسِ يَنْتَفِعُ
اِنْ اَخْلَفَ ٱلْغَيْثُ لَمْ تُخْلِفْ اَنَامِلُهُ   اَوْ ضَاقَ اَمْرٌ ذَكَرْنَاهُ فَيَتَّسِعُ

فَلْيَدْخُلْ. فَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ وُهَيْبٍ: فِينَا مَنْ يَقُولُ خَيْرًا مِنْهُ وَاَنْشَدَ:

ثَلَاثَةٌ تُشْرِقُ ٱلدُّنْيَا بِبَهْجَتِهِمْ   شَمْسُ ٱلضُّحَى وَاَبُو إِسْحَاقَ وَٱلْقَمَرُ
تَحْكِي اَفَاعِيلُهُ فِي كُلِّ نَائِبَةٍ   اَلْغَيْثَ وَٱللَّيْثَ وَٱلصَّمْصَامَةَ ٱلذَّكَرُ

فَاَمَرَ بِإِدْخَالِهِ وَاَحْسَنَ صِلَتَهُ

وَقَالُوا لَمَّا حَضَرَتِ ٱلْحُطَيْئَةَ ٱلْوَفَاةُ قَالَ: بَلِّغُوا ٱلْاَنْصَارَ اَنَّ اَخَاهُمْ اَمْدَحُ ٱلنَّاسِ حَيْثُ يَقُولُ:

يُغْشَوْنَ حَتَّى مَا تَهِرُّ كِلَابُهُمْ   لَا يَسْاَلُونَ عَنِ ٱلسَّوَادِ ٱلْمُقْبِلِ

قَالَ ثَعْلَبٌ بَلْ قَوْلُ ٱلْاَعْشَى:

فَتًى لَوْ يُنَادِي ٱلشَّمْسَ اَلْقَتْ قِنَاعَهَا
اَوِ ٱلْقَمَرَ ٱلسَّارِي لَاَلْقَى ٱلْمَقَالِدَا

اَمْدَحُ مِنْهُ. وَقَالَ اَبُو عَمْرِو بْنُ ٱلْعَلَاءِ: بَيْتُ جَرِيرٍ

اَلَسْتُمْ خَيْرَ مَنْ رَكِبَ ٱلْمَطَايَا   وَاَنْدَى ٱلْعَالَمِينَ بُطُونَ رَاحِ

اَسْيَرُ مَا قِيلَ فِي ٱلْمَدْحِ وَاَسْهَلُهُ. وَقَالَ غَيْرُهُ: بَلْ قَوْلُ ٱلْاَخْطَلِ:

شُمْسُ ٱلْعَدَاوَةِ حَتَّى يُسْتَقَادَ لَهُمْ   وَاَعْظَمُ ٱلنَّاسِ اَحْلَامًا اِذَا قَدَرُوا

وَقَالَ دِعبِلٌ بَلْ قَوْلُ أَبِي ٱلطَّمَحَانِ ٱلقَيْنِيِّ

أَضَاءَتْ لَهُمْ أَحْسَابُهُمْ وَوُجُوهُهُمْ
دُجَى ٱللَّيلِ حَتَّى نَظَّمَ ٱلْجِزْعَ ثَاقِبُهْ

قَالَ: وَقَدْ تَنَازَعَ فِي هٰذَا ٱلْبَيْتِ يَعْنِي بَيْتَ أَبِي ٱلطَّمَحَانِ قَوْمٌ وَفِي بَيْتِ حَسَّانَ فِي آلِ جَفْنَةَ وَبَيْتِ ٱلنَّابِغَةِ:

بِأَنَّكَ شَمْسٌ وَٱلْمُلُوكُ كَوَاكِبٌ   إِذَا طَلَعَتْ لَمْ يَبْدُ مِنْهُنَّ كَوْكَبُ

وَبَيْتُ أَبِي ٱلطَّمَحَانِ أَشْعَرُهَا. قَالَ ٱلْحَاتِمِيُّ: بَلْ بَيْتُ زُهَيْرٍ:

تَرَاهُ إِذَا مَا جِئْتَهُ مُتَهَلِّلًا   كَأَنَّكَ تُعْطِيهِ ٱلَّذِي أَنْتَ سَائِلُهْ

وَحُكِيَ عَنْ عَلِيِّ بْنِ هَارُونَ عَنْ أَبِيهِ أَنَّهُ قَالَ: أَجْمَعَ أَهْلُ ٱلْعِلْمِ أَنَّ بَيْتَيْ أَبِي نُوَاسٍ أَجْوَدُ بَيْتَيْنِ فِي ٱلْمَدِيحِ لِلْمُوَلَّدِينَ وَهُمَا:

أَنْتَ ٱلَّذِي تَأْخُذُ ٱلْأَيْدِي بِحُجْزَتِهِ
إِذَا ٱلزَّمَانُ عَلَى أَنْيَابِهِ كَلَحَا

وَكَّلَتْ بِٱلدَّهْرِ عَيْنًا غَيْرَ غَافِلَةٍ
مِنْ جُودِ كَفِّكَ تَأْسُو كُلَّمَا جَرَحَا

وَحَكَى ٱلْحَاتِمِيُّ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ ٱلْوَاحِدِ عَنْ أَحْمَدَ بْنِ يَحْيَى قَالَ: سَمِعْتُ ٱبْنَ ٱلْأَعْرَابِيِّ يَقُولُ: أَمْدَحُ بَيْتٍ قَالَهُ مُوَلَّدٌ قَوْلُ أَبِي نُوَاسٍ:

تَغَطَّيْتُ مِنْ دَهْرِي بِظِلِّ جَنَاحِهِ   فَعَيْنِي تَرَى دَهْرِي وَلَيْسَ يَرَانِي

فَلَوْ تَسْأَلُ ٱلْأَيَّامَ مَا ٱسْمِي مَا دَرَتْ
وَأَيْنَ مَكَانِي مَا عَرَفْنَ مَكَانِي

قالَ صاحِبُ الكِتابِ: نَحْنُ إلى الإنصافِ أحوجُ مِنّا إلى المُكابَرةِ والخِلافِ وأبو نُواسٍ ذهبَ مذهبًا لطيفًا يَخرجُ لهُ فيهِ العُذرُ والتأويلُ وإلّا فما في صِفةِ الخُمولِ أشدُّ ممّا ذُكِرَ لاسيّما على روايةِ مَنْ روى (فلو تسألُ الأيّامَ). ومِنْ جيِّدِ ما سمِعتُ لِمُحدَثٍ وأظنُّهُ لابنِ الروميِّ في عُبيدِ اللهِ بنِ سُليمانَ بنِ وهبٍ ورأيتُ مَنْ يَرويهِ لأحمدَ بنِ محمّدٍ الكاتبِ أبي الحسنِ :

إذا أبو قاسمٍ جادتْ يداهُ لنا
لمْ يُحمَدِ الأجوَدانِ البحرُ والمطَرُ
وإنْ أضاءتْ لنا أنوارُ غُرّتِهِ
تضاءلَ النيِّرانِ الشمسُ والقمَرُ
وإنْ مضى رأيُهُ أو جدَّ عزمتُهُ
تأخّرَ الماضِيانِ السيفُ والقدَرُ
مَنْ لمْ يَبِتْ حذرًا مِنْ سطوِ صولتِهِ
لمْ يدرِ ما المُزعِجانِ السيفُ والحذَرُ
ينالُ بالظنِّ ما يَعيا العِيانُ بهِ
والشاهدانِ عليهِ العينُ والأثرُ
كأنّهُ وزِمامُ الدهرِ في يدِهِ
يرى عواقبَ ما يأتي وما يذَرُ

قالَ خلفٌ الأحمرُ: أخلبُ المدحِ وأكثرُهُ ملقًا قولُ زُهيرِ بنِ أبي سُلمى :

تَرَاهُ إِذَا مَا جِئْتَهُ مُتَهَلِّلًا ... كَأَنَّكَ تُعْطِيهِ ٱلَّذِي أَنْتَ سَائِلُهْ
أَخُو ثِقَةٍ لَا تُتْلِفُ ٱلْخَمْرُ مَالَهُ ... وَلٰكِنَّهُ قَدْ يُتْلِفُ ٱلْمَالَ نَائِلُهْ
غَدَوْتُ عَلَيْهِ غُدْوَةً فَرَأَيْتُهُ ... قُعُودًا لَدَيْهِ بِالصَّرِيمِ عَوَاذِلُهْ
يُعَذِّبْنَهُ طَوْرًا وَطَوْرًا يَلُمْنَهُ ... وَأَعْيَا فَمَا يَدْرِينَ أَيْنَ مَخَاتِلُهْ
فَأَعْرَضْنَ عَنْهُ عَنْ كَرِيمٍ مُرَزَّإٍ ... جَمُوعٍ عَلَى ٱلْأَمْرِ ٱلَّذِي هُوَ فَاعِلُهْ

وَقَوْلُ طُفَيْلٍ :

جَزَى ٱللّٰهُ عَنَّا جَعْفَرًا حِينَ أَزْلَقَتْ ... بِنَا نَعْلُنَا فِي ٱلْوَاطِئِينَ وَزَلَّتِ(١)
أَبَوْا أَنْ يَمَلُّونَا وَلَوْ أَنَّ أُمَّنَا ... تُلَاقِي ٱلَّذِي لَاقَوْهُ مِنَّا لَمَلَّتِ

وَسَأَلَ ٱلرَّشِيدُ ٱلْمُفَضَّلَ ٱلضَّبِّيَّ: أَيُّ بَيْتٍ قَالَتِ ٱلْعَرَبُ أَمْدَحُ فَقَالَ :

أَغَرُّ أَبْلَجُ تَأْتَمُّ ٱلْهُدَاةُ بِهِ ... كَأَنَّهُ عَلَمٌ فِي رَأْسِهِ نَارُ

قَالَ شَرَاحِيلُ بْنُ مَعْنِ بْنِ زَائِدَةَ : كُنْتُ أَسِيرُ تَحْتَ قُبَّةِ يَحْيَى ٱبْنِ خَالِدٍ وَقَدْ حَجَّ مَعَ ٱلرَّشِيدِ وَعَدِيلُهُ أَبُو يُوسُفَ ٱلْقَاضِي إِذْ أَعْرَابِيٌّ مِنْ بَنِي أَسَدٍ كَانَ يَلْقَاهُ إِذَا حَجَّ فَيَمْدَحُهُ فَأَنْشَدَهُ شِعْرًا أَنْكَرَ يَحْيَى مِنْهُ بَيْتًا فَقَالَ : يَا أَخَا بَنِي أَسَدٍ أَلَمْ أَنْهَكَ عَنْ مِثْلِ هٰذَا ٱلشِّعْرِ أَلَا قُلْتَ كَمَا قَالَ ٱلشَّاعِرُ :

بَنُو مَطَرٍ يَوْمَ ٱللِّقَاءِ كَأَنَّهُمْ ... لِجَارِهِمِ بَيْنَ ٱلسِّمَاكَيْنِ مَنْزِلُ
بَهَالِيلُ فِي ٱلْإِسْلَامِ سَادُوا وَلَمْ يَكُنْ ... كَأَوَّلِهِمْ فِي ٱلْجَاهِلِيَّةِ أَوَّلُ
هُمُ ٱلْقَوْمُ إِنْ قَالُوا أَصَابُوا وَإِنْ دُعُوا ... أَجَابُوا وَإِنْ أَعْطَوْا أَطَابُوا وَأَجْزَلُوا

---

(١) وكان الاصل : بنا فعلنا في الواطئين وزلت وهو تصحيف

وَلَا يَسْتَطِيعُ ٱلْفَاعِلُونَ فِعَالَهُمْ وَإِنْ أَحْسَنُوا فِي ٱلنَّائِبَاتِ وَأَجْمَلُوا

فَقَالَ أَبُو يُوسُفَ لِمَنْ هٰذَا ٱلشِّعْرُ أَضْحَكَ ٱللهُ فَمَا سَمِعْتُ أَحْسَنَ مِنْهُ فَقَالَ يَحْيَى يَقُولُهُ ٱبْنُ أَبِي حَفْصَةَ فِي أَبِي هٰذَا ٱلْفَتَى وَأَوْمَأَ إِلَيَّ فَكَانَ قَوْلُهُ أَسَرَّ إِلَيَّ مِنْ جَلِيلِ ٱلْفَوَائِدِ ثُمَّ ٱلْتَفَتَ إِلَيَّ وَقَالَ يَا شَرَاحِيلُ أَنْشِدْنِي أَجْوَدَ مَا قَالَهُ ٱبْنُ أَبِي حَفْصَةَ فِي أَبِيكَ فَأَنْشَدْتُهُ:

نِعْمَ ٱلْمُنَاخُ لِرَاهِبٍ وَلِرَاغِبٍ مِمَّنْ تُصِيبُ حَوَائِجُ ٱلْأَزْمَانِ

مَعْنُ بْنُ زَائِدَةَ ٱلَّذِي زِيدَتْ بِهِ شَرَفًا إِلَى شَرَفٍ بَنُو شَيْبَانِ

إِنْ عُدَّ أَيَّامُ ٱللِّقَاءِ فَإِنَّمَا يَوْمَاهُ يَوْمُ نَدًى وَيَوْمُ طِعَانِ

يَكْسُو ٱلْأَسِرَّةَ وَٱلْمَنَابِرَ بَهْجَةً وَيَزِينُهَا بِجَهَارَةٍ وَبَيَانِ

تَمْضِي أَسِنَّتُهُ وَيُسْفِرُ وَجْهُهُ فِي ٱلْحَرْبِ عِنْدَ تَغَيُّرِ ٱلْأَلْوَانِ

نَفْسِي فِدَاكَ أَبَا ٱلْوَلِيدِ إِذَا بَدَا رَهَجُ ٱلسَّنَابِكِ وَٱلرِّمَاحُ دَوَانِ

فَقَالَ يَحْيَى أَنْتَ لَا تَدْرِي جَيِّدَ مَا مُدِحَ بِهِ أَبُوكَ وَأَجْوَدُ مِنْ هٰذَا قَوْلُهُ:

تَشَابَهَ يَوْمَاهُ عَلَيْنَا فَأَشْكَلَا فَلَا نَحْنُ نَدْرِي أَيُّ يَوْمَيْهِ أَفْضَلُ

أَيَوْمُ نَدَاهُ ٱلْغَمْرُ أَمْ يَوْمُ بَأْسِهِ وَمَا مِنْهُمَا إِلَّا أَغَرُّ مُحَجَّلُ

وَمِنَ ٱلشُّعَرَاءِ مَنْ يَنْقُلُ ٱلْمَدِيحَ عَنْ رَجُلٍ إِلَى رَجُلٍ وَكَانَ ذٰلِكَ دَأْبَ ٱلْبُحْتُرِيِّ وَفَعَلَهُ أَبُو تَمَّامٍ فِي قَصَائِدَ مِنْهَا:

قَدْكَ ٱتَّئِبْ أَرْبَيْتَ فِي ٱلْغُلَوَاءِ

نَقَلَهَا عَنْ يَحْيَى بْنِ ثَابِتٍ إِلَى مُحَمَّدِ بْنِ حَسَّانَ ٱلضَّبِّيِّ

البحث الرابع

في الافتخار

(من الكتاب نفسهِ)

اَلِافْتِخَارُ هُوَ ٱلْمَدْحُ بِعَيْنِهِ اِلَّا انَّ ٱلشَّاعِرَ يَخُصُّ بِهِ نَفْسَهُ وَقَوْمَهُ فَكُلَّمَا حَسُنَ فِي ٱلْمَدْحِ حَسُنَ فِي ٱلِافْتِخَارِ وَكُلَّمَا قَبُحَ فِيهِ قَبُحَ فِي ٱلِافْتِخَارِ فَمِنْ أَبْيَاتِ ٱلِافْتِخَارِ قَوْلُ ٱلْفَرَزْدَقِ:

اِنَّ ٱلَّذِي سَمَكَ ٱلسَّمَاءَ بَنَى لَنَا ... بَيْتًا دَعَائِمُهُ اَعَزُّ وَاَطْوَلُ

قَالَ اَحْمَدُ بْنُ يَحْيَى بْنُ ثَعْلَبٍ: اَفْخَرُ بَيْتٍ قَالَتْهُ ٱلْعَرَبُ قَوْلُ ٱمْرِئِ ٱلْقَيْسِ:

مَا يُنْكِرُ ٱلنَّاسُ مِنَّا حِينَ نَمْلِكُهُمْ ... كَانُوا عَبِيدًا وَكُنَّا نَحْنُ اَرْبَابَا

وَقَالَ دِعْبِلٌ اَفْخَرُ ٱلشِّعْرِ قَوْلُ كَعْبٍ:

وَبِبِئْرِ بَدْرٍ اِذْ يَرُدُّ وُجُوهَهُمْ ... جِبْرِيلُ تَحْتَ لِوَائِنَا وَمُحَمَّدُ

وَقَالَ ٱلْحَاتِمِيُّ: قَوْلُ ٱلْفَرَزْدَقِ:

تَرَى ٱلنَّاسَ مَا سِرْنَا يَسِيرُونَ خَلْفَنَا ... وَاِنْ نَحْنُ اَوْمَأْنَا اِلَى ٱلنَّاسِ وَقَفُوا

قَالَ وَيَتْلُوهُ قَوْلُ جَرِيرٍ:

اِذَا غَضِبَتْ عَلَيْكَ بَنُو تَمِيمٍ ... وَجَدْتَ ٱلنَّاسَ كُلَّهُمُ غِضَابَا

وَقَالَ آخَرُ: بَلْ قَوْلُ ٱلْفَرَزْدَقِ:

وَنَحْنُ اِذَا عَدَّتْ مَعَدٌّ قَدِيمَهَا ... مَكَانَ ٱلنَّوَاصِي مِنْ وُجُوهِ ٱلسَّوَابِقِ

وَقَالَ غَيْرُهُ: بَلْ قَوْلُ ٱلْفَرَزْدَقِ لِجَرِيرٍ:

فَإِذَا نَظَرْتَ رَأَيْتَ فَوْقَكَ دَارِمًا   وَٱلشَّمْسَ حَيْثُ تَقَطَّعُ ٱلْأَبْصَارُ

وَقِيلَ بَلْ قَوْلُ ٱبْنِ مَيَّادَةَ :

وَلَوْ أَنَّ قَيْسًا قَيْسَ غَيْلَانَ أَقْسَمَتْ
عَلَى ٱلشَّمْسِ لَمْ يَطْلُعْ عَلَيْكَ حِجَابُهَا

وَٱفْخَرُ بَيْتٍ صَنَعَهُ مُحْدَثٌ عِنْدَهُمْ قَوْلُ بَشَّارِ بْنِ بُرْدٍ :

إِذَا مَا غَضِبْنَا غَضْبَةً مُضَرِيَّةً
هَتَكْنَا حِجَابَ ٱلشَّمْسِ أَوْ قَطَرَتْ دَمَا (١)

إِذَا مَا أَعَرْنَا سَيِّدًا مِنْ قَبِيلَةٍ   ذُرَى مِنْبَرٍ صَلَّى عَلَيْنَا وَسَلَّمَا

وَمِنْ جَيِّدِ ٱلِٱفْتِخَارِ قَوْلُ بَكْرِ بْنِ ٱلنَّطَّاحِ :

وَمَنْ يَفْتَقِرْ مِنَّا يَعِشْ بِحُسَامِهِ   وَمَنْ يَفْتَقِرْ مِنْ سَائِرِ ٱلنَّاسِ يَسْأَلِ
وَنَحْنُ وُصِفْنَا دُونَ كُلِّ قَبِيلَةٍ   بِبَأْسٍ شَدِيدٍ فِي ٱلْكِتَابِ ٱلْمُنَزَّلِ
وَإِنَّا لَنَلْهُو فِي ٱلْحُرُوبِ كَمَا لَهَتْ   فَتَاةٌ بِعِقْدٍ أَوْ سِخَابِ قَرَنْفُلِ

يَعْنِي قَوْلَ ٱلْقُرْآنِ : سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ . وَبِسَبَبِ هٰذَا ٱلشِّعْرِ وَأَشْبَاهِهِ طَلَبَهُ ٱلرَّشِيدُ أَشَدَّ طَلَبٍ فَقَالَ : كَيْفَ تَفْتَخِرُ عَلَى مُضَرَ وَمِنْهُمُ ٱلنَّبِيُّ . فَهٰذَا ٱلِٱفْتِخَارُ بِٱلشَّجَاعَةِ خَاصَّةً . وَمِمَّنِ ٱفْتَخَرَ بِٱلْكَثْرَةِ أَوْسُ بْنُ مَغْرَاءَ فَقَالَ :

مَا تَطْلُعُ ٱلشَّمْسُ إِلَّا عِنْدَ أَوَّلِنَا   وَلَا تَغَيَّبُ إِلَّا عِنْدَ آخِرِنَا

وَقَدْ أَنْكَرَ قُدَامَةُ أَنْ يُمْدَحَ ٱلْإِنْسَانُ بِآبَائِهِ دُونَ أَنْ يَكُونَ مَمْدُوحًا بِنَفْسِهِ لِأَنَّ كَثِيرًا مِنَ ٱلنَّاسِ لَا يَكُونُونَ كَآبَائِهِمْ . وَٱلَّذِي

---

(١) ويروى : هتكنا سماء الله او امطرت دما

ذَهَبَ اِلَيْهِ حَسَنٌ. وَانكَرَ ٱلْجُرْجَانِيُّ عَلَى اَبِي ٱلطَّيِّبِ قَوْلَهُ:

مَا بِقَوْمِي شَرُفْتُ بَلْ شَرُفُوا بِي   بَلْ بِنَفْسِي فَخَرْتُ لَا بِجُدُودِي

وَقَالَ اِنَّمَا اَخَذَهُ مِنْ قَوْلِ عَلِيِّ بْنِ جَبَلَةَ حَيْثُ يَقُولُ:

وَمَا سَوَّدَتْ عِجْلًا مَآثِرُ عِنْدَهُمْ   وَلٰكِنْ بِهِمْ سَادَتْ عَلَى غَيْرِهَا عِجْلُ

قَالَ وَهٰذَا مَعْنًى سُوءٍ يَغُضُّ مِنْ حَسَبِ ٱلْمَمْدُوحِ وَيُحَقِّرُ مِنْ شَأْنِ سَلَفِهِ وَاِنَّمَا طَرِيقَةُ ٱلْمَدْحِ اَنْ يَجْعَلَ ٱلْمَمْدُوحَ لِشَرَفِ آبَائِهِ وَٱلْآبَاءِ تَزْدَادُ شَرَفًا بِهِ فَيَجْعَلَ لِكُلٍّ مِنْهُمْ فِي ٱلْفَخْرِ حَظًّا وَفِي ٱلْمَدْحِ نَصِيبًا. وَاِذَا حُصِّلَتِ ٱلْحَقَائِقُ كَانَ ٱلنَّصِيبَانِ مَقْسُومَيْنِ بَلْ كَانَ ٱلْكُلُّ خَالِصًا لِكُلِّ فَرِيقٍ مِنْهُمْ لِاَنَّ شَرَفَ ٱلْوَالِدِ جُزْءٌ مِنْ مِيرَاثِهِ وَمُنْتَقِلٌ اِلَى وَلَدِهِ كَٱنْتِقَالِ مَالِهِ فَاِذَا رُعِيَ وَحُرِثَ ثَبَتَ وَٱزْدَادَ وَاِنْ اُهْمِلَ وَضُيِّعَ هَلَكَ وَكَذٰلِكَ شَرَفُ ٱلْوَالِدِ يَعُمُّ ٱلْقَبِيلَةَ وَلِلْوَلَدِ مِنْهُ ٱلْقِسْمُ ٱلْاَوْفَرُ وَٱلْحَظُّ ٱلْاَكْبَرُ

قَالَ صَاحِبُ ٱلْكِتَابِ: وَٱلَّذِي يَقَعُ عَلَيْهِ ٱلِٱخْتِيَارُ عِنْدَهُمْ مَا نَاسَبَ قَوْلَ ٱلْمُتَوَكِّلِ ٱللَّيْثِيِّ:

لَسْنَا وَاِنْ اَحْسَابُنَا كَرُمَتْ   يَوْمًا عَلَى ٱلْاَحْسَابِ نَتَّكِلُ

نَبْنِي كَمَا كَانَتْ اَوَائِلُنَا   تَبْنِي وَنَفْعَلُ مِثْلَمَا فَعَلُوا

وَقَوْلَ عَامِرِ بْنِ ٱلطُّفَيْلِ:

وَاِنِّي وَاِنْ كُنْتُ ٱبْنَ سَيِّدِ عَامِرٍ   وَفِي ٱلسِّرِّ مِنْهَا وَٱلصَّرِيحِ ٱلْمُهَذَّبِ

فَمَا سَوَّدَتْنِي عَامِرٌ عَنْ وِرَاثَةٍ   اَبَى ٱللّٰهُ اَنْ اَسْمُو بِاُمٍّ وَلَا اَبِ

وَمِنَ ٱلْفَخْرِ مَا قَالَ ٱلْمُوَلَّدُونَ قَوْلُ اِسْحَاقَ بْنِ اِبْرَاهِيمَ ٱلْمَوْصِلِيِّ

يَفخَرُ بِوِلَايَةٍ مِنْ خُزَيمَةَ بْنِ خَازِمٍ ٱلنَّهْشَلِيِّ :

إِذَا مُضَرُ ٱلْحَمْرَاءُ كَانَتْ أَرُومَتِي ... وَقَامَ بِنَصْرِي خَازِمٌ وَٱبْنُ خَازِمِ
عَطَسْتُ بِأَنْفٍ شَامِخٍ وَتَنَاوَلَتْ ... يَدَايَ ٱلثُّرَيَّا قَاعِدًا غَيْرَ قَائِمِ

وَمِنْ قَوْلِ ٱلسَّيِّدِ أَبِي ٱلْحَسَنِ يَفْخَرُ بِقَوْمِهِ بَنِي شَيْبَانَ .

يَا آلَ شَيْبَانَ لَا غَارَتْ نُجُومُكُمُ ... وَلَا خَبَتْ نَارُكُمْ مِنْ بَعْدِ تَوْقِيدِ
أَنْتُمْ دَعَائِمُ هٰذَا ٱلْمُلْكِ مُذْ رَكَضَتْ ... قَبْلَ ٱلْخُيُولُ لِإِبْرَامٍ وَتَوْكِيدِ
ٱلْمُنْعِمُونَ إِذَا مَا أَزْمَةٌ أَزَمَتْ ... وَٱلْوَاهِبُونَ عَتِيقَاتِ ٱلْمَرَاوِيدِ
سُيُوفُكُمْ أَفْقَدَتْ كِسْرَى مَرَازِبَهُ ... فِي يَوْمِ ذِي قَارَ إِذْ جَاؤُوا لِمَوْعُودِ

فَهٰذَا هُوَ ٱلْفَخْرُ ٱلْحَلَالُ غَيْرُ ٱلْمُدَّعَى فِيهِ وَلَا ٱلْمُنْتَحَلِ .
وَعَابَ ٱلْأَصْمَعِيُّ وَغَيْرُهُ قَوْلَ عَامِرِ بْنِ مُعْسِرِ بْنِ أَسْحَمَ يَصِفُ أَسِيرًا :

فَظَلَّ يُجَالِسُ ٱلْمَذَقَاتِ فِينَا ... يُقَادُ كَأَنَّهُ جَمَلٌ رَبِيقُ

وَذٰلِكَ لِأَنَّهُ وَصَفَ أَسِيرَهُمْ بِأَنَّهُ جَائِعٌ يُجَالِسُ ٱلْقَلِيلَ ٱلْمَذُوقَ مِنَ ٱللَّبَنِ إِنَّمَا ذٰلِكَ مِنَ ٱلْجَهْلِ . وَمِنْ أَجْوَدِ قَصِيدَةٍ ٱفْتَخَرَ فِيهَا شَاعِرٌ قَصِيدَةُ ٱلسَّمَوْأَلِ بْنِ عَادِيَاءَ فَإِنَّهُ قَدْ جَمَعَ فِيهَا ضُرُوبَ ٱلْمَادِحِ وَأَنْوَاعَ ٱلْمَفَاخِرِ وَهِيَ مَشْهُورَةٌ

البحث الخامس

في الرثاء

(من الكتاب نفسهِ)

وَلَيسَ بَيْنَ ٱلرِّثَاءِ وَٱلْمَدْحِ فَرْقٌ إِلَّا أَنْ يُخْلَطَ بِٱلرِّثَاءِ شَيْءٌ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ ٱلْمَقْصُودَ بِهِ مَيْتٌ مِثْلَ كَانَ أَوْ عَدِمْنَا كَيْتَ وَكَيْتَ أَوْ مَا شَاكَلَ ذٰلِكَ لِيُعْلَمَ أَنَّهُ مَيْتٌ. وَسَبِيلُ ٱلرِّثَاءِ أَنْ يَكُونَ ظَاهِرَ ٱلتَّفَجُّعِ بَيِّنَ ٱلْحَسْرَةِ مَخْلُوطًا بِٱلتَّلَهُّفِ وَٱلْأَسَفِ وَٱلِاسْتِعْظَامِ إِنْ كَانَ ٱلْمَيْتُ مَلِكًا أَوْ رَئِيسًا كَبِيرًا كَمَا قَالَ ٱلنَّابِغَةُ فِي حِصْنِ بْنِ حُذَيْفَةَ:

يَقُولُونَ حِصْنٌ ثُمَّ تَأْبَى نُفُوسُهُمْ ... وَكَيْفَ بِحِصْنٍ وَٱلْجِبَالُ جُمُوحُ
وَلَمْ تَلْفِظِ ٱلْمَوْتَى ٱلْقُبُورُ وَلَمْ تَزُلْ ... نُجُومُ ٱلسَّمَاءِ وَٱلْأَدِيمُ صَحِيحُ
فَعَمَّا قَلِيلٍ ثُمَّ جَاءَ نَعِيُّهُ ... فَظَلَّ بَذِيُّ ٱلْقَوْمِ وَهُوَ يَنُوحُ

فَهٰذَا وَمَا شَاكَلَهُ رِثَاءُ ٱلْمُلُوكِ وَٱلرُّؤَسَاءِ ٱلْجِلَّةِ وَإِلَى هٰذَا ذَهَبَ أَبُو ٱلْعَتَاهِيَةِ حِينَ قَالَ: (مَاتَ ٱلْخَلِيفَةُ أَيُّهَا ٱلثَّقَلَانِ) فَرَفَعَ ٱلنَّاسُ رُؤُوسَهُمْ وَفَتَحُوا عُيُونَهُمْ وَقَالُوا: أَنْعَاهُ إِلَى ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنْسِ ثُمَّ قَالَ: (فَكَأَنَّنِي أَفْطَرْتُ فِي رَمَضَانِ) يُرِيدُ إِنِّي بِمُجَاهَرَتِي بِهٰذَا ٱلْقَوْلِ كَأَنَّمَا جَاهَرْتُ نَهَارًا بِٱلْإِفْطَارِ فِي رَمَضَانَ فَكُلُّ أَحَدٍ يُنْكِرُ عَلَيَّ ذٰلِكَ وَيَسْتَعْظِمُهُ مِنْ فِعْلِي وَهٰذَا مَعْنًى جَيِّدٌ غَرِيبٌ فِي لَفْظٍ رَدِيٍّ غَيْرِ مُعْرِبٍ عَمَّا فِي ٱلنَّفْسِ. وَمِنْ أَفْضَلِ ٱلرِّثَاءِ قَوْلُ

ٱلْحُسَيْنِ بْنِ مَطِيرٍ يَرْثِي مَعْنَ بْنَ زَائِدَةَ وَيُرْوَى لِأَبْنِ أَبِي حَفْصَةَ:

فَيَا قَبْرَ مَعْنٍ أَنْتَ أَوَّلُ بُقْعَةٍ
مِنَ ٱلْأَرْضِ خُطَّتْ لِلسَّمَاحَةِ مَوْضِعَا
وَيَا قَبْرَ مَعْنٍ كَيْفَ وَارَيْتَ جُودَهُ
وَقَدْ كَانَ مِنْهُ ٱلْبَرُّ وَٱلْبَحْرُ مُتْرَعَا
بَلَى قَدْ وَسِعْتَ ٱلْجُودَ وَٱلْجُودُ مَيِّتٌ
وَلَوْ كَانَ حَيًّا عِشْتَ حَتَّى تَصَدَّعَا
فَتًى عِيشَ فِي مَعْرُوفِهِ بَعْدَ مَوْتِهِ
كَمَا كَانَ بَعْدَ ٱلسَّيْلِ مَجْرَاهُ مَرْتَعَا

وَمِمَّا قَصَّرَ بِهِ أَبُو تَمَّامٍ فِي رِثَائِهِ مُحَمَّدَ بْنَ حُمَيْدٍ بِٱلْقَصِيدَةِ ٱلَّتِي يَقُولُ فِيهَا:

أَلَا فِي سَبِيلِ ٱللهِ مَنْ عُطِّلَتْ لَهُ   فِجَاجُ سَبِيلِ ٱللهِ وَٱنْثَغَرَ ٱلثَّغْرُ

وَقَدْ أَجَادَ أَيْضًا فِي ٱلْقَصِيدَةِ ٱلَّتِي رَثَى بِهَا أَدْرِيسَ بْنَ بَدْرٍ يَقُولُ فِيهَا:

وَلَمْ أَنْسَ سَعْيَ ٱلْجُودِ خَلْفَ سَرِيرِهِ   بِأَكْسَفِ بَالٍ يَسْتَقِلُّ وَيَظْلَعُ

وَأَبُو تَمَّامٍ مِنَ ٱلْمَعْدُودِينَ فِي إِجَادَةِ ٱلرِّثَاءِ وَمِثْلُهُ دِيكُ ٱلْجِنِّ وَهُوَ أَشْهَرُ فِي هٰذَا مِنْ أَبِي تَمَّامٍ لَهُ فِيهِ طَرِيقٌ قَدِ ٱنْفَرَدَ بِهَا قَالَ فِي عُبَيْدِ ٱللهِ بْنِ سُلَيْمَانَ بْنِ وَهْبٍ:

قَدِ ٱسْتَوَى ٱلنَّاسُ وَمَاتَ ٱلْكَمَالْ   وَصَاحَ صَرْفُ ٱلدَّهْرِ أَيْنَ ٱلرِّجَالْ
هٰذَا أَبُو ٱلْقَاسِمِ فِي نَعْشِهِ   قُومُوا ٱنْظُرُوا كَيْفَ تَسِيرُ ٱلْجِبَالْ

وَمِنْ عَادَةِ ٱلْقُدَمَاءِ اَنْ يَضْرِبُوا ٱلْأَمْثَالَ فِي ٱلْمَرَاثِي بِٱلْمُلُوكِ ٱلْأَعِزَّةِ وَٱلْأُمَمِ ٱلسَّالِفَةِ وَبِٱلْوُعُولِ ٱلْمُمْتَنِعَةِ فِي قُلَلِ ٱلْجِبَالِ وَٱلْأُسُودِ ٱلْخَادِرَةِ فِي ٱلْغِيَاضِ وَحُمُرِ ٱلْوَحْشِ ٱلْمُتَصَرِّفَةِ بَيْنَ ٱلْقِفَارِ وَبِٱلنُّسُورِ وَٱلْعِقْبَانِ وَٱلْحَيَّاتِ لِبَأْسِهَا وَطُولِ اَعْمَارِهَا وَذٰلِكَ فِي اَشْعَارِهِمْ كَثِيرٌ مَوْجُودٌ لَا تَكَادُ تَخْلُو مِنْهُ. فَامَّا ٱلْمُحْدَثُونَ فَهُمْ اِلَى غَيْرِ هٰذِهِ ٱلطَّرِيقَةِ اَمْيَلُ وَمَذْهَبُهُمْ فِي ٱلرِّثَاءِ اَمْثَلُ فِي وَقْتِنَا هٰذَا وَقَبْلَهُ وَرُبَّمَا جَرَوْا عَلَى سُنَنِ مَنْ قَبْلَهُمْ اقْتِدَاءً بِهِمْ وَاَخْذًا بِسُنَّتِهِمْ كَٱلَّذِي صَنَعَ اَبُو نُوَاسٍ فِي رِثَائِهِ اَبَا ٱلْوَلِيدِ ٱلْأَعْرَابِيَّ وَخَلَفًا ٱلْأَحْمَرَ وَمَرَاثِيهِ فِيهِمَا ثَلَاثُ قَوَافٍ مَشْهُورَاتٌ

وَكَمَا صَنَعَ ٱبْنُ ٱلْمُعْتَزِّ يَرْثِي آبَاهُ بِٱلْقَصِيدَةِ ٱللَّامِيَّةِ ٱلْمُقَيَّدَةِ فِي ٱلرَّمَلِ اَوَّلُهَا :

رُبَّ حَتْفٍ بَيْنَ اَثْنَاءِ ٱلْأَمَلْ ... وَحَيَاةُ ٱلْمَرْءِ ظِلٌّ مُنْتَقِلْ

وَهِيَ مَعْرُوفَةٌ وَلَوْلَا اشْتِهَارُ هٰذِهِ ٱلْقَصَائِدِ وَوُجُودُهَا وَخِيفَةُ ٱلتَّطْوِيلِ لَأَثْبَتُّهَا بِهٰذَا ٱلْمَوْضِعِ وَلَيْسَ مِنْ عَادَةِ ٱلشُّعَرَاءِ اَنْ يُقَدِّمُوا قَبْلَ ٱلرِّثَاءِ نَسِيبًا كَمَا يَصْنَعُونَ فِي ٱلْمَدْحِ وَٱلْهِجَاءِ. قَالَ ٱبْنُ ٱلْكَلْبِيِّ وَكَانَ عَلَّامَةً لَا اَعْرِفُ مَرْثِيَةً فِي اَوَّلِهَا نَسِيبٌ اِلَّا قَصِيدَةَ دُرَيْدِ بْنِ ٱلصِّمَّةِ فِي رِثَاءِ اَخِيهِ خَالِدٍ :

اَرَثَّ جَدِيدُ ٱلْحَبْلِ مِنْ اُمِّ مَعْبَدِ ... لِعَاقِبَةٍ اَوْ اَخْلَفَتْ كُلَّ مَوْعِدِ

وَحَكَى ٱلنَّحَّاسُ عَنْ عَلِيِّ بْنِ سُلَيْمَانَ عَنْ اَبِي ٱلْعَبَّاسِ ٱلْأَحْوَلِ اَنَّ ٱلْقَصِيدَةَ ٱلَّتِي لِأَبِي قُحَافَةَ اَعْشَى بَاهِلَةَ اِنَّمَا هِيَ لِٱبْنَةِ ٱلْمُنْتَشِرِ

وَأَسْمُهَا ٱلدَّعْجَاءُ. وَٱلْحَاصِلُ أَنَّ ٱلْمُتَعَارَفَ عِنْدَ أَهْلِ ٱللُّغَةِ أَنَّهُ لَيْسَ لِلْعَرَبِ فِي ٱلْجَاهِلِيَّةِ مَرْثِيَّةٌ أَوَّلُهَا تَشْبِيبٌ إِلَّا قَصِيدَةُ دُرَيْدٍ. وَأَنَا أَقُولُ إِنَّهُ ٱلْوَاجِبُ فِي ٱلْجَاهِلِيَّةِ وَٱلْإِسْلَامِ إِلَى وَقْتِنَا هٰذَا وَمِنْ بَعْدِهِ لِأَنَّ ٱلْآخِذَ فِي ٱلرِّثَاءِ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ مَشْغُولًا عَنِ ٱلتَّشْبِيبِ بِمَا هُوَ فِيهِ مِنَ ٱلْحَسْرَةِ وَٱلْاِهْتِمَامِ بِٱلْمُصِيبَةِ وَإِنَّمَا تَغَزَّلَ دُرَيْدٌ بَعْدَ قَتْلِ أَخِيهِ بِسَنَةٍ وَحِينَ أَخَذَ بِثَارِهِ وَأَدْرَكَ طَائِلَتَهُ

وَمِنَ ٱلْعَجِيبِ أَنْ يَقُولَ عَبْدَةُ بْنُ ٱلطَّيِّبِ فِي تَأْبِينِ قَيْسِ بْنِ عَاصِمٍ ٱلْمِنْقَرِيِّ:

عَلَيْكَ سَلَامُ ٱللّٰهِ قَيْسَ بْنَ عَاصِمٍ ... وَرَحْمَتُهُ مَا شَاءَ أَنْ يَتَرَحَّمَا

وَيَقُولَ ٱلْكُمَيْتُ فِي تَأْبِينِ ٱلنَّبِيِّ هٰذَا ٱلْقَوْلَ فَهَلَّا قَالَ مِثْلَ قَوْلِ فَاطِمَةَ:

ٱغْبَرَّ آفَاقُ ٱلسَّمَاءِ وَكُوِّرَتْ ... شَمْسُ ٱلنَّهَارِ وَأَظْلَمَ ٱلْعَصْرَانِ

وَٱلنِّسَاءُ أَشْجَى ٱلنَّاسِ قُلُوبًا عِنْدَ ٱلْمُصِيبَةِ وَأَشَدُّهُمْ جَزَعًا عَلَى هَالِكٍ لِمَا رَكَّبَ ٱللّٰهُ تَعَالَى فِي طِبَاعِهِنَّ مِنْ ضَعْفِ ٱلْعَزِيمَةِ

فَٱنْظُرْ إِلَى قَوْلِ جَلِيلَةَ بِنْتِ مُرَّةَ تَرْثِي زَوْجَهَا كُلَيْبًا حِينَ قَتَلَهُ أَخُوهَا جَسَّاسٌ مَا أَشْجَى لَفْظَهَا وَأَظْهَرَ ٱلْفَجِيعَةَ فِيهِ وَكَيْفَ يُثِيرُ ٱلْأَشْجَانَ وَيَقْدَحُ شَرَرَ ٱلنِّيرَانِ وَذٰلِكَ:

يَا ٱبْنَةَ ٱلْأَقْوَامِ إِنْ لُمْتِ فَلَا ... تَعْجَلِي بِٱللَّوْمِ حَتَّى تَسْأَلِي

وَمِنْ أَشَدِّ ٱلرِّثَاءِ صُعُوبَةً عَلَى ٱلشَّاعِرِ أَنْ يَرْثِيَ طِفْلًا أَوِ ٱمْرَأَةً لِضِيقِ ٱلْكَلَامِ عَلَيْهِ فِيهِمَا وَقِلَّةِ ٱلصِّفَاتِ. أَلَا تَرَى مَا صَنَعُوا بِأَبِي

ٱلطَّيِّبِ وَهُوَ نَحْلٌ مُجَرَّدٌ إِذْ ذَكَرَ ٱلْمُحَدِّثُونَ فِي قَوْلِهِ يَذْكُرُ أُمَّ سَيْفِ ٱلدَّوْلَةِ :

صَلَاةُ ٱللهِ خَالِقِنَا حَنُوطٌ عَلَى ٱلْوَجْهِ ٱلْمُكَفَّنِ بِٱلْجَمَالِ

وَقَالُوا مَا لَهُ وَلِهٰذِهِ ٱلْعَجُوزِ يَصِفُ جَمَالَهَا وَقَالَ ٱلصَّاحِبُ بْنُ عَبَّادٍ : هٰذِهِ ٱسْتِعَارَةُ حِدَادٍ فِي عُرْسٍ فَإِنْ كَانَ أَرَادَ ٱلصَّاحِبُ بِٱلِٱسْتِعَارَةِ ٱلْحَنُوطَ فَقَدْ وَٱللهِ ظَلَمَ وَتَعَسَّفَ وَإِنْ كَانَ أَرَادَ ٱسْتِعَارَةَ ٱلْكَفَنِ لِجَمَالِ ٱلْعَجُوزِ فَقَدِ ٱعْتَرَضَ فِي مَوْضِعِ ٱعْتِرَاضٍ إِلَى مَوَاضِعَ كَثِيرَةٍ فِي هٰذِهِ ٱلْقَصِيدَةِ مَا يَمْحَقُ كُلَّ زَلَّةٍ وَيُعَفِّي كُلَّ إِسَاءَةٍ . قَالَ ٱلصَّاحِبُ بْنُ عَبَّادٍ وَلَقَدْ مَرَرْتُ عَلَى مَرْثِيَةٍ لَهُ فِي أُمِّ سَيْفِ ٱلدَّوْلَةِ تَدُلُّ مَعَ فَسَادِ ٱلْحِسِّ عَلَى سُوءِ أَدَبِ ٱلنَّفْسِ وَمَا ظَنُّكَ بِمَنْ يُخَاطِبُ مَلِكًا فِي أُمِّهِ بِقَوْلِهِ :

رِوَاقُ ٱلْعِزِّ فَوْقَكَ مُسْبَطِرٌّ وَمُلْكُ عَلِيٍّ ٱبْنِكَ فِي كَمَالِ

وَلَعَلَّ لَفْظَ ٱلِٱسْبِطْرَارِ فِي مَرَاثِي ٱلنِّسَاءِ مِنَ ٱلْخِذْلَانِ ٱلصَّفِيقِ ٱلرَّقِيقِ . وَأَنَا أَقُولُ إِنَّ أَشَدَّ مَا هَجَّنَ هٰذِهِ ٱللَّفْظَةَ وَجَعَلَهَا مَقَامَ قَصِيدَةِ هِجَاءٍ أَنَّهُ قَرَنَهَا بِفَوْقَكَ فَجَاءَ عَمَلًا تَامًّا لَمْ يَبْقَ فِيهِ إِلَّا فَضَاءٌ

وَمِنْ أَصْعَبِ ٱلرِّثَاءِ أَيْضًا جَمْعُ تَعْزِيَةٍ وَتَهْنِئَةٍ فِي مَوْضِعٍ قَالُوا: لَمَّا مَاتَ مُعَاوِيَةُ ٱجْتَمَعَ ٱلنَّاسُ بِبَابِ يَزِيدَ فَلَمْ يَقْدِرْ أَحَدٌ عَلَى ٱلْجَمْعِ بَيْنَ ٱلتَّعْزِيَةِ وَٱلتَّهْنِئَةِ حَتَّى أَتَى عَبْدُ ٱللهِ ٱبْنُ هَمَّامٍ ٱلسَّلُولِيُّ فَدَخَلَ فَقَالَ : يَا أَمِيرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجَرَكَ ٱللهُ عَلَى ٱلرَّزِيَّةِ . وَبَارَكَ لَكَ فِي ٱلْعَطِيَّةِ . وَأَعَانَكَ عَلَى ٱلرَّعِيَّةِ . فَقَدْ رُزِيتَ عَظِيمًا وَأُعْطِيتَ فَٱشْكُرْ

ٱللهَ عَلَى مَا أُعطِيتَ وَٱصْبِرْ عَلَى مَا رُزِيتَ فَقَدتَّ خَلِيفَةَ ٱللهِ وَأُعطِيتَ خِلَافَةَ ٱللهِ فَفَارَقتَ جَلِيلًا وَأُعطِيتَ عَظِيمًا إِذْ قَضَى مُعَاوِيَةُ نَحْبَهُ وَوُلِّيتَ ٱلرِّئَاسَةَ وَأُعطِيتَ ٱلسِّيَاسَةَ فَأَوْرَدَهُ ٱللهُ مَوَارِدَ ٱلسُّرُورِ وَوَفَّقَكَ لِمَصَالِحِ ٱلأُمُورِ :

فَٱصْبِرْ يَزِيدُ فَقَدْ فَارَقْتَ ذَا ثِقَةٍ
فَٱشْكُرْ حِبَاءَ ٱلَّذِي بِٱلْمُلْكِ أَصْفَاكَا
لَا رُزْءَ أَصْبَحَ فِي ٱلأَيَّامِ نَعْلَمُهُ   كَمَا رُزِيتَ وَلَا عُقْبَى كَعُقْبَاكَا

فَفَتَحَ لِلنَّاسِ بَابَ ٱلْقَوْلِ وَعَلَى هٰذَيْنِ ٱلْبَيْتَيْنِ جَرَى ٱلشُّعَرَاءُ بَعْدَهُ

قَالَ أَبُو نُوَاسٍ يُعَزِّي ٱلْفَضْلَ بْنَ ٱلرَّبِيعِ وَيُهَنِّيهِ بِٱلأَمِينِ :

تَعَزَّ أَبَا ٱلْعَبَّاسِ عَنْ خَيْرِ هَالِكٍ   بِأَكْرَمِ حَيٍّ كَانَ أَوْ هُوَ كَائِنُ
حَوَادِثُ أَيَّامٍ تَدُورُ صُرُوفُهَا   لَهُنَّ مَسَاوٍ مَرَّةً وَمَحَاسِنُ
وَفِي ٱلْحَيِّ بِٱلْمَيْتِ ٱلَّذِي غَيَّبَ ٱلثَّرَى
فَلَا ٱلْمُلْكُ مَغْبُونٌ وَلَا ٱلْمَوْتُ غَابِنُ

وَيُرْوَى فَلَا أَنْتَ مَغْبُونٌ . وَأَتْبَعَهُ أَبُو تَمَّامٍ بِٱلْقَصِيدَةِ ٱلَّتِي أَوَّلُهَا (مَا لِلدُّمُوعِ تَرُومُ كُلَّ مَرَامِ) يَقُولُ فِيهَا فِي ٱلْوَاثِقِ بَعْدَ ٱلْمُعْتَصِمِ صَرَفَ فِيهَا ٱلْكَلَامَ حَيْثُ شَاءَ وَأَطْنَبَ كَمَا أَرَادَ وَأَحْتَجَّ وَأَسْهَبَ وَتَقَدَّمَ فِيهَا عَلَى مَنْ سَلَكَ هٰذِهِ ٱلنَّاحِيَةَ مِنَ ٱلشِّعْرِ . وَأَرَادَ ٱبْنُ ٱلزَّيَّاتِ مُجَارَاتَهُ فَعَلِمَ مِنْ نَفْسِهِ ٱلتَّقْصِيرَ فَٱقْتَصَرَ عَلَى :

قَدْ قُلْتُ إِنْ غَيَّبُوكَ وَٱصْطَفَقَتْ   عَلَيْكَ أَيْدٍ بِٱلتُّرْبِ وَٱلطِّينِ
ٱذْهَبْ فَنِعْمَ ٱلْمُعِينُ كُنْتَ عَلَى ٱلدُّ   نْيَا وَنِعْمَ ٱلظَّهِيرُ لِلدِّينِ

لَنْ يَجْبُرَ ٱللهُ أُمَّةً فَقَدَتْ مِثْلَكَ إِلَّا بِمِثْلِ هَارُونِ

وَمِنْ جَيِّدِ مَا رُثِيَ بِهِ ٱلنِّسَاءُ وَأَشَدِّهِ تَأْثِيرًا فِي ٱلْقَلْبِ وَإِثَارَةً لِلْحُزْنِ قَوْلُ ٱبْنِ عَبْدِ ٱلْمَلِكِ هٰذَا فِي أُمِّ وَلَدِهِ:

أَلَا مَنْ رَأَى ٱلطِّفْلَ ٱلْمُفَارِقَ أُمَّهُ
بُعَيْدَ ٱلْكَرَى عَيْنَاهُ تَبْتَدِرَانِ

يَقُولُ فِيهَا:

أَلَا إِنَّ سَجْلًا وَاحِدًا قَدْ أَرَقْتُهُ مِنَ ٱلدَّمْعِ أَوْ سَجْلَيْنِ قَدْ شَفَيَانِي
وَإِنَّ مَكَانًا فِي ٱلثَّرَى خُطَّ لَحْدُهُ
لَمَنْ كَانَ فِي قَلْبِي بِكُلِّ مَكَانِ

وَمِنْ أَشْجَى ٱلشِّعْرِ رِثَاءً قَوْلُهُ فِي هٰذِهِ ٱلْقَصِيدَةِ:

فَهَبْنِي عَدِمْتُ ٱلصَّبْرَ عَنْهَا لِأَنَّنِي جَلِيدٌ فَمَنْ بِٱلصَّبْرِ لِٱبْنِ ثَمَانِ

فَهٰذِهِ ٱلطَّرِيقُ هِيَ ٱلَّتِي يَجْرِي حُذَّاقُ ٱلشُّعَرَاءِ إِلَيْهَا وَيَعْتَمِدُونَ فِي ٱلرِّثَاءِ عَلَيْهَا مَا لَمْ تَكُنِ ٱلْمَرْثِيَّةُ مِنْ نِسَاءِ ٱلْمُلُوكِ وَبَنَاتِ ٱلْأَشْرَافِ وَغَيْرِ ذَوَاتِ مَحَارِمِ ٱلشَّاعِرِ فَإِنَّهُ يَتَجَافَى عَنْ هٰذِهِ ٱلطَّرِيقَةِ إِلَى أَرْفَعَ مِنْهَا نَحْوُ قَوْلِ أَبِي ٱلطَّيِّبِ:

وَلَوْ أَنَّ ٱلنِّسَاءَ كَمَنْ فَقَدْنَا لَفُضِّلَتِ ٱلنِّسَاءُ عَلَى ٱلرِّجَالِ

وَقَوْلِهِ فِي هٰذِهِ ٱلْقَصِيدَةِ:

مَشَى ٱلْأُمَرَاءُ حَوْلَيْهَا حُفَاةً كَأَنَّ ٱلْمَرْوَ مِنْ زِفِّ ٱلرِّئَالِ

وَقَوْلِهِ لِأُخْتِ سَيْفِ ٱلدَّوْلَةِ:

يَا أُخْتَ خَيْرِ أَخٍ يَا بِنْتَ خَيْرِ أَبٍ كِنَايَةً بِهِمَا عَنْ أَشْرَفِ ٱلنَّسَبِ

ٱلعَتَاهِيَةِ لِعَمْرِو بْنِ ٱلعَـلَاءِ. وَٱبْنُ ٱلْمُعْتَزِّ يُسَمِّي هٰذَا ٱلنَّوْعَ مَزْحًا يُرَادُ بِهِ ٱلْجِدُّ وَهُوَ:

اَصَابَتْ عَلَيْنَا جُودَكَ ٱلعَيْنُ يَا عُمَرْ فَنَحْنُ لَهَا نَبْغِي ٱلتَّمَائِمَ وَٱلنُّشَرْ
سَنَرْقِيـكَ بِٱلْاَشْعَارِ حَتَّى تَمَلَّهَا فَاِنْ لَمْ تُفِقْ مِنْهَا رَقَيْنَاكَ بِٱلسُّوَرْ

وَكُنْتُ مَنَعْتُ فِي ٱلِٱسْتِبْطَاءِ:

اَحْسَنْتَ فِي تَأْخِيرِهَا مِنَّـةً لَوْ لَمْ تُؤَخَّرْ لَمْ تَـكُنْ كَامِلَهْ
وَكَيْفَ لَا يَحْسُنُ تَأْخِـيرُهَا بَعْـدَ يَقِينِي اَنَّهَا حَاصِـلَهْ
وَجَنَّةُ ٱلفِرْدَوْسِ يُدْعَى بِهَـا آجِـلَةً لِلْمَرْءِ لَا عَاجِـلَهْ
لٰـكِنَّمَا اَضْعَفَ مِنْ نِيَّتِي اَيَّامُ عَمْرٍو دُونَهَا زَائِلَهْ

وَٱلْعِتَابُ اَوْسَعُ جِدًّا مِنَ ٱلِٱقْتِضَاءِ لِاَنَّهُ يَـكُونُ مِثْلَهُ بِسَبَبِ ٱلْحَاجَاتِ وَقَدْ يَـكُونُ بِسَبَبِ غَيْرِهَا كَثِـيرًا وَٱلِٱقْتِضَاءُ لَا يَـكُونُ اِلَّا فِي حَاجَةٍ

البحث السابع

في العتاب

(من الكتاب نفسهِ)

وَاِنْ كَانَ حَيَاةَ ٱلْمَوَدَّةِ وَشَاهِدَ ٱلْوَفَاءِ فَاِنَّهُ بَابٌ مِنْ اَبْوَابِ ٱلْخَدِيعَةِ وَسَبَبٌ مِنْ اَسْبَابِ ٱلْقَطِيعَةِ وَٱلْجَفَاءِ وَاِذَا قَلَّ كَانَ دَاعِيَةَ ٱلْاُلْفَةِ وَقَيْدَ ٱلصُّحْبَةِ وَاِذَا كَثُرَ خَشُنَ جَانِبُهُ وَثَقُلَ صَاحِبُهُ. وَلِلْعِتَابِ طُرُقٌ كَثِيرَةٌ وَٱلنَّاسُ فِيهِ ضُرُوبٌ مُخْتَلِفَةٌ فَمِنْهُ مَا يُمَازِجُهُ ٱلِٱسْتِعْطَافُ

وَٱلِٱسْتِئْلَافُ وَمِنْهُ مَا يَدْخُلُهُ ٱلِٱحْتِجَاجُ وَٱلِٱنْتِصَافُ . وَقَدْ يَعْرِضُ فِيهِ ٱلْمَنُّ وَٱلِٱجْحَافُ . مِثْلَ مَا يَشْرَكُهُ ٱلِٱعْتِذَارُ وَٱلِٱعْتِرَافُ . وَأَحْسَنُ ٱلنَّاسِ طَرِيقًا فِي عِتَابِ ٱلْأَشْرَافِ شَيْخُ ٱلصِّنَاعَةِ وَسَيِّدُ ٱلْجَمَاعَةِ أَبُو عِبَادَةَ ٱلْبُحْتُرِيُّ ٱلَّذِي يَقُولُ :

يُرِيبُنِي ٱلشَّيْءُ تَأْتِي بِهِ ... وَأُكْبِرُ قَدْرَكَ أَنْ أَسْتَرِيبَا
وَأَكْرَهُ أَنْ أَتَمَادَى عَلَى ... سَبِيلِ ٱعْتِذَارٍ فَأَلْقَى شَعُوبَا
أُكَذِّبُ ظَنِّي بِأَنْ قَدْ سَخِطْتَ ... وَمَا كُنْتُ أَعْهَدُ ظَنِّي كَذُوبَا
وَلَوْ لَمْ تَكُنْ سَاقِطًا لَمْ أَكُنْ ... أَذُمُّ ٱلزَّمَانَ وَأَشْكُو ٱلْخُطُوبَا
وَلَا بُدَّ مِنْ لَوْمَةٍ أَنْتَحِي ... عَلَيْكَ بِهَا مُخْطِئًا أَوْ مُصِيبَا
أَيُصْبِحُ وِرْدِي فِي سَاحَتَيْكَ ... طَرْقًا وَمَرْعَايَ مَحْلًا جَدِيبَا
فَفِي كُلِّ يَوْمٍ لَنَا مَوْقِفٌ ... يُشَقِّقُ فِيهِ ٱلْوَدَاعُ ٱلْجُيُوبَا

وَٱلَّذِي يَقُولُ :

وَأَغْيَدَ إِنْ نَازَعْتَهُ ٱللَّحْظَ رَدَّهُ ... كَلِيلًا وَإِنْ رَاجَعْتَهُ ٱلْقَوْلَ جَمْجَمَا
ثَنَاهُ ٱلْعِدَا عَنِّي فَأَصْبَحَ مُعْرِضًا ... وَأَوْهَمَهُ ٱلْوَاشُونَ حَتَّى تَوَهَّمَا
وَقَدْ كَانَ سَهْلًا وَاضِحًا فَتَوَعَّرَتْ ... رُبَاهُ وَطَلْقًا ضَاحِكًا فَتَجَهَّمَا
يُخَوِّفُنِي مِنْ سُوءِ رَأْيِكَ مَعْشَرٌ ... وَلَا خَوْفَ إِلَّا أَنْ تَجُورَ وَتَظْلِمَا
أُعِيذُكَ أَنْ أَخْشَاكَ مِنْ غَيْرِ حَادِثٍ ... تَبَيَّنَ مِنْ جُرْمٍ إِلَيْكَ تَقَدَّمَا
أَلَسْتُ ٱلْمُوَالِي فِيكَ نَظْمَ قَصَائِدٍ ... هِيَ ٱلْأَنْجُمُ ٱقْتَادَتْ مَعَ ٱللَّيْلِ أَنْجُمَا

فَهٰذَا اَعْتَبُ كَمَا قَالَ :

عِتَابٌ بِاَطْرَافِ ٱلْقَوَافِي كَاَنَّهُ   طِعَانٌ بِاَطْرَافِ ٱلْقَنَا ٱلْمُتَكَسِّرِ

وَقَدْ نَحَوْتُ اَنَا بَعْضَ هٰذَا ٱلنَّحْوِ فِي كَلِمَةٍ عَاتَبْتُ بِهَا ٱلْقَاضِيَ جَعْفَرَ بْنَ عَبْدِ ٱللهِ ٱلْكُوفِيَّ قُلْتُ فِيهَا :

وَقَدْ كُنْتُ لَا آتِي اِلَيْكَ مُخَايِلًا   لَدَيْكَ وَلَا اُثْنِي عَلَيْكَ تَصَنُّعَا

وَلٰكِنْ رَاَيْتُ ٱلْمَدْحَ فِيكَ فَرِيضَةً   عَلَيَّ اِذَا كَانَ ٱلْمَدِيحُ تَطَوُّعَا

فَقُمْتُ بِمَا لَا يَخْفَى عَنْكَ مَكَانُهُ   مِنَ ٱلْقَوْلِ حَتَّى ضَاقَ مِمَّا تَوَسَّعَا

اِلَى اَنْ اَقُولَ :

فَوَٱللهِ مَا طَوَّلْتُ بِاللَّوْمِ فِيكُمُ   لِسَانِي وَلَا عَرَّضْتُ لِلذَّمِّ مِسْمَعَا

اَلُوذُ بِاَكْنَافِ ٱلرَّجَاءِ وَاَتَّقِي   شَمَاتَ ٱلْعِدَا اِنْ لَمْ اَجِدْ فِيكَ مَطْمَعَا

وَمِنْ مُعَاتَبَاتِ اَبِي تَمَّامٍ قَوْلُهُ لِاَبْنِ عَبْدِ ٱلْمَلِكِ ٱلزَّيَّاتِ :

تَقَطَّعَتِ ٱلْاَسْبَابُ اِنْ لَمْ تُعِرْ لَهَا
قُوًى اَوْ يَصِلْهَا مِنْ يَمِينِكَ وَاصِلُ

سِوَى مَطْلَبٍ يُنْضِي ٱلرَّجَاءَ بِطُولِهِ
وَتَخْلُقُ اَخْلَاقَ ٱلْجُفُونِ ٱلْوَسَائِلُ

وَقَدْ تَأْلَفُ ٱلْعَيْنُ ٱلدُّجَى وَهْوَ قَيْدُهَا
وَيُرْجَى شِفَاءُ ٱلسَّمِّ وَٱلسَّمُّ قَاتِلُ

اِلَى قَوْلِهِ :

وَاِنَّ ٱلْمَعَالِي يُسْتَرَمُّ بِنَاؤُهَا   وَشِيكًا كَمَا قَدْ تُسْتَرَمُّ ٱلْمَنَازِلُ

مَنَحْتُكُهَا تَشْفِي ٱلْجَوَى وَهْوَ لَاعِجٌ   وَتَبْعَثُ اَشْجَانَ ٱلْفَتَى وَهْوَ ذَاهِلُ

تُرَدُّ قَوَافِيهَا اِذَا هِيَ أُرْسِلَتْ ... هَوَامِلَ مَجْدِ ٱلْقَوْمِ وَهْيَ هَوَامِلُ

فَكَيْفَ اِذَا حَلَّيْتَهَا بِحُلِيِّهَا ... تَكُونُ وَهٰذَا حُسْنُهَا وَهْيَ عَاطِلُ

وَقَالَ ٱبْنُ ٱلرُّومِيِّ لِاَبِي ٱلصَّقْرِ يُعَاتِبُهُ فِي قَصِيدَةٍ جَيِّدَةٍ :

عَذَرْتُكَ لَوْ كَانَتْ سَمَاءٌ تَقَشَّعَتْ ... سَحَابَتُهَا اَوْ كَانَ رَوْضًا تَصَوَّحَا

فَمَا لَكَ بَحْرًا لَمْ اَجِدْ فِيهِ مَشْرَعًا ... وَاِنْ كَانَ غَيْرِي وَاجِدًا فِيهِ مَسْبَحَا

مَدِيحِي عَصَا مُوسَى وَذٰلِكَ اَنَّنِي ... ضَرَبْتُ بِهِ بَحْرَ ٱلنَّدَى فَتَضَحْضَحَا

اِلَى اَنْ يَقُولَ :

سَاَمْدَحُ بَعْضَ ٱلْبَاخِلِينَ لَعَلَّهُ ... اِذَا اَطَّرَدَ ٱلْمِقْيَاسُ اَنْ يَتَسَمَّحَا

فَهٰذَا هُوَ ٱلَّذِي لَا يُبْلَغُ جُودَةً وَلَا يُجَارَى سَبْقًا. عَلَى اَنَّ ٱلْبُحْتُرِيَّ قَدْ تَقَدَّمَ اِلَى بَعْضِ ٱلْمَعْنَى فِي قَوْلِهِ لِلْفَتْحِ بْنِ خَاقَانَ :

غَمَامٌ خَطَا فِي صَوْبِهِ وَهْوَ مُسْبِلٌ ... وَبَحْرٌ عَدَا فِي فَيْضِهِ وَهْوَ مُنْعِمُ

وَبَدْرٌ اَضَاءَ ٱلْاَرْضَ شَرْقًا وَمَغْرِبًا ... وَمَوْضِعُ رَحْلِي مِنْهُ اَسْوَدُ اَقْتَمُ

وَمَا بَخِلَ ٱلْفَتْحُ بْنُ خَاقَانَ بِٱلنَّدَى ... وَلٰكِنَّهَا ٱلْاَقْدَارُ تُعْطِي وَتَحْرِمُ

فَاَمَّا اَبُو ٱلطَّيِّبِ فَكَانَتْ فِي طَبْعِهِ غِلْظَةٌ وَفِي عِتَابِهِ شِدَّةٌ وَكَانَ كَثِيرَ ٱلتَّحَامُلِ ظَاهِرَ ٱلْكِبْرِ وَٱلْاَنَفَةِ وَمَا ظَنُّكَ بِمَنْ يَقُولُ لِسَيْفِ ٱلدَّوْلَةِ :

يَا اَعْدَلَ ٱلنَّاسِ اِلَّا فِي مُعَامَلَتِي ... فِيكَ ٱلْخِصَامُ وَاَنْتَ ٱلْخَصْمُ وَٱلْحَكَمُ

اُعِيذُهَا نَظَرَاتٍ مِنْكَ صَادِقَةً ... اَنْ تَحْسَبَ ٱلشَّحْمَ فِي مَنْ شَحْمُهُ وَرَمُ

وَمَا ٱنْتِفَاعُ اَخِي ٱلدُّنْيَا بِنَاظِرِهِ ... اِذَا ٱسْتَوَتْ عِنْدَهُ ٱلْاَنْوَارُ وَٱلظُّلَمُ

وَفِيهَا يَقُولُ :

إِذَا رَأَيْتَ نُيُوبَ ٱللَّيْثِ بَارِزَةً   فَلَا تَظُنَّنَّ أَنَّ ٱللَّيْثَ مُبْتَسِمُ

فَهٰذَا ٱلْكَلَامُ فِي نِهَايَةِ ٱلْجُودَةِ غَيْرَ أَنَّهُ مِنْ جِهَةِ ٱلْوَاجِبِ وَٱلسِّيَاسَةِ غَايَةٌ فِي ٱلْقُبْحِ وَٱلرَّدَاءَةِ وَإِنَّمَا عَرَّضَ بِقَوْمٍ يَنْتَقِصُونَهُ عِنْدَ سَيْفِ ٱلدَّوْلَةِ وَيُعَارِضُونَهُ فِي أَشْعَارِهِ . وَٱلْإِشَارَةُ كُلُّهَا إِلَى سَيْفِ ٱلدَّوْلَةِ. ثُمَّ قَالَ بَعْدَ أَبْيَاتٍ :

يَا مَنْ يَعِزُّ عَلَيْنَا أَنْ نُفَارِقَهُ   وِجْدَانُنَا كُلَّ شَيْءٍ بَعْدَكُمْ عَدَمُ
مَا كَانَ أَخْلَقَنَا مِنْكُمْ بِتَكْرِمَةٍ   لَوْ أَنَّ أَمْرَكُمْ مِنْ أَمْرِنَا أَمَمُ
وَبَيْنَنَا لَوْ رَعَيْتُمْ ذَاكَ مَعْرِفَةٌ   إِنَّ ٱلْمَعَارِفَ فِي أَهْلِ ٱلنُّهَى ذِمَمُ
كَمْ تَطْلُبُونَ لَنَا عَيْبًا فَيُعْجِزُكُمْ   وَٱللّٰهُ يَكْرَهُ مَا تَأْتُونَ وَٱلْكَرَمُ
مَا أَبْعَدَ ٱلْعَيْبَ وَٱلنُّقْصَانَ مِنْ شَرَفِي   أَنَا ٱلثُّرَيَّا وَذَانِ ٱلشَّيْبُ وَٱلْهَرَمُ

وَلَيْسَ هٰذَا عِتَابًا لٰكِنَّهُ سِبَابٌ وَبِسَبَبِ هٰذِهِ ٱلْقَصِيدَةِ كَادَ يُقْتَلُ بَعْدَ ٱنْصِرَافِهِ مِنْ مَجْلِسِ إِنْشَادِهَا . وَأَمَّا عِتَابُ ٱلْأَكْفَاءِ وَأَهْلِ ٱلْمَوَدَّاتِ مِنَ ٱلظُّرَفَاءِ فَمِنْهُ قَوْلُ إِبْرَاهِيمَ بْنِ عَبَّاسٍ ٱلصَّوْلِيِّ يُعَاتِبُ مُحَمَّدَ بْنَ عَبْدِ ٱلْمَلِكِ ٱلزَّيَّاتَ وَقَدْ تَغَيَّرَ عَلَيْهِ كَمَا وَرَدَ :

وَكُنْتَ أَخِي بِإِخَاءِ ٱلزَّمَانِ   فَلَمَّا نَبَا صِرْتَ حَرْبًا عَوَانَا
وَكُنْتُ أَذُمُّ إِلَيْكَ ٱلزَّمَانَ   فَأَصْبَحْتُ فِيكَ أَذُمُّ ٱلزَّمَانَا
وَكُنْتُ أُعِدُّكَ لِلنَّائِبَاتِ   فَهَا أَنَا أَطْلُبُ مِنْكَ ٱلْأَمَانَا

وَهٰذَا عِنْدِي مِنْ أَشَدِّ ٱلْعِتَابِ وَأَوْجَعِهِ . وَمِنْ أَكْرَمِ ٱلْعِتَابِ قَوْلُ ٱلسَّيِّدِ أَبِي ٱلْحَسَنِ :

وَاِنِّي لَأُطرِي كُلَّ خِلٍّ صَحِبْتُهُ　　وَاَنتَ تَرَى سَمْتِي بِغَيْرِ حَيَاء

وَمِنْ مَلِيحِ مَا سَمِعْتُ قَوْلُ سَعِيدِ بْنِ حُمَيْدٍ يُعَاتِبُ صَدِيقًا لَهُ :

اَقْلِلْ عِتَابَكَ فَالْبَقَاءُ قَلِيلُ　　وَالدَّهْرُ يَعْدِلُ مَرَّةً وَيَمِيلُ

لَمْ اَبْكِ مِنْ زَمَنٍ ذَمَمْتُ صُرُوفَهُ　　اِلَّا بَكَيْتُ عَلَيْكَ حِينَ يَزُولُ

وَلِكُلِّ نَائِبَةٍ اَلَمَّتْ مُدَّةٌ　　وَلِكُلِّ حَالٍ اَقْبَلَتْ تَحْوِيلُ

وَ الْمُنْتَمُونَ اِلَى الْاِخَاءِ عِصَابَةٌ　　اِنْ حَصَّلُوا اَفْنَاهُمُ التَّحْصِيلُ

وَلَعَلَّ اَحْدَاثَ الْمَنِيَّةِ وَالرَّدَى　　يَوْمًا سَتَصْدَعُ بَيْنَنَا وَتَحُولُ

فَلَئِنْ سَبَقْتُ لَتَبْكِيَنَّ بِحَسْرَةٍ　　وَلَيَكْثُرَنَّ عَلَيَّ مِنْكَ عَوِيلُ

وَلَتَفْجَعَنَّ بِمُخْلِصٍ لَكَ وَامِقٍ　　حَبْلُ الْوَفَاءِ بِحَبْلِهِ مَوْصُولُ

وَلَئِنْ سَبَقْتَ وَلَا سَبَقْتَ لَيَمْضِيَنْ　　مَنْ لَا يُشَاكِلُهُ لَدَيَّ خَلِيلُ

وَلَيَذْهَبَنَّ بَهَاءُ كُلِّ مُرُوءَةٍ　　وَلَيُفْقَدَنَّ جَمَالُهَا الْمَجْهُولُ

وَاَرَاكَ تَكْلَفُ بِالْعِتَابِ وَوُدُّنَا　　صَافٍ عَلَيْهِ مِنَ الْوَفَاءِ دَلِيلُ

وُدٌّ بَدَا لِذَوِي الْاِخَاءِ كَمَالُهُ　　وَبَدَتْ عَلَيْهِ بَهْجَةٌ وَقَبُولُ

وَلَعَلَّ اَيَّامَ الْاِخَاءِ قَصِيرَةٌ　　فَعَلَامَ يَكْثُرُ عَتْبُنَا وَيَطُولُ

وَاِلَى هُنَا اَوْمَأَ اَبُو الطَّيِّبِ بِقَوْلِهِ :

ذَرِ النَّفْسَ تَأْخُذْ وُسْعَهَا قَبْلَ بَيْنِهَا　　فَمُفْتَرِقٌ جَارَانِ دَارُهُمَا الْعُمْرُ

وَاَشَارَ اِلَيْهِ اَيْضًا بِقَوْلِهِ وَاَرَدْتُ الْبَيْتَ الْاَخِيرَ :

وَصِلِينَا نَصِلْكِ فِي هٰذِهِ الدُّنْـ　　يَا فَاِنَّ الْمُقَامَ فِيهَا قَلِيلُ

وَالْجَمِيعُ مِنْ قَوْلِ الْاَوَّلِ :

وَلَقَدْ عَلِمْتُ فَلَا تَكُنْ مُتَجَنِّبًا
أَنَّ ٱلصُّدُودَ هُوَ ٱلْفِرَاقُ ٱلْأَوَّلُ

حَسْبُ ٱلْأَحِبَّةِ أَنْ يُفَرِّقَ بَيْنَهُمْ   رَيْبُ ٱلْمَنُونِ فَمَا لَنَا نَسْتَعْجِلُ

إِلَّا أَنَّ ٱبْنَ حُمَيْدٍ قَدْ فَنَّنَ وَبَيَّنَ وَشَرَحَ مَا أَجْمَلَ غَيْرُهُ بِقَوْلِهِ: لَئِنْ سَبَقْتُ أَنَا وَلَئِنْ سَبَقْتَ أَنْتَ وَلَا سَبَقْتَ فَلَهُ بِذَلِكَ فَضْلٌ بَيْنَ ٱلرُّجْحَانِ ظَاهِرٌ. وَمَا أَحْسَنَ إِيجَازَ ٱلَّذِي قَالَ:

ٱلْعُمْرُ أَقْصَرُ مُدَّةً   مِنْ أَنْ يُمَحَّقَ بِٱلْعِتَابْ

وَقَالَ أَبُو ٱلْمُحْدَثِينَ بَشَّارُ بْنُ بُرْدٍ:

إِذَا كُنْتَ فِي كُلِّ ٱلْأُمُورِ مُعَاتِبًا   صَدِيقَكَ لَمْ تَلْقَ ٱلَّذِي لَا تُعَاتِبُهْ

البحث الثامن

في الوعيد والانذار

(من الكتاب نفسهِ)

كَانَ ٱلْعُقَلَاءُ مِنَ ٱلشُّعَرَاءِ وَذَوُو ٱلْحَزْمِ يَتَوَعَّدُونَ بِٱلْهِجَاءِ وَيَحْذَرُونَ مِنْ سُوءِ ٱلْأُحْدُوثَةِ وَلَا يُمْضُونَ ٱلْقَوْلَ إِلَّا ضَرُورَةً حِينَ لَا يَحْسُنُ ٱلسُّكُوتُ. قَالَ ٱبْنُ مُقْبِلٍ:

بَنِي عَامِرٍ مَا تَأْمُرُونَ لِشَاعِرٍ   تَخَيَّرَ آيَاتِ ٱلْكِتَابِ هِجَائِيَا
أَأَعْفُو كَمَا يَعْفُو ٱلْكَرِيمُ فَإِنَّنِي   أَرَى ٱلشَّعْبَ فِيمَا بَيْنَنَا مُتَدَانِيَا
أَأَغْمِضُ بَيْنَ ٱللَّحْمِ وَٱلْجِلْدِ غَمْضَةً   بِمِبْرَدِ رُومِيٍّ يَقُطُّ ٱلنَّوَاصِيَا
فَأَمَّا سُرَاقَاتُ ٱلْهِجَاءِ فَإِنَّهَا   كَلَامٌ تَهَادَاهُ ٱللِّئَامُ تَهَادِيَا

وَعِنْدِي ٱلدُّهَيْمُ لَوْ أُحِلُّ عِقَالَهَا فَتُضْبِحَ لَمْ تَعْدَمْ مِنَ ٱلْجِنِّ حَادِيَا

شَبَّهَ لِسَانَهُ بِعَبْرَدٍ رُومِيٍّ لِمَضَائِهِ وَشَبَّهَ ٱلْقَصِيدَةَ ٱلَّتِي لَوْ شَاءَ هِجَاءَهُمْ بِهَا بِٱلدُّهَيْمِ وَهُوَ ٱلدَّاهِيَةُ. وَأَصْلُ ذٰلِكَ أَنَّ ٱلدُّهَيْمَ نَاقَةُ عَمْرِو بْنِ زَبَّانَ ٱلتَّغْلَبِيِّ ٱلَّتِي حَمَلَتْ رُؤُوسَ بَنِيهِ مُعَلَّقَةً فِي عُنُقِهَا فَجَاءَتْ بِهَا ٱلْحَيَّ فَضُرِبَ بِهَا ٱلْمَثَلُ لِلدَّاهِيَةِ. وَقَالَ جَرِيرٌ لِبَنِي حَنِيفَةَ وَكَانَ مَيْلُهُمْ مَعَ ٱلْفَرَزْدَقِ عَلَيْهِ:

أَبَنِي حَنِيفَةَ حَكِّمُوا سُفَهَاءَكُمْ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمُ أَنْ أَغْضَبَا

قَوْلُهُ حَكِّمُوا أَيْ كُفُّوا. وَقَالَ لِتَيْمِ ٱلرِّبَابِ رَهْطِ عَمْرِو بْنِ لَجَا:

يَا تَيْمَ تَيْمَ عَدِيٍّ لَا أَبَا لَكُمُ لَا يُلْفِيَنَّكُمُ فِي سَوْءَةٍ عُمَرُ

وَمِمَّا قُلْتُهُ فِي هٰذَا ٱلْبَابِ:

يَا مُوجِعِي شَتْمًا عَلَى أَنَّهُ لَوْ تُرِكَ ٱلْبُرْغُوثُ مَا أَوْجَعَا
كُلٌّ لَهُ مِنْ نَفْسِهِ آفَةٌ وَآفَةُ ٱلنَّحْلَةِ أَنْ تَلْسَعَا

البحث التاسع

في الهجاء

(من الكتاب نفسه)

يُرْوَى عَنْ أَبِي عَمْرِو بْنِ ٱلْعَلَاءِ أَنَّهُ قَالَ: خَيْرُ ٱلْهِجَاءِ مَا تُنْشِدُهُ ٱلْعَذْرَاءُ فِي خِدْرِهَا فَلَا يَقْبُحُ بِمِثْلِهَا. نَحْوُ قَوْلِ جَرِيرٍ:

لَوْ أَنَّ تَغْلِبَ جَمَّعَتْ أَحْسَابَهَا يَوْمَ ٱلتَّفَاخُرِ لَمْ تَزِنْ مِثْقَالَا

وَقَوْلِ ٱلْآخَرِ:

فَغُضَّ ٱلطَّرْفَ إِنَّكَ مِنْ نُمَيْرٍ فَلَا كَعْبًا بَلَغْتَ وَلَا كِلَابَا

وَلَمَّا اطْلَقَ عُمَرُ بْنُ ٱلْخَطَّابِ ٱلْحُطَيْئَةَ مِنْ حَبْسِهِ إِيَّاهُ بِسَبَبِ هِجَائِهِ ٱلزِّبْرِقَانَ قَالَ لَهُ: تَدَعُ ٱلْهِجَاءَ ٱلْمُقْذِعَ. قَالَ: وَمَا ٱلْهِجَاءُ ٱلْمُقْذِعُ. قَالَ: ٱلْمُقْذِعُ انْ تَقُولَ هٰؤُلَاءِ افْضَلُ مِنْ هٰؤُلَاءِ وَاشْرَفُ وَتَبْنِي شِعْرًا عَلَى مَدْحٍ لِقَوْمٍ وَذَمٍّ لِمَنْ يُعَادِيهِمْ. قَالَ: انْتَ وَٱللهِ يَا امِيرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ اعْلَمُ مِنِّي بِمَذَاهِبِ ٱلشِّعْرِ لٰكِنِّي حَبَانِي هٰؤُلَاءِ فَمَدَحْتُهُمْ وَحَرَمَنِي هٰؤُلَاءِ فَذَكَرْتُ حِرْمَانَهُمْ وَلَمْ انَلْ مِنْ اعْرَاضِهِمْ شَيْئًا وَصَرَفْتُ مَدْحِي إِلَى مَنْ ارَادَهُ وَرَغِبْتُ بِهِ عَلَى مَنْ كَرِهَهُ وَزَهِدَ فِيهِ. يُرِيدُ قَصِيدَتَهُ ٱلْمَهْمُوزَةَ وَهِيَ اخْبَثُ مَا صَنَعَ وَفِيهَا اوْ مِنْ اجْلِهَا قَالَ خَلَفٌ ٱلْاحْمَرُ: اشَدُّ ٱلْهِجَاءِ اعَفُّهُ وَاصْدَقُهُ. وَقَالَ مَرَّةً اخْرَى: مَا عَفَّ لَفْظُهُ وَصَدَقَ مَعْنَاهُ. وَمِنْ كَلَامِ صَاحِبِ ٱلْوَسَاطَةِ: فَامَّا ٱلْهَجْوُ فَابْلَغُهُ مَا قَرُبَتْ مَعَانِيهِ وَسَهُلَ حِفْظُهُ وَاسْرَعَ عُلُوقُهُ بِٱلْقَلْبِ وَلُصُوقُهُ بِٱلنَّفْسِ فَامَّا ٱلْقَذْفُ وَٱلْفُحْشُ فَبَابٌ مَحْضٌ وَلَيْسَ لِلشَّاعِرِ فِيهِ إِلَّا إِقَامَةُ ٱلْوَزْنِ. وَمِمَّا يَدُلُّ عَلَى صِحَّةِ مَا قَالَهُ صَاحِبُ ٱلْوَسَاطَةِ وَحُسْنِ مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ إِعْجَابُ ٱلْحُذَّاقِ مِنَ ٱلْعُلَمَاءِ وَفُرْسَانِ ٱلْكَلَامِ بِقَوْلِ زُهَيْرٍ فِي تَشَكُّكِهِ وَتَهَزُّلِهِ وَتَجَاهُلِهِ فِيمَا يَعْلَمُ:

وَمَا ادْرِي وَسَوْفَ إِخَالُ ادْرِي اَقَوْمٌ آلُ حِصْنٍ امْ نِسَاءُ

فَإِنَّ هٰذَا عِنْدَهُمْ مِنْ اشَدِّ ٱلْهِجَاءِ وَامْضِهِ. وَلَمَّا قَدِمَ ٱلنَّابِغَةُ بَعْدَ وَقْعَةِ حِسًا سَالَ بَنِي ذُبْيَانَ مَا قُلْتُمْ لِعَامِرِ بْنِ ٱلطُّفَيْلِ وَمَا قَالَ

لَكُمْ . فَأَنْشَدُوهُ . فَقَالَ : أَفْحَشْتُمْ عَلَى ٱلرَّجُلِ وَهُوَ شَرِيفٌ لَا يُقَالُ لَهُ مِثْلُ هٰذَا وَلٰكِنَّنِي سَأَقُولُ ثُمَّ قَالَ :

فَإِنْ يَكُ عَامِرٌ قَدْ قَالَ جَهْلًا فَإِنَّ مَظِنَّةَ ٱلْجَهْلِ ٱلشَّبَابُ (١)

فَلَمَّا بَلَغَ عَامِرًا قَوْلُ ٱلنَّابِغَةِ شَقَّ عَلَيْهِ وَقَالَ جَعَلَنِي ٱلْقَوْمُ رَئِيسًا وَجَعَلَنِي ٱلنَّابِغَةُ سَفِيهًا جَاهِلًا وَتَهَكَّمَ بِي . وَرُوِيَ أَنَّ شَاعِرًا مَدَحَ ٱلْحُسَيْنَ بْنَ عَلِيٍّ فَأَجْزَلَ عَطِيَّتَهُ فَلِيمَ عَلَى ذٰلِكَ فَقَالَ: أَتَرَوْنِي خِفْتُ أَنْ يَقُولَ: لَسْتَ ٱبْنَ فَاطِمَةَ وَلَا ٱبْنَ عَلِيٍّ . وَلٰكِنْ خِفْتُ أَنْ يَقُولَ : لَسْتَ كَالرَّسُولِ وَلَسْتَ كَعَلِيٍّ فَيَصْدُقُ وَيُحْمَلُ عَنْهُ وَيَبْقَى مُخَلَّدًا فِي ٱلْكُتُبِ مَحْفُوظًا عَلَى أَلْسِنَةِ ٱلرُّوَاةِ . فَقَالَ ٱلشَّاعِرُ : أَنْتَ وَٱللّٰهِ أَعْلَمُ مِنِّي بِٱلْمَدْحِ . وَقَدْ وَقَعَ ٱلْحَسَنُ بْنُ زَيْدٍ بِبَعْضِ مَا قَالَ فِيهِ أَبُو عَاصِمٍ مُحَمَّدُ بْنُ حَمْزَةَ ٱلْأَسْلَمِيُّ ٱلْمَدَنِيُّ :

لَهُ حَقٌّ وَلَيْسَ عَلَيْهِ حَقٌّ وَمَهْمَا قَالَ فَٱلْحَسَنُ ٱلْجَمِيلُ

وَجَمِيعُ ٱلشُّعَرَاءِ يَرَوْنَ قَصْرَ ٱلْهِجَاءِ أَجْوَدَ وَتَرْكَ ٱلْفُحْشِ أَصْوَبَ إِلَّا جَرِيرًا فَإِنَّهُ قَالَ لِبَنِيهِ : إِذَا مَدَحْتُمْ فَلَا تُطِيلُوا وَإِذَا هَجَوْتُمْ فَخَالِفُوا . وَأَنَا أَرَى ٱلتَّعْرِيضَ أَهْجَى مِنَ ٱلتَّصْرِيحِ لِٱتِّسَاعِ ٱلظَّنِّ فِي ٱلتَّعْرِيضِ وَشِدَّةِ قَلَقِ ٱلنَّفْسِ بِهِ وَٱلْبَحْثِ عَنْ مَعْرِفَتِهِ وَطَلَبِ حَقِيقَتِهِ فَإِذَا كَانَ ٱلْهَجْوُ تَصْرِيحًا أَحَاطَتْ بِهِ ٱلنَّفْسُ عِلْمًا وَقَبِلَتْهُ يَقِينًا فِي أَوَّلِ وَهْلَةٍ وَكَانَ كُلَّ يَوْمٍ فِي نَقْصٍ لِنِسْيَانٍ أَوْ مَلَلٍ يَعْرِضُ . وَهٰذَا ٱلْمَذْهَبُ ٱلصَّحِيحُ عَلَى أَنْ يَكُونَ ٱلْمَهْجُوُّ ذَا قَدْرٍ فِي نَفْسِهِ وَحَسَبِهِ . فَأَمَّا

---

(١) انظر تتمة هذه القصيدة في ترجمة النابغة من كتاب شعراء النصرانية

انْ كَانَ مِمَّنْ لَا يُوقِظُهُ ٱلتَّلْوِيحُ وَلَا يُؤْلِمُهُ إِلَّا ٱلتَّصْرِيحُ فَذٰلِكَ .
وَلِهٰذِهِ ٱلْعِلَّةِ ٱخْتَلَفَ هِجَاءُ أَبِي نُوَاسٍ وَكَذٰلِكَ هِجَاءُ أَبِي ٱلطَّيِّبِ فِيهِ ٱخْتِلَافٌ لِٱخْتِلَافِ مَرَاتِبِ ٱلْمَهْجُوِّينَ فَمِنَ ٱلتَّفْضِيلِ فِي ٱلْهِجَاءِ قَوْلُ رَبِيعَةَ بْنِ عَبْدِ ٱلرَّحْمَانِ ٱلرَّقِّيِّ :

لَشَتَّانَ مَا بَيْنَ ٱلْيَزِيدَيْنِ فِي ٱلنَّدَى   يَزِيدِ سُلَيْمٍ وَٱلْأَغَرِّ بْنِ حَاتِمِ
فَهَمُّ ٱلْفَتَى ٱلْقَيْسِيِّ إِتْلَافُ مَالِهِ   وَهَمُّ ٱلْفَتَى ٱلْعَبْسِيِّ جَمْعُ ٱلدَّرَاهِمِ
فَلَا يَحْسَبِ ٱلتَّمْتَامُ أَنِّي هَجَوْتُهُ   وَلٰكِنَّنِي فَضَّلْتُ أَهْلَ ٱلْمَكَارِمِ

وَمِنَ ٱلِٱخْتِصَارِ وَٱلِٱسْتِخْفَافِ قَوْلُ زِيَادٍ ٱلْأَعْجَمِ :

قُمْ صَاغِرًا يَا شَيْخَ جَرْمٍ فَإِنَّمَا   يُقَالُ لِشَيْخِ ٱلصِّدْقِ قُمْ غَيْرَ صَاغِرِ
فَمَنْ أَنْتُمُ إِنَّا نَسِينَا مَنَ أَنْتُمْ   وَرِيحُكُمُ مِنْ أَيِّ رِيحِ ٱلْأَعَاصِرِ
أَأَنْتُمْ أُولَى جِئْتُمْ مَعَ ٱلرِّيحِ وَٱلدَّبَا   فَطَارَ وَهٰذَا شَيْخُكُمْ غَيْرُ طَائِرِ
قَضَى ٱللّٰهُ خَلْقَ ٱلنَّاسِ ثُمَّ خُلِقْتُمُ   بَقِيَّةَ خَلْقِ ٱللّٰهِ آخِرَ آخِرِ
فَلَمْ تَسْمَعُوا إِلَّا بِمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ
وَلَمْ تُدْرِكُوا إِلَّا مَدَقَّ ٱلْحَوَافِرِ

أَخَذَ مِنْهُ ٱلطِّرِمَّاحُ هٰذَا ٱلْمَعْنَى فَقَالَ :

وَمَا خُلِقَتْ تَيْمٌ وَعَبْدُ مَنَاتِهَا   وَضَبَّةُ إِلَّا بَعْدَ خَلْقِ ٱلْقَبَائِلِ

وَمِنَ ٱلِٱحْتِقَارِ قَوْلُ جَرِيرٍ فِي تَيْمٍ :

وَيُقْضَى ٱلْأَمْرُ حِينَ تَغِيبُ تَيْمٌ   وَلَا يُسْتَأْذَنُونَ وَهُمْ شُهُودُ
وَإِنَّكَ لَوْ رَأَيْتَ عَبِيدَ تَيْمٍ   وَتَيْمًا قُلْتَ أَيُّهُمَا ٱلْعَبِيدُ

وَمِنْ مَلِيحِ ٱلتَّهَكُّمِ قَوْلُ أَبِي هَفَّانَ :

سُلَيْمَانُ مَيْمُونُ ٱلنَّقِيبَةِ حَازِمٌ وَلٰكِنَّهُ وَقْفٌ عَلَيْهِ ٱلْهَزَائِمُ

وَفِيهِ يَقُولُ ٱبْنُ ٱلرُّومِيِّ :

قِرْنُ سُلَيْمَانَ قَدْ اَضَرَّ بِهِ شَوْقٌ اِلَى وَجْهِهِ سَيُتْلِفُهُ

كَمْ يَعِدُ ٱلْقِرْنَ بِٱللِّقَاءِ وَكَمْ يَكْذِبُ فِي وَعْدِهِ وَيُخْلِفُهُ

اَخَذَ مَعْنَى ٱلْبَيْتِ ٱلْاَخِيرِ مِنْ قَوْلِ ٱلْخَارِجِيِّ . وَقَدْ قَالَ لَهُ ٱلْمَنْصُورُ : اَيُّ اَصْحَابِي كَانَ اَشَدَّ اِقْدَامًا فِي مُبَارَزَتِكُمْ فَقَالَ : مَا اَعْرِفُ وُجُوهَهُمْ وَلٰكِنْ اَعْرِفُ اَقْفَاءَهُمْ . وَاَجْوَدُ فِي ٱلْهِجَاءِ اَنْ يَسْلُبَ ٱلْاِنْسَانُ ٱلْفَضَائِلَ ٱلنَّفْسِيَّةَ وَمَا تَرَكَّبَ مِنْ بَعْضِهَا . فَاَمَّا مَا كَانَ فِي ٱلْخِلْقَةِ ٱلْجِسْمَانِيَّةِ مِنَ ٱلْمَعَايِبِ فَاِنَّ ٱلْهِجَاءَ بِهِ دُونَ مَا تَقَدَّمَ وَقُدَامَةُ لَا يَرَاهُ هَجْوًا ٱلْبَتَّةَ وَكَذٰلِكَ مَا جَاءَ مِنَ ٱلْآبَاءِ وَٱلْاُمَّهَاتِ مِنَ ٱلنَّقْصِ وَٱلْفَسَادِ لَا يَكُونُ عَيْبًا وَلَا يُعَدُّ ٱلْهِجَاءُ بِهِ صَوَابًا وَكَانَ ٱلنَّابِغَةُ ٱلْجَعْدِيُّ يَقُولُ اِنِّي وَاَوْسًا لَنَبْتَدِرُ بَابًا مِنَ ٱلْهِجَاءِ فَمَنْ غَلَبَ مِنَّا اِلَيْهِ غَلَبَ صَاحِبَهُ فَلَمَّا قَالَ اَوْسُ بْنُ مَغْرَاءَ :

لَعَمْرُكَ مَا تُبْلَى سَرَابِيلُ عَامِرٍ مِنَ ٱللُّؤْمِ مَا دَامَتْ عَلَيْهَا جُلُودُهَا

قَالَ ٱلنَّابِغَةُ : هٰذَا ٱلْبَيْتُ ٱلَّذِي كُنَّا نَبْتَدِرُهُ . وَٱلَّذِي اُرَاهُ عَلَى كُلِّ حَالٍ اَنَّ اَشَدَّ ٱلْهِجَاءِ مَا اَصَابَ ٱلْغَرَضَ وَوَقَعَ عَلَى ٱلنُّكْتَةِ وَهُوَ كَمَا قَالَ خَلَفٌ ٱلْاَحْمَرُ بِعَيْنِهِ



البحث العاشر

في الاعتذار

(من الكتاب نفسهِ)

وَيَنبَغِي لِلشَّاعِرِ اَنْ لَا يَقُولَ شَيْئًا يَحْتَاجُ اَنْ يَعْتَذِرَ مِنْهُ فَاِنِ اَضْطَرَّهُ ٱلْمِقْدَارُ اِلَى ذٰلِكَ وَاَوْقَعَهُ فِيهِ ٱلْقَضَاءُ فَلْيَذْهَبْ مَذْهَبًا لَطِيفًا وَلْيَقْصِدْ مَقْصَدًا عَجِيبًا وَلْيَعْرِفْ كَيْفَ يَأْخُذُ بِقَلْبِ ٱلْمُعْتَذَرِ اِلَيْهِ مِنْ بَابِ ٱلِاحْتِجَاجِ وَاِقَامَةِ ٱلدَّلِيلِ لَا سِيَّمَا مَعَ ٱلْمُلُوكِ وَذَوِي ٱلسُّلْطَانِ وَحَقُّهُ اَنْ يُلَطِّفَ بُرْهَانَهُ مُدَرَّجًا فِي ٱلتَّضَرُّعِ وَٱلدُّخُولِ تَحْتَ عَفْوِ ٱلْمُلُوكِ وَاِعَادَةِ ٱلنَّظَرِ فِي ٱلْكَشْفِ عَنْ كَذِبِ ٱلنَّاقِلِ وَٱلْحَاسِدِ فَامَّا مَعَ ٱلْاِخْوَانِ فَتِلْكَ طَرِيقَةٌ اُخْرَى وَقَدْ اَحْسَنَ مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ ٱلْاَصْبَهَانِيُّ حَيْثُ يَقُولُ :

وَقَدْ اَسَأْتُ فَبِٱلنُّعْمَى ٱلَّتِي سَلَفَتْ ... اِلَّا مَنَنْتَ بِعَفْوٍ مَا لَهُ سَبَبُ

وَقَالَ اِبْرَاهِيمُ بْنُ ٱلْمَهْدِيِّ لِلْمَأْمُونِ مِنْ اَبْيَاتٍ يَعْتَذِرُ اِلَيْهِ :

اَللّٰهُ يَعْلَمُ مَا اَقُولُ فَاِنَّهَا ... جَهْدُ ٱلْاَلِيَّةِ مِنْ مُقِرٍّ خَاضِعِ

مَا اِنْ عَصَيْتُكَ وَٱلْغُوَاةُ تَمُدُّنِي ... اَسْبَابَهَا اِلَّا بِنِيَّةِ طَائِعِ

وَقَدْ سَلَكَ اَبُو عَلِيٍّ ٱلْبَصِيرُ مَذْهَبَ ٱلْحُجَّةِ وَاِقَامَةِ ٱلدَّلِيلِ بَعْدَ اَرْتِكَابِ ٱلْجِنَايَةِ فَقَالَ :

لَمْ اَجْنِ ذَنْبًا فَاِنْ زَعَمْتَ بِاَنْ ... جَنَيْتُ ذَنْبًا فَغَيْرُ مُعْتَمِدِ

نَحَوْتُ هٰذَا ٱلنَّحْوَ فَقُلْتُ :

لَا يُبْعِدِ ٱللهُ أَبَا جَعْفَرٍ دِعَامَةُ بَتَّ عَلَى نَارِهَا
وَإِنْ تَأَذَّيْتَ فَيَا رُبَّمَا تَأَذَّتِ ٱلْعَيْنُ بِأَشْفَارِهَا

وَأَجَلُّ مَا وَقَعَ فِي ٱلْاعْتِذَارِ مِنْ مَشْهُورَاتِ ٱلْعَرَبِ قَصَائِدُ ٱلنَّابِغَةِ ٱلثَّلَاثُ إِحْدَاهُنَّ «يَا دَارَ مَيَّةَ بِٱلْعَلْيَاءِ بِٱلسَّنَدِ» يَقُولُ فِيهَا:

فَلَا لَعَمْرُ ٱلَّذِي مَسَّحْتُ كَعْبَتَهُ وَمَا هُرِيقَ عَلَى ٱلْأَنْصَابِ مِنْ جَسَدِ
وَٱلْمُؤْمِنِ ٱلْعَائِذَاتِ ٱلطَّيْرَ تَمْسَحُهَا رُكْبَانُ مَكَّةَ بَيْنَ ٱلْغِيلِ وَٱلسَّعَدِ
مَا قُلْتُ مِنْ سَيِّءٍ مِمَّا أُتِيتَ بِهِ إِذًا فَلَا رَفَعَتْ سَوْطِي إِلَيَّ يَدِي
إِلَّا مَقَالَةَ أَقْوَامٍ شَقِيتُ بِهَا كَانَتْ مَقَالَتُهُمْ قَرْعًا عَلَى ٱلْكَبِدِ
أُنْبِئْتُ أَنَّ أَبَا قَابُوسَ أَوْعَدَنِي وَلَا قَرَارَ عَلَى زَأْرٍ مِنَ ٱلْأَسَدِ

وَٱلثَّانِيَةُ (أَرَسْمًا جَدِيدًا مِنْ سُعَادَ تَجَنَّبُ) يَقُولُ فِيهَا مُعْتَذِرًا مِنْ مَدْحِ آلِ جَفْنَةَ وَمُحْتَجًّا بِإِحْسَانِهِمْ إِلَيْهِ:

حَلَفْتُ فَلَمْ أَتْرُكْ لِنَفْسِكَ رِيبَةً وَلَيْسَ وَرَاءَ ٱللهِ لِلْمَرْءِ مَذْهَبُ
لَئِنْ كُنْتَ قَدْ بُلِّغْتَ عَنِّي خِيَانَةً لَمُبْلِغُكَ ٱلْوَاشِي أَغَشُّ وَأَكْذَبُ
وَلَكِنَّنِي كُنْتُ ٱمْرَأً لِيَ جَانِبٌ مِنَ ٱلْأَرْضِ فِيهِ مُسْتَرَادٌ وَمَذْهَبُ
مُلُوكٌ وَإِخْوَانٌ إِذَا مَا أَتَيْتُهُمْ أُحَكَّمُ فِي أَمْوَالِهِمْ وَأُقَرَّبُ
كَفِعْلِكَ فِي قَوْمٍ أَرَاكَ ٱصْطَنَعْتَهُمْ فَلَمْ تَرَهُمْ فِي شُكْرِ ذٰلِكَ أَذْنَبُوا
فَلَا تَتْرُكَنِّي بِٱلْوَعِيدِ كَأَنَّنِي إِلَى ٱلنَّاسِ مَطْلِيٌّ بِهِ ٱلْقَارُ أَجْرَبُ
أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللهَ أَعْطَاكَ سُورَةً تَرَى كُلَّ مَلْكٍ دُونَهَا يَتَذَبْذَبُ
بِأَنَّكَ شَمْسٌ وَٱلْمُلُوكُ كَوَاكِبُ إِذَا طَلَعَتْ لَمْ يَبْدُ مِنْهُنَّ كَوْكَبُ

وَٱلثَّالِثَةُ (عَفَا ذُو حُسًى مِنْ فَرْتَنَا فَٱلْفَوَارِعُ) يَقُولُ فِيهَا بَعْدَ

قسمٍ قدَّمهُ على عادتِهِ :

تكلّفني ذنبَ أمرئٍ وتركتَهُ   كذي العرّ يُكوى غيرهُ وهو راتعُ

فإنْ كنتَ لا ذو الضغنِ عني مكذبٌ   ولا حلفي على البراءةِ نافعُ

ولا انا مأمونٌ بشيءٍ اقولُهُ   وانتَ بأمرٍ لا محالةَ واقعُ

فإنكَ كالليلِ الذي هو مدركي   وإنْ خلتَ انَّ المنتأى عنكَ واسعُ

وقد علقَ بهذا المعنى جماعةٌ من الشعراءِ فقالَ سلمٌ الخاسرُ يعتذرُ الى المهديِّ :

إنّي أعوذُ بخيرِ الناسِ كلِّهمِ   وانتَ ذاكَ بما نأتي ونجتنبُ

وانتَ كالدهرِ مبثوثاً حبائلُهُ   والدهرُ لا ملجأٌ منهُ ولا هربُ

وقالَ عُبيدُ اللهِ بنُ عبدِ اللهِ بنِ طاهرٍ :

وإني وإنْ حدَّثتُ نفسي بأنّني   أفوتُكَ انَّ الرأيَ مني لعازبُ

وإلى هذهِ الناحيةِ اشارَ ابو الطيّبِ بقولِهِ :

ولكنّكِ الدُّنيا إليَّ حبيبةٌ   فما عنكِ لي إلّا إليكِ ذهابُ

غيرَ انهُ حرّفَ الكلامَ عن مواضعِهِ . واختارَ العلماءُ بهذا الشأنِ قولَ عليِّ بنِ جبلةَ :

وما لأمرئٍ حاولتَهُ عنكَ مهربٌ   ولو رفعتْهُ في السماءِ المطالعُ

بلى هاربٌ لا يهتدي لمكانهِ   ظلامٌ ولا ضوءٌ من الفجرِ ساطعُ

لأنهُ قد اجادَ مع معارضتِهِ النابغةَ وزادَ عليهِ ذكرَ الصبحِ . وأظنُّهُ اقتدى بقولِ الأصمعيِّ في بيتِ النابغةِ : ليسَ الليلُ اولى

بِهٰذَا ٱلْمَثَلِ مِنَ ٱلنَّهَارِ . وَفِي هٰذَا ٱلِٱعْتِرَاضِ كَلَامٌ يَأْتِي فِي مَوْضِعِهِ مِنْ هٰذَا ٱلْكِتَابِ إِنْ شَاءَ ٱللّٰهُ تَعَالَى . وَأَفْضَلُ مِنْ هٰذَا كُلِّهِ قَوْلُ ٱلْقُرْآنِ : إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنْفُذُوا . وَوَجَدَ ٱلْفَضْلُ بْنُ يَحْيَى عَلَى أَبِي ٱلْهَوْلِ ٱلْحِمْيَرِيِّ فَدَخَلَ إِلَيْهِ فَأَنْشَدَهُ :

كَسَانِي وَعِيدُ ٱلْفَضْلِ ثَوْبًا مِنَ ٱلْبِلَى
وَإِيعَادُهُ عِنْدِي ٱلَّذِي مَا لَهُ رَدُّ
فَجُدْ بِٱلرِّضَى لَا أَبْتَغِي مِنْكَ غَيْرَهُ وَرَأْيُكَ فِيمَا كُنْتَ عَوَّدْتَنِي بَعْدُ

فَقَالَ لَهُ ٱلْفَضْلُ عَلَى مَذْهَبِ ٱلْكُتَّابِ فِي تَحْرِيرِ ٱلْخِطَابِ : لَا أَحْتَمِلُ وَٱللّٰهِ قَوْلَكَ (وَرَأْيُكَ فِيمَا كُنْتَ عَوَّدْتَنِي بَعْدُ) فَقَالَ أَبُو ٱلْهَوْلِ : لَا تَنْظُرْ إِلَى قِصَرِ بَاعِي وَقِلَّةِ تَمْيِيزِي وَٱفْعَلْ بِي مَا أَنْتَ أَهْلُهُ . فَأَمَرَ لَهُ بِمَالٍ جَسِيمٍ وَرَضِيَ عَنْهُ وَقَرَّبَهُ

وَفِي ٱشْتِقَاقِ ٱلْأَعْذَارِ ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ أَحَدُهَا أَنْ يَكُونَ مِنَ ٱلْمَحْوِ كَأَنَّكَ مَحَوْتَ آثَارَ ٱلْمَوْجِدَةِ مِنْ قَوْلِهِمِ ٱعْتَذَرَتِ ٱلْمَنَازِلُ إِذَا دَرَسَتْ وَأَنْشَدَ قَوْلَ ٱبْنِ أَحْمَرَ :

أَوْ كُنْتَ تَعْرِفُ آيَاتٍ فَقَدْ جَعَلَتْ
أَطْلَالُ إِلْفِكَ بِٱلْوَدْكَاءِ تَعْتَذِرُ

وَٱلثَّانِي أَنْ يَكُونَ مِنَ ٱلِٱنْقِطَاعِ كَأَنَّكَ قَطَعْتَ ٱلرَّجُلَ عَمَّا أَمْسَكَ فِي قَلْبِهِ مِنَ ٱلْمَوْجِدَةِ وَيَقُولُونَ ٱعْتَذَرَتِ ٱلْمِيَاهُ إِذَا ٱنْقَطَعَتْ :

وَٱلْقَوْلُ ٱلثَّالِثُ أَنْ يَكُونَ مِنَ ٱلْحَجْرِ وَٱلْمَنْعِ . قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ

يُقَالُ عَذَرْتُ الدَّابَّةَ اي جعلتُ لها عِذارًا يحجزُها مِنَ الشِّرادِ فمنى اعتذرَ الرَّجلُ احتجزَ وعذرتُهُ جعلتُ لهُ حاجزًا بينَهُ وبينَ العقوبةِ اوِ العتبِ ومنهُ تعذَّرَ الامرُ واحتجزَ ان يُقضى ومنهُ جاريةٌ عذراء

البحث الحادي عشر

في سيرورة الشعر والحظوة في المدح

(من كتاب العمدة لابن رشيق)

كانَ الأعشى اسيرَ النَّاسِ شعرًا واعظمَهم فيهِ حظًّا حتَّى كادَ يُنسِي اصحابَهُ المذكورينَ معهُ وقبلَهُ زهيرٌ والنَّابغةُ وامرؤُ القيسِ وكانَ جريرٌ باقعةَ سائرِ الشعرِ مُظفَّرًا. قالَ الاخطلُ للفرزدقِ وانا واللهِ اشعرُ مِن جريرٍ غيرَ انَّهُ رُزِقَ مِن سيرورةِ الشِّعرِ ما لم ارزقهُ وقد قلتُ بيتًا لا احسبُ احدًا قالَ اهجا منهُ

وليسَ مِنَ العربِ قبيلةٌ الّا وقد نِيلَ منها وعُيِّرتْ وهُجِيَتْ فحطَّ الشِّعرُ منهم بعضًا بموافقةِ الحقيقةِ ومضى صفحًا على الآخرينَ لمَّا لم يُوافقِ الحقيقةَ ولا صادفَ موضعَ الرِّيبةِ. فمِنَ الذينَ لم يُحكَ فيهم هجاءٌ الّا قليلًا على كثرةِ ما قيلَ فيهم تميمُ بنُ مُرَّةَ وبكرُ بنُ وائلٍ واسدُ بنُ خزيمةَ ونظراؤُهم مِن قبائلِ اليمنِ. فامَّا مَن شُقُوا بالهجاءِ ومُزِّقوا كلَّ ممزَّقٍ على تقدُّمِهم في الشَّجاعةِ والفضلِ احياءٌ مِن قيسٍ نحو غنيٍّ وباهلةَ بنِ اعصرَ بنِ سعدِ بنِ قيسِ بنِ غيلانَ واسمُ غنيٍّ

عمرو وكانوا موالي عامر بن صعصعة يحملون عليهم الدبات والنوائب ونحو محارب بن خصفة بن قيس بن غيلان وجسر بن محارب ومن ولد طابخة بن الياس بن مضر تيم وعكل ابنا عبد مناة وقع عليهم السب في الجاهلية فاستهانت العرب بهم واطلع الهجاء فيهم وعدي بن عبد مناة كانوا قطينا لحاجب بن زرارة واراد ان يستملكهم ملك رق بسجل من قبل المنذر. والحبطات وهم ولد الحارث بن عمرو بن تميم وسمي الحبط لعظم بطنه شبهوه بالجمل الحبط وهو الذي انتفخ بطنه من كلإ يستوبله. فاما السلول فقد قال فيهم ابو زياد الكلابي: كرام من كرام صعصعة لم يخالفوا في امر ولم يدخلوا في صغار وانما كلمة عامر بن الطفيل هي التي شامتهم يريد قوله: اغدة كغدة البعير وموتا في بيت سلولية. قلت اما عامر فقد قال هذه الكلمة حين دعا عليه الرسول فما يصنع بقول السموال بن عادياء:

وانا لقوم لا نرى القتل سبة إذا ما راته عامر وسلول

والسموال في زمان امرئ القيس وبين امرئ القيس ومبعث الرسول مئة واربع وخمسون سنة. قال الجاحظ لم يمدح قبيلة في الجاهلية من قريش كما مدحت مخزوم. قال وكان عبد العزيز بن مروان اخطا في الشعر من كثير من خلفائهم. وما اعلم في الارض نعمة بعد ولاية الله اعظم من ان يكون الرجل ممدحا. قلت انا: اما هذه النعمة فقد احلها الله مضاعفة

عِنْدَ ٱلسَّيِّدِ اَبِي ٱلْحَسَنِ وَقَرَنَهَا مِنْـهُ بِٱلِاسْتِحْقَاقِ فَقَرَّتْ مَقَرَّهَا وَنَزَلَتْ مَنْزِلَهَا ٱلْمُخْتَارَ لَهَا . وَاَحْيَا ٱللهُ بِهِ لِبَنِي شَيْبَانَ حَمْدًا لَمْ يَشُبْهُ ذَمٌّ وَجُودٌ لَمْ يُعْقِبْهُ نَدَمٌ مِمَّا زَادَ عَلَى يَزِيدَ وَلَمْ يَدَعْ لِمَعْنٍ مَعْنًى فِي ٱلْجُودِ . وَقَالَ غَيْرُهُ : كَانَ عَمْرُو ٱبْنُ ٱلْعَلَاءِ مَمْدُوحًا وَفِيهِ يَقُولُ بَشَّارُ بْنُ بُرْدٍ :

قُلْ لِلْخَلِيفَةِ اِنْ جِئْتَهُ نَصِيحًا وَلَا خَيْرَ فِي ٱلْمُتَّهَمْ
اِذَا اَيْقَظَتْكَ حُرُوبُ ٱلْعِدَا فَنَبِّهْ لَهَا عُمَرًا ثُمَّ نَمْ
فَتًى لَا يَبِيتُ عَلَى دِمْنَةٍ وَلَا يَشْرَبُ ٱلْمَاءَ اِلَّا بِدَمْ

وَقَالَ اَبُو ٱلْعَتَاهِيَةِ :

اِنَّ ٱلْمَطَايَا تَشْتَكِيكَ لِاَنَّهَا قَطَعَتْ اِلَيْكَ سَبَاسِبًا وَرِمَالَا

قَالَ اَبُو عُبَيْدَةَ : لَمْ يَمْدَحْ اَحَدٌ قَطُّ بَنِي كُلَيْبٍ غَيْرُ ٱلْحُطَيْئَةِ :

لَعَمْرُكَ مَا ٱلْمُجَاوِرُ فِي كُلَيْبٍ بِمُقْصًى فِي ٱلْجِوَارِ وَلَا مُضَاعِ

وَكَانَتْ قَيْسٌ تَفْتَخِرُ عَلَى تَمِيمَ لِاَنَّ شُعَرَاءَ تَمِيمَ تَضْرِبُ ٱلْمَثَلَ بِقَبَائِلِ قَيْسٍ وَرِجَالِهَا . فَاَقَامَتْ تَمِيمُ دَهْرًا لَا تَرْفَعُ رُؤُوسَهَا حَتَّى قَالَ لَبِيدُ بْنُ رَبِيعَةَ :

اَبَنِي كُلَيْبٍ كَيْفَ تُنْفَى جَعْفَرٌ وَبَنُو ضُبَيْعَةَ حَاضِرُوا ٱلْاَجْنَابِ
قَتَلُوا ٱبْنَ عُرْوَةَ ثُمَّ لَطُّوا دُونَهُ حَتَّى نُحَاكِمَهُمْ اِلَى جَوَّابِ
يَرْعَوْنَ مُنْخَرَقَ ٱللَّدِيدِ كَاَنَّهُمْ فِي ٱلْعِزِّ اُسْرَةُ حَاجِبٍ وَشِهَابِ
مُتَظَاهِرٌ حَلَقُ ٱلْحَدِيدِ عَلَيْهِمِ كَبَنِي زُرَارَةَ اَوْ بَنِي عَتَّابِ

قَوْمٌ لَهُمْ عَرَفَتْ مَعَدٌّ فَضْلَهُمْ   وَٱلْفَضْلُ يَعْرِفُهُ ذَوُو ٱلْأَلْبَابِ

وَقَالَ ٱبْنُ مَنْظُورِ بْنِ سَيَّارٍ ٱلْفَزَارِيُّ :

فَجَاؤُوا بِجَمْعٍ مُجْزَئِلٍّ كَأَنَّهُمْ   بَنُو دَارِمٍ إِذْ كَانَ فِي ٱلنَّاسِ دَارِمُ

فَتَكَلَّمَتْ تَمِيمٌ وَٱفْتَخَرَتْ لِمَكَانِ هٰذَيْنِ ٱلشَّاعِرَيْنِ ٱلْعَظِيمَيْنِ قَدْرًا فِي قَيْسٍ فَدَلَّ هٰذَا عَلَى أَنَّ قَيْسًا أَحْظَى بِٱلْمَدْحِ مِنْ تَمِيمٍ . وَٱلْأَوَابِدُ مِنَ ٱلشِّعْرِ ٱلْأَبْيَاتُ ٱلسَّائِرَةُ كَٱلْأَمْثَالِ وَأَكْثَرُ مَا تُسْتَعْمَلُ ٱلْأَوَابِدُ فِي ٱلْهِجَاءِ يُقَالُ : رَمَاهُ بِآبِدَةٍ فَتَكُونُ ٱلْآبِدَةُ هٰهُنَا ٱلدَّاهِيَةَ . قَالَ ٱلْجَاحِظُ : ٱلْأَوَابِدُ ٱلدَّوَاهِي وَمِنْهُ أَوَابِدُ ٱلشِّعْرِ حَكَاهُ عَنْ أَبِي زَيْدٍ وَحَكَى : ٱلْأَوَابِدُ ٱلْإِبِلُ ٱلَّتِي تَتَوَحَّشُ فَلَا يُقْدَرُ عَلَيْهَا إِلَّا بِٱلْعَقْرِ . وَٱلْأَوَابِدُ ٱلطَّيْرُ ٱلَّتِي تُقِيمُ صَيْفًا وَشِتَاءً . وَٱلْأَوَابِدُ ٱلْوَحْشُ فَإِذَا حُمِلَتْ أَبْيَاتُ ٱلشِّعْرِ عَلَى مَا قَالَ ٱلْجَاحِظُ كَانَتِ ٱلْمَعَانِي ٱلسَّائِرَةُ كَٱلْإِبِلِ ٱلشَّارِدَةِ ٱلْمُتَوَحِّشَةِ وَإِنْ شِئْتَ ٱلْمُقِيمَةَ عَلَى مَنْ قِيلَتْ فِيهِ لَا تُفَارِقُهُ كَإِقَامَةِ ٱلطَّيْرِ ٱلَّتِي لَيْسَتْ بِقَوَاطِعَ . وَإِنْ شِئْتَ قُلْتَ فِي بُعْدِهَا مِنَ ٱلشُّعَرَاءِ وَٱمْتِنَاعِهَا عَلَيْهِمْ كَٱلْوَحْشِ فِي نِفَارِهَا مِنَ ٱلنَّاسِ . وَأَمَّا ٱلْمُجَدُّونَ فِي ٱلْكَسْبِ بِٱلشِّعْرِ وَٱلْحُظْوَةِ عِنْدَ ٱلْمُلُوكِ فَمِنْهُمْ مُسْلِمٌ ٱلْخَاسِرُ مَاتَ عَنْ مِائَةِ أَلْفِ دِينَارٍ وَلَمْ يَتْرُكْ وَارِثًا وَأَبُو ٱلْعَتَاهِيَةِ عَنْعَ :

تَعَالَى ٱللّٰهُ يَا مُسْلِ بْنَ عَمْرٍو   أَذَلَّ ٱلْحِرْصُ أَعْنَاقَ ٱلرِّجَالِ

وَكَانَ صَدِيقَهُ جِدًّا . فَقَالَ مُسْلِمٌ : وَيْلِي مِنْ هٰذَا ٱلرَّجُلِ جَمَعَ ٱلْقَنَاطِيرَ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَقَدْ نَسَبَنِي إِلَى مَا تَرَوْنَ مِنَ ٱلْحِرْصِ . وَلَمْ

يَرِدَّ ذٰلِكَ أَبُو ٱلْعَتَاهِيَةِ وَمَرْوَانُ بْنُ أَبِي حَفْصَةَ أُعْطِيَ مِائَةَ أَلْفِ دِينَارٍ مَرَّاتٍ عَدِيدَةً وَكَانَ لَا يُقَابَلُ إِلَّا بِٱلْكَثِيرِ وَهُوَ لَعَمْرِي مِنْ ذَوِي ٱلْبُيُوتَاتِ وَٱلْمَعْرُوفِينَ فِي ٱلْكُتُبِ وَٱلشِّعْرِ. وَكَانَ أَبُو نُوَاسٍ مَحْظُوظًا لَا يُدْرَى لِمَا وَصَلَ إِلَيْهِ لٰكِنَّهُ كَانَ مُتْلِفًا سَمِحًا وَكَانَ يَتَسَاجَلُ فِي ٱلْإِنْفَاقِ هُوَ وَعَبَّاسُ بْنُ أَحْنَفَ. وَكَانَ ٱلْبُحْتُرِيُّ مَلِيًا قَدْ فَاضَ كَسْبُهُ مِنَ ٱلشِّعْرِ. وَكَانَ يَرْكَبُ فِي مَوْكِبٍ مِنْ عَبِيدِهِ. وَأَمَّا أَبُو تَمَّامٍ فَمَا وُفِيَ حَقَّهُ مَعَ مَا صَارَ إِلَيْهِ مِنَ ٱلْأَمْوَالِ لِأَنَّهُ تَبَذَّلَ وَجَابَ ٱلْأَرْضَ وَكَذٰلِكَ أَبُو ٱلطَّيِّبِ

البحث الثاني عشر

في ما اشكل من المدح والهجاء

(من كتاب العمدة لابن رشيق)

أَنْشَدَنَا أَبُو عَبْدِ ٱللّٰهِ مُحَمَّدُ بْنُ جَعْفَرٍ ٱلنَّحْوِيُّ عَنْ أَبِي عَلِيٍّ ٱلْحُسَيْنِ بْنِ إِبْرٰهِيمَ ٱلْآمِدِيِّ لِرَجُلٍ مِنْ عَبْدِ شَمْسِ بْنِ سَعْدِ بْنِ تَمِيمٍ:

تَضَيَّفَنِي وَهْنًا فَقُلْتُ أَسَابِقِي إِلَى ٱلزَّادِ شَلَّتْ مِنْ يَدَيَّ ٱلْأَصَابِعُ
وَلَمْ تَلْقَ لِلسَّعْدِيِّ ضَيْفًا بِقَفْرَةٍ مِنَ ٱلْأَرْضِ إِلَّا وَهُوَ عُرْيَانُ جَائِعُ

لَمْ يُرِدْ أَنَّهُ يَسْبِقُ ضَيْفَهُ إِلَى ٱلزَّادِ فَيَكُونُ قَدْ هَجَا نَفْسَهُ لٰكِنَّهُ وَصَفَ ذِئْبًا لَقِيَهُ لَيْلًا فَقَالَ: أَتَسْبُقُنِي أَنْتَ إِلَى ٱلْأَكْلِ أَيْ تَأْكُلُنِي شَلَّتْ إِذًا أَصَابِعِي إِذَا لَمْ أَرْمِكَ فَأَقْتُلَكَ وَآكُلَ لَحْمَكَ. ثُمَّ قَالَ عَلَى ٱلْمَثَلِ: لَمْ تَلْقَ لِلسَّعْدِيِّ يَعْنِي نَفْسَهُ ضَيْفًا فِي

قَفرَةٍ يَعني ٱلذِئبَ اِلَّا هُوَ جائعٌ فهو لا يُبقي عَلَيَّ لِاَنِي اَقتُلُهُ قَبلَ اَنْ يَشبعَ مِنْ لَحمِي . وَمِنْ اَناشيدِهِمْ :

اَبُوكَ ٱلَّذي نُبِّئتُ يَحبِسُ خَيلَهُ غَداةَ ٱلنَّدَى حَتَّى يَجِفَّ لَهَا ٱلبَقْلُ

قَالُوا اِذَا اَخَذَ مَطَرُ ٱلصَّيفِ ٱلْاَرضَ اَنبَتَتْ بَقْلًا فِي اُصُولِ بَقْلٍ قَدْ يَبِسَ فَذٰلِكَ ٱلْاَخضَرُ هُوَ ٱلنَّشرُ وَهُوَ ٱلغَمِيرُ فَتَأكُلُهُ ٱلْاِبِلُ فَيَأْخُذُهَا ٱلسَّهَامُ وَلَا سَهَامَ فِي ٱلخَيلِ فَعَابَهُ بِٱلجَهلِ بِٱلخَيلِ . قَالَ ٱلاَصمَعِيُّ : هٰذَا ٱلقَولُ خَطَأٌ بَلْ مَدَحَهُ بِمَعرِفَةِ ٱلخَيلِ لِاَنَّ ٱلنَّشرَ مُؤْذٍ لِكُلِّ مَا اَكَلَهُ وَاِنْ لَمْ يَكُنْ ثَمَّ سَهَامٌ . وَقَالَ سُلَيمَانُ بْنُ قُتَّةَ فِي رِثَاءِ ٱلحُسَينِ بْنِ عَلِيٍّ وَذِكْرِ آلِ ٱلرَّسُولِ :

اُولَائِكَ قَومٌ لَمْ يَشِيمُوا سُيُوفَهُمْ وَلَمْ تَكْثُرِ ٱلقَتلَى بِهَا حِينَ سُلَّتِ

قَالَ قَومٌ اَرَادَ لَمْ يُغمِدُوا سُيُوفَهُمْ اِلَّا بَعدَ كَثْرَةِ ٱلقَتلَى بِهَا كَمَا تَقُولُ لَمْ اَضرِبكَ وَلَمْ تَجنِ عَلَيَّ اِلَّا بَعدَ اَنْ جَنَيتُ عَلَيكَ . وَقَالَ آخَرُونَ : اَرَادَ لَمْ يَسُلُّوا سُيُوفَهُمْ اِلَّا وَكَثُرَتْ بِهَا ٱلقَتلَى كَمَا تَقُولُ : لَمْ اَلقَكَ وَلَمْ اُحسِنْ اِلَيكَ اَيْ اِلَّا وَقَدْ اَحسَنتُ اِلَيكَ وَٱلقَولَانِ مَعًا صَحِيحَانِ لِاَنَّهُ مِنَ ٱلْاَضدَادِ وَيُنشِدُونَ قَولَ ٱلآخَرِ :

هَجَمْنَا عَلَيهِ وَهُوَ يَكعَمُ كَلْبَهُ دَعِ ٱلكَلْبَ يَنبَحْ اِنَّمَا ٱلكَلْبُ نَابِحُ

وَيُرْوَى :

دَفَعتُ اِلَيهِ وَهُوَ يَخنُقُ كَلْبَهُ اَلَا كُلُّ كَلْبٍ لَا اَبَا لَكَ نَابِحُ

وَاَنشَدَ اَبُو عَبدِ ٱللّٰهِ :

فَجُنِّبْتَ ٱلجُيُوشَ اَبَا حَبِيبٍ وَجَادَ عَلَى مَحَلَّتِكَ ٱلسَّحَابُ

وَيُرْوَى اَنَّ اَبَا زَيْنَبَ قَالَ : اِنْ دَعَا لَهُ فَاِنَّمَا اَرَادَ اَنْ يُعَافَى مِنَ الْجُيُوشِ وَاَنْ يَجُودَهُ السَّحَابُ فَتُخْصِبَ اَرْضُهُ وَاِنْ دَعَا عَلَيْهِ قَالَ : لَا اَبْقَى لَكَ خَيْرًا تَطْمَعُ فِيهِ الْجُيُوشُ فَهِيَ تَتَجَنَّبُ دِيَارَكَ لِعِلْمِهِمْ بِقِلَّةِ الْخَيْرِ فِيهَا وَيَدْعُو عَلَى مَحَلَّتِهِ بِاَنْ تَدْرُسَهَا الْاَمْطَارُ . وَقَالَ غَيْرُهُ : اِنَّمَا مَعْنَاهُ جَادَ عَلَى مَحَلَّتِكَ السَّحَابُ فَاَخْصَبَتْ وَلَا مَاشِيَةَ لَكَ فِيهَا فَذٰلِكَ اَشَدُّ لِهَمِّكَ وَغَمِّكَ وَيَكُونُ الْمَعْنَى حِينَئِذٍ كَقَوْلِ الْآخَرِ :

وَخَيْفَاءَ اَلْقَى اللَّيْثُ فِيهَا ذِرَاعَهُ فَسَرَّتْ وَسَاءَتْ كُلَّ مَاشٍ وَمُصْرِمِ

اَيْ سَرَّتْ كُلَّ ذِي مَاشِيَةٍ وَسَاءَتْ كُلَّ فَقِيرٍ . وَاَنْشَدَ اَبُو عَبْدِ اللّٰهِ اَيْضًا :

اِنِّي عَلَى كُلِّ اِيسَارٍ وَمَعْسَرَةٍ اَدْعُو خُبَيْثًا كَمَا تُدْعَى ابْنَةُ الْجَبَلِ

وَرَوَى الْمُبَرِّدُ حَنِيفًا يُرِيدُ اَنَّهُ يُجِيبُهُ بِسُرْعَةٍ كَالصَّدَا وَهُوَ ابْنَةُ الْجَبَلِ وَقِيلَ ابْنَةُ الْجَبَلِ الصَّخْرَةُ الْمُنْحَدِرَةُ مِنْ اَعْلَاهُ . وَزَادَ اَبُو زَيْدٍ فِي رِوَايَتِهِ بَيْتًا وَهُوَ :

اِنْ تَدْعُهُ مُوهِنًا يَعْجَلْ بِجَانِبِهِ عَارِي الْاَشَاجِعِ يَسْعَى غَيْرَ مُشْتَمِلِ

فَهٰذَا مَدْحٌ لَا مَحَالَةَ وَمِنْهُمْ مَنْ حَمَلَهُ عَلَى قَوْلِ الْآخَرِ :

كَاَنِّي اِنْ دَعَوْتُ بَنِي حَنِيفٍ دَعَوْتُ بِدَعْوَتِي لَهُمُ الْجِبَالَا

وَرَوَاهُ قَوْمٌ بَنِي سُلَيْمٍ فَمَنْ مَدَحَ جَعَلَهُ مِثْلَ الْاَوَّلِ فِي سُرْعَةِ الْاِجَابَةِ وَمَنْ ذَمَّ نَسَبَهُمْ اِلَى الثِّقَلِ عَنْ اِجَابَتِهِ مِثْلَ الْجِبَالِ . وَمِنَ الدُّعَاءِ الَّذِي يَدْخُلُ فِي هٰذَا الْبَابِ :

تَفَرَّقَتْ غَنَمِي يَوْمًا فَقُلْتُ لَهَا   يَا رَبِّ سَلِّطْ عَلَيْهَا ٱلذِّئْبَ وَٱلضَّبُعَا

قِيلَ إِنَّهُمَا إِذَا ٱجْتَمَعَا لَا يُؤْذِيَانِ وَشَغَلَ كُلٌّ مِنْهُمَا ٱلْآخَرَ وَإِذَا تَفَرَّقَا آذَيَا وَقِيلَ: إِنَّ مَعْنَاهُ فِي ٱلدُّعَاءِ عَلَيْهَا: قَتَلَ ٱلذِّئْبُ ٱلْأَحْيَاءَ عَبَثًا وَأَكَلَتِ ٱلضَّبُعُ ٱلْأَمْوَاتَ فَلَمْ يَبْقَ مِنْهَا بَقِيَّةٌ. وَمِنْ لَطِيفِ مَا وَقَعَ فِي هٰذَا ٱلْبَابِ قَوْلُ ٱلنَّابِغَةِ ٱلذُّبْيَانِي:

يَصُدُّ ٱلشَّاعِرُ ٱلثُّنْيَانُ عَنِّي   صُدُودَ ٱلْبَكْرِ عَنْ قَرْمٍ ٱلْهِجَانِ

وَلَمْ يُرِدْ أَنَّهُ يَغْلِبُ ٱلثُّنْيَانَ وَلَا يَغْلِبُ ٱلْفَحْلَ لٰكِنْ أَرَادَ ٱلتَّصْغِيرَ بِٱلَّذِي هَاجَاهُ فَجَعَلَهُ ثُنْيَانًا. وَقَالَ آخَرُ:

وَمَنْ يَفْخَرْ بِمِثْلِ أَبِي وَجَدِّي   يَجِي قَبْلَ ٱلسَّوَابِقِ وَهْوَ ثَانِ

أَرَادَ وَهْوَ ثَانٍ مِنْ عِنَانِهِ لَا يُسْبَقُ مُتَمَهِّلًا. وَمِمَّا يُمْدَحُ بِهِ وَيُذَمُّ قَوْلُهُمْ بَيْضَةُ ٱلْبَلَدِ فَمَنْ مَدَحَ أَرَادَ أَنَّهَا أَصْلُ ٱلطَّائِرِ وَمَنْ ذَمَّ أَرَادَ أَنَّهَا لَا أَصْلَ لَهَا. قَالَتْ أُخْتُ عَمْرِو بْنِ عَبْدِ وُدٍّ فِي عَلِيٍّ لَمَّا قَتَلَ أَخَاهَا:

لَوْ كَانَ قَاتِلُ عَمْرٍو غَيْرَ قَاتِلِهِ   لَقَدْ بَكَيْتُ عَلَيْهِ آخِرَ ٱلْأَبَدِ

لٰكِنَّ قَاتِلَهُ مَنْ لَا يُعَابُ بِهِ   مَنْ كَانَ يُدْعَى قَدِيمًا بَيْضَةَ ٱلْبَلَدِ

فَهٰذَا أَمْدَحُ كَمَا تَرَاهُ وَقَالَ ٱلرَّاعِي ٱلنُّمَيْرِيُّ يَهْجُو عَدِيَّ بْنَ ٱلرِّقَاعِ ٱلْعَامِلِيَّ:

لَوْ كُنْتَ مِنْ أَحَدٍ تُهْجَى هَجَوْتُكُمُ
يَا ٱبْنَ ٱلرِّقَاعِ وَلٰكِنْ لَسْتَ مِنْ أَحَدِ
تَأْبَى قُضَاعَةُ أَنْ تَرْضَى بِكُمْ نَسَبًا
وَٱبْنَا نِزَارٍ فَأَنْتُمْ بَيْضَةُ ٱلْبَلَدِ

وَأَنْشَدَ بَعْضُ ٱلْعُلَمَاءِ:

وَإِنِّي لَظَلَّامٌ لِأَشْعَثَ بَائِسٍ
عَرَارًا وَمَقْرُورًا يُرَى مَالَهُ ٱلدَّهْرُ
وَجَارِ قَرِيبِ ٱلدَّارِ أَوْ ذِي جِنَايَةٍ
غَرِيبٍ بَعِيدِ ٱلدَّارِ لَيْسَ لَهُ وَفْرُ

يَظُنُّهُ ٱلسَّامِعُ هَجَا نَفْسَهُ بِظُلْمِ هٰؤُلَاءِ ٱلَّذِينَ ذُكِرُوا إِنَّمَا مَدَحَهَا بِأَنَّهُ يَظْلِمُ ٱلنَّاقَةَ فَيَنْحَرُ لِلضِّيَافَةِ فَصِيلَهَا مِنْ غَيْرِ عِلَّةٍ وَلَا دَاءٍ هٰذَا هُوَ ٱلْأَشْعَثُ وَٱلْجَارُ وَأَشْبَاهُهُمَا

البحث الثالث عشر

في البديهة والارتجال

(من كتاب العمدة لابن رشيق)

اَلْبَدِيهَةُ عِنْدَ كَثِيرٍ مِنَ ٱلْمَوْسُومِينَ بِعِلْمِ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ فِي بَلَدِنَا وَمِنْ أَهْلِ عَصْرِنَا هِيَ ٱلْإِرْتِجَالُ وَلَيْسَتْ بِهِ لِأَنَّ ٱلْبَدِيهَةَ فِيهَا ٱلْفِكْرُ وَٱلتَّأْيِيدُ . وَٱلْإِرْتِجَالُ مَا كَانَ ٱنْهِمَارًا وَتَدَفُّقًا لَا يَتَوَقَّفُ فِيهِ قَائِلُهُ كَٱلَّذِي صَنَعَ ٱلْفَرَزْدَقُ وَقَدْ دَفَعَ إِلَيْهِ سُلَيْمَانُ بْنُ عَبْدِ ٱلْمَلِكِ أَسِيرًا مِنَ ٱلرُّومِ لِيَقْتُلَهُ فَدَسَّ إِلَيْهِ رَجُلٌ مِنْ بَنِي عَبْسٍ سَيْفًا كَهَامًا فَنَبَا حِينَ ضَرَبَ بِهِ وَضَحِكَ سُلَيْمَانُ فَقَالَ ٱلْفَرَزْدَقُ ٱرْتِجَالًا فِي مَقَالَةٍ يَعْتَذِرُ لِنَفْسِهِ وَيُعَيِّرُ بَنِي عَبْسٍ بِنُبُوِّ سَيْفِ وَرْقَاءَ بْنِ زُهَيْرٍ عَنْ رَأْسِ خَالِدِ بْنِ جَعْفَرٍ :

فَإِنْ يَكُ سَيْفٌ خَانَ أَوْ نَبَا حَدُّهُ
لِتَأْخِيرِ نَفْسٍ حَيْنُهَا غَيْرُ شَاهِدِ
فَسَيْفُ بَنِي عَبْسٍ وَقَدْ ضَرَبُوا بِهِ
نَبَا بِيَدَيْ وَرْقَاءَ عَنْ رَأْسِ خَالِدِ
كَذَاكَ سُيُوفُ ٱلْهِنْدِ تَنْبُو ظُبَاتُهَا
وَيَقْطَعْنَ أَحْيَانًا مَنَاطَ ٱلْقَلَائِدِ
وَلَوْ شِئْتُ قَطَّ ٱلسَّيْفُ مَا بَيْنَ أَنْفِهِ
إِلَى عَرَقٍ دُونَ ٱلشَّرَاسِيفِ حَاسِدِ

ثُمَّ جَلَسَ وَهُوَ يَقُولُ:

وَلَا نَقْتُلُ ٱلْأَسْرَى وَلٰكِنْ نَفُكُّهُمْ
إِذَا شَغَلَ ٱلْأَعْنَاقَ حَمْلُ ٱلْمَغَارِمِ

وَأَعْظَمُ ٱرْتِجَالٍ وَقَعَ قَصِيدَةُ ٱلْحَارِثِ بْنِ حِلِّزَةَ بَيْنَ يَدَيْ عَمْرِو ٱبْنِ هِنْدٍ فَإِنَّهُ يُقَالُ أَتَى بِهَا كَٱلْخُطْبَةِ. وَكَذٰلِكَ قَصِيدَةُ عُبَيْدِ بْنِ ٱلْأَبْرَصِ. وَقِيلَ: أَفْضَلُ ٱلْبَدِيهَةِ بَدِيهَةُ أَمْنٍ وَرَدَتْ فِي مَوْضِعِ خَوْفٍ فَمَا ظَنُّكَ بِٱلْإِرْتِجَالِ وَهُوَ أَسْرَعُ مِنَ ٱلْبَدِيهَةِ. وَكَانَ أَبُو نُوَاسٍ قَوِيَّ ٱلْبَدِيهَةِ وَٱلْإِرْتِجَالِ لَا يَكَادُ يَنْقَطِعُ وَلَا يَرْوِي إِلَّا فَلْتَةً. وَيُرْوَى أَنَّ ٱلْخَطِيبَ قَالَ لَهُ مَرَّةً يُمَازِحُهُ وَهُوَ بِٱلْمَسْجِدِ ٱلْجَامِعِ: وَأَنْتَ غَيْرُ مُدَافَعٍ فِي ٱلشِّعْرِ وَلٰكِنَّكَ لَا تَخْطُبُ. فَقَامَ مِنْ فَوْرِهِ يَقُولُ مُرْتَجِلًا:

مَنَحْتُكُمُ يَا أَهْلَ مِصْرَ نَصِيحَتِي أَلَا فَخُذُوا مِنْ نَاصِحٍ بِنَصِيبِ

رِمَاكُمْ امِيرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِحَيَّةٍ أَكُولٍ لِحَيَاتِ ٱلْبِلَادِ شَرُوبِ
فَإِنْ يَكُ بَاقِي سِحْرِ فِرْعَوْنَ فِيكُمُ فَإِنَّ عَصَا مُوسَى بِكَفِّ خَطِيبِ

ثُمَّ ٱلْتَفَتَ الَيهِ : وَٱللهِ لَا يَأْتِي بِمِثْلِهَا خَطِيبٌ مِصقَعٌ فَكَيفَ رَأَيتَ فَأَعْتَذَرَ الَيهِ فَحَلَفَ : اِنْ كُنتُ الَّا مَازِحًا . وَسَمِعْتُ جَمَاعَةً مِنَ ٱلْعُلَمَاءِ يَقُولُونَ : كَانَ مُسْلِمُ بْنُ ٱلْوَلِيدِ نَظِيرَ ابِي نُوَاسٍ فِي وُقُوفِهِ عِنْدَ قَوْمٍ مِنْ اَهْلِ زَمَانِهِ فِي اَشْيَاءَ الَّا اَنَّ اَبَا نُوَاسٍ قَهَرَ بِٱلْبَدِيهَةِ وَٱلِارْتِجَالِ مَعَ تَقَبُّضٍ كَانَ فِي مُسْلِمٍ وَاظْهَارِ تَوَقُّدٍ وَكَانَ صَاحِبَ فِكْرَةٍ وَرَوِيَّةٍ لَا يَبْتَدِهُ وَلَا يَرْتَجِلُ فَكَانَ اَبُو ٱلْعَتَاهِيَةِ فِيمَا يُقَالُ اَقْدَرَ ٱلنَّاسِ عَلَى ٱرْتِجَالٍ وَبَدِيهَةٍ لِقُرْبِ مَأْخَذِهِ وَسُهُولَةِ طَرِيقِهِ

وَٱجْتَمَعَ عِدَّةٌ مِنَ ٱلشُّعَرَاءِ فِيهِمْ اَبُو نُوَاسٍ فَشَرِبَ اَحَدُهُمْ مَاءً ثُمَّ قَالَ اَجِيزُونَا : بَرَدَ ٱلْمَاءُ وَطَابَا . فَكُلُّهُمْ تَلَعْثَمَ حَتَّى طَلَعَ اَبُو ٱلْعَتَاهِيَةِ . قَالَ : فِيمَ اَنْتُمْ فَأَنْشَدُوهُ . فَقَالَ وَمَا تَرَدَّدَ : حَبَّذَا ٱلْمَاءُ شَرَابًا . فَأَتَى بِٱلْقَسِيمِ شَبِيهًا بِصَاحِبِهِ . وَذٰلِكَ هُوَ ٱلَّذِي اَعْوَزَ ٱلْقَوْمَ لَا وَزْنُ ٱلْكَلَامِ . وَصَحِبَ رِفْقَةً فَسَمِعَ زُقَاءَ ٱلدُّيُوكِ . فَقَالَ لِرَفِيقِهِ : هَلْ رَأَيتَ ٱلصُّبْحَ لَاحَا . قَالَ نَعَمْ . قَالَ : وَسَمِعْتَ ٱلدِّيكَ صَاحَا . قَالَ نَعَمْ . قَالَ :

اِنَّمَا بَكَى عَلَى ٱلْمَغْـ ـتَرِّ بِٱلدُّنْيَا وَنَاحَا

فَاسْتَيْقَظَ رَفِيقُهُ لِلْكَلَامِ اَنَّهُ شِعْرٌ فَرَوَاهُ . فَأَجْرَى هٰذَا ٱلْمَجْرَى فَهُوَ ٱلِارْتِجَالُ . وَاَمَّا ٱلْبَدِيهَةُ فَبَعْدَ اَنْ يُفَكِّرَ ٱلشَّاعِرُ يَسِيرًا وَيَكْتُبَ

سَرِيعًا اِنْ حَضَرَتْ آلَتُهُ اِلَّا اَنَّهُ غَيْرُ بَطِيءٍ وَلَا مُتَرَاخٍ فَاِنْ اَطَالَ حَتَّى يُفرِطَ اَوْ قَامَ مِنْ مَجْلِسِهِ لَمْ يُعَدْ بَدِيهًا

وَقَالُوا اَجْتَمَعَ اَلشُّعَرَاءُ بِبَابِ اَلرَّشِيدِ فَاَذِنَ لَهُمْ وَقَالَ: مَنْ يُجِيزُ هٰذَا اَلْقَسِيمَ وَلَهُ حُكْمُهُ. قَالُوا: مَا هُوَ يَا اَمِيرَ اَلْمُؤْمِنِينَ. قَالَ: اَلْمُلْكُ لِلّٰهِ وَحْدَهُ. فَقَالَ اَلْجَزَّارُ: وَلِلْخَلِيفَةِ بَعْدَهُ وَلِلْمُحِبِّ اِذَا مَا حَبِيبُهُ بَاتَ عِنْدَهُ. فَقَالَ: اَحْسَنْتَ وَاَتَيْتَ عَلَى مَا فِي نَفْسِي وَاَمَرَ لَهُ بِعَشَرَةِ آلَافِ دِرْهَمٍ. وَقَدْ كَانَ اَبُو اَلطَّيِّبِ كَثِيرَ اَلْبَدِيهَةِ وَالِارْتِجَالِ اِلَّا اَنَّ شِعْرَهُ فِيهَا نَازِلٌ عَنْ طَبَقَتِهِ جِدًّا وَهُوَ لَعَمْرِي فِي سَعَةٍ مِنَ اَلْفَنَدِ اِذْ كَانَتِ اَلْبَدِيهَةُ كَمَا قَالَ اَبْنُ اَلرُّومِيِّ فِيهَا:

نَارُ اَلرَّوِيَّةِ نَارٌ جِدُّ مُنْضِجَةٍ ... وَلِلْبَدِيهَةِ نَارٌ ذَاتُ تَلْوِيحِ
وَقَدْ يُفَضِّلُهَا قَوْمٌ لِعَاجِلِهَا ... لٰكِنَّ عَاجِلَهَا يَمْضِي مَعَ اَلرِّيحِ

وَقَالَ اَبْنُ اَلْمُعْتَزِّ:

وَاَلْقَوْلُ بَعْدَ اَلْفِكْرِ يُؤْمَنُ زَيْغُهُ ... شَتَّانَ بَيْنَ رَوِيَّةٍ وَبَدِيهَةِ

وَمِنَ اَلشُّعَرَاءِ مَنْ شِعْرُهُ فِي اَلرَّوِيَّةِ وَاَلْبَدِيهَةِ سَوَاءٌ وَعِنْدَ اَلْاَمْنِ وَاَلْخَوْفِ لِقُدْرَتِهِ وَسُكُونِ جَأْشِهِ وَقُوَّةِ غَرِيزَتِهِ كَهُدْبَةَ بْنِ اَلْخَشْرَمِ اَلْعُذْرِيِّ وَطَرَفَةَ بْنِ اَلْعَبْدِ اَلْبَكْرِيِّ وَمُرَّةَ بْنِ مُحْكَانَ اَلسَّعْدِيِّ اِذْ يَقُولُ وَقَدْ اَمَرَ مُصْعَبُ بْنُ اَلزُّبَيْرِ رَجُلًا مِنْ بَنِي اَسَدٍ بِقَتْلِهِ:

بَنِي اَسَدٍ اِنْ تَقْتُلُونِي تُحَارِبُوا ... تَمِيمًا اِذَا اَلْحَرْبُ اَلْعَوَانُ اَشْمَعَلَّتِ
وَلَسْتُ وَاِنْ كَانَتْ اِلَيَّ حَبِيبَةً ... بِبَاكٍ عَلَى اَلدُّنْيَا اِذَا مَا تَوَلَّتِ

وَهٰذَا شِعْرٌ لَوْ تَرَوَّى فِيهِ صَاحِبُهُ حَوْلًا كَامِلًا عَلَى أَمْنٍ وَدَعَةٍ وَفَرْطِ شَهْوَةٍ أَوْ شِدَّةِ حَمِيَّةٍ لَمَا أَتَى بِهِ فَوْقَ هٰذَا وَكَذٰلِكَ عَبْدُ يَاغُوثَ بْنُ صَلَاءَةَ إِذْ يَقُولُ فِي كَلِمَةٍ لَهُ طَوِيلَةٍ:

أَقُولُ وَقَدْ شَدُّوا لِسَانِي بِنِسْعَةٍ   أَمَعْشَرَ تَيْمٍ أَطْلِقُوا مِنْ لِسَانِيَا
أَيَا رَاكِبًا إِمَّا عَرَضْتَ فَبَلِّغَنْ   نُدَامَايَ مِنْ نَجْرَانَ أَنْ لَا تَلَاقِيَا

وَكَانُوا شَدُّوا لِسَانَهُ خَوْفًا مِنَ ٱلْهِجَاءِ فَعَاهَدَهُمْ فَأَطْلَقُوهُ لِيَنُوحَ عَلَى نَفْسِهِ وَعَرَضَ عَلَيْهِمْ فِي فِدَائِهِ أَلْفَ نَاقَةٍ فَأَبَوْا إِلَّا قَتْلَهُ فَقَالَ:

فَإِنْ تَقْتُلُونِي تَقْتُلُونِي بِخَيْرِكُمْ   وَإِنْ تُطْلِقُونِي تَحْرُبُونِي بِمَالِيَا

وَهٰذِهِ شَهَامَةٌ عَظِيمَةٌ وَشِدَّةٌ. وَمِنْ قَوْلِ طَرَفَةَ بْنِ ٱلْعَبْدِ لَمَّا أَيْقَنَ بِٱلْمَوْتِ:

أَبَا مُنْذِرٍ كَانَتْ غُرُورًا صَحِيفَتِي
وَلَمْ أُعْطِكُمْ فِي ٱلطَّوْعِ مَالِي وَلَا عِرْضِي
أَبَا مُنْذِرٍ أَفْنَيْتَ فَٱسْتَبْقِ بَعْضَنَا
حَنَانَيْكَ بَعْضُ ٱلشَّرِّ أَهْوَنُ مِنْ بَعْضِ

وَأَيْنَ هٰؤُلَاءِ مِنْ عُبَيْدِ بْنِ ٱلْأَبْرَصِ وَهُوَ شَيْخٌ مِنْ شُيُوخِ ٱلصِّنَاعَةِ وَمُقَدَّمٌ فِي ٱلسِّنِّ عَلَى ٱلْجَمَاعَةِ إِذْ يَقُولُ لَهُ ٱلنُّعْمَانُ يَوْمَ بُؤْسِهِ: أَنْشِدْنِي. قَالَ: حَالَ ٱلْجَرِيضُ دُونَ ٱلْقَرِيضِ. قَالَ: أَنْشِدْنِي قَوْلَكَ أَقْفَرَ مِنْ أَهْلِهِ مَلْحُوبُ. فَقَالَ:

أَقْفَرَ مِنْ أَهْلِهِ عُبَيْدُ   فَٱلْيَوْمَ لَا يُبْدِي وَلَا يُعِيدُ

فَبَلَغَتْ بِهِ حَالُ ٱلْجَزَعِ إِلَى مِثْلِ هٰذَا عَلَى أَنَّ فِي طَرَفَةِ بَعْضِ ٱلضَّرَاعَةِ

حَكَى عَلِيُّ بْنُ يَحْيَى قَالَ: كُنْتُ عِنْدَ ٱلْمُتَوَكِّلِ إِذْ أَتَاهُ رَسُولُ إِسْحَقَ بْنِ إِسْمٰعِيلَ فَقَامَ عَلِيُّ بْنُ ٱلْجَهْمِ يَخْطُرُ بَيْنَ يَدَيْهِ وَيَقُولُ:

أَهْلًا وَسَهْلًا بِكَ مِنْ رَسُولِ   جِئْتَ بِمَا يَشْفِي مِنَ ٱلْغَلِيلِ
بِرَأْسِ إِسْحَقَ بْنِ إِسْمَاعِيلِ

فَقَالَ ٱلْمُتَوَكِّلُ ٱلْقُطُوا هٰذَا ٱلْجَوْهَرَ لَا يَضِيعُ. وَٱشْتِقَاقُ ٱلْبَدِيهَةِ مِنْ بَدَهَ بِمَعْنَى بَدَأَ أُبْدِلَتِ ٱلْهَمْزَةُ هَاءً كَمَا أُبْدِلَتْ فِي أَشْيَاءَ كَثِيرَةٍ لِقُرْبِهَا مِنْهَا. فَقَدْ قَالُوا: مَدَحَ وَمَدَهَ وَلَهِنَّكَ تَفْعَلُ كَذَا بِمَعْنَى لِأَنَّكَ وَمِثْلُ ذٰلِكَ كَثِيرٌ. وَٱلِٱرْتِجَالُ مَأْخُوذٌ مِنَ ٱلسُّهُولَةِ وَٱلِٱنْصِبَابِ. وَمِنْهُ قِيلَ: شَعْرُ ٱلرَّجُلِ إِذَا كَانَ شَعْرُهُ سَبْطًا مُسْتَرْسِلًا غَيْرَ جَعْدٍ. وَقِيلَ هُوَ مِنِ ٱرْتِجَالِ ٱلْبِئْرِ وَهُوَ أَنْ تَنْزِلَهَا بِرِجْلَيْكَ مِنْ غَيْرِ حَبْلٍ

البحث الرابع عشر

في آداب الشاعر

(من كتاب العمدة لابن رشيق)

مِنْ حِكَمِ ٱلشَّاعِرِ أَنْ يَكُونَ حُلْوَ ٱلشَّمَائِلِ حَسَنَ ٱلْأَخْلَاقِ طَلْقَ ٱلْوَجْهِ بَعِيدَ ٱلْغَوْرِ مَأْمُونَ ٱلْجَانِبِ سَهْلَ ٱلنَّاحِيَةِ وَطِيءَ ٱلْأَكْنَافِ فَإِنَّ ذٰلِكَ مِمَّا يُحَبِّبُهُ إِلَى ٱلنَّاسِ وَيُزَيِّنُهُ فِي عُيُونِهِمْ وَيُقَرِّبُهُ

مِنْ قُلُوبِهِمْ وَلْيَكُنْ مَعَ ذٰلِكَ شَرِيفَ ٱلنَّفْسِ لَطِيفَ ٱلْحِسِّ عَزُوفَ ٱلْهِمَّةِ نَظِيفَ ٱلْبِزَّةِ انِفًا لِتَهَابَهُ ٱلْعَامَّةُ وَيَدْخُلَ فِي جُمْلَةِ ٱلْخَاصَّةِ فَلَا تَمُجُّهُ ابْصَارُهُمْ سَمْحَ ٱلْيَدَيْنِ وَإِلَّا فَهُوَ كَمَا قَالَ ٱبْنُ ابِي فَنَنٍ:

وَإِنَّ احَقَّ ٱلنَّاسِ بِٱللَّوْمِ شَاعِرٌ يَلُومُ عَلَى ٱلْبُخْلِ ٱلرِّجَالَ وَيَبْخَلُ

وَإِلَى هٰذَا ٱلْمَعْنَى ذَهَبَ ٱلطَّائِيُّ بِقَوْلِهِ:

أَأَلُومُ مَنْ بَخِلَتْ يَدَاهُ وَأَغْتَدِي لِلْبُخْلِ جَرْيًا سَاءَ ذَاكَ صَنِيعَا

وَٱلشَّاعِرُ مَأْخُوذٌ بِكُلِّ عِلْمٍ مَطْلُوبٌ بِكُلِّ مَكْرُمَةٍ لِاتِّسَاعِ ٱلشِّعْرِ وَٱحْتِمَالِهِ كُلَّ مَا حُمِلَ مِنْ نَحْوٍ وَلُغَةٍ وَفِقْهٍ وَخَبَرٍ وَحِسَابٍ وَفَرِيضَةٍ وَٱحْتِيَاجِ اكْثَرِ هٰذِهِ ٱلْعُلُومِ إِلَى شَهَادَتِهِ وَهُوَ مُكْتَفٍ بِذَاتِهِ مُسْتَغْنٍ عَمَّا سِوَاهُ وَلِأَنَّهُ قَيْدٌ لِلْأَخْبَارِ وَتَجْدِيدٌ لِلْآثَارِ وَصَاحِبُهُ ٱلَّذِي يَذُمُّ وَيَحْمَدُ وَيَهْجُو وَيَمْدَحُ وَيَعْرِفُ مَا يَأْتِي ٱلنَّاسُ مِنْ مَحَاسِنِ ٱلْأَشْيَاءِ وَمَا يَذَرُونَهُ فَهُوَ عَلَى نَفْسِهِ شَاهِدٌ وَبِحُجَّتِهِ مَأْخُوذٌ. وَلْيَأْخُذْ نَفْسَهُ بِحِفْظِ ٱلشِّعْرِ وَٱلْخَبَرِ وَمَعْرِفَةِ ٱلنَّسَبِ وَأَيَّامِ ٱلْعَرَبِ يَسْتَعْمِلُ ذٰلِكَ فِيمَا يُرِيدُهُ مِنْ ذِكْرِ ٱلْآثَارِ وَضَرْبِ ٱلْأَمْثَالِ لِيَعْلَقَ نَفْسُهُ بَعْضَ انْفَاسِهِمْ وَيَقْوَى بِقُوَّةِ طِبَاعِهِمْ. فَقَدْ وَجَدْنَا ٱلشَّاعِرَ مِنَ ٱلْمَطْبُوعِينَ ٱلْمُتَقَدِّمِينَ يَفْضُلُ اصْحَابَهُ بِرِوَايَةِ ٱلشِّعْرِ وَمَعْرِفَةِ ٱلْأَخْبَارِ وَٱلتَّلْمَذَةِ لِمَنْ فَوْقَهُ مِنَ ٱلشُّعَرَاءِ فَيَقُولُونَ: فُلَانٌ شَاعِرٌ رَاوِيَةٌ يُرِيدُونَ انَّهُ إِذَا كَانَ رَاوِيَةً عَرَفَ ٱلْمَقَاصِدَ وَسَهُلَ عَلَيْهِ مَأْخَذُ ٱللَّفْظِ وَلَمْ يَضِقْ بِهِ ٱلْمَذْهَبُ وَإِذَا كَانَ مَطْبُوعًا لَا عِلْمَ لَهُ وَلَا رِوَايَةَ ضَلَّ وَٱهْتَدَى مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُ وَرُبَّمَا طَلَبَ ٱلْمَعْنَى فَلَمْ يَصِلْ إِلَيْهِ

وَهُوَ مَاثِلٌ بَيْنَ يَدَيْهِ لِضُعْفِ آلَتِهِ كَالْمُقْعَدِ يَجِدُ فِي نَفْسِهِ الْقُوَّةَ عَلَى النُّهُوضِ فَلَا تُعِينُهُ الآلَةُ . وَقَدْ سُئِلَ رُؤْبَةُ بْنُ الْعَجَّاجِ عَنِ الْفَحْلِ مِنَ الشُّعَرَاءِ . فَقَالَ : هُوَ الرَّاوِيَةُ يُرِيدُ أَنَّهُ إِذَا رَوَى اسْتَفْحَلَ . قَالَ يُونُسُ بْنُ حَبِيبٍ : وَإِنَّمَا ذَلِكَ لِأَنَّهُ يَجْمَعُ إِلَى جَيِّدِ شِعْرِهِ مَعْرِفَةَ جَيِّدِ غَيْرِهِ فَلَا يَحْمِلُ نَفْسَهُ إِلَّا عَلَى بَصِيرَةٍ . وَقَالَ رُؤْبَةُ فِي صِفَةِ شَاعِرٍ :

لَقَدْ خَشِيتُ أَنْ تَكُونَ سَاحِرًا رِوَايَةً مُرًّا وَمُرًّا شَاعِرَا

وَاسْتَعْظَمَ حَالَهُ حَتَّى قَرَنَهَا بِالسِّحْرِ . وَقَالَ الْأَصْمَعِيُّ : لَا يَصِيرُ الشَّاعِرُ فِي قَرِيضِ الشِّعْرِ فَحْلًا حَتَّى يَرْوِيَ أَشْعَارَ الْعَرَبِ وَيَسْمَعَ الْأَخْبَارَ وَيَعْرِفَ الْمَعَانِيَ وَتَدُورَ فِي مَسَامِعِهِ الْأَلْفَاظُ . وَأَوَّلُ ذَلِكَ أَنْ يَعْرِفَ الْعَرُوضَ لِيَكُونَ مِيزَانًا عَلَى قَوْلِهِ وَالنَّحْوَ يُصْلِحُ بِهِ لِسَانَهُ وَيُقِيمُ بِهِ إِعْرَابَهُ وَالنَّسَبَ وَأَيَّامَ النَّاسِ لِيَسْتَعِينَ بِذَلِكَ عَلَى مَعْرِفَةِ الْمَنَاقِبِ وَالْمَثَالِبِ وَذِكْرِهِمَا بِمَدْحٍ أَوْ ذَمٍّ . وَقَدْ كَانَ الْفَرَزْدَقُ عَلَى فَضْلِهِ فِي هَذِهِ الصِّنَاعَةِ يَرْوِي لِلْحُطَيْئَةِ كَثِيرًا وَكَانَ الْحُطَيْئَةُ رَاوِيَةَ زُهَيْرٍ وَكَانَ زُهَيْرٌ رَاوِيَةَ أَوْسِ بْنِ حَجَرٍ وَطُفَيْلٍ الْغَنَوِيِّ جَمِيعًا . وَقَدْ نَزَلَ أَعْشَى بَنِي قَيْسِ بْنِ ثَعْلَبَةَ بَيْنَ يَدَيِ النَّابِغَةِ الذُّبْيَانِيِّ بِسُوقِ عُكَاظَ وَأَنْشَدَهُ فَقَدَّمَهُ . وَأَنْشَدَهُ حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ وَلَبِيدُ ابْنُ رَبِيعَةَ فَمَا عَابَهُمْ ذَلِكَ وَلَا غَضَّ مِنْهُمْ . وَكَانَ كُثَيِّرٌ رَاوِيَةَ جَمِيلٍ مُفَضِّلًا لَهُ . وَكَانَ أَبُو حَيَّةَ النُّمَيْرِيُّ وَاسْمُهُ الْهَيْثَمُ بْنُ الرَّبِيعِ وَهُوَ مِنْ أَحْسَنِ النَّاسِ شِعْرًا وَأَنْظَفِهِمْ كَلَامًا مُؤْتَمًّا بِالْفَرَزْدَقِ

آخِذًا عنهُ كثيرًا مُتَعَصِّبًا لَهُ . وَلَا يَسْتَغْنِي ٱلْمُوَلَّدُ عَنْ تَصَفُّحِ اشْعَارِ ٱلْمُوَلَّدِينَ لِمَا فِيهَا مِنْ حَلَاوَةِ ٱللَّفْظِ وَقُرْبِ ٱلْمَأْخَذِ وَاشَارَاتِ ٱلْمُلَحِ وَوُجُوهِ ٱلْبَدِيعِ ٱلَّذِي مِثْلُهُ فِي شِعْرِ ٱلْمُتَقَدِّمِينَ قَلِيلٌ وَانْ كَانُوا هُمْ فَتَحُوا بَابَهُ وَفَتَقُوا جِلْبَابَهُ . وَلِلْمُتَعَقِّبِ زِيَادَاتٌ وَٱفْتِنَانٌ . لَا عَلَى انْ تَكُونَ عُدَّةُ ٱلشَّاعِرِ مُطَالَعَةَ مَا ذَكَرْتُهُ آخِرَ كَلَامِي هٰذَا دُونَ مَا قَدَّمْتُهُ فَانَّهُ مَتَى فَعَلَ ذٰلِكَ لَمْ يَكُنْ فِيهِ مِنَ ٱلْمُنَّةِ وَفَضْلِ ٱلْقُوَّةِ مَا يَبْلُغُ بِهِ طَاقَةَ مَنْ تَبِعَ فَجَارِيَهُ . وَاذَا اعَانَتْهُ فَصَاحَةُ ٱلْمُتَقَدِّمِ وَحَلَاوَةُ ٱلْمُتَاخِرِ ٱشْتَدَّ سَاعِدُهُ وَبَعُدَ مَرَامُهُ فَلَمْ يَقَعْ دُونَ ٱلْغَرَضِ وَسَعَى انْ يَكُونَ اوْثَقَ سِهَامًا وَاحْسَنَ مَوْقِعًا مِمَّنْ لَوْ عَوَّلَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمُحْدَثِينَ لَقَصَّرَ عَنْهُ وَوَقَعَ دُونَهُ . وَلْيَجْعَلْ طَلَبَهُ اوَّلًا لِلسَّلَامَةِ فَاذَا صَحَّتْ لَهُ طَلَبَ ٱلتَّجْوِيدَ حِينَئِذٍ وَلْيَرْغَبْ فِي ٱلْحَلَاوَةِ وَٱلطُّلَاوَةِ رَغْبَتَهُ فِي ٱلْجَزَالَةِ وَٱلْفَخَامَةِ . وَلْيَجْتَنِبِ ٱلسُّوقِيَّ ٱلْقَرِيبَ وَٱلْوَحْشِيَّ ٱلْغَرِيبَ حَتَّى يَكُونَ شِعْرُهُ حَالًا بَيْنَ حَالَيْنِ كَمَا قَالَ بَعْضُ ٱلشُّعَرَاءِ :

عَلَيْكَ بِاوْسَاطِ ٱلْأُمُورِ فَانَّهَا ... نَجَاةٌ وَلَا تَرْكَبْ ذَلُولًا وَلَا صَعْبَا

وَاوَّلُ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ ٱلشَّاعِرُ بَعْدَ ٱلْجِدِّ ٱلَّذِي هُوَ ٱلْغَايَةُ وَفِيهِ وَحْدَهُ ٱلْكِفَايَةُ حُسْنُ ٱلتَّأَنِّي وَٱلسِّيَاسَةِ وَعِلْمُ مَقَاصِدِ ٱلْقَوْلِ فَانْ نَسَبَ ذَلَّ وَخَضَعَ وَانْ مَدَحَ اطْرَبَ وَاسْمَعَ وَانْ هَجَا اقَلَّ وَاوْجَعَ وَلْتَكُنْ غَايَتُهُ مَعْرِفَةَ اغْرَاضِ ٱلْمُخَاطَبِ كَائِنًا مَنْ كَانَ لِيَدْخُلَ إِلَيْهِ مِنْ بَابِهِ وَيُدَاخِلَهُ فِي ثِيَابِهِ فَذٰلِكَ هُوَ سِرُّ صِنَاعَةِ ٱلشِّعْرِ وَمَغْزَاهُ ٱلَّذِي تَفَاوَتَ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ تَفَاضَلُوا . وَقَدْ قِيلَ : لِكُلِّ

مَقام مَقالٌ. وَشِعْرُ ٱلشَّاعِرِ لِنَفْسِهِ وَفِي مُرادِهِ وَأُمورِ ذَاتِهِ مِنْ مَدْحٍ وَغَزَلٍ وَمُكَاتَبَةٍ وَمُجُونٍ وَخَمْرِيَّةٍ وَمَا اَشْبَهَ ذٰلِكَ غَيْرُ شِعْرِهِ فِي قَصَائِدِ ٱلْحَفْلِ ٱلَّتِي يَقُومُ بِهَا بَيْنَ ٱلسَّمَاطَيْنِ. يُقْبَلُ مِنْهُ فِي تِلْكَ ٱلطَّرِيقِ عَفْوُ كَلَامِهِ وَمَا لَا يَتَكَلَّفُ لَهُ وَلَا اَلْقَى بِهِ بَالًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهُ فِي هٰذِهِ اِلَّا مَا كَانَ مُحْكَكًا مُعاوَدًا فِيهِ ٱلنَّظَرُ جَيِّدًا لَا غَثَّ فِيهِ وَلَا سَاقِطَ وَلَا قَلِقَ. وَشِعْرُهُ لِلْاَمِيرِ غَيْرُ شِعْرِهِ لِلْوَزِيرِ وَٱلْكَاتِبِ وَمُخَاطَبَتُهُ لِلْقُضَاةِ وَٱلْفُقَهَاءِ بِخِلَافِ مَا تَقَدَّمَ مِنْ هٰذِهِ ٱلْاَنْوَاعِ.

وَٱلْمُتَاخِّرُ مِنَ ٱلشُّعَرَاءِ فِي ٱلزَّمَانِ لَا يَضُرُّهُ تَاَخُّرُهُ اِذَا اَجَادَ كَمَا لَا يَنْفَعُ ٱلْمُتَقَدِّمَ تَقَدُّمُهُ اِذَا قَصَّرَ وَاِنْ كَانَ لَهُ فَضْلُ ٱلسَّبْقِ فَعَلَيْهِ دَرَكُ ٱلتَّقْصِيرِ كَمَا اَنَّ لِلْمُتَاخِّرِ فَضْلَ ٱلْاِجَادَةِ وَٱلزِّيَادَةِ. وَلَا يَكُونُ ٱلشَّاعِرُ حَاذِقًا مُجَوِّدًا حَتَّى يَتَفَقَّدَ شِعْرَهُ وَيُعِيدَ فِيهِ نَظَرَهُ فَيُسْقِطَ رَدِيَّهُ وَيُثْبِتَ جَيِّدَهُ وَيَكُونَ بِٱلرَّكِيكِ مُطَّرِحًا لَهُ رَاغِبًا عَنْهُ. فَاِنَّ بَيْتًا جَيِّدًا مَقَامَ اَلْفِ رَدِيٍّ. وَقَالَ اَمْرُؤُ ٱلْقَيْسِ وَهُوَ اَوَّلُ مَا زَعَمُوا اَنَّهُ اُخْتِيرَ لَهُ وَعُلِمَ بِهِ اَنَّهُ اَفْضَلُ ٱلشُّعَرَاءِ وَٱلْمُقَدَّمُ عَلَيْهِمْ:

اَذُودُ ٱلْقَوَافِيَ عَنِّي ذِيَادَا ذِيَادَ غُلَامٍ جَرِيءٍ جِرَادَا
فَلَمَّا كَثُرْنَ وَعَنَّيْنَهُ تَخَيَّرَ مِنْهُنَّ سِتًّا جِيَادَا
فَاَعْزِلُ مَرْجَانَهَا جَانِبًا وَآخُذُ مِنْ دُرِّهَا ٱلْمُسْتَجَادَا

وَيُقَالُ اِنَّ اَبَا نُوَاسٍ كَانَ يَفْعَلُ هٰذَا ٱلْفِعْلَ وَيُبْقِي ٱلْجَيِّدَ وَيَلْتَمِسُ لَهُ مِنَ ٱلْكَلَامِ مَا سَهُلَ وَمِنَ ٱلْمَعْنَى مَا كَانَ وَاضِحًا جَلِيًّا

يُعرَفُ بدِيًّا. فقَدْ قالَ بعضُ ٱلمُتقدِّمِينَ: شَرُّ ٱلشِّعرِ ما سُئِلَ عنهُ. وكانَ ٱلحُطَيئَةُ يقُولُ: خيرُ ٱلشِّعرِ ٱلحَوليُّ ٱلمُحكَّكُ. اخذَ في ذٰلكَ بمَذهبِ زُهَيرِ بنِ ابي سُلمَى واوسٍ وطُفَيلٍ. ولا يجُوزُ لِلشَّاعِرِ كما لا يجُوزُ لغَيرِهِ ان يكُونَ مُعجَبًا بنفسهِ مُثنِيًا على شِعرِهِ وانْ فضيحَةٌ ظاهِرَةٌ كانَ غنيًّا عنها. وكانَ في ٱلبُحتُريِّ إعجابٌ شديدٌ اذا انشدَ يقُولُ: ما لكُمْ لا تعجَبُونَ ما احسنَ ما تسمَعُونَ. فانشدَ ٱلمُتوكِّلَ يومًا قصيدَتَهُ:

عَنْ ايِّ ثَغرٍ تَبتَسِمْ وبِايِّ طَرفٍ تحتَكِمْ

وابو ٱلعبَّاسِ ٱلصَّيمَرِيُّ حاضِرٌ فلمَّا رأى إعجابَهُ قامَ حِذاءَهُ وقالَ:

مِنْ ايِّ سَلحٍ تلتقِمْ وبِايِّ كفٍّ تلتطِمْ

فولَّى وهوَ غضبانُ. فقالَ: وعلِمتُ انَّكَ تنهزِمْ. فضحِكَ ٱلمُتوكِّلُ حتَّى فحصَ برِجلَيهِ وأعطى ٱلصَّيمَرِيَّ جائزَةً سنيَّةً

البحث الخامس عشر

في عمل الشعر وشحذ القريحة

(من كتاب العمدة)

لا بُدَّ لِلشَّاعِرِ وإنْ كانَ فَحلًا حاذِقًا مُبرِّزًا مُقدَّمًا مِنْ فترَةٍ تَعرِضُ لهُ في بعضِ ٱلأوقاتِ إمَّا لِشُغلٍ طرأَ او موتِ قريحةٍ او نُبُوِّ طبعٍ في تِلكَ ٱلسَّاعةِ او ذٰلكَ ٱلحِينِ. وقد كانَ ٱلفرَزدَقُ

وهو فحل مضر في زمانه يقول: تمر عليّ الساعة وقلع ضرس من اضراسي اهون عليّ من عمل بيت من الشعر فاذا تمادى ذلك على الشاعر قيل: قد اصفى كما يقال اصفت الدجاجة اذا انقطع بيضها وكذلك يقال له اجبل كما يقال للحافر البئر اذا بلغ جبلًا تحت الارض لا يعمل فيه شيء اجبل. وأُفحم الشاعر على أُفعل وقالوا: هو من فحم الصبي اذا انقطع صوته من شدة البكاء. فان ساء لفظه وفسدت معانيه قيل له اهتر فهو مهتر. وقد قيل في الذبياني انه كان شعره نظيفًا من العيوب لانه قاله كبيرًا ومات عن قرب ولم يهتر واكثر ما جاء الاهتار في صفة الكبير الذي يختلط كلامه. وقولهم في شعر النابغة انه قال كثيرًا يدل على انه بهذا يسمى نابغة كما عند اكثر الناس لا لقوله: «فقد نبغت لنا منهم شؤون» كما تقدم من قول بعضهم. ويقال اخلى الشاعر كما يقال اخلى الرامي اذا لم يصب معنى

ويحكى عن البحتري انه قال: فاوضت علي بن الجهمي في الشعر وذكر اشجع السلمي فقال: انه يخلي. فلم افهمها وانفت ان اسأله عنها. فلما انصرفت فكرت فيها ونظرت في شعر اشجع فاذا هو ربما مرت به الابيات مغسولة ليس فيها بيت رائع

ثم ان للناس فيما بعد ضروبًا مختلفة يستدعون بها الشعر

فتشحذ القرائح وتنبه الخواطر وتلين عريكة الكلام وتسهل طريق المعنى لكل امرئ بحسب تدبير طبعه واطراد عادته. وسيأتي ذلك في اقاويل العلماء بما ارجو ان يكون فيه هداية ان شاء الله تعالى

قال بكر بن النطاح الحنفي: الشعر مثل عين الماء ان تركتها نضبت وان استهتنها هتنت. وليس مراد بكر ان تستهتن بالعمل وحده لانا نجد الشاعر تكل قريحته مع كثرة العمل مرارا وتنزف مادته وتنفد معانيه فاذا جم طبعه اياما وربما زمانا طويلا ثم صنع الشعر جاء بكل آبدة واتهم بكل قافية شاردة وفتح له من المعاني والالفاظ ما لو رامه من قبل لاستغلق عليه وانبهم دونه. لكن بالمذاكرة مرة فانها تقدح زناد الخاطر وتفجر عيون المعاني وتوقظ ابصار الفتنة وبمطالعة الاشعار كرة فانها تبعث الحسد وتولد الشهوة. وسئل ذو الرمة كيف تفعل اذا انقفل دونك الشعر. فقال: كيف ينقفل دوني وعندي مفاتحه. قيل له: وعنه سألناك ما هو. قال: الخلو بذكر الاحباب ولعمري انه اذا انفتح للشاعر نسيب القصيدة فقد ولج من الباب ووضع رجله في الركاب على ان ذا الرمة لم يكن كثير المدح والهجاء وانما كان واصف اطلال ونادب اظعان وهو الذي اخرجه من طبقة الفحول. وقيل لكثير كيف تصنع الشعر اذا عسر عليك. قال: اطوف في الرياض المعشبة فيسهل علي صعبه ويسرع الي

آحسنُهُ . وَقَالَ ٱلأَصمَعِيُّ : مَا ٱسْتُدْعِيَ شَارِدُ ٱلشِّعْرِ بِمِثْلِ ٱلْمَاءِ ٱلْجَارِي وَٱلشَّرَفِ ٱلعَالِي وَٱلْمَكَانِ ٱلْخَالِي. وَقِيلَ ٱلْخَالِي يَعْنِي ٱلرَّوْضَ

وَحَدَّثَنَا بَعضُ اَصْحَابِنَا مِنْ اَهلِ ٱلْمَهْدِيَّةِ وَقَدْ مَرَرْنَا بِمَوْضِعٍ بِهَا يُعْرَفُ بِٱلكَنْدِيَّةِ وَهُوَ اشرفُهَا اَرضًا وهوَاءً . قَالَ : جِئْتُ هٰذَا ٱلْمَوْضِعَ مَرَّةً فَإِذَا عَبدُ ٱلكَرِيمِ عَلَى سَطْحٍ هُنَالِكَ قَدْ كَشَفَ ٱلدُّنيَا . فَقُلْتُ: اَبَا مُحَمَّدٍ. قَالَ: نَعمْ. فَقُلتُ : مَا تَصْنَعُ هَاهُنَا. قَالَ: أُلقِحُ خَاطِرِي وَاَجْلُو نَاظِرِي قُلْتُ: فَهَلْ نَتَجَ لَكَ شَيْءٌ . قَالَ: مَا تَقَرُّ بِهِ عَيْنِي وَعَيْنُكَ إِنْ شَاءَ ٱللهُ تَعَالَى وَاَنْشَدَ شِعْرًا يَدْخُلُ مَسَامَّ ٱلقُلُوبِ رِقَّةً . قُلتُ : هٰذَا ٱخْتِيَارٌ مِنْكَ ٱخْتَرَعْتَهُ . قَالَ : بَلْ بِرَأْيِ ٱلأَصمَعِيِّ

وَقَالُوا كَانَ جَرِيرٌ إِذَا اَرَادَ اَنْ يُؤَيِّدَ قَصِيدَةً صَنَعَهَا لَيْلًا يُشعِلُ سِرَاجًا وَيَعتَزِلُ اَهلَهُ وَرُبَّمَا عَلَا ٱلسَّطحَ وَحدَهُ وَغَطَّى رَأْسَهُ رَغبَةً فِي ٱلْخَلْوَةِ فِي نَفسِهِ . فَحُكِيَ اَنَّهُ صَنَعَ ذٰلِكَ فِي قَصِيدَتِهِ ٱلَّتِي اَخزَى بِهَا بَنِي نُمَيْرٍ

وَرُوِيَ اَنَّ ٱلفَرَزدَقَ كَانَ إِذَا عَصَتْ عَلَيهِ صَنْعَةُ ٱلشِّعْرِ رَكِبَ نَاقَةً وَطَافَ وَحدَهُ مُنْفَرِدًا فِي شِعَابِ ٱلجِبَالِ وَبُطُونِ ٱلأَوْدِيَةِ وَٱلأَمَاكِنِ ٱلْخَالِيَةِ فَيُعْطِيهِ ٱلكَلَامُ قِيَادَهُ . حُكِيَ ذٰلِكَ فِي قَصِيدَتِهِ ٱلفَائِيَّةِ :

عُرِفتَ بِأَعشَاشٍ وَمَا كِدْتَ تُعْرَفُ

وَذُكِرَ اَنَّ فَتًى مِنَ ٱلأَنصَارِ فَاخَرَ بِأَبيَاتِ حَسَّانَ بْنَ ثَابِتٍ:

لَنَا ٱلْجَفَنَاتُ ٱلْغُرُّ يَلْمَعْنَ فِي ٱلضُّحَى
وَأَسْيَافُنَا يَقْطُرْنَ مِنْ نَجْدَةٍ دَمَا

وَانْظَرَهُ سَنَةً فَمَضَى حَنِقًا وَطَالَتْ لَيْلَتُهُ لَمْ يَصْنَعْ شَيْئًا فَلَمَّا كَانَ قُرْبَ ٱلصَّبَاحُ اَتَى جَبَلًا بِٱلْمَدِينَةِ يُقَالُ لَهُ ذُبَابٌ فَنَادَى : اَخَاكُمْ اَخَاكُمْ يَا بَنِي لَيْنَا صَاحِبَكُمْ صَاحِبَكُمْ صَاحِبَكُمْ وَتَوَسَّدَ ذِرَاعَ نَاقَتِهِ فَٱنْثَالَتْ عَلَيْهِ ٱلْقَوَافِي وَجَاءَ بِٱلْقَصِيدَةِ بُكْرَةً وَقَدْ اَعْجَزَتِ ٱلشُّعَرَاءَ وَبَهَرَتْهُمْ طُولًا وَجُودَةً

قَالَ ٱبْنُ قُتَيْبَةَ : وَلِلشِّعْرِ اَوْقَاتٌ تُسْرِعُ فِيهَا قَوَافِيهِ مِنْهَا اَوَّلُ ٱللَّيْلِ قَبْلَ تَغَشِّي ٱلْكَرَى وَمِنْهَا صَدْرُ ٱللَّيْلِ وَقَبْلَ ٱلْغَدَاءِ وَمِنْهَا يَوْمُ شُرْبِ ٱلدَّوَاءِ وَمِنْهَا ٱلْخَلْوَةُ فِي ٱلْحَبْسِ . فَلِهَذِهِ ٱلْاَسْبَابِ تَخْتَلِفُ اَشْعَارُ ٱلشَّاعِرِ وَرَسَائِلُ ٱلْمُتَرَسِّلِ . وَحُكِيَ عَنْ اَبِي تَمَّامٍ وَقَدْ سَاَلَهُ ٱلْبُحْتُرِيُّ عَنْ اَوْقَاتِ صَنْعَةِ ٱلشِّعْرِ فَقَالَ قَرِيبًا مِنْ هٰذَا لَا اَحْفَظُهُ وَلَا اَشُكُّ اَنَّ ٱبْنَ قُتَيْبَةَ بِهِ ٱقْتَدَى وَاِنْ كَانَ مِمَّا رَوَاهُ

وَمِمَّا يَجْمَعُ ٱلْفِكْرَةَ فِي طَرِيقِ ٱلْفَلْسَفَةِ ٱسْتِلْقَاءُ ٱلْمَرْءِ عَلَى ظَهْرِهِ وَعَلَى كُلِّ حَالٍ فَلَيْسَ يَفْتَحُ مُقْفَلَ ٱلْخَوَاطِرِ مِثْلُ مُبَاكَرَةِ ٱلْعَمَلِ بِٱلْاَسْحَارِ عِنْدَ ٱلْهُبُوبِ مِنَ ٱلنَّوْمِ لِكَوْنِ ٱلنَّفْسِ مُجْتَمِعَةً لَمْ يَتَفَرَّقْ حِسُّهَا فِي اَسْبَابِ ٱللَّهْوِ اَوِ ٱلْمَعِيشَةِ اَوْ غَيْرِ ذٰلِكَ وَاِذَا هِيَ مُسْتَرِيحَةٌ جَدِيدَةٌ كَاَنَّمَا نَشَاَتْ نَشَاَةً اُخْرَى وَلِاَنَّ ٱلسَّحَرَ اَلطَفُ هَوَاءً وَاَرَقُّ نَسِيمًا وَاَعْدَلُ مِيزَانًا بَيْنَ ٱللَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَاِنْ لَمْ يَكُنِ ٱلْعَشِيُّ كَٱلسَّحَرِ

وَهُوَ عدِيلُهُ فِي ٱلتَّوَسُّطِ بَيْنَ طَرَفِي ٱللَّيْلِ وَٱلنَّهارِ لِدُخُولِ ٱلظُّلْمَةِ فِيهِ عَلَى ٱلضِّيَاءِ بَعْدَ دُخُولِ ٱلضِّيَاءِ بِٱلسَّحَرِ عَلَى ٱلظُّلْمَةِ وَلِأَنَّ ٱلنَّفْسَ فِيهِ كَآلَةٍ مُرِيضَةٍ مِنْ تَعَبِ ٱلنَّهارِ وَتصَرُّفِهَا مُحْتَاجَةٌ إِلَى قُوتِهَا مِنَ ٱلنَّوْمِ وَمُتَشَوِّقَةٌ نَحْوَهُ فَٱلسَّحَرُ أَحْسَنُ لِمَنْ أَرادَ أَنْ يَصْنَعَ. فَأَما لِمَنْ أَرادَ ٱلْحِفْظَ وَٱلدِّرَاسَةَ وَمَا أَشْبَهَ ذٰلِكَ فَٱللَّيلُ. قَالَ ٱللهُ تَعَالَى وَهُوَ أَصْدَقُ ٱلْقَائِلِينَ: إِنَّ نَاشِئَةَ ٱللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وَأَقْوَمُ قِيلًا. وَهٰذَا ٱلْكَلَامُ لَا مَطْعَنَ فِيهِ وَلَا ٱعْتِرَاضَ عَلَيْهِ. وَكَانَ أَبُو تَمَّامٍ يُكْرِهُ نَفْسَهُ عَلَى ٱلْعَمَلِ حَتَّى يَظْهَرَ ذٰلِكَ فِي شِعْرِهِ. حَكَى ذٰلِكَ عَنْهُ بَعْضُ أَصْحَابِهِ قَالَ: ٱسْتَأْذَنْتُ عَلَيْهِ وَكَانَ لَا يَسْتَتِرُ عَنِّي فَأَذِنَ لِي فَدَخَلْتُ فَإِذَا هُوَ فِي بَيْتٍ مُصَهْرَجٍ قَدْ غُسِلَ بِٱلْمَاءِ يَتَقَلَّبُ يَمِينًا وَشِمَالًا فَقُلْتُ: لَقَدْ بَلَغَ بِكَ ٱلْحَرُّ مَبْلَغًا شَدِيدًا. قَالَ: لَا وَلٰكِنْ غَيْرُهُ. فَمَكَثَ سَاعَةً ثُمَّ قَامَ كَأَنَّمَا أُطْلِقَ مِنْ عِقَالٍ فَقَالَ: ٱلْآنَ ٱلْآنَ أَرَدْتُ. ثُمَّ ٱسْتَمَدَّ وَكَتَبَ شَيْئًا لَا أَعْرِفُهُ ثُمَّ قَالَ: أَتَدْرِي مَا كُنْتُ فِيهِ مُنْذُ ٱلْآنَ. قُلْتُ: كَلَّا. قَالَ قَوْلُ أَبِي نُوَاسٍ:

«كَٱلدَّهْرِ فِيهِ شَرَاسَةٌ وَلِيَانُ» زَاوَلْتُهُ حَتَّى أَمْكَنَ ٱللهُ مِنْهُ فَعَمِلْتُ:

شَرِسْتَ بَلْ لِنْتَ بَلْ قَانَيْتَ ذَاكَ نَدًى

فَأَنْتَ لَا شَكَّ فِيهِ ٱلسَّهْلُ وَٱلْجَبَلُ

وَلَعَمْرِي لَوْ سَكَتَ هٰذَا ٱلْحَاكِي لَتَمَّ هٰذَا ٱلْبَيْتُ بِمَا كَانَ دَاخِلَ ٱلْبَيْتِ لِأَنَّ ٱلْكُلْفَةَ فِيهِ ظَاهِرَةٌ وَٱلتَّعَمُّلَ بَيِّنٌ. عَلَى أَنَّ مِثْلَ

حِكَايَةِ ابي تَمَّامٍ وَاشَدَّ مِنْهَا وَقَعَتْ لِمَنْ لَا يُتَّهَمُ وَهُوَ جَرِيرٌ. صَنَعَ ٱلفَرَزْدَقُ شِعْرًا يَقُولُ فِيهِ:

فَقُلْتُ انَا ٱلمَوْتُ ٱلَّذِي هُوَ ذَاهِبٌ
بِنَفْسِكَ فَٱنْظُرْ كَيْفَ انتَ مُحَاوِلُهْ

وَحَلَفَ بِٱلطَّلَاقِ انَّ جَرِيرًا لَا يَغْلِبُهُ فِيهِ فَكَانَ جَرِيرٌ يَتَمَرَّغُ فِي ٱلرَّمْضَاءِ وَيَقُولُ: انَا ابُو حَرْزَةَ حَتَّى قَالَ مِنْ ابيَاتٍ لَهُ مَشْهُورَةٍ:

انَا ٱلدَّهْرُ يُفْنِي ٱلمَوْتَ وَٱلدَّهْرُ خَالِدٌ
فَجِئْنِي بِمِثْلِ ٱلدَّهْرِ شَيْئًا يُطَاوِلُهْ

وَكَانَ ابُو تَمَّامٍ يَنْصِبُ ٱلقَافِيَةَ لِلْبَيْتِ لِيُعَلِّقَ ٱلْاعْجَازَ بِٱلصُّدُورِ وَذٰلِكَ هُوَ ٱلتَّصْدِيرُ فِي ٱلشِّعْرِ وَلَا يَأْتِي بِهِ كَثِيرًا الَّا شَاعِرٌ مُتَصَنِّعٌ كَحَبِيبٍ وَنُظَرَائِهِ وَٱلصَّوَابُ انْ لَا يَصْنَعَ ٱلشَّاعِرُ بَيْتًا لَا يَعْرِفُ قَافِيَتَهُ غَيْرَ انِّي لَا اجِدُ ذٰلِكَ فِي طَبْعِي وَلَا اقْدِرُ عَلَيْهِ ٱلبَتَّةَ بَلْ اصْنَعُ ٱلقِسْمَ ٱلْاوَّلَ عَلَى مَا أُرِيدُهُ ثُمَّ ٱلْتَمِسُ فِي نَفْسِي مَا يَلِيقُ بِهِ مِنَ ٱلقَوَافِي بَعْدَ ذٰلِكَ فَابْنِي عَلَيْهِ ٱلقِسْمَ ٱلثَّانِي افْعَلُ ذٰلِكَ فِيهِ كَمَا يَفْعَلُ مَنْ يَبْنِي ٱلبَيْتَ كُلَّهُ عَلَى ٱلْقَافِيَةِ وَلَمْ ارَ ذٰلِكَ يَتَخَلَّ عَلَيَّ وَلَا يُزِيحُنِي عَنْ مُرَادِي وَلَا يُغَيِّرُ عَلَيَّ شَيْئًا مِنْ لَفْظِ ٱلقِسْمِ ٱلْاوَّلِ الَّا فِي ٱلنُّدْرَةِ ٱلَّتِي لَا يُعْتَدُّ بِهَا عَلَى وَجْهِ ٱلتَّنْقِيحِ ٱلْمُفْرِطِ

وَمِنَ ٱلشُّعَرَاءِ مَنْ يَسْبِقُ الَيْهِ بَيْتٌ وَٱثْنَانِ وَخَاطِرُهُ فِي غَيْرِهِمَا يَجِبُ انْ يَكُونَ بَعْدَ ذٰلِكَ بِأَبْيَاتٍ وَذٰلِكَ لِقُوَّةِ طَبْعِهِ وَٱنْبِعَاثِ

خَاطِرِهِ . وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْصِبُ قَافِيَةً بِعَيْنِهَا لِلْبَيْتِ بِعَيْنِهِ مِنَ الشِّعْرِ مِثْلَ أَنْ تَكُونَ ثَالِثَةً أَوْ رَابِعَةً أَوْ نَحْوَ ذٰلِكَ لَا يَعْدُو بِهَا ذٰلِكَ الْمَوْضِعَ إِلَّا أَنْحَلَّ عَلَيْهِ نَظْمُ أَبْيَاتِهِ وَذٰلِكَ عِيٌّ فِي الصَّنْعَةِ شَدِيد وَنَقْصٌ بَيِّنٌ لِأَنَّ الشَّاعِرَ يَصِيرُ مَحْصُورًا عَلَى شَيْءٍ وَاحِدٍ بِعَيْنِهِ مُضَيَّقًا عَلَيْهِ وَدَاخِلًا تَحْتَ حُكْمِ الْقَافِيَةِ . وَكَانُوا يَقُولُونَ لِيَكُنِ الشِّعْرُ تَحْتَ حُكْمِكَ وَلَا تَكُنْ تَحْتَ حُكْمِهِ

وَمِنْهُمْ مَنْ إِذَا أَخَذَ فِي صَنْعَةِ الشِّعْرِ جَمَعَ مِنَ الْقَوَافِي مَا يَصْلُحُ لِذٰلِكَ الْوَزْنِ الَّذِي هُوَ فِيهِ . ثُمَّ أَخَذَ مُسْتَعْمَلَهَا وَشَرِيفَهَا وَمَا سَاعَدَ مَعَانِيَهُ وَوَافَقَهَا وَاطَّرَحَ مَا سِوَى ذٰلِكَ إِلَّا أَنَّهُ لَا بُدَّ أَنْ يَجْمَعَهَا لِيُكَرِّرَ فِيهَا نَظَرَهُ وَيُعِيدَ عَلَيْهَا التَّخَيُّرَ فِي حِينِ الْعَمَلِ . هٰذَا الَّذِي عَلَيْهِ حُذَّاقُ الْقَوْمِ

وَمِنَ الشُّعَرَاءِ مَنْ إِذَا جَاءَهُ الْبَيْتُ عَفْوًا انْتَبَهَ ثُمَّ رَاجَعَ فِيهِ فَنَقَّحَهُ وَصَفَّاهُ مِنْ كَدَرِهِ وَذٰلِكَ أَسْرَعُ وَأَخَفُّ عَلَيْهِ وَأَصَحُّ لِنَظَرِهِ وَأَخَفُّ لِبَالِهِ . وَآخَرُ لَا يُثْبِتُهُ إِلَّا بَعْدَ إِحْكَامِهِ فِي نَفْسِهِ وَتَثْقِيفِهِ مِنْ جَمِيعِ جِهَاتِهِ وَذٰلِكَ أَشْرَفُ لِلْهِمَّةِ وَأَدَلُّ عَلَى الْقُدْرِ وَأَظْهَرُ لِلْكُلْفَةِ وَأَبْعَدُ مِنَ السَّرِقَةِ . وَسَأَلْتُ شَيْخًا مِنْ شُيُوخِ هٰذِهِ الصِّنَاعَةِ فَقُلْتُ: مَا يُعِينُ عَلَى الشِّعْرِ . فَقَالَ : زَهْرَةُ الْبُسْتَانِ وَرَاحَةُ الْحَمَّامِ . وَقِيلَ : إِنَّ الطَّعَامَ الطَّيِّبَ وَالشَّرَابَ الطَّيِّبَ وَسَمَاعَ الْغِنَاءِ يُرَقِّقُ الطَّبْعَ وَيُصَفِّي الْمِزَاجَ وَيُعِينُ عَلَى الشِّعْرِ . وَلَمَّا أَرَادَتْ قُرَيْشٌ مُعَارَضَةَ الْقُرْآنِ عَكَفَ فُصَحَاؤُهُمُ الَّذِينَ تَعَاطَوْا ذٰلِكَ عَلَى لُبَابِ

ٱلْبِرّ وَسُلَافِ ٱلْخَمْرِ وَلُحُومِ ٱلضَّأْنِ وَٱلْخَلْوَةِ إِلَى أَنْ بَلَغُوا مَجْهُودَهُمْ . فَلَمَّا سَمِعُوا قَوْلَ ٱلْقُرْآنِ : وَقِيلَ يَا أَرْضُ ٱبْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ ٱلْمَاءُ وَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ ٱلظَّالِمِينَ. يَئِسُوا مِمَّا طَمِعُوا فِيهِ وَعَلِمُوا أَنَّهُ لَيْسَ بِكَلَامِ مَخْلُوقٍ. وَقِيلَ: مِقْوَدُ ٱلشِّعْرِ ٱلْعِتَابُ. وَذُكِرَ عَنْ أَبِي ٱلطَّيِّبِ أَنَّ مُتَشَرِّفًا تَشَرَّفَ عَلَيْهِ وَهُوَ يَصْنَعُ قَصِيدَتَهُ ٱلَّتِي يَقُولُ فِي أَوَّلِهَا « جَلَلًا كَمَا بِي فَلْيَكُ ٱلتَّبْرِيحُ » وَهُوَ يَتَغَنَّى وَيَصْنَعُ فَإِذَا تَوَقَّفَ بَعْضَ ٱلتَّوَقُّفِ رَجَعَ بِٱلْإِنْشَادِ مِنْ أَوَّلِ ٱلْقَصِيدَةِ إِلَى حَيْثُ ٱنْتَهَى مِنْهَا. وَقَالُوا: ٱلْحِيلَةُ لِكَلَالِ ٱلْقَرِيحَةِ ٱنْتِظَارُ ٱلْحَمَامِ . وَهٰذَا عِنْدِي أَنْجَعُ ٱلْأَقْوَالِ وَبِهِ أَقُولُ وَإِلَيْهِ أَذْهَبُ . وَقَالَ بَكْرُ بْنُ عَبْدِ ٱللّٰهِ ٱلْمُزَنِيُّ : لَا تَكُدُّوا ٱلْقُلُوبَ وَلَا تُهْمِلُوهَا وَخَيْرُ ٱلْفِكْرِ مَا كَانَ عَنْ عَقِبِ ٱلْحَمَامِ وَٱشْحَذُوا ٱلْقُلُوبَ بِٱلْمُذَاكَرَةِ وَلَا تَيْأَسُوا مِنْ إِصَابَةِ ٱلْحِكْمَةِ إِذَا ٱمْتُحِنْتُمْ بِبَعْضِ ٱلِٱسْتِغْلَاقِ فَإِنَّ مَنْ أَدْمَنَ قَرْعَ ٱلْبَابِ وَصَلَ . وَقَالَ ٱلْخَلِيعُ : مَنْ لَمْ يَأْتِ شِعْرُهُ مَعَ ٱلْوَحْدَةِ فَلَيْسَ بِشَاعِرٍ. وَقَالُوا يُرِيدُ ٱلْخَلْوَةَ وَرُبَّمَا أَرَادَ ٱلْغُرْبَةَ كَمَا قَالَ دِيكُ ٱلْجِنِّ : مَا أَصْفَى شَاعِرٌ مُغْتَرِبٌ قَطُّ

وَمِمَّا لَا يَسَعُ تَرْكُهُ فِي هٰذَا ٱلْمَوْضِعِ صَحِيفَةٌ كَتَبَهَا بِشْرُ بْنُ ٱلْمُعْتَمِرِ ذَكَرَ فِيهَا ٱلْبَلَاغَةَ وَدَلَّ عَلَى مَظَانِّ ٱلْكَلَامِ وَٱلْفَصَاحَةِ يَقُولُ فِيهَا: خُذْ مِنْ نَفْسِكَ سَاعَةَ فَرَاغِكَ وَفَرَاغِ بَالِكَ وَإِجَابَتِهَا إِيَّاكَ فَإِنَّ قَلِيلَ تِلْكَ ٱلسَّاعَةِ أَكْرَمُ جَوْهَرًا وَأَشْرَفُ جِنْسًا وَأَحْسَنُ فِي ٱلْأَسْمَاعِ

وَاَخْلَى فِي ٱلصُّدُورِ وَاَسْلَمُ مِنْ فَاحِشِ ٱلْخَطَاءِ وَاَخْلَبُ لِكُلِّ عَيْنٍ وَغِرَةٍ مِنْ لَفْظٍ شَرِيفٍ وَمَعْنًى بَدِيعٍ

وَاعْلَمْ اَنَّ ذٰلِكَ اَجْدَى عَلَيْكَ مِمَّا يُعْطِيكَ يَوْمُكَ ٱلْاَطْوَلُ بِٱلْكَدِّ وَٱلْمُجَاهَدَةِ وَبِٱلتَّكَلُّفِ وَٱلْمُعَانَدَةِ وَمَهْمَا اَخْطَاكَ لَمْ يُخْطِئْكَ اَنْ يَكُونَ مَقْبُولًا قَصْدًا اَوْ حَقِيقَةً عَلَى ٱللِّسَانِ سَهْلًا كَمَا خَرَجَ مِنْ يَنْبُوعِهِ وَنَجَمَ عَنْ مَعْدِنِهِ وَاِيَّاكَ وَٱلتَّوَعُّرَ فَاِنَّ ٱلتَّوَعُّرَ يُسْلِمُكَ اِلَى ٱلتَّعْقِيدِ وَٱلتَّعْقِيدُ هُوَ ٱلَّذِي يَسْتَهْلِكُ مَعَانِيَكَ وَيَشِينُ اَلْفَاظَكَ . وَمَنْ اَرَاغَ مَعْنًى كَرِيمًا فَلْيَلْتَمِسْ لَفْظًا كَرِيمًا فَاِنَّ حَقَّ ٱلْمَعْنَى ٱلشَّرِيفِ ٱللَّفْظُ ٱلشَّرِيفُ وَمِنْ حَقِّهِمَا اَنْ يَصُونَهُمَا عَمَّا يُفْسِدُهُمَا وَيُهَجِّنُهُمَا وَعَمَّا يَعُودُ مِنْ اَجْلِهِ اَسْوَاَ حَالًا مِنْكَ قَبْلَ اَنْ يَلْتَمِسَ اِظْهَارَهُمَا وَتَرْهَنَ نَفْسَكَ فِي مُلَابَسَتِهِمَا وَقَضَاءِ حَقِّهِمَا وَكُنْ فِي اِحْدَى ثَلَاثِ مَنَازِلَ فَاِنَّ اَوَّلَ ٱلثَّلَاثِ اَنْ يَكُونَ لَفْظُكَ رَشِيقًا عَذْبًا اَوْ فَخْمًا سَهْلًا وَيَكُونَ مَعْنَاكَ ظَاهِرًا مَكْشُوفًا وَقَرِيبًا مَعْرُوفًا . اِمَّا عِنْدَ ٱلْخَاصَّةِ اِنْ كُنْتَ لِلْخَاصَّةِ قَصَدْتَ . اَوْ لِلْعَامَّةِ اِنْ كُنْتَ لِلْعَامَّةِ قَصَدْتَ وَٱلْمَعْنَى لَيْسَ يَشْرُفُ بِاَنْ يَكُونَ مِنْ مَعَانِي ٱلْخَاصَّةِ فَكَذٰلِكَ لَيْسَ يَتَّضِعُ بِاَنْ يَكُونَ مِنْ مَعَانِي ٱلْعَامَّةِ وَاِنَّمَا مَدَارُ ٱلشَّرَفِ مَعَ ٱلصَّوَابِ وَاِحْرَازِ ٱلْمَنْفَعَةِ وَمَعَ مُوَافَقَةِ ٱلْحَالِ وَمَعَ مَا يَجِبُ لِكُلِّ مَقَامٍ مِنَ ٱلْمَقَالِ . وَكَذٰلِكَ ٱللَّفْظُ ٱلْعَامِّيُّ وَٱلْخَاصِّيُّ فَاِنْ اَمْكَنَكَ اَنْ تَبْلُغَ مِنْ بَيَانِ لِسَانِكَ وَبَلَاغَةِ قَلَمِكَ وَلُطْفِ مَدَاخِلِكَ وَاقْتِدَارِكَ فِي نَفْسِكَ عَلَى اَنْ تُفْهِمَ ٱلْعَامَّةَ مَعَانِيَ

اَلْخَاصَّةِ وَتَكْسُوهَا ٱلْأَلْفَاظَ ٱلْمُتَوَسِّطَةَ ٱلَّتِي لَا تَلْطُفُ عَنِ ٱلدَّهْمَاءِ وَلَا تَخْفَى عَنِ ٱلْأَكْفَاءِ فَأَنْتَ ٱلْبَلِيغُ ٱلتَّامُّ فَإِنْ كَانَتِ ٱلْمَنْزِلَةُ ٱلْأُولَى لَا تُؤَاتِيكَ وَلَا تَعْتَرِيكَ وَلَا تَسْنَحُ لَكَ عِنْدَ أَوَّلِ نَظَرِكَ فِي أَوَّلِ تَكَلُّفِكَ وَتَجِدُ ٱللَّفْظَةَ لَمْ تَقَعْ مَوْقِعَهَا وَلَمْ تَسْنَحْ إِلَى قَرَارِهَا وَإِلَى حَقِّهَا مِنْ أَمَاكِنِهَا ٱلْمَقْسُومَةِ لَهَا وَٱلْقَافِيَةَ لَمْ تَحُلَّ مِنْ مَرْكَزِهَا فِي نِصَابِهَا وَلَمْ تَتَّصِلْ بِشَكْلِهَا وَكَانَتْ قَلِقَةً فِي مَكَانِهَا نَافِرَةً عَنْ مَوْضِعِهَا فَلَا تُكْرِهْهَا عَلَى ٱغْتِصَابِ مَكَانِهَا وَٱلنُّزُولِ فِي غَيْرِ أَوْطَانِهَا فَإِنَّكَ إِذَا لَمْ تَتَعَاطَ قَرْضَ ٱلشِّعْرِ ٱلْمَوْزُونِ وَلَمْ تَتَكَلَّفِ ٱخْتِيَارَ ٱلْكَلَامِ ٱلْمَنْثُورِ لَمْ يَعِبْكَ بِتَرْكِ ذٰلِكَ أَحَدٌ. فَإِنْ أَنْتَ تَكَلَّفْتَهُمَا وَلَمْ تَكُنْ حَاذِقًا مَطْبُوعًا وَلَا مُحْكِمًا لِشَأْنِكَ بَصِيرًا بِمَا عَلَيْكَ وَلَكَ عَابَكَ مَنْ أَنْتَ أَقَلُّ مِنْهُ عَيْبًا وَرَأَى مَنْ هُوَ دُونَكَ أَنَّهُ فَوْقَكَ. فَإِنْ أَنْتَ ٱبْتُلِيتَ بِأَنْ تَتَكَلَّفَ ٱلْقَوْلَ وَتَتَعَاطَى ٱلصَّنْعَةَ وَلَمْ تَسْمَحْ لَكَ ٱلطِّبَاعُ فَلَا تَعْجَلْ وَلَا تَضْجَرْ وَدَعْهُ بَيَاضَ يَوْمِكَ وَسَوَادَ لَيْلِكَ وَعَاوِدْهُ عِنْدَ نَشَاطِكَ وَفَرَاغِ بَالِكَ فَرُبَّمَا لَا تَعْدَمُ ٱلْإِجَابَةَ وَٱلْمُؤَاتَاةَ إِنْ كَانَ هُنَاكَ طَبِيعَةٌ أَوْ جَرَيْتَ فِي ٱلصَّنْعَةِ عَلَى عُرْفٍ فَإِنْ تَمَنَّعَ عَلَيْكَ بَعْدَ ذٰلِكَ مِنْ غَيْرِ حَادِثِ شُغْلٍ وَمِنْ غَيْرِ طُولِ إِهْمَالٍ فَٱلْمَنْزِلَةُ ٱلثَّالِثَةُ أَنْ تَتَحَوَّلَ عَنْ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ إِلَى أَشْهَى ٱلصِّنَاعَاتِ إِلَيْكَ وَأَخَفِّهَا عَلَيْكَ

إِلَّا أَنَّ ٱلنُّفُوسَ لَا تَجُودُ بِمَكْنُونِهَا مَعَ ٱلرَّغْبَةِ وَلَا تَسْمَحُ بِمَخْزُونِهَا عِنْدَ ٱلرَّهْبَةِ كَمَا تَجُودُ بِهِ مَعَ ٱلشَّهْوَةِ وَٱلْمَحَبَّةِ. وَقَالَ بَعْضُ أَهْلِ

ٱلْأَدَبِ : حَسْبُ ٱلشَّاعِرِ عَوْنًا عَلَى صِنَاعَتِهِ اَنْ يَجْمَعَ خَاطِرَهُ بَعْدَ اَنْ يُخْلِيَ قَلْبَهُ مِنْ فُضُولِ ٱلْاِنْفِعَالِ وَيَدَعَ ٱلْاِمْتِلَاءَ مِنَ ٱلطَّعَامِ وَٱلشَّرَابِ ثُمَّ يَأْخُذَ فِيمَا يُرِيدُ. وَاَفْضَلُ مَا ٱسْتَعَانَ بِهِ ٱلشَّاعِرُ غِنًى اَوْ فَضْلُ طَمَعٍ وَٱلْفَقْرُ آفَةُ ٱلشِّعْرِ وَاِنَّمَا ذٰلِكَ لِاَنَّ ٱلشَّاعِرَ اِذَا صَنَعَ ٱلْقَصِيدَةَ وَهُوَ فِي غِنًى وَوُسْعَةٍ نَقَّحَهَا وَاَمْعَنَ ٱلنَّظَرَ فِيهَا عَلَى مَهَلٍ وَاِذَا كَانَ مَعَ ذٰلِكَ طَمَعٌ غِنًى قَوَّى اِنْبِعَاثَهَا مِنْ يَنْبُوعِهَا وَجَاءَتِ ٱلرَّغْبَةُ فِيهَا فِي نِهَايَتِهَا مُحْكَمَةً . وَاِذَا كَانَ فَقِيرًا مُضْطَرًّا رَضِيَ بِعَفْوِ ٱلْكَلَامِ وَاَخَذَ مَا اَمْكَنَهُ مِنْ نَتِيجَةِ خَاطِرٍ وَلَمْ يَتَتَبَّعْ فِي بُلُوغِ مُرَادِهِ وَلَا بَلَغَ مَجْهُودَ نَعْتِهِ لِمَا يَحْفِزُهُ مِنَ ٱلْحَاجَةِ وَٱلضَّرُورَةِ فَجَاءَ دُونَ عَادَتِهِ فِي سَائِرِ اَشْعَارِهِ وَرُبَّمَا قَصَّرَ عَنْ دُونِهِ بِكَثِيرٍ . وَمِنْهُمْ مَنْ تُحْمِي ٱلْحَاجَةُ خَاطِرَهُ وَتَبْعَثُ قَرِيحَتَهُ فَيَجُودُ فَاِذَا اَوْسَعَ اَنِفَ وَصَعُبَ عَلَيْهِ عَمَلُ ٱلْاَبْيَاتِ ٱلْيَسِيرَةِ فَضْلًا عَنِ ٱلْكَثِيرَةِ وَٱلْعَادَةُ فِي هٰذِهِ ٱلْاَشْيَاءِ فِعْلٌ عَظِيمٌ وَهِيَ طَبِيعَةٌ خَامِسَةٌ كَمَا قِيلَ فِيهَا

البحث السادس عشر

في المقاطع والمطالع

(من كتاب العمدة لابن رشيق)

اِخْتَلَفَ اَهْلُ ٱلْمَعْرِفَةِ فِي ٱلْمَقَاطِعِ وَٱلْمَطَالِعِ . فَقَالَ بَعْضُهُمْ : هِيَ ٱلْفُصُولُ وَٱلْوُصُولُ بِعَيْنِهَا . فَٱلْمَقَاطِعُ اَوَاخِرُ ٱلْفُصُولِ وَٱلْمَطَالِعُ اَوَائِلُ ٱلْوُصُولِ . وَٱلْفَصْلُ آخِرُ جُزْءٍ مِنَ ٱلْقِسْمِ ٱلْاَوَّلِ كَمَا قَدَّمْتُ

وَهُوَ ٱلعَرُوضُ أَيضًا . وَٱلوُصُولُ أَوَّلُ جُزْءٍ يَلِيهِ مِنَ ٱلقِسْمِ ٱلثَّانِي .
وَقَالَ غَيْرُهُمْ : ٱلمَقَاطِعُ مُنْقَطَعُ ٱلأَبْيَاتِ وَهِيَ ٱلقَوَافِي وَٱلمَطَالِعُ أَوَائِلُ ٱلأَبْيَاتِ . وَقَالَ قُدَامَةُ بْنُ جَعْفَرٍ فِي بَعْضِ تَآلِيفِهِ وَقَدْ ذَكَرَ ٱلتَّصْرِيعَ وَهُوَ أَنْ يَتَوَخَّى تَصْيِيرَ مَقَاطِعِ ٱلأَجْزَاءِ فِي ٱلبَيْتِ عَلَى سَجْعٍ أَوْ شَبِيهٍ بِهِ أَوْ مِنْ جِنْسٍ وَاحِدٍ فِي ٱلتَّصْرِيفِ . فَأَشَارَ بِهٰذِهِ ٱلعِبَارَةِ إِلَى ٱلمَقَاطِعِ أَوْ آخِرِ أَجْزَاءِ ٱلبَيْتِ كَمَا تَرَى . وَقَدْ نَجِدُ مِنَ ٱلشِّعْرِ ٱلمُرَصَّعِ مَا يَكُونُ سَجْعُهُ غَيْرَ مَقَاطِعِ ٱلأَجْزَاءِ نَحْوَ قَوْلِ أُمِّ مَعْدَانَ فِي مَرْثِيَةٍ لَهَا :

فِعْلُ ٱلجَمِيلِ وَتَفْرِيجُ ٱلجَلِيلِ وَإِعْـ ـطَاءُ ٱلجَزِيلِ ٱلَّذِي لَمْ يُعْطِهِ أَحَدُ

فَٱلسَّجْعُ فِي هٰذَا ٱلبَيْتِ ٱللَّامُ ٱلمُطَّرِدَةُ فِي ثَلَاثَةِ أَمَاكِنَ مِنْهُ وَآخِرُ ٱلأَجْزَاءِ ٱلَّتِي هِيَ ٱلمَقَاطِعُ عَلَى شَرِيطَةِ ٱليَاءِ ٱلَّتِي قَبْلَ ٱللَّامِ ٱللَّهُمَّ إِلَّا أَنْ نَجْعَلَ ٱلسَّجْعَ هُوَ ٱليَاءَ ٱلمُلْتَزَمَةَ فَحِينَئِذٍ عَلَى أَنَّا لَا نَعْلَمُ حَرْفَ ٱلسَّجْعِ يَكُونُ إِلَّا مُتَأَخِّرًا فِي مِثْلِ هٰذَا ٱلمَكَانِ وَمِثْلُ هٰذَا فِي أَنْوَاعِ ٱلأَعَارِيضِ كَثِيرٌ

وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَنْ يَظُنُّ أَنَّ ٱلمَقْطَعَ وَٱلمَطْلَعَ أَوَّلُ ٱلقَصِيدَةِ وَآخِرُهَا وَلَيْسَ ذٰلِكَ بِشَيْءٍ لِأَنَّا نَجِدُ فِي كَلَامِ جَهَابِذَةِ ٱلنُّقَّادِ إِذَا وَصَفُوا قَصِيدَةً قَالُوا : حَسَنَةُ ٱلمَقَاطِعِ جَيِّدَةُ ٱلمَطَالِعِ . وَلَا يَقُولُونَ ٱلمَقْطَعِ وَٱلمَطْلَعِ . وَفِي هٰذَا دَلِيلٌ وَاضِحٌ لِأَنَّ ٱلقَصِيدَةَ إِنَّمَا لَهَا أَوَّلٌ وَاحِدٌ وَآخِرٌ وَاحِدٌ وَلَا يَكُونُ لَهَا أَوَائِلُ وَأَوَاخِرُ إِلَّا عَلَى مَا قَدَّمْتُ مِنْ ذِكْرِ ٱبْتِدَاآتِ ٱلأَبْيَاتِ أَوِ ٱلأَقْسِمَةِ وَٱنْتِهَائِهَا

وَ سَأَلْتُ ٱلشَّيْخَ أَبَا عَبْدِ ٱللهِ مُحَمَّدَ بْنَ إِبْرٰهِيمَ بْنِ ٱلسَّمِينِ عَنْ هٰذَا فَقَالَ : ٱلْمَقَاطِعُ أَوَاخِرُ ٱلْأَبْيَاتِ وَٱلْمَطَالِعُ أَوَائِلُهَا . قَالَ وَمَعْنَى قَوْلِهِمْ : حَسَنُ ٱلْمَقَاطِعِ جَيِّدُ ٱلْمَطَالِعِ أَنْ يَكُونَ مُنْقَطَعُ ٱلْبَيْتِ وَهُوَ ٱلْقَافِيَةُ مُتَمَكِّنًا غَيْرَ قَلِقٍ وَلَا مُتَعَلِّقٍ بِغَيْرِهِ وَهٰذَا هُوَ حُسْنُهُ . وَٱلْمَطْلَعُ هُوَ أَوَّلُ ٱلْبَيْتِ وَجُودَتُهُ أَنْ يَكُونَ دَالًّا عَلَى مَا بَعْدَهُ كَٱلتَّصْدِيرِ وَمَا شَاكَلَهُ . وَرَوَى ٱلْجَاحِظُ أَنَّ حَبِيبَ بْنَ شُبَّةَ كَانَ يَقُولُ : ٱلنَّاسُ مُوَكَّلُونَ بِتَفْضِيلِ جُودَةِ ٱلْإِبْتِدَاءِ وَبِمَدِيحِ صَاحِبِهِ وَأَنَا مُوَكَّلٌ بِتَفْضِيلِ جُودَةِ ٱلْمَقْطَعِ وَبِمَدْحِ صَاحِبِهِ . وَحَظُّ جُودَةِ ٱلْقَافِيَةِ وَإِنْ كَانَتْ كَلِمَةً وَاحِدَةً أَرْفَعُ مِنْ حَظِّ سَائِرِ ٱلْبَيْتِ أَوِ ٱلْقَصِيدَةِ . حَكَاهُ ٱلْجَاحِظُ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ ٱلْمَقْطَعَ آخِرُ ٱلْبَيْتِ أَوِ ٱلْقَصِيدَةِ وَهُوَ بِٱلْبَيْتِ أَلْيَقُ لِذِكْرِ حَظِّ ٱلْقَافِيَةِ

وَحُكِيَ أَيْضًا عَنْ صَدِيقٍ لَهُ أَنَّهُ قَالَ لِلْعَتَّابِيِّ مَا ٱلْبَلَاغَةُ . فَقَالَ : كُلُّ كَلَامٍ أَفْهَمَكَ صَاحِبُهُ حَاجَتَهُ فِيهِ مِنْ غَيْرِ إِعَادَةٍ وَلَا حُبْسَةٍ وَلَا ٱسْتِعَانَةٍ فَهُوَ بَلِيغٌ . قَالَ : قُلْتُ قَدْ عَرَفْتُ ٱلْإِعَادَةَ وَٱلْحُبْسَةَ فَمَا ٱلْإِسْتِعَانَةُ فَقَالَ : أَمَا تَرَاهُ إِذَا تَحَدَّثَ قَالَ عِنْدَ مَقَاطِعِ كَلَامِهِ يَا هٰذَا أَسْمَعْ مِنِّي وَٱسْتَمِعْ إِلَيَّ وَٱفْهَمْ وَأَلَسْتَ تَفْهَمُ هٰذَا كُلُّهُ عِيٌّ وَفَسَادٌ

قَالَ صَاحِبُ ٱلْكِتَابِ وَهٰذَا ٱلْقَوْلُ مِنَ ٱلْعَتَّابِيِّ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ ٱلْمَقَاطِعَ أَوَاخِرُ ٱلْفُصُولِ . وَمِثْلُهُ مَا حَكَاهُ ٱلْجَاحِظُ عَنِ ٱلْمَأْمُونِ إِنَّهُ قَالَ لِسَعِيدِ بْنِ مُسْلِمٍ وَٱللهِ إِنَّكَ لَتُصْغِي لِحَدِيثِي وَتَقِفُ عِنْدَ

مَقاطِعِ كَلَامي . وَاذَا جُعِلَ ٱلْمَقْطَعُ وَٱلْمَطْلَعُ مَصْدَرَيْنِ بِمَعْنَى ٱلْقَطْعِ وَٱلطُّلُوعِ كَانَتِ ٱلطَّاءُ وَٱللَّامُ مَفْتُوحَتَيْنِ وَاذَا أُرِيدَ مَوْضِعُ ٱلْقَطْعِ وَٱلطُّلُوعِ كُسِرَتِ ٱللَّامُ خَاصَّةً وَهُوَ مَسْمُوعٌ عَلَى غَيْرِ ٱلْقِيَاسِ

البحث السابع عشر

في المبتدإ او الخروج والنهاية

(من كتاب العمدة لابن رشيق)

قِيلَ لِبَعْضِ ٱلْحُذَّاقِ بِصِنَاعَةِ ٱلشِّعْرِ لَقَدْ طَارَ ٱسْمُكَ وَٱشْتَهَرَ فَقَالَ لِأَنِّي اقْلَلْتُ ٱلْحَقَّ وَاصَبْتُ مَقَاصِدَ ٱلْكَلَامِ وَقَرَّطْتُ نُكَتَ ٱلْأَغْرَاضِ بِحُرِّ ٱلْفَوَاتِحِ وَٱلْخَوَاتِمِ وَلُطْفِ ٱلْخُرُوجِ إِلَى ٱلْمَدْحِ وَٱلْهِجَاءِ وَقَدْ صَدَقَ لِأَنَّ حُسْنَ ٱلِافْتِتَاحِ دَاعِيَةُ ٱلِانْشِرَاحِ وَمَطِيَّةُ ٱلنَّجَاحِ وَلَطَافَةَ ٱلْخُرُوجِ إِلَى ٱلْمَدْحِ سَبَبُ ٱرْتِيَاحِ ٱلْمَمْدُوحِ وَخَاتِمَةَ ٱلْكَلَامِ ابْقَى فِي ٱلسَّمْعِ وَٱلصَقُ بِٱلنَّفْسِ لِقُرْبِ ٱلْعَهْدِ بِهَا فَإِنْ حَسُنَتْ حَسُنَ وَإِنْ قَبُحَتْ قَبُحَ وَٱلْأَعْمَالُ بِخَوَاتِمِهَا . وَيَنْبَغِي لِلشَّاعِرِ انْ يُجَوِّدَ ٱبْتِدَاءَ شِعْرِهِ فَإِنَّهُ اوَّلُ مَا يُقْرَعُ ٱلسَّمْعُ بِهِ وَبِهِ يُسْتَدَلُّ عَلَى مَا عِنْدَهُ مِنْ اوَّلِ وَهْلَةٍ . وَقَدِ ٱخْتَارَ ٱلنَّاسُ كَثِيرًا مِنَ ٱلِابْتِدَاآتِ سَأَذْكُرُ هُنَا مَا امْكَنَ مِنْهَا لِيُسْتَدَلَّ بِهِ نَحْوُ قَوْلِ ٱمْرِئِ ٱلْقَيْسِ « قِفَا نَبْكِ مِنْ ذِكْرَى حَبِيبٍ وَمَنْزِلِ » وَهُوَ عِنْدَهُمْ افْضَلُ ٱبْتِدَاءٍ قَالَهُ شَاعِرٌ لِأَنَّهُ وَقَفَ وَٱسْتَوْقَفَ وَبَكَى وَٱسْتَبْكَى وَذَكَرَ ٱلْحَبِيبَ وَٱلْمَنْزِلَ فِي مِصْرَاعٍ وَاحِدٍ . وَقَوْلِهِ « الَا عِمْ صَبَاحًا ايُّهَا ٱلطَّلَلُ ٱلْبَالِي » وَمِثْلُهُ

قَوْلُ ٱلقَطَامِيِّ « إِنَّا مُحَيُّوكَ فَٱسْلَمْ أَيُّهَا ٱلطَّلَلُ » وَكَقَوْلِ ٱلنَّابِغَةِ :

كِلِينِي لِهَمٍّ يَا أُمَيْمَةُ نَاصِبِ وَلَيْلٍ أُقَاسِيهِ بَطِيءِ ٱلْكَوَاكِبِ

وَقَوْلِهِ :

كَتَمْتُكَ لَيْلًا بِٱلْجَمُومَيْنِ سَاهِرًا وَهَمَّيْنِ هَمًّا مُسْتَكِنًّا وَظَاهِرَا

هٰذَا بَعْضُ مَا ٱخْتِيرَ لِلْقُدَمَاءِ وَمِمَّا ٱخْتِيرَ فِي ٱلرِّثَاءِ قَوْلُ أَوْسِ ٱبْنِ حَجَرٍ :

أَيُّهَا ٱلنَّفْسُ أَجْمِلِي جَزَعَا إِنَّ ٱلَّذِي تَحْذَرِينَ قَدْ وَقَعَا

وَمِمَّا ٱخْتِيرَ لِلْمُحْدَثِينَ قَوْلُ بَشَّارِ بْنِ بُرْدٍ « أَبَى طَلَلٌ بِٱلْجِزْعِ أَنْ يَتَكَلَّمَا » وَهُوَ عِنْدَهُمْ أَفْضَلُ ٱبْتِدَاءٍ قَالَهُ مُحْدَثٌ . وَقَوْلُ أَبِي نُوَاسٍ :

لِمَنْ دِمَنٌ تَزْدَادُ طِيبَ نَسِيمِ
عَلَى طُولِ مَا أَقْوَتْ وَحُسْنَ رُسُومِ

وَقَوْلُهُ :

رَسْمُ ٱلْكَرَى بَيْنَ ٱلْجُفُونِ مُحِيلُ عَفَّى عَلَيْهِ بُكًا عَلَيْكَ طَوِيلُ

وَقَوْلُهُ :

أَعْطَتْكَ رَيْحَانَهَا ٱلْعُقَارُ وَحَانَ مِنْ لَيْلِنَا ٱنْسِفَارُ

وَقَوْلُهُ :

دَعْ عَنْكَ لَوْمِي فَإِنَّ ٱللَّوْمَ إِغْرَاءُ وَدَاوِنِي بِٱلَّتِي كَانَتْ هِيَ ٱلدَّاءُ

وَمِمَّا أَشْبَهَ ذٰلِكَ لَوْ تَقَصَّيْتُهُ لَطَالَ وَكَثُرَ . وَلْيَرْغَبْ عَنِ ٱلتَّعْقِيدِ فِي ٱلِٱبْتِدَاءِ . فَإِنَّهُ أَوَّلُ ٱلْعِيِّ وَدَلِيلُ ٱلْفَهَهِ . وَقَدْ حُكِيَ أَنَّ دِعْبِلَ

ٱبنَ عليٍّ ٱلخُزاعيَّ وردَ حمصَ فقصدَ دارَ عبدِ السَّلامِ بنِ رغبانَ ديكِ ٱلجنّ فكتمَ نفسَهُ عنهُ خوفًا مِنْ قوارصِهِ فقالَ : ما لهُ يستترُ وهوَ اشعرُ الجنِّ والانسِ أليسَ القائلَ :

بها غيرُ معذولٍ فدا وخمّارها وهل بعشيّاتِ ٱلغبوقِ ٱبتكارُها

فظهرَ اليهِ واعتذرَ اليهِ واحسنَ . ثمَّ تناشدا فانشدَ ديكُ ٱلجنِّ ٱبتداءَ قصيدةٍ :

كأنّها ما كأنّهُ خللُ ٱلخلّةِ وقفُ ٱلهلوكِ انْ بغمـا

فقالَ لهُ دعبلٌ : اسكتْ فواللهِ ما ظننتُكَ تتمُّ ٱلبيتَ الّا وقد غشيَ عليكَ او تشكّيتَ دماغكَ وكأنّكَ في جهنّمَ تخاطبُ ٱلزبانيةَ او تخبّطكَ ٱلشيطانُ منَ ٱلمسّ . وانّما ارادَ ٱلديكُ انْ يهوّلَ عليهِ ويقرعَ سمعَهُ عسى انْ يزعجَهُ او يروعَهُ فسمعَ منهُ ما كرهَ . ولعمري ما ظلمَهُ دعبلٌ ولقدْ ابعدَ مسافةَ ٱلكلامِ وخالفَ ٱلعادةَ وهذا بيتٌ قبيحٌ منْ جهاتٍ منها اضمارُ ما لمْ يذكرْ قبلُ ولا جرتِ ٱلعادةُ بمثلهِ فيعذرَ ولا كثرَ ٱستعمالُهُ فيشهرَ معَ احالةِ ٱلتشبيهِ على تشبيهٍ ثقلَ تجانُسهُ ٱلذي هوَ حشوٌ فارغٌ لوْ طرحَ منَ ٱلبيتِ كانَ احزمَ واستدعى قافيةً لا لشيءٍ الّا لفسادِ ٱلمعنى واستحالةِ ٱلتشبيهِ ما ٱلذي يريدُ ببغامِهِ في تشبيهِ ٱلوقفِ وهوَ ٱلسوارُ ولمَ كانَ وقفُ ٱلهلوكِ خاصّةً . ومثلُهُ قولُ محمّدِ بنِ عبدِ ٱلملكِ ٱلزيّاتِ يصفُ ناقتَهُ في اوّلِ قصيدةٍ مدحَ بها ٱلحسنَ بنَ سهلٍ :

كأنّهـا حينَ تناءى خطوُها اخنسُ موشيُّ ٱلشوى يرعى ٱلقللْ

فَٱلْبَيْتُ ٱلْأَوَّلُ فِي مُخَالَفَةِ ٱلْعَادَةِ لَازِمٌ وَمَعَ ذٰلِكَ قَوْلُهُ « حِينَ تَنَاءَى خَطْوُهَا » فَقَصَّرَ بِهَا وَهُوَ يَقْدِرُ أَنْ يَقُولَ « حِينَ تَدَانَى خَطْوُهَا » وَخَالَفَ جَمِيعَ ٱلشُّعَرَاءِ بِذٰلِكَ لِأَنَّهُمْ يَصِفُونَ ٱلنَّاقَةَ بِٱلظَّلِيمِ وَٱلْحِمَارِ وَٱلثَّوْرِ بَعْدَ ٱلْكَلَالِ غُلُوًّا وَمُبَالَغَةً فِي ٱلْوَصْفِ . هٰذَا هُوَ ٱلْجَيِّدُ فَإِنْ لَمْ يَفْعَلُوا لَمْ يَذْكُرُوا أَنَّهَا بَذَلَتْ جَهْدَهَا وَٱسْتَفْرَغَتْ جَمِيعَ مَا عِنْدَهَا بَلْ يَدَّعُونَ ٱلتَّأْوِيلَ مُحْتَمِلَ ٱلزِّيَادَةِ . ثُمَّ قَالَ « تَرْعَى ٱلْقُلَلَ » وَٱلثَّوْرُ لَا يَرْعَى قُلَلَ ٱلْجِبَالِ وَإِنَّمَا ذٰلِكَ ٱلْوَعِلُ لِأَنَّهُ لَا يُسْهِلُ وَٱلثَّوْرُ فِي ٱلسُّهُولِ وَمَوَاضِعِ ٱلرِّمَالِ إِلَّا أَنْ يُرِيدَ بِٱلنَّبَاتِ أَعَالِيَهُ فَرُبَّمَا أَنْ يَكُونَ ٱلْقُلَلُ نَبْتًا بِعَيْنِهِ أَوْ مَكَانًا فَقَدْ يُمْكِنُ وَمَا سَمِعْتُ بِهِمَا

وَمِنَ ٱلشُّعَرَاءِ مَنْ يَقْطَعُ ٱلْمِصْرَاعَ ٱلثَّانِيَ مِنَ ٱلْأَوَّلِ إِذَا ٱبْتَدَأَ شِعْرًا وَأَكْثَرُ مَا يَقَعُ ذٰلِكَ فِي ٱلنَّسِيبِ كَأَنَّهُ يَدُلُّ بِذٰلِكَ عَلَى وَلَهٍ وَشِدَّةِ حَالٍ كَقَوْلِ أَبِي ٱلطَّيِّبِ :

جَلَلًا كَمَا بِي فَلْيَكُ ٱلتَّبْرِيحُ　　أَغِذَاءُ ذَا ٱلرَّشَإِ ٱلْأَغَنِّ ٱلشِّيحُ

فَهٰذَا ٱعْتِذَارُ مَنِ ٱعْتَذَرَ لَهُ لَوْ وَقَعَ مِثْلُ هٰذَا فِي ٱلرِّثَاءِ وَٱلتَّفَجُّعِ لَكَانَ مَوْضِعَهُ أَيْضًا وَكَذٰلِكَ عِنْدَ ٱلْعَظَائِمِ مِنَ ٱلْأُمُورِ وَٱلنَّوَازِلِ ٱلشَّدِيدَةِ . وَلْيَحْتَرِسْ مِمَّا يَنَالُهُ فِيهِ زِيَادَةٌ أَوْ يَقَعُ عَلَيْهِ مَطْعَنٌ فَإِنَّ أَبَا تَمَّامٍ ٱمْتَدَحَ أَبَا دُلَفٍ بِحَضْرَةِ مَنْ كَانَ يَكْرَهُهُ وَٱفْتَتَحَ قَصِيدَتَهُ ٱلْمَشْهُورَةَ « عَلَى مِثْلِهَا مِنْ أَرْبُعٍ وَمَلَاعِبِ » وَكَانَتْ فِيهِ حُبْسَةٌ شَدِيدَةٌ . فَقَالَ ٱلرَّجُلُ لَعَنَهُ ٱللّٰهُ وَٱلْمَلَائِكَةُ وَٱلنَّاسُ أَجْمَعُونَ .

فَدَهِشَ أَبُو تَمَّامٍ حَتَّى تَبَيَّنَ ذٰلِكَ عَلَيْهِ عَلَى أَنَّهُ غَيْرُ مَأْخُوذٍ بِمَا قِيلَ وَلَا هُوَ مِمَّا يُدْخِلُ عَلَيْهِ عَيْبًا. وَلَا يَلْزَمُهُ عَلَى ٱلْحَقِيقَةِ إِلَّا أَنَّ ٱلْحَوْطَةَ وَٱلتَّحَفُّظَ مِنَ ٱلْحُجَّةِ ٱلْبَارِدَةِ أَفْضَلُ وَٱلتَّفْرِيطَ أَرْذَلُ وَأَخْبَثُ.

وَدَخَلَ جَرِيرٌ عَلَى عَبْدِ ٱلْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ وَأَنْشَدَهُ «أَتَصْحُو أَمْ فُؤَادُكَ غَيْرُ صَاحٍ» فَقَالَ لَهُ عَبْدُ ٱلْمَلِكِ: بَلْ فُؤَادُكَ يَا ٱبْنَ ٱلْفَاعِلَةِ كَأَنَّهُ يَسْتَثْقِلُ هٰذِهِ ٱلْمُوَاجَهَةَ وَإِلَّا فَقَدْ عَلِمَ أَنَّ ٱلشَّاعِرَ إِنَّمَا خَاطَبَ نَفْسَهُ وَمِنْ هٰذِهِ ٱلْجِهَةِ بِعَيْنِهَا عَابُوا عَلَى أَبِي ٱلطَّيِّبِ قَوْلَهُ لِكَافُورٍ أَوَّلَ لِقَائِهِ مُبْتَدِئًا وَإِنْ كَانَ إِنَّمَا يُخَاطِبُ نَفْسَهُ لَا كَافُورًا:

كَفَى بِكَ دَاءً أَنْ تَرَى ٱلْمَوْتَ شَافِيَا
وَحَسْبُ ٱلْمَنَايَا أَنْ يَكُنَّ أَمَانِيَا

فَٱلْعَيْبُ مِنْ بَابِ ٱلتَّأَدُّبِ وَحُسْنِ ٱلسِّيَاسَةِ لَازِمٌ لِأَبِي ٱلطَّيِّبِ فِي هٰذَا ٱلِٱبْتِدَاءِ لَاسِيَّمَا وَهٰذَا ٱلنَّوْعُ أَعْنِي جُودَةَ ٱلِٱبْتِدَاءِ مِنْ أَجَلِّ مَحَاسِنِ أَبِي ٱلطَّيِّبِ وَأَشْرَفِ مَآثِرِ شِعْرِهِ إِذَا ذُكِرَ ٱلشِّعْرُ.

وَدَخَلَ ذُو ٱلرُّمَّةِ عَلَى عَبْدِ ٱلْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ فَٱسْتَنْشَدَهُ شَيْئًا مِنْ شِعْرِهِ فَأَنْشَدَهُ «مَا بَالُ عَيْنِكَ مِنْهَا ٱلْمَاءُ يَنْسَكِبُ» وَكَانَ بِعَيْنِ عَبْدِ ٱلْمَلِكِ رِيشَةٌ فَهِيَ تَدْمَعُ فَتَوَهَّمَ أَنَّهُ خَاطَبَهُ أَوْ عَرَّضَ بِهِ فَقَالَ: وَمَا سُؤَالُكَ يَا جَاهِلُ عَنْ هٰذَا وَمَقَتَهُ وَأَمَرَ بِإِخْرَاجِهِ وَكَذٰلِكَ فَعَلَ ٱبْنُهُ هِشَامٌ بِأَبِي ٱلنَّجْمِ وَقَدْ أَنْشَدَهُ فِي أُرْجُوزَةٍ:

صَفْرَاءُ قَدْ كَادَتْ وَلَمَّا تَفْعَلِ فَكَأَنَّهَا فِي ٱلْأُفْقِ عَيْنُ ٱلْأَحْوَلِ

وَكَانَ هِشَامٌ أَحْوَلَ فَأَمَرَ فَحُجِبَ عَنْهُ مُدَّةً وَقَدْ كَانَ قَبْلَ

ذٰلِكَ مِنْ خَاصَّتِهِ يَسْمُرُ عِنْدَهُ وَهُوَ يُمَازِحُهُ وَإِنَّمَا يَأْتِي ٱلشَّاعِرُ بِهٰذِهِ ٱلْأَشْيَاءِ إِمَّا مِنْ غَفْلَةٍ فِي ٱلطَّبْعِ أَوْ مِنِ ٱسْتِغْرَاقٍ فِي ٱلصَّنْعَةِ وَشُغْلِ هَاجِسٍ بِٱلْعَمَلِ يَذْهَبُ مَعَ حُسْنِ ٱلْقَوْلِ حَيْثُ ذَهَبَ. وَٱلْفَطِنُ ٱلْحَاذِقُ يَخْتَارُ لِلْأَوْقَاتِ مَا يُشَاكِلُهَا وَيَنْظُرُ فِي أَحْوَالِ ٱلْمُخَاطَبِينَ فَيَقْصِدُ مَحَابَّهُمْ وَيَمِيلُ إِلَى شَهَوَاتِهِمْ وَإِنْ خَالَفَتْ شَهَوَاتِهِ وَيَتَفَقَّدُ مَا يَكْرَهُونَ سَمَاعَهُ فَيَجْتَنِبُ ذِكْرَهُ. أَلَا تَرَى أَنَّ بَعْضَ ٱلْمُلُوكِ قَالَ لِأَحَدِ ٱلشُّعَرَاءِ وَقَدْ أَوْرَدَ بَيْتًا ذَكَرَ فِيهِ «لَوْ خُلِّدَ أَحَدٌ لِكَرَمٍ لَكُنْتَ مُخَلَّدًا بِكَرَمِكَ» وَقَالَ كَلَامًا نَحْوَ هٰذَا. فَقَالَ ٱلْمَلِكُ: إِنَّ ٱلْمَوْتَ حَقٌّ وَلَنَا مِنْهُ نَصِيبٌ. غَيْرَ أَنَّ ٱلْمُلُوكَ تَكْرَهُ مَا يُنَكِّدُ عَيْشَهَا وَيُنَغِّصُ لَذَّتَهَا فَلَا تَأْتِهَا بِشَيْءٍ مِمَّا تَكْرَهُ ذِكْرَهُ

وَمِنَ ٱلْمَشْهُورِ أَنَّ ٱلنُّعْمَانَ بْنَ ٱلْمُنْذِرِ أَتَى شَجَرَةً ظَلِيلَةً مُلْتَفَّةَ ٱلْأَغْصَانِ فِي مَرْجٍ حَسَنٍ كَثِيرِ ٱلشَّقَائِقِ وَكَانَ مُعْجَبًا بِهَا وَإِلَيْهِ أُضِيفَتْ فَقِيلَ شَقَائِقُ ٱلنُّعْمَانِ. فَنَزَلَ فَأَمَرَ بِٱلطَّعَامِ وَٱلشَّرَابِ فَأُحْضِرَا وَجَلَسَ لِلَذَّتِهِ. فَقَالَ عَدِيُّ بْنُ زَيْدٍ ٱلْعَبَادِيُّ وَكَانَ كَاتِبَهُ: أَتَعْرِفُ أَبَيْتَ ٱللَّعْنَ مَا تَقُولُ هٰذِهِ ٱلشَّجَرَةُ. قَالَ: وَمَا تَقُولُ. قَالَ تَقُولُ:

رُبَّ رَكْبٍ قَدْ أَنَاخُوا حَوْلَنَا ... يَشْرَبُونَ ٱلْخَمْرَ بِٱلْمَاءِ ٱلزُّلَالْ
عَطَفَ ٱلدَّهْرُ عَلَيْهِمْ فَثَوَوْا ... وَكَذَاكَ ٱلدَّهْرُ حَالٌ بَعْدَ حَالْ
مَنْ رَآنَا فَلْيُوَطِّنْ نَفْسَهُ ... إِنَّمَا ٱلدُّنْيَا عَلَى فَرْطِ ٱلزَّوَالْ

كَأَنَّهُ قَصَدَ مَوْعِظَتَهُ فَنَغَّصَ عَلَيْهِ مَا كَانَ فِيهِ وَأَمَرَ بِٱلطَّعَامِ

وَٱلشَّرَابِ فَرُفِعَا مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَٱرْتَحَلَ مِنْ فَوْرِهِ وَلَمْ يَنْتَفِعْ بَقِيَّةَ يَوْمِهِ وَلَيْلَتِهِ . فَهٰذَا شَأْنُ ٱلْمُلُوكِ قَدِيمًا وَحَدِيثًا وَمِنْ هٰذِهِ ٱلْجِهَةِ اَكْثَرَ ٱلنَّاسُ مِنَ ٱلدُّعَاءِ لَهُمْ بِطُولِ ٱلْعُمْرِ حَتَّى بَلَغُوا بِهِمْ مَا لَا يُمْكِنُ فَقَالُوا: عِشْ اَبَدًا وَٱسْلَمْ مَدَى ٱلدَّهْرِ وَٱبْقَ بَقَاءَ ٱلزَّمَانِ . وَٱعْتَرَضَ ٱلنُّقَّادُ فِي ذٰلِكَ وَٱخْتَلَفُوا بِحَسَبِ مَا يَنْتَحِلُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ فِي قَوْلِ اَبِي نُوَاسٍ :

يَا اَمِينَ ٱللّٰهِ عِشْ اَبَدًا   دُمْ عَلَى ٱلْاَيَّامِ وَٱلزَّمَنِ
اَنْتَ تَبْقَى وَٱلْفَنَاءُ لَنَا   فَإِذَا اَفْنَيْتَنَا فَكُنِ

وَفِي كَثِيرٍ مِثْلِهِ فَإِذَا خَرَجَ ٱلْكَلَامُ عَنْ حَدِّ ٱلْاِمْكَانِ فَاِنَّمَا يُرَادُ بِهِ بُلُوغُ ٱلْغَايَةِ لَا غَيْرُ ذٰلِكَ . وَمِنْ قَبِيحِ مَا وَقَعَ لِاَبِي نُوَاسٍ ٱلَّذِي اَسَاءَ فِيهِ اَدَبَهُ وَخَالَفَ بِهِ مَذْهَبَهُ اَنَّ بَعْضَ بَنِي بَرْمَكٍ بَنَى دَارًا ٱسْتَفْرَغَ فِيهَا مَجْهُودَهُ وَٱنْتَقَلَ اِلَيْهَا . فَصَنَعَ اَبُو نُوَاسٍ لِذٰلِكَ ٱلْحِينِ اَوْ قَرِيبًا مِنْهُ قَصِيدَةً يَمْدَحُهُ بِهَا وَيَقُولُ اَوَّلَهَا :

اَرْبَعَ ٱلْبِلَى اِنَّ ٱلْخُشُوعَ لَبَادِ   عَلَيْكَ وَاِنِّي لَمْ اَخُنْكَ وِدَادِي

وَخَتَمَهَا اَوْ كَادَ بِقَوْلِهِ :

سَلَامٌ عَلَى ٱلدُّنْيَا اِذَا مَا فُقِدْتُمُ   بَنِي بَرْمَكٍ مِنْ رَائِحِينَ وَغَادِي

فَتَطَيَّرَ ٱلْبَرْمَكِيُّ وَٱشْمَأَزَّ ثُمَّ قَالَ : نَعَيْتَ اِلَيْنَا اَنْفُسَنَا يَا اَبَا نُوَاسٍ فَمَا كَانَتْ اِلَّا مُدَيْدَةٌ حَتَّى اَوْقَعَ بِهِمِ ٱلرَّشِيدُ وَصَحَّتْ بِهِمِ ٱلطِّيَرَةُ . وَزَعَمَ اَنَّ اَبَا نُوَاسٍ قَصَدَ ٱلتَّشَاؤُمَ لَهُمْ لِشَيْءٍ كَانَ فِي نَفْسِهِ مِنْ جَعْفَرٍ وَلَا اَظُنُّ ذٰلِكَ صَحِيحًا لِاَنَّ هٰذِهِ ٱلْقَصِيدَةَ مِنْ جَيِّدِ شِعْرِهِ

اَلَّذِي لَا اَشُكُّ اَنْ يُحْتَفَلَ لَهُ. اَللَّهُمَّ اِلَّا اَنْ يَصْنَعَ ذٰلِكَ حِيلَةً لَهُ وَسِتْرًا عَلَى مَنْ قَصَدَ اِلَيْهِ بِذٰلِكَ . وَلِلشُّعَرَاءِ مَذَاهِبُ فِي اَفْتِتَاحِ اَلْقَصَائِدِ بِالنَّسِيبِ اِلَى مَا فِيهِ عَطْفُ اَلْقُلُوبِ وَاسْتِدْعَاءُ اَلْقَبُولِ بِحَسَبِ مَا فِي اَلطِّبَاعِ مِنْ حُبِّ اَلْغَزَلِ وَالْمَيْلِ اِلَى اَللَّهْوِ فَاِنَّ ذٰلِكَ اسْتِدْرَاجٌ اِلَى مَا بَعْدَهُ. وَمَقَاصِدُ اَلنَّاسِ تَخْتَلِفُ فَطَرِيقُ اَهْلِ اَلْبَادِيَةِ ذِكْرَانُ اَلرَّحِيلِ وَالِانْتِقَالِ وَتَوَقُّعُ اَلْبَيْنِ وَالْاِشْفَاقُ مِنْهُ وَصِفَةُ اَلطُّلُولِ وَالْحُمُولِ وَالْاِبِلِ وَلَمْعِ اَلْبَرْقِ وَمَرِّ اَلنَّسِيمِ وَذِكْرُ اَلْمِيَاهِ اَلَّتِي يَلْتَقُونَ عَلَيْهَا وَالرِّيَاضِ اَلَّتِي مِنْ خُزَامَى وَاُقْحُوَانٍ وَبَهَارٍ وَعَرَارٍ وَمَا اَشْبَهَهُ مِنْ زَهْرِ اَلْبَرِّيَّةِ . وَاَهْلُ اَلْحَاضِرَةِ يَأْتِي تَغَزُّلُهُمْ فِي اَلصُّدُودِ وَالْهِجْرَانِ وَالرُّقَبَاءِ وَمَنَعَةِ اَلْحَرَسِ وَالْاَبْوَابِ وَفِي ذِكْرِ اَلشَّرَابِ وَالنَّدَامَى وَالنِّسْرِينِ وَالنَّيْلُوفَرِ وَمَا شَاكَلَ ذٰلِكَ مِنَ اَلنَّوَاوِيرِ اَلْبَلَدِيَّةِ وَالرَّيَاحِينِ اَلْبُسْتَانِيَّةِ فِي تَشْبِيهِ اَلتُّفَّاحِ وَالتَّحِيَّةِ بِهِ وَدَسِّ اَلْكُتُبِ وَمَا شَاكَلَ ذٰلِكَ مِمَّا هُمْ مُنْفَرِدُونَ بِهِ

وَالْعَادَةُ اَنْ يَذْكُرَ اَلشَّاعِرُ مَا قَطَعَ مِنَ اَلْمَفَاوِزِ وَمَا اَنْضَى مِنَ اَلرَّكَائِبِ وَمَا تَجَشَّمَ مِنْ هَوْلِ اَللَّيْلِ وَسَهَرِهِ وَطُولِ اَلنَّهَارِ وَهَجِيرِهِ وَقِلَّةِ اَلْمَاءِ وَغُؤُورِهِ. ثُمَّ يَخْرُجَ اِلَى مَدْحِ اَلْمَقْصُودِ لِيُوجِبَ عَلَيْهِ حَقَّ اَلْقَصْدِ وَذِمَامَ اَلْقَاصِدِ وَيَسْتَحِقَّ مِنْهُ اَلْمُكَافَاةَ. وَكَانُوا قَدِيمًا اَصْحَابَ خِيَامٍ يَنْتَقِلُونَ مِنْ مَوْضِعٍ اِلَى آخَرَ فَلِذٰلِكَ كَانَ اَوَّلُ مَا يَبْتَدِئُونَ اَشْعَارَهُمْ بِذِكْرِ اَلدِّيَارِ وَتِلْكَ دِيَارُهُمْ وَلَيْسَتْ كَاَبْنِيَةِ اَلْحَاضِرَةِ فَلَا مَعْنَى لِذِكْرِ اَلْحَضَرِيِّ اَلدِّيَارَ اِلَّا مَجَازًا لِاَنَّ اَلْحَاضِرَةَ لَا تَنْسِفُهَا

ٱلرِّيحُ وَلَا تَنحُوهَا إِلَّا أَنْ يَكُونَ ذٰلِكَ بَعْدَ زَمَانٍ طَوِيلٍ لَا يُمكِنُ أَنْ يَعِيشَهُ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ هٰذَا ٱلْجِيلِ وَأَحْسَنُ مَا ٱسْتَعْمَلَهُ ٱلْمُوَلَّدُونَ ٱلْمُحْدَثُونَ مَا نَاسَبَ قَوْلَ ٱبْنِ ٱلرُّومِيِّ :

سَقَى ٱللهُ قَصْرًا بِٱلرُّصَافَةِ شَاقَنِي   بِأَعْلَاهُ قَصْرِيُّ ٱلدِّيَارِ رُصَافِي
أَشَارَ بِقُضْبَانٍ مِنَ ٱلدُّرِّ قُمِّعَتْ   يَوَاقِيتَ حُمْرًا فَٱسْتَبَاحَ عَفَافِي

وَكَانَتْ دَوَابُّهُمُ ٱلْإِبِلَ لِكَثْرَتِهَا وَعَدَمِ غَيْرِهَا وَصَبْرِهَا عَلَى ٱلتَّعَبِ وَقِلَّةِ ٱلْمَاءِ وَٱلْعَلَفِ فَلِهٰذَا أَيْضًا خَصُّوهَا بِٱلذِّكْرِ دُونَ غَيْرِهَا وَلَمْ يَكُنْ أَحَدُهُمْ يَرْضَى بِٱلْكَذِبِ فَيَصِفَ مَا لَيْسَ عِنْدَهُ كَمَا يَفْعَلُ ٱلْمُحْدَثُونَ أَلَا تَرَى ٱمْرَأَ ٱلْقَيْسِ لَمَّا كَانَ مَلِكًا كَيْفَ ذَكَرَ خَيْلَ ٱلْبَرِيدِ وَٱلْفُرَانِقِ عَلَى أَنَّهُ لَمْ يَسْتَغْنِ عَنْ ذِكْرِ ٱلْإِبِلِ لِلْعَادَةِ ٱلَّتِي جَرَتْ عَلَى أَلْسِنَتِهِمْ فَقَالَ يَصِفُ رَحِيلَهُ إِلَى قَيْصَرَ:

إِذَا قُلْتُ رَوِّحْنَا أَرَنَّ فُرَانِقٌ
عَلَى هَزِجٍ وَاهِي ٱلْأَبَاجِلِ أَبْتَرَا
عَلَى كُلِّ مَقْصُوصِ ٱلذُّنَابَى مُعَاوِدٍ
بَرِيدَ ٱلسُّرَى بِٱللَّيْلِ مِنْ خَيْلِ بَرْبَرَا
إِذَا زُعْتَهُ مِنْ جَانِبَيْهِ كِلَيْهِمَا
مَشَى ٱلْهَيْدَبَى فِي دَفِّهِ ثُمَّ فَرْفَرَا

كَانَتِ ٱلْخَيْلُ ٱلْبَرْبَرِيَّةُ تُهْلَبُ أَذْنَابُهَا كَٱلْبِغَالِ لِتَدْخُلَ مَدَاخِلَهَا فِي خِدْمَةِ ٱلْبَرِيدِ وَلِيُعْلَمَ أَنَّهَا لِلْمَلِكِ . وَقَالَ ٱبْنُ مَيَّادَةَ فِي ٱبْنِ هُبَيْرَةَ لَمَّا كَانَ أَمِيرًا:

جاءت بِهِ مُعتجِرًا بِبُرْدِهِ سفواء تَرْدِي بِنَسيجِ وَحْدِهِ
تَقْدَحُ قَيْسٌ كُلُّهَا بِزَنْدِهِ

اِلَّا انَّ مِنْهُمْ مَنْ خَالَفَ هٰذَا كُلَّهُ فوصف انَّهُ قصد المَمْدوحَ راجِلًا اما اِخبارًا بِالصِدقِ وَاِمَّا تعاطِي صَعْلَكَةٍ . قَالَ ابو نُوَاسٍ لِلفضلِ بْنِ يَحْيَى :

اِلَيكَ ابا العَبَّاسِ مِنْ بَيْنِ مَنْ مَشَى
عَلَيْهَا امتَطَيْنَا الحَضْرَمِيَّ المُلَسَّنَا
قَلَائِصُ لَمْ تَعرِفْ حَنِينًا عَلَى طَلًا
وَلَمْ تَدْرِ مَا قَرْعُ الفَنِيقِ وَلَا الهَنَا

فذَكَرَ انَّ قَلَائِصَهُمُ الَّتِي امتَطَوْا اِلَيهِ مَشْدُودَةٌ بِالنِعَالِ وَاخرَجَهُ كَمَا تَرَى مُخْرَجَ اللُغزِ وَاتَّبَعَهُ ابو الطَّيِّبِ فَقَالَ :

لَا نَاقَتِي تَحمِلُ الرَّدِيفَ وَلَا بِالسَّوْطِ يَوْمَ الرِّهَانِ اجهَدُهَا
شِرَاكُهَا كُورُهَا وَمِشْفَرُهَا زِمَامُهَا وَالشُسُوعُ مِقْوَدُهَا

وَقَالَ كَرَّةً أُخرَى فِي مِثْلِ ذٰلِكَ يَتَشَكَّى :

وَمَهْمَهٍ جُبْتُهُ عَلَى قَدَمِي تَعجِزُ عَنْهُ العَرَامِسُ الذُّلُلُ

وَلَوْ شَاءَ قَائِلٌ اَنْ يَقُولَ فَاِنَّ ابا نُوَاسٍ لَمْ يُرِدْ مَا ذَهَبَ اِلَيهِ ابو الطَّيِّبِ لٰكِنْ ارادَ انَّهُ مَعَهُ فِي بَلَدٍ وَاحِدٍ قَصَدَهُ فِي حَاجَتِهِ مُحتَذِيًا نَعْلَيهِ لَكانَ اظهرَ وَجهًا مَا لَمْ يَكُنِ الحَضْرَمِيُّ مِنَ الجُلُودِ مَخْصُوصًا بِهِ المُسافِرُ دُونَ الحَاضِرِ . وَظَاهِرُ الكَلامِ انَّ مَقْصِدَ الشَّاعِرَيْنِ وَاحِدٌ . وَقَدْ ذَكَرَ ابو الطَّيِّبِ الخَيلَ فِي كَثِيرٍ مِنْ شِعْرِهِ

وَكَانَ يُؤْثِرُهَا عَلَى ٱلْإِبِلِ لِمَا يَقُومُ فِي نَفْسِهِ مِنَ ٱلتَّهَيُّبِ بِذِكْرِ ٱلْخَيْلِ وَتَعَاطِي ٱلشَّجَاعَةِ . فَقَالَ يَذْكُرُ قُدُومَهُ إِلَى مِصْرَ عَلَى خَوْفٍ مِنْ سَيْفِ ٱلدَّوْلَةِ :

وَيَوْمٍ كَلَيْلِ ٱلْعَاشِقِينَ كَمَنْتُهُ
أُرَاقِبُ فِيهِ ٱلشَّمْسَ أَيَّانَ تَغْرُبُ
وَعَيْنِي إِلَى أُذْنِي أَغَرَّ كَأَنَّهُ
مِنَ ٱللَّيْلِ بَاقٍ بَيْنَ عَيْنَيْهِ كَوْكَبُ

وَلَيْسَ مِنْ عَادَةِ بَلَدِنَا خَاصَّةً شَيْءٌ مِنْ هٰذَا كُلِّهِ إِلَّا مَا يُعَدُّ قِلَّةً فَالْوَاجِبُ ٱجْتِنَابُهُ إِلَّا مَا كَانَ مِنْهُ حَقِيقَةً لَاسِيَّمَا إِذَا كَانَ ٱلْمَادِحُ مِنْ سُكَّانِ بَلَدِ ٱلْمَمْدُوحِ يَرَاهُ فِي أَكْثَرِ أَوْقَاتِهِ فَمَا أَقْبَحَ ذِكْرَ ٱلنَّاقَةِ وَٱلْفَلَاةِ

وَمِنَ ٱلشُّعَرَاءِ مَنْ يَهْجُمُ عَلَى مَا يُرِيدُهُ مُكَافَحَةً وَذٰلِكَ عِنْدَهُمْ هُوَ ٱلْوَثْبُ وَٱلْبَتْرُ وَٱلْقَطْعُ وَٱلْكَسْعُ وَٱلِٱقْتِضَابُ كُلُّ ذٰلِكَ يُقَالُ وَٱلْقَصِيدَةُ إِذَا كَانَتْ عَلَى تِلْكَ ٱلْحَالِ بَتْرَاءُ كَٱلْخُطْبَةِ ٱلْبَتْرَاءِ وَٱلْقَطْعَاءِ وَهِيَ ٱلَّتِي لَا يُبْتَدَأُ فِيهَا بِحَمْدِ ٱللهِ عَلَى عَادَتِهِمْ فِي ٱلْخُطَبِ كَمَا قَالَ أَبُو ٱلطَّيِّبِ « إِذَا كَانَ مَدْحٌ فَالنَّسِيبُ ٱلْمُقَدَّمُ » فَأَنْكَرُوا ٱلنَّسِيبَ وَزَعَمُوا أَنَّ أَوَّلَ مَنْ فَتَحَ هٰذَا ٱلْبَابَ وَفَتَقَ هٰذَا ٱلْمَعْنَى أَبُو نُوَاسٍ بِقَوْلِهِ « لَا تَبْكِ لَيْلَى وَلَا تَطْرَبْ إِلَى هِنْدِ » وَقَوْلِهِ عِنْدَ ٱلْحَاتِمِيِّ فِيمَا رَوَى بَعْضُ أَشْيَاخِهِ أَفْضَلُ ٱبْتِدَاءٍ صَنَعَهُ شَاعِرٌ مِنَ ٱلْقُدَمَاءِ وَٱلْمُحْدَثِينَ :

أَعِزْ شِعْرَكَ ٱلْأَطْلَالَ وَٱلْمَنْزِلَ ٱلْقَفْرَا
فَقَدْ طَالَ مَا اِنْ رَابَهُ نَعْتُكَ ٱلْخَمْرَا
دَعَانِي اِلَى نَعْتِ ٱلطُّلُولِ مُسَلَّطٌ
يَضِيقُ ذِرَاعِي اَنْ اَرُدَّ لَهُ اَمْرَا
فَسَمْعًا اَمِيرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَطَاعَةً
وَاِنْ كُنْتَ قَدْ جَشَّمْتَنِي مَرْكَبًا وَعْرَا

فَجَاءَ هُوَ بِاَنْ وَصَفَ ٱلْاَطْلَالَ وَٱلْقَفْرَ اِنَّمَا هُوَ مِنْ خَشْيَةِ ٱلْاِمَامِ وَاِلَّا فَهُوَ عِنْدَهُ فَرَاغٌ وَجَهْلٌ. وَاِنَّ فِي ٱللِّسَانِ وَكَثْرَةِ وُلُوعِهِ بِٱلشَّيْءِ لَشَاهِدًا عَدْلًا لَا تُرَدُّ شَهَادَتُهُ وَقَدْ قَالَ اَبُو تَمَّام « لِسَانُ ٱلْمَرْءِ مِنْ خَدَمِ ٱلْفُؤَادَا » وَمِنْ عُيُوبِ هٰذَا ٱلْبَابِ اَنْ يَكُونَ ٱلنَّسِيبُ كَثِيرًا وَٱلْمَدِيحُ قَلِيلًا كَمَا يَصْنَعُ بَعْضُ اَهْلِ وَقْتِنَا

وَمِنَ ٱلشُّعَرَاءِ مَنْ لَا يُجِيدُ ٱلْاِبْتِدَاءَ وَلَا يَتَكَلَّفُ لَهُ ثُمَّ يُجِيدُ بَاقِيَ ٱلْقَصِيدَةِ وَاَكْثَرُهُمْ فِعْلًا لِذٰلِكَ ٱلْبُحْتُرِيُّ كَانَ يَصْنَعُ ٱلْاِبْتِدَاءَ سَهْلًا وَيَأْتِي بِهِ عَفْوًا وَكُلَّمَا تَمَادَى قَوِيَ كَلَامُهُ وَلَهُ مِنْ جَيِّدِ ٱلْاِبْتِدَاآتِ كَثِيرٌ لِكَثْرَةِ شِعْرِهِ وَٱلْغَالِبُ عَلَيْهِ مَا قَدَّمْتُ غَيْرَ اَنَّ ٱلْقَاضِيَ ٱلْجُرْجَانِيَّ فَضَلَ بِجُودَةِ ٱلْاِسْتِهْلَالِ وَهُوَ ٱلْاِبْتِدَاءُ عَلَى اَبِي تَمَّامٍ وَاَبِي ٱلطَّيِّبِ وَقَدْ فَضَاهُمَا بِٱلْخُرُوجِ وَٱلْخَاتِمَةِ وَلَسْتُ اَرَى لِذٰلِكَ وَجْهًا اِلَّا كَثْرَةَ شِعْرِهِ كَمَا قَدَّمْتُ فَاِنَّهُ لَوْ حَاسَبَهُمَا اَبْتِدَاءً جَيِّدًا بِاَبْتِدَاءٍ لَاَرْبَى وَقَصَّرَا عَنْ عَدَدِهِ

وَاَمَّا ٱلْحَاتِمِيُّ فَاِنَّهُ يَغُضُّ مِنْ اَبِي عِبَادَةَ غَضًّا شَدِيدًا وَيَجُورُ

عَلَيْهِ جوزًا بَيّنًا لا يُقْبَلُ مِنْهُ وَلَا يُسَلَّمُ إِلَيْهِ . وَكَانَ أَبُو تَمَّامٍ فَخْمَ الِابْتِدَاءِ لَهُ رَوْعَةٌ وَعَلَيْهِ أُبَّهَةٌ كَقَوْلِهِ:

اَلْحَقُّ أَبْلَجُ وَالسُّيوفُ عَوَارٍ   فَحَذَارِ مِنْ أَسَدِ الْعَرِينِ حَذَارِ

وَقَوْلِهِ أَيْضًا:

اَلسَّيْفُ أَصْدَقُ إِنْبَاءً مِنَ الْكُتُبِ

فِي حَدِّهِ الْحَدُّ بَيْنَ الْجِدِّ وَاللَّعِبِ

وَقَوْلِهِ « يَا رَبْعُ لَوْ رَبَعُوا عَلَى ابْنِ هُمُومِ » وَالْغَالِبُ تَحْتَ اللَّفْظِ وَجَهَارَةُ الِابْتِدَاءِ

وَكَانَ أَبُو الْقَاسِمِ الْحَسَنُ بْنُ بِشْرٍ الْآمِدِيُّ يُفَضِّلُ ابْتِدَاآتِ الْبُحْتُرِيِّ جِدًّا وَهُوَ الَّذِي وَضَعَ كِتَابَ الْمُوَازَنَةِ وَالتَّرْجِيحِ بَيْنَ الطَّائِيَّيْنِ وَنَوَّهَ فِيهِ بِالْبُحْتُرِيِّ أَعْظَمَ تَنْوِيهٍ وَمِنْ جَيِّدِ ابْتِدَاآتِهِ قَوْلُهُ:

عَارَضْنَا أُصُلًا فَقُلْنَا الرَّبْرَبُ   حَتَّى أَضَاءَ الْأُقْحُوَانُ الْأَشْنَبُ

وَقَوْلُهُ « ضَمَانٌ عَلَى عَيْنَيْكَ أَنِّي لَا أَسْلُو » وَقَوْلُهُ « نَرَى عِنْدَهُمْ عِلْمًا بِشَجْوِي وَأَدْمُعِي » فَأَمَّا الْخُرُوجُ فَهُوَ عِنْدَهُمْ شَبِيهٌ بِالِاسْتِطْرَادِ وَلَيْسَ بِهِ لِأَنَّ الْخُرُوجَ إِنَّمَا هُوَ أَنْ تَخْرُجَ مِنْ نَسِيبٍ إِلَى مَدْحٍ أَوْ غَيْرِهِ بِلُطْفِ تَحَيُّلٍ ثُمَّ تَتَمَادَى فِيمَا خَرَجْتَ إِلَيْهِ كَقَوْلِ أَبِي عِبَادَةَ الْبُحْتُرِيِّ:

سُقِيَتْ رُبَاكَ بِكُلِّ غَيْثٍ جَاعِلٍ   مِنْ وَبْلِهِ حَقًّا لَهَا مَعْلُومَا

وَلَوَ انَّنِي أُعْطِيتُ فِيهِنَّ الْمُنَى   لَسَقَيْتُهُنَّ بِكَفِّ إِبْرٰهِيمَا

وَاكْثَرُ ٱلنَّاسِ ٱسْتِعْمَالًا لِهٰذَا ٱلفَنِّ ابُو ٱلطَّيِّبِ فَإِنَّهُ مَا يَكَادُ يَشِذُّ عَنْهُ حَتَّى رُبَّمَا قَبُحَ سُقُوطُهُ فِيهِ نَحْوَ قَوْلِهِ:

هَا فَٱنْظُرِي اوْ فَظُنِّي بِي تَرَيْ حُرَقًا
مَنْ لَمْ يَذُقْ طَرَفًا مِنْهَا فَقَدْ وَأَلَا
عَلَّ ٱلْأَمِيرَ يَرَى ذُلِّي فَيَشْفَعَ لِي
إِلَى ٱلَّتِي تَرَكَتْنِي فِي ٱلْهَوَى مَثَلَا

فَقَدْ تَمَنَّى انْ يَكُونَ ٱلْأَمِيرُ لَهُ قَوَّادًا وَلَيْسَ هٰذَا مِنْ قَوْلِ ابِي نُوَاسٍ:

سَأَشْكُو إِلَى ٱلْفَضْلِ بْنِ يَحْيَى بْنِ خَالِدٍ هَوَانَا لَعَلَّ ٱلْفَضْلَ يَجْمَعُ بَيْنَنَا

فِي شَيْءٍ لِأَنَّ ابَا نُوَاسٍ قَالَ: يَجْمَعُ بَيْنَنَا ثُمَّ اتْبَعَ ذٰلِكَ ذِكْرَ ٱلْمَاءِ وَٱلسَّحَابَةِ فَقَالَ:

امِيرٌ رَأَيْتُ ٱلْمَالَ فِي نَقَمَاتِهِ ذَلِيلًا مَهِينَ ٱلنَّفْسِ بِٱلضَّيْمِ مُوقِنَا

وَكَأَنَّهُ اشَارَ إِلَى انَّ جَمْعَهُ بَيْنَهُمَا بِٱلْمَالِ خَاصَّةً يَفْضُلُ عَلَيْهِ وَيُجْزِلُ عَطِيَّتَهُ فَيَتَزَوَّجُهَا اوْ يَتَسَرَّاهَا. وَابُو ٱلطَّيِّبِ قَالَ لِيَشْفَعَ وَٱلشَّفَاعَةُ رَغْبَةٌ وَسُؤَالٌ. ثُمَّ اتْبَعَ بَيْتَهُ بِمَا هُوَ مُقَوٍّ لِمَعْنَاهُ فِي ٱلْقِيَادَةِ فَقَالَ:

ايْقَنْتُ انَّ سَعِيدًا طَالِبٌ بِدَمِي لَمَّا بَصُرْتُ بِهِ بِٱلرُّمْحِ مُعْتَقِلَا

فَدَلَّ عَلَى انَّهُ يَشْفَعُ فَإِنْ اجِيبَ إِلَى مُسَاعَدَةِ ابِي ٱلطَّيِّبِ فَذَاكَ وَإِلَّا رَجَعَ إِلَى ٱلْقَهْرِ وَٱلَّذِي يُشَاكِلُ قَوْلَ ابِي نُوَاسٍ قَوْلُهُ:

احِبُّ ٱلَّذِي فِي ٱلْبَدْرِ مِنْهُ مَشَابِهٌ
وَاشْكُو إِلَى مَنْ لَا يُصَابُ لَهُ شَكْلُ

فلفظة الشكوى تحمل عنه كما حملت عن ابي نواس

واولى الشعر بان يسمى تخلصاً ما تخلص فيه الشاعر عن معنى الى معنى ثم عاد الى الاول واخذ في غيره ثم رجع الى ما كان فيه كقول النابغة الذبياني آخر نسيب قصيدة اعتذر بها الى النعمان :

فكفكفت مني عبرة فرددتها
على النحر منها مستهل ودامع
على حين عاتبت المشيب على الصبى
وقلت الما اصح والشيب وازع

ثم تخلص الى الاعتذار فقال :

ولكن هما دون ذلك داخلا مكان الشغاف تبتغيه الاصابع
وعيد ابي قابوس في غير كنهه اتاني ودوني راكس فالضواجع

ثم وصف حاله عند ما سمع منه ذلك فقال :

فبت كاني ساورتني ضئيلة من الرقش في انيابها السم ناقع
يسهد من ليل التمام سليمها لحلي النساء في يديه قعاقع

فوصف الحية والسليم الذي شبه نفسه به ما شاء ثم تخلص من الذي كان فيه فقال :

اتاني ابيت اللعن انك لمتني وتلك التي تستك منها المسامع

ثم اطرد له القول ما شاء من تخلص الى تخلص حتى انقضت القصيدة وهو ما اشرت اليه غير خاف ان شاء الله تعالى. وقد

يَقعُ مِنْ هٰـذَا ٱلنَّوعِ شَيْءٌ يَعتَرِضُ فِي وَسْطِ ٱلتَّشبِيبِ مِنْ مَدْحِ مَنْ يُرِيدُ ٱلشَّاعِرُ مَدحَهُ بِتِلْكَ ٱلقَصِيدَةِ ثُمَّ يَعُودُ بَعدَ ذٰلِكَ إِلَى مَا كَانَ فِيهِ مِنَ ٱلنَّسِيبِ ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى ٱلْمَدْحِ كَمَا فَعَلَ وَمِنْ قَوْلِ أَبِي تَمَّامٍ بِمَدْحِهِ ٱلَّذِي تَمَادَى فِيهِ مُنْقَطِعًا وَذٰلِكَ فِي وَسْطِ ٱلنَّسِيبِ مِنْ قَصِيدَةٍ :

لَا وَٱلَّذِي هُوَ عَالِمٌ أَنَّ ٱلنَّوَى
مُرٌّ وَأَنَّ أَبَا ٱلْحُسَيْنِ كَرِيمُ
مَا زُلْتُ عَنْ سَنَنِ ٱلْوِدَادِ وَلَا غَدَتْ
نَفْسِي عَلَى إِلْفٍ سِوَاكَ تَحُومُ

ثُمَّ قَالَ بَعدَ ذٰلِكَ :

بِمُحَمَّدِ بْنِ ٱلْهَيْثَمِ بْنِ شَبَانَةٍ مَجْدٌ إِلَى جَنْبِ ٱلسِّمَاكِ مُقِيمُ

وَيُسَمَّى هٰذَا ٱلنَّوعُ ٱلْإِلْمَامَ. وَكَانَتِ ٱلعَرَبُ لَا تَذْهَبُ هٰـذِهِ ٱلْمَذَاهِبَ فِي ٱلْخُرُوجِ إِلَى ٱلْمَدْحِ بَلْ يَقُولُونَ بَعدَ فَرَاغِهِمْ مِنْ نَعْتِ ٱلْإِبِلِ وَذِكْرِ ٱلْقِفَارِ وَمَا هُمْ بِسَبِيلِهِ دَعْ ذَا وَعَدِّ عَنْ ذَا وَيَأْخُذُونَ فِيمَا يُرِيدُونَ أَوْ يَأْتُونَ بِإِنَّ ٱلْمُشَدَّدَةِ ٱبْتِدَاءَ ٱلْكَلَامِ ٱلَّذِي يَقْصِدُونَهُ وَإِذَا لَمْ يَكُنْ خُرُوجُ ٱلشَّاعِرِ إِلَى ٱلْمَدْحِ مُتَّصِلًا بِمَا قَبْلَهُ وَلَا مُنْفَصِلًا بِقَوْلِهِ: دَعْ ذَا وَعَدِّ عَنْ ذَا وَنَحْوِ ذٰلِكَ سُمِّيَ طَفْرًا وَٱنْقِطَاعًا. وَكَانَ ٱلْبُحْتُرِيُّ كَثِيرًا مَا يَأْتِي بِهِ كَقَوْلِهِ:

لَوْلَا ٱلرَّجَاءُ لَمُتُّ مِنْ أَلَمِ ٱلْهَوَى لٰكِنَّ قَلْبِي بِٱلرَّجَاءِ مُوَكَّلُ
إِنَّ ٱلرَّعِيَّةَ لَمْ تَزَلْ فِي سِيرَةٍ مَحْمُودَةٍ مُذْ سَاسَهَا ٱلْمُتَوَكِّلُ

وَرُبَّمَا قَالُوا بَعْدَ صِفَةِ ٱلنَّاقَةِ وَٱلْمَفَازَةِ إِلَى فُلَانٍ قَصَدْتُ وَحَتَّى نَزَلْتُ بِفِنَاءِ فُلَانٍ وَمَا شَاكَلَ ذٰلِكَ . وَامَّا ٱلِٱنْتِهَاءُ فَهُوَ قَاعِدَةُ ٱلْقَصِيدَةِ وَآخِرُ مَا يَبْقَى مِنْهَا فِي ٱلْاَسْمَاعِ وَسَبِيلُهُ اَنْ يَكُونَ مُحْكَمًا لَا يُمْكِنُ ٱلزِّيَادَةُ عَلَيْهِ وَلَا يَأْتِي بَعْدَهُ اَحْسَنُ مِنْهُ . وَاِذَا كَانَ اَوَّلُ ٱلشِّعْرِ مِفْتَاحًا لَهُ وَجَبَ اَنْ يَكُونَ آخِرُهُ قُفْلًا عَلَيْهِ . وَقَدْ اَرْبَى اَبُو ٱلطَّيِّبِ عَلَى كُلِّ شَاعِرٍ فِي جُودَةِ هٰذِهِ ٱلْاَبْوَابِ ٱلثَّلَاثَةِ اِلَّا اَنَّهُ رُبَّمَا عَقَّدَ اَوَائِلَ ٱلْاَشْعَارِ ثِقَةً بِنَفْسِهِ وَاِغْرَابًا عَلَى ٱلنَّاسِ كَقَوْلِهِ اَوَّلَ قَصِيدَةٍ :

وَفَاؤُكُمَا كَٱلرَّبْعِ اَشْجَاهُ طَاسِمُهْ بِاَنْ تُسْعِدَا وَٱلدَّمْعُ اَشْفَاهُ سَاجِمُهْ

فَاِنَّ هٰذَا يَحْتَاجُ ٱلْاَصْمَعِيُّ اِلَى اَنْ يُفَسِّرَ مَعْنَاهُ . وَيَقَعُ لَهُ فِي ٱلْخُرُوجِ مَا كَانَ تَرْكُهُ اَوْلَى بِهِ وَاَشْعَرَ لَهُ وَاِنَّمَا اَدْخَلَهُ فِيهِ حُبُّ ٱلْاِغْرَابِ فِي بَابِ ٱلتَّوْلِيدِ حَتَّى جَاءَ بِٱلْغَثِّ ٱلْبَارِدِ وَٱلتَّشْنِيعِ ٱلْمُتَكَلَّفِ نَحْوَ قَوْلِهِ :

اُحِبُّكَ اَوْ يَقُولُوا جَرَّ نَمْلٌ ثَبِيرًا وَٱبْنُ اِبْرٰهِيمَ رَيْعَا

فَهٰذَا مِنَ ٱلْبَشَاعَةِ وَمِنَ ٱلشَّنَاعَةِ بِحَيْثُ لَا يَخْفَى عَلَى اَحَدٍ . وَمَا اَظُنُّهُ سَرَقَ هٰذَا ٱلْمَعْنَى ٱلشَّرِيفَ اِلَّا مِنْ كِذْبَةٍ كَانَ اَوْرَدَهَا اَبُو ٱلْعَنْبَسِ ٱلصَّيْمَرِيُّ عَلَى لِسَانِ رَجُلٍ فَزَعَمَ اَنَّهُ قَالَ : رَاَيْتُ رَجُلًا نَامَ فَجَرَّهُ ٱلنَّمْلُ ثَلَاثَةَ فَرَاسِخَ . وَقَدْ جَعَلَ اَبُو ٱلطَّيِّبِ مَكَانَ ٱلرَّجُلِ جَبَلًا وَاِنْ عَلِمْنَا ٱلْاِغْرَابَ فِي مُرَادِهِ وَلَفْظِهِ . وَقَالَ اَيْضًا :

اَعَزُّ مَكَانٍ فِي ٱلدُّنَا سَرْجُ سَابِحٍ وَخَيْرُ جَلِيسٍ فِي ٱلزَّمَانِ كِتَابُ

وَبَحْرُ ابُو ٱلْمِسْكِ ٱلْخِضَمُّ ٱلَّذِي لَهُ ... عَلَى كُلِّ بَحْرٍ زَخْرَةٌ وَعُبَابُ

يُرِيدُ وَخَيْرُ بَحْرٍ ابُو ٱلْمِسْكِ وَهٰذِهِ غَايَةُ ٱلتَّصَنُّعِ وَٱلتَّكَلُّفِ. وَمِنَ ٱلْعَرَبِ مَنْ يَخْتِمُ ٱلْقَصِيدَةَ فَيَقْطَعُهَا وَٱلنَّفْسُ بِهَا مُتَعَلِّقَةٌ وَفِيهَا رَاغِبَةٌ وَلَهَا مُشْتَهِيَةٌ وَيَبْقَى ٱلْكَلَامُ مَنْثُورًا كَأَنَّهُ لَمْ يَتَعَمَّدْ جَعْلَهُ خَاتِمَةً كُلُّ ذٰلِكَ رَغْبَةٌ فِي اخْذِ ٱلْعَفْوِ الَا تَرَى مُعَلَّقَةَ امْرِئِ ٱلْقَيْسِ كَيْفَ خَتَمَهَا بِقَوْلِهِ يَصِفُ ٱلسَّيْلَ عَنْ شِدَّةِ ٱلْمَطَرِ:

كَأَنَّ ٱلسِّبَاعَ فِيهِ غَرْقَى غُدَيَّةً ... بِأَرْجَائِهِ ٱلْقُصْوَى عَنَابِيشُ عُنْصُلِ

فَلَمْ يَفْعَلْ لَهَا قَاعِدَةً كَمَا فَعَلَ غَيْرُهُ مِنْ اصْحَابِ ٱلْمُعَلَّقَاتِ وَهِيَ افْضَلُهُنَّ. وَقَدْ كَرِهَ ٱلْحُذَّاقُ مِنَ ٱلشُّعَرَاءِ خَتْمَ ٱلْقَصِيدَةِ بِٱلدُّعَاءِ لِأَنَّهُ مِنْ عَمَلِ ٱلضُّعَفِ إِلَّا لِلْمُلُوكِ فَإِنَّهُمْ يَشْتَهُونَ ذٰلِكَ كَمَا قَدَّمْتُ مَا لَمْ يَكُنْ مِنْ جِنْسِ قَوْلِ ابِي ٱلطَّيِّبِ يَذْكُرُ ٱلْخَيْلَ لِسَيْفِ ٱلدَّوْلَةِ فِي آخِرِ قَصِيدَةٍ لَهُ:

فَلَا هَجَمْتَ بِهَا إِلَّا عَلَى ظَفَرٍ ... وَلَا وَصَلْتَ بِهَا إِلَّا عَلَى امَلِ

فَإِنَّ هٰذَا يُشْبِهُ مَا ذُكِرَ عَنْ بَغِيضٍ كَانَ يُصَابِحُ ٱلْأَمِيرَ فَيَقُولُ « لَا صَبَّحَ ٱللّٰهُ ٱلْأَمِيرَ بِعَافِيَةٍ » وَيَسْكُتُ سَكْتَةً ثُمَّ يَقُولُ « إِلَّا وَمَسَّاهُ بِأَكْثَرَ مِنْهَا » وَيُمَاسِيهِ فَيَقُولُ « لَا مَسَّى ٱللّٰهُ ٱلْأَمِيرَ بِنِعْمَةٍ » ثُمَّ يَقُولُ « إِلَّا وَصَبَّحَهُ بِأَكْثَرَ مِنْهَا » وَنَحْوُ هٰذَا فَلَا يَدْعُو لَهُ حَتَّى يَدْعُوَ عَلَيْهِ وَمِثْلُ هٰذَا قَبِيحٌ لَاسِيَّمَا مِنْ مِثْلِ ابِي ٱلطَّيِّبِ



فهرس

المقالات

وجه

القسم الاول في علم الخطابة ١

الفصل الاول في تعريف الخطابة واقسامها ومنافعها ١

البحث الاوَّل في تحديد الخطابة وما تشتمل عليهِ بوجه الاجمال ١

البحث الثاني في تعريف الخطابة وموضوعها ٣

البحث الثالث في المناسبة الموجودة بين الجدل والخطابة ٤

البحث الرابع في ان الخطابة تتحرَّى للتصديق اكثر منها للتأثير ٥

البحث الخامس في فوائد علم الخطابة ٧

البحث السادس في ان الخطابة صناعة اصلها في طبع الانسان ١١

الفصل الثاني في بلاغة الخطيب ١٢

البحث الاول في تعريف البلاغة الجديرة بالخطيب ١٢

البحث الثاني في وسائل الاقناع التي يتخذها الخطيب البليغ ٢٥

الفصل الثالث في الاقاويل المقنعة ٢٨

البحث الاول في ان الخطيب لا بد لهُ للاقناع من معرفة القياس وعلم المنطق ٢٨

البحث الثاني في الطريق اي الدليل وتقسيمهِ ٣٠

البحث الثالث في المواضع ٣١

البحث الرابع في التعريف والحدّ والرسم ٣٣

البحث الخامس في الكلي والجزئي ٣٧

البحث السادس في الجنس والنوع ٣٩

البحث السابع في تعريف العلَّة والمعلول ٤١

وجه

الفصل الرابع في آداب الخطابة ٤٢

البحث الاول في آداب كلام الخطيب ٤٢

البحث الثاني في خصال الخطيب ٤٦

البحث الثالث في طباع الناس على اختلاف اطوار الحياة ٤٩

البحث الرابع في سياسة الخطيب مع الجمهور ومواخاة طباعهم ٥٢

الفصل الخامس في الاخلاق والاهواء ٥٩

البحث الاول في تعريف الاخلاق ٥٩

البحث الثاني في الاخلاق الحسنة ٦٢

البحث الثالث في الاخلاق الرديئة ٦٩

البحث الرابع في بعض الاخلاق التي تكون في بعض الناس فضيلة وفي بعضهم رذيلة ٧٤

البحث الخامس في الارتياض بمكارم الاخلاق ٧٩

الفصل السادس في تنسيق الخطابة وبيان القضية والقياس ٨٩

وجه

البحث الاول في مبادىء الخطابة والافتتاحات ٨٩

البحث الثاني في القضية والقياس ٩٠

البحث الثالث في القياس واقسامهِ وانواعهِ ٩٢

البحث الرابع في ملحقات القياس ٩٥

البحث الخامس في القياسات المستعملة في الخطابة واخصها القياس الاضماري والتمثيل ٩٧

البحث السادس في مقدمات القياسات الخطبية ١٠٢

الفصل السابع في التفنيد ١٠٨

البحث الاول في المناظرة والجدال ١٠٨

البحث الثاني في آداب المناظرة ١١١

البحث الثالث في الجوابات على الخصم ١١٤

البحث الرابع في المغالطة ١١٥

البحث الخامس في مقاطيع الكلام ١١٩

الفصل الثامن في التعبير ١٢٤

	وجه
البحث الاول في خواصّ تعبير الخطيب	١٢٤
البحث الثاني في بلاغة كلام العرب وكلام العجم	١٢٦
الفصل التاسع في اجناس الخطابة الثلاثة	١٣٧
البحث الاول في تقسيم الخطب الى ثلاثة اجناس	١٣٧
البحث الثاني في غايات الاجناس الخطبية الثلاثة وانواع مقدماتها	١٣٩
البحث الثالث في مقدمات الجنس المشوري	١٤٢
البحث الرابع في خمسة امور يدور عليها البحث في النوع المشوري وفي القياسات المختلفة بها	١٤٥
البحث الخامس في السبب الذي من اجلهِ يشير الخطيب وهو سعادة السامع وفي ماهية السعادة وانواع الخيور التي من مجموعها تتولد السعادة	١٥٠
البحث السادس في الفرق بين الخير والسعادة	١٦١
البحث السابع في اقسام الخير والسعادة	١٦٢
البحث الثامن في انهُ ينبغي للخطيب المشير ان يعرف الاشياء النافعة وفي مقابلة الخير مع النافع ومقابلة الخيور مع بعضها	١٧٢
البحث التاسع في ايثار الخيور وفي شروط تفضيل بعضها على بعض والاسباب الموجبة لذلك	١٨١
البحث العاشر في ان الخطيب المشوري ينبغي ان يعرف اصناف السياسات وفي بيان اجناس هذه السياسات الاربعة	١٩٤
البحث الحادي عشر في ما ينبغي للخطيب ان يعرفهُ في النوع التثبيتي وفي الفضيلة والنقيصة والمدح والذم وتصرُّف الخطيب فيهما وفي انواع الامور الفاضلة والناقصة	١٩٨
الفصل العاشر في انواع الخطب ومن برع فيها	٢١١
البحث الاول في خطب التهاني	٢١١
البحث الثاني في خطب التقليد	٢١٢
البحث الثالث في الارتجال والبديهة واشارات الخطيب	٢١٤

	وجه
البحث الرابع في خطب الوعاظة	٢١٦
البحث الخامس في غاية الوعظ	٢٢١
البحث السادس في فوائد الوعظ وجهل كثيرين من الخطباء في هذا الفن	٢٢٣
البحث السابع في الخطب عند العرب	٢٣١
القسم الثاني في علم الشعر	٢٤٠
الفصل الاول في تعريف الشعر وانواعه وفوائده	٢٤٠
البحث الاول في تحديد الشعر	٢٤٠
البحث الثاني في صناعة الشعر وانواع الاشعار	٢٤٣
البحث الثالث في المديح والهجو	٢٤٧
البحث الرابع في العلل المولدة للشعر	٢٤٩
البحث الخامس في وزن الشعر ولحنه	٢٥٣
البحث السادس في صناعة المديح واجزائها	٢٥٨
البحث السابع في اجزاء صناعة المديح من جهة الكمية	٢٦٦

	وجه
البحث الثامن في اسطقسات الاقاويل الشعريّة	٢٨٤
البحث التاسع في صناعة الاشعار القصصيّة	٢٩٤
البحث العاشر في كيفية التخلص الى ما يراد محاكاته	٢٩٥
البحث الحادي عشر في انواع المحاكاة غير المقبولة	٢٩٦
الفصل الثاني في معرفة الشعراء	٣٠٠
البحث الاول في القدماء من الشعراء	٣٠٠
البحث الثاني في المقلّين من الشعراء	٣١٢
البحث الثالث في المغلّبين من الشعراء	٣١٤
الفصل الثالث في فنون الشعر	٣٢١
البحث الاول في المطبوع والمصنوع	٣٢١
البحث الثاني في اقسام الشعر	٣٢٧
البحث الثالث في صناعة المديح	٣٢٩
البحث الرابع في الافتخار	٣٤٣
البحث الخامس في الرثاء	٣٤٧

	وجه
البحث السادس في الاقتضاء والاستنجاز	٣٥٤
البحث السابع في العتاب	٣٥٦
البحث الثامن في الوعيد والانذار	٣٦٢
البحث التاسع في الهجاء	٣٦٣
البحث العاشر في الاعتذار	٣٦٨
البحث الحادي عشر في سيرورة الشعر والحظوة في المدح	٣٧٢
البحث الثاني عشر في ما اشكل من المدح والهجاء	٣٧٦
البحث الثالث عشر في البديهة والارتجال	٣٨٠
البحث الرابع عشر في اداب الشعر	٣٨٥
البحث الخامس عشر في عمل الشعر وشحذ القريحة	٣٩٠
البحث السادس عشر في المقاطع والمطالع	٤٠١
البحث السابع عشر في المبتدا او الخروج والنهاية	٤٠٤

